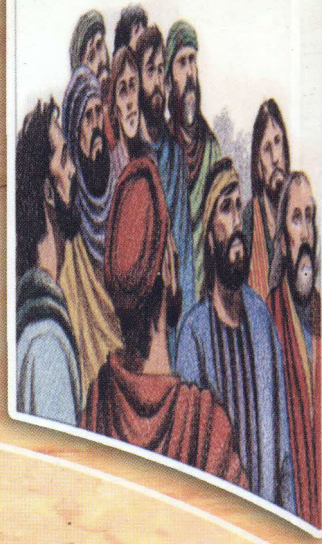

كل الرسل

في الكتاب المقدس

www.christianlib.com

بقلم
هربرت لوكير

دار الثقافة

مقدمة الدار

ما أجمل أن نتأمل في سيرة حياة وخدمة رسل المسيح ونتعرف على هؤلاء الرجال الذين غيروا مجرى حياة البشرية منذ أن بدأوا يحملون الرسالة للعالم.

هؤلاء الرسل كانوا أشخاصاً عاديين مثل باقي البشر لكنهم خضعوا ليد الفخاري الأعظم الذي جعلهم يفتنون المسكونة وصيرهم قمماً شامخة عبر العصور تهدي الإنسانية إلى طريق النور الأسمى.

هذا الكتاب يهتم بدراسة شخصيات هؤلاء الرسل ومن بينهم تلاميذ يسوع الاثنى عشر وكذلك كل الرسل الذين جاء ذكرهم في الكتاب المقدس سواء كانوا مشهورين كبولس أو غير مشهورين كأبولس ويونياس. وهو يتناول حياتهم وتاريخهم والسمات البارزة في خدمة كل منهم. وكذلك المهام التي أوكلت إليهم، والإنجازات التي حققوها كما يتطرق – في فصل مستقل – إلى دراسة بعض مما ورد في التقليد أو الأساطير بشأن خدمة الرسل وموتهم.

يمزج الكتاب بين الأسلوب الدراسي الذي يعتمد على البحث والبيانات الدقيقة وبين الأسلوب التأملي بما فيه من أحاسيس ودفقات روحية. كما يساعد القارىء على إدراك أوجه الشبه والاختلاف بينه وبين كل شخصية من هؤلاء الشخصيات، وكذلك كيف يمكن التغلب على النقاط السلبية من خلال خبرتهم المجيدة.

والكتاب ضمن حلقات سلسلة «كل» التي تتميز دراستها بالتعمق والشمول وهو خير معين لكل دارسي الكتاب المقدس ولكل من يبغي السير في درب الخدمة متتبعاً خطى الرسل في تبعية المسيح.

دار الثقافة

كل رسل الكتاب المقدس

رحلة عبر الزمان والمكان نلتقي فيها مع هؤلاء الرجال الذين اختارهم الله ليحملوا رسالته ويعلنوها إلى كل المسكونة. وبين من نتقابل معهم تلاميذ المسيح الاثنى عشر، وكذلك بقية الرسل المذكورين في الكتاب المقدس. ومن خلال هذا الكتاب نتعرف على حياتهم وسمات شخصياتهم ونتجول معهم في خدماتهم وأسفارهم.

والكاتب لا يكتفي بنقل الحقائق فقط من الكتاب المقدس، وإنما يتناولها بأسلوب أدبي جميل ذي طابع روائي مشوق لكي يرسم صورة متكاملة للشخصية تجعلنا نتلامس معها بعمق. كما أنه يقدم فصلاً خاصاً بالتقليد والأساطير التي لم يذكرها الكتاب المقدس وتناقلتها الأجيال عن حياة الرسل وخدماتهم وموتهم.

والكتاب ضمن حلقات سلسلة «كل» للكاتب الشهير هربرت لوكير والتي لاقت إقبالاً هائلاً من الجمهور المسيحي في كل مكان وخاصة من قارئنا العربي.

المحتويات

مقدمة الدار ٣
المقدمة ٧
أولاً: اختيار الاثنى عشر بناءً على الصلاة والهدف ٩
ثانياً: الإعداد المتميز للاثنى عشر ٣١
ثالثاً: تحليل لشخصيات جميع الرسل ٤٣
١- الرسل الأصليون - الاثنا عشر ٤٣
أندراوس - الرسول الذي شارك المسيح شخصياً ٤٧
برثولماوس - الرسول المشهور بشفافيته ٥٧
بطرس - الرسول الملتهب القلب ٦٩
تداوس - الرسول ذو الأسماء الثلاثة ٩٥
توما - الرسول المفترى عليه ١٠١
سمعان القانوي - الرسول الثوري ١١١
فيلبس - الرسول متبلد العقل ١١٧
متى - الرسول الذي كتب إنجيلاً عظيماً ١٢٧
يعقوب بن حلفي - الرسول الذي قدم خدمة غامضة ١٣٩
يعقوب بن زبدي - الرسول الذي لُقِبَ بالكبير ١٤٣
يهوذا الإسخريوطي - الرسول الذي قتل نفسه ١٥٥
يوحنا - الرسول الذي جسد المحبة ١٧١
٢- الرسل الآخرون - الدائرة الأكثر اتساعاً ١٨٩
أبفرودتس - الرسول الذي خاطر بكل ما عنده. ١٨٩
أبولُّوس - الرسول الذي اتسم بالفصاحة ١٩٧
أندرونكوس - الرسول ذو الشهرة ١٩٩
برنابا - رسول التعزية (ابن الوعظ) ٢٠١
بولس - الرسول الفائق ٢٠٥
تيموثاوس - البديل الجاهز ٢٢٩
سيلا - الرسول الذي ارتضى بالمركز الثاني ٢٣٩
متياس - الرسول الذي اختير بالقرعة ٢٤٧
يعقوب أخو الرب - الرسول الذي بشر بالتقوى العملية ٢٥١

يونياس – الرسول الذي امتدحه بولس ٢٥٧
رسولان لم يُذكر إسماهما ٢٥٩
الرب يسوع المسيح – رسول الرسل ٢٦١
رابعاً: التقاليد والأساطير الخاصة بأعمال الرسل وموتهم ٢٦٥
أندراوس ٢٦٦
برثولماوس ٢٦٧
برنابا ٢٦٨
بطرس ٢٦٨
بولس ٢٧٠
تداوس ٢٧١
توما ٢٧١
سمعان الغيور ٢٧٢
فيلبس ٢٧٢
متياس ٢٧٣
متى ٢٧٤
يعقوب أخو الرب ٢٧٤
يعقوب بن حلفي ٢٧٥
يعقوب بن زبدي ٢٧٥
يهوذا الإسخريوطي ٢٧٦
يوحنا ٢٧٦
ملحق ٢٧٩
قائمة بالمراجع ٢٨٧

مقدمة الكتاب

منذ مدة مضت، نشرت مجلة «الريدرز دايجست» مقالة رائعة بقلم إرنست هوزر، عن معجزة الاثنى عشر، والتي كانت تحمل هذا العنوان الفرعي: «الذين اختارهم يسوع، كانوا رسلاً لرسالة غيرت العالم». من كان هؤلاء الرجال الذين اختارهم يسوع، الذين بنيت الكاتدرائيات تكريماً لهم، والذين نسجت حولهم الأساطير بخيوط ذهبية، والذين سميت جماهير غفيرة بأسمائهم؟ وكيف استسلمت الإمبراطورية الرومانية العاتية لبشارة الفادي المفرحة القادمة من الشرق عن طريق جهودهم التبشيرية على مدى ثلاثة قرون ونصف؟

إنها حقيقة لا نستطيع إنكارها. فلا يوجد جماعة من الرجال، قل عددها أو كثر، كان لها مثل هذا التأثير الكبير على العالم مثل هذه الجماعة الصغيرة المكونة من أناس عاديين، دعاهم يسوع ودربهم وأوصاهم وزودهم بالقوة لينشروا دعوته. ولو نظرنا إليهم من الناحية البشرية، نجد أنه لم يكن لدى الاثني عشر سوى مؤهلات هزيلة تؤهلهم للقيام بالأعمال العظيمة التي كانت تنتظرهم. كان يشار إليهم بأنهم أناس «عديمي العلم وعاميين» بما يعني أنهم كانوا غير محترفين وبعيدين تماماً عن دائرة المدارس الفلسفية السائدة وقتئذ، وعن أيضاً الفكر السياسي والديني.

فبحسب الظاهر، لم تكن هناك رسالة تبدو يائسة مثل رسالتهم. ألم تكن مهمتهم محكوم عليها بالفشل، نظراً لأنهم كانوا بلا مركز اجتماعي، ولم تكن هناك مؤسسة يتبعونها، وكانوا معدمين من ناحية الثروة، ولم يكن يساندهم أحد من ذوي النفوذ والمال؟ فكيف كان بإمكانهم أن يتوقعوا النجاح في مهمة شملت العالم بأسره؟ لقد كانوا رفاقاً لرجل ولد فقيراً، وقضى معظم سني حياته مغموراً، ولم يكن له أي مركز في الحياة، ولم يكتب كتاباً، وقد أعدم كمجرم بين لصين، ولم يعش أكثر من ٣٣ سنة. كيف كان بإمكانهم أن يتوقعوا أن يكون لشهادتهم تأثير على العالم كتابعي شخص محتقر ومخذول من الناس؟ ومع ذلك فقد مضوا قدماً إلى الأمام وذهبوا لدعوة العالم للسجود عند قدميه، وقد أتى العالم ليسجد – وما زال يأتي، لأنه على الرغم من عدم تقوى عالمنا، إلا أن هناك الملايين في العالم اليوم الذين يحبون رجل الجليل هذا.

في سلسلة من المقالات التي كتبها الآن بوول لمجلة كريستيان بلندن بانجلترا منذ مدة طويلة، تحدث عن رجال العلية، فقال عنهم: «لكي ينشئوا مؤسسة جديدة في الأرض تتحدى الزمن والموت وكل قوى الجحيم، فقد تعلموا كيف يعملون من خلال البشر ومن خلال قوة الشيطان لخلق مجتمع يضم بين صفوفه أفضل العقول المستنيرة، وأسمى المثل العليا، وأقدس النفوس! وكونهم – من خلال التأثير الأخلاقي والروحي على عصرهم والعصور اللاحقة – طهروا المجتمع وأنقذوه، وخلقوا مستوى رفيعاً من الحضارة وغيروا مسار التاريخ لما يقرب من ألفي عام، فهي حقيقة لا يرقى إليها الشك».

نحن نؤمن أن الدراسة التي قمنا بها سوف تخلب ألباب جميع الذين يحبون قصة يسوع الشيقة والرجال الذين دعاهم إلى دائرة صداقته. وأن نمشي من جديد مع هؤلاء الرجال ونحن نفكر تفكيراً هادئاً مع ملاحظة دقيقة، لنرى بعيونهم، ونفكر بعقولهم، ونحلم أحلامهم، ونتوهج بحماستهم، ونلتهب بحبهم للسيد – فإن ذلك يعد امتيازاً ومتعة نتوق إليها ونرغبها. إن ذلك التأمل الخلاب ينبغي أن يدفعنا لنكون مكرسين للمسيح كما كان الرسل في عصرهم وجيلهم.

في ترنيمته الداعية إلى النضال «ابن الله يذهب إلى الحرب» يضع أمامنا الأسقف هيبر جرأة هؤلاء القديسين الأوائل الذين خاطروا بحياتهم لأجل المسيح:

جماعة مجيدة، القلة المختارة
الذين حل الروح القدس عليهم
اثنا عشر قديساً شجاعاً، كانوا على علم تام برجائهم
وقد سخروا من عقوبة الصلب ومن النيران
وواجهوا سيف الطاغية الذي يهدد به
وعُرف الأسد الجسور المثير للرعب
أحنوا أعناقهم، ليذوقوا الموت
من يسير في ركابهم؟

وبالإضافة إلى ذلك، فحيث أن الكتاب المقدس هو تاريخ حياة البشرية، فالرسل جديرون بالدراسة كممثلين لهذه البشرية. إن توماس كارليل هو الذي قال: «إن مطالعتنا لسيرة عظماء الرجال تعد صحبة مفيدة على أي حال. فنحن لا نستطيع أن نبحث، مهما كان بحثنا ناقصاً، في سيرة إنسان عظيم دون أن نكتسب منه شيئاً مفيداً. عندما نكون في معية الرسل – جميعهم – فنحن لا نكون ببساطة في معية أناس صاروا عظماء بطريقتهم الخاصة، ولكننا نكون في شركة مع بعض أعظم رجال العالم، على الرغم من أنهم كانوا مغمورين في البداية. يؤكد الدكتور ج.د جونر أنه من بين أولئك المولودين من النساء ليس هناك أعظم من «الاثنى عشر القديسين والمباركين وعندما نكون في جماعة الرسل نكون في أفضل مجتمع، ويستحيل علينا أن نصادق بطرس ويعقوب ويوحنا واندراوس وبقية الرسل دون أن نقتبس منهم شيئاً من غيرتهم وتكريسهم وحبهم المضحي وهي أشياء قد حفرت أسماءهم على أساسات أورشليم الجديدة كما جلسوا على اثنى عشر كرسياً ليدينوا أسباط إسرائيل الاثنى عشر».

إن المبشرين ومعلمي الكلمة قد أثبتوا كيف أن تقديم شخصيات الكتاب المقدس يمكن أن يجذب انتباه الجماهير. إن دكتور ف.ب. ماير، واحد من أبرز المفسرين البريطانيين في استخدام فاعلية تاريخ حياة أبطال الكتاب المقدس، أرادنا أن نعرف أنه «لضم أعضاء جدد لكنيسة يتقلص عدد أفرادها، ولكي يدب الحماس في أفراد كنيسة كثيرة العدد، ولبعث الاهتمام من جديد بالكتاب المقدس، ولمس أوتار قلوب البشر، ليس هناك شيء يمكن مقارنته بإعادة سرد قصص أبطال وقديسي الكتاب المقدس». فالمبشرون والسامعون على السواء يجدون التشجيع عند سماع أحاديث الرسل، لأنهم كانوا أناساً لهم أحاسيس مثلنا تماماً. وبرغم صفاتهم النبيلة، كانت لهم نقائصهم وضعفاتهم، كما سوف نكتشف في تصويرنا لشخصياتهم. إنهم يعكسون ما بداخل قلوبنا وحياتنا ولذا فنحن ننجذب إليهم بروح العطف فإذا كان المسيح قادراً على خلق أفضل البشر والذين لم يكونوا سوى مجرد رجال على أحسن الفروض، فإنه قادر على خلقنا من جديد واستخدامنا لمجده.

كما سمعه الرسل في القديم
بجوار بحر الجليل
وتركوا بيوتهم وتعبهم ونويهم
تاركين كل شيء لأجل محبته
هكذا يدعونا يسوع بصوت يعلو على صوت
بحر حياتنا الهائج والمتلاطمة أمواجه
ويتردد صوته الحلو يوماً وراء الآخر
قائلاً: «أيها المسيحي، اتبعني!»

أولاً: اختيار الاثنى عشر بُناءً على الصلاة والهدف

يسوع يدعو بلهجة رقيقة

يسوع يدعوك، يا أخي، إليه

تماماً كما في القديم، بجوار مياه بحر الجليل

خرجت من شفتيه الدعوة القائلة:

اتبعني!

إذ نحاول فهم حقيقة وملامح اختيار ربنا للاثنى عشر رسولاً، هناك حقيقة ثابتة يجب أن نؤكدها وهي أنه دعاهم لكي يتبعوه، ليس لاستحقاق فيهم عندما التقى بهم لأول مرة، ولكن بسبب ما يمكن أن يؤولوا إليه بفضل تعليمه وقوته. وكالنحات العظيم مايكل أنجلو، رأى يسوع التمثال الجميل في قطعة الرخام الصماء الخشنة. ونحن نجد هذه الرؤية وهذا القرار في إعلانه لبطرس «أنت سمعان بن يونا. أنت تدعي صفا الذي تفسيره بطرس» (يو ١:٤٢).

بالنسبة للعين المجردة كان يبدو كما لو أن الفخاري الإلهي قد اختار قطعة صلصال عادية ليشكل منها شهوده وعماله الأقوياء. فلو كان هناك أي شيء غير عادي فيهم، فلابد أنه كان مرئياً أمام عينيه الفاحصتين لأنه هو وحده «علم ما كان في الإنسان» وهذا «لأنه كان يعرف الجميع» (يو ٢:٢٤،٢٥). لقد اختار فلاحين من القرية، ورجالاً من المدن المجاورة، وصيادين في البحر كتلاميذه الأولين. وعلى الرغم أن معظمهم كانوا يكسبون لقمة عيشهم بالقيام بحرف عادية. وكانوا رجالاً محترمين من وجهة النظر الأخلاقية، وقد طُبعوا على التدين بطبعهم، إلا أنه لم يكن فيهم أدنى انطباع يوحي بتفوق صفاتهم أو لياقتهم للخدمة الفائقة التي كان من المفروض أن يقوموا بها. ولكن العالم كله عرف ما آلوا إليه نتيجة للمثال الذي وجدوه في يسوع وإعداده لهم، فقد أصبحوا اثنى عشر رجلاً من أقوى وأنبل الرجال المضحين الباذلين الذين لا يهابون شيئاً (فيما عدا يهوذا الإسخريوطي) ممن ظهروا على مسرح التاريخ البشري. إن التغيير الذي أجري في حياة الاثنى عشر لم يكن أقل المعجزات التي أجراها المسيح، بل كان أعظمها على الإطلاق.

لقد اختار المعلم، إذن، اثنى عشر رجلاً مغموراً ليكونوا رسله لأنه لم يكن يركز على خدمتهم وقتئذ، بل على الأعمال الباهرة التي كانوا سوف يجرونها بعد صعوده إلى السماء. كان عليهم أن يشهدوا لحقائق حياة ربهم، وموته، وقيامته (انظر لو ١:١-٢٤، يو ١٥:٢٧، أع ١:١-٣، ٢بط ١:١٦، ١يو ١:١-٣). ولأنه ليست هناك حقائق تاريخية أكثر عرضة للهجوم والتجريح من تلك المتعلقة بالمسيح. وتأسيس وامتداد كنيسته، فقد كان من الضروري أن يكون هناك شهود عيان تكون شهادتهم مقنعة بما لا يدع مجالاً للشك.

فقد وهب لهم الكثير من الأدلة الدامغة «على قيامة قائدهم من الأموات، ولأجل تأكيد ويقينية مثل هذا الإنجيل الحيوي اختار الاثنى عشر، وأعدهم بكل السبل للقيام بمهمتهم الجبارة (لو ٢٤:٤٨، ٤٩، أع ١:٨، ٢:١-٥، ٣٢، ٣٣).

والدرس العملي الذي نستخلصه من كل ذلك هو أن المهم ليس وضعنا الراهن، عندما نسمع ونستجيب لدعوة المسيح، بل ما يمكن للمسيح أن يعمله فينا بنعمته وقوته عندما نسير معه. عندما دعا يسوع أولئك التلاميذ الأوائل، قال: «اتبعني وأنا أجعلك..» فليس هناك مسيحيون

عصاميون، كونوا أنفسهم، ولكن جميعهم مسيحيون قد كونهم المسيح. والذين كونوا أنفسهم لا يكونوا دعاة من خامة جيدة، ولا يحققون إلا نجاحاً ضئيلاً، ولكن أولئك الذين يريدهم الرب ويربحهم، هم أولئك الذين يستطيع أن يجعلهم أسفاراً بشرية مقروءة لإعلان قصة حبه ونعمته. وكما عمل مع الذين جمعهم حوله في أيام تجسده، فإن تلاميذ اليوم يبدأون التلمذة باتباع المسيح والتعلم على يديه ومنه يومياً (مت ١١:٢٩)، وعندما ينمون في النعمة والمعرفة، يصبحون أكثر ملائمة لتمثيل المخلص في عالم الخطية والحاجة.

هناك عدة جوانب مفيدة يجدر أن نتأمل فيها، وهي تجذب انتباهنا فيما يتعلق باختيار الرب وتعيينه للاثنى عشر. لاحظ أن اللقاءات الأولى معه كانت تحوي عناصر المستقبل المصيري. والقرار الذي اتخذ عند ذلك المنعطف الهام في الحياة، شكَّل مسار السنوات اللاحقة وكان له السيطرة التامة عليها، لقد كانت تلك لحظات الميلاد الغامضة في التاريخ الشخصي، والتاريخ العالمي كذلك. هكذا كان الحال مع الذين نهضوا وتبعوا المسيح.

١- كان الاختيار نابعاً من إرادته العليا ووفقاً لخطته:

نحن نقرأ أن المسيح «دعا الذين أرادهم» (مر ٣:١٣). فالذين دعاهم لم يستشاروا من قبل، ولم يطلب نصيحة أي واحد فيما يتعلق بمؤهلات الذين دعاهم. كان الاختيار نابعاً من إرادته السامية وقصده. وكما تنبأ بكل الطريق الذي كان ممتداً أمامه، هكذا فإنه كان يعلم باحساس داخلي بنوعية الناس الذين كان بحاجة إليهم كشهود جديرين بالثقة لكل الدراما المقدسة في حياته، وموته، وقيامته، وصعوده، فتلك السمة المميزة هي التي تجعل من قصة الاثنى عشر شيئاً بارزاً جديراً بالذكر. كان تعيينهم مرسوماً من قبل بعناية، ومتعمداً، وهاماً جداً، وذو نتائج بعيدة المدى. وفيما يتعلق بمعرفة ربنا المسبقة، فإن مشكلة اختيار يهوذا الإسخريوطي ضمن الرسل قد بحثناها باستفاضة في معرض حديثنا عن الخائن.

٢- تم الاختيار بعد قضاء الليل بطوله في الصلاة

يخبرنا لوقا أن يسوع «خرج إلى الجبل ليصلي. وقضى الليل كله في الصلاة لله. ولما كان النهار دعا تلاميذه واختار منهم اثنى عشر الذين سماهم أيضاً رسلا» (لو ٦:١٢،١٣). نحن لا نعرف عدد التلاميذ الذين اختار منهم يسوع الاثنى عشر، وليس لدينا أدنى فكرة أيضاً عن طريقة الاختيار. ولكننا نعرف أن يسوع ظل لمدة ١٨ شهراً يعلِّم ويراقب أولئك الذين تبعوه وفقاً لعلمه وإدراكه الكاملين. وعندما شعر بضرورة وجود فعلة لمساعدته في الحصاد، خرجت من شفتيه المقدستين العديد من الصلوات بأكثر لجاجة وإلحاحاً لطلب الإرشاد الإلهي فيما يتعلق باختيار الرسل من بين تلاميذه. بعد ذلك، تركزت صلواته وطلباته على الاثنى عشر الذين اختارهم، حتى ينعزلوا عن العالم ويخصصوا ذواتهم له، ويأتوا بثمر ويدوم ثمرهم (يو ١٥:١٦-١٩).

وحتى في صلاته الشفاعية الكبرى في العلية، عندما تم كشف النقاب عن يهوذا، فإن قناعة المسيح كانت ثابتة غير مهتزة. استمع إلى نغمة اليقين في حديثه: «كانوا لك وأعطيتهم لي... ولم يهلك منهم أحد الا ابن الهلاك ليتم الكتاب» (يو ١٧:٦،١٢).

في ضوء هذا التأكيد، نرى بوضوح أن خيانة يهوذا - أبعد ما يمكن عن أن تكون سوء تقدير من جانب اختيار المسيح ليهوذا - ولكنها كانت بمثابة إعلان للأحداث التي كانت مكنونة في الإرادة الإلهية. والمصادقة على نبوة زكريا الموغلة في القدم (زك ١١:١٢،١٣). إن هذه الصلاة البارزة والتي رفعها المسيح في العلية لم تكن سوى صدى لتلك

الليلة التي قضاها مع الله على الجبل، قبل اختيار المسيح للاثنى عشر. هل يمكن أن نقول إن كل قراراتنا في الحياة تسبقها صلاة عميقة مطولة طلباً للإرشاد الإلهي؟

٣- الاختيار كان قاصراً على اثنى عشر

لماذا اختار يسوع اثنى عشر بالضبط، لا أزيد ولا أقل؟ كان ذلك العدد من الأتباع والمريدين يعد كبيراً بالنسبة لأي معلم، أن ثلاثة رجال عدد لا بأس به، وستة رجال عدد يلفت الأنظار، أما ١٢ رجلاً فعدد غير عادي. لابد أن كل قرية كانت تخرج لترى مغزى التفاف ١٢ شاباً يميز كل منهم من شخصية وهدف تحت قيادة شخص واحد. يقول الدكتور ج. إلدرجمنج Elder Geming إن اختيار ١٢ شخصاً كان شيئاً غير عادي، لأنه كان يبدو وكأنهم غير منوطين بأداء أي عمل في ذلك الوقت.

«فليس لديهم أي حرفة، وقد تركوا حرفهم التي كانوا يقومون بها: كصيد السمك، وجمع الضرائب، والزراعة. لم يكن لديهم عمل يقومون به. فكانوا يمشون حول وخلف قائدهم فقط، ويتحدثون إلى بعضهم البعض، أو يتحدثون معه، وعندما يتحدث إلى الناس الذين يبدأون في التجمهر، يستمعون شأنهم شأن الآخرين. الشيء الوحيد الذي كانوا يعملونه أن ينتقلوا من مكان إلى آخر. فهم عاطلون إذن وتثار هنا علامة استفهام بشأن ما إذا كان ذلك يتسبب في إلحاق الضرر بالآخرين، أو يدعو للقيل والقال لأن ١٢ رجلاً قد باتوا عاطلين عن العمل دون وجود مبرر لذلك، مع إهمال الواجبات الواضحة ليكونوا هكذا كان ذلك في بداية الدعوة بعد اختيار التلاميذ».

ظل تلاميذ المسيح فترة من الزمن يتهذبون أو يتعلمون وكان عليهم أن يتعلموا قبل أن يعلِّموا الأخرين، ومن ثم بدأوا يرقبون المسيح عن كثب عندما بدأوا في اتباعه. ولكن ما هي الدلالة من وراء عدد التلاميذ المختارين، بالإضافة إلى نوعية الرجال الذين اختارهم؟ إن العدد ١٢ هو العدد الذي يدل على اكتمال السلطة الحكومية، ولذا فلم تكن مصادفة أن يختار مثل هذا العدد. يقول الدكتور صموئيل شادويك «إن حقيقة أن يسوع عين ١٢ يعتبر مثالاً واضحاً على أسباط أمة جديدة، وشعب متميز آخر» لقد جاء كالمسيا وصلب حتى يأتي بأمة روحية إلى الوجود (إش ٦١:١١-١٠) لم يأت قبل المسيح معلم آخر تجاسر على تأكيد مثل هذا الإدعاء.

في التعامل مع الدلالة الرمزية لعدد جماعة الرسل يقول أ.ب بروس في كتابه الخالد «تدريب الاثنى عشر».

«إن هذا العدد يعبر بلغة الأرقام في نغمة تبعث على السرور على ما قاله يسوع عن نفسه، وما جاء لكي يفعله، وبذلك فهو يقدم سنداً للإيمان وحافزاً لتكريس تابعيه. إنه إشارة واضحة بأن يسوع كان ملك إسرائيل والمسيا الإلهي، وأنه قد جاء ليؤسس ملكوتاً كان الأنبياء قد بشروا بقدومه بلهجة حارة وقد أوصت به تلك الأيام العطرة في تاريخ إسرائيل، عندما كانت الحكومة الدينية سبباً في وحدة الأمة، وكانت كل الأسباط الاثنى عشر متحدة تحت اللواء الملكي لبيت داود. وكون العدد ١٢ قصد به أن يكون غامض المعنى يتضح من كلمات المسيح نفسه للرسل في مناسبة لاحقة، عندما كان يصف لهم المكافأت التي تنتظرهم في الملكوت لأجل الخدمات السابقة التي قدموها والتضحيات التي بذلوها حين قال «الحق أقول لكم إنكم أنتم الذين تبعتموني في التجديد متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده تجلسون أنتم أيضاً على اثنى عشر كرسياً تدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر» (مت ١٩:٢٨).

فحص القادة الدينيون في ذلك العصر النبوات وأقوال الأنبياء بعقول تترقب علامات أزمنتهم (يو ١:١٩)، وكان

يبدو كما لو أن المسيح كان يشكل جاذبية مباشرة وإلهاماً لخيالهم وإيمانهم، كان يشارك فيه الاثنى عشر. لذا فقد كانت الأفكار متوجهة نحو هذا العدد، ليس فقط من نحو الآباء، ولكن أيضاً من نحو الكلمة النبوية، الأكيدة، والتي ربطتهم بشخص يستحيل أن يكذب. كان هذا الشخص مرساة مؤتمنة للاثنى عشر مكنتهم من التغلب على تلك العواطف الهوجاء، والتي هبت عليهم فيما بعد، بقوة إعصار هائل.

توجد أربعة سجلات مقدمة في العهد الجديد لأسماء الاثنى عشر رسولاً: ثلاثة منها موجودة في الأناجيل، وواحد في سفر أعمال الرسل. وتكشف القائمة التالية اختلاف ترتيب الاسماء:

متى	مرقس	لوقا	أعمال الرسل
سمعان بطرس	سمعان بطرس	سمعان بطرس	بطرس
أندراوس	يعقوب	أندراوس	يعقوب
يعقوب بن زبدي	يوحنا	يعقوب	يوحنا
يوحنا	أندراوس	يوحنا	أندراوس
فيلبس	فيلبس	فيلبس	فيلبس
برثولماوس	برثولماوس	برثولماوس	توما
متى	متى	متى	برثولماوس
توما	توما	توما	متى
متى	يعقوب	يعقوب بن حلفي	يعقوب بن حلفى
يعقوب بن حلفي	تداوس	سمعان الغيور	سمعان الغيور
لباوس أو تداوس	سمعان القانوي	يهوذا أخو يعقوب	يهوذا أخو يعقوب
سمعان القانوي	يهوذا الإسخريوطي	يهوذا الإسخريوطي	متياس
يهوذا الإسخريوطي	(١٩-١٦:٣)	(١٦-١٤:٦)	(٢٦-١٣:١)
(٤-٢:١٠)			

من السمات المميزة لقوائم الأناجيل أن بطرس أبرز شخصية بين الاثنى عشر يأتي دائماً في المقدمة، بينما ينهي يهوذا الإسخريوطي القوائم الثلاثه الأولى مع ذكر اللقب المخزى الملتصق به «الذي أسلمه» ويذكر عدة لاهوتيين الأسماء مرتبطة بالدور الرسولي لكل منهم ويقسموهم إلى مجموعات أو ثنائيات. ويستعير أ.ب بروس، ألقاباً مميزة من تاريخ الإنجيل بصورة عامة، ويعطينا التقسيمات التالية:

المجموعة الأولى

سمعان بطرس	الرجل الصخرة
أندراوس	أخو بطرس
يعقوب	ابنا زبدي
و	و
يوحنا	ابنا الرعد

المجموعة الثانية

فيلبس	السائل المتحمس
برثولماوس أو	الإسرائيلي الذي
نثنائيل	لاغش فيه
توما	الشكاك
متى	العشار (كما سمى نفسه)

المجموعة الثالثة

يعقوب بن حلفى	يعقوب الصغير؟ (مر ١٥: ٤٠)
لباوس أو تداوس أو يهوذا	التلميذ ذو الثلاثة أسماء
أخو يعقوب	
سمعان	الغيور
يهوذا الإسخريوطي	الذي باع سيده

يرى دانيل ماكلين إنه مما يلفت الانتباه أن قوائم الأسماء تكاد تكون هي نفسها في كل البشائر ويقول «من الواضح أن التصنيف يستند إلى ترتيب الاستحقاق أو التفوق في الخدمة في ملكوت النور والحق. وكان التفوق يستند إلى الشخصية والقدرة والقيام بالواجب، ولم يكن للمحسوبية أي مكان، وكانت عائلة المسيح هي الأقل شهرة في التاريخ. وثمة أربعة صيادين بسطاء على المرتبة الأولى من التمييز. كان مقياس المسيح هو الشخصية وليس الحالة الاجتماعية، وحتى أفقر الناس اضطروا للاعتراف بذلك». إن الرصيد الذي في البنك، وليس الشخصية يضع الكثيرين على رأس القائمة في مجتمعنا البشري، ولكن عند اختيار الاثنى عشر، سار يسوع على النقيض من التقرير العالمي للأهمية والنفوذ، باتباع طريقة للتميز مبنية على المباديء الأخلاقية والروحية.

٤- الاختيار كشف اثنى عشر شخصاً نموذجياً

لم تكن دعوة المسيح للاثنى عشر مبنية على أسباب منطقية ومتعقلة، وإلا ما كانت اشتملت القائمة على عشار، هذا بخلاف الإسخريوطي. وإزاء هذا التجاهل الغريب للحكمة العالمية نجد، على النقيض، في ذلك الاتجاه تأثير الحكمة الإلهية في تقوية الإيمان وكشف الرياء. فلنفرض أن المعلم قد كون كنيسته الأولى من أناس مثقفين وأغنياء، ذوي طبائع نادرة وعالية المستوى - أناس لا يشكون فيما يقوله ولا يهربون من الخطر، أو يتصرفون بناء على دوافع دنيا بالرغم من وجود الدوافع النبيلة. كم كانت ستكون خسارتنا كبيرة! فالرسل بالنسبة لنا لم يكونوا رجالاً يتميزون بقدرات خارقة، ليست لهم علاقة بضعفاتنا، وتجاربنا والصعوبات التي نتعرض لها. فقد اختار يسوع اثنى عشر شخصاً عادياً مثلنا. وعندما ندرس شخصياتهم، نعرف بالبداهة أنهم عظم من عظامنا.

قال الرسول بولس «ليس كثيرون حكماء حسب الجسد ليس كثيرون أقوياء ليس كثيرون شرفاء».. شكراً لله، لأن البعض قد دعوا، وكان بولس واحداً منهم، ولكن على العموم، فالحكماء والشرفاء لا يشعرون بحاجتهم للمخلص، كما يشعر عامة الناس. ولذلك فقائمة الاثني عشر تخلو من اسم رجل من الشرفاء أو معلم من معلمي اليهود، أو رجلاً ثرياً. ولو كان الشاب الغني على استعداد لاتباع المسيح، لكان في مقدوره أن يكون رسولاً. لقد اختار يسوع أناساً ودعاء كصيادي السمك - متضعين يكتنفهم الغموض - لأنهم أفضل من كان يمكنه اختيارهم. ومع ذلك، فربما برغم حالتهم المتضعة، ما كان يمكن العثور على من هو أفضل منهم. ولأن الله يخفي عن الحكماء ما يعلنه للأطفال، فقد اختار أولئك الذين كانوا فقراء وقابلين للتعليم كالطين الذي يشكل منه أسمى العبقريات الروحانية، تماماً، كما فعل فيما بعد، حين اختار مودي وسبرجن وبنيان - وقد كانوا رجالاً ذوي قدرات روحية هائلة مع أنهم كانوا لا يحملون أي قدر من التعليم الجامعي (الذي لا يمكن الاقلال

من شأنه).

والسطور التي كتبها ج.ب.س ستريكلاند في هذا الصدد تصلح لهذه المناسبة.

غير متعلمين مع أنهم حكماء
في أهم الأشياء.
رجال الله هؤلاء كانوا شجعاناً
بين الآلاف المؤلفة من البشر
وقد أثبتوا أنهم كانوا
مع ذاك الذي مات
ولأجل العالم الخاطيء
قد صلب
وبفضل قربهم منه
دانت لهم الحكمة
التي أثبتت كفاءتها
في مواجهة ذلك العمل الشاق
لأنهم كانوا مع يسوع
وسمعوه وهو يتكلم
وعرفوا قيمته
وأسلوبه في الوداعة
ولكنهم علموا فوق كل شيء أنه
قد أتى من الله
وباتباعهم إثر خطوات سيدهم المقام
ازدادوا معرفة، ولكنها لم تكن
معرفة مستقاة من الأرض

لذلك فالاثنا عشر الذين اختارهم المسيح، كانوا اثنى عشر رجلاً، ويتميزون بقدر كبير من الخلاف والتنوع في الطباع والميول، لم يكونوا اثنى عشر نسخة متكررة، واثنى عشر جهازا متشابهاً. واثنى عشر تمثالاً من الجص وضعوا فوق قالب واحد. فلا واحد منهم يذكرنا بشخص آخر. كل واحد منهم يبرز بشخصيته المتميزة. فعلى سبيل المثال، كان بطرس مندفعاً وواثقاً من نفسه، ولكن أندراوس أخاه، يحرص على المكوث في الخلف وليس فضوليا. ويعقوب شبيه بالبركان، ولكن نثنائيل مثل بركة ماء هادئة صيفاً. وكان فيلبس دائماً يقدر لرجله موضعها قبل الخطو بعكس بطرس. بعضهم ولد ليتولى زمام القيادة، والبعض الآخر كان قانعاً بالانقياد.

اختير هؤلاء الاثنا عشر كممثلين على نطاق ضيق لكل الجنس البشري، الذي يحوي تفاوتاً كبيراً في الأنماط. كم كان العالم مملاً لو أن كل ما فيه من أفراد كانوا متشابهين في كل شيء! وكون الله يحب التنوع نراه ماثلاً في كل شيء في الطبيعة كما هو بين البشر. اقترح بعضهم أنه باختيار الاثنى عشر، كان المسيح يجري تجربة على كل الجنس البشري، فما دام في مقدوره أن يأتي بهؤلاء الاثنى عشر ليكونوا تحت سلطانه ويخضعهم للتشبه به في صفاته، لكان ذلك دليلاً على أن كل البشر يمكن أن يخضعوا لهذا السلطان، وفي ذلك إعلان نبوي على أن خلاصه متاح لجميع الطبقات على اختلاف مشاربها وسجاياها. والاختيار كان دليلاً أيضاً على أن يسوع كان مستعداً وقادراً في نفس الوقت على توظيف كل أنواع المواهب وكل الطبائع لخدمته. ولاشك أنه لو كان الاختيار بيدنا، لتركنا عدداً كبيراً من الاثنى عشر، واخترنا آخرين، فليس كل القادة على استعداد لاختيار أندراوس الخجول، ولا توما الشكاك، ولا فيلبس المتردد ضمن أتباعهم. ولكن يسوع، الذي جاء كابن الإنسان وعلم ما كان في الإنسان، كان لديه متسع لكل العينات في شركته وخدمته. فكل الشخصيات سواء كانت بارزة أم نكرة، يمكن أن يصوغها الفخاري الأعظم من جديد ويجعلها قادرة بالله على هدم حصون العدو.

قال يسوع «كل من يأتي إلي لا أخرجه خارجاً» وقائمة الاثنى عشر تكفي لإثبات محبته التي تحتضن الجميع، وأنه ليس لديه محاباة لأحد، وأن الناس من مختلف الطباع والمزودين بكل أنواع المواهب يجدون لديه ترحيباً دون تمييز. وقد أوضح أكثر من كاتب الفروق التي لا تنتهي بين الرسل.

فبالنسبة لاختلاف الأمزجة نجد مثالاً في بطرس ويوحنا.

بطرس – رجل الأفعال – الجسور، المندفع، ذو الروح الوثابة الحماسية.

يوحنا – رجل الصلاة – صاحب القلب المحب، والشخص الهادىء الكثير التأمل.

وكمثال على الاختلاف في المواهب الروحية لدينا برثولماوس وتوما.

برثولماوس، أو نثنائيل – كان مبادراً إلى الإيمان وعلى استعداد للاعتراف.

توما، كان كثير الشك ولا يقبل شهادة الآخرين بسرعة.

ونجد مثلاً على الاختلاف في الآراء السياسية بشكل صارخ وعنيف في التناقض بين متى وسمعان القانوي.

كان متى عشاراً، أو جابياً للضرائب، خادماً للحاكم الروماني، وكان يرتدي الزي الرسمي لخادم روما.

وكان سمعان غيوراً، متمرداً ضد روماً، كان سيفه مسلولاً ضدها وكان يكره جمع الضرائب لها.

لقد جذب المسيح إليه الناس من جميع الألوان – الأبيض والأسود والأحمر والأصفر – على مر العصور، جذب أناساً مختلفين كأغسطينوس وبنيان، أناساً من جميع الديانات كما جمع أناساً لا يؤمنون بأي دين. لديه متسع للكل وفي خدمته هناك تنوع في الوحدة.

تظهر أسماء الاثنى عشر على أحجار الأساس لأورشليم الجديدة التي أسهم إخلاصهم وتكريسهم في بنائها. لاشك أن الدرس الظاهر الذي نتعلمه من تنوع قائمة الرجال الذين اختارهم يسوع هو ألا نحتقر مواهب أي إنسان، ولا نجعل إنساناً يحتقر مواهبنا. هل هناك أيضاً أي دلالة في أن يطلق على الاثنى عشر لفظ جليليين؟ ثم التعرف على بطرس كجليلي من لغته (مر ١٤:٧٠)، وجموع كثيرة تبعت يسوع من الجليل (مت ٤:٢٥)، وكان ينظر إلى التلاميذ «كالرجال الجليليين» «أترى ليس جميع هؤلاء المتكلمين جليليين؟» (أع ١:١١،٢:٧). كان ينظر إلى الجليل من قبل أهل أورشليم واليهودية كإقليم يسكنه أناس «متخلفون، ضيقو الأفق وغير مهذبين».

كان أهل اليهودية يشعرون أنهم أرقى من الجليليين، وأكثر تهذيباً وتعليماً. وقد كانوا بالتأكيد أكثر محافظة في الشئون الدينية، وأكثر تمسكاً بتقاليد معلمي اليهود والنظام الكهنوتي من أهل الجليل، كان أهل الجنوب أكثر فخراً بقلوبهم وعقولهم المغلقة بعناد في وجه الأفكار الجديدة عن أهل الشمال ولذا فقد اتجه يسوع نحو الأخيرين لأنهم كانوا أفضل استعداداً لقبول تعليمه – فكانوا أقل غروراً، ولذلك كانوا أكثر قابلية للتعلم. ومع أن الجليليين ربما كانت تنقصهم الثقافة المصطنعة، التي كان يهود الجنوب يفخرون بها، إلا أنهم كانوا أذكياء ويقظين عقلياً، وعلى اتصال وثيق بعالم الأمم، كان تعليمهم أقل دقة ولكنه كان عملياً بشكل أكبر مما أهلهم بدرجة أكبر للهدف والتدريب اللذين حصلوا عليهما من رجل الجليل.

ما لا يجب أن ينسى أن اختياره قد تم بحكمة صادقة! فلكونه باراً وعادلاً، لم يكن ينقاد لمشاعر الكراهية تجاه أولئك الذين كانوا يتمتعون بامتيازات ثقافية واجتماعية، أو يظهر أي نوع من التحيز لنفر من طبقته المتواضعة. فالتحيز لإقليم معين لم يدفع يسوع لاختيار رجال بدائيين،

غير متعلمين وضعفاء، ولم يكن يحركه أي مقدار ضئيل من الحقد ضد المعرفة والثقافة أو نبل المنشأ. فلو كان أهل اليهودية أظهروا أي استعداد لقبول دعوته والإيمان به، لاختارهم، كما اختار فيما بعد الطرسوسي ذا الثقافة العبرية، والذين يشعرون بدرجة كبيرة من الكبرياء تمنعهم عن أن يكونوا تلاميذه لا يمكنهم أن يكونوا خداماً في ملكوته، ولهذا السبب فهو يتجه للرجال المتضعين الذين يمكنه أن يجعل منهم رسلاً. وكما يعبر الرسول العظيم نفسه عن ذلك بالقول: «بل اختار الله جهال العالم ليخزي الحكماء. واختار الله ضعفاء العالم ليخزي الأقوياء واختار الله أدنياء العالم والمزدرى وغير الموجود ليبطل الموجود لكي لا يفتخر كل ذي جسد أمامه» (١كو ١:٢٧-٣١، انظر مت ٢١:٣١).

فالجليليون إذن هم الذين تلقوا امتيازاتهم، وأوامرهم، وتعليماتهم بشكل جماعي وليس بحكم مراكزهم الشخصية، كما تبين التعبيرات التالية:

«دعا تلاميذه الاثنى عشر» (مت ١٠:١، مر ٦:٧).

«وأما أسماء الاثنى عشر رسولاً فهي هذه» (مت ١٠:٢)

«هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع» (مت ١١:١)

«أخذ الاثنى عشر تلميذاً على انفراد» (مت ٢٠:١٧)

«حينئذ ذهب واحد من الاثنى عشر» (مت ٢٦:١٤، ٤٧، مر ١٤:٢٠،٤٣).

«اتكأ مع الاثنى عشر» (مت ٢٦:٢٠)

«أقام اثنى عشر ليكونوا معه» (مر ٣:١٤)

«نادى الاثنى عشر» (مر ٩:٣٥، لو ٩:١)

«خرج إلى بيت عنيا مع الاثنى عشر» (مر ١١:١١)

«ولما كان المساء جاء مع الاثنى عشر» (مر ١٤:١٧)

«دعا تلاميذه واختار منهم اثنى عشر» (لو ٦:١٣)

«كان يسير.. ومعه الاثنا عشر» (لو ٨:١)

«فتقدم الاثنا عشر» (لو ٩:١٢)

«وأخذ الاثنى عشر» (لو ١٨:٣١)

«أتكأ والاثنا عشر رسولاً معه» (لو ٢٢:١٤)

«فقال يسوع للاثنى عشر» (يو ٦:٦٧)

«أليس أني أنا اخترتكم؟» (يو ٦:٧٠)

«أما توما أحد الاثنى عشر...» (يو ٢٠:٢٤)

«فدعا الاثنى عشر جمهور التلاميذ» (أع ٦:٢)

«ظهر لصفا ثم للاثنى عشر» (١كو ١٥:٥)

«أسماء رسل الخروف الاثنى عشر» (رؤ ٢١:١٤)

عندما نفكر في التلاميذ الذين ذكرت أسماؤهم، وحتى التلاميذ العديدين الذين لم تذكر أسماؤهم والذين جمعهم يسوع من حوله، يبدو أنهم مجموعات متباينة. فقد كان السبعون الذين اختارهم وأرسلهم، والذين يشكلون، كما نقول، «الإطار الخارجي» كانوا بالفعل أتباعه، ولكن لم تكن لهم نفس الصلة الحميمة التي كانت مع الآخرين، ثم لدينا الاثنا عشر، الذين اختارهم يسوع واعتمد عليهم كثيراً، أولئك الذين كانوا يشكلون «مجلس وزرائه» ولكن بين الاثني عشر، كان هناك ثلاثة، كانوا مرتبطين معاً في مناسبات عديدة، هؤلاء الثلاثة كانوا شهود عيان لجلال ربهم وتجليه. وكما ذكرنا من قبل، فإن بولس يدعو بطرس ويعقوب ويوحنا، أعمدة الكنيسة، ويمكننا أن نعتبرهم «مجلس الوزراء المصغر» للسيد وبالإضافة إلى ذلك، كان بين الثلاثة واحد كان يبدو أن له مكان الصدارة، ألا وهو يوحنا، والذي قيل عنه أيضاً «التلميذ الذي كان يسوع يحبه» وهو الذي اتكأ في حضن سيده وكان له فهم روحي أكبر لفكره من أي رسول آخر. وقد يكون ذلك أحد أسباب اختيار يوحنا ليقدم لنا «إعلان يسوع المسيح» الرائع المتضمن في آخر سفر في الكتاب المقدس.

وفيما بعد سوف نتعامل مع الاثنى عشر كل على حدة. في السابق، نظرنا إليهم كوحدة واحدة، واستطعنا أن نستجمع من العبارات المختارة، التفويض الممنوح لهم ككل، والتصريح الذي أعلنه المسيح بالهدف من اختيارهم. كانوا يكونون أخوة مترابطة كنسيج واحد. وعلى الرغم من الاختلافات التي كانت بينهم كأفراد، إلا أنهم كجماعة كانت أنظارهم متعلقة بالإنسان يسوع المسيح، كمحور للجاذبية التي تجعلهم متعلقين به، والذي لنا فيه جميعاً ميراث واحد. إنه الكرمة، ونحن الاغصان.

٥- نجم عن هذا الاختيار أن أصبح الاثنا عشر رسلاً

فهمنا للفظ رسول يعدنا للتأمل في مهمة الشخص الملقب بهذا اللقب. فالكلمة في اليونانية apo-stolos بمعنى رسول وهي مأخوذة من الكلمة اليونانية Apostello حيث Stellein تعني يرسل. وكلمة Stello تعني يرسل شخصاً في حملة أو بعثة، أو يبدأ في رحلة وكلمة Apo تعني بعيداً عن، ولذا فإن Apo-Stello تعني يرسل بعيداً، عادة لأداء مهمة ما، والـApostolos هو الشخص المرسل. وكلاً من الفعل والاسم يتردد كثيراً في العهد الجديد، والفعل يترجم عادة «يرسل» والاسم يترجم «رسول». يرد الفعل ٩٧ مرة، والاسم ٩ مرات في الأناجيل، يقول ماكلين إنه «في اللغة اليونانية الكلاسيكية كانت الكلمة قاصرة تقريباً على معنى حملة بحرية، أسطول مرسل في مهمة إلى بلد أجنبي». (١مل ١٤:٦، عب ٣:١).

واللقب Apostoloi (رسل) كان قد أعطى بمعنى خاص للاثنى عشر، على الرغم أنه لم يكن قاصراً عليهم، كما سنرى الآن. بدأت الديانة المسيحية في فلسطين كطريق أو شيعة في إطار الديانة اليهودية «حتى إذا وجد أناساً من الطريق» (أع ٩:٢، ١٦:١٧). «وحدث في ذلك الوقت شغب ليس بقليل بسبب هذا الطريق» (أع ١٩:٢٣، ٢٢:٤، ٢٤:١٤، عب ١٠:٢٠) تحدث يسوع عن نفسه بأنه هو الطريق (يو ١٤:٦). وجاء القادة أو المرسلون من هذا الطريق، أو المذهب، كانوا الرسل «الذين أرسلوا» أو المبعوثين الروحانيين. وفيما بعد، في اليهودية كان الـApostoloi (الرسل) هم المبعوثون المرسلون من قبل السلطة الكهنوتية في أورشليم لجمع الجزية المقدسة من يهود الشتات.

لم تكن الكلمة العبرية تدل على مجرد (رسول) بل (مندوب) يحمل رسالة، وعلى قدر اتساع مجال الرسالة الممنوحة له، كان يستخدم نفوذ صاحب الرسالة.

يقول التلمود «إن رسول أي شخص يمثل تماماً الشخص الذي أوفده» وبهذا المعنى كان الرسل هم الممثلين الرسميين للمسيح الذي أرسلهم «كما أرسلتني إلى العالم أرسلتهم أنا إلى العالم» (يو ١٧:١٨) هنا فالفعل (يرسل) أصل لكلمة رسول. عندما قال يسوع «دفع إليّ كل سلطان، اذهبوا..» كان يوحي بأنه كان يمنح لكل الرسل كل السلطان اللازم والنفوذ ليعملوا كمندوبين له. ولذا فقد مضوا قدماً باسمه... ولكن كما يعبر عن ذلك الدكتور ج.س لامبرت في دائرة المعارف الدولية للكتاب المقدس:

«كانت سلطة الإرسالية روحية وأخلاقية وشخصية، لم تكن رسمية، وبحسب طبيعة الموقف لم تكن قابلة للتحويل إلى الآخرين. وقد طالب بولس لنفسه استقلالاً كاملاً عن رأي كل هيئة الرسل الأوائل (غل ٢:٦،١١). وفي محاولته للتأثير على الذين تجددوا على يديه حاول جاهداً بإعلان الحق أن يمتدح نفسه لدى ضمير كل إنسان في نظر الله (٢كو ٤:٢) ليس هناك دليل على أن الرسل كانوا يمارسون كجماعة سلطة مستقلة مستبدة».

وبسبب هذه السلطة الممنوحة لهم مضى الرسل قدماً إلى أقصى البقاع، ومعهم أوراق اعتمادهم كأكفاء قادرين

على الإقناع كقدرة الرب نفسه على ذلك، إن لم يكن أكثر (مت ٢٨:١٨-٢٠، مر ١٦:١٩،٢٠، يو ١٤:١٢). أن تأسيس الكنيسة واتساع رقعتها في كل بقاع العالم كما هو مدون في سفر أعمال الرسل يثبت كيف أن المرسلين قد خلدوا عمل السيد.

ثم أن الدعوة لعمل الرسول قدمت بطرق الواعدين مختلفة. في بداية خدمته الأرضية وجد يسوع تلاميذه الواعيدين حيث كانوا يعملون جاهدين للحصول على خبزهم اليومي ودعاهم ليتبعوه (مت ١٠:١) وبعد قيامته تكررت هذه الدعوة، وأصبحت دائمة، وأخذت طابعاً عالمياً (مت ٢٨:١٩،٢٠، أع ١:٨).

دعى متياس أولاً عن طريق أخذ أصوات جماعة الأخوة بصفة عامة وبعد ذلك عن طريق القرعة (أع١:١٥-٢٦).

وتلقى بولس دعوته في رؤيا سماوية (أع ٢٦:١٧-١٩)، والتي صادقت عليها الكنيسة بعد ذلك في أنطاكية، ثم صادق عليها الروح القدس (أع ١٣:١) وقد أكد بولس بقوة أنه تلقى إرساليته من السماء مباشرة (غل ١:١).

وقد أُرسل برنابا من قبل الكنائس في أورشليم وأنطاكية (أع ١١:٢٢ . ١٣:١). وتفسر مهمة بولس وبرنابا اللقب المعطي لهما (أع ١٤:٤). فلم يكونا رسولين للكنيسة فقط بل للمسيح وللروح القدس أيضاً (١٤:٢٧).

ما هو قوام الدعوة في حقيقة الأمر؟ أليست الدعوة تشتمل على احتياج والقدرة على تلبية ذلك الاحتياج؟ لقد دُعى بولس ليكون رسولاً وعاش في عالم في حاجة ماسة إلى المسيح وقد أشفق المسيح على ذلك المتمرد الذي التقى به في ذلك الطريق إلى دمشق، وغير حياته وأمد بولس بكل القوة والسلطة اللازمين لتلبية احتياجات العالم. فالرسل إذن قد تمت دعوتهم لكي يرسلوا. يقول لوقا عن الاثنى عشر إنهم «اختيروا ليكونوا رسلاً» لقد دعوا واختيروا- لماذا؟

لقد دعوا واختيروا لا لحياة الدعة والهدوء، بل لشركة آلامه، كما يقول الدكتور ج.د جونز:

لقد دعوا حتى يرسلوا، وأرسلوا ليبشروا:
برابرة في ليكأونية
والكليتيون في سلاترا
وعابدي أرطميس في أفسس
وفلاسفة أثينا
وفيالق الجنود في روما
لقد دعوا-
ليرجموا في لسترة
ويجلدوا في فيلبي
ويسجنوا في قيصرية
وليموتوا خارج الباب

هل اختيروا لمجرد أن يكونوا مع المسيح، ويستمتعوا بشركته الحلوة المباركة؟

كلا، لقد اختيروا-
حتى يرسلوا
وخلصوا حتى يخلصوا الآخرين
وبوركوا ليكونوا بركة.
وتم فداؤهم حتى يبشروا بإنجيل الفداء.
اختيروا حتى يعلنوا اسم المسيح أمام الحكام والملوك وأمام بني إسرائيل، ويعانوا الكثير لأجل ذلك الاسم.

ما نتعثر في فهمه أن الدعوة والإرسال وجهان لعملة واحدة. عندما خلصنا المسيح لم يكن ذلك لكي نقضي كل وقتنا في شركة معه، مع أن هذه الشركة ضرورة ملحة لنا. الهدف من هذه الدعوة أن نتمم عمله، ونعلن اسمه، ونوصل رسالته، ونعلي رايته. أليس من المحزن أن نفرح بالدعوة، ونقف مكتوفي الأيدي، ونشكر الله لأننا خلصنا وننسى كل ما يتعلق بالرسالة؟ إن التلمذة يجب أن تنتهي بالإرسالية،

إننا يجب أن نكون على استعداد لأن يرسلنا السيد حيثما أراد حال أن نخلص.

وبالنسبة للرسل الأوائل يبدو كما لو كانت هناك ثلاث مراحل متتابعة في تدريبهم وتعليمهم في مدرسة المسيح، حيث أن التعبيرات المختلفة التي قيلت عنهم توحي بذلك. ألم يقل المسيح إنه لو أن الذين دعاهم تبعوه لصنع منهم رجالاً؟ لقد قيل إن المسيح خلافاً لبعض المعلمين لم يكتب كتاباً ليخلد عمله وتأثيره. لم يكن هناك ما يدعو لذلك. فالمسيح صنع رجالاً، لا كتباً. ما هي الجوانب الثلاثة في إعداد رجال الجليل لخدمة الجليلي نفسه؟

الخطوة الأولى : التلمذة

ارتباطاً بدعوة السيد في البداية «اتبعني» كانت هناك أزمة القرار الشخصي – التعهد المحدد الشخصي تجاه المسيح. ومالم نحصل على غفران حقيقي لا يمكن أن نتبعه، وعندما استجاب الذين دعاهم، أصبحوا للمسيح. في العديد من المرات يؤكد الرسول بولس أهمية الخلاص «الذي خلصنا ودعانا دعوة مقدسة» (٢تي ١:٩). التجديد يسبق الدعوة. ولا تكون الخدمة مقبولة في نظر الله ما لم يتم الخلاص أولاً. كثيرون ينشطون في مجال العمل الديني ويسعون للخدمة حتى يخلصوا – مما يعني وضع العربة أمام الحصان. نحن نخدم لأننا خلصنا ويجب أن يكون هناك التزام بمطالب المسيح قبل أن يسكب علينا قوة الروح للخدمة (٢تي ١:١٢،١٤). قدم بولس الشكر للمسيح يسوع ربه إذ جعله للخدمة – ولكن لم يحدث ذلك سوى بعد أن فهم – أول الخطاة – أن المسيح قد جاء إلى العالم ليخلصه (١تي ١:١٢-١٧).

بعد استجابة الاثنى عشر لدعوة السيد الأولى، شرعوا في التلمذة ودخلوا ما يمكن أن نطلق عليه مرحلة الاستقبال، لأنهم عندما كانوا يتحركون معه رأوا معجزاته، واستمعوا إلى كلماته العجيبة، وشعروا بلمسة حياته المكرسة وتأثيرها على حياتهم، كان عليهم أن يتعلموا من المسيح، قبل أن يعلموا الآخرين عنه. إن كلمة تلميذ تعني «متعلم» وكان التلاميذ الأوائل كالتلاميذ في المدرسة الابتدائية. ولذلك، كان أول احتكاك لهم مع المسيح كمعلمهم. لم يكن بإمكانهم أن يقوموا بعمل الرسل ما لم يتتلمذوا على يد المسيح أولاً.

ولأن المؤسس العظيم للإيمان أراد لملكوته أن يتأسس على صخرة الاقتناع العميق والراسخ في عقول نفر قليل من البشر، بدلاً من بعثرة حقيقته على «الرمال المتحركة للانطباعات السطحية السريعة الزوال على عقول الكثيرين»، كان يسوع حريصاً باذلاً أقصى الجهد في التعليم الروحي لتلاميذه، ليتأكد من دوام تأثيره. كان عليهم أن يصبحوا كمرايا مصقولة لامعة ليعكسوا صورة ربهم. ومع أن الإخلاص كان يربطهم بشخصه، إلا أنهم في أحيان كثيرة كانوا يندهشون لتعليمه، وكانوا تارة يشعرون بالسرور، وتارة أخرى يتضايقون كثيراً ويحتارون، ومع ذلك فقد كانوا على الدوام ينمون في الإيمان والمشاعر، وقد ارتفعوا فوق قيود التقليد شموخاً نحو حرية الحقيقة الحية. وإذ كانوا يتبعون السيد في حالة من الرهبة، فقد كانوا غالباً غير قادرين على التوفيق بين توقعهم للمسيا وبين اختبارهم. «أأنت هو الآتي أم ننتظر آخر؟».

وها قد أثمر نظام المدرسة، أو كما عبر عنه أ.ب بروس «تدريب الاثنى عشر». فلم يكن التدريب على العمل المستقبلي بلا نفع، أو لم يكن وقت الدراسة لشهود مجيء المسيح عبثاً حتى وإن تضايق المعلم كثيراً للتقدم البطيء لتلاميذه. بعد قضاء السنة الأولى في الاستماع والتعلم، وفي السماع والرؤية (١يو ١:١ ,٢٢)، انتقل التلاميذ بعد التدريب الذي حصلوا عليه من المدرسة وهم مستعدون

تقريباً للخدمة العملية.

الخطوة الثانية: السفارة

بعد حصول التلاميذ على التعليمات المباشرة انتقلوا لمرحلة التدريب العملي كرسل، وأصبحوا سفراء أو مرسلين للمسيح الذي قال «اذهبوا وقولوا هوذا قد اقترب ملكوت السموات». كانت مهمتهم قاصرة على «خراف بيت إسرائيل الضالة»، وكانت قاصرة أيضاً في مداها على مجيء المسيح كملك. وقد ساعدت تجاربهم العديدة عندما مضوا قدماً باسمه، على امتحان لياقتهم للمجال الأكبر من الخدمة البطولية ودعمت إيمانهم عن طريق علامات تدل على الرضا الإلهي.

في هذه المرحلة من تطوير مهارات التلاميذ تم الوصول إلى منعطف هام وذلك بأن التلاميذ الآن كانوا قد تدربوا على إعلان الحق. فبعد أن صاروا معلمين صغاراً في الملكوت، فقد تعلموا الأسرار العميقة وهم يسعون لتوصيلها إلى الآخرين. وقد حذر السيد مبعوثيه مراراً وتكراراً من عدم الحكمة وحاول أن يداوي قلة خبرتهم حتى يمكنهم التكيف من مركزهم الجديد. خلال تلك الفترة من الكرازة كان يسوع يعاملهم كما تعامل أنثى النسر صغارها إذ تدربها على الطيران. وكان القصد من مثل هذا التدريب العملي تعليمهم الانضباط وتوجيههم. وقد أتى التعليم ثماره. يصف دانيل ماكلين هذه المرحلة من الخدمة فيقول: «كانت هذه المحاولة الأولى للكرازة لمدن الجليل تجربة تعليمية، ولكنها كانت أيضاً مجهوداً ملحاً لتلبية العوز الروحي الواضح في كل مكان. ولذلك كان على الكارزين أن يكتسبوا العطف على الآخرين واختبار قوة الله لتؤيدهم حتى يستطيعوا بتبكيت عميق أن يكونوا شهوداً للمسيح عندما يغيب عن المشهد الأرضي. كانت الشفقة على الهالكين ملهمة لرسالة الاثنى عشر، وكان القصد من الاحتكاك بالهالكين تحريك دوافع الشفقة لديهم، وبذلك أمكن التوصل لكلا النتيجتين بإرسال التلاميذ لإعلان إنجيل السلام».

الخطوة الثالثة: الإرسالية

تلقت هذه المرحلة الأخيرة تأكيدها في ليلة مغادرة المسيح للأرض، فإذا كان يعلم أن مشورته الحكيمة لن تكون في خدمة خاصته فيما بعد، فقد وعدهم بحلول الروح القدس عليهم ليكون مصدراً دائماً للحكمة، والعزاء، والقوة (أع ١:٨). وباختيار التلاميذ وتعيينهم وإرسالهم كالمبشرين بالملك وبملكوته، تحولت التلمذة إلى إرسالية وأصبح مركزهم كرسل مرتبطاً بالمهمة الهائلة المنوطة بهم. لقد جلبت هذه الإرسالية معها رابطة أعمق، فلم يعودوا يرسلون كعبيد لتنفيذ أوامر سيدهم، بل أصدقاء للرب، والمشاركين له في فكره، وشركاء في هدفه لفداء العالم كله. وكنتيجة ليوم الخمسين، أصبحت هذه العلاقة أكثر حيوية وعمقاً عندما حمل الرسل ثماراً كثيرة لمجده (يو ١٥:١-٦) لدينا دليل على موقف كل منهم من الآخر تجاه بعضهم البعض كأخوة، ومساراتهم في ذلك التحالف العظيم بينهم. ووحدتهم كرابطة قليلة العدد من الأخوة ضد العالم».

وكتلاميذ، استطاع الاثنا عشر أن يفهموا فكر ورسالة معلمهم، ومضوا قدماً لإعلان الإنجيل الرسولي للمسيح باعتباره السيد والمحب للإنسان. وكأصدقاء، فقد كانوا يشاركون يسوع في أفكاره، والأهداف المرتبطة بمختاريه، وأدركوا رؤيته للنصر الآتي (إش ٤٢:٤، مت ١٢:٤٣). وكأخوة، كانوا جسداً واحداً وأظهروا العلاقات المميزة للكنيسة الرسولية: الوحدة، والصلاة، والمجاهرة، والقوة، والنعمة، والنصر (أع ١:١٤، ٢:١ ، ٤، ٤:١٣، ٣١،٣٣، ٥:١٤). وكرسل، كانوا الرابطة الحية بين ربهم المقام والملك وإرساليته لتحرير نفوس البشر من ذنوب الخطية والعبودية للشيطان.

إن السفر الخامس في العهد الجديد لا يصح أن يدعي (أعمال الرسل)، بل أعمال الروح القدس في الرسل، لأنه كان هبة الفادي لهم قبل أن يودعهم الرب وداعه الأخير الرقيق. ياله من تغيير قوي أجراه الروح في قلوب وحياة الرجال الذين كانوا قد أحسوا أن موت هذا المعلم قد بدد آمالهم المسيانية «كنا نرجو أنه هو المزمع أن يفدي إسرائيل!» (لو ٢٤:٢١). ولكن القيامة ويوم الخمسين قد حولا هؤلاء الأتباع المكتئبين إلى شهود مملؤين بالحيوية. وسفر الأعمال هو الدليل على ولائهم للوصية الإلهية، وتزكية شاملة لاختبار المعلم ورعايته لهم كرسله.

يالها من قصة مثيرة من البطولة تتكشف عندما يندمج رجال فقراء من الجليل في جماعة الرسل المجيدة، وإذا تحرروا من أغلال الحقد والشك، وارتفعوا فوق أحلام الطموحات السياسية. وامتلأوا بروح القوة، لا تخيفهم كل قوى الأرض والجحيم، ظلوا أشداء بقوة الله، ثابتين في شهادتهم لربهم المقام حتى أغلقت شفاههم نتيجة تعرضهم لموت أليم وألبسوا ثوب الاستشهاد. هل هناك سجل أكثر إثارة من ذلك، أو معجزة في تاريخ الكنيسة أكثر دلالة؟ من المستحيل أن يكون لدينا أي دليل عن حقيقة إنجيل المسيح أكثر إقناعاً مما يصوره سفر أعمال الرسل.

ولكي نختتم هذا القسم من دراستنا يجب أن نشير إلى أنه مع أن الاثنى عشر كانوا رسلاً فوق العادة، إلا أنه كانت هُناك دائرة أوسع تشملها الدعوة الرسولية. كان الاثنى عشر مع يسوع وكانت مهمتهم الخاصة هي الشهادة له، خاصة ما يتعلق بقيامته (أع ١:٨-٢١، لو ٢٤:٤٨). ولكنهم لم يكونوا الشهود الوحيدين الذين يطلق عليهم اللفظ «رسل».

بولس، الذي لم يكن ينتمي للاثنى عشر ولا إلى السبعين، قد أرسل مباشرة من قبل الرب نفسه، والذي رأه بولس في الطريق إلى دمشق، فقد دعي ليكون رسولاً (١كو ٩:١، ١٥:٨).

وبرنابا أيضاً قد حصل أيضاً على ذلك اللقب المجيد (أع ١٤:١٤، ١كو ٩:٥،٦) **واندرونكوس ويونياس**، واللذان ربما كانا من السبعين، قد أطلق عليهما أيضاً ذلك اللقب (رو ١٦:٧).

ويشار إلى **أبفرودتس** بلقب «رسولكم» (في ٢:٢٥)

وسيلا وتيموثاوس اللذان كانا رجلين يتسمان بالصفات الرسولية، قد ورد اسمهما مع بولس كرسولين (١تسي ١:١، ٦، انظر ٢كو ١:٦، كو١:١).

أبولس يبدو أن بولس أدرج أبولس ضمن الرسل الذين صاروا منظراً للعالم والملائكة والناس (١كو ٤:٦ ،٩)

يشار إلى الرب يسوع، «كالرسول» فيما يتعلق بصلته بالله (عب ٣:١، انظر يو ١٧:٣).

كان بين رسل الكنيسة الأولى، بعض الاختلافات فيما يتعلق بالمواهب الطبيعية، والمتطلبات الشخصية والخبرة، والمواهب الروحية. كان بطرس أعظم من تداوس، ويوحنا أعظم من سمعان القانوي، وبولس أعظم من كل من برنابا أو سلوانس. ولكن ليس هناك واحد يعد رسولاً بحق أعظم من الآخر. فكل واحد منهم قد أسهم بطريقته الخاصة في نشر الإنجيل، وكل واحد خدم الرب إلى الحد الأقصى من مقدرته الشخصية. هاجم بولس بعض العاملين واصفاً إياهم بأنهم «رسل كذبة» (٢كو ١١:١٣). ويتضمن اللفظ «رسالة» (أع ١:٢٥، رو ١:٥، ١كو٩:٢، غل ٢:٨) «الإرسال لتنفيذ مهمة معينة».

لم يكن الرسل، إذن، عبارة عن دائرة محدودة من الأشخاص الذين يشغلون منصباً محدداً يتسم بسلطة في الكنيسة، ولكنهم كانوا مجموعة كبيرة من الرجال المكرسين الذين يمارسون أعلى وظيفة في الخدمة النبوية (١كو

٢٨:١٢، أف ١١:٤)، كانوا جميعهم رسل الإنجيل لعالم غير مؤمن (غل ٩،٧:٢). وبمرور الوقت أطلق لفظ رسل على مجموعة كاملة من المرسلين المغمورين والمجهولين. والذين في بداية تاريخ العهد الجديد. لم يستقروا في كنيسة معينة، بل كانوا ينتقلون من مكان إلى آخر كرسل الإنجيل، والذين، بممارسة مهامهم الرسولية تحملوا المصاعب التي تحملها أولئك الذين نادوا بالإنجيل من قبلهم.

٦- كان للاختيار أهداف مثالية

بالرغم من ذكر إشارة عابرة أو اثنتين للسبب الذي دعا يسوع لاختيار الاثنى عشر، إلا أننا نأتي الآن لتسليط المزيد من الضوء على الهدف والغاية من الاختيار الذي تم. بعد اختيار يسوع لهؤلاء الرجال، كان عليهم أن يشهدوا حياته، ويكونوا رهن إشارته، ويقبلوا تعليمه، ويشاركوا في خدمته المعجزية، ويشتركوا في تحمل المصاعب التي واجهها، ويشربوا من كأسه المريرة، ويصبحوا أعمدة للهيكل الروحي الأبدي. ما الذي كان من المفروض على هؤلاء الاتباع أن يفعلوه؟ إن مرقس، الذي لم يذكر ضمن الاثنى عشر، ولكنه أعطانا أقدم الأناجيل، يصف مهامهم المثلثة، كان عليهم أن يكونوا مع يسوع، وأن يذهبوا بعيداً لإعلان رسالة الإنجيل، وأن يحوزوا «القوة (أو السلطان) على إخراج الشياطين». ولوقا (وهو شخص آخر لم يدرج اسمه بين الرسل) يخبرنا أن يسوع هو الذي اختار أسماء الاثنى عشر، فقد اختار الرسل، وأمر أن يكون «الشفاء» مهمة من المهام المنوطة بهم. كانت خدمة الرسل والتفويض الممنوح لهم بالقيام بالرسالة والمرتبطان باتباع المسيح واضحين تماماً في هذه السمات الآتية:

كان يجب عليهم أن يكونوا مع يسوع

يخبرنا مرقس أن الرب أقام الاثنى عشر ليكونوا معه (يسوع) (١٤:٣). إنهم لم يكونوا مجرد مدرسة متنقلة، يشغل فيها الرب منصب المعلم لهم، ولكنهم كانوا دائرة أصدقاء له يمكنه أن يجد فيهم الحب والشركة والصحبة والعطف. لاشك أنه لا يوجد شيء أكثر تأثيراً في سجل حياته الأرضية من رغبته في الصحبة والرفقة ففي كثير من الأحيان كان يجد نفسه وحيداً. وعندما مات، تخلى عنه الرجال الذين اختارهم كرفاق وهربوا. وفي البستان، فشلوا أن يكونوا نعم الرفاق المتعاطفين معه والذين طالما بحث عنهم. وإذ وجدهم نياماً، أصدر ذلك التوبيخ الأليم الذي يردد صدى صرخة قلب يتوق للعطف البشري، «أما قدرتم أن تسهروا معي ساعة واحدة؟». كان يسوع دائماً وأبداً يقدر المحبين الجديرين بالثقة، ومن ثم كان ذهابه إلى عائلة بيت عنيا التي كانت تعيش هناك والمكونة من مريم ومرثا ولعازر، الذين كان يسوع يحبهم. وفي العلية وفي الليلة السابقة لموته عبر عن امتنانه لخاصته الذين ثبتوا معه وكانوا معه في تجاربه بقوله: «أنتم الذين ثبتوا معي في تجاربي» (لو ٢٨:٢٢).

وهكذا، فعلى الرغم من أن أغلبية الذين آمنوا به لم يكونوا سوى أتباع موسميين فقط، إلا أن الاثنى عشر قد اختيروا ليكونوا معه في كل الأوقات وفي كل الأماكن، إذ كانوا رفاقه في السفر في كل رحلاته، معاينين كل أعماله، وكانوا ملتزمين بالوفاء بكل احتياجاته اليومية. ولكنهم كانوا أكثر من مجرد خدام متضعين له، لأنه في ظل شركة يومية حميمة معه قد أصبحوا سفراءه لعالم هالك، كانوا على وشك أن يصيروا رسلاً مهمتهم الأساسية تنحصر في الشهادة لحقيقة قوة الإيمان المسيحي.

تخيل التلاميذ وهم يتحركون من مكان إلى آخر يبدو عليهم الفقر دون حرفة ظاهرية يأكلون منها لقمة العيش، ولكن يسوع كان في وسط هذه الجماعة الصغيرة «كالكنز الذي لا ينضب معينه، ويفيض بذخائر لا تنفذ من النعمة».

من الواضح أنه كان هناك مصدر دخل مشترك لسد إعوازهم، وعندما كان (كيس نقودهم المشترك) يفرغ ويحين وقت دفع جزية غير متوقعة، أو ضريبة، كان المعلم يعرف مكان الحصول على المال اللازم (مت ١٧:٢٧). أليس من المفيد أن نربط ما بين متطلباته بأنهم «يجب أن يكونوا معه» ووعده لهم: «ها أنا معكم كل الأيام وإلى انقضاء الدهر»؟

ومثل هذه الرابطة أكثر من مجرد غريزة في الطبيعة البشرية، إنها ضرورة. في أيام جسده، استطاع يسوع أن يسأل رفاقه كما لم يستطع أن يسأل الآخرين دون أن يساء فهمه (مت ١٦:١٣-١٥). واستطاع أن يكشف من مكنونات فكره لهم كما لم يكشفها للآخرين (يو ١٥:١٥، ١٧:٨)، وكان يتوقع منهم ما لم يستطع الآخرون أن يقدموه له (مت ٢٦:٣٨-٤٠). وإذ كان يسوع ممتناً للصداقة المقدمة له، فقد أظهر تقديره لما فعله الآخرون لأجله عن طريق صلتهم به وثقتهم فيه وصحبتهم له. أليس هو هو أمساً واليوم وإلى الأبد؟

كان يتحتم عليهم أن يكرزوا

دعا المسيح الاثنى عشر «ليرسلهم ليكرزوا» (مر ٣:١٤) وكم كانوا كارزين غير خائفين ومملؤوين بالحيوية، عندما كانوا يذهبون مع معلمهم إلى كل مكان وهم يكرزون بالإنجيل! فالشركة مع أعظم كارز لكل العصور قد أعطتهم تدريباً فريداً في فن ومهارة الكرازة، ربما يكونون أناساً عاميين، ولكنهم لم يكونوا جهلة. فبعد أن أخذوا دروساً في فن الوعظ مضوا قدماً للحديث عن أسمى الموضوعات، وهم يحرضون سكان المدن الرومانية واليونانية بأن يحطموا أصنامهم، ويهجروا ديانة آبائهم، ويرفضوا تعاليم الفلسفة الوهمية، ويقبلوا بدلاً من ذلك، معلماً مرسلاً من السماء، يهودياً ذا مقام متواضع، تحمل موت العار. ونتيجة لتأثير كرازتهم المقنعة وشجاعتهم خلصت جماهير غفيرة (أع ٤:٤١، ٤:٤إلخ). كم كان من الممكن أن تحدث ثورة روحية جياشة لو أن كل من يكرز ينادي المناداة الملهمة بقوة يوم الخمسين التي تظهرها الكرازة الرسولية (يون ٢:٣). وعندما اشتهر يسوع ككارز، بعد معموديته من قبل يوحنا، كان بحاجة إلى آخرين للوصول إلى الناس. في البداية، كان يعمل وحده، وقد أحدثت كرازته إثارة كبرى لأنه لم يتكلم إنسان قط نظيره احتشد الناس لسماعه، ولكن أعماله كانت بالضرورة قاصرة على منطقة صغيرة. لم يتح سوى لمدن قليلة أن تستمتع بامتياز سماعه وهو يكرز، ولكن حيثما نظر كان يرى الحصاد وفيراً والفعلة قليلين. والآن، بعد وجود اثنى عشر كارزاً يعملون معه، استطاع التجاوب مع المطالب المتزايدة لسماع الإنجيل، ومسح من الروح ليكرز. أرسل يسوع تلاميذه، اثنين اثنين، إلى أماكن مختلفة، أساساً ليعلنوا أنه كان على وشك أن يزور تلك الأماكن، وليخبروا كل ما في استطاعتهم أن يخبروه عنه وعن هدفه وأغراضه. وعندما أصبحت مطالب الكرازة أكثر إلحاحاً لاتساع رقعة التبشير، ازداد عدد المرسلين للكرازة حتى تم إرسال سبعين تلميذا آخر ليكرزوا بالإنجيل وهكذا اتخذت أنشطة المسيح المباركة أبعاداً جديدة.

كانت التعليمات التي أعطاها يسوع للكارزين الصغار عندما أرسلهم ليكرزوا ويعملوا بكل ما تلقوه منه، مليئة بالدلالات الروحية لجميع خدام الكلمة في كل العصور. وعلى الرغم من قلة خبرتهم، إلا أنهم مضوا قدماً عند سماع أمره. وقد حذرهم ليس فقط من المخاطر التي كان عليهم مواجهتها، ولكن نبههم أيضاً لضرورة أن يتسموا بصفات معينة ضرورية للشهادة المؤثرة الفعالة. وهكذا ففي بداية مشروعهم المرسلي، ركز يسوع على الواجبات والأخطار والمكافأت المتعلقة بمهمتهم الرسولية عندما استمع الاثنا عشر إلى عظة يسوع الرائعة على الجبل،

سمعوا عن الفضائل التي يجب أن يتحلوا بها مما جعلهم يلمون جيداً بالعمل الذي دعاهم لإنجازه. يذكرنا أ.ب بروس بأن هناك عبارتين يبدو أنهما تلخصان تعليمات المسيح للاثني عشر - لا تهتموا، لا تخافوا. «هاتان العبارتان توجزان كل ما قاله كتمهيد لأول مشروع مرسلي... لأنه طبقاً لهذه الأقوال يتكلم يسوع لكل العصور ولكل الأزمنة، مخبراً الكنيسة عن طبيعة الروح الذي يجب أن تتحلى به للقيام بمشروعاتها المرسلية وتنفيذها، حتى ينال شعبها بركته».

لا تهتموا بشيء

بعد أن «تركوا بيوتهم، وأعمالهم، وذويهم» تاركين كل شيء لأجله، يكون من الطبيعي أن يتساءل الرسل عن مورد رزقهم ورزق عائلاتهم، ولكنهم اكتشفوا أن قرارهم بالتخلي عن كل شيء واتباع ذلك الشخص الغريب من الجليل لم يكن قفزة في الظلام، فالذي اختارهم سوف يعولهم، لقد جعلوا اهتمامه اهتمامهم، واهتمامهم سوف يكون اهتمامه. ولذا فقد حثهم على أن يمضوا قدما ويعملوا دون أن يهتموا بشيء معتمدين عليه في تسديد لوازم الحياة، لقد حذرهم يسوع بعبارات قوية، وحية من خطورة هموم هذه الحياة. فكان عليهم أن يمضوا قدماً دون أن يأخذوا معهم زاداً للطريق متكلين على الوعد القائل: «الله يسدد كل احتياج» ومصلين الصلاة التي علمهم السيد إياها «خبزنا كفافنا أعطنا اليوم» يمكن التعبير عن روح تعليماته وليس حرفيتها بشأن عدم التزود بشيء في رحلاتهم التبشيرية هكذا «اذهبوا وتعلموا أن تطلبوا ملكوت الله بقلب موحد، ولا تهتموا بالطعام ولا بالكساء لأنكم لا تصلحون أن تكونوا رسلى حتى تستطيعوا أن تفعلوا ذلك».

أليس هذا التوجيه بشأن الأمور الزمنية، دليلاً على أن المسيح كان يتوقع من أولئك الذين أرسلهم أن يعيشوا بالإيمان؟ وبالإضافة إلى ذلك، فلأنه تكلم هكذا، ألم يكن هناك التأكيد أنه لن يرسلهم بالمرة على سبيل المخاطرة ولكنهم يجب أن يثبتوا أن «الفاعل مستحق طعامه» (مت ١٠:١٠) . عندما ترك إبراهيم بيت أبيه وارتحل إلى بلد مجهول، تلقى الوعد بأن الله سوف يكون مرشداً له، وترسه، وعائلاً له. نفس الموقف تعرض له التلاميذ الذين قال لهم يسوع «اذهبوا في الحال، واذهبوا كما أنتم، ولا ترتبكوا بشأن الطعام والكساء، أو أي حاجة جسدية، وثقوا في الله بشأن سداد كل إعوازكم». كانت هذه التعليمات مبنية على أساس مبدأ تقسيم العمل وذلك بتخصيص القيام بالمجهود الحربي لخدام الملكوت وإعطاء الله مهمة تقديم المؤن من طعام وكساء» وعلى مر العصور كان هناك أولئك الذين أرسلهم الله للعمل لأجل خلاص النفوس الهالكة، في أرض الوطن وفي الخارج، وقد وثقوا في الله باعتباره هو المسدد لكل أعوازهم كما فعل هدسون تايلور.

ولكن يسوع لم يحث تلاميذه على السير بالإيمان دون إعطاء ذلك الإيمان ما يستند عليه. لقد وجدوا تشجيعا على ما يجعلهم يأملون أن ما لم يدبروا أمره بأنفسهم سوف يتكفل الله بتدبيره من خلال وساطة أولئك الذين أرسلوا لخدمتهم وحيثما كان يذهب الكارزون كانوا يجدون شخصاً ذا قلب حنون ومضيافاً يرحب بهم في بيته وعلى مائدته «وأية مدينة أو قرية دخلتموها فافحصوا من فيها مستحق وأقيموا هناك حتى تخرجوا» (مت ١٠:١١) وأولئك الذين، بسبب محبة الله التي انسكبت بداخلهم، استقبلوا المبشرين بالإنجيل وعاملوهم معاملة طيبة أخذوا مكافأتهم بمعرفة أنهم باستضافة الرسل فقد استضافوا بالفعل المعلم الذي أرسلهم (مت ١٠:٤٠-٤٢) ولكن في بعض الأوقات، كانوا يستقبلون استقبالاً رديئاً، ولم يكن يرحب بهم، ولكن لم يكن ذلك مدعاة لإحباطهم، حتى وإن كان وجودهم وتبشيرهم

غير مرغوب فيهما، أنهم في هذه الحالة يكونون أبرياء من دم هؤلاء المذنبين (حز ٣:١٧-٢١، مت ١٠:١٣-١٥).

عند هذه النقطة هناك ثلاث ملاحظات أريد أن أنبر عليها، ألا وهي:

١- الاستعداد

«وأوصاهم أن لا يحملوا شيئاً للطريق غير عصا فقط» (مر ٦:٨) الفكرة الرئيسية بخصوص استعدادهم ألا يحملوا سوى القليل جداً، وفي رواية إنجيل متى (١٠:١٠)، فهم ممنوعون حتى من أخذ عصاهم في الطريق، ليس هناك تعارض بين العبارتين، «إذا كان لديك عصا، خذها، وإذا لم يكن لديك واحدة، لا تتعب نفسك للحصول عليها». هذا القول يوفق ما بين الأمرين، وقائمة المحظورات كاملة تقريباً «لا خبزاً ولا كيسا ولا نحاساً في المنطقة، وقد ذكر أبسط نوع من النعال، وهو الصنادل، وتم تحذير المبشرين بالإنجيل بنوع خاص من ارتداء ثوبين، وقد كان ذلك سمة من سمات الأثرياء، كان كل شيء من أبسط الأنواع، كان عليهم أن يسافروا دون أن يحملوا أشياء كثيرة.

وهذه الأوامر الخاصة ليست نهائية فربنا نفسه قد تخلي عنها عندما قال بالفعل «حين أرسلتكم بلا كيس ولا مزود ولا أحذية هل أعوزكم شيء؟ فقالوا : لا فقال لهم لكن الآن من له كيس فليأخذه ومزود كذلك» (لو ٢٢:٣٥،٣٦).

ولكن في الحالة الأولى، كان عليهم أن يعيشوا بالإيمان فقط. كان ذلك جزءاً لا يتجزأ من تدريبهم. إن الترتيبات الزمنية تسير في توافق مع خطة ربنا المعتادة. فقد علم التلاميذ أن الله يمكنه أن يحقق أهدافه دون استخدام الوسائل المعتادة. ولكي يجعل التلاميذ واثقين من ذلك، فهو يمنع في بعض الأحيان استخدام هذه الوسائل. ولكن كقاعدة عامة فإن الله يعمل من خلال القنوات المعتادة، وإذا كانت هذه القنوات متاحة، فالمفروض أنها تستعمل.

من الواضح، أنه لا تأكيد هنا على التقشف، أو تمجيد التزمت، ولكن هناك مبدأ راسخاً بأن المنادين بإنجيل المسيح عليهم أن يجعلوا أنفسهم بعيدين بقدر الإمكان عن شراك العالم وعوائقه. إن المرسل إلى الصين والذي دخل في تجربة حرمان نفسه من كل المؤن سرعان ما اكتشف أنه كان مخطئاً. ومن الناحية الأخرى، فالخادم الذي جمع مالاً بفضل النجاح المادي، ولكنه رفض أن يقوم باستثمارات خاصة به أو يشغل نفسه بارتفاع وانخفاض الأسعار في البورصة، فإنه يمثل المبدأ المنصوص عليه هنا.

إن التمسك بالحياة البسيطة ليس قيداً طبقاً لأقوال يسوع، ففي ذلك فائدة تعود على المبشر، إذا تعلم أن يحيا الحياة الخالية من الهم عن طريق الإيمان بالله المدبر للأمور.

٢- اتخاذ الترتيبات

«حيثما دخلتم بيتاً فأقيموا فيه حتى تخرجوا من هناك» (مر ٦:١٠) ليس هناك مجال للتخلص من تدبير الطعام والمأوى. كانت تلك من مستلزمات الحياة. فطالما كانوا يجدون من يدبر لهم هذا الأمر. كان ذلك يعد كافياً. وعدم الشعور بالراحة لم يكن مبرراً للبحث عن أماكن جديدة للإقامة. كان على المرسلين أن ينهمكوا في أداء الرسالة إلى الحد الذي لا يتبقى فيه وقت لديهم للتخطيط لراحتهم الخاصة.

هناك شيء عملي يتعلق بهذا الأمر. إنه يوضح دراية يسوع الكاملة بالحياة، فمن ناحية، فهو لا يسلم بأن تلاميذه سوف ينهمكون في أداء مهمتهم السامية لدرجة تجعلهم غير قادرين على إطلاق العنان لرغباتهم وأهوائهم. فهو يشير إلى إغراء خاص سوف يتعرضون له. ومن ناحية أخرى، فهو يعرف احتياجات الجسد. إنه لا يتبنى فلسفة مبنية على التقشف تهمل المأوى والطعام وتقنع بأي نوع من

الإقامة المؤقتة. كان موقفه دائماً هكذا، كانت نصيحته عدم التركيز على الجانب الأرضي من حياتنا. فلتحسب حساباً لهذه الأشياء، ولتعمل أفضل الترتيبات التي يمكن أن تعملها دون أن تقضي جل وقتك فيها وكن قانعاً. فلتركز على الأشياء الكبرى والمهمة الملقاة عليك.

٣- طقوس الفشل

ذلك هو العنوان الشهير الذي قدمه د. أومان للممارسة التي يذكرها ربنا: «كل من لا يقبلكم ولا يسمع لكم فاخرجوا من هناك وانفضوا التراب الذي تحت أرجلكم شهادة عليهم» (مر٦:١١).

الشيء المهم أنه يتعين على الرسل أن يكونوا على استعداد لرفض رسالتهم وألا يتسرب اليأس إلى نفوسهم نتيجة لذلك. هناك حد لمسئوليتهم. عليهم أن يعرفوا أنهم مهما عملوا كل ما في وسعهم فلابد من وقوف بعض الأشخاص لهم بالمرصاد بدافع اللامبالاة والكراهية لدعوتهم. والطريقة الصحيحة لمواجهة ذلك الحقد البغيض تتلخص في جعل التحذير جاداً بقدر الإمكان. عليهم أن يعبروا عنه بالأفعال والأقوال ومدلول ذلك العمل: «لقد بذلنا كل جهدنا لأجلكم» وهو يعني أيضاً «دمكم على رؤوسكم».

هذه وصفة يجب استعمالها بحذر بالغ. وقد قدم ربنا الجانب الآخر حين قال: «كم مرة أردت أن أجمع أولادك... ولم تريدوا» يجب بذل جهود متكررة لكسب غير المبالين. ومع ذلك هناك تعليمات هنا بشأن الشهادة العصرية للمسيح، فنحن أيضاً نتعثر في أخطائنا. وليس لنا ضمير مستريح تجاههم. نحن غير متأكدين إن كانت الغلطة هي غلطتنا أم غلطة السامعين. علينا أن نحاول توضيح الموقف. ونقدم التحذير والدعوة أيضاً. والكلمة الوحيدة التي قد تيقظ بعض الناس هي أن نقول «لقد بذلت كل جهودي لأجل أن تخلص ولكنك رافض لها جميعاً سوف أتركك لضميرك».

لا تخافوا

تكررت هذه المناشدة كثيراً مثل قرار الترنيمة (مت ١٠:٢٦، ٢٨، ٣١) وعندما مضى التلاميذ قدماً لأداء رسالتهم وجدوا أنفسهم مكروهين لأجل المعلم. وفي خدمتهم المستقبلية كان عليهم مواجهة الموت بسبب إخلاصهم له. ولكن كان من الواجب عليهم ألا يخافوا من الذين يقتلون الجسد. كان المفروض عليهم أن يكونوا كخراف في وسط ذئاب، ولكن الأخطار التي تعرضوا لها لم تكن لتخلق فيهم الخوف. لقد كان معهم ذاك الذي قال إنه لن يتركهم. وكالمدبر لأمورهم قال «لا تهتموا» وكالحامي لهم قال: «لا تخافوا» (مت ١٠:١٦-١٦، عب ١٣:٦). ولمواجهة كل الأخطار، كانوا بحاجة ماسة إلى فضيلتين، وهما الحذر والأمانة، كان عليهم أن يكونوا «حكماء كالحيات وبسطاء كالحمام» (مت ١٠:١٦). هذان المخلوقان على طرفي نقيض - فالحية رمز للمكر، والحمامة تمثل البساطة، كان على التلاميذ أن يكونوا في الحال كالحيات في الحذر والحرص، وكالحمام في بساطة الهدف ونقاء القلب. سوف يجدون أنفسهم وسط الذئاب في المحاكم المدنية والدينية حيث يجب مقابلة الدهاء بدهاء مثله. ولكن كان عليهم مواجهة كل الاتهامات الحاقدة ببساطة الحمام. لم يكن عليهم أن يظهروا أي روح للتمرد بل يؤمنوا أن الله كان يتمم غرضه حتى من خلال تجاربهم، وحتى لو ماتوا لأجل الإيمان، فقد كان ينتظرهم أكليل الحياة (مت ١٠:٢٢، ٣٣، رؤ ٢:١٠).

في كتابه الرائع «تاريخي في الحروب» يصف مونتجمري القائد العام للقوات المسلحة اللورد نيلسون بطل معركة الطرف الأغر. ويقول إن التأثير الشهير المذهل لنيلسون على أتباعه ربما كان مسئولاً عن سجله الفريد في

تحقيق النجاح في المعركة بنفس القدر مثل أعماله الباهرة:

«في اللحظة التي كان يضع فيها قدمه على ظهر سفينة كانت تشع منه قوة مغناطيسية، فهناك مجموعة متنافرة من الرجال لا يجمع فيما بينهم هدف مشترك أصبحوا فريقاً من الأخوة، وكانت هذه القوة تشع فيما وراء سفينته – فكان يحس بها كل من كان موجوداً على كل سفينة من سفن الأساطيل التي كانت تأتمر بأمره وتحت قيادته».

هل كان هناك شيء كهذا يربط بين مجموعة من الرجال المتنافرين وبين المسيح كما كان يربطهم بعضهم ببعض؟ كان تأثير شخصيته على الرسل خلال الوقت الذي كانوا يرتحلون فيه سوياً، وكذلك بعد قيامته، هو الذي جعل منهم تلاميذ المسيح الذين عرفناهم. «إذ كان قد أحب خاصته الذين في العالم أحبهم إلى المنتهى» وقد استطاعوا أن يقولوا في صوت واحد «أنت تعلم كل شيء، أنت تعرف أني أحبك» لم يكن يربطهم به ولاء أعمي، فقد وجدوا فيه المسيا الذي ينتظروه، وقد أصبحوا هم خدامه من خلال المحبة.

كانت مطالبه واضحة المعالم وتتطلب الكثير من التضحية. ولكن التكريس دفع التلاميذ لاتباعه حتى نحو الاستشهاد لأجله، كانوا ملتحين ويلبسون النعال ويرتدون أردية رديئة الصنع وأغطية رأس منسدلة على الكتف كالتي يرتديها الرجال في مرتفعات الجليل اليوم، فهؤلاء الرجال الجليليون لم يكونوا مختلفين عن بقية رجال الجليل. كانوا بشراً عاديين زائلين شاركوا ربنا حياته اليومية عن كثب، وقد كان وجودهم كبشر أعزاء على قلبه مصدراً لعزاء قلبه وقد دفعه ذلك لأن يدعوهم أحباءه وليسوا عبيده».

لقد صعدت آلاف لا حصر لها سلم الصعود إلى السماء عن طريق الخطر والجهد والألم، ولكن مرتبة الشرف الأولى في الكنيسة يجب أن تخصص بالتأكيد لأولئك الرفاق المختارين من يسوع الذين أرسلهم ليكرزوا. ألا يبدو أن تكريس حياتهم للرب بإخلاص واعتمادهم عليه يقول لقلوبنا:

لا تهتموا

ألقوا بالهم جانباً، واعتمدوا على مرشدكم
فرحمته غير المحدودة سوف تقدم لكم الرجاء
ونفوسكم الواثقة سوف تثبت أن
المسيح حياتها والمسيح موضع حبها

لا تخافوا

لا تخوروا ولا تخافوا، فذراعاه قريبتان
فهو لا يتغير وأنت عزيز لديه
آمن فقط. وسوف ترى أن
المسيح هو الكل في الكل لك

كان يتحتم عليهم الاشتراك في خدمة إجراء المسيح للمعجزات

يمضي مرقس إلى القول إن يسوع اختار الاثنى عشر ليكرزوا وكذلك ليكون لهم سلطان على شفاء الأمراض وسلطان على الأرواح النجسة. لم يكن لديهم قوة في ذواتهم على إجراء المعجزات (مر ٦:٧). فقد قال يسوع «دفع إليّ كل سلطان»، ولكنه عندما أضاف قائلاً «اذهبوا» فقد ذهبوا ومعهم تفويض بالسلطان فقد كانت القدرة منطوية في الوصية «أمين هو الذي يدعوكم الذي سيفعل أيضاً». الذين أجروا المعجزات باسم المسيح لم يدّعوا أي قوة داخلية لديهم على الشفاء وإخراج الأرواح النجسة. كان الإيمان بقوته ضرورياً جداً لإجراء ما كان يعد مستحيلاً من المنظور البشري (مت ١٧:٢٠، ٢١:٢١، مر ٦:٧، يو ١٤:٢١، أع ٣:١٢،١٦، ٦:٨) فقد حصلوا على هبة بقوة جديدة. إن إخراج «الأرواح النجسة» هي المعجزة

المثالية بالنسبة لمرقس ، وهي المذكورة بالتفصيل هنا، إن قدرة المسيح على منح قوته يمكن أن يندرج تحت مسمى أعظم معجزاته «فكونه يستطيع، بكامل إرادته، أن يزود ١٢ رجلاً بهذه القوة، يعد أعظم من ناحية الدرجة، من أن يمارسها بنفسه».

لقد مضى اليوم الذي منحت فيه هذه القوة الخاصة، ولكن المبدأ يظل قائماً. إذ يستحيل على أي كارز أن يذهب للكرازة بقوته الخاصة. فما لم يعتمد على عون خاص، والذي لا يكون للمحاضر العادي أو المشتغل بالسياسة، أن يدعيه لنفسه، فإنه سوف يفشل حتماً. فعليه أن يعتمد فقط، على جاذبية المسيح والممنوحة له بالرغم أنه تلميذ ضعيف.

وتأكيد الأمر بشفاء المرضى جسدياً والمضطربين عقلياً قد أعلنه المسيح قبل صعوده (مر ١٦:١٧،١٨). ويدرج بولس موهبة الشفاء بين المواهب الروحية الممنوحة للكنيسة. وكما أن معجزات المسيح، شهدت للاهوته وأكدت ربوبيته، فقيام التلاميذ الأوائل بخدمة إجراء المعجزات أكدت إرساليتهم. وننصح القارىء بقراءة «كل معجزات الكتاب المقدس» للإلمام بمعالجة شاملة للمعجزات الرسولية. وهناك حقيقة لا ينبغي أن تغيب عن أذهاننا وهي أنه لا يوجد إنسان بشري يمكنه أن يجري المعجزات من تلقاء نفسه. فالقوة على إجراء أعمال الشفاء لا يمكن أن تمنح سوى بتفويض من الله. والبشر الذين يستخدمهم الله ما هم سوى قنوات للتدخل الإلهي (أع ٢:٤٣، ٢كو ١٢:١٢).

«فخرجوا وصاروا يكرزون أن يتوبوا. وأخرجوا شياطين كثيرة ودهنوا بزيت مرضى كثيرين فشفوهم» (مر ٦:١٢،١٣).

كانت الكرازة والشفاء يسيران جنباً إلى جنب كما يحدث في معظم الأعمال الرسولية الفعالة اليوم. كان مضمون رسالتهم يدور حول ضرورة التوبة إذا كان لابد للسامعين أن يكونوا شركاء عصر جديد. وليس هناك تقرير دقيق لنتيجة هذا الجزء من عملهم. ولكن يجدر بنا أن نتذكر موضوع كرازتهم، عندما نريد نحن أيضاً، أن نتطلع إلى عصر جديد. إن إعادة البناء من جديد تصبح عديمة الجدوى بدون التوبة. فإذا كان لابد من تقدم حقيقي، يلزم أن يكون هناك موقف جديد من الحياة، وإعادة تشكيل لنسيج المجتمع.

من المشوق أن نكتشف استعمال الرسل لطريقة طبية معتادة في ذلك العصر وهي المسحة بالزيت، عند إجراء معجزات الشفاء. والإشارة الوحيدة الأخرى لهذه الطريقة موجودة في (يع ٥:١٤). لقد تردد كثيراً من قبل البعض أن ذلك طقس قد أمر به ربنا لعلاج المرضى. ولكن لا يوجد أثر لذلك في العهد الجديد. وكلا الإشارتين يمكن تفسيرها بصورة أفضل بالنظر إلى الموضوع ببساطة كموافقة على القيام بأي وسيلة في متناول اليد لتقديم الشفاء الجسدي. وهذا لا يقلل من قيمة صلاة الإيمان. بل إنه يجب أن يجعلنا أحراراً للصلاة بإيمان أكثر. والقاعدة ثابتة دائماً «لنستنفذ الاحتمالات البشرية للموقف ثم نثق في الله فيما هو مستحيل بشرياً».

ونتيجة لهذه الممارسة فقد حدث تشجيع عظيم للرسل وامتداد للرسالة إلى آفاق أرحب. لقد تم تعلم الدرس الأول في هذه المهمة الشاقة للرسل واتخاذ الخطوة الأولى نحو القيام بعمل مستقل دون تعثر. فقد كان التلاميذ في طريقهم لأن يصبحوا رسلاً.

كان من المحتم عليهم أن يكملوا مسيرته

اختار المسيح الاثنى عشر لا ليكونوا فقط رفاقه طالما بقي على الأرض، بل أيضاً لإكمال عمله وتأثيره بعد صعوده. فبعد أن طلب منهم مساعدته في خدمته العامة، كان تفكير يسوع منصباً على خدمتهم المستقبلية بعد

رحيله عنهم. كان المسيح يعلم منذ سنواته الأولى أنه قد ولد ليموت كالفادي، وكان ظل الصليب منعكساً عليه دائماً. وهكذا، فإذ كان يدرك دائماً النهاية المريرة التي تنتظره، فقد اتخذ الإجراءات الضرورية لامتداد وانتشار العمل الذي جاء إلى العالم لإنجازه. يقول ج.د. جونز: «يسعى معظم الناس لتخليد تأثيرهم بوضع الحقيقة التي جاءوا لتعليمها في كتاب خاص». وهكذا فعل:

افلاطون إذ كتب «جمهوريته»

وأرسطو في «فلسفته»

ودانتي في قصيدته الشعرية «الكوميديا الإلهية» عن «المطهر، والجحيم، والفردوس»

وشكسبير في روايته عن «الملك لير وهملت»

وملتون في «فردوسه المفقود»

ولكن من ألهم البشر بأعظم التحف الأدبية العالمية، لم يكتب سطراً، سوى الكلمة المجهولة التي كتبها فوق الرمال، والتي سرعان ما محيت.

أي كتب كان يمكن أن يكتبها! كان يمكن أن يكون لكتبه تأثير رائع على عقول وحياة الناس على مر العصور، وظلت دليلاً حياً على فلسفته!

ولكن البشر، وليس الكتب، كانوا الوسائل المختارة لخدمة ممتدة بلا نهاية ولهذا السبب، فإنه على الرغم من موته، فهو يتكلم من خلال حياة وكتابات الرسل. إن أعظم هبة قدمها المسيح إلى العالم لم تكن فقط ما قاله، بل ما كانه وما عمله. المسيحية هي المسيح – وليست ديانة بل فادياً، ليست فكرة بل شخصاً. ولذلك فقد خلع كل ما كان يمثله في شخصه على الاثنى عشر الذين اختارهم، ومن خلالهم رأى ثمرة اختياره لهم وشبع. كان انتشار الإنجيل متوقفاً عليهم، وقد أصبحوا بداية الكنيسة المسيحية، التي مازالت تتوسع وتنتشر.

لقد سمع الرسل ما قاله يسوع «أبني كنيستي» وأكد بولس أن يعقوب وبطرس ويوحنا كانوا أعمدة هذا الصرح الروحي (غل ٢:٩)، وأن كل الرسل كانوا أيضاً أساساً لأهل بيت الله ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية (أف ٢:١٩-٢٢)، والموجز الذي يقوله أ.ب بروس مناسب جداً في هذا الصدد:

«سوف يكون الاثنا عشر من أعظم أفراد الحشد السماوي والذين وقعت قرعتهم مع ابن الإنسان، وكانوا رفاقه في رحلاته التبشيرية وتجاربه. من المرجح أنه سوف يكون في السماء كثيرون أعظم منهم في الحكمة والمعرفة وأشياء أخرى، ولكن أعظم البشر سوف يكونون على استعداد لأن يفسحوا لهم مكانة الشرف والصدارة كأول المؤمنين بيسوع، والأصدقاء الشخصيين لرجل الأوجاع، والأواني المختارة الذين حملوا اسمه إلى الأمم، وهم أول من فتحوا ملكوت السماء لكل الذين يؤمنون».

كان الرسول يوحنا على دراية بالمرتبة الرفيعة للاثنى عشر في الملكوت الأبدي، عندما قال، في وصفه لمدينة الله المقدسة أن «سور المدينة كان له اثنا عشر أساساً وعليها أسماء رسل الخروف الاثنى عشر» (رؤ ٢١:١٤). للدكتور س.د چوردن في «أحاديث هادئة عن الخدمة» وصف لافت للنظر عن يسوع وهو يمشي في الشوارع الذهبية يوماً ما، واضعاً ذراعه في ذراع الملاك جبرائيل، متحدثاً معه سراً، وبحماس. يقول جبرائيل:

– يا سيد، لقد مت نيابة عن العالم كله هناك، أليس كذلك؟

– «نعم»

– «لابد أنك عانيت كثيراً» قال جبرائيل ذلك بنظرة جادة وهو يرمق ذلك الوجه العظيم بما فيه من آثار لا تمحى.

– «نعم» جاءه الجواب مرة أخرى بصوت رائع،

وهادىء، ولكنه مليء بأعمق المشاعر.

– وهل يعرفون جميعاً كل ذلك؟

– كلا! بضع أفراد قلائل فقط في فلسطين يعلمون عن ذلك الأمر.

– حسناً، ياسيد، ما هي خطتك؟ ما الذي فعلته بشأن إخبار العالمين بأنك مت لأجلهم؟ ما هي خطتك؟

من المفروض أن يجيب السيد هكذا «طلبت من بطرس ويعقوب ويوحنا وأندراوس والمزيد منهم هناك، أن يجعلوا مهمة حياتهم أن يخبروا الآخرين، وطلبت من الآخرين أن يخبروا آخرين وآخرين غيرهم، حتى يسمع آخر إنسان في أقصى البقاع القصة ويشعر بقوتها المثيرة والتي تغير الحياة».

ويمضي جوردون إلى القول بأن جبرائيل يعرفنا هنا كبشر معرفة جيدة، فقد سبق له الاحتكاك أكثر من مرة بالأرض. إنه يعرف طبيعتنا. والمفروض أن يجيب، بنوع من المعارضة المشوبة بالتردد، كما لو كان يرى المصاعب في تنفيذ الخطة:

«نعم، ولكن افرض أن بطرس فشل. ولتفرض أنه بعد مدة وجيزة من الزمن توقف يوحنا عن إبلاغ الآخرين. ولنفرض أن أحفادهم، وخلفاءهم في القرن العشرين انشغلوا بأشياء – بعضها يستحق الانهماك، والبعض الآخر لا يستحق – لدرجة أنهم لم يبلغوا الآخرين – فماذا يحدث إذن؟»

اتسعت حدقتا عيني جبرائيل بخطورة فكرته، لأنه يفكر في – الألم ويفكر أيضاً في ما سوف يحدث للإنسان الذي لم يخبره أحد «ماذا يحدث إذن؟» يأتي ثانية ذلك الصوت العجيب، صوت يسوع الهادي.

«يا جبرائيل، لم أعد أي خطط بديلة أخرى – إني أعتمد عليهم».

صحيح أن ذلك جانب من حوار جوردون البارع الذي اشتهر به، ولكن الفكرة التي عبر عنها صحيحة. اختار يسوع الاثنى عشر ليخبروا الآخرين. لم تكن لديه خطة بديلة، وقد اعتمد عليهم لتنفيذ الهدف الذي اختارهم لأجله.

وعبقرية تلك الخطة في أنها لا يمكن أن تفشل. عندما ربح المعلم التلاميذ، خرجوا ليربحوا الآخرين بنفس المهارة الفائقة التي ربحهم بها. والأجيال المتعاقبة من التلاميذ، الملهمين بربح النفوس على المثال الرسولي الموجود في سفر أعمال الرسل، لم يفشلوا في القيام بدورهم لتنفيذ الخطة الإلهية بالوصول إلى الآخرين. والسؤال هو: «هل نحن – أنت وأنا – في العصر الذي نعيش فيه، نتبع خطته، أم نخذله؟».

ثانياً: الإعداد المتميز للاثنى عشر

دوناً عن جميع الناس من كل عصر والذين تدربوا لخدمة الكلمة، لم يحصل أحد على إعداد متميز للقيام بأسمى عمل على الأرض مثل الاثنى عشر رسولاً الذين تخرجوا من مدرسة المسيح وقد كان أهم جزء في تعليمهم لإعدادهم لمهمتهم المستقبلية يكمن في الحقيقة البسيطة أنهم قضوا ثلاث سنوات مع شخص مثل يسوع، المعلم المرسل من الله (يو ٣:٢). قد نعتبر أن التعليم الذي لقنه لتلاميذه غير منظم ويصلح لمناسبات خاصة فقط، ولذلك فهو يختلف تماماً عن التعليم المنظم والمحكم في كليات اللاهوت. ولكن، كما سنرى، فإنه بمرور الوقت الذي كان فيه يسوع مع تلاميذه، فإن تعليماً في العديد من الموضوعات وعلى أعلى مستوى من الأهمية وذا قيمة لا تقدر قد أعطى من قبل المعلم الإلهي لتلاميذه.

١- المعلم الذي علمهم

في أيام المدرسة والكلية، تتأثر العقول الطيعة للتلاميذ تأثيراً بالغاً، بطريقة أو بأخرى، بمنزلة ومكانة معلميهم. فهناك معلمون، بسبب ما حباهم الله به من شخصية فريدة ومعرفة عميقة وتعليم غير عادي، لا يؤثرون فقط على تلاميذهم بما يعادل فعل السحر، ولكنهم يشكلون حياتهم في ما تبقى من أعمارهم.

وهكذا أعد الجماعة القليلة العدد من رجال الجليل والذين تجمعوا حوله، حيث قال لهم: «تعلموا مني». وفي أكاديمية الحب التي أنشأها أعد مختاريه للمهمة التي كلفهم للقيام بها طوال حياتهم بالطريقة التي عاشها، وبالأعمال التي عملها، وبالكلمات التي نطق بها. فإذا كان عليهم أن يذهبوا «ليتلمذوا جميع الأمم» (مت ٢٨:١٩)، فمن الضروري أن يكون لهم معلم لا مثيل له.

إن سجل الأعمال الرسولية للاثنى عشر يثبت كم كان تعليم قلوبهم وعقولهم ذا كفاءة رفيعة المستوى. وحين كانوا يسترجعون أيامهم في مدرسة المسيح، كانت صيحتهم المشتركة «من مثله معلماً؟» (أي ٣٦:٢٢). كانوا قد اختبروا من مستويات مختلفة، وكانوا يمتهنون حرفاً مختلفة. لم يكن هناك اثنان متشابهان. كان كل واحد يختلف عن الآخر في المشارب، والأذواق، والأهواء، والعقلية، والشخصية، والنظرة العامة للأمور. ومع ذلك فقد جذب المعلم كل واحد من الاثنى عشر نحو شركة معه، وبعد أن تركهم بعد ثلاث سنوات، ظلوا معاً. حين كانوا معه، كان كل واحد يتلقى تعليماً فردياً وتدريباً يلائمه للقيام بعمله.

كان كل واحد منهم بالطبع بحاجة إلى تدريب وتهذيب يلائمه، ولكن المعلم، إذ كان يعرف قدرات وخصائص كل دارس، فقد وائم تعليمه وفقاً لها. كان لكل واحد منهم نقاط ضعفه وعجزه، وتكشف الأناجيل كيف نّوع يسوع من طريقته في التعامل معهم ليساعد كل فرد. بالنسبة للغرباء كان يبدو مستحيلاً أن يعلّم يسوع نوعية الأشخاص الذين اختارهم عن الطبيعة الروحية لملكوته ثم يعدهم ليكونوا كارزين لذلك الملكوت، ولكن كم كان تقدمهم رائعاً من خلال الجلوس عند قدميه!

لم يكن إعداد الاثنى عشر عملاً سهلاً، فقد فشل أكثرهم ذكاءً في فهم مغزى رسالة المسيح حتى ما بعد قيامته. كانوا بطيئي الفهم حتي أنهم لم يصدقوا كل ما قاله الأنبياء عنه. إن أي معلم جيد يشعر بالإحباط حين يفشل تلاميذه في فهم الدروس التي يعلمها، حتى أن

يسوع قال لأولئك الذين حاول أن يعدهم: «لست تعلم أنت الآن ما أنا أصنع ولكنك ستفهم فيما بعد» (يو ١٣:٧) واضطر المسيح لتوبيخ خاصته بسبب عدم إيمانهم وقساوة قلوبهم (مر ١٦:١٤). «هل أنتم أيضاً حتى الآن غير فاهمين» (مت ١٥:١٦)، إن عبارة مثل «وأما هم فلم يفهموا» (مر ٩:٣٢) توحي بأن آراءهم المسبقة قد شوشت على فهمهم الصحيح للتعليم الأساسي العظيم عن الكفارة (لو ٨:٢٤،٢٥،١٨:٣٤، ٢٤:١١).

في سير حياة الناس التقليدية يتم تسليط الضوء عادة على نقاط القوة ويتم حذف نقاط الضعف أو المرور عليها مر الكرام، ولكن فيما يتعلق بسير حياة البشر في الكتاب المقدس، فإنه يحرص على سرد قصة الحياة بحذافيرها، ولذا فإن نقائص الرسل – مع أنهم كانوا رسلاً – لا يتم تجاهلها، بل يسجل أخطاءهم ونقاط ضعفهم، كان يسوع الذي يستطيع أن يقرأهم كالكتاب المفتوح، يعرفهم بطريقة أفضل مما كانوا يعرفون هم أنفسهم. كتب ج.ج جرينهوف يقول: «كان يرى نقاط ضعفهم المستترة وعناصر القوة الكامنة. كان هناك الكثير من القش مع الحبوب القليلة من القمح مما كان يستدعي الكثير من التذرية. ولكن على قدر ثقل المهمة كانت هناك بشائر النجاح، وفي الوقت المحدد كان لحصد الثمار الوفيرة. آمن بالرجال الذين اختارهم، والأفضل من ذلك أنه كانت لديه ثقة مطلقة في قدرته الخاصة على أن يصنع منهم ما يشاء».

ومع أنهم أعلنوا عن رغبتهم في الموت من أجل معلمهم العظيم، إلا أنهم قد اتهموا بالجبن لتقاعسهم عن الوقوف إلى جانبه في آلامه، كما يشير إلى ذلك إيتون ستانارد في البيتين التاليين:

«مريم.... من استطاعت أن تواجه الأخطار، حين هرب الرسل كانت آخر من تركه عند صليبه وأول من ذهب إليه عند قبره».

قال لهم المسيح إنهم أفضل من عصافير كثيرة، وبما أنهم استودعوا حياتهم بين يديه، كان عليهم أن يمضوا قدماً بلا خوف، ولكنهم كانوا يعانون من الشك، إن الكبرياء والحقد قريبان كل منهما من الآخر، ولذا تعرضت المشاحنات الباطلة في من يكون له النصيب الأكبر من ملكوت المسيح لأشد أنواع التوبيخ في حديث المسيح لتلاميذه عن التواضع (مت ١٨:١-١٤)، فلكي تصبح عظيماً في ملكوته، يلزم أن تصبح مثل طفل صغير.

ومع أنه يبدو أنه من باب عدم الامتنان أن نفحص السجلات بحثاً عن أخطاء وعثرات الاثنى عشر، ونعترف صراحة ببعض نقائص شخصياتهم وسلوكهم، إلا أن مثل هذه الممارسة المؤلمة مطلوبة حتى كوقاية لأنفسنا وعندما نتأمل في الرسل، فردياً، نأمل في جذب الانتباه للنقائص التي كانت سمة مميزة لكل واحد فيهم وإذا نتأمل فيهم كمجموعة – نجد على الأقل خمسة نقائص فيهم ككل.

عدم الفهم الروحي

كم كان محزناً ومحبطاً للمسيح عندما فشل أولئك الذين اختارهم في فهم مغزي أمثاله وأفكاره! كم كانوا عاجزين عن إدراك أهمية المسيح نفسه، أو غرضه، أو طريقته في العمل! فكر في كيفية محاولته أن يشرح حقيقة آلامه القادمة وموته، وحتى التفاصيل الدقيقة لتسليمه والقبض عليه من قبل الجنود، ومحاكمته، وإدانته، وأعدائه، وموته وقيامته وصعوده. ولكن أقرب المقربين إليه لم يستطيعوا أن يدركوا حقيقة ما قال. كانت آراؤهم اليهودية المسبقة وتوقعاتهم تشكل غمامة على أعينهم حتى أنهم لم يستطيعوا أن يروا الحقيقة.

عيب الغيرة المتبادلة

هذه الرزيلة، القاسية كالموت، كانت تظهر بين آن وآخر

مراراً وتكراراً فعندما كان يبحث اثنان من الجماعة يبحثان عن المجد المستقبلي، كان العشرة الآخرون يمتلأون بالسخط والاستياء. وحتى عندما اقترب موعد الموت المرير ليسوع، كانوا «يتحاجون بعضهم مع بعض في من هو أعظم» كم كانت روح الانقسام والطائفية التي بدت في وقت مبكر من ارتباطهم بيسوع، وظهرت بشكلها الكئيب في التناحر من أجل المنصب، كم كانت محزنة لقلب ذاك الذي جاء، لا ليُخدَم، بل ليَخدُم، وليموت كمجرم على خشبة العار.

نقص الإيمان

يبدو كما لو كانت تلك من أبرز العيوب المؤلمة، لأنهم كثيراً ما اتهموا بها.

«كيف لا إيمان لكم؟» (مر ٤:٤٠)

«يا قليل الإيمان!» (مر ١٤:٣١)

«قلت لتلاميذك أن يخرجوه فلم يقدروا» (مر ٩:١٨)

«أيها الجيل غير المؤمن... إلى متى أحتملكم؟ قدموه إليّ» (مر ٩:١٩)

الفرار في ساعة الشدة

هناك عبارتان متناقضتان، عندما ننظر إليهما معاً، فإنهما تلقيان الضوء على عيب هروب الرسل وتخليهم عن المسيح في الساعات الحالكة السواد عندما كان في أشد الحاجة لصحبتهم. في بداية تلمذتهم نقرأ أنهم «تركوا كل شيء وتبعوه» (لو ٥:١١) كم كانت تلك تضحية نبيلة! ولكن الآن عندما يُلقى القبض على يسوع في بستان جثسيماني ويؤخذ أسيراً، نجد القول «فتركه الجميع وهربوا» (مر ١٤:٥٠) نفس الرجال في كلتا الحالتين! تذكر أن هؤلاء كانوا أقرب أصدقائه، الذين كان يعتمد عليهم، والذين ائتمنهم على أسراره، اثنان منهما كانا في الطريق إلى عمواس وقالا «كنا نرجو أنه هو» ولكن الثقة ولت هاربة عندما رأوا السيوف والعصى موجهة ضده. اختفت الثقة وضاع الرجاء أمام منظر الموت.

العجز في مواجهة التحدي

الضعف والعجز اللذان أظهروهما في مواجهة العمل المستقبلي المجيد بإعلان حقيقة المسيح للجميع، والذي بذل المسيح كل جهده لإعدادهم له، نراهما واضحين أيضاً. كما يعبر عن ذلك الدكتور إلدر كمنج فيقول:

«انظر إلى التلاميذ كما كانوا حتى يوم الصلب، بل وانظر إليهم حتى بعد ذلك، حتى اللقاء الذي تم عند بحر الجليل، عندما ظهر يسوع على الشاطيء في الصباح الباكر، وقل «أي أمل يمكن أن يرتجي من هؤلاء الاثنى عشر رجلاً؟ هل يرجى منهم أن يعلنوا عن المسيح كمخلص لجميع الأمم؟ هل يرجى منهم التغلب على الأعداء الذين كانوا لهم بالمرصاد، كالإمبراطورية الرومانية الوثنية، بكل ما تمثله من قوة وجبروت؟ هؤلاء الناس الذين كانوا قليلي المعرفة، والذين لم يستطيعوا أن يفهموا ما كان يحدث، والذين كانوا مهتمين بمكانتهم ومركزهم، الخائفين الذين لم يكن بمقدورهم مواجهة أي صعوبة، الرجال الذين هربوا من عشرين جندياً، الرجال الذين لم يكن بمقدورهم النطق بكلمة واحدة علانية: وبالاختصار، الرسل كما نعرفهم، من بطرس إلى يهوذا – أي أمل كان يرجى منهم فيما يتعلق ببشارة الإنجيل المبارك للعالم كله؟

ولكن، كما سنرى حالاً، فقد حدثت المعجزة، وتحولت الأداة الضعيفة في يد البناء العظيم نفسه إلى سلاح قوي لهدم حصون. فبروحه، أخذ المزدرى وغير الموجود، ليهدم الأشياء الموجودة.

ولكن منذ اللحظة التي دعا فيها المسيح الاثنى عشر حين كانوا خامة غير مصقولة ولا رجاء منها، وأمرهم أن يتبعوه ويتعلموا منه، وأخذ يثابر ويصبر على تلاميذه كي

يتعلموا، حتى استطاع كالنحات العظيم أن يصنع ملاكاً من قطعة الرخام باستخدام إزميله. لقد كرس نفسه لكي يغير ويعيد تشكيل هؤلاء الرجال، وباستثناء يهوذا، لم يفشل في تحقيق هدفه (يو ١٧:١٢). وكمعلم فريد، بدأ يصور نفسه في عقولهم وحياتهم، وينتصر على نقائصهم، وتابع هذا التصميم دون ريب أو شك، وكسب الجولة، وهو يقول لهم «أنتم ملح الأرض، أنتم نور العالم».

بعد أن خضع تلاميذه المختارون تماماً لروحه الذي أخذ يشكلهم وبعد أن نجحوا في مدرسته، راح هؤلاء التلاميذ يكرزون بإنجيله ويعلمونه بقوة عظيمة. ومن إحدى المعجزات الرائعة ليسوع، الطريقة التي غير بها ابن الرعد وحوله إلى رسول المحبة، فهو لم يصنع هنا معجزة واحدة، بل جعل الحياة تدب في أوصال الرسل في الجوانب الفكرية الأخلاقية والروحية، وكل ذلك أدى إلى تفرد وأصالة اختياره وتعليمه للاثنى عشر.

٢- الدروس التي تعلموها

لكي نفهم التعليم الخاص الذي تلقاه الاثنا عشر، يلزم أن نتفحص خلفياتهم وبيئاتهم السابقة. كان حكام وشيوخ وأهل أورشليم يتحدثون عن بطرس ويوحنا باعتبارهما، عديما العلم وعاميان (أع ٤:١٣) ولا يصح أن نستنتج من هذه الملاحظة أنهما كانا جاهلين بكل معنى كلمة الجهل، فإن لفظ «عديما العلم» تعني أنهما لم يكونا على دراية بمدرسة التفكير الربانية، أما كلمة عاميان والتي وردت «جاهلان»(*) فهي تعني أساساً الشخص العادي في مقابل موظف الحكومة، ولذلك فهو الشخص الذي بلا معرفة مهنية، وغير المدرب، وغير المتعلم – أي العلماني مقابل الموظف المدرب المتدين.

ولذا ففي الأغلب، كان الاثنا عشر صيادي سمك بسطاء وغير حاصلين على مقدار من التعليم وغير مهذبين، وليس لديهم سوى دراية قليلة بالحياة فيما وراء حدود إقليم صغير في فلسطين، تحت سيطرة روما.

ومع ذلك فإنهم كيهود، لم يكونوا بلا معلومات عامة. لأنه مما نقرأه عن الحياة اليهودية في وقتهم، فقد كان في كل أنحاء البلاد نظام جيد من المدارس المحلية التي كان يمكنهم الذهاب إليها. وقد كان كل مجمع تقريباً كمدرسة للأطفال حيث كان معلم المجمع يقوم بالتدريس له. كان كل طفل يهودي يتعلم أولاً في البيت كتيموثاوس، الذي كان يعرف الكتب المقدسة منذ الطفولية (٢تي ٣:١٥). وفي سن السادسة كان كل طفل يذهب إلى المدرسة، ويخبرنا يوسيفوس، المؤرخ اليهودي العظيم أنه لم يكن يوجد تقريباً طفل غير متعلم. كانت الكتب المقدسة هي المادة الرئيسية التي تدرس ولهذا السبب استطاع التلاميذ فهم إشارات المعلم لتاريخ العهد القديم. لم يكن لديهم عهد جديد – بل كان لهم امتياز كتابته. ولذا فعلى الرغم من كونهم غير متعلمين في نواح أخرى، إلا أنهم لم يكونوا جاهلين بالمعنى الذي نفهم به الكلمة. وعند سماعهم لدعوة المسيح. قاموا بتضحية عظيمة فتركوا بيوتهم وعائلاتهم وأصدقائهم وعملهم وتخلوا عن مصادر دخلهم ليتعلموا في الكلية المتنقلة للمعلم العظيم. وهناك ثلاث كلمات تجعلنا نعرف ما جعل تعليمهم أفضل تعليم يمكن للعالم أن يقدمه «كانوا مع يسوع» (أع ٤:١٣).

كم كانت الدروس التي تعلموها من الحياة ومن مثال وتعليم يسوع هامة! وكم كانت حكمته التي لا مثيل لها مقوية لإيمانهم به كالمسيا الذي قرأوا عنه في كتبهم المقدسة القديمة! وكم تقوَّى إيمانهم بالمعجزات التي أجراها! وإذ كانوا يتبعونه كل يوم، ويستمعون لأحاديثه الرائعة وأمثاله، ويرونه وهو يظهر قوته كابن الله عندما

* وفقاً للنص بحسب الطبعات باللغة الإنجليزية (المترجم)

شفى المرضى وأخرج الشياطين وأقام الموتى، وإذ عاشوا معه كعائلة واستطاعوا أن يوجهوا إليه الأسئلة التي أرادوا أن يوجهوها له، فإن كل ذلك قد أحدث إضافة جديدة لاستعدادهم الروحي والأخلاقي للخدمات العظيمة التي تعين عليهم أن يقدموها.

تأمل في كيفية تشكيل شخصياتهم عن طريق تأثرهم بشخصية يسوع! فقد اكتشفوا أن كل كلماته كانت حكيمة وصادقة، وأنه لم يكن يغضب أبداً سوى عندما يكون غضبه محقاً ضد الخطية والمخادعة والاحتيال، وأنه ما سعى أبداً للاستمتاع بملذات العالم، وأنه ما كان يضن أن يبذل الجهد والتعب عندما كان المحتاجون يطلبون عونه، وأنه ما سعي أبداً للراحة وحماية نفسه، ولكنه كان دائماً يصنع خيراً، وأنه ما أرتكب خطية ذات مرة أبداً، وأنه كان بالحقيقة المسيح، ابن الله الحي. كيف يمكنهم أن يكونوا مع رجل مثله دون أن يتعلموا التشبه به إلى درجة ما؟ كان ذلك بحق أهم شيء في تعليمهم. كان ذلك امتيازهم الخاص، أن يسمعوا كلماته ويروا أفعاله أثناء فترة صداقتهم له.

وكنتيجة لتعليم المعلم الشخصي الصبور، والقوة والاستنارة والتقديس الذي حصلوا عليه من الروح القدس، أصبح الرسل «مستنيرين ذهنياً، ولديهم سماحة كافية تجعلهم يحتضنون كل الجنس البشري، ولديهم ضمائر حساسة تجاه كل واجب. ومع ذلك فقد كانوا في حل من المباديء الخرافية، متحررين من قيود التقاليد والعادات، ووصايا الناس، لهم طباع مطهرة من الكبرياء، والعناد، ونفاذ الصبر، والانفعالات الغاضبة، وحب الانتقام والحقد.

لقد عرفوا المسيح ببطء ولكنهم عرفوه، وأصبحوا تحت قيادته مؤسسين لمجتمع جديد، كنيسة الله الحي.

ومن بين جوانب الحق التي تلقوا فيها دروساً من معلمهم ما يأتي :

طبيعة ملكوت الله
امتياز وقوة الصلاة
نتائج الحرية الدينية
قوة شخصه وإعلانه عن نفسه
تعليم موته وقيامته
حقيقة صعوده ومجده
إرساله للروح المعزي
المجيء الثاني للمسيح
ضرورة وفضيلة بذل النفس
أهمية الاستقامة في الحياة الخاصة والدينية
جاذبية التواضع والخصال الطيبة

إن دراسة سفر أعمال الرسل والرسائل وسفر الرؤيا تظهر كيف أن الدروس السابقة لم تفت على الرسل، لأن الروح القدس قد أخذ هذه الحقائق السامية وفتح أذهانهم على المغزى الروحي للأمور المتعلقة بالمسيح، وألهمهم بتسجيل إعلانات الروح لاستنارتنا وتهذيبنا وتشجيعنا.

٣- البركات التي اختبروها

ما حدث في يوم الخمسين شكل تغييراً ديناميكياً في حياة الرسل! لم يعودوا أبداً كما كانوا بعده. فعن طريق انسكاب الروح القدس تحولوا من مجموعة من الرجال الجبناء المحبطين والخائفين إلى فريق من الرجال الشجعان والجسورين الملوئين بالإيمان والقوة. وإذا لم يعد المسيح معهم شخصياً، كان عليهم أن يختبروا عمله فيهم (في ١٣:٢). لذلك فقد انتظروا «موعد الآب» وأهم ما حدث في يوم الخمسين كان الحضور الدائم لله الروح القدس كالعامل فيهم ومن خلالهم. عندما قدموا دليلاً عن كل ما رأوه وسمعوه عن المسيح وبضرورة الشهادة له. كان عليهم أن يختبروا ملء روحه الذي أتى إليهم واستقر فوقهم (يو ٨:١٦). فالاختبار الحقيقي لا يتوقف على حكمتهم أو

بلاغتهم أو شجاعتهم، على امتلائهم بالروح من عدمه. وكونهم كانوا مملوئين بالروح ثابت من حقيقة أن سفر اعمال الرسل مليء بسجلات الانتصارات الأولى للمسيحية – انتصارات العهد الموصوف بأنه عهد خدمة الروح (٢كو ٣:٨).

بعد نزول الروح في ذلك اليوم التاريخي، لم يعد الرجاء في الملكوت الزمني يخدع الرسل (لو ٢٤:٥١-٥٣، أع ١:٦). فقد مضوا ليؤسسوا الملكوت الروحي الذي ولد في يوم الخمسين، وبعد ذلك حملوا ثمار الروح.

وترى هذه الثمار في:

تحررهم من الخوف من الناس أع ٢:١٤

وحدتهم في الروح أع ٤:٣٢

اجتهادهم في نشر الإنجيل أع ٨:٥

سخائهم المسيحي أع ٢:٤٥، ٤:٣٤

روح الصلاة والشركة أع ٢:٤٢

محبتهم لأوامر الله أع ٣:١

فرحهم وسط شدة الآلام أع ٧:٥٥، ١٦:٢٥

في كتابي الثاني في سلسلتي عن «الرجل الذي غير وجه العالم» نبرت على الكنوز الثمينة التي تركها المسيح لأتباعه. هناك شرح كامل لهذه الكنوز، التي حظى قديسو العصور المتتالية بنصيب منها، وهي كالتالي:

كنز حضوره الدائم،

كنز أفكاره ومبادئه،

كنز قوته،

كنز سلامه،

كنز غلبته،

إن لوقا، الكاتب الذي قدم لنا سفر أعمال الرسل، يخبرنا عن رسالة سابقة كان قد أرسلها لصديقه ثاوفيليس بشأن «جميع ما ابتدأ يسوع يفعله ويعلم به» (لو ١:٣، أع ١:١). والقصة المثيرة التي يمضي في سردها في سفر أعمال الرسل هي استمرار لكل ما ابتدأ يسوع يفعله ويعلم به، وهي الخدمة، التي ابتدأت في أورشليم، ثم امتدت إلى اليهودية والسامرة، ووصلت إلى أقاصي الأرض – ومازلت! يمكن ملاحظة جانبين من جوانب بركات الخدمة الرسولية لانتشار إنجيل المسيح.

كان لهم الوعد بالقوة

بعد الانتهاء من دراسة كتابية مستفيضة امتدت لمدة أربعين يوماً قادها المعلم المقام نفسه عن نوع الإنجيل الذي كان على الرسل أن يكرزوا به (لو ٢٤:٢٧، ٤٤، أع ١:٢،٣)، أعطى لهم الوعد بأنه بعد الصعود سوف يلبسون قوة من الأعالي (لو ٢٤:٤٩، أع ١:٤،٥،٨). وتبعاً لذلك انتظروا الروح القدس الموعود به في أورشليم، وهم يقضون الوقت في الصلاة والدعاء مما خلق جواً روحانياً في قلوبهم لاستقبال الآتي. هناك سمتان على الأقل يجب أن نتعرف عليهما هنا:

١- لم يكن مجيء الروح متوقفاً على انتظار وصلاة الـ ١٢٠ المجتمعين في العلية فكل من الآب والابن قد وعدا بانسكاب الروح، وفي اللحظة المعينة جاء إلى أولئك الذين كانوا مجتمعين معاً بنفس واحدة في مكان واحد (أع ٢:١) وهو مازال باقياً في العالم منذ إرساله.

لقد جاء! ونحن نصلي كثيراً بكل حماس قائلين: «يارب، أرسل روحك!» والرب يفهم اشتياقنا للنهضة الروحية. ولكن الروح القدس قد أرسل إلى العالم منذ ما يزيد على ٢٠٠٠ سنة، وهو يشتاق أن يعلن عن قوته مرة أخرى في ومن خلال أولئك الذين تجددوا بواسطته. جميع القديسين لديهم الروح القدس: «كل من ليس له روح المسيح، فذلك ليس له» فنحن لدينا الروح إذن والسؤال الآن: هل هو يمتلكنا؟ في داخل قلوبنا يوجد الروح الموعود

به كأنهار ماء حي، ولكن هل هو يفيض بداخلنا ثم يخرج منا ليحيي البرية القاحلة من حولنا؟ (يو ٧:٣٧-٣٩). وكنتيجة ليوم الخمسين أصبح الرسل قنوات البركة لليهود والأمم على السواء.

٢- الفكرة الأخرى هي أننا لا يجب أبداً أن نفرق القوة الموعود بها عن صاحب الوعد نفسه. القوة التي من المفروض أن ينالها الرسل ليست «شيئاً» بل «شخصاً». «ستنالون قوة متى حل الروح القدس عليكم». فالقوة ، إذن، هي الشخص، أو الإعلان عن حضوره، إن طلب «القوة» كما لو كانت نوعاً من الطاقة التي يمكن أن نمتلكها بمقادير متفاوتة، هو طلب يجب استنكاره. فأي خدمة معجزية ماهي إلا روح الله معلناً عن نفسه من خلال القنوات التي يمكن أن يستخدمها . «أنا... بروح الله» (مت ١٢:٢٨، أع ٣:١٢). إن مجرد ظل بطرس ليس لديه القوة على الشفاء، وأيدي الرسل وحضورهم ليس سوى وسيلة إعلان الروح عن القوة على المرض والأرواح النجسة (أع٥:١٢-١٦).

كان اختبار يوم الخمسين من نصيبهم

اليوم المختار لإتمام الوعد الإلهي كان واحداً من الأعياد السنوية المنصوص عليها في ناموس موسى (لا ٢٣:١٥،١٦). ويوم الخمسين، ككلمة، تعني «الخمسين» أي عيد اليوم الخمسين بعد السادس عشر من شهر أبريل. وعيد الأسابيع هذا (خر ٣٤:٢٢، تث ١٦:١٠)، المحتفل به في نهاية السبعة أسابيع، كان يأتي عند إتمام الحصاد، ولذلك كان يدعي أحياناً «عيد الحصاد» (خر ٢٣:١٦). وكان يوم الباكورة (عد ٢٨:٢٦) مرتبطاً بالطقس الشهير الخاص بالرغيفين (لا ٢٣:١٧). يؤكد التقليد اليهودي أن يوم الخمسين كان يقابل نفس اليوم الذي أعطى فيه الناموس لموسى على جبل سيناء. فإذا كان عيد الفصح يجد إتماماً له في موت وقيامة يسوع، فيوم الخمسين يرمز لبداية حصاده للنفوس، فمنذ بداية ذلك اليوم الذي لا ينسى، فإنه يرى من تعب يديه ويشبع.

وفجأة، جاء الروح القدس من السماء مصحوباً بأصوات وألسنة استوعبتها فوراً آذان وأعين أولئك المجتمعين. ويشار إلى هذا الانسكاب القوي الذي حل على الرسل وبقية التلاميذ بأنه «معمودية» (أع ١:٥) ليس معمودية الروح القدس، وهي عبارة لا يستعملها الكتاب المقدس أبداً، بل المعمودية بالروح، والمسيح هو الذي يعمد بالروح (يو ١:٣٣) فالروح، إذن، ليس هو الذي يعمد، بل الوسط الذي عمد فيه التلاميذ أو غمروا فيه (تماماً كما اعتمد بنو إسرائيل لموسى في السحابة وفي البحر) (١كو ١٠:٢).

ياله من تغيير قوي أحدثه يوم الخمسين! ويالها من مناظر رائعة شوهدت في ذلك اليوم التاريخي! اختفى الجبن، وظهرت الجرأة المقدسة للرسل التي جعلت أولئك الذين حولهم يتعجبون من جسارتهم. ومنذ يوم الخمسين فصاعداً، كان حضور وسيادة الروح واضحين في كل أرجاء أعمال الرسل. وإذا كان الرسل يحصلون على القوة بصفة دائمة من الروح، فقد أصبحوا ناجحين نجاحاً ملحوظاً في الاستجابة للدعوة الإلهية للشهادة (١١:١٢). لقد جعلهم الروح أغصاناً مثمرة في الكرمة.

٤- روعة خدمتهم

دفع الروح الرسل وحملهم على بذر بذار الكلمة في كل الأماكن. فقد أصبحوا مستعدين للكرازة في وقت مناسب وغير مناسب. ما تعثروا أو تلعثموا في شهادتهم الشجاعة. حذروا أعداء الصليب نهاراً وليلاً بدموع وخلصت جماهير غفيرة. إن القصة الدرامية لسفر الأعمال يمكن أن تُروى في ثلاثة سطور مترابطة.

الرب يسوع صاعداً إلى السماء،

والروح القدس نازلاً،

والرسل في طريقهم للكرازة – وعندما خرجوا باسم ربهم المقام ومحملين بقوة الروح، حدثت أشياء عظيمة وقوية. كانوا مؤثرين لأنهم:

حصلوا على دليل دائم

في كل الأزمنة وفي كل الأماكن كانوا نشطين، يغرسون الكنيسة في كل مكان، الكنيسة التي اشتراها يسوع بدمه، من اليهود والأمم على السواء. ابتدأ الرسل من أورشليم، وضاعفوا مراكز العبادة المسيحية والشهادة حتى تم الوصول إلى روما الوثنية ذاتها وبدأت تشعر بتأثير خدمتهم الممتلئة بالروح.

على الرغم أن سفر الشهادة للمسيح هذا ينقسم إلى جزئين كل جزء منه يدور حول شخصية محورية.

بطرس، الرسول إلى اليهود ١–١٢، وبولس، الرسول إلى الأمم ١٣–٢٨، إلا أنه كان هناك آخرون مثل لوقا، ويعقوب، وفيلبس، وبرنابا، ومرقس، وتيموثاوس، لعبوا دوراً هاماً في اتساع رقعة الكنيسة المتنامية على الدوام. إن انتشار الإيمان المسيحي بسرعة والذي كان صفة مميزة للقرن الأول، لا يمكن تفسيره سوى بفضل جهود الكثيرين الغيورين الذين رفعوا راية الصليب. وسواء كانت الشهادة أمام الملوك، أو الحكام، في الأماكن العامة أو الصحاري، كل ذلك لم يكن بذي أهمية للرسل الذين اتسموا بالجسارة في شهادتهم حتي لو تعرضوا لخطر الموت. كان بولس سفيراً للمسيح برغم القيود. انتشرت المسيحية كامتداد النار في الهشيم لأن كل مسيحي كان شاهداً، يشهد لنعمة الله (أع ٢٠:١٧–٢٤) لم تكن النتائج تشكل أهمية لديهم. فلأجل من مات عنهم كانوا على استعداد لأن يبذلوا حياتهم (١٥:٢٦). يقول التقليد، كما سنرى إن جميع الرسل قد استشهدوا – فيما عدا يوحنا – ولكن باللحسرة، فاليوم يوم بشارة ونحن ساكتون. إن جماهير غفيرة تندفع بقوة نحو الجحيم. ومع ذلك فنحن متهمون بصمت آثم.

ابحث في سفر أعمال الرسل واجمع الإشارات الدالة على الثمن الباهظ الذي دفعه أولئك التلاميذ الأوائل لأجل شهادتهم الجريئة. كانوا فعالين لأنهم استهانوا بالاضطهاد. إن حمى الاضطهاد لم تتوقف بعد تغيير بولس في الطريق إلى دمشق. فالرسول نفسه قد كان مبعث الشرارة الرئيسية للاضطهاد الأول للكنيسة. وحيث أنه كان ممثلاً للسنهدريم، فقد شرع يقضي على الدعوة الجديدة إلى حد قتل أفرادها، ولكن الرب جعل المتمرد كاهناً وملكاً (أع ٩)، ثم سكب تجديد بولس الرائع وشهادته القوية، بعد ذلك، الوقود على نار الاضطهاد. ولهذا السبب فإن سفر أعمال الرسل مليء بأخبار السجن والاستشهاد. ولكن جميع الذين تألموا أظهروا احتمالاً غير عادي في بوتقة الألم التي وعدهم بها المعلم (مت ٢٠:٢٢–٢٣).

كانت كرازتهم ايجابية

كان الوعد وامتلاك الهبة الإلهية من أجل إعلان إنجيل الله. إن قوة الروح لن تستعلن مالم يتم الكرازة بالكلمة التي أوحى بها. فالروح لا يسير في موكب انتصاره إلا في عربته الملوكية الخاصة. والمبشرون الذين يشكون في معتقداتهم ويؤمنون بشكوكهم لا تكون لديهم القوة لكي يقلبوا العالم رأساً على عقب. وبالنسبة الرسل، لم يكن هناك شيء يقال له «ربما» أو «يجوز» ولكن كان هناك إعلان سلطاني، «هكذا قال الرب»، فاستطاعوا أن يكرزوا بكلمة الله بكل جسارة، ويضمنوا النتائج لأنهم آمنوا أنها كلمة الله، الموحي بها من الله.

والحقائق الأساسية التي بشروا بها كانت تتضمن

حياة وموت وقيامة يسوع المسيح – وهي الحقائق التي يعلنها الروح القدس دائماً (أع ٢:٢٣،٢٤، ٣٠، ٣١، ٣٦، ٥:٨،٣٢ إلخ). وبعد أن شهدوا موت المسيح وقيامته (أع ٣:١٥)، استطاعوا أن يكرزوا بهذه الحقائق بقناعة تامة (أع ٤:٢٠،٣٣،١٠:٣٩)، حتى وإن رفضت هذه الرسالة من قبل القادة الدينيين (أع ٤:١،٢). وحيثما حل الرسل، كانوا يكرزون بهذه الكلمة (أع ٨:٤، ١٣:٤٩). إن المئات من مبشري هذه الأيام لا ينجحون ببساطة لأن رسالتهم ليست هي الرسالة الحية للكنيسة الأولى. إن لديهم تحفظات بشأن الغرض من موت المسيح وتساورهم الشكوك بشأن حقيقة قيامته بالجسد، وهم لا يستطيعون أن يشتركوا مع بولس في الإنجيل الوحيد الذي يجب أن يبشر به «المسيح مات من أجل خطايانا حسب الكتب وأنه دفن وأنه قام في اليوم الثالث حسب الكتب» (١كو ١٥:٣،٤). إن الكرازة بالصليب مازالت هي قوة الله للخلاص في اختبار الذين يؤمنون. والرسل لم يكرزوا فقط بالمسيح مصلوباً . لقد اختبروا حياة الصليب عن الذات، ولذلك كانت خدمتهم ناجحة. ولأنهم عاشوا للمسيح فقد ماتوا عن العالم (غل ٢:٢٠، :١٤) وعندما يختفي شخص قد صلب الذات وراء رسالة المصلوب، فإنه يكون دائماً شهادة حية للرب المصلوب، والمقام والممجد.

كان اختبارهم هو اختبار الصلاة

إن سفر أعمال الرسل هو كتاب رائع عن دراسة الصلاة! فقد ولدت الكنيسة في اجتماع صلاة، وعاشت في نفس الجو. وعندما مارس التلاميذ اختبار الصلاة لأجل الآخرين، حدثت أشياء رائعة. اجمع الشواهد الدالة على الصلاة، ولاحظ الإعلانات الإلهية استجابةً لها. وسوف تكتشف كيف عاشت الكنيسة راكعة على ركبتيها وأصبحت مرهبة كجيش بألوية (١:١٤، ٦:٤).

هل تزعزع المكان الذي نجتمع فيه للصلاة ذات مرة، وكان حضور الروح ملموساً لدى الجميع (أع ٤:٣١)؟ إن زنزانات السجون لا يمكن أن تحتفظ بأولئك الذين يواظبون على الصلاة لأجل الآخرين (١٢:٥). والكنيسة غير المصلية أو المسيحي غير المصلي لا يمكن أن يتوقع حدوث أشياء عظيمة ولا يمكنه القيام بها. يمكن أن يتحقق النجاح الرائع من خلال الأداء البشري فقط عندما يصلي القديسون بلا انقطاع. قيل عن الملكة ماري – ماري الدموية كما كانوا يطلقون عليها – إنها كانت تخشي صلوات جون نوكس، المصلح الاسكتلندي، بأكثر من جيش جرار. هل تثير صلواتنا ذعراً في قوافل الجحيم؟ إن قناعتنا بترديد الصلوات، قد أنسانا كيفية الصلاة بالروح القدس. إن عالمنا الملوث بالخطية لا يمكن أن يختبر نهضة مجيدة سوى عندما يختبر قديسو الله آلام جثسيماني، فذلك يحدث فقط عندما تتمخض صهيون حتى تلد أطفالاً. لدينا العديد من المبشرين، ولكننا بحاجة ماسة إلى المزيد من المصلين الذين يمارسون خدمة الصلاة لأجل الآخرين كما فعل إبراهيم لأجل سدوم (تك ١٨:٢٣-٣٣).

كان اختبارهم هو اختبار التطهير

كان هؤلاء الرجال الجليليون حاضرين في ذلك اليوم في العلية عندما وعد يسوع بأنه سوف يأتي ثانية، وبعد صعوده سمعوا الرجلين من السماء يؤكدان وعد المعلم بمجيئه ثانية (يو ١٤:١-٣، أع ١:١٠،١١). ومنذ يوم الخمسين فصاعداً تمسكوا بهذا الإعلان المتكرر بمجيئه، وكرزوا به، وعملوا في ضوء هذا الحدث المبارك (أع ٣:٢٠،٢١). وبمقارنة الرسائل المليئة بحقيقة الرجاء المبارك، بسفر أعمال الرسل، نعرف أن رسلاً مثل بطرس وبولس ويعقوب ويوحنا ويهوذا قد أعلنوا ظهور المسيح المجيد في تعليمهم للمتجددين حديثاً (١تس ١:٩،١٠).

والرسائل المكتوبة إلى الكنائس التي أسسوها مليئة «بالكلمة النبوية وهي أثبت».

وإذ كان الرسل يحبون فكرة مجيء المسيح ثانية، فقد عملوا بلا انقطاع لرجوع الضالين، لم يكن المجيء الثاني بالنسبة لهم مجرد تعليم بل قوة خلاقة، تجبرهم على أن يعيشوا حياة مقدسة، ولينقذوا أيضاً الهالكين من حولهم، ولما كانت فكرة مجيء معلمهم ماثلة أمام أعينهم، فقد كانوا يشهدون له متحلين بالشجاعة بالرغم من إحساسهم بالعزلة. ولكن بغض النظر عن كل دموعهم وتجاربهم كان هناك الرجاء الأكيد والمعزي الخاص بنزول المسيح ومجيئه على السحاب لاختطافهم.

لهم الوجود الدائم

بعض الناس يتم نسيانهم سريعاً. فهم يختفون في بحر النسيان. إنهم مثل رقائق الثلج التي يصفها روبرت برتر «بيضاء للحظة واحدة، ثم تذوب إلى الأبد»، ولكن بالنسبة للبعض الآخر فإن اسماءهم تبقى، وتأثيرهم الدائم يكون مصدر إلهام ينطبق عليهم القول «وإن مات يتكلم بعد»! وبالرغم من أنهم أشخاص عاديون جداً، إلا أنهم سمعوا معلمهم يقول «إني أنا حي فأنتم ستحيون» (يو ١٤:١٩)، وهم باقون مثله بشهادتهم وتعليمهم. وهكذا كان حماسهم المنقطع النظير حتى أنه قبل تدمير أورشليم في ٧٠م، وبعد موت ربهم بثلاثين سنة، كان الرسل قد بشروا بالإنجيل في مقدونيا وسوريا، وأنشئت كنائس عديدة في الكثير من الأقاليم تقريباً في نفس الوقت.

نبتت بذرة الملكوت بسرعة وبدت كما لو كانت قد ملأت الأرض (مر ١٦:١٥-٢٠). عندما نبدأ في التأمل في شخصيات الرسل، على انفراد، سوف نشير إلى سجلات أنشطتهم الواسعة الانتشار، كما ذكرها التقليد والقصص المتوارثة.

لاشك أنهم مارسوا تأثيراً هائلاً رفيع المستوى في حياتهم، ولكن ذلك التأثير لم ينته بموتهم، ومازال تأثيرهم قوياً على حياة الملايين. كلمتهم لم تكن في الماضي فقط، ولكنها مازلت ناموساً، ومثلهم مازال يعتبر ملزماً على مر العصور.

ومن بشائرهم ورسائلهم والتفاسير الملهمة للأقوال الثمينة لمعلمهم، استمدت الكنيسة نظام التعليم الذي أدمجته في عقيدتها. وكما عبر عن ذلك أ.ب بروس حين قال: «لقد أصبح صيادو الجليل صيادين للناس على أوسع نطاق، وبمعونة الله، ضموا إلى الكنيسة النفوس الكثيرة التي خلصت، ويمكن القول إنهم مازالوا يلقون بشباكهم في بحر العالم، وبشهادتهم ليسوع في الإنجيل والرسائل، يأتون بجماهير غفيرة ليصبحوا تلاميذ ذاك الذي كان لهم الشرف أن يكونوا ضمن تلاميذه».

كانوا أشخاصاً مغمورين وعاديين حتى دعاهم يسوع وأرسلهم، فهو الذي نفخ في الرسل وجعل العديدين منهم بارزين على مدى العصور.

كما عبر ويتير Whittier عن ذلك بالقول:

لمسوا هدب ثوبه وسرعان

ما حول الكيمائي السماوي ترابهم إلى تبر

وبما أنهم عاشوا حياة مليئة بالنشاط والحيوية، فالأجيال التالية قد أعطت للعديد من الرسل شهرة دائمة. فقد سميت الكليات والمدن بأسمائهم وملاجيء الأيتام والأطفال بأسمائهم. تأمل كيف مازلنا نستخدم أسماءهم في حياتنا العائلية! في سنة ١٩٥٠ كتب إلسون س سميث كتاباً رائعاً يحمل هذا العنوان «قصة أسمائنا» يدرج فيه قوائم مختارة بعناية لأشهر الأسماء من ذكور وإناث في

أمـريكا وحـدهـا. ومن بين أولئك المسـيـحـيين الأوائل الذين مـازالوا يعـيـشـون تحت مـسـمى الناس الذين يحـملون أسماءهم، لدينا ما يأتي:

الاسم	تقدير لأعداد من يحملون الأسم
يوحنا (چون)	٥٨٣٧,٠٠٠
يعقوب (چيمس)	٢٩٩٨,٠٠٠
توما (توماس)	١٩١٠,٠٠٠
بولس (بول)	٣٦١,٠٠٠
أندراوس (أندرو)	٣٤٢,٠٠٠
بطرس (بيتر)	٣٣٤,٠٠٠
فيلبس (فليب)	٢٩٨,٠٠٠
استفانوس (ستيڤن)	٢٧٣,٠٠٠
نثنائيل (نثنايل)	١٨٠,٠٠٠
متى (ماثيو)	١٠٥,٠٠٠
تيموثاوس (تيموثي)	٨٣٠,٠٠٠

اضرب هذه الأسماء الرسولية التي يحملها أمريكيون في عـقـد واحـد في كل العـقـود، وليس فـقط في الولايات المتحدة، بل في العالم كله، سوف تجد لديك دليـلاً دامغـاً على التأثير الدائم لهؤلاء التلاميذ الذين حملوا وشرفوا هذه الأسـمـاء في القرن الأول للمـيـلاد. إن بعض أعظم التـحف المعمارية مثل كاتدرائية القديس بولس بلندن، قد خصصت لإحـيـاء ذكراهـم، وبعض أعظم التـحف الفنيـة مـثل لوحـة «العـشـاء الأخـيـر» ليـوناردو دافنشي، قـد خلدت ذكـرى وجوهـهم. وملايين البشر في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية يرفـعون صلواتهم للرسل الذين تبـوأوا مركزهم كقـديسين قـانونياً، أمـا عن الكتب المكتـوبة عنهم وعن أعـمـالهم سواء كـانت من وحـي الخـيـال أو خـلاف ذلك، فـالرقم مـهـول، ويحـضـرنـي في هذا المقـام الرواية التي تشـد الانتـبـاه عن بطرس، بقلم للويدس دوجلاس «صياد السمك الكبير».

لاشك أن أكـاليل الخلود تنتـمي بـحق لأولئك المرسلين الأوائل الذين أرسلهم المسيح إلى العالم أجمع.

ثالثاً: تحليل لشخصيات جميع الرسل

١- الرسل الأصليون - الاثنا عشر

أولئك الذين يدعوهم العهد الجديد رسلاً يستحقون عناية خاصة من جميع محبي الكلمة. لأنهم شغلوا قسماً كبيراً في الفكر المسيحي، واحتلوا حيزاً كبيراً قد خصص لهم في الأدب المسيحي. كتب الشاعر اليوناني العظيم عن بطله المفضل (أخيلاوس)، «هو وحده الرجل الحي، وكل الباقين أشباح وظلال»، ومثل هذا المديح ينطبق تماماً على مسيح قصة الإنجيل، إلا أنه بالرغم من أن حياته هي حياة النفوس، إلا أنه كان بحاجة إلى «الظلال» على الرغم أنها كانت مختفية في جلال حضرته. قبل أن يصبح الاثنا عشر رسلاً، لم يكن هناك شيء لافت للنظر بنوع خاص فيهم، كان من الممكن أن تراهم وسط الجماهير دون وجود سمة واحدة مميزة فيهم. ولكن بعد لقائهم بالمسيح أصبح النور الذي فيهم أكثر من الظلال، عبر عن ذلك ج.س. جرينهوف بقوة حين قال:

«يوجد الآن سحر خاص فيما يتعلق بأمانتهم، وبساطتهم، وحماسهم العاطفي. إنهم رجال لم تمت فيهم بساطة الأطفال، وقد أصبحوا شركاء الطبيعة الإلهية، لديهم ملكة هائلة أو مقدرة على التعجب، والحب، والاحترام، والرهبة. إنهم بكل ذرة في كيانهم بشر بكل ما في هذه الكلمة من جمال واستدرار للعطف وحلاوة. إنهم يروقون لنا من خلال كل عاطفة بشرية في كياننا. إن وجوههم البسيطة غير المعبرة تبدأ تشرق عندما نتتبعها للبحث عن معنى يفيض ذكاء وبلاغة، ونعرف أنه عندما دعاهم يسوع، فقد عمل شيئاً حسناً، كما حدث عندما خلق كل شيء آخر».

هناك أشياء كثيرة لم يخبرنا العهد الجديد عنها بشأن الرسل، فنحن نريد أن نعرف ماذا بشأن زوجاتهم وعائلاتهم؟ إن بطرس هو الشخص الوحيد الذي أشير إلى زوجته، ومع ذلك فلابد أن يوحنا كانت لديه عائلة، وإلا ما طلب منه المسيح أن يعتني بأمه الحزينة، ونحن نود أن نعرف المزيد عن تاريخهم السابق وعن اختباراتهم بعد يوم الخمسين، ولكن كل ما لدينا في أحسن الأحوال مجرد تفاصيل قليلة غير مترابطة. من سمات الكتاب المقدس أنه لا يقدم سير حياة مكتملة. فهناك فترة مدتها ثلاثون سنة في حياة المسيح لا نعرف عنها شيئاً، سوى لمحة خاطفة نراها له عندما كان في الثانية عشرة من عمره، كل ما لدينا عنه في الأناجيل بداية لحياته وخدمته خلال الثلاث سنوات الأخيرة من حياته.

إن أفضل الكتب مبيعاً في أدب السيرة الذاتية هي الكتب التي تحوي قصة مكتوبة لجمهور مريض نفسياً أو محب للاستطلاع فيما لا طائل من ورائه والذين لديهم اهتمام غير صحي برذائل وفضائل الشخصيات قيد البحث. ولكن كتاب الأناجيل لم يكونوا مصابين «بهوس السير الذاتية» كما يقول بروس. ليس هناك أثر لهذه الدقة والولع الوثني بتواريخ الحياة في الأناجيل، لأن كتابها لم يجعلوا الرسل الموضوع الرئيسي، كان المسيح هو بطلهم، وكانت رغبتهم الوحيدة أن يخبروا كل ما عرفوه عنه «لقد نظروا بثبات إلى شمس البر، فغابت عن نواظرهم النجوم المحيطة به بسبب تألق وسطوع نوره، وسواء كانت تلك النجوم ذات أهمية كبرى أو متوسطة أو صغرى فذلك لم يكن يشكل أي أهمية بالنسبة لهم».

وعلى الرغم أنه من الصحيح فيما يتعلق بالرسل، أن المعلومات التي لدينا عنهم قليلة إلى حد ما، وفي بعض الحالات، لا ترقي سوى لما يزيد قليلاً عن لا شيء، إلا أنه من الخطوط القليلة التي لدينا عنهم، يمكننا أن نرسم الشخصيات من واقع الاستدلال والخيال. إن قليلاً من السمات البارزة، أو الأحداث، أو الأقوال تعطينا تصوراً لشخصياتهم ومواقفهم. والكتاب المقدس لم يقدم لنا لإشباع غريزة حب الاستطلاع والتي لا تخدم هدفاً أخلاقياً أو روحياً. فكل ما يخبرنا الكتاب المقدس به بشأن الرجال الذين اختارهم يسوع يأتي عرضاً في سياق جهودهم المباشرة ليقدموا لنا الشخص الذي أحبوه.

وفي السطور التالية نرجو أن نبين أنه لدينا في الاثنى عشر الذين اختارهم يسوع، تاريخ حياة البشرية – مرايا تعكس مآسينا، ودموعنا، وتجاربنا، والإغراءات التي نتعرض لها، وانتصاراتنا.

وقبل أن نتأمل في الاثنى عشر على انفراد، وبالترتيب الأبجدي، يمكن تصنيف حقائق معينة عنهم ككل.

فيما يتعلق بنسبهم

سمعان بطرس وأندراوس كانا ابني يونا أو يوحنا (يو١:٤٢، ٢١:١٥) يعقوب ويوحنا كانا ابني زبدي وسلومة (مت ٢٠:٢٠، ٢٧:٥٦، مر ١٥:٤٠، ١٦:١).

متى، وهو في الأصل لاوي، كان ابن حلفي (مر ٢:١٤).

يعقوب الصغير يدعي أيضاً ابن حلفي، ولذا من المرجح أنه هو ومتى كانا أخوين. مما جاء في يو ١٩:٢٥ ومر ١٥:٤٠ يبدو أن مريم، زوجة كلوبا (وليس كليوباس، لو ٢٤:١٨). كانت أم يعقوب الصغير، ولذا فإن كلوبا هو حلفي.

لم يكن يهوذا ابن سمعان (يو ٦:٧١، ١٢:٢٦) في هذين الشاهدين، فإن كلمة إسخريوطي متصلة بسمعان وليس بيهوذا، مما يوحي أن الأب والابن لهما نفس الاسم لأنهما قد أتيا من مدينة قريوت في اليهودية.

فيما يتعلق بأماكن سكنهم

كان بطرس وأندراوس ويعقوب ويوحنا وفيلبس يعيشون في بيت صيدا (مر ١:١٦–٢٤، يو ١:٤٤، ١٢:٢١).

الأربعة الأوائل من هؤلاء عاشوا فيما بعد في كفرناحوم (مر ١:٢١، ٢٩). عاش يوحنا في أورشليم ثم في أفسس (أع ٣:١، ١٥:٦، غل ٢:١،٩).

كان متى ينتمي إلى بيت صيدا (مر ٢:١، ١٤).

كان برثولماوس، الذي هو نثنائيل يعيش في قانا الجليل (يو ٢١:٢) .

كان توما، ويعقوب الصغير، ويهوذا وسمعان الغيور يعيشون في الجليل.

كان يهوذا الإسخريوطي هو الوحيد من بين الرسل الذي جاء من اليهودية.

فيما يتعلق بحرفهم:

كان بطرس وأندراوس ويعقوب ويوحنا صيادي سمك (مر ١:١٦،١٩).

كان متى جابياً للضرائب (مت ٩:٩).

لم يخبرنا الكتاب عن حرف السبعة الآخرين.

فيما يتعلق بصلة القرابة بينهم

يبدو أن عدداً كبيراً من الاثنى عشر لم تكن بينهم صلة قرابة فقط، ولكن كانت توجد أيضاً صلة قرابة تربطهم بالمسيح، رجل الجليل.

كان سمعان واندراوس أخوين، وهكذا كان الحال مع يعقوب ويوحنا، كما كان الحال مع يعقوب الصغير ومتى.

وربما كان فيلبس وبرثولماوس أخوين، وحيث أن

أندراوس اقتاد أخاه إلى المسيح فمن المحتمل أن فيلبس اقتاذ أخاه إلى المسيح أيضاً (١يو ٤٠-٤٥).

كان يعقوب ويوحنا ابني خالة يسوع، أي، إذا كانت سالومة زوجة زبدي أخت مريم العذراء (يو ١٩:٢٥).

فيما يتعلق بالكتب التي كتبوها:

كتب متى الإنجيل الذى يحمل اسمه.

كتب بطرس رسالتين ومن المرجح أنه كان مصدر إلهام لمرقس.

كتب يوحنا الإنجيل الرابع، وثلاث رسائل وسفر الرؤيا.

وهكذا فإن تسعة كتب من الـ ٢٧ كتاباً في العهد الجديد أو ثلث العهد الجديد من نتاج الرسل من بين الـ٢١ رسالة، كتب بولس ١٤ رسالة إذا اعتبرنا الرسالة إلى العبرانيين من بينها.

بما أن الأسطورة والتقليد لديهما الكثير الذي يقولانه عن حياة وأعمال الرسل، بالإضافة إلى الطريقة التي ماتوا بها لأجل المسيح، اعتقدنا أنه من الأفضل أن نستجمع مثل هذه المواد الشيقة معاً في قسم واحد، كما عملنا في الفصل التالي. ما نحاوله الآن هو تقديم لمحة مختصرة عن كل رسول من المادة الموجودة في العهد الجديد الموحي به من الله. وللاضطلاع على المزيد، ننصح القاريء باللجوء إلى كتاب المؤلف «كل رجال الكتاب المقدس»* دار نشر زوندرفان.

* الكتاب تم ترجمته إلى اللغة العربية بنفس الاسم لدار الثقافة.

أندراوس
الرسول الذي شارك المسيح شخصياً

هل حاولت ذات مرة أن تتخيل امتنان قلب أندراوس والنور الذي كان يسطع على وجهه عندما وقف في يوم الخمسين إلى جوار أخيه، وسمعه يتهم الجمهور الذي أمامه بارتكاب جريمة تاريخية، ثم شهد التأثير القوي لفطنته الملهمة بالروح القدس عندما رجعت آلاف النفوس إلى المسيح تائبة ومعترفة بخطاياها؟ أستطيع أن اسمع أندراوس وهو يقول في نفسه عندما نظر إلى بحر من الوجوه الشاخصة إلى بطرس وهي تستمع إلى عظة يوم الخمسين بانتباه تام: «يا بطرس، يا أخي العزيز، كم أشعر بالفرح أني اقتدتك إلى المسيح في ذلك اليوم منذ حوالي ثلاث سنوات مضت! لم أكن أدرك وقتها كيف سوف يستخدمك الله بهذه الطريقة الرائعة، شكراً له، لأنه دفعني أن أشجعك على قبول المسيا كما فعلت!».

كالأب الروحي لبطرس، فإن أندراوس كان الجد الروحي لثلاثة آلاف نفس، تابوا في يوم الخمسين عن خطاياهم ورجعوا إلى المخلص. وهكذا فإن أندراوس كمؤسس للكرازة الشخصية لقبول دعوة المسيح، فإنه سوف يظل ملهماً للقديسين عندما يسعون لربح أقرب الناس من حولهم للمخلص. إن إدوارد كمبال، رابح النفوس الأمين، لم يكن يعرف مقدار الأشياء العظيمة التي كان يمكن أن تحدث عندما حث الشاب مودي، بائع الأحذية في بوسطن، على قبول المسيح. كم كان مدرس مدرسة الأحد يشعر بالذهول لو أنه عرف أن الغلام قدر له أن يصبح دوايت ل مودي، الكارز الشهير الذي جعل قارتين من قارات العالم أكثر قرباً من الله! وكم صحيح في مملكة النعمة أن أشجار البلوط القوية تنمو من بذور صغيرة، عندما تقتاد طفلاً إلى المسيح، لا تدرك أي مستقبل باهر ينتظر ذلك الطفل.

بالرغم من كل الإعجاب الذي شعر به أندراوس نحو شهرة أخيه في مجموعة الرسل، لم يكن لديه طموح بالمرة لكي يصبح بطرس آخر. وكما حدث بالنسبة ليوسف في القديم، كان قانعاً بأن يحتل المرتبة الثانية، وهو يرد أمامنا كالرسول السعيد بالمركز الثاني. وكصياد سمك من عائلة من صيادي السمك من بيت صيدا (يو ١:١٤). فإن أندراوس الذي يعني اسمه (الرجولة) كان رجلاً بمعنى الكلمة. كما كان صيادو السمك في عصره يحيون حياة شاقة مليئة بالصعاب. كان يشارك أخاه بطرس نفس المنزل حتى تزوج بطرس وعمل الاثنان سوياً في صيد السمك من البحر (مت ٤:١٨، مر ١:١٦).

ومع أن الإشارات لأندراوس في الأناجيل قليلة حقاً،

إلا أن ما سُجل عنه يكشف أنه تلميذ المسيح المتواضع بغير إدعاء، وأنه مخلص وأمين وكان يستمتع بعلاقة حميمة خاصة مع المعلم (مر ١٣:٣). وبما أن الاحتمال الأغلب أن أندراوس كان الأخ الأصغر، فقد كان اسمه غير مرتبط بأبيه، بل بأخيه – «أندراوس، أخو سمعان بطرس» ومن المرجح أن أباهما، يوحنا أو يونا لم يكن على قيد الحياة في الوقت الذي أصبح فيه كل من بطرس وأخيه الأصغر تلميذين ليسوع. يسجل يوحنا نسقاً فريداً في الحديث عن بيت صيدا «بيت صيدا.. مدينة أندراوس وبطرس» (يو ٤٤:١). يرد هنا الأخ الأصغر أولاً، ويأتي الأخ الأكبر والأكثر أهمية بكثير أخيراً. لماذا؟ لأن العدد يتحدث عن الوقت الذي بدأ فيه يسوع خدمته – قبل تعيين الرسل وقبل أن يأتي بطرس لرؤيته. في ذلك الوقت كان أندراوس فقط تلميذاً، ولم يكن وقت بطرس قد جاء بعد.

ولكن عندما حان وقت اختيار الرسل، كان بطرس على رأس القائمة، بينما جاء أخوه المخلص تالياً له.

بالرغم من أن بطرس، كما سنرى، ظهر بشكل بارز في الأناجيل وأعمال الرسل، وأصبح قائداً للرسل، لا يصح أن نجعل الضوء الأكبر يحجب الضوء الأصغر، ففي التدبير الإلهي، عرف أندراوس الرب قبل بطرس. والذي كرمه الله هكذا، علينا أن نكرمه أيضاً، ولهذا السبب، كان يطلق عليه في الكنيسة الأولى لقب «أندراوس المدعو أولاً» وهو لقب اشترك فيه مع يوحنا الذي ندين له بفضل تقديم سجل أوفى للظروف التي قادت أندراوس لمعرفة يسوع، وهو يخبرنا أيضاً عن الدور الذي لعبه أندراوس في اقتياد أخيه، سمعان، ليسوع، وهو يخبرنا أيضاً أنه هو الذي أخبر يسوع عن الغلام صاحب الأرغفة والسمك. ويوحنا أيضاً هو الشخص الذي يخبرنا عن اليونانيين الباحثين عن حقيقة يسوع، وكيف أن فيلبس وأندراوس أتيا بهم إلى الرب، من هذه الشواهد، ومن حقائق أخرى يقدمها لنا متى ومرقس عن أندراوس، يمكننا أن نكون صورة عن الرجل نفسه ومنه نعرف بعض عناصر التلمذة الحقيقية.

١- تلميذ ليوحنا المعمدان

مع أن أندراوس كان واحداً من أول تلميذين ليسوع، إلا أنه كان تلميذاً للمعمدان قبل أن يكون تلميذاً للمسيح، نحن نلتقي أولاً بأندراوس ليس في الجليل، حيث عاش، ولكن في بيت عبرة فيما وراء الأردن، على بعد ما يقرب من ٥٠ أو ٦٠ ميلاً من موطنه. كان يوحنا المعمدان يبشر ويعمد هناك. وكيهودي، فإن أندراوس، ذا العقلية المتشربة بنبوءات العهد القديم، كان يبحث عن انبلاج النهار من وراء الظلام. ولذلك، فإذا كانت له روح وثابة في عصر اللامبالاة، كان مهتماً اهتماماً كبيراً بما سمعه عن بزوغ نهضة جديدة في وادي الأردن. سمع أندراوس جنباً إلى جنب مع صيادين آخرين، سمعان وفيلبس من فم هذا المبشر القوي الخشن في البرية، تعليماً يختلف كثيراً عن تعليم الكتبة الذي كانوا معتادين عليه. كانت خدمة المجمع جامدة، ورسمية وبلا حياة – وكانت تتركز حول أشياء أقل أهمية في الديانة. ومثل هذه التعاليم الرسمية التقليدية التي كان يتلقاها أندراوس لم تكن تتلامس مع ضميره، ولم تلمس وتراً في قلبه، وكانت تترك احتياج نفسه بلا إشباع. ولكننا نجد هنا واعظاً لا يخشى شيئاً وقد مزق العباءة الكهنوتية. كان يعظ بضرورة التوبة بإثارة بالغة للقادة الدينيين الذين كانوا ينظرون إلى القداسة كاصطلاح غامض – يؤدي لأفعال ظاهرية، ولكنه لا يؤدي لمبدأ عملي من مباديء السلوك. كان التوبيخ يوجه إلى المتمسكين بالشكليات وإلى المرائين، وعندما بشر يوحنا المعمدان بتعاليمه الفاحصة للقلوب، وعندما بشر بقدوم شخص أعظم منه بكثير كان على وشك أن يأتي، فإن الشاب أندراوس، كباحث عن

عندهما: «يا معلم أين تمكث؟». لم يكن مثل هذا السؤال بدافع الفضول الرديء، بل بدافع الرغبة في اتباعه والتعلم منه. ولم يثنهما يسوع عن تلك الرغبة بل أجاب على الفور: «تعاليا وانظرا». كان عليهما أن يذهبا معه ويكتشفا سراً كل ما سعيا ليعرفاه. وهكذا ذهبا معه ونظرا أين كان يمكث ومكثا عنده ذلك اليوم» يالها من ساعات رائعة لا تنسى، تلك الساعات الأولى التي قضياها مع يسوع! ونحن لا نعرف مادار فيها من حوار بينهم، ولكن أندراوس ويوحنا، اللذين كان عليهما أن يقضيا العديد من الأيام معه فيما بعد، لابد أنهما كانا يتذكران دائماً تلك الساعات الأولى التي شكلت علامة بارزة في تاريخهما الروحي، وما تعلماه من يسوع في ذلك اليوم الأول من التعارف قد أقنعهما أنه كان حقاً حمل الله الموعود به. ومنذ تلك المحادثة السرية التي لن تنسى آمن أندراوس، وبعد أن عاد إلى بلدته بنفس مشتعلة بالحماس قال لأصدقائه: «وجدنا مسيا!» بعد أن وجد أندراوس الفرح والسلام في الإيمان، اندفع فوراً يحكي القصة للآخرين.

وفيما بعد، فإن أندراوس كان يرجع بذاكرته لتلك الجلسة الأولى مع يسوع، لأنه في ذلك الوقت كان قلبه قد اشتعل حمية وحماساً وحباً. في تلك الجلسة وجد أندراوس المخلص، ووجد المخلص أول تلميذ له، دعنا لا ننسى أنه كان لأندراوس شرف أن يكون «في المسيح» قبل أي واحد من أولئك الذين أصبحوا رسلاً تابعين له، والذين تفوق الكثيرون منهم عن أندراوس في المواهب والمركز. ولكن، لا أحد منهم استطاع أن يسلب من أندراوس شرف أن يكون أول من آمن بيسوع.

٣- صياد النفوس الغيور

لو أن الكارز ما هو إلا شحاذ يخبر شحاذاً جوعاناً آخر عن مكان وجود الخبز، فإن أندراوس، يعد بلا شك، كارزاً حقيقياً، لأنه دون إبطاء، أصبح التلميذ الأول، أول مرسل، وأول من مارس الكرازة الشخصية. فبعد أن ربحه المسيح، اندفع أندراوس على الفور ليربح الآخرين للمسيح. لقد أصبح المجند الأول هو الشاهد الأول. وسوف نكتشف أن إتيان الآخرين ليسوع كان سمة مميزة لأندراوس. فقد أتى بأخيه إلى يسوع ثم أتى بالغلام صاحب أرغفة الشعير والسمك ليسوع بينما كان يكرز على شاطيء الجليل، وفي وقت الفصح، قدم اليونانيون الباحثون عن الحقيقة للمعلم. هذه الشواهد كافية لابراز أن أندراوس كتلميذ كان منهمكاً في عملية إشراك الآخرين في كنزه الثمين «ليقل مفديو الرب الذين فداهم من يد العدو» (مز ١٠٧:٢). بعد أن انزاح حمل خطيته بواسطة حمل الله، شعر أندراوس أنه يجب أن يعلن مثل هذا الإنجيل للآخرين، فقد كان الإنجيل كنار في عظامه.

هناك كلمة أخرى ضرورية عن الطريقة التي أصبح بها هذا التلميذ الجديد أول مرسل للإيمان، فإذا كان أندراوس يشتعل رغبة ليفشي سره للآخرين، فأي مكان أفضل لتحقيق ذلك الهدف من موطنه الأصلي؟ لم يستطع أندراوس أن يكبل نفسه بالقيود عندما كان يفكر في الآخرين، الذين كانوا يبحثون عن الفداء في إسرائيل، ولذا فقد بدأ شهادته في أصعب مكان. إن الرجل الذي أخرج منه يسوع اللجئون من الشياطين، والذي أراد أن يبقى إلى جوار منقذه دائماً، أمره يسوع قائلاً: «اذهب إلى بيتك وإلى أهلك وأخبرهم كم صنع الرب بك ورحمك» (مر ٥:١٩). وقد فعل أندراوس ذلك بالضبط دون أن يؤمر، فإن أندراوس وجد أولاً أخاه سمعان، وجاء به إلى يسوع. إن العائلة تمثل حقلاً مرسلياً يحتاج للكثير من العمل لو كان هناك أعضاء فيه لم يسبق لهم أن عرفوا المخلص.

لاشك أن أخا أندراوس قد أصبح إنساناً أعظم منه،

ولكن ما كان من الممكن أن يكون هناك رسول لليهود لولا أندراوس الذي أعطت شهادته البسيطة لعائلته، بطرس، الصخرة، رئيس وقائد الاثنى عشر، إلى الكنيسة الأولى. لا يمكننا أن نعرف النتائج البعيدة المدى التي قد تنجم عن رغبتنا في أن نخبر الآخرين بمحبة المسيح الغافرة ونعمته. فمنذ اللحظة التي أخبر فيها أندراوس بطرس عن المخلص، فإنهما قد سلكا الطريق الأسمى سوياً، وسلكا طريق التلمذة التي أصبحت أثمن من كل شيء آخر بمضي الأيام.

وبعد اكتشافه، لم يندفع أندراوس ليقوم بدور الكرازة العلنية، كانت شهادته الأولى لأولئك المقربين منه. يحدث عادة في ذروة المحبة الأولى، وفي غمرة الإحساس العميق بأن اكتشاف المسيح أثمن من اللآلىء، يشعر المتجددون حديثاً بأنهم يجب أن يعلنوا الخبر السار بصوت عال من على سطح البيت لكل من يسمع. كان أندراوس يحب أخاه بطرس، وأخبره أولاً، وبعد ذلك اختبر قيمة اقتياد النفوس إلى المسيح، واحداً وراء الآخر. ألا تسعد لأن أخا، أو أختا، أو أباً أخبرك عن يسوع؟ كان على بطرس أن يأتي بـ ٣٠٠٠ نفس إلى يسوع مرة واحدة بنفس النوع من التبشير بالإنجيل المؤدي إلى الامتداد السريع للكنيسة الأولى، ومع ذلك لاحظ الشهادة الشخصية، كتلك التي تحدث عنها عندما يجد شخص ما المسيح فيخبر أخاه، وصديقه وجاره، وهكذا فإن نفساً قد استنارت قد أشعلت حماسة نفس أخرى ساعدت أيضاً في انتشار رسالة الإنجيل.

٤- رسول المسيح

جاء اليوم العظيم الذي دعا فيه يسوع أندراوس الذي كان صياداً للسمك في بحر الجليل ليكون صياداً للناس في بحر الحياة العاصف. بعد مقابلته الأولى مع المسيح، عاد أندراوس لمباشرة عمله كصياد للسمك، وبعدما يقرب من عام حين كان المعلم يجتاز الجليل، وجد أندراوس وبطرس يصطادان السمك ولكن دون تحقيق نتيجة تذكر. ولكن صيد السمك الوفير قد أقنع الصيادين بلاهوت وعظمة المعلم، وقد أصدر إليهما الأمر بترك شباكهما، وعدم التعامل مع السمك، بل مع البشر. وتبعاً لذلك، ترك التلميذان كل شيء، وتبعاه. وبعد وقت قصير، دعى أندراوس مع الباقين للحصول على شرف تولي لقب الرسول، وأصبح واحداً من نواب المسيح المقربين لتأسيس وامتداد الكنيسة المسيحية، لقد تعلم أندراوس أن خدمة المعلم كانت تتطلب منه ترك حرفته وبيته (متى ٤:١٨-٢٠، لو ٥:٤-٩).

ومع أن أندراوس ترك حرفته ليتبع المسيح في خدمته التجوالية، إلا أن المسيح لا يطلب من الجميع أن يتركوا مهنتهم وعائلاتهم. فأغلبية الناس يستمسكون بوظائفهم - إذا كان عملهم شريفاً - ومركزهم في الحياة يوفر لهم فرصاً لاقتياد الآخرين إلى المسيح، فصياد السمك يمكن أن يمجد الله على الرغم من بقائه في مهنته، والحرفي الذي يقبل المسيح في حياته، يصبح حرفياً أفضل. إن ارادة الله للناس أن يبقوا في سلك حياتهم المعتاد، وبأمانتهم من نحو الله، يجدون فرصاً أفضل لخدمة من خلصهم. فقد كان هناك شباب تركوا مراكزهم الجيدة ليدخلوا الخدمة ولكنهم لم يصلحوا للقيام بعمل الرعاة فاضطروا للعودة إلى عملهم العالمي.

قبل أن نستكمل حديثنا عن الأنشطة الإضافية لأندراوس، لابد من مزيد من الحديث عن التغيير في الأسماء عندما دعا الرب الصيادين لخدمته. ففي البداية، جاء اسم أندراوس أولاً، والآن يأتي اسم بطرس، أخيه، أولاً، «سمعان بطرس وأندراوس» وهذا هو الترتيب الذي يذكر به الأخوان بعد ذلك. ومع أن أندراوس عرف الرب

أولاً وأخبر بطرس عنه، إلا أن بطرس كان اسمه يتصدر قائمة الرسل.

إن الشخص الذي أصبح «رسولاً فوق العادة» كتب يقول «المحبة لا تحسد» (١كو ١٣:٤). وقد أظهر أندراوس هذه الفضيلة. دعنا لا نشعر بالأسف لعدم حصول أندراوس على المكانة الأولى. فلم يكن في قلبه أي وخزة حقد من أنه منذ ذلك الوقت فصاعداً كان أخوه الأكثر غيرة وحماسة هو الذي يتولى زمام القيادة، وفي بعض المناسبات كان لأندراوس شرف التصرف كرفيق لربه عندما لم يكن هو نفسه موجوداً هناك. إن خادم المسيح لا يصح أبداً أن يكون حسوداً لأن الذي بدأ السباق متأخراً يبدو أنه يتخطى من بدأ السباق مبكراً عنه. إن اعتلاء المراكز في خدمة المسيح نابع من إرادته العليا.

اليونانيون الباحثون عن الحقيقة

أثناء فترة إرساليته، لا يظهر أندراوس كثيراً مثل أخيه الأكثر ظهوراً، ومع ذلك ففي كل مرة نلتقي به، فهو نفس الشخصية الجذابة - الرقيقة والمراعية لمشاعر الآخرين، وهو الإنسان المخلص والذي يسهل الاقتراب منه والحديث معه وهو المهتم بجذب الآخرين لرب حياته. عندما جاء اليونانيون إلى فيلبس قائلين له «ياسيد نريد أن نرى يسوع» ذهب فيلبس إلى أندراوس طالباً المشورة (يو ١٢:٢٠-٢٢). كان هؤلاء اليونانيون أمميين قد اهتدوا حديثاً. أي أنهم يهود بالديانة وليس بالمولد. كانوا باحثين حقيقيين عن الله، وسائلين متحمسين. ولكونهم في أورشليم في عيد الفصح، فقد كانوا يرغبون في رؤية يسوع، ليس رؤية جسدية فقط، بل، فوق الكل، رؤية روحية. كانوا قد سمعوا أن «العالم قد ذهب وراءه» واشتاقوا أن يروه ويسمعوه، واختاروا فيلبس كالوسيط الذي يقودهم إليه، عمل فيلبس بنصيحة أخيه التلميذ، وذهب أندراوس وأخبر يسوع عن اليونانيين الذين كانوا يطلبونه. وكشريكين في نفس الإيمان بالمسيح، وخادمين لنفس السيد، جاء أندراوس وفيلبس إلى المسيح بطلبة كان وقعها على أذنه كالموسيقى الحلوة حتى أنه صاح قائلاً: «قد أتت الساعة ليتمجد ابن الإنسان».

كان أندراوس رجلاً لا يتوقع حدوث خطر عن طريق الخطأ، وبثقة في المسيح ربما أقوى من ثقة فيلبس فيه وبإدراك أوضح وأشمل، قرر أندراوس على الفور أن يخبر المسيح بطلبة اليونانيين، ولذا فقد قدمهم إلى يسوع. كم كانت هذه المقابلة مع الغرباء سبباً في توسيع آفاق ملكوت المسيح، الذي شعرت روحه بالإثارة! هؤلاء كانوا باكورة الأممين، الذين كانوا عينة لجيوش لاحصر لها من الأمم كانوا يشكلون ثمرة لآلامه فيرى من تعب يديه ويشبع. أما عن الرسول، فقد كان مثالاً رائعاً على التقديم الناجح لأنه كان شديد الذكاء في التعامل الشخصي وكان مسروراً دائماً للإتيان بالآخرين للاتصال بالمسيح.

معجزة إشباع الجماهير

فيما يتعلق بمعجزة إطعام الجماهير الجائعة، يظهر أندراوس مرة أخرى كوسيط للبركة. ملأ اليأس باقي التلاميذ مليئين باليأس. فإن إطعام أعداد غفيرة في الصحراء كان عملاً مستحيلاً. لم يكن هناك خبز أو مال لشراء الخبز حتى لو كان متوفراً. كتب شكسبير عن «أمهر الآلهة، الذين يصنعون لهم أمجاداً من المستحيلات لدى البشر» كانت النظرة الروحية لدى أندراوس وإيمانه بقدرة معلمه على تحقيق المستحيل لدى البشر، ممتزجة بتفكيره العملي، مما جعله يتمسك بالقليل لعلمه أن القليل في يد الله الابن كثير: ولذا فعندما رأى غلاماً معه القليل من الأرغفة والقليل من السمك، جاء به أندراوس إلى يسوع. ما كان لدى الصبي لا يشكل سوى كمية قليلة من الطعام لنفر

قليل، ولكن كيف يسد رمق هذا الجمهور الكثير العدد؟

كان أندراوس تجسيداً للعديد من الوسائل والوسائط، ومع أنه كان ينظر إلى كمية الطعام القليلة، تارة بشيء من الثقة وتارة أخرى بشيء من الخوف فيقول: وما قيمة هذه الأشياء بالنسبة لهذا العدد الغفير؟ فقد اقتاد الغلام بأرغفته الصغيرة إلى يسوع، لقد كوفيء وهو يشهد ما استطاع المعلم أن يفعله بما كان لدى الغلام. رأى أندراوس بصورة مجسمة القانون العظيم الخاص بالأصغر في ملكوت الله. ففي كثير من الأحيان تحتقر الوزنة الواحدة بين البشر، ولكن أندراوس كانت له العين الفاحصة للإمكانيات الكامنة في الطاقات والوسائط الصغيرة، فقد تعلم قيمة الأشياء الصغيرة في خدمة المسيح. يقول أحد المفسرين إن اقتراح أندراوس يعد في هذا الظرف الطارىء درساً عملياً للحياة. إنه يلقي الضوء على الأشياء المغمورة، ويقدس الخدمات التي يقوم بها الأطفال، ويشجع الجميع على تكريس كل شيء لخدمة المسيح.

أما عن الاثنى عشرة سلة المليئة بالكسر والتي جمعت بعد أن شبع الجمع، فهي دليل آخر للاثنى عشر لأنهم رأوا في المعجزة مثلاً على الروح الخيرة لمعلمهم، ودعوة لكل منهم بألا يتردد في أن يأتي بأثقاله عند قدميه.

الأزمنة والأوقات

انزعج التلاميذ بسبب نبوة يسوع عن الدمار الكامل للهيكل ولذا فقد سأله بطرس ويعقوب ويوحنا وأندراوس على انفراد عما كان يعنيه حقاً بنبوته (مر ١٣:٣،٤). ذهب التلاميذ الثلاثة الأوائل المقربون إليه مع أندراوس الذي ربما افترض أنهم يذهبون إلى المعلم سراً. بهرت كلمات يسوع الخطيرة عقولهم وأرادوا أن يعرفوا المزيد، وعندما جاءوا إلى بطرس، سنألوه ثلاثة أسئلة وهي على وجه التحديد:

متى سوف يتم تدمير أورشليم؟

ما هي علامات مجيئه؟

متى يمكنهم توقع نهاية الدهر؟

عندئذ تكلم يسوع بحديث جبل الزيتون، والذي لم ينساه هذان الثنائيان من الأخوة، صيادو الجليل الأربعة. بعد ذلك الحديث الطويل الهادىء، أصبح لدى أندراوس والباقين فهم حقيقي لنبوة المسيح. من المرجح أن أندراوس ويوحنا، بناءً على طبيعة تفكيرهما، قد فهما إجابة الأسئلة أكثر من بطرس ويعقوب. ويبدو كما لو أن الاثنين الأولين كانا يعيشان بالقرب من المركز الروحي وكان لديهما مجال أوسع من الفكر عن الاثنين الآخرين.

لابد أن الرسل الأربعة كانوا في قمة الإثارة عندما جلسوا واستمعوا إلى رؤية شاملة للأحداث القادمة التي سردها المعلم! ومن الكتابات اللاحقة للرسولين اللذين تشربا بذلك البيان التفسيري للمعلم، بطرس ويوحنا، نعلم أن تأثير تفسير الحقيقة النبوية التي سمعاها في ذلك اليوم على جبل الزيتون، شكل تفكيرهما وصاغ حياتهما منذ ذلك الوقت فصاعداً، جاعلاً إياهما بشيرين ونذيرين بمجيء معلمهما. أما عن أندراوس، فيمكننا أن نثق، أنه كالشخص الذي كانت خدمته شخصية وليست جهرية، فإن شفتيه قد نطقتا بما سمعه وتعلمه خلال تلك الجلسة التعليمية الرائعة.

العلية

المرة التالية والأخيرة التي يُذكر فيها أندراوس في تاريخ العهد الجديد كان بعد صعود ربنا، عندما نجده مع التلاميذ الآخرين، في العلية في أورشليم حيث كانوا يواظبون وبنفس واحدة على الصلاة والطلبة (أع ١:١٣، ١٤). وعندما حل الروح القدس، في يوم الخمسين، على تلك المجموعة المنتظرة المصلية من الرجال والنساء، اشترك أندراوس في تلك المسحة من الروح القدس. ولابد أنه لعب

دوره في امتداد الكنيسة اللافت للنظر، مع أن الكتاب المقدس لا يذكر شيئاً عن أعماله الرسولية. ومن الغريب أننا لا نسمع المزيد عن أندراوس في سفر أعمال الرسل. ولكن في مصادر أخرى، وهي حقيقية تقريباً، كما سنجد في الفصل التالي، نجد الكثير من المعلومات المثيرة عن خدمته وموته. ولكن حيث أنه لا توجد إشارة أخرى إليه في الكتاب المقدس، وحيث أننا لا نتعامل سوى مع الكتاب المقدس في هذا الصدد، فإننا نترك أندراوس حيث يفعل السجل المقدس.

نحن نودع صديقنا الجذاب المتواضع في الصحبة الطيبة وفي ظل الظروف السعيدة التي يصفها المؤرخ لوقا. هناك كان تابعاً أميناً للرب حتى بعد أن غاب المعلم من ناظريه، وكان واحداً من القلة المكرسة التي آمنت وأحبت، وانتظرت بالصلاة والإيمان إتمام وعد الروح القدس الذي اختبره تماماً وبصورة رائعة في ذلك اليوم التاريخي ألا وهو يوم الخمسين. ولكن ذلك الاسم الباعث على السرور سوف يحيا إلى الأبد. يخبرنا يوحنا أن الأساسات الاثنى عشر للمدينة الأبدية تحمل أسماء «رسل الخروف الاثنى عشر» (رؤ ٢١:١٤)، وبما أن أندراوس كان واحداً من أخلص الاثنى عشر الذين اختارهم يسوع، فاسمه موجود فوق واحد من تلك الأعمدة وسوف تظل ذكراه خالدة.

٥- مثال يحتذى

مثل رسول اعترافنا ورئيس كهنته، المسيح يسوع، فإن أندراوس قد ترك لنا أيضاً مثالاً حتى نتبع خطواته. ما هي بعض هذه الخطوات التي يجب أن نتبعها؟ ما الدرس الذي تعلمه لنا حياته؟ ما هو الإلهام الذي يمكن أن نستجمعه من شهادته؟

أول امتياز أظهره أندراوس هو نعمة التواضع. وفيما بعد، فإن أخاه المبجل في الجسد، ومع ذلك فهو ابنه الروحي في المسيح، بطرس، استطاع أن يكتب عن التسربل بالتواضع، وأندراوس يرى دائماً متسربلاً بهذا الثوب. وبمعنى خاص فهو «رسول التواضع»، وهو يقدم تشجيعاً كبيراً لأولئك الذين لا يمتلكون سوى وزنة واحدة. إنه مثال للرجل الذي يفكر في الخدمة بأكثر مما يفكر في الشهرة، وفي العمل الذي يؤديه بأكثر مما يفكر في المكانة المعطاة للعامل. هناك كثيرون لا يعزفون في الغرفة ما لم تعط لهم أكبر آلة موسيقية، والذين لا يعملون ما لم يحلصوا على مركز بارز. لقد أظهر يعقوب ويوحنا شيئاً من هذه الروح عندما أرادا أن يحصلا على المركز الأول في الملكوت. إن بعضاً من التلاميذ كانوا يتشاحنون من آن لآخر فيما بينهم عمن يجب أن يكون الأعظم، ولكن أندراوس كان بعيداً عن هذه المهاترات الغاضبة، فلم يكن له ميل لكي يتبوأ مركزاً شرفياً بارزاً. توقع أندراوس إلهام الشاعرة المسيحية، كريستينا روزيتي، وقال للرب:

أعطني أقل مكانة، فأنا لا أجرؤ على
أن أطلب سوى تلك المكانة الدنيا، ولكنك مت
حتى أحيا واشترك في مجدك إلى جوارك
اعطني المكانة الأقل، أو إذا كانت
تلك المكانة رفيعة المستوى بالنسبة لي
فاعطني مكانة أقل منها
حيث يمكنني أن أجلس وأرى إلهي، وأحبك أنت وحدك.

لم يهتم هذا الرجل ذو الفكر المتواضع والقلب الكريم بأولئك الرجال الذين كانوا يتحدثون عن بطرس بأكثر من أخيه، أو عن يعقوب ويوحنا بأكثر مما يتحدثون عنه. كل ما كان أندراوس يفكر فيه هو عمله لخدمة المعلم الذي اختاره ليكون رسولاً. وإذا كان مهتماً بصيته الحسن وإخلاصه للمسيح، فقد كان على استعداد تام لترك موضوع شهرته بين يدي ربه. وهكذا فإن أندراوس سوف يظل دائماً وأبداً

الأب والنموذج لكل من يعمل بهدوء في أماكن غير ظاهرة، سواء كان في البيت أو خارج البيت، ليس كخدمة العين كمن يرضى الناس، بل كخادم المسيح، متمماً مشيئة الله من القلب.

درس آخر نحصل عليه من سجل أندراوس وهو القانون الإلهي الخاص بالمغمورين، فقد قال يسوع إن «الأولين يكونون آخرين» ومع أن أندراوس كان التلميذ الأول، إلا أنه لم يصل أبداً إلى مركز الصدارة، ولم يكن مقدراً له أن يلعب دوراً بارزاً في دراما الإنجيل. فقد كان واحداً من الشخصيات الثانوية بين الرسل، وكان يخطو على المسرح هنا وهناك للشهادة بطريقة متواضعة، ثم يختفي وراء الكواليس. والأناجيل لا تقدم أندراوس كشخص له أي مواهب معينة بارزة. ومن الواضح أنه لم يكن واعظاً. ولم ينطق سوى ببضع كلمات قد وصلت إلينا. وعلى قدر معلوماتنا لم يكتب أي رسائل كما فعل زملاؤه من الرسل. كان يبدو أنه كانت تنقصه الجرأة المقدسة التي لأخيه بطرس، والمقدرة الأدبية التي لمتى والخيال الملهم ليوحنا. وإذ كان يوصف أساساً بأنه أخو سمعان بطرس، فلم يكن يظهر سمة القيادة.

كان بطرس ويعقوب ويوحنا يشار إليهم كأعمدة الكنيسة، ولكن أندراوس كان واحداً من حجارتها المتواضعة. كانت الطاقة البارزة والمهارة الفائقة للثلاثي الرسولي تحجبان أندراوس. يقول ج.د جونز إن شبيه أندراوس في العهد القديم هو بنايا، أحد أبطال العهد القديم. وهذا النموذج الأصلي والرائد لأندراوس كان واحداً من رجال داود الأشداء الشجعان، وقد تم تدوين الكثير من مأثره وأعمال بطولته التي اكسبته شهرته وشجاعته. ولكن عمله البطولي الرئيسي وأعظم إنجاز له، لم يدون، ألا وهو احتفاظه بتفائله وشهامته في المواقف الصعبة والخطرة «هوذا أكرم على الثلاثين إلا أنه لم يصل إلى الثلاثة» (١أخ ١١:٢٥).

ومن مآثر بنايا أن يقال عنه إنه لم يشعر أبداً باكتئاب أو خيبة أمل لأن مكاناً في الصف الأول قد ضاع منه. وعلى الرغم من أعماله التي تدل عن الشجاعة والفروسية، إلا أن داود قد تخطاه، ولكن بنايا قبل مركزه الثانوي دون تذمر، والمكان الذي شغله بين رجال داود الأشداء، شغله أندراوس بين الاثنى عشر، وعلى الرغم من أن اسمه يذكر دائماً في المجموعة الأولى من الرسل، إلا أنه بكل تأكيد لم يكن على قدم المساواة مع العظماء الثلاثة، بطرس ويعقوب ويوحنا. لم يكن أندراوس في علاقة حميمة مع المسيح كما كانوا، أو لم يكن يسمح له بشهادة بعض الأحداث المجيدة كما سمح لهم. ترك أندراوس عندما أخذ المسيح «الثلاثة الأوائل» ليشهدوا إقامة ابنة يايرس من الموت – ومجد التجلي على الجبل المقدس – وآلامه في البستان.

لم يخبرنا أحد عن السبب الذي من أجله لم يسمح لأندراوس بالمشاركة في امتيازات بطرس ويعقوب ويوحنا، أو السبب الذي جعله لا يرقي لمرتبة الثلاثة الأوائل. يقول صمويل كوكس إن السبب ربما يكون لأن أندراوس كان أقل انفتاحاً وذكاء، وأقل جسارة وجرأة من الثلاثة الآخرين. ولكن ما نعلمه يقينا، أن امتيازه العظيم أنه كان قانعاً بكونه أقل شهرة وأكثر نكراناً للذات من بعض الرسل الآخرين. لم يكن هناك حقد في قلبه لأنه «لم يصل إلى الثلاثة» كان قانعاً بمكانته الأقل بين الرسل، وبكل بساطة وهدوء في الطبع خدم معلمه بأفضل طريقة ممكنة في نظره. كان أندراوس بعيداً كل البعد عن ذلك الحسد البائس الذي يجعل الإنسان شاحب اللون ومريضاً حين يصل الصديق إلى مركز الصدارة.

ومع أنه لم يتم تسجيل سوى النذر اليسير عن

أندراوس، إلا أنه في كل مناسبة يظهر فيها فانها تمتليء بجمال آخاذ، وهو مصدر تشجيع دائم للأشخاص العاديين. ربما يكون رجلاً ذا قدرات ضعيفة، ولكنه كان ذا هدف واضح ومحدد، وقد استخدم كل إمكانياته بنبل وشهامة، وفي ضوء كل ما لدينا عن شخصيته وسلوكه، يرينا أندراوس الطريق الذى ينبغى أن نسير فيه، وكيف يمكننا أن نخدم الرب إلى أقصى ما لدينا من قدرة محدودة. إنه سوف يظل دائماً تلميذاً نموذجياً يوضح لنا أننا مخلصون لنخلص الآخرين، إن أعظم خدمة يمكن أن نقدمها للذين حولنا أن نعترف مع أندراوس قائلين: «قد وجدت المسيح».

إن دعوة المسيح تعتمد إلى حد كبير على تلك النفوس المنكرة لذاتها، والقانعة باحتلال المراكز الصغرى، والمتحررة من طموحات البحث عن المجد الذاتي. لم يُحاول أندراوس القيام بأعمال عظيمة، ولم يشعر أبدا أنه قادر عليها. لقد كان يعرف بطريقة ما الواجبات الصغرى والإمكانيات المتواضعة التي تميل العقول الكبيرة لتجاهلها. هل يمكننا أن نقول مثله إننا أمناء في الأمور البسيطة؟ وكما سوف نكتشف فإن التقليد الكنسي قد وضع هالة تقديس حول رأس أندراوس الذي يمثل أصحاب الإيمان البسيط، الذين لهم قدرات طبيعية فطرية، والذين يظلون دائماً نموذجاً للعاملين المغمورين في كرم المسيح ولكنهم مملؤون بالغيرة والحماس. ولكن كما يعبر دانيل ماكلين بقوة عن ذلك في حديث موجز عن أندراوس فيقول: «عندما نستجمع معاً آثار الشخصية الموجودة في الكتاب المقدس، لا نجد أثراً لكاتب رسالة أو مؤسس كنيسة، أو لشخصية قيادية في العصر الرسولي، بل مجرد باحث جاد عن الحقيقية، يتوق دائماً لأن يعرف الآخرون نبع الفرح الروحي ويشتركون في نوال البركة التي كان يقدرها كثيراً. كان رجلاً لا يمتلك الكثير من المواهب، نادراً ما كان يتحلل من وعده الأول، وكان بسيطاً وعطوفاً دون قوة هائلة أو روح بطولي. ومع ذلك كان لديه ثقة كاملة في المسيح الذي جاء به إلى تلك الدائرة المقربة إليه من الاثنى عشر. كان رجلاً لديه شعور ديني عميق، مع قدرة قليلة على التعبير. ذا جاذبية مغناطيسية بأكثر منها كهربائية، تصلح لمسالك الحياة الهادئة وليس للشوارع المزدحمة والمثيرة.

أندراوس رسول الحياة الخاصة – تلميذ البيت الهادىء.

برثولماوس
التلميذ المشهور بشفافيته

العبارة اللاتينية المألوفة Multum in Parvo تعني «كثير من قليل» وكل ما نعرفه من الكتاب المقدس عن شخصية برثولماوس مستمد من السبعة الأعداد التي يقدمها يوحنا في الأصحاح الافتتاحي لإنجيله. وخلاف ذلك ليس لدينا مصدر آخر عن نوعية هذا الرجل. ومع ذلك فهناك مشهد هائل يمكننا أن نراه من خلال نافذة ذات سبعة ألواح زجاجية، وهي طريقة أخرى للقول بأنه يمكن التوصل لأشياء كثيرة من أشياء قليلة (يو ١:٤٥-٥١).

بينما تبدو البدايات الأولى للمسيحية غامضة تقريباً، واللقاء الأول ليسوع مع خمسة رجال مغمورين هم أندراوس وبطرس وفيلبس ونثنائيل وشخص آخر مجهول الاسم، حدثاً غير هام في تاريخ الكنيسة. إلا أنهم أصبحوا المرافقين الدائمين للمسيح، ورسلاً على جانب كبير من الفاعلية والتأثير. يلاحظ أن ذكر نثنائيل جاء أكثر تفصيلاً وأكثر تشويقاً عنه في حالة الأربعة الآخرين في الأصحاح الأول من إنجيل يوحنا، ومن المدهش أنه يخبرنا بالكثير في هذا الأصحاح عن شخص لا نعرف عنه شيئاً تقريباً. ومع أنه رجل على جانب كبير من التفوق الأخلاقي، إلا أن تاريخ حياة نثنائيل يقتصر عملياً على هذا الأصحاح التمهيدي من إنجيل يوحنا، ومع ذلك فهذا يكفي لدراسة شخصيته.

١- رجل ذو اسم مزدوج

في حقيقة الأمر، فالاسم الكامل للرسول الذي نحن بصدده الآن هو نثنائيل برثولماوس، لأن الإجماع بين أفضل ومعظم المعلقين الذين يعتمد عليهم هو أن نثنائيل الذي يذكره يوحنا (١:٤٥-٥١، ٢:٢١)، هو برثولماوس المذكور في قوائم الرسل في سفر أعمال الرسل والأناجيل الأخرى الثلاثة (مت ١٠:٣، مر ٣:١٨، لو ٦:١٤، أع ١:١٣). ربما يمكننا أن نحاول جمع الأدلة على أن نثنائيل هو برثولماوس، فقد كان من المألوف على نطاق واسع بأن يكون للشخص أكثر من اسم - وهي حقيقة توضحها الدائرة الرسولية. فقد كان سمعان يلقب ببطرس وبار يونا وكان متي يدعى لاوي، وكان لباوس وتداوس ويهوذا أسماء لشخصية واحدة، كما سوف نكتشف حالاً، ومن الممارسات العامة اليوم أن يكون للناس أكثر من اسم، فعلى سبيل المثال، فإن اسمي بالكامل هو هربرت هنري جون لوكير إذن فبارتولماي Bar-Tolmai الاسم المقابل لبرثولماوس كان لقب نثنائيل.

ما معنى تولماي أو تلماي (٢صم ١٣:٣٧) كانت تعيش بين اليهود طائفة تعرف باسم تولماينز Tholmaens، نسبة إلى تولماي، تلميذ هيبير Heper، وهو معلم عبراني قديم،

من المحتمل أن نثنائيل الذي كان ضليعاً في الكتاب المقدس، قد تمسك بهذه المدرسة الفكرية التي كان الاهتمام منصباً فيها على الكتب المقدسة، كان «ابن تولماني» اسماً شائعاً بين اليهود في زمن المسيح. وكان الاسم برثولماوس يعد لقباً عائلياً بأكثر مما يعد اسماً لشخص ويعرف وبستر كلمة Patronymic بأنها تعني «اسم مكون بإضافة حروف في المقدمة أو المؤخرة يدل على العلاقة باسم أبي الشخص أو جده، كما نقول إن «جونسون» (Johnson) هو ابن جون، وهكذا.

والدليل على أن برثولماوس ونثنائيل اسمان لشخص واحد يمكن تقديمه بهذه الطريقة، ذكر يوحنا نثنائيل مرتين، وفي أول مناسبة يضعه يوحنا وسط التلاميذ الأوائل الذين يستجيبون لدعوة يسوع. والقصة المطولة نوعاً من دعوته غير مناسبة تماماً ما لم يكن قد أسند إليه فيما بعد عمل الرسول. ثم يذكر يوحنا نثنائيل كواحد من بين السبعة تلاميذ الذين عادوا لمهنة صيد السمك (٢:٢١). ويفترض أن كلمة «تلاميذ» هنا مساوية لكلمة «رسل» خاصة أن نثنائيل قد اختير ليكون شاهداً شخصياً على قيامة الرب – وهو امتياز عظيم ومجيد!

ثم عن طريق عملية الاستبعاد فإن الدليل التراكمي فيما يختص بالتطابق بين برثولماوس ونثنائيل يصبح أكثر إقناعاً. عندما نتجه إلى رواية يوحنا عن نثنائيل نجده مرتبطاً ببطرس، وأندراوس، وفيلبس (٢:٢١). في هاتين الحادثتين نجد حديثاً عن ستة من جماعة الرسل. إن نثنائيل لا يمكن أن يكون متى الذي كان يدعى لاوي، ولا يعقوب الصغير، قريب المسيح – ثم أن نثنائيل لم يكن قد التقى بالمسيح حتى قدمه فيلبس. وهذا حديث عن ثمانية من الاثنى عشر. كان من المستحيل أن يكون نثنائيل يهوذا الخائن أو يهوذا الآخر الذي سأل المسيح كيف يمكنه أن يظهر نفسه لأحبائه وليس للعالم.

وهكذا نجد أنفسنا مع سمعان الغيور، وشخص آخر. حسناً، مهما يكن من أمر نثنائيل، فهو لم يكن بالتأكيد ثورياً وشخصيته الواضحة البراءة لم تكن تؤهله للتغييرات العنيفة التي يقوم بها الغيورون. وهناك دليل آخر يبقى عن طريق الاستنتاج في أناجيل متى ومرقس ولوقا، فحيثما يذكر أسماء الرسل، يذكر فيلبس وبرثولماوس جنباً إلى جنب، وهذا الربط بين الاثنين لافت للنظر في ضوء ربط يوحنا بين فيلبس ونثنائيل كرفيقين. من الواضح أنهما كانا صديقين، فمن كان الأكثر احتمالاً أن يصبح تلميذاً للمسيح بأكثر منه صديقاً له؟ لذلك كان الشيء الأكثر تلقائية من أي شيء آخر بالنسبة لفيلبس أن يجري إلى نثنائيل بالخبر المفاجيء والمثير أنه قد وجد المسيا. من غيره كان يمكن أن يفرح لهذا الخبر المثير غير أعز صديق لديه؟ الاستنتاج الوحيد الذي يمكن استخلاصه من تلك المفارقة بين النصوص المختلفة هو أن الرسول الرفيق لفيلبس، برثولماوس، هو نفسه نثنائيل الذي نجح في الإتيان به إلى يسوع في ذلك اليوم الذي لا ينسى.

أما عن معنى هذين الاسمين، فإن برثولماوس كما ذكرنا، هو لقب نثنائيل وقد كان لقباً محبوباً جداً في العصور الوسطى عندما كان مذهب القديس برثولماوس في أوج قوته، كان مستشفى لندني شهير يحمل اسمه قد تأسس في القرن الثاني عشر، وكانت هناك سوق خيرية تقام في لندن لجمع الأموال اللازمة للمستشفى. وقد استمر هذا السوق مركزاً لحياة المدينة عدة قرون حتى أغلق في القرن التاسع عشر. والقديس برثولماوس، كما كان يطلق عليه، يقال إنه استشهد في أرمينيا ٤٤م (انظر الفصل التالي). إن المذبحة الشهيرة باسم المذبحة الوحشية للفرنسيين الهوجونت (البروتستانت) في عهد الملك تشارلس

التاسع، بدأت في عيد القديس برثولماوس، ٢٤ أغسطس ١٥٧٢، بايعاز من كاترين دي ميدتشي، أم الملك الصغير، والسجلات الرسمية تقول إن حوالي ٣٠,٠٠٠ من الرجال والنساء الشجعان قد قُتلوا في ظل هذا الاضطهاد المروع.

وكلمة نثنائيل «هبة الله» من المرجح أن الاسم من اختيار والدي نثنائيل للتعبير عن الامتنان الأبوي التقوى بخصوص ميلاده. وهذا الاسم العبري يماثل الاسم اليوناني «تيودور» والموجود أيضاً في الاسم «دوريثا» (انظر عد ١:٨، ١أخ ٢:١٤)

الاسم موجود في العهد القديم في ثلاثة أشكال

ناثان، النبي الذي وقف بجانب داود كثيراً.

الناثان، أحد الأمراء في وقت إرميا.

نثنائيل، أمير في أيام يشوع، أخو دادو، ابن عوبيد أدوم.

٢- رجل تعلم عن المسيح كلي المعرفة

نتأمل في هذا الجانب من حياة الرسول في مرحلة تالية، لأنه قبل أن يرى ويعرف يسوع، عرف المسيح كل شيء عن نثنائيل «وأنت تحت التينة رأيتك» (يو ١:٤٨،٥٠). لاشك أن هذا الإعلان عن تلك السمة هي التي دعت يوحنا ليمضي إلى القول: «كان يعرف الجميع، لأنه لم يكن محتاجاً أن يشهد أحد عن الإنسان لأنه علم ما كان في الإنسان» (يو ٢:٢٤،٢٥) اعترف المرنم أن الرب عرف عنه كل شيء، وفهم فكره من بعيد (مز ١٣٩:١-١١) وكالرب العليم بكل شيء، فلا أحد ولا شيء يمكن أن يتوارى منه. وكما يعبر اليكوت عن ذلك في تعليقه على نثنائيل فيقول «بالرغم أنه ظن أن العيون لا تراه، إلا أن المسيح الذي كان يتطلع لمجيئه كل إسرائيلي حقيقي، قد رآه، وقد كان قربه في متناول اليد. ولكنه كان قريباً على صورة إنسان، مما يصعب على البشر قراءة الجانب الإلهي فيه. وفي أحداث الحياة العادية يجد الناس من الصعوبة بمكان أن يدركوا الله، معلم متجول! إنه المسيا، من الناصرة يخرج كل شيء صالح! لم يكن إذن هذا اللقاء، هو الأول، فقد كان هناك حضور مسياني حقيقي في الفكر الداخلي لنثنائيل، والآن فقد فوجيء نثنائيل وسأل المسيح «من أين تعرفني؟» ولكن المسيا كان موجوداً في كل مكان «قبل أن دعاك فيلبس وأنت تحت التينة رأيتك».

ألا نستطيع أن نقدر لماذا سأل نثنائيل في اندهاش، من أين تعرفني؟ فحتى تلك اللحظة، لم يلتق هو ويسوع من قبل، ولم يتكلم كل منهما مع الآخر حتى جمعهما فيلبس معاً، ولكن كنتيجة للقائهما الأول قد اقتنع نثنائيل أن أفكاره السرية ورغباته كانت كلها مكشوفة لذلك الرجل الذي من الناصرة: أن المنطقة الداخلية من الإلهام كانت كالكتاب المفتوح أمامه. إن هذه الحقيقة من المعرفة الإلهية الفاحصة للقلب تبعث على التعقل والصحو، فنحن نادراً ما نتوقف لنفكر في أن الله يعرف كل شيء، وأن عينه ترى أعماق كياننا، وأنه يعرف كل ما بداخلنا. كثيراً ما نصلي طالبين حضوره، في حين أن طلبتنا يجب أن تكون أن نعرف ونتعزى بحضوره، لأن حضوره واقع فعلي ملموس بالنسبة لنا. ليتنا لا ننسى نظرته الشفوقة والفاحصة في نفس الوقت في اللحظات التي تقترب فيها الخطية منا سواء كانت خطية سرية أو علنية! وبما أن المسيح عرف نثنائيل وعرف كل شيء عنه قبل أن يعرف نثنائيل المعلم ويعرفه، فهكذا كما فعل ابو الابن الضال، فهو يرى الخاطيء «من بعيد».

٣- رجل صديق

ياله من فصل مؤثر عن العمل الفردي لربح النفوس، ذلك الأصحاح الأول من إنجيل يوحنا! فيوحنا المعمدان يلتقي بحمل الله، وأندراوس ويوحنا يتبعانه، وأندراوس

يقود أخاه بطرس إليه. ثم وجد يسوع فيلبس وفيلبس وجد نثنائيل واقتاده إلى الرب يالإثارة التي نحصل عليها، عندما نلتقي بالأفراد في طريقنا، ونعلن استعدادنا لأن نقول كما قال فيلبس لنثنائيل: «تعال وانظر!» فلو آتي الآخرون. واختبروا ما يستطيع الرب أن يعمله في حياتهم، لقل عدد المتشككين في هذا العالم كثيراً.

بالقراءة بين السطور يبدو كما لو أن رابطة من الصداقة أو القرابة قد جمعت بين فيلبس ونثنائيل معاً قبل أن يوحدهما الرب معاً في شركة أسمى ويبدو أن الأول قد تأثر كثيراً بالثاني بسبب ثقافته وشخصيته النبيلة. كان كلاهما يهوديين محافظين مخلصين وكانا يتحدثان كثيراً سوياً عن إلههما، وأمتهما، وعن المواعيد المقدسة لفداء جنسهما. ولذلك، فعندما وجد فيلبس المسيا، نستطيع أن نتفهم حماسته المفرطة عندما اندفع ليخبر صديقه المقرب بالخبر السار. حتي لا يحدث انقسام فيما بينهما بل يكونان واحداً في المسيح. وعندما أصبحت أفكارهما العميقة ومشاركتهما الوجدانية متجانستين قبل كلاهما المسيح الذي جاء مخلصاً للعالم.

كان نثنائيل إذن، مديناً لفيلبس صديقه الذي قدمه للمسيح. ولو كان قد رفض أن يستجيب للدعوة، لأصبح هناك حاجز بين الاثنين، ولفقد كل منهما الآخر، ولفقد يسوع صديقاً ورفيقاً في خدمته. ولكن المعجزة حدثت، لأن كليهما قدر صداقة يسوع وهذا هو الذي قرب بين فيلبس ونثنائيل وقد عمل ذلك على صياغة روابط أوثق عما كانا يعرفانه من قبل. لقد وجد فيلبس في صديقه شخصاً كان على استعداد للاستماع لما قاله عن المسيا. فبلا خوف أو تردد أو اعتذار، أخبر فيلبس بأرائه وسمعه، وازدادت إثارة نثنائيل، وهو أيضاً سمع وآمن. لاشك أن القدوة التي نجدها في فيلبس مشجعة كثيراً لأولئك الذين قد يترددون في الحديث مع أصدقائهم عن المخلص الذي وجدوه. إنهم قد يتوقون ليشتركوا معناً في إدراك الفرح الإلهي الذي يمكن للنفس أن تحصل عليه – فرح الخطية المغفورة! وهكذا، فإن «فيلبس يكرس الصداقة، ويأتي بواحد من الذين يطلبون الله في صمت ويخجلون من نظرة العالم لهم، ليدخله التاريخ من أوسع أبوابه» «تعال وانظر» فالرؤية هي الإيمان!.

٤- رجل ذو تحيز واضح

عندما اقتحم فيلبس عزلة نثنائيل بصيحته المثيرة «قد وجدنا... يسوع الذي من الناصرة» اعتراه تحيز واضح قاده إلى الجواب «آمن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح؟» كانت الناصرة كقرية ليست بعيدة فقط، ولكنها كانت قليلة الأهمية أو سيئة السمعة. ولم يكن نثنائيل مهتماً بمثل هذا المكان أو بأي واحد يعيش فيه، أو يأتي منه. كيف يمكن لأي رجل يأتي من تلك القرية الحقيرة أن يثير أي حماس! يقول بروس إن تحيز نثنائيل ضد الناصرة، غير المتوقع من شخص يتسم بهذه الوداعة وهذا اللطف، لا ينبع من الكبرياء كما في حالة أهل اليهودية، الذين احتقروا الجليليين عموماً، بل من التواضع، لقد كان هو نفسه جليلياً، وموضع احتقار اليهود كالناصريين، وكان تفكيره بينه وبين نفسه هكذا «لاشك أن المسيا لا يمكن أن يأتي من بين أناس محتقرين مثلنا – من الناصرة، أو من أي مدينة أو قرية جليلية أخرى».

عندما سرى شعوره بعدم التصديق كرد فعل أولى لنثنائيل على خبر المسيا، وقد دفعه تأثير الرأي العام إلى الاعتراض على الناصرة، وكان هناك ما يغذي تحيزه، لكنه كان مخطئاً حين سمح لهذا التحيز أن يغلق الباب في وجه تقصي الحقيقة والبحث عن الدليل حتى أنه أدان فيلبس في قلبه بقوله إنه لا يخرج شيء صالح من مثل هذا الاسم

سيء السمعة. فإذا كانت دهشة نثنائيل المشوبة بعدم التصديق مبنية على الجهل، فهي تدل على قلة الإطلاع، فكدارس للعهد القديم، كان يجب أن يعلم أنه لا يوجد تعارض بين النبوة والتاريخ الفعلي، فهو يوضح أنه من الممكن أن يولد الشخص في مكان ما وينشأ في مكان آخر، وأن يعيش أيضاً في بيئة حقيرة دون أن تلوثه شرورها، لقد جاء يسوع من الناصرة السيئة السمعة، ودعى ناصرياً، ولكنه كان بلا خطية.

فالتحيز أو الأفكار المُسبقة يثبت غالباً أنها أكبر عقبة في سبيل قبول رسالة الإنجيل. يصف يوحنا بنيان، ببصيرته الفذة، في قصته المجازية الشهيرة «الحرب المقدسة» الدور المرعب الذي يلعبه التحيز في حياة البشر، فقد نتذكر كيف أنه عندما جاءت قوات عمانوئيل لتستولي على نفس الإنسان وجهت هجومها أولاً على (بوابة الأذن)، ولكن إبليس اتخذ تدابيره لملاقاتها، لأنه كان قد وضع على (بوابة الأذن) شخصاً يصفه بنيان بأنه «السيد تحيز» العجوز، وهو شخص غاضب سيء الطبع، ووضع تحت إمرته ستين رجلاً، أسماهم الرجال الصم – وهم أناس تخصصوا في القيام بهذه الخدمة لأنهم يرددون كلمات القادة لا الجنود، وبتفسير مثل بنيان نفهم أن آذان الناس تكون في الغالب مغلقة تجاه الإنجيل بفعل التحيز. أليس ذلك هو الذي جعل الأمة اليهودية ككل تظل صماء لدعوة المسيا؟ فالتحيز أعماهم عن جماله وجلاله الإلهي وقوته، وجعلهم يرفضون دعوته.

كان فيلبس حكيماً ولم يتوقف ليتجادل مع نثنائيل فآراؤه المسبقة قد اختفت عند رؤية يسوع، وعرف أن نفس الشيء سوف يحدث في اختبار الصديق الذي كان متهماً بأن يربحه للمسيح فالتحيز نادراً ما يتأثر بالمجادلات، ولكنه يتوارى عن طريق الحقائق، فلو كانت اعتراضات نثنائيل فكرية أو أخلاقية، لكان الموقف مختلفاً، ولكن فيلبس كان يعلم أن التحيز كان العقبة الوحيدة، فلم يعمل على زيادة المجادلة معه. كان يعلم أنه لو جاء نثنائيل إلى المسيح، فإن تحيزه سوف يختفي – كما حدث بسرعة. نحن نصبح أقوى ما يمكن فيما يتعلق بالحقائق والاختبار، وكلها مركزة في الحكمة واللباقة المتمثلين في رد فيلبس «تعال وانظر!».

كانت هناك أمانة كافية وراء كل تحيز لنثنائيل. كان على استعداد للاستماع إلى رفيقه. لم يكن لديه أي قدر من الغرور الخطير الذي يجعله يفترض أنه قد توصل لكل الحقيقة التي يمكن أن يعرفها، وأنه لا شيء يمكن للمستقبل أن يأتي به. كان يخفي بين جنباته ذلك الرجاء الهاجع بأن عينيه سوف ترى ذاك الذي تحدث عنه الأنبياء، وعندما رآه هزم تماماً. هناك العديدون اليوم من أمثال نثنائيل، الذين بالرغم من كل يقظتهم العقلية، تحوط بهم الكثير من المخاطر أيضاً، وأخطرها تلك الاعتراضات السطحية على الناصري نفسه وعلى دعاوي حقه، ففي أغلب الأحيان فإن هذه الاعتراضات تسد الطريق إلى الإيمان، وخاصة عندما تثير في الشخص المتحيز الإعجاب بمهارته الشخصية، والعلاج الوحيد لهذه الحالة وأفضل السبل الفعالة للتعامل معها، هو اتباع الطريقة التي اتبعها فيلبس مع نثنائيل «تعال وانظر!». عندما ترى عيون الناس الملك، رب الجنود، فإن الشكوك، والخلافات، والتحيزات تختفي سريعاً كما تختفي الظلمة عند شروق الشمس. فبالإيمان، يرون عن يقين مقدار الخير العميم الذي أتي من الناصرة.

٥- رجل ذو مشاعر دينية عميقة

لم يكن نثنائيل أو برثولماوس، ضالاً مبذراً يبذر أمواله في عيش مسرف. ففي كيانه اتسم بالأخلاق رفيعة المستوى. كان أقرب ما يكون إلى الشاب الغني. فبمجرد

أن وقف في حضرة المسيح، قال له: «هوذا إسرائيلي حقاً لا غش فيه» (يو ١:٤٧). وكسمعان كان ينتظر تعزية إسرائيل وكان مع جميع الأتقياء المنتظرين فداء في أورشليم (لو ٢:٢٥،٢٨) بعد لقاء نثنائيل لم يوبخه الرب بسبب تحيزه بل امتدحه لأجل فضائله المثلثة:

ثقته «هوذا إسرائيلي حقاً»

لابد أن نثنائيل كان مندهشاً لأن كلمات المخلص الأولى إليه لم تكن كلمات الإدانة لأجل معلوماته المسبقة وشكوكه في شهادة فيلبس عن اكتشافه للمسيا، بل كانت كلمات التهنئة لشخصه، كإسرائيلي حقيقي - يهودي، ليس بالصدفة أو بحكم الميلاد، بل كشخص وموقف. وإنه لذلك كتلميذ جديد كان عليه أن يتخلى عن القليل من العادات والأفكار! لابد أن الدهشة قد عقدت لسان نثنائيل، عندما امتدحه يسوع لثقته في إله إسرائيل. فقد كان إيمانه فطرياً، وأوحى إلى الآخرين بما كان يعتمل في داخله وبما كانت تنطوي عليه سجيته.

وما يجعل هذا التقييم الإلهي ملفتاً للأنظار حقيقة أن المسيح تفوه به للتلاميذ الآخرين الذين كانوا موجودين. ولكن نثنائيل، الذي لم يقبل المديح باقتناع وتسليم تام، قد سمعه أيضاً. وبما أنه كان يعيش لغرض أسمى من مدح أو ذم المحيطين به، فإن هذا الإسرائيلي الحقيقي كان أبعد ما يكون عن مستوى الرضا عن الذات، وقد سأل باتضاع الشخص الذي امتدحه عن كيفية معرفته به، فعند أول لقاء إذن، شهد يسوع لشخصية نثنائيل الجديرة بالاحترام، فهو «كإسرائيلي» حقاً، فقد كان رجلاً يخاف الله، رجلاً يتميز بالبساطة الحقة والأمانة. كان قد درس أسفار العهد القديم وفكر كثيراً في المواعيد المسيانية ورجاء إسرائيل. وقد أعطاه يسوع الذي كان قد قرأ ما في داخل قلبه تلك الشهادة المخلصة الفريدة عن كونه إسرائيلياً حقاً لأنه كان يجسد في أفكاره وحياته أسمى الصفات والتقاليد والثقة التي يتحلى بها الإنسان اليهودي المؤمن.

لقد عرف رجل الناصرة الشخصية السرية لرجل قانا. يخبرنا بولس أنه «ليس جميع الذين من إسرائيل هم إسرائيليون» (رو ٩:٦) وهذه العبارة توحي بأنه توجد أمة بداخل الأمة، واختيار بداخل الاختيار، واسحق في عائلة إبراهيم، ويعقوب في عائلة اسحق، ويوسف وبنيامين في عائلة يعقوب، وإسرائيليون كانت دعوتهم بالحق وكان اختيارهم كذلك من داخل الإسرائيليين بالاسم - وقد كان نثنائيل واحداً منهم! لقد رأى فيه يسوع ابناً حقيقياً للعهد، ابناً ليعقوب مطهراً من غش سلفه في أيام شبابه، دون أي قناع ديني. وقد أسفر إعجاب المسيح بالشخصية المثالية للرجل عن مديح صادق.

شفافيته : «لا غش فيه»

كان نثنائيل برثولماوس تجسيداً للإخلاص لم تكن له رؤية «مزدوجة» لم يلق الغش بالظلال على وجهه. ولأن يسوع كان عالماً بأن الشفافية هي الصفة البارزة في شخصيته، فقد امتدحه بإفراط كما فعل. كان يسوع يكره كل أنواع الرياء، خاصة الرياء الديني للكتبة والفريسيين. «فاستقرت عيناه الفاحصتان الخبيرتان بالرضا على الوجه الصادق لصديق فيلبس الحميم كمن وجد راحة في برية قاحلة تكسوها الرمال «لا غش فيه» ليس مديحاً ينطوي على تملق بل تهنئة حقيقية.

إن الكلمة الواردة مقابل «غش» هي نفس الكلمة الواردة مقابل «مكر» في الترجمة السبعينية لسفر التكوين ٢٧:٣٥ فالفكرة إذن هي «هوذا شخص ينطبق عليه اسم إسرائيلي، وليس فيه شيء من يعقوب» (تك ٢٧:٣٦) كان نثنائيل مثل يعقوب كأب من الآباء في حياة التعبد والتقوي، ولكنه كان يختلف عنه، لأنه كان خالياً من المكر في طبيعته.

يصف لنا داود الرجل الخالي من المكر في مزمور ١٥ «يارب من ينزل في مسكنك؟ من يسكن في جبل قدسك؟ السالك بالكمال والعامل بالحق والمتكلم بالصدق في قلبه. الذي لا يشي بلسانه ولا يصنع شراً بصاحبه ولا يحمل تعييراً على قريبه والرذيل محتقر في عينيه ويكرم خائفي الرب يحلف للضرر ولا يغير. فضته لا يعطيها بالربا ولا يأخذ الرشوة على البريء. الذي يصنع هذا لا يتزعزع إلى الدهر».

كان نثنائيل ملماً بالأسفار المقدسة القديمة. وكم من مرة تأمل في هذا المزمور وقد عزم في قلبه أن يكون شفافاً، ومخلصاً وبعيداً عن أي معايير مزدوجة.

إن الصراحة فضيلة غير محببة في هذا القرن تماماً كما كانت في القرن الأول، عندما نقول: «إن فلان الفلاني شخص صادق وصريح» فإن العبارة تنم عن إشفاق يدعو للامتهان. فنحن لم نعد نستخدم الكلمة بإطراء ومجاملة. فكثير من جوانب الحياة العصرية يشوبها الخداع والغش والخديعة، ولكن الأمانة وبساطة الروح، ليس شيئاً يدعو للاحتقار، لأن البساطة كما قصدها يسوع. أثمن من اللآلي. فهو الذي قال «طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله».

كان نثنائيل صافياً كالنهار لم ينزل أبداً بمستواه إلى وسائل الغش والخداع. كان رجلاً يمكن أن يثق فيه أي شخص ولذا فقد كان يستحق تحية يسوع الحارة، ولأنه كان صادقاً وكان ذكاؤه حاداً وكان ذا بصيرة روحية فقد عرف على الفور في يسوع، المسيا الذي طالما كان يتوق إليه.

مكان لقائه – «تحت التينة»

يبدو أن نثنائيل كان في بيته عندما دعاه فيلبس ليطلعه على خبر المسيا السار، وأنه وجد صديقه الحميم تحت شجرة التين التي في حديقته الخاصة، فالأصدقاء المقربون عادة يعرفون عادات بعضهم البعض. وشجرة التين «شعار الأمة اليهودية» (مت ٢٤:٣٢) كانت الشجرة المفضلة التي كان اليهود يستريحون تحتها للصلاة والتأمل (١مل ٤:٢٥، مي ٤:١-٦، زك ٣:١٠) ولذلك فقد كان نثنائيل عادة يلتقي بالله تحت شجرة التين الخاصة به، وليست تلك التي على نواصي الشوارع حتى يراه الناس كما كان يفعل الفريسيون، تحت ظل الشجرة، ظن أنه مُخفى عن كل العيون، الا أن هناك عيناً كانت تراه من قبل ذاك الذي لا يخفي عليه شيء ما «وأنت تحت التينة رأيتك». واحد فقد كان يعلم بذلك الحوار المقدس مع السماء، وذلك الواحد يقف الآن أمام تلك النفس المعقدة. لقد رأت عيناه ما أخفته أوراق التين عن أعين الجميع، وسمعت أذناه تلك الصلوات، التي كانت أكثر ألفة من أن تسمعها الآذان البشرية.

شجرة التين الثمينة هذه كانت إذن مكان لقاء نثنائيل، المخدع السري حيث كان يستغرق في التفكير في الأسفار المقدسة، ويسكب قلبه أمام الرب. ومع أنه من الواضح أنه كان صياد سمك بالحرفة، إلا أن اهتمامه الرئيسي لم يكن منصباً على البحر، بل كان مهتماً بشجرة التين حيث كانت روحه مرتبطة بالله وحيث كان يرى «الملك في بهائه». وقد كوفيء برؤية الله في الجسد، ولو أننا فهمنا امتياز وقوة الصلاة، بالإضافة إلى طبيعتها وضرورتها، لا بتلت التربة تحت شجرة التين الخاصة بكل منا بدموع اللجاجة في الصلاة. ولو أن زملاء نثنائيل من الصيادين لم يروه في قاربه، لعلموا عن يقين أنهم سوف يجدونه تحت ظل شجرة التين في حديقة بيته المتواضع.

يقدم وليم لو في «الدعوة الخطيرة» وهو كتاب قيم لا يلقي الاهتمام اللائق في أيامنا هذه – يقدم لنا هذه النصيحة: «صل دائماً في نفس المكان، احجز ذلك المكان

للتعبد، ولا تسمح لنفسك أبداً بأن تفعل فيه أي شيء معتاد».

فهذا اسحق ومكانه المفضل – كان ذلك الحقل الأخضر عند نبع الماء.

وكان مكان إيليا المفضل – مغارة في الجبل.

وكان مكان يسوع المفضل – بستان جثسيماني.

ويمضي وليم لو إلى القول: «إن ذلك يعدك لتكون دائماً في روح الصلاة، فعندما تكون هناك لوحدك، يغمرك بالأفكار المقدسة والحكيمة. المكان السري الذي حجزه نثنائيل للتأمل والصلاة جعل منه الإسرائيلي الحقيقي الذي لا غش فيه والذي أعلن عنه يسوع، لأنه كان يتصرف بروح الديانة الحقة. ولذا فإني أرجو يا صديقي، أن يكون لك أنت أيضاً مكان مفضل يخصص للتأمل لك غرفة داخلية، أو ركن صغير يمكنك أن تلجأ إليه للتأمل. حين قال «ادخل إلى مخدعك وصل»؟ ليت الطريق المؤدي إلى شجرة التين في حديقة حياتك لا يهمل ولا تكسوه الأعشاب. يطابق شجرة نثنائيل، ألم يقصد يسوع أن يكون لك.

شهادته «أنت ابن الله – أنت ملك إسرائيل»

إن القلوب العابدة والمخلصة في إسرائيل، والتي تتوقع بشغف مجيء مسيح الرب، تعرفت عليه على الفور. عندما رأى سمعان الشيخ الطفل يسوع، كان على استعداد أن يموت بسلام لأن عينيه قد أبصرتا الشخص الذي جاء بوصفه «نور إعلان للأمم ومجداً لشعبك إسرائيل» (لو ٢:٢٥-٣٥).

«ولما أبصرت حنة ذلك المولود من مريم العذراء، وقد كانت متقدمة في أيام كثيرة، لا تفارق الهيكل عابدة بأصوام وطلبات ليلاً ونهاراً وقفت تسبح الرب، وخرجت من الهيكل وتكلمت عنه مع جميع المنتظرين فداءً في أورشليم» (لو ٢:٣٦-٣٨). إن قداسة الحياة والأشواق القلبية لرؤية المسيا، خلقت إحساساً روحياً بديهياً. جعلتهم يعرفون ذاك المرسل من الله، بمجرد رؤيتهم له.

كان ذلك هو الحال مع نثنائيل التقى الذي بمجرد أن أعلمه يسوع أنه يعرف كل شيء عنه، آمن وصاح قائلاً: «يا معلم، أنت ابن الله، أنت ملك إسرائيل» لم يكن لديه شك في هوية ذلك الشخص يجعله يتساءل قائلاً «هل أنت هو الآتي أم ننتظر آخر؟» فبكل تأهب اعترف بربوبيته وأعلن عنها، وعندما قال يسوع «هل آمنت لأني قلت إني رأيتك؟» فليس لدينا هنا فقط تأكيد لإيمان نثنائيل، بل تعبير عن دهشة المخلص وفرحه لقبول هذا الإسرائيلي له، فالذي قرأ خبايا قلبه، ودخل إلى أدق أسرار حياته، قد تم الترحيب به كالمعلم، وكابن الله، وكملك إسرائيل، وهكذا كان هناك انفتاح آخر في جوانب كيانه نحو الشخص الذي دعاه، استطاع أن يدفعه للاعتراف قائلاً: «لقد وجدت المسيا».

إننا نذكر أن السامرية قد انجذبت بالمثل نحو ذلك الغريب الذي قرأ فكرها عند البئر. ومع أن شخصيتها وحالتها كانتا مختلفتين عن شخصية وحالة نثنائيل، إلا أن موقفها كان مشابهاً: «هلموا انظروا إنساناً قال لي كل ما فعلت. ألعل هذا هو المسيح؟».

وعندما صدر اعتراف نثنائيل الخاطف كسرعة البرق من شفتيه تعبيراً عن إيمانه، كان هذا الاعتراف متضمناً الاعلان عن لاهوته وسلطانه، لأنه كان يعلم أنه ليس أحد سوى ابن الله، الملك العليم بكل شيء، كان يمكنه أن يخترق حجب أفكاره، أن يفهم رغبات قلبه وهو يصلي ويتأمل في الأسفار المقدسة تحت شجرة التين. إن التحقق من هوية يسوع قد أعطى لنثنائيل قوة اقتناع لا تقاوم لم يكن بحاجة لشخص كي يخبره عمن هو ذلك الشخص الذي أمامه. وبدون تردد. وبتأكيد تام لُقِب يسوع بلقبين من أسمى ألقابه المسيانية التي كانت ضمن التوقع المسياني

لذلك الوقت (مت ٢١:٥، ٢٦:٦٣، يو ١١:٢٧، ١٢:١٣،١٥).

وهكذا كما يقول اليكوت في تعليقه:

«الاعتراف يولد الاعتراف. إن تلك الحضرة الغريبة التي شعر بها كانت بمثابة قوة روحية تحيي فيه الأمل وتجعله يفكر، مما جعل كلمات الأنبياء حقائق حية، ودبت الروح في تلك المعتقدات القائمة وقتئذ بخصوص المسيا، وأضحت ذات معنى حقيقي – نعم كان هذا هو الفكر الذي يشغل باله وقتئذ مرة أخرى ها هو أمامه – «أنت ابن الله، أنت ملك إسرائيل».

٦– الرجل الذي نال مكافأة مجيدة

كانت مكافأة إيمان نثنائيل تتناسب مع إخلاصه، وكان تدفق بركات المسيا سريعاً كقبوله له. ولأنه آمن أن الرب قد عرف كل شيء عنه عندما كان تحت شجرة التين، فقد حصل على الوعد «سوف ترى أعظم من هذا». كانت مكافأة إيمانه، قدرة استيعابية أكبر على الإيمان، وكان مكافأة رؤيته مناظر أكثر وضوحاً. كان لابد من توسيع دائرة استيعابه للإيمان حتى يستطيع متابعة معرفة الرب معرفة أكمل وأشمل. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً نما إيمانه، ليس من منطلق أنه معروف من الله، بل من منطلق أنه عرف الله. «كانت السماء والأرض بالنسبة له متحدثين، وكان ابن الله الذي قبله كابن الإنسان يقوده من الواحدة إلى الأخرى».

إن نثنائيل الذي من المحتمل أنه أدرك مجد المسيح أكثر من أي تلميذ آخر، كان ليشهد بوجه مكشوف مجده الأسنى. اقترح كاتب أننا يمكن أن نقيم البرهان الرئيسي على رسولية نثنائيل من الوعد القائل «الحق الحق أقول لكم من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان».

دعنا نفحص «الأشياء الأعظم» في هذا الإعلان المقصود به تقوية إيمان نثنائيل.

الحق، الحق

هذا الختم المزدوج على وعد العهد الجديد كان يعني أن كل ابن في إسرائيل الروحي له أن يطالب بمزاياه ويتمتع ببركاته، ومن المثير أن نلاحظ أن هذا أول استعمال لهذه الصيغة من الكلمات المزدوجة، وهي غير موجودة في العهد الجديد بخلاف إنجيل يوحنا. وحينما يستخدمها ربنا – الذي يستخدم وحده كلمة الحق بصورة مزدوجة – تكون دائماً مرتبطة بحقيقة أعمق، توجه إليها الأنظار، الحق، الحق تمثل بصيغة متكررة كلمة آمين العبرية، الشائعة في العهد القديم كظرف، وقد وردت مزدوجة مرتين (عد ٥:٢٢، نح ٨:٦) يستخدم يوحنا كلمة آمين كاسم علم لـ «الشاهد الأمين الصادق» (رؤ ٣:١٤).

ترون

وجهت الكلمات الأولى شخصياً لنثنائيل ولكن الحقيقة التي يعبر عنها يسوع الآن هي لجميع التلاميذ لأندراوس، ويوحنا، وبطرس، ويعقوب وفيلبس، كما هي لنثنائيل أيضاً ولكل الذين كانوا يسمعون أقواله – كما هي أيضاً لقديسي الأجيال التالية. ليت الكنيسة اليوم تصغي لصوت السيد «سوف ترون أعظم من هذا». إن تغيير الضمير من المفرد «سوف ترى» إلى صيغة الجمع يعني أن هذا الوعد بالإعلان هو لجميع الرسل، ولجميع الذين يتبعون المسيح.

السموات مفتوحة

ورد الفعل في الأصل بصيغة الماضي والحاضر – فُتحت ومازالت مفتوحة، عند التجسد شقت السموات، ونزل الله في المسيح، وها هو يقف أمام نثنائيل كالإجابة لأشواق روحه. فمنذ ذلك الوقت فصاعداً كان شخصه، وعمله، وتعليمه، وموته وقيامته كلها لتوضح بترتيب متصاعد عمل المسيح

كوسيط لأجلنا فبعد أن قبل نثنائيل يسوع كالمسيا، كان لابد له أن يحصل على إعلانات سماوية مدهشة ليفكر فيها ولتقوية إيمانه ليستطيع مواجهة كل ما يأتي به المستقبل.

ملائكة الله يصعدون وينزلون

يبدو أن لدينا هنا إشارة واضحة لسلم يعقوب في حلمه في بيت إيل (تك ٢٨:١٢،١٣) هل يمكن أن يكون أنه عندما رأى يسوع نثنائيل يقرأ في السجل المقدس تحت شجرة التين في بيته، أنه عرف كالعليم بكل شيء أنه يقرأ هذا الأصحاح الرائع؟ إن كان الأمر كذلك، فإذا كان نثنائيل على وشك أن يذهب من بيت أبيه في قانا لكي يتبع يسوع فإنه كان بحاجة للتشجيع ليعرف أن الرب سوف يكون له بمثابة ما كان لكل أباء القوم. بالإضافة إلى أننا ينبغي أن نلاحظ أن الملائكة هم الذين يصعدون وينزلون على السلم، مما يوحي أنهم مع يسوع دائماً، تحت تصرفه لكي يستخدمهم كما يشاء. ونفس هذه الكائنات الملائكية سوف تخدم العتيدين أن يرثوا الخلاص (عب ١:١٣ . ١٤). ولذا فلنا نصيب في بركة نثنائيل لأن خدمات الملائكة تعطي لنا لأننا ورثة مع المسيح.

لقد أتاح يسوع لكل من يؤمن به التواصل مع السماء، والعلاقة مع الله، ويمكن تمثيل هذه الأشياء بالسلم، السر الذي أعلن في الصليب، والملائكة على درجات سلم بيت إيل تطير بجناحي الإيمان والصلاح. فالوعد، إذن، بتقديم بركة يعقوب لرسول المسيح الجديد هي لكل السائرين في طريق الإيمان. وبالنسبة لنثنائيل، لن يكون له مجرد الامتياز البسيط برؤية سلم منصوبة على الأرض بجوار وسادة النائم المنهك، ورأسها عند عرش الله. كلا، إن المكافأة المباركة لهذا القلب النقي سوف تكون التجربة المثرية دائماً وأن مسيا الذي وجده حديثاً سوف يمشي معه كل الطريق - كالرب، والصديق، والرفيق، والمدير، والحامي، والكل في الكل له.

ابن الإنسان

عبر نثنائيل حالاً عن يقينه التام بأن يسوع هو ابن الله، والآن فإن يسوع يفضي إليه بأن له لقباً آخر. أقل رفعة وشأناً ولكنه ليس أقل نفعاً، وأكثر فائدة لرجل في الحالة العقلية لنثنائيل - ابن الإنسان، فيسوع كابن الله، قادر على أن يعلن من هو الله - صالح ورحيم وقدوس. وكابن الإنسان فهو يعلم من هو الإنسان - ضعيف ومحتاج ومجرب بشدة، وكالاثنين معاً، فنحن يجب أن نعبده، ونضع ثقتنا فيه، ونتبعه ونطيعه.

هذا اللقب المعتاد، ابن الإنسان، والذي استخدمه ربنا أكثر من سبعين مرة، يستخدم هنا أمام تلاميذه لأول مرة. كابن الإنسان فهو الممثل الحقيقي للجنس البشري، آدم الثاني، الذي به يحيا الجميع. إنه ابن الإنسان، أي إنسان مثلنا، ليس يهودياً كشخص أقدس من اليونانيين، وليس حراً كشخص أكثر نبلاً من العبد، وليس رجلاً كشخص متميز عن المرأة، بل كممثل للبشرية في كل مكان وزمان وظرف في كل ضعفها وقوتها، في أحزانها وأفراحها، في موتها وحياتها. وكابن الإنسان، فإن يسوع يعرف كل ما يتعلق بحاجاتنا البشرية ومشكلاتنا. وكابن الله فهو قادر على تلبية كل هذه الاحتياجات وحل المشكلات. إنه بكل معنى الكلمة السلم المنصوبة على الأرض، والممتدة إلى السماء. بالتجسد، اتخذ اللاهوت جسداً بشرياً على الأرض، وبالصعود ارتفعت البشرية إلى السماء، حيث قمة المجد حين يتمجد الجسد الترابي ويجلس على عرش.

الإشارة الأخيرة التي لدينا عن نثنائيل حين نراه هو وستة آخرون يعودون إلى حرفة الصيد القديمة (يو ٢١:١٥-١٧) هل كانت العودة إلى ممارسة الصيد مرة أخرى نوعاً من الاسترخاء لهؤلاء الرجال الذين أصابهم الإرهاق بسبب الحزن، والدهشة والمراقبة! أم أن هناك

شعوراً طاغياً قد لحق بهم جعلهم يعتقدون أنه من الأفضل أن يكونوا صيادي سمك بسطاء على أن يكونوا رسلاً ليسوع؟

بعد أن تركوا شباكهم ليتبعوه، هل كانوا يتوقعون شيئاً أفضل؟ وبتعبير آخر، هل بعد أن وضعوا أيديهم على المحراث بدأوا في النظر إلى الوراء؟ إن ليلة سيئة على شاطيء البحر أيقظت صيادي السمك من حلمهم الوردي «لم يصطادوا شيئاً في تلك الليلة».

ولكن الشخص الذي عرف كل ما يدور بخلد نثنائيل تحت شجرة التين. كان يعلم بكل عثرات صيادي السمك المحبطين وعندما طلع النهار «وقف يسوع على الشاطيء»، ومعه إفطار مطهي قد أعده لهم. إن تلك النار قد أوقدها، والسمك الذي كان قد أعد لهم، شفاهم من همومهم الأرضية، ثم أعطاهم علامة أو رمزاً ليشجعهم في عملهم الرسولي المستقبلي. لقد أسفر الصيد الليلي في بحر الجليل عن فشل تام لأن مجهودات الرسل كانت مركزة على إرضاء النفس. قال بطرس «أنا أذهب لأتصيد» فأجاب الستة الآخرون: «نذهب نحن أيضاً معك» فلا عجب أن كانت النتائج أيضاً عقيمة لدرجة أنهم لم يستطيعوا أن يصطادوا حتى القليل من السمك للإفطار بعد عناء ليلة شاقة، ولكن عندما مضوا للصيد بناء على أمر المسيح، كم كان الصيد مختلفاً، كانت كمية السمك كبيرة جداً لدرجة يصعب الإمساك بها. هل كان ذلك رمزاً لحصاد النفوس الذي كان عليهم أن يجمعوه كما أمرهم الرب في مستقبل عملهم الرسولي عندما ألقوا شباكهم على يمين السفينة؟ وكما أطعم يسوع أفواههم الجائعة، هكذا كان عليهم أن يمضوا قدماً لإطعام الجموع بخبز الحياة – وهي خدمة مجيدة كان على نثنائيل أن يشارك فيها، مع أنه بعد حادثة شاطيء البحر لم يذكر اسمه مرة أخرى.

عندما التقى هذا الرسول البسيط أولاً بيسوع، كان قد تأثر كثيراً بعلمه بكل شيء – والآن لابد أنه خاف كثيراً بسبب قوة الرب القادر على كل شيء، كان الأمر يتطلب كمية كبيرة من السمك والخبز لإطعام سبعة نفوس جائعة أمضوا الليل كله خارج البيت. فهم أنفسهم لم يصطادوا شيئاً وكان عليهم أن يبحثوا عن وجبة في مكان آخر، ولكن يسوع كان معه إفطار شهي معداً لهم. لابد أن نثنائيل قد سأل نفسه هذا السؤال: من أين حصل على السمك والخبز؟ حسناً، إن البحر ملكه، وهو الذي صنعه، ولذلك فقد كانت له السيطرة على كل السمك الذي فيه (مز ٨:٨) ومعجزة الإستار في فم السمكة تثبت ذلك (مت ١٧:٢٧).

نحن نودع هذا الرسول الجذاب مع أننا كنا نرغب أن نعرف المزيد عنه وليس في حوزتنا سوى مشهدين عنه، ثم يختفي، تاركاً إيانا وليس لدينا سوى التخمين بما أنجزه السيد على يديه في العمل الرسولي، وكيفية تحقيق الأقوال النبوية عنه. إن عناصر شخصيته التي ذكرها المسيح تحتوي على سر جماله الأخلاقي. فإذا كان يعيش في الحق، بعد اللقاء بذاك الذي جاء كالحق، فإن معرفته قد تمت في كل الاتجاهات، فالمديح الذي تلقاه من المسيح – يفوق أي مديح آخر تلقاه أي واحد من الاثنى عشر – قد كشف عن خامة واعدة تعامل الرب معها. ونحن لا نستطيع سوى أن نؤمن أنه كان معه، دائماً، وأن ذلك الرجل الذي لا غش فيه أخضع نفسه دائماً وبتأهب وحماس لأمر معلمه، وانه أظهر تقدماً سريعاً في القوة الروحية والجمال الأخلاقي وبعد إدراج اسمه مع الرسل الآخرين على شاطيء البحر، وفي قائمة سفر أعمال الرسل ١:١٣، يخيم الصمت، وتصبح حياته التالية مخفية عنا، ولكن يمكننا بالرغم من ذلك، أن نتخذ من هذا العبراني البسيط مثالاً لنا، ومن مديح المسيح له تشجيعاً لنفوسنا.

بطرس
الرسول الملتهب القلب

كتب ستودرت كنيدي عدة قصائد يذكرنا في إحداها بما يأتي:

ليس في الإنسان شيء كامل
ليس هناك كل ما هو تام
إنه مجرد بداية كبرى

أليس في هذه الحقيقة تكمن مأساتنا ويكمن رجاؤنا أيضاً؟ من «البداية الكبرى» يمكننا أن نغوص في المعصية أو نتقدم نحو الكمال كما فعل الرسول الذي نحن الآن بصدده، فإذا تأملنا في الإنسان على اعتبار أنه في موقف المسئولية، فالسؤال المطروح هو – أي طريق سوف يسلكه صعوداً أم هبوطاً؟ ليس المهم موقفه الآن بقدر أهمية الطريق الذي يتجه إليه، إنه لا يستطيع أن يقف في مكانه ثابتاً أو يظل في مكانه دون حراك. فلو كان لديه الطموح للاستمرار في الرحلة منذ بدايته، فإن طموحه للصعود سوف يحمله بعيداً. في أحيان كثيرة، يرتقي الناس في الأشياء المادية على حساب القيم الأخلاقية والروحية، ويجدون نفوسهم تهوى إلى أسفل. وكما سوف نكتشف، فإن يسوع رأى في بطرس رجلاً ذا طموح كبير للصعود، والذي إن أعطيناه الأهداف السليمة فإنها سوف تحمله إلى بعيد. إنه رجل لن يهدأ في البداية، بل يواصل التقدم نحو الكمال. صحيح أنه كان لدى بطرس أخطاؤه، لأنه كان بشراً بكل ما في هذه الكلمة من معنى. ولكن العثرات والانتصارات لم تكن سوى السلم الذي ارتقى عن طريقه إلى ارتفاعات شاهقة، ولهذا السبب فإن قصة بطرس الجذابة مشجعة للآخرين الذين يحاولون الإرتقاء إلى أعلى من «نفوسهم الميتة صوب آفاق أعلى وأفضل».

١– الرسول الذي كان من قبل صياد سمك

لو استجمعنا كل ما قالته الأسفار المقدسة والتقليد والأسطورة عن سمعان بطرس، لتطلب الأمر أن نأخذ قطعة كبرى من القماش لنرسم عليها لوحة بالحجم الطبيعي لهذه الشخصية البارزة بين الرسل. سوف تحتاج لمعرض من الصور لتمثيل كل المشاهد المثيرة في تاريخه، لا يوجد واحد في الاثني عشر يعادل قيمة بطرس في العهد الجديد، وبسبب تعقيد طبيعته، فليس هناك شخص يصعب فهمه أكثر منه، يذكرنا الدكتور الكسندر وايت بالقول:

«تزخر الأناجيل الأربعة بشخصية بطرس فبعد اسم ربنا نفسه، لا اسم يتردد كثيراً كاسم بطرس، ولا يتحدث تلميذ مثل بطرس في عدد المرات أو كثرة الكلمات ويتحدث ربنا لبطرس أكثر من أي تلميذ آخر، تارة بالمديح وتارة باللوم. ليس هناك تلميذ لقى لوماً عنيفاً من ربنا كبطرس، وليس هناك تلميذ تجاسر على إلقاء اللائمة على معلمه

كبطرس. لم يعترف تلميذ آخر بجسارة ويقر علانية كما فعل بطرس ولم يشجع ربنا تلميذاً آخر كما فعل مع بطرس مراراً وتكراراً ولم يعترض أو يقاطع السيد تلميذ آخر كما فعل بطرس مراراً وتكراراً.

تحدث معلم بطرس بكلمات الموافقة، والمديح، بل وحتى البركة له كما لم يفعل مع أي إنسان آخر. وفي نفس الوقت، بل وفي نفس اللحظة، قال لبطرس أشياء أصعب مما قالها لأي واحد آخر من تلاميذه الاثنى عشر، باستثناء يهوذا.

نحن لا نعرف سوى القليل عن خلفية مثل هذه الشخصية البارزة، فكل ما تخبرنا به الأناجيل عن بطرس قبل أن يلتقي بالشخص الذي استطاع أن يجعله قناة لتوصيل البركة. أنه كان ابن يونا، ومواطناً من مدينة بيت صيدا الصغيرة (يو ١:٤٤)، على ضفاف الجليل، وهي مدينة كثيراً ما كان يسوع يعمل ويعلم فيها. ومع أننا نعرفه كبطرس إلا أن الاسم أعطى له بعد أن عرف يسوع، لأن اسمه الأصلي هو سمعان.

دعنا نلقي نظره على معنى الأسماء التي كان يحملها (مت ١٠:٢، مر ٣:١٦، لو ٤:١٦، أع ١٥:١٤).

سمعان بار- يونا

سمعان هو الصيغة المعتادة للاسم المعطى له، كلمة بار تعني «ابن» ويونا تعني «يوحنا» ولذا فإن مغزى هذه التسمية هو سمعان ابن يوحنا، كان سمعان اسماً يهودياً في الأيام الأخيرة من تاريخ إسرائيل، ومع أنه لم يكن موجوداً في العهد القديم، إلا أنه استعمل في فترة ما بين العهدين وفي بداية العهد الجديد (لو ٢:٢٥).

يدعو يعقوب أخو الرب بطرس «سمعان» (أع ١٥:١٤) وهناك ترجمة قديمة لرسالة بطرس الثانية تذكر «سمعان بطرس» في التحية الافتتاحية، وهناك ذكر لهذا الاسم في العهد القديم، حيث أن «شمعون» هي صيغة «سمعان» في العهد القديم، وهناك سبط سمى بهذا الاسم على اسم أحد أبناء يعقوب (تك ٤٩:٥).

منذ وقت المكابيين، كان الاسم «سمعان» واحداً من أكثر الأسماء اليهودية شيوعاً ومن بين الاثنى عشر رسولاً كان هناك اسمان بهذا الاسم واثنان يحملان الاسم يهوذا، في الحقيقة، هناك تسعة أشخاص في العهد الجديد يحملون الاسم سمعان:

سمعان بطرس

سمعان الغيور

سمعان القيرواني

سمعان الأبرص

سمعان أخو الرب

سمعان الفريسي

سمعان الإسخريوطي

سمعان ماجوس

سمعان الدباغ

وسواء كتب الاسم سمعان في اللغة الإنجليزية بهذا الشكل (Simeon) أو بهذا الشكل (Simon) فهما مستمدان من الاسم العبري (شمعون) الذي يعني «السامع» كان الاسم سمعان يستعمل على نطاق واسع في العصور الوسطى مرة أخرى بعد الإصلاح الديني، ولكنه ليس شائعاً الآن. كان الاسم سمعان، الصيغة الأكثر شهرة في الإنجليزية والمأخوذة من الاسم شمعون، أكثر شهرة في العصور الوسطى. بسبب الشهرة الواسعة للرسول سمعان بطرس في تلك الفترة. وبعد الإصلاح وبسبب تأكيد الرومانية الكاثوليكية على الاسم بطرس كأول بابا، بطل استعمال الاسم سمعان، ولكنه عاد بالتدريج.

بطرس

عندما أحضر أندراوس أخاه إلى يسوع، حيَّاه يسوع تحية غريبة «أنت سمعان بن يونا، أنت تدعى صفا الذي تفسيره صخرة (بطرس)» لدينا هنا ثلاثة أسماء:

- سمعان اسم يهودي
- صفا (Kephas) بالآرامية أو السورية

بطرس، وهو اسم يوناني وصفي - وهو الاسم الذي نعرف به الرسول - الرجل الصخرة، ولا يجب أن ننسى أن هذا هو لقبه، أو الاسم المعطى له والممنوح لابن يونا كشخص غير مستقر يبدو أن لا شيء فيه يوحي برسوخ الصخر وثباته. ولكن النعمة الإلهية حولته إلى الرجل الصخرة. إن سمعان المولود من الجسد، بين يدي المعلم الذي اختاره والروح القدس الذي جاء ليتحكم فيه، فالاسم المعطى له ما يبرره، قد أصبح بطرس الصخرة - شخصية قوية، وحازمة، ويمكن الاعتماد عليه - حجر اختاره البناء العظيم، ليوضع فوق صخر الدهور ويبني عليه، ومع ذلك فقد كانت به قساوة معينة، لا يسهل تليينها.

إن بطرس، كشخص مولود في عائلة يهودية، كان يذهب كصبي إلى مدرسة المجمع، حيث يتعلم أجزاء من الناموس والأنبياء، وبعد ذلك بمدة طويلة، حين أصبح رسولاً مشهوراً، كان يستطيع أن يقتبس أجزاء من الذاكرة. وفي شبابه ورجولته المبكرة كان بطرس يذهب في أيام السبت إلى المجمع الذي كان قد بناه قائد مئة روماني ثري لليهود في كفرناحوم. وحيث أن بطرس وأندراوس قد انحدرا من عائلة تحترف صيد السمك، فقد كان لهما قارب صيد خاص بهما. وكان هذان الأخوين مع أخين آخرين، يعقوب ويوحنا، ابني زبدي يعملون جميعاً معاً، ويقتسمون السمك الذي يصطادونه فيما بينهم.

وبما أن بطرس كان معتاداً على حياة الحرية التي ينعم بها صياد السمك، فلابد أنه ضحى بالكثير عندما قبل الانضباط والتحكم الضرورين كواحد من تلاميذ المسيح. ويمكن ملاحظة مقدار المتعة والراحة التي تركها خلفه في سؤاله: «ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك فماذا يكون لنا؟» وبالإضافة إلى ذلك، فمع أن كلا من بطرس ويوحنا قد وصفا بأنهما «عديما العلم وعاميان» إلا أنه كانت لديهما القدرة على إرباك المجمع اليهودي في أورشليم. (أع ٤:١-٢٢). والوصف الذي أطلق عليهما لا يعني أنهما كانا ينتميان إلى الطبقة الدنيا الجاهلة، ولكن بأنهما لم يتلقيا تعليماً مدرسياً أو دينياً خاصاً، إذ كان بطرس يعيش في «جليل الأمم» فقد كان يستطيع أن يتحدث باليونانية كما يتحدث بالآرامية.

عندما ترك بطرس بيته في بيت صيدا، كان يمتلك منزلاً خاصاً به في كفرناحوم، وقد كان المنزل بما فيه من فناء فسيح يمكن أن يستوعب عدداً كبيراً من الناس. وقد كان في ذلك دلالة على وضع بطرس الاجتماعي كصياد سمك ناجح، كان بطرس يعيش هنا مع زوجته وكانت أمها تعيش معهما (مت ٨:١٤، مر ١:٢٨،٣٠). كنا نحب أن نعرف اسم زوجته، وهل أنجبا أطفالاً أم لا. من الواضح أن زوجته كانت تحب عمل الرب، وقد صاحبت بطرس في بعض رحلاته التبشيرية، لأن بولس يصفها هكذا. يقول بروس إنه «كان يبدو أن التلاميذ المتزوجين كالجنود المتزوجين، كانوا يأخذون زوجاتهم معهم أو يتركونهم بالبيت، حسبما تتطلب الظروف أو تسمح به. ونحن نجد أم يعقوب ويوحنا في معية المسيح بعيداً عن موطنهما». ومع أن بطرس هو الرسول الوحيد الذي ذكر بأن له زوجة، إلا أنه من الواضح أنه لم يكن الوحيد بين الرسل الذي كان متزوجاً (١كو ٩:٥).

هناك لمسة إنسانية نجدها في حياة بطرس العائلية

وهي أن حماته قد أخذتها حمي شديدة (لو ٤:٣٨) وهذا يثبت كما يقول كيف Cave أنه «لا امتيازات تمنح إعفاءً من النواميس المعتادة للطبيعة البشرية، والمسيح تحت سقف بيت بطرس، لم يحم هذه المرأة من هجمات الحمى. وها قد واتته فرصة متجددة ليمارس قوته الإلهية. فما أن علم بهذا الخبر، حتى جاء إلى سريرها، وانتهر نوبات المرض، وأمر الحمى أن تتركها، ثم أمسكها من يدها ليقيمها، وفي لحظة أعاد إليها الصحة الكاملة، والقدرة على العودة إلى أعمال المنزل، فكل أنواع الشفاء سهلة بالنسبة لكلي القوة».

قبل أن نأتي إلى التغيير الروحي الذي غير بطرس من صياد سمك إلى تابع للمسيح، يلزم أن نقول كلمة أو اثنين عن شخصيته وتكوينه الجسدي. قال أحدهم «إن الطبيعة البشرية متواجدة في بطرس أكثر من أي رسول آخر من رسل ربنا». عندما أصبح الرجال الذين اختارهم يسوع رسلاً، لم يفقدوا أبداً الخصائص المميزة لرجولتهم في روحانية رسوليتهم. وحتى الوحي الذي ارتبط بهم كان مشتركاً في تأثيرات تلك الخصائص المميزة لكل واحد فيهم. في كتاب «أعظم إيمان عرفناه» بقلم فولتون أورسلر Fulton Orsler، وهو كتاب شهير يتعامل مع «قصة الرجال الذين كانوا أول من نشر ديانة يسوع وعن الأوقات الخطيرة التي عاشوا فيها» يقدم المؤلف الموهوب هذه الصورة الحية للرسول الذي نحن الآن بصدده:

«هذا الرجل الطويل القامة الذي ساقته الأقدار للقيام برسالة نبيلة، كان يجوب التلال والوديان في فلسطين في وقت الربيع – كان رجلاً ضخماً له رأس مستدير كالكرة الأرضية ولكن أهم ما فيه كان قلبه المحب الكبير.. هناك تماثيل لبطرس محفوظة حتى هذا اليوم، أقدمها تمثال برونزي من أوائل القرن الثالث للميلاد يظهر بطرس برأس مستدير، وعظام فكين عنيدين، وشعر كثيف مجعد ولحية. وهناك صورتان متأخرتان لبطرس موجودتان في المقابر الرومانية، يظهر فيه الرأس أقرب شبهاً بالرأس في التمثال البرونزي، ونخرج من هاتين الصورتين بإنطباع عن بطرس وهو يخطو عاري القدمين إلى قلوبنا كإنسان بشري ماثل أمام أنظارنا كحقيقة حية، الفكرة الرئيسية أن بطرس كان إنساناً ذا عضلات قوية وكان رجل أفعال لا أقوال.

لحظة اتخاذ القرار

تنبأ رئيس الملائكة جبرائيل عند إعلان ميلاد يوحنا المعمدان، أنه عندما يظهر ويخدم بروح إيليا وقوته، فإنه سوف يرد كثير من بني إسرائيل إلى الرب إلههم (لو ١:١٦،١٧). كان بطرس بارزاً بين تلاميذ المعمدان غير المباشرين، وقد أصبح مستعداً لخدمة الرب يسوع المسيح من خلال تأثير يوحنا، وكما رأينا من دراستنا عن أندراوس، فإن الأخ الأصغر لبطرس، هو الذي ذهب مع جليليين آخرين إلى نهر الأردن ليسمع يوحنا المعمدان وهو يكرز برسالة التوبة ومجيء المسيح، وعندما ظهر صاح يوحنا «هوذا حمل الله»!

اتبعه أندراوس وشخص آخر باحث عن الحقيقة. كان كل يهودي أصولي مخلص يبحث عن المسيا الآتي، وفرح أندراوس عند اكتشافه للمسيح، وأسرع إلى البيت يحمل إلى بطرس هذا الخبر السار، «وجدنا مسيا الذي تفسير المسيح» ثم نقرأ «فجاء به إلى يسوع»، وحدثت المعجزة.

بمجرد أن نظر يسوع إلى سمعان، علم أن ذلك هو الرجل الذي يستطيع أن يعتمد عليه لبناء كنيسته، التي كان عليه أن يفديها بدمه. وقال لبطرس كما كتب و(ستكوت) في تفسيره للنص اليوناني: «أنت ابن يونا، سوف تدعى من الآن فصاعداً صفا، صخرة أو حجر» (يو ١:٣٥-٤٢) كل شيء بدا جديداً بالنسبة لبطرس في ذلك اليوم عندما

اقتاده أخوه إلى يسوع. وكان تقديمه إلى يسوع، ودعوته اللاحقة، وقرار اتباعه، بداية كل شيء طيب وعظيم لذلك الصياد الفظ. ومع أن بطرس لم يكن يدرك ذلك، إلا أنه كان من المقرر أن يحقق التفوق في المهام التي كلفه بها ذلك الشخص الذي رأى فيه إمكانية هائلة.

كان القول الذي حيا به يسوع بطرس إعلاناً ونبوة في وقت واحد «أنت سمعان بن يونا.... أنت تدعي صفا» ألم يكن ذلك دليلاً على علم ربنا بكل شيء؟ هنا نجد بصيرة تنير أعماق طبيعة سمعان بطرس، وحكمة تظهر أن يسوع لا يمكن أن يتوقع من بطرس شيئاً أكثر مما يستطيع أن يعطيه. ولكن نجد أيضاً إيماناً بأنه ما أن يتم اكتمال كل جوانب شخصيته، حتى يصبح إناء للكرامة، وهكذا فإن المحبة هي التي احتملت ضعفات بطرس عندما ظهر متسربلاً بطبيعته الضعيفة، صفحت النعمة عن عثراته، وأصبح رسولاً ليترك انطباعاً بالتكريس الكامل للمسيح إلى الأجيال المتعاقبة التالية. إن الإمكانيات الكامنة تحت السطح في طبيعة بطرس، قد قرأها المسيح ببصيرة نبوية فأنبأ بشخصيته الحقيقية، والاسم الجديد وهو صفا أو بطرس، والذي دعاه به كان «أول وميض للوحي في خدمة المسيح» وكما يعبر عن ذلك دانيل ماكلين بدقة بالغة:

«عندما قدم أندراوس بطرس إلى يسوع» أفسحت الحاسة الإلهية الطريق إلى الفطرة الملهمة، وبرغم الإمكانيات الضعيفة لذلك الصياد الفظ من بيت صيدا فإن الفكر النبوي للمسيح رأى فيه صورة مصغرة للمدافع الألمعي عن الحق في أورشليم، وكان صفا أو بطرس يكمن في إطار شخصية سمعان الحقيقي.

كان أندراوس هو الذي أتى ببطرس إلى يسوع، ولكن يبدو أن الأخوين يفترقان عند هذا الحد. استنفذ أندراوس مقدرته على إفادة الآخرين في مثل هذا العمل الأخوي المتسم بالمحبة، ولكن الآن كان يجب عليه أن يترك النضج الروحي لأخيه الأقوى منه للآخرين وللرب. كان أندراوس قد قدم بطرس إلى الرب، والآن فقد تولى الرب هذه المسئولية، وقرأ مسبقاً ما يمكن أن يصل إليه نمو تلميذه الجديد وماذا سوف يصبح. «أنت تُدعي» على شفتي المسيح، لا يمكن إلا أن تعني «أنت سوف تكون، أنت سوف تصبح»، وكما سنرى، فالمعلم لم ييأس أبداً من تلميذه، ولكنه واصل تعليمه حتى تحققت نبوته عندما صار بطرس الشخصية التي تشبه الصخر التي يصفها لوقا في سفر أعمال الرسل.

نحن لا نعرف كم من الوقت مضى فيما بين أول لقاء بين سمعان ويسوع ودعوته فيما بعد ليكون تلميذاً ورسولاً. يبدو أنه بعد ذلك اللقاء التاريخي المبدئي مع المسيح، فإن كلاً من سمعان وأخيه أندراوس عادا لصيدهما، وأثناء عملهما جاءت الدعوة، وعندما وصلت الدعوة إلى الأذن والقلب، أطاعا، ومنذ تلك الساعة لم يكن هناك رجوع إلى الوراء. ربما لم يكن من السهولة ربح سمعان إلى المسيح ودعوته، فالحجر قاوم الضغوط. يقترح الدكتور إلدريكنج أنه ربما تطلب الأمر دعوتين، ومن المرجح ثلاث دعوات لتحفيز سمعان على اتخاذ القرار باتباع رجل الناصرة.

يخبرنا متى، قبل العظة على الجبل (مت ٤:١٨)، عن دعوة وجهها يسوع إلى التلاميذ الأربعة، بطرس وأندراوس ويعقوب ويوحنا، الذين كانوا يصطادون سمكاً.

ويخبرنا لوقا عن دعوة وجهها يسوع لنفس الأربعة عندما كانوا يصلحون شباكهم، وفي تلك المناسبة خاطب يسوع الجماهير من قارب بطرس، وأجرى بعد ذلك معجزة كبرى وفي نهاية القصة يخبرنا البشير أن أربعة تلاميذ «تركوا كل شيء وتبعوه» (لو ٥:١-١١) ونحن لسنا متأكدين إن كان هذان الوضعان يشيران لنفس الحادثة أم

لا. فإذا لم يكن الأمر كذلك، فالأمر تطلب ثلاث دعوات من المسيح لإقناع بطرس بأن يترك مهنته ويتبع المعلم تماماً.

كانت الدعوة الأولى بأن يؤمن، والثانية، كانت دعوة لاتباعه من آن لآخر، أما الدعوة الثالثة فقد كانت دعوة بألا يكون له معلم آخر، وأن يخضع كل شيء ليسوع.

أخيراً، فإن صياد الجليل أصبح صياداً للناس على أوسع نطاق ممكن ووفقاً للإرشاد الإلهي كان يضم جموع الذين خلصوا إلى الكنيسة، فبحياته وعمله، ورسالته مازال بطرس يلقي شبكته في بحر العالم ويأتي بأعداد لا حصر لها من التلاميذ إلى ذاك الذي سعد به كواحد من أوائل الذين اتبعوه.

مع أن بطرس ترك البحر لأجل المخلص، وترك صيد السمك الكثير لأجل خلاص النفوس، إلا أن البحر وأحداثه ظل لمدة طويلة في ذاكرة ذلك الصياد الجليلي ومن المشوق أن نستجمع معاً حكايات البحر من واقع الأحداث التي مرت ببطرس، فعلى سبيل المثال، ليس هناك قصة أكثر تأثيراً في نفس بطرس من تلك القصة التي حدثت عندما كان يسوع يريد أن يعلم الجموع الحاشدة على شاطيء البحر، فدخل سفينة بطرس، كان بطرس مع شركائه طوال الليل، يجدفون القارب ويجذبونه، ويلقون الشباك ولكنهم لم يصطادوا شيئاً وإذ كانوا منهكين من التعب، وربما أعياهم الجوع، كان الرفاق على وشك أن يغسلوا شباكهم ويعودوا إلى بيوتهم لتناول الطعام ويستريحوا.

كانت الشمس تشرق، واتجه يسوع إلى بطرس وطلب منه طلباً يبدو أنه غير معقول «ابعد إلى العمق، وألقوا شباككم للصيد» (لو ٥:٤) أجاب بطرس المسكين والمتعب، بلهجة ساخرة «يا معلم قد تعبنا الليل كله ولم نأخذ شيئاً» كان بطرس ماهراً في مهنته، وكان يعلم أن وقت شروق الشمس على الماء، ليس وقت صيد السمك. فكأن المسيح يطلب منه شيئاً صعب التصديق. وإن اقتراحاً مثل هذا لا يصدر إلا عن شخص غير متمرس على حرفة الصيد. قال بطرس في نفسه لابد أن يسوع لا يعرف شيئاً عن السمك وطباعه مما دعاه أن يطلب مثل هذا الطلب. وإنه إذا أطاعه وأنزل شباكه في ضوء الشمس الساطع، فإنه سوف يصبح أضحوكة في أفواه الذين على الشاطيء.

عندما قال بطرس «ولكن على كلمتك ألقى الشبكة» لم يكن ذلك بلهجة الطاعة المتسمة بالمحبة دون نقاش، ولكن بلهجة التهور الغاضب، كما لو كان يقول: «حسناً، إنه ليس الوقت المناسب للصيد، كما يجب أن تعرف، ولكن إذا كنت تقول إنه كذلك، فها أنا ألقي الشبكة وليكن ما يكون!» مثلت هذه الحادثة منعطفاً هاماً في اختبار بطرس، لأن صيد السمك المعجزي الكثير جعلت صياد السمك يدرك أن الذي أمره بإلقاء شبكته لم يكن إنساناً عادياً، ولكنه سيد البحار، والأرض والسماء. ومنذ تلك اللحظة فصاعداً أصبح يسوع ربه. استيقظ ضميره وأخذ يفحص أعماق نفسه بضوء فاحص، عندما رأى نفسه كإنسان خاطيء يجرؤ على الشك في معرفة وقوة الرب الذي بلا خطية، ولما شعر بالهوان حتى الأعماق والاسحاق تحت وطأة الإحساس بالذنب صاح قائلاً: «اخرج من سفينتي يارب لأني رجل خاطيء»! ولكن يسوع لم يترك الخاطيء، بل مكث معه حتى النهاية، أصبح بطرس مدركاً لحضور قوة تفوق معرفته.

هناك قصة أخرى متعلقة بالأمور المالية ذات العلاقة بالعمل الرسولي. كانت الخزانة فارغة ولم يكن هناك نقود لدفع ضريبة الهيكل، ولكن المعلم الذي لا يعسر عليه شيء أمر بطرس بأن يذهب إلى البحر ويلقي صنارة حيث يصطاد سمكة يكون في فمها نفس المبلغ المطلوب. وهنا تعلم بطرس مرة أخرى أن معلمه هو رب الطبيعة. تلقى هذه المعجزة – بشكل عرضي – الضوء على الفقر الذي

تعرض له ربنا وتلاميذه. ونحن نأخذ كلمات ربنا بمعناها الحرفي، ونؤمن أنها تحققت حرفياً. كيف تصادف أن كانت السمكة في نفس المكان الذي ألقى فيه بطرس الصنارة مع نفس القيمة المالية للضريبة المطلوبة بالضبط في فمها؟ إن هذا سر لا يعلمه إلا الرب (مت ١٧:٢٤-٢٧). هناك شبيه لهذه المعجزة نجدها في القصة الشهيرة لخاتم بوليكرنيس، طاغية ساموس.

وهناك أيضاً حادثة العاصفة في البحر والتي لابد أنها ذكرت بطرس بالأيام القديمة، عندما اختبر كصياد سمك كثيراً من العواصف الخطيرة (مت ٨:٢٣-٢٧). أنت تعرف تلك القصة المثيرة، كان بطرس هو ربان ذلك القارب على بحر الجليل والذي كان يحمل سيد هذا العالم نائماً في مؤخرة القارب، تثور عاصفة هوجاء متحدية مهارة الرجل الممسك بالدفة. نظر بطرس إلى المعلم المستغرق في النوم وهو يتساءل كيف استطاع أن ينام في مثل هذه العاصفة. في يأس أيقظ النائم بكلمة عتاب «أما يهمك أننا نهلك». قام يسوع وانتهر الرياح والبحر بالجلال الهادىء لسلطانه. فانحنى بطرس مع بقية التلاميذ في خضوع وعبادة عند قدمي ربهم الملكي. تبرز عبارتان في حادثة البحر هذه «اضطراب عظيم قد حدث في البحر» «ثم قام». إن هبوب العاصفة يستلزم دائماً قيام المعلم الذي يستطيع وحده أن يسكنها.

هناك اختبار آخر اجتاز فيه بطرس في البحر عندما أخبر يسوع تلاميذه بأن يدخلوا السفينة ويسبقوه إلى البر، وأنه سوف يلتقي بهم هناك بعد فترة من الصلاة في الجبل. وبينما كان يتحدث مع أبيه، أصبحت سفينة التلاميذ في وسط البحر مضطربة من الأمواج لأن الريح كانت مضادة. ولكن يسوع رأى حيرتهم ونزل من الجبل، ومشى على البحر، ولما رآه التلاميذ ظنوا أنه خيال، ثم سمعوا الصوت المشجع لذلك الشخص الذي كانوا يعرفونه جيداً. أبرز الخوف الثقة الجسورة لبطرس. ولذا فقد طلب شيئاً من الحرية ليلتقى بالمسيح فوق مياه البحر الهائجة كنوع من التظاهر بالشجاعة. «فنزل بطرس من السفينة ومشى على الماء ليأتي إلى يسوع» (مت ١٤:٢٢-٣٣). حين كان بطرس مثبتاً عينه على يسوع، استطاع أن يمشي، ولكن عندما نظر إلى أسفل إلى الأمواج الصاخبة، بدأ يغرق. كشفت تجربة بطرس عن روحه التي ارتأت فوق ما ينبغي، وكان غرقه في الماء درساً مفيداً في طبيعة الإيمان. ولتذكيره بسلطان ربه على الطبيعة. امتدت يد المعلم لإنقاذ بطرس عندما صاح: «يارب نجني». أدى هذا الاستعراض للقوة الإلهية لشهادة ممتازة - عقيدة مكتملة تقريباً - «بالحقيقة أنت ابن الله».

حدثت آخر قصص البحر المتعلقة ببطرس، الذي كان ابن البحر ذات مرة، بعد قيامة المسيح. من الواضح أن الرسل كانوا ينتظرون قدوم المعلم ولكنه لم يظهر، فقال بطرس متهوراً كالعادة: «أنا أذهب لأتصيد». قال الباقون «نذهب نحن أيضاً معك»، (يو ٢١:١-١٤). ثم جاءت ليلة عقيمة أخرى، ثم ظهور يسوع المفاجيء على الشاطيء وسؤاله عما إذا كان لديهم طعام أم لا، ومعجزة صيد السمك الوفير، ثم الطعام الذي كان يسوع قد أعده لهم عندما عادوا ورؤية الرسل لقدرة ربهم المقام على كل شيء. بعد تناول الطعام، الذي قدمته اليدان المثقوبتان، أمر بطرس بالقيام بالمهمة العظيمة لإنقاذ النفوس.

٢- رسول شكَّله المعلم

عندما تلقى بطرس وأخوه أندراوس الدعوة لترك شباكهما واتباع يسوع، سمعاه يقول: «هلم ورائي فأجعلكما صيادي الناس» (مت ٤:١٨-٢٠) وكالفخاري الإلهي، فقد أخذ على عاتقه مهمة تشكيل هذين التابعين

لمهمة الكرازة السامية. لم يكن أندراوس بارزاً في هذا المجال، حسبما يظهر السجل المقدس. ولكن بطرس أصبح أعظم رابح للنفوس في الكنيسة الأولى، كما سنكتشف حالاً. والتأكيد في الوصية على عبارة «فأجعلكما»، فقد تولى المسيح بنفسه مسئولية تشكيلهما وفقاً لإرادته من خلال عملية الارتقاء بشخصيات الذين اختارهم، وكان يبدو أنه يتعين عليه التعامل مع خامة ضئيلة القيمة، ولكنه نجح في تشكيله على صورته - باستثناء يهوذا الذي كالصلصال الجاف، قاوم إرادة الفخاري فنُبذ.

أما عن بطرس، فقد علم يسوع أنه سوف ينمو في النعمة وفي معرفة الرب نفسه، كما كتب الرسول في الرسالة الثانية له ٢بط ٣:١٨. بدأ الرب يقوم بمهمة تعليمه. ورأى أنه سوف يصبح عاملاً لا حاجة به أن يخجل من شيء ولذا فقد بدأ في تطوير شخصيته. وكتلميذ في المدرسة الإلهية كان يرتكب الأخطاء دائماً وكان على المعلم الإلهي أن يصححها، ويعمل على عدم تكرارها. ولم ينل اليأس من يسوع من تلميذه، ولكنه واصل تعليمه حتى تحققت النبوة في حياة التلميذ بأن أصبحت شخصيته كالصخر.

تحققت توقعات المعلم ببطء، وعرف نقاط القوة والضعف في كيان بطرس ولكن حب معلمه لم يجعله مطلق السراح. وعاد بطرس ليكافيء سيده عن كل ما أظهره يسوع له في تنميته الروحية من رعاية ودودة وفهم وصبر.

ليست هناك شخصية كتابية أخرى تقدم لنا نفس الدليل على المهارة التعليمية لربنا في تعامله مع شخص كان يرغب في رفعه إلى السلك القيادي في خدمته، كبطرس. اليهودي الطيب القلب والمندفع والمحبوب الذي اختاره يسوع لقيادة جماعة الرسل. وكما يعبر عن ذلك ج. أوزوالد ساندر في كتابه «رجال من مدرسة الله» فيقول :

«إن شخصية بطرس الفذة، وأقواله الصريحة وتكريسه العميق بالإضافة إلى عظمة قوته وجسامة أخطائه تتحد معاً لتجعل منه بوتقة اختبار مثالية لطرق المعلم التربوية».

إن بطرس في وقت دعوته، جنباً إلى جنب مع بقية صيادي السمك المتواضعين من الجليل، كان عليه أن يتعلم الكثير ويتخلى عن الكثير أيضاً مما كان قد تعلمه حتى يحقق المطالب السامية للمسيح. فأغلبيتهم لم يكونوا متعلمين، وكانوا يؤمنون بالخرافات، وكانوا مملوئين بالآراء اليهودية المتحيزة، والمفاهيم الخاطئة والأحقاد، ولكن فوق الكل كانوا في خدمة بطرس الديناميكية بعد قيامة المسيح. فبعد أن تركوا كل شيء لأجل صحبة المسيح وخدمته، فإن رجال الجليل أظهروا بمثل هذا التسليم، قدرة غير محدودة على النمو الروحي والفكري.

إن تنوع الشخصيات التي تعين على يسوع أن يجعلها تتناغم مع فكره وإرادته تمثل جانباً آخر من تعليمه للاثني عشر كما يجب أن نلاحظ. فقد كان واضحاً أنهم لم يكونوا جميعاً قد تشكلوا في قالب واحد. ولكن الفخاري عرف كيف يتعامل مع كل كتلة من الصلصال البشري، كانت طرقه مع بطرس تختلف عن تلك التي استخدمها ليحول دون قيام يهوذا بفعلته الشنعاء. في معرض صور الرسل إذن «تكشف أفكار قلوب كثيرين» وقد استفاد الرب من الاختلافات التي أعطت لكل منهم فرديته وتميزه عن الآخرين. إن النسخ المتطابقة لا قيمة لها، سوى في تضخم الأرقام الاحصائية، وليس لها وجود في قصة الإنجيل ممن هم حول يسوع. فمن تشكلوا على يدي المسيح، عن طريق مختلف الأنماط يشكلون شخصيات يختلف كل منها عن الأخرى اختلافات لا حصر لها، مما يضيف الوحدة إلى التنوع.

إن التناقضات العنيفة والصارخة في طبيعة بطرس

واضحة كل الوضوح. فعلى الرغم أنه اختبر لحظات الابتهاج والرؤى السامية، إلا أنه كان مدركاً لأبعاد الخطية في كيانه، كان يستطيع أن ينطق بأقوال رفيعة المستوى ومع ذلك فقد كانت له شفتا ناكر ومجدف. كان يستطيع أن يحلق إلى ارتفاعات شاهقة ومع ذلك كان يغوص إلى أعماق الندم. في يوم ما نطق بطرس بالمديح الرائع للمسيح، وفي اليوم التالي حاول أن يعنفه. في إحدى المرات نجده رفيقاً للمعلم على الجبل المقدس، ولكن في وقت لاحق نراه يحلف أنه لا يعرفه. يترك بطرس كل شيء ليتبع المسيح، ولكنه في النهاية يتركه في البستان. أليست هذه صورة من واقع الحياة؟ أليست نفس هذه التناقضات التي لا تكاد تصدق تعد وصفاً لقديسين كثيرين اليوم؟

وعندما نحاول فهم بعض الدروس الضرورية التي كان على بطرس أن يتعلمها نسلم بأن تعقيد طبيعته يرجع إلى المبالغة أو النظر إليها بنظرة متحيزة، وأن حياته الغريبة الأطوار تجعل من الصعوبة بمكان الحصول على وجهة نظر شاملة ومنصفة.

إن له فضائل ورذائل العقول المبدعة، وأضواء وظلال الأمزجة الدموية، وتقلبات العبقرية. وليس من السهل أن نفهم المبدأ الثابت وراء كل أمزجته المتنوعة ونستعرض في بيان موجز واضح العناصر المختلفة لشخصيته المليئة بالتناقضات الصارخة.

ودعنا نتفرغ إذن، لاستعراض الأحداث البارزة في حياة ذلك الصياد الكبير، ونستشف التوضيح التدريجي لشخصية حباها الله بالكثير من المواهب خضعت لتأثير الدروس التعليمية للنعمة الإلهية. اقترح بعضهم أن تاريخه يمكن تقسيمه إلى ثلاثة أقسام، كل قسم منها يمكن أن يندرج تحت أسمائه الثلاثة الشهيرة:

سمعان

سمعان بطرس

بطرس

درس كبح جماح النفس

بما أن بطرس كان بالطبيعة متهوراً ومندفعاً. فربما كان أقسى درس تعلمه تحت إرشاد يسوع هو درس كبح جماح النفس. وكما نعلم فإن يسوع قد نجح في تذليل شلالات نياجرا بداخل الطبيعة الهادرة لذلك الصياد وحولها إلى خدمة ديناميكية بين خراف بيت إسرائيل الضالة. إن المخاطر التي تعرض لها بطرس في البحر سببت اندفاعه الحاد وجعلته صريحاً وواضحاً. من بين أبرز خصاله سرعة البديهة التي تمكنه من النفاذ فوراً إلى لب المشكلة، ثم التصرف بحسم، وفوراً بلا تردد. يقول الكسندر: «دايت لبيان بعض البصمات الواضحة لبطرس أنه كان متسرعاً ومندفعاً، يتكلم بلا تردد أو حكمة، وعلى استعداد للتوبة، ويخوض دائماً في مياه عميقة بالنسبة له، ثم يعود دائماً إلى معلمه مرة أخرى كطفل صغير».

ربما تكون طبيعته المندفعة موروثة من أبيه يونا، وعندما أصبح بطرس رجلاً فإن قلبه الجامح أصبح أصعب من أن تتم السيطرة عليه، ولكن كما يمضي الكسندر وايت إلى القول إنه «بالتدريج وتحت تدريب ومثال وتعليم معلمه، فإن قلب بطرس الحار أكثر مما ينبغي أصبح بالتدريج تحت السيطرة حتى صار مستقراً لمحبة عميقة وطاهرة ودائمة في حضن بطرس وارتبطت تلك المحبة بعبادة ليسوع المسيح». بغض النظر عن النتائج، كان بطرس صريحاً مخلصاً في دوافعه حتى عندما كان يخطيء. وفي بعض الأحيان، كان ينقصه التحفظ الشخصي. وكان يقوده نفاذ صبره وعناده إلى الوقوع في مشكلات وأزمات. وإذ كان لا يهتم كثيراً بالمواقف الاجتماعية التقليدية ولا بالعقبات التي تقف في طريقه، فإن بطرس كان يتصرف

بناء على القاعدة التي تقول «عندما تكون في شك تكلم» ومع ذلك فبالرغم من لسانه المنفلت وعدم اهتمامه بالأضرار التي يمكن أن يسببها، وعدم حرصه، فقد اختاره يسوع ليكون رسولاً.

كان توبيخ ربنا لبطرس على انفلاته وعدم التحكم في انفعالاته دائماً بلا مرارة، وعادلاً وفي حينه (مت ١٦:٢٢،٢٣) لقد وبخ بطرس على عدم فهمه لخطته بحزم ولكن برقة. وفي الحقيقة، نال بطرس أقسى توبيخ أكثر من تابعي المسيح الباقيين، ومع ذلك نال أيضاً أعظم المديح. وعندما أنكر الرب، سقط بطرس فريسة لتهوره الشخصي، وجاء ارتداد سيفه إلى الوراء ليجرح نفسه، وارتدت عادة الحلف لقَسمَ على الصياد القديم لتؤكد له خزيه التام.

عندما قبض على يسوع من قبل فريق من الرجال قادهم يهوذا إلى جثسيماني، استل بطرس سيفه وقفز بتهور أمام معلمه، على استعداد ليضرب أول عدو يجرؤ على أن يلحق سيده بأذى. ومع أن ذلك كان عملاً شهماً، واستعراضاً للالتزام البشري المخلص المستعد لتحمل المخاطر، اضطر يسوع أن يوبخ بحب هذا العمل الطائش من قبل تلميذه، ويأمره بأن يضع سيفه في غمده. كان على بطرس أن يتعلم أن رسالة المسيح لا يمكن أن تنتشر بأسلحة الحروب الدنيوية وأن الغيرة الجسدية تعوق مثل هذه الدعوى (يو ١٨:٣٦).

«إن الطبيعة البركانية المتفجرة والمندفعة لبطرس، والذي كانت عواطفه الجياشة تتحكم في تفكيره، والذي لم يكن يرضي بأنصاف الحلول، لم تكن من ذلك النوع من الزهور التي تحمَّر دون أن يراها أحد»، هكذا يقول الدكتور ج. ستوارت هولدن في دراسته عن بطرس. كان متسرعاً، ومندفعاً، ومتهوراً – رجلاً لابد أن يعبر عن مشاعره، وإذا رأى أي شيء، فلابد أن يتحدث عنه – لابد أن يوائم ما بين أفعاله ومداركه وتصوراته. لم يكن التأجيل من طبعه. كان دائماً يده «على الزناد». يفعل الأشياء أولاً ثم يفكر فيها فيما بعد. أحياناً تسبب له الحزن، فيما بعد. لابد لمثل هذا الشخص أن يرتكب الأخطاء، ولكنه يفعل أشياء أخرى أيضاً. ألم يقل إبراهام لنكولن «من لا يرتكب أي خطأ، فهو لا يفعل أي شيء». وبفضل تعليم المعلم تعلم بطرس كيف يكبح جماح اندفاعاته عن طريق ملكة التمييز، ويضبط أفعاله عن طريق الحساب الحكيم للعواقب. لقد أصبح يتسم بالصبر وضبط النفس. فقد نجح يسوع في التحكم في نفس بطرس، كما يبين تعليم الرسالة الأولى والثانية لبطرس بوضوح. وقد تمت النبوة القائلة «أنت... أنت تدعي...». في البداية، كان بطرس رجلاً يتصف بالاندفاع القوي والعند والتحيز، والذي إن لم يضبط، فإنه يؤدي إلى الدمار. ولكن عندما استمر يعيش تحت سيطرة المسيح فإن الوحش الكامن في بطرس أصبح كالحمل الوديع.

درس التواضع

في الكثير من أقواله، كما في بعض إجاباته على يسوع، كان بطرس يفرط في استخدام الضمير الشخصي. كانت كلمة (أنا) بارزة. إن الثقة المفرطة بالنفس هي في الواقع حاملة سلاح الخطية، الثقة الزائدة بالنفس، المرتبطة بالغرور الذاتي، يمكن أن تعمي المرء عن جهله وعن نقائصه، كان على بطرس المسكين أن يتعلم شعار «لا أنا، بل المسيح» الثقة بنفسه جعلته يندفع إلى مواطن الزلل والخطأ. كان يقدر أهميته أكثر مما ينبغي. وقد جعله ذلك يندفع حين كان يجب عليه أن ينسحب، ويقدم وعوداً رائعة كسرها بخزي فيما بعد. وحين ارتأي فوق ما ينبغي، فإنه حاول باندفاع أن يوبخ معلمه ويحاول تصحيح ما تصوره خطأ، وهو التلميذ الوحيد الذي تجاسر على فعل ذلك – كما لو كان يعرف أكثر من كلي الحكمة.

ولو كان يمتلك قدراً أكبر من التواضع الذي كتب عنه فيما بعد لصمت عندما جُرِّب بأن يتكلم. لقد جُرِّب بطرس، كما نُجرَّب كلنا، أن نتكل على الذات وليس أن نعتمد على الرب تماماً.

ولأنه كان واثقاً في نفسه أكثر مما ينبغي، كان عليه أن يتعلم أن يصلي مع المرنم قائلاً: «أيضاً من المتكبرين أحفظ عبدك فلا يتسلطوا عليَّ» (مز ١٩:١٣). إن ثقة بطرس الزائدة في نفسه حولته إلى شخص فخور بذاته وقادته إلى عدم الحرص في الكلام (تث ٢٦:٣٣،٣٤). ولأن بطرس كان قوياً ونشيطاً، وميالاً إلى السيطرة، فقد كانت لديه ثقة كاملة في نفسه. «إن شك فيك الجميع فأنا لا أشك أبداً». ولكن قبل انتهاء تلك الليلة فإن هذا التلميذ المعجب بذاته، والمعتمد على نفسه أنكر ربه ثلاث مرات. إن هذه الثقة كالعصافة الزائدة بالنفس يجب أن تغربل للحصول على القمح في شخصية بطرس، وبالتجارب الأليمة والعثرات المحزنة. تعلم التواضع من خلال الألم.

ومع ذلك فهذه الرذيلة البارزة أصبحت فضيلة ظاهرة، لأن نفس هذه الثقة الزائدة بالنفس والتي كانت السبب في سقوط بطرس وجعلته يتطلع فوق ما ينبغي، كانت العنصر الذي ساعده ليحتل منصباً قيادياً في الكنيسة الأولى عندما تقدس. وهذه النزعة نحو السيطرة – السبب المباشر والفوري لبعض أكثر المواقف المخزية في حياة بطرس – زودته بقوة روحية كبرى نراها واضحة في الـ١٢ أصحاحاً الأولى من سفر أعمال الرسل. فبالتوجيه الإلهي تعلم بطرس أن سر القوة المنتصرة في خدمة المسيح هي عدم الاعتداد بالذات. «حينما أنا ضعيف، أنا قوي ». فعن طريق كبريائه، ومن خلال الثقة الزائدة بالنفس، سقط بطرس. ولكن هناك عدداً واحداً في رسالته الأولى موجه خصيصاً لأولئك الذين يتكلون على ذواتهم، «اصحوا واسهروا لأن ابليس خصمكم كأسد زائر يجول ملتمساً من يبلتعه هو». لقد تعلم بطرس من يسوع درس إنكار الذات. فالمعلم مات عن الذات قبل أن يموت لأجل الخطية. «الذي إذ شتم لم يكن يشتم عوضاً». هذا هو المثال الذي اتبعه بطرس الكثير الاعتداد بذاته (١بط ٢:٢١-٢٤). لقد اختبر بطرس بعد معاناة طويلة أن «الله يقاوم المستكبرين وأما المتواضعون فيعطيهم نعمة» (١بط ٥:٥).

قرأت عن عائلة عادت إلى البيت لتجد أن المنزل قد سرق. لقد أخذ اللص كل الأشياء الثمينة التي استطاع أن يجدها، ولكن في إحدى الحجرات كان هناك صليب فضي ظل في مكانه ولكن قبل أن يتمكن اللص من أن يلمس أي شيء، كان قد وضع وجه المسيح فوق الصليب نحو الحائط.

لم يستطع أن يسرق مع رؤية عيني المسيح الحزينتين مثبتتين عليه. لقد تم إنقاذ بطرس من الاعتداد بالذات عندما سمح للمسيح بأن ينظر إلى قلبه ويكشف له أن حياة الأنانية والاعتداد بالذات قبيحة ومثيرة للاشمئزاز.

درس النعمة

كان بطرس يوجه أسئلة دائماً. كان هناك السؤال المحدد الذي وجهه إلى يسوع عن موضوع الغفران، ومن المرجح لأنه وجد أنه من الصعوبة أن يغفر لأعدائه كما كان المعلم يأمر تلاميذه أن يفعلوا. ياله من مفهوم جديد عن النعمة الغافرة ليسوع تلقاه بطرس رداً على سؤاله «كم مرة يخطيء إليّ أخي وأنا أغفر له. هل إلى سبع مرات؟». كم نحن ممتنون لأن أفكار التلاميذ عن الغفران كانت تختلف عن أفكار المعلم عنه! كان على بطرس أن يتعلم أن يغفر كما غفر معلمه. ما هو مقياس الغفران الإلهي؟ إنه يعني أكثر من مجرد التخلص من ضغينة أو حقد، إنه يمثل المصالحة الكاملة «كبعد المشرق عن المغرب، أبعد عنا معاصينا». إن غفران المسيح لنا كلفه كل عار وآلام

الصليب.

لو نظرنا لكلام بطرس عن الرقم من حيث هو رقم لكانت نظرتنا لبطرس نظرة متواضعة جداً. ولو كان يسوع قبل الحد الذي اقترحه بطرس للغفران، لما دخل بطرس إلى شركة ميراث القديسين في النور، كان سمعان الخاطيء بحاجة إلى النعمة التي لا تتوقف أبداً عن الصفح. وسوف تظل إلى الأبد أثراً من آثار محبة المسيح الصابرة والغافرة. ولأن بطرس كان يخطيء ويسقط مراراً وتكراراً فقد كان بحاجة إلى السبعين مرة سبع مرات (مت ١٨:٢١،٢٢). لقد استطاع يسوع أن يثبت أن:

«قلبه لا يمل من الغفران أبداً

وأنه لا يستطيع إلا أن يحب»

ربما لا يستطيع بطرس أن يفهم أن وصايا الله «واسعة جداً» ولذا فقد أحس أنه يجب أن يكون هناك حد لطريقة التعامل مع الأخ الذي يخطيء إليه (مت ١٨:١٥)، ولذا فقد استخدم الرقم المقدس لاقتراح حد معين. هل كان بطرس يفكر في عبارة النبي القائلة إنه «من أجل ذنوب دمشق الثلاثة والأربعة» لا أرجع عنهم؟ ولكن رد المسيح بالقول «إلى سبعين مرة سبع مرات...» يدل على أنه لا يوجد خط فاصل يتوقف عنده غفراننا، تماماً كما أنه لم يقر أي مقياس رقمي. وكما أنه لا حدود لغفران الله لنا، لا يصح أن يكون هناك حدود لغفراننا للآخرين.

درس التضحية

كان على الاثنى عشر عموماً، وبطرس على وجه خاص أن يتعلموا أنه لا يوجد طريق سهل يؤدي إلى السلطان والتاج. أليست هذه الحقيقة متضمنة في توبيخ المسيح للرسول، عندما انتهر المعلم، بطريقته المتهورة والطائشة، لأنه رضى بما اعتبره بطرس مخاطر لا لزوم لها (مت ١٦:٢٢-٢٣). في لحظة ما كان فوق قمة جبل التجلي لأنه اختير من الله ليكون أول رسول يرى المجد المخفي وراء حجاب بشرية ربه، وفي اللحظة الأخرى يصبح الناطق بلسان الشيطان. كان المسيح قد بدأ يعلن للاثنى عشر عن رفض اليهود له وعن آلام الصليب، والانتصار على الموت، والمجد النهائي، ولكن بطرس اعترض مندفعاً على حديثه عن الذبيحة الكاملة بتأكيده «حاشاك يارب، لا يكون لك هذا».

الشيء اللافت للنظر في هذه القصة أن يسوع لم يرد مباشرة على بطرس بل على الشيطان الذي كان يشن عليه هجوماً ضارياً من خلال شخصية بطرس، ففي جهود بطرس لإبعاد يسوع عن الصليب، فإنه قد تحالف دون أن يعلم مع عدو سيده الذي كان يستخدم شفتي بطرس، لذلك لم يتردد يسوع في أن يوجه حديثه إلى الشيطان مباشرة «ابعد عني يا شيطان».

إن يسوع لم يصف بطرس بأنه شيطان، ولكنه وبخ عدوه الأساسي مباشرة بالاسم لاستخدامه لبطرس بتحفيزه لكي يطلب خدمة الآخرين بلا تضحية، وللبحث عن تاج بلا صليب. كان على بطرس أن يتعلم أن الملكوت لا يمكن أن يتقدم بأي وسيلة ممكنة غير الصليب، وأن الخدمة لا تنجح سوى عن طريق التضحية، وأنه لا يمكن أن تكون هناك القيامة ويوم الخمسين بدون الجلجثة. ويمكننا أن نقول إن بطرس قد اختبر في النهاية أن طريق الصليب هو طريق الذهاب إلى بيت الآب، لأنه عُلِّق على صليب في نهاية المطاف.

درس الجماعة الجديدة

لما كان بطرس قد تشرب طموحات وآمال الديانة اليهودية، فإنه كيهودي كان يتطلع لمجيء المسيا ليؤسس ملكوتاً أرضياً. ولكن بنظرة انعزالية ضيقة، فإن هذا الجليلي، الذي اعتقد أن الخلاص من اليهود، كان يتطلع

إلى المسيا «كمجد لشعب إسرائيل» بأكثر مما كان يتطلع إليه «كنور إعلان للأمم» (لو ٢:٣٢). وهذه النظرة الضيقة للخطة الإلهية هي التي صححها الله في الرؤيا التي رآها بطرس حين رأي ملاءة عظيمة نازلة من السماء ومدلاة على الأرض (أع ١٠:١-٢٢). إن كرنيليوس التقى، الضابط المشهور في الجيش الروماني والأممي، كان يرغب في معرفة أعمق بالرب والشركة في الكنيسة. وكمعتنق لليهودية، كان يبحث عن أولئك الذين يستطيعون أن يقتادوه إلى حياة أسمى وقد اقتيد إلى بطرس عن طريق رؤيا.

ولكن كان على بطرس أن يتعلم أنه قد قضى على الفوارق بين اليهودي والأممي في المسيح، وأن كنيسته قد احتضنت كل الذين ولدوا ثانية بالروح القدس. وكان ذلك هو السبب في الرؤيا التي رأها في يافا الخاصة بالملاءة العظيمة المدلاة إلى الأرض والتي تحتوي على كل دواب الأرض. بما في ذلك حتى الخنازير التي كان الأمم يأكلونها. اعترف بطرس باتضاع أنه قد تعلم الدروس الذي علمته إياها الرؤيا، ألا وهو أن الله ليس إلهاً لليهود فقط، بل إلهاً للأمم أيضاً، وأنه على استعداد لقبول كل الناس – حتى أكثر الناس المنبوذين من الأمم. هكذا تكونت الكنيسة التي دعاها المسيح كنيستي. لقد سمع بطرس أولاً عن ذلك من شفتي معلمه استجابة لإعلانه الملهم من السماء وإفصاحه عن لاهوت المسيح ومسيانيته (مت ١٦:١٣-٢٠).

كان الاثنا عشر مع المسيح لأكثر من عام ودرسوا حياته وشعروا بتأثيرها على حياتهم، لقد شهدوا حياته عندما كانت المعجزات تتوالى معجزة في إثر معجزة، واستمعوا إلى أحاديثه التي لا مثيل لها. كان ربنا يعرف حقيقة شعورهم من نحوه، ولكنه سألهم عما يقوله الناس عنه. أخذ بطرس يعقد سلسلة من المقارنات العقلية السريعة، وأخذ يفكر في بعض الأبطال القديسين في الماضي، واستجابة لسؤال المسيح «من يقول الناس إني أنا؟» أجاب بطرس «يوحنا المعمدان» «إيليا» «واحد من الأنبياء». ثم استقرت عينا يسوع على بطرس وسأله: «وأنت من تقول إني أنا؟» أجاب بطرس بسرعة صدى الصوت قائلاً: «أنت المسيح ابن الله الحي» في لمح البصر رأى كيف أن المسيح فاق قديسي كل العصور بمراحل.

مثل هذا الإعلان للمجد المخفي خلف حجاب بشرية المسيح قد تم قوله، لا عن طريق الفطرة ولا كشيء مكتسب، بل عن طريق الروح القدس الذي يعلن دائماً فكر الله للبشر، هذه هي العقيدة المسيحية الأولى، لقد وصل بطرس إلى قمة جبل الإعلان، ونال بركة الشخص الذي أعلن لفكره «طوبى لك يا سمعان بن يونا، إن لحماً ودماً لم يعلن لك لكن أبي الذي في السموات». ثم تبع ذلك أول ذكر من ربنا للجماعة الجديدة التي أتي ليؤسسها – الكنيسة – والتي كان بطرس عضواً بارزاً في تأسيسها وامتدادها. وهذا يأتي بنا للتأمل في كلمات ربنا التي أساء البعض فهمها «أقول لك أيضاً أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي وأبواب الحجيم لن تقوى عليها» (مت ١٦:١٨). وما قاله ربنا عن بطرس إن له مفاتيح الملكوت قد تعاملنا معه لوحده في سؤالنا التالي. دعنا هنا نحاول أن نفهم معنى الصخرة التي تحدث عنها ربنا.

يعتبر بعض الناس أن كنيسة القديس بطرس في روما مبنية فوق البقعة التي مات فيها بطرس، كما قال يسوع. لذلك ففي كتاب «وحدة الكنيسة» يفسر الأب م.ج ليجوك كلمات ربنا بهذه الطريقة: «عليك – يا بطرس، الذي جعلته صخرة – سوف أبني كنيستي». إن بطرس رأس الكنيسة كان أول من كرز بالإنجيل في روما، مؤسساً عرشه في مدينة روما، ومع ذلك فإن ذلك المؤرخ الروماني الكاثوليكي الأكثر شهرة والجدير بالثقة، الأب دوتشيين في كتابه

«التاريخ المبكر للكنيسة» يرفض إدعاء كنيسته وهذا ما كتبه: «نحن لا نعرف يدي من زرعت النبتة المقدسة في الأرض، أي كنيسة روما. إن التخمينات المبنية على أساس غير آمن حتى أن التاريخ لا يمكن أن يعتبرها قضية مسلم بها، تعتبر أن الرسول بطرس قد جاء إلى روما خلال السنوات الأولى من حكم كلوديوس ٤٢م... في الوقت الذي أطلق فيه سراح القديس بولس، جاء القديس بطرس إلى روما. وربما كان هناك من قبل ذلك، وهذا وارد. ولكن لا يمكن إثبات ذلك، فليس لدينا معلومات من أي مصدر فيما يتعلق بالعمل الرسولي لبطرس في روما».

إن الكنيسة التي دعاها المسيح، كنيستي (كنيسة الله الحي ١تي ٣:١٥) أساسها المسيح وحده. «لا يستطيع أحد أن يضع أساساً غير الذي وضُع الذي هو يسوع المسيح» (١كو ٣:١١). إن الوعظ الديناميكي لبطرس كان واسطة لتجديد أعداد كبيرة من اليهود والأمم في البداية. وحيث أن أعماله أسست الكنيسة وجعلتها تمتد، يمكن أن نتحدث بهذا المعنى عنه كأساس للكنيسة (أع ٢:٤١و ١٠، ١٥:٧). يشير بولس إلى بطرس كواحد من أعمدة الكنيسة (غل ٢:٩) وأهل بيت الله، على اعتبار أنهم «مبنيون على أساس الرسل والأنبياء، ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية» (أف ٢:٢٠، رؤ ٢١:١٤).

فما هو إذن المعنى الحقيقي لما قاله ربنا عن بناء كنيسته على الصخرة؟ الكلمتان اليونانيتان المستخدمتان مقابل «صخرة» مختلفتان في النوع، الكلمة الأولى التي ذكرت عن بطرس هي Petros، أي صخرة بمعنى شظية من حجر قطعت من وجه الصخر، والكلمة الثانية هي Petra بمعنى الصخر كله، كما أوضحنا سابقاً، فالارتباط بيسوع حول سمعان إلى بطرس، وقد تحولت شخصيته إلى ما يشبه الصخر، ولكنه ليس الصخرة التي بنيت عليها كنيسته. كان بطرس يهودياً وإلمامه بالعهد القديم يجعله يعرف أن الصخر في كل الأسفار العبرية لا يمكن أن يرمز لإنسان، بل دائماً يشير إلى الله. «الكلمة العبرية هي Tsur، ونحن نجدها ترد مالايقل عن ٤٠ مرة مجازاً في العهد القديم. وقد استخدمت مرتين عن الآلهة الكاذبة كما في سفر التثنية ٣٢، على اعتبار مقارنتها بصخر إسرائيل، الذي هو الإله الحي، وفي كل حالة فالاستعمال المجازي للكلمة يشير إلى الله.

وخلاصة الموضوع أن الكنيسة الحقيقية ليست مبنية على بطرس كفرد، بل على ما كان بطرس قد أقر به «أنت المسيح، ابن الله الحي». رأى بطرس ابن الله كالمعد لطريق الله، وفي علاقة فريدة معه، وقد أشار ربنا لهذه الحقيقة المطلقة عندما قال: على هذه الصخرة – (لاهوتي ومسيانيتي) أبني كنيستي» إنه البنّاء العظيم والحكيم للجماعة المسيحية – الصخرة المبنية عليها (١كو ١٠:٤، ١بط ٢:٤-٦). ويمكن أذن التعبير عن التناقض المتضمن في هذا الحديث هكذا «أنت الرسول الصخرة، ومع ذلك فأنت لست الصخرة التي تبني عليها الكنيسة. يكفيك أنك وجدت الصخرة، وأنك قد بنيت على هذا الأساس الواحد».

وضع أغسطينوس، أسقف هيبو ٣٩٦م. على فم يسوع الصيغة التالية «على هذه الصخرة سوف أبني كنيستي، لا على بطرس الذي هو أنت، بل على الصخرة التي اعترفت أنت بها حين قلت، أنت المسيح، ابن الله الحي... سوف أبنيك عليّ وليس أنا الذي أبني عليك».

عبر كريسوستوم، بطريرك القسطنطينية ٣٩٨م عن ذلك في عظة عما جاء في مت ١٦:١٨ فقال: «أقول لك، أنت بطرس، وعلى هذه الصخرة سوف أبني كنيستي، أي، على الإيمان المعلن في اعترافه. إنه لم يبن كنيسته على الرجل، ولكن على إيمانه». كل من أغسطينوس ومارتن لوثر

اعتقدوا أن الكنيسة قد بُنيت على الإعلان الذي نطق به بطرس عن المسيح والموحي به من السماء (انظر غل ١:١٦، ١يو ٤:٢،٣). وعن هذه الجماعة الجديدة، أعلن يسوع أن «أبواب الجحيم (أو هادس) لن تقوى عليها» الأسلوب المستخدم هنا يتضمن قوة مناضلة لكنيسة في حرب، تهزم الخطية، وتتغلب على الحزن ولذلك تنتصر على الموت. والعالم ككل ينظر إلى الكنيسة التي أسسها المسيح كقوة ضعيفة حقاً، غير قادرة على أن تفعل الشيء الكثير ضد الزحف المتنامي للأثام، والصراع والحروب الدولية والقومية. ومشكلات عصرنا المتزايدة. ليت الله يعيد إحياء كنيسته، حتى تكون مرة أخرى مرهبة كجيش بألوية.

درس المحبة

في إحدى قصائده، يريد شكسبير منا أن نتذكر أن:

للورد أشواك ولينابيع الفضية طين

السحب والكسوف والخسوف تشوه جمال القمر والشمس

والآفات الكريهة تتواجد في أحلى البراعم

وكل البشر يرتكبون الأخطاء

كانت لبطرس أخطاؤه بالتأكيد، وكانت الأشواك بين ورده، ولكن برغم كل ما يشوه حياته، مازلنا نحبه، ولكن طبيعته التي ينقصها الدفء والعاطفة ليست من بين أخطائه، فتحت مظهره الخارجي القاسي يوجد قلب محب. للشيخ المحبوب الكسندر وايت فقرة جديرة بالتكرار في دراسته لشخصية بطرس.

«الق اللوم على بطرس بقدر ما تستطيع، وركز على أخطاء حالته المزاجية، وكل نقائص شخصيته، على قدر ما تحب، أتحداك أن تنكر أنه، على الرغم من ذلك، كان رجلاً جذاباً جداً ومحبوباً.

«إن أسوأ آفات القلب البشري هو البرود». فبالرغم من كل أخطائه، وقد كانت كثيرة، لم يكن القلب البارد واحداً منها، كانت كل أخطاء بطرس حقاً تكمن في التهاب قلبه. كان قلبه الملتهب دائماً في فمه، وكان يعبر عن كل ما فيه عدة مرات، في الوقت الذي كان يجب عليه فيه أن يصمت».

إحساسه بالخطية، ودموعه الحارة على خطيته، تكشف عن رقة بطرس الداخلية، كان الشخص الوحيد دوناً عن كل الرسل الذي جثا عند قدمي يسوع وصرخ قائلاً: «اخرج من سفينتي يارب لأني رجل خاطيء». ياله من إحساس كاسح بالذنب والندم أعلنه بطرس! إن مثل هذا الإحساس الغامر بالخطية، لابد أنه دليل على قلب لمسته يد رقيقة. أليس هذا الإدراك العميق بعدم الجدارة قد أكسبه مكانة في قلوب جميع الذين ليس لديهم أفكار زائفة عن قيمتهم وأهميتهم (لو ٥:٨)؟

كان قلب بطرس دائماً بجانب الصواب، وما كان بحاجة إليه هو المزيد من التحكم، وقد اختبر ذلك شيئاً فشيئاً تحت إرشاد المعلم وتوجيهه وقد ملأه اهتمامه بما سوف يلقاه معلمه من رفض وآلام بالسخط والألم (مت ١٦:٢٢). ثم أن الخطر والإهانات التي تعرض لها يسوع جعلت بطرس ينفجر بغضب لا يمكن السيطرة عليه (يو ١٨:١٠). وكل ذلك قد أظهره كرجل ذي مشاعر فياضة، ولم يكن شفاء حماة بطرس من الحمى مجرد دليل خاص على التميز بالنسبة لبطرس، بل كان دليلاً على أنه تحت مظهره الخشن كان بطرس يمتلك قلباً محباً رقيقاً.

عند بحر الجليل، التقى المسيح المقام بتلاميذه مقدماً لهم دعوة جديدة أشمل للخدمة وفي هذا اللقاء الخاص الذي عقد بحكمة في صمت تعرض بطرس لمزيد من عملية الغربلة. كان يسوع أميناً ورقيقاً في استجوابه لبطرس، ثم دوي هناك اعترافه القلبي «أنت تعلم أني أحبك» في القصة المؤثرة عن هذا الحوار الذي جرى بين يسوع وتلميذه

المخطيء سأل يسوع هذا السؤال «لا مرة واحدة، بل ثلاث مرات: أتحبني؟» استخدم يسوع اسم بطرس القديم، سمعان، واعتراف بطرس المثلث أعقب إنكاره المثلث، «أنكره ثلاث مرات.

وعندما اكتفى يسوع بإعلان تلميذه المفاجيء بالحب القوي الملتهب، أمره من جديد بالقيام بالخدمة المستقبلية. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، علم ماهية العمل الذي سيقوم به وكيف سيموت (يو ٢١:١٥-١٩) فلا عجب أنه فيما بعد، عندما بدأ بطرس يكتب رسالتيه، أعلن أن «المحبة تستر كثرة من الخطايا» وهي مازالت تفعل ذلك. يذكرنا دانيل ماكلين بما يأتي:

«إن شمس بطرس قد كسفت، ولكنها لم تنطفي أبداً، فقد ظلت تسطع وهي تشيع الدفء بمجرد انهزام الظلال. ولذلك فنحن نقبل رأي كريسوستوم: «أحب المسيح يوحنا حباً جماً، ولكن بطرس أحب المسيح حباً لا مزيد عليه».

لقد أصبح سمعان، تلميذ الوعد، عن طريق هذا الاعتراف، بطرس البطل، ومنذ تلك اللحظة بدأ حياة لامعة لفائدة الآخرين وقد كرس ثراء عبقريته المقدسة لخدمة الإيمان.

«أتحبني أكثر من هؤلاء؟» نحن لا نفهم من كلمة (هؤلاء) السمك والقوارب والشباك فقط - حرفته القديمة - بل التلاميذ الآخرين الذين كانوا حاضرين أيضاً. إن الاشارة الواضحة هنا هي مقارنة بطرس لنفسه بالآخرين في الثقة بالمحبة التي اعتقد أنها لن تسقط (مت ٢٦:٣٣، مر ١٤:٢٩). هل وصل نفس هذا السؤال الفاحص إلى قلوبنا «أتحبني أكثر من هؤلاء؟» - وهل الإجابة هي نفس إجابة بطرس: «أنت تعلم أني أحبك؟» أفضل من الثروة وأفضل من الصحة، وأفضل من الشهرة، وأفضل من أقرب المقربين؟ لقد أحب بطرس كثيراً لأنه، كالمرأة التي غسلت رجلي المسيح. قد غفر لها كثيراً، هل هذا هو اختبارنا الشخصي؟

درس الشجاعة المنضبطة

كان بطرس بالطبيعة والتكوين ذا مزاج حماسي ودموي. ولكن ما هو تعريف الحماس؟ «ما هو سوى أن القلب، والخيال، والإنسان كله، جسداً ونفساً، في حالة ملتهبة» إنه الصفة التي ساعدت بطرس ليظهر شجاعة لا سبيل لإنكارها، ولأن أشجع الرجال عرضة للاجتياز المؤقت في الخوف والجبن، فلا يصح أن نوبخ بطرس لاستسلامه لمثل هذه الحالة. فمن الأشياء المحزنة أن فروويد ديك الكبير هرب من أول معركة دخلها. وكان كل من إيليا ويوحنا المعمدان بطلين يشار إليهما بالبنان، ولكن، كما نعرف، فإن شجاعة أحدهما قد خذلته في الصحراء، وأطاح السجن بشجاعة الآخر.

كان بطرس شجاعاً حقاً وبينت ذلك محاولته السير على البحر. لم يكن هذا عملاً طائشاً: مجرد رجل شجاع حاول القيام بهذا العمل. ومجرد رجل لا يهاب أحد وقف ضد فرقة الجنود الذين جاءوا للقبض على يسوع. وعندما قال ليسوع: «إني مستعد أن أمضي معك حتى إلى السجن وإلى الموت» كان يعني ما يقول، ولو كانت المحاكمة قد حدثت في تلك اللحظة، لكان ذهب مع يسوع. ولكن هذه الشجاعة الطبيعية كانت ممتزجة بمادة رخوة. وكانت في حاجة للانضباط، والتنقية بالنار، والتحلي بروح اسمى تتسم بالثقة والتكريس لتصبح مثل الصخر. لقد أتى يوم الخمسين بمثل هذا التكريس للشجاعة، جاعلاً إياها «نابعة من الأعماق. هادرة بقوة، مطهرة بلمسة إلهية، وموجهة بتوجيه إلهي». هكذا كان الحال، حتى أنه عندما وقف بطرس وأدان الحكام والشيوخ والكتبة بالجريمة التاريخية التي ارتكبوها، تعجبوا من جسارته (أع ٤:٥-١٣).

٣- الرسول الذي حصل على المفاتيح

بعد إعلانه العظيم، والذي استحق بركة يسوع، أعطى لبطرس تكليفاً خطيراً والذي بسبب سوء تفسيره من قبل البعض، فإنه يستحق اهتمامنا به والتأمل فيه، إنه يقول «أعطيك مفاتيح ملكوت السموات، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السموات، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السموات» (مت ١٦:١٩). تصور الأسطورة بطرس على باب السماء ممسكاً بمفاتيحها ليسمح بالاستمتاع بالفرح الأبدي لكل من يعتبرهم أهلاً لذلك. فالذين ينادون بأن بطرس هو أساس عقيدتهم، يفسرون هذه المفاتيح بأنها رمز للسلطة الفريدة الممنوحة لبطرس. ولكن كما يعبر الدكتور ج.د. جونز عن ذلك بالقول: «لم يمنح المسيح لبطرس أي رئاسة أو سلطان على إخوته. أما النظرية القائلة بأن له الأولوية الرسمية على باقي الرسل فليس لها أدنى سند كتابي. ولكن حقيقة أن بطرس مارس الرئاسة على الاثنى عشر بناءً على طبيعته الجسورة المستبدة والمندفعة. وهذا واضح في كل صفحات العهد الجديد» مالا يجب أن ننساه حقيقة أن نفس كلمات السلطان كالتي تحدث بها ربنا إلى بطرس، عن الحل والربط، قد تحدث بها إلى المؤمنين كأفراد. كان بطرس أول من استخدم المفاتيح، ولكنه ليس الشخص الوحيد الذي فعل ذلك (مت ١٨:١٨). الاشارة الأخيرة إلى بطرس في سفر أعمال الرسل هي الإشارة إلى استعماله للمفاتيح، في دفاعه عن الحرية المسيحية، أمام مجمع أورشليم (أع ١٥:٧-٩).

مهمة المفتاح هي أن يدور في القفل ويفتح الباب. وما أن يفتح الباب، لا يصبح للمفتاح أي قيمة ما لم يغلق الباب مرة أخرى، وحمل بطرس للمفاتيح يعني ببساطة أن له امتياز فتح الباب، أو أن يعلن أن المسيح هو الباب، ويدعو اليهود والسامريين والأمم للدخول من الباب وأن يخلصوا. وهذا الباب ظل مفتوحاً دائماً وأبداً، وكل من يرغب يمكنه أن يدخل (أع ٢:١٤-٤٠، ٨:١٤، ١٠:٣٤-٤٨). ما أن استخدم بطرس المفاتيح حتى أخلى مكانه من الصورة، وترك الباب مفتوحاً لكل من يرغب في الدخول، ويخبرنا بولس بوضوح أن مهمة بطرس الخاصة كانت تنحصر في أنه رسول الختان إلى اليهود ولكن في بيت كرنيليوس في قيصرية، استخدم بطرس المفتاح الذي أعطاه المسيح له ليفتح باب الإيمان إلى الأمم.

في الأصحاحات الاثنى عشر الأولى من سفر أعمال الرسل، يسيطر بطرس على المشهد عندما يفتتح مؤسسات مسيحية كبرى، فاتحاً الباب للخراف لكي تدخل، ومطعماً الخراف كما أمره المعلم أن يفعل. كان للرسول امتياز فتح بيت الكنوز، ومقدماً الجدد والعتقاء ولكنه بالنسبة لهذه الخدمة لم يكن سوى ممثل لكل المؤمنين الحقيقيين. الذي لكل واحد منهم امتياز وفرح فتح الأبواب للدخول. يقول أوريجانوس، - واحد من آباء الكنيسة الأوائل - بحق إن «من لديه إيمان بطرس هو صخرة الكنيسة، ومن له فضائل بطرس يحتفظ بمفاتيح الملكوت». المفتاح هو علامة على القوة أو السلطة (إش ٢٢:٢٢، رؤ ٣:٧) ومثل هذه القوة السيادية موضوعة تحت تصرف كل ابن مولود ثانية من الله (مت ٢٨:١٨-٢٠).

٤- رسول بارز كمتحدث باسم الاثنى عشر

من المشوق أن تقارن بين ما يقوله يعقوب عن العضو الصغير، اللسان وضرورة التحكم فيه عندما نفكر في اندفاع بطرس في الكلام. من الفم الواحد تخرج بركة ولعنة» (يع ٣:١٠). كان بطرس يبارك ويلعن بلسانه، كان يتحدث باسم أبيه السماوي، ويتحدث للأسف باسم الشيطان (مت ١٦:١٧،٢٣) ولكن يوم الخمسين أحدث في

بطرس تغييراً هائلاً، فهو الذي كان يتحدث فيما بعد كما أعطاه الروح القدس أن يقول.

وما يلفت نظرنا في الأناجيل الطريقة التي تصرف بها بطرس كالمتحدث، بفم الرسل «كما قال كريسوستوم، كان بطرس دائماً صريحاً لا يخفي شيئاً. وكان يقول كل ما في فكره دون اعتبار للعواقب. وفي كل أجزاء قصة الإنجيل يبدو كالمتحدث باسم الرسل، فكان يسأل الأسئلة التي كانت تشغلهم، ولكنهم كانوا مترددين في التعبير عنها، ومقدماً الإجابات والاعترافات التي كانت في أذهانهم، ولكن لم يكن لديهم الشجاعة أو لم يقرروا أن ينطقوا بها. كان يسأل أسئلة نيابة عن الاثنى عشر، ويقدم اقتراحات باسمهم، وكان يعبر عن الآراء باسم الاثنى عشر. تأمل بطرس وهو يسأل يسوع بجسارة أسئلة عن:

الجباية أو الجزية (مت ١٧:٢٤).

معنى أمثلته (لو ١٢:٤١).

عدد مرات الصفح عن المسيئين إلينا (مت ١٨:٢١).

المكافأة المقدمة لأولئك الذين يتبعون يسوع (مت ١٩:٢٧).

وكان بطرس أيضاً المتحمس كثير الكلام هو الذي أدلى بـ: أول اعتراف لمسيانية المسيح ولاهوته (مت ١٦:١٦).

والإجابة بالإنابة عن بقية الرسل عندما سأل يسوع «ألعلكم أنتم أيضاً تريدون أن تمضوا؟» (يو ٦:٦٧،٦٨).

والعبارة عن غسيل الأرجل والتي يعبر فيها بطرس عما يجول بخاطر بقية التلاميذ (يو ١٣:٦).

وعندما نأتي إلى سفر أعمال الرسل، كم يبرز بطرس كالواعظ الجريء الذي لا يخشى شيئاً! ياله من لسان من نار أعطاه الروح للرسول! وأخيراً. فقد كان «الرجل الكامل» ذا لسان خاضع للتوجيه الإلهي، قادراً أن يلجم كل الجسد، وكينبوع يصنع ماء عذباً لجماهير الخطاة.

٥- الرسول الذي أصبح الأول بين الرسل

إن شخصية بطرس القوية هي التي وضعته في مقدمة الرسل. وضع للويد س. دوجلاس عنواناً لروايته الشاعرية عن شخصية بطرس الأسطورية «الصياد الكبير» وهو عنوان مناسب، لأن ابن يونا كان كبيراً بحق وكان معداً للقيادة. ومن المثير أن نلاحظ أن أقدم قوائم الاثنى عشر الذين اختارهم يسوع تبدأ بالكلمات: «الأول سمعان الذي يقال له بطرس» (مت ١٠:٢) في البداية، نجده بارزاً عن الباقين، ونجده الأول في الترتيب، واسمه يأتي في أول القوائم الأخرى. مهما كان المعنى الذي قصده متى من العبارة السابقة، سواء كان رأيه الخاص، أو الشعور العام لدى الأحد عشر رسولاً الآخرين، أو شعور الكنيسة في الوقت الذي كتب فيه إنجيله، فقد كانت العبارة صحيحة، سمعان بطرس هو «الأول» ومكانه عادة في وسط الصورة الأولى في قوائم الرسل، ثم في مشاعر القديسين في كل عصر.

هناك عبارة في سفر أعمال الرسل توحي بالقيادة التي مارسها الرسول «وفي تلك الأيام قام بطرس في وسط التلاميذ» (أع ١:١٥). وبغض النظر عن التفوق المطلق لبطرس الذي تدعيه روما له، نحن نعرف أن العهد الجديد يعترف بصدارته أو مكانته الأولى بين الاثنى عشر، في كل عصر تقريباً. هناك دلائل على سيادته، وهي سيادة منحته إياه الطبيعة نفسها. من بين الاثنى عشر الذين علمهم يسوع، كان بطرس أكثر الشخصيات تأثيراً وفاعلية، وقد احتفظ بموقعه المتقدم إلى النهاية. كان بطرس «الرئيس والقائد الطبيعي لجماعة الرسل»، وكان لديه اللقب الذي لم ينازعه عليه أحد الذي يخول له المكانة الأولى، مع أنه لم يكن يمتلك أي تفوق روحي أو امتياز لم يحصل عليه زملاؤه من الرسل. يدعي بعض الناس زوراً أن قوى فريدة قد

منحت لبطرس من قبل المسيح بعد اعترافه العظيم. ولكن السيادة الرسمية، والسلطة التي يضعها بعض الناس على بطرس لا سند لها من الكتاب المقدس.

ليس لدينا عن بعض الرسل الآخرين شيء سوى أسمائهم، ولكن سجل بطرس مفصل، ونابض بالحياة، وبارز. كتب الدكتور وليم كيف، في كتابه عن «الرسل» ما يأتي عن بطرس:

«إن عمره وجاذبية شخصه، تؤهله للمكانة الأولى بين بقية الرسل، وهي رئاسة لا يمكن لأي جماعة بشرية أن تستغني عنها حتى تحسن إدارتها وتحتفظ بكيانها ولا يمكن لأحد أن يضعه في مكانة أقل من ذلك. كما أنه لا الكتاب المقدس ولا الكتابات القديمة تسمح له بمكانة أرفع من ذلك».

وكالأول بين أنداد كان بطرس أول من يعلن إيمانه بإرسالية المسيح الخارقة للعادة وأول من يرى المسيح المقام في الأحد الأول للقيامة، وتفوق بطرس يمكن أن تبرزه العبارات التالية: «اذهبن وقلن لتلاميذه ولبطرس» (مر ١٦:٧). «الرب قام بالحقيقة وظهر لسمعان» (لو ٢٤:٣٤). ثم يسجل بولس الظهورات المختلفة الأولى للرب المقام ويقول: «وإنه ظهر لصفا ثم للاثنى عشر» (١كو ١٥:٥). وبعد صعود المسيح، يتصدر بطرس المشهد كالرسول المخصص لليهود، وكأول من نظر مجد الرب، فقد حظى بشرف كونه أول بشير بنعمة ربه. وبالقبض على بطرس في أثناء حكم هيرودس، يبدو أن قصته تأتي إلى نهايتها (أع١٢). ويبدأ بولس يتصدر المشهد كشخصية أكثر بروزاً في تاريخ المسيحية الأولى، ظل بطرس محتفظاً بالمكانة الأولى في الكنيسة الرسولية حتى ظهر بولس. وكما يؤكد الكسندر وايت:

«على الرغم أن بطرس كان شخصاً لافتاً للنظر وبارزاً. إلا أنه لم يكن يمتلك المقدرة الطبيعية ولا المزايا التعليمية لشاول الطرسوسي. لم يكن فكره عميقاً أو قوياً أو متعدد الجوانب أو مثمراً كفكر بولس الذي لا يضاهي. وكنتيجة لذلك فإنه لم يستطع أبداً أن يدرك العمل الذي استطاع بولس وحده القيام به. ولكن في نفس الوقت، وحتى ظهر بولس وحجب ضياؤه ضياء كل التلاميذ الذين كانوا في المسيح قبله، كان بطرس على رأس قائمة الرسل، ولذلك فهو يترك بصمة أعمق على كل صفحات الأناجيل الأربعة على أي حال، أكثر من أي واحد من التلاميذ الأحد عشر الآخرين.

٦- الرسول الذي أنكر سيده

الشيء المحزن في حياة بطرس حدث عندما خان ربه في ساعة شدته. وهو شيء ينبغي أن يخجل كل واحد منا أمام الله، لأنه يكشف نقص أقوى الرجال عندما يتكلون على قوتهم الشخصية، لم يكن عدم الإخلاص واحداً من أخطاء بطرس وعندما قال إنه على استعداد لأن يضع حياته لأجل سيده فقد كان يعني ما يقول. لا يمكن لأحد أن يتهم بطرس بالرياء إذ كان يعني ما يقول، وقال ما كان يعنيه. ولكن يا للحسرة! فلم يكن مدركاً لضعفه الشخصي. نحن أمام رجل، استل سيفه منذ ساعات قليلة دفاعاً عن معلمه، ولكن شفتيه تدنست بالحلف الكاذب والأكاذيب لمجرد اتهام صادر كزلة لسان من فم جارية. يا له من إظهار للمتناقضات في إنسان يرتفع إلى عنان السماء مع الملائكة تارة ثم ينخفض إلى أعماق الحجيم مع الشياطين مع أنه الأفضل بين رجال هم أفضل الرجال! إن مستنقعات الشر المنخفضة دائماً ملاصقة لساحات أقدس الناس. فأنبل وأطهر الرجال يجربون في معظم الأحيان بالأفكار الشريرة والشكوك المحيرة.

بداخلنا جميعاً إمكانيات لعمل الفضيلة وإمكانيات

مماثلة لعمل الرذيلة. وعندما نفعل الخير، يكون الشر حاضراً معنا، وكلما كانت الطبيعة سخية في هباتها، أصبحت خطاياها أكثر مدعاة للوم. «إن فساد أفضل الناس لهو أسوأ أنواع الفساد» وهكذا حدث أن بطرس، الذي نبجله كالذي باركه المعلم، يذهب إلى حد إنكار أنه قد عرفه على الرغم أنه رسول. فقد انتقل من البركة إلى اللعنة. ولكن وقت الغربلة بالنسبة له قد حان عند فصل التبن عن الحنطة – عند فصل سمعان بن يونا المختال، المعتد بذاته، والعنيد المندفع عن بطرس المكرس، المقدام، البطولي، الشبيه بالصخر (لو ٢٢:٢١ . ٣٢). ففي أثناء الحديث الذي دار أثناء العشاء الأخير، حدث أن يسوع التفت إلى بطرس، وقال: «هوذا الشيطان طلبكم لكي يغربلكم كالحنطة ولكني طلبت من أجلك كي لا يفنى إيمانك».

ثم جاء التأكيد أنه بعد عملية الغربلة، فأن بطرس سوف يكون مصدر قوة لبقية التلاميذ: «وأنت متى رجعت ثبت إخوتك».

هذا الاكتشاف لضعفه، جعل بطرس قوياً، لقد اختفى هذا الاعتداد بالذات والثقة الزائدة بالنفس، وظهر المزيد من ثمار الاتكال الكامل على الرب. وعندما كتب بطرس رسالتيه، كتب تحذيرات مماثلة للرجال الأقوياء المعتدين بذواتهم. وكلنا نعرف جيداً الاختبار الثلاثي المأساوي الذي اجتاز فيه بطرس، فقد ذهب إلى بيت رئيس الكهنة لينظر النهاية (مت ٢٦:٥٨). لقد اعتقد بطرس أن القبض على معلمه وموته سوف يكون نهاية لكل الأشياء التي اعتقد أنها تستحق أن يحيا لأجلها.

ونرى فكر الشيطان ودهائه في القضاء على إيمان بطرس حين بدأ عملية الغربلة للرسول، ليس عن طريق تعيير لأحد الجنود، بل بسؤال مرتجل ومسبب للضيق موجه من جارية – سؤال ذو صلة بمكان تواجده الجسدي، وليس بولائه الروحي، ولتفادي هذا السؤال المرتجل، ارتجل بطرس أكذوبة.

يذكرنا ج. اوزرالد ساندرز أن الأخطاء اللفظية لبطرس قد أتاحت ليسوع فرصاً لتعليم تلميذه دروساً عظيمة الفائدة. كان بطرس قد قدم اعترافاً ثلاثياً للاهوت المسيح:

«نحن قد آمنا وعرفنا أنك أنت المسيح ابن الله» (يو ٦:٩٦).

«أنت هو المسيح ابن الله الحي» (مت ١٦:١٦).

«اخرج من سفينتي يارب لأني رجل خاطيء» (لو ٥:٨).

وقدم بطرس أيضاً افتخاراً ثلاثياً:

«إن شك الجميع فأنا لا أشك» (مر ١٤:٢٩)

«ولو اضطررت أن أموت معك لا أنكرك» (مت ٢٦:٣٥).

«يارب إني مستعد أن أمضي معك حتى إلى السجن وإلى الموت» (لو ٢٢:٣٣).

كان بطرس يعني كل ما أقر به ولكنه لم يكن مدركاً لضعفه، ولذا فقد أكد المعلم على ثلاثة تحذيرات خطيرة:

«هوذا الشيطان طلبكم لكي يغربلكم كالحنطة ولكني طلبت من أجلك لكي لا يفنى إيمانك» (لو ٢٢:٣١).

«اذهب عني يا شيطان، أنت معثرة لي لأنك لا تهتم بما لله ولكن بما للناس» (متى ١٦:٢٣).

«قبل أن يصيح ديك تنكرني ثلاث مرات» (مت ٢٦:٣٤).

ولكن حتى هذه الإشارات الحمراء فشلت في منع بطرس من إنكاره الثلاثي، وهي النتيجة الحتمية لافتخاره المبني على الاعتداد بالذات:

«لست أدري ما تقولين» (مت ٢٦:٧٠).

«فأنكر أيضاً» (مت ٢٦:٧٢).

«لست أعرف الرجل» (مت ٢٦:٧٢).

دعنا نسترجع هذا الجبن الذي أظهره بطرس في لحظة الامتحان الحرجة. ياله من خليط غريب من الشجاعة والجبن في آن واحد! فقد اتبع يسوع بشجاعة واتخذ موقفاً معادياً لكل ما يمثله العالم من قيم، ودافع عن ربه بسيف! ومع ذلك فإن سؤالاً وجهته له جارية في فناء دار رئيس الكهنة، قد أصاب وجهه بالشحوب. وجعله يرتعش، ويكذب، لئلا يكتشف أنه تلميذ ليسوع. ولما كانت عينا الجارية الفاحصتان تشع شراراً، فقد آثر بطرس أن يجد ملجأ في الرواق الخارجي. ثم جاء سؤال ثان، وتبعه إنكار ثان من شفتيه الكاذبتين. وعندما تمت مواجهته للمرة الثالثة، نسى تلمذته، وتعهداته، ومعلمه، نسى كل شيء ما عدا الخطر الذي كان قاب قوسين أو أدنى منه.

وكالخنزير، عاد بطرس إلى الحمأة لأنه لم يكذب فقط ولكنه حلف أيضاً ولما كان مازال متأثراً بعادة قديمة، فقد أصبح بطرس الجامح الدنس «ابتدأ حينئذ يلعن ويحلف». من الصعب أن نصدق أن بطرس دعا الله أن يلعنه لو كان تلميذاً، أو كانت له علاقة بالمعلم، لابد أن مثل هذا الإنكار التجديفي قد سبب جرحاً غائراً في قلب المسيح! لاشك أن سمعان بطرس كان في الدرك الأسفل عندما حلف بالعديد من الأقسام، وهو «الأول» بين الرسل، أنه لم يكن يعرف يسوع الناصري الذي كان محبوساً، وكان في تلك اللحظة، أمام رئيس الكهنة. نحن لا نصفح عن بطرس ولا ندينه إزاء كل ما عمله، فنحن نعرف قلوبنا جيداً.

ومع أن بطرس أخطأ بشفتيه، إلا أننا نعتقد أن شفتيه اللتين كذبتا أقل دنساً من شفتي يهوذا الذي قبل الوجه المقدس، لاشك أننا ننعي ضعف الإيمان الذي نتج عنه سقوط بطرس. إن اتباع يسوع من بعيد قد مهد الطريق لانتكاسته، ألم يتعهد أمامه، أنه سوف يتبعه حيثما يمضي؟ (يو ١٣:٣٦-٣٨). «اتبع شخصاً من بعيد ولن تتبعه طويلاً». إن تلمذة الكثيرين في هذه الأيام تماثل هذا النوع المتباعد، وينقصها وهج وقوة الاقتراب من المسيح. شيئان أيقظا بطرس وجعلاه يدرك ذنبه.

أولاً: صياح الديك، الذي كان يسوع قد أنبأ به، العلامة التي أعطاها لبطرس. **ثانياً:** نظرة المسيح، لقد أيقظه الديك، وأذابت النظرة قلب بطرس.

يصف لوقا الرسول فيقول: «فالتفت الرب ونظر إلى بطرس» (٢٢:٦١). ولو كانت للنظرة لغة تتحدث بها فإن نظرة المسيح كانت تقول: «لقد صليت لأجلك حتى لا يفني إيمانك. فالحب، والعطف والصفح في عيني يسوع حرك قلب التلميذ المخطيء وأذابه. عندما خرج يسوع من دار رئيس الكهنة بعد أن أدين ظلماً، التفت والتقت عيناه بعيني بطرس، وتبرز هذه النظرة الفاحصة الصادرة من قلب كسير كحدث من أهم الأحداث في كل قصة بطرس، فقد أيقظت هذه النظرة تأنيب الضمير لدي بطرس وكسرت قلبه وأخذ يذرف الدمع مراراً. خرج بطرس من ساحة المحاكمة ومضى ليبكي بمرارة. وعندما التقت عينا معلمه المتهم بعينيه عند صياح الديك، تذكر بطرس نبوة معلمه عن إنكاره له. كان الندم من نصيبه لأنه سقط في خطية لم يكن يحبها. لقد عانى بطرس من ضعف إيمانه، وليس من زواله تماماً، مبارك القلب الذي تأتي توبته سريعاً وبقوة.

ياله من فارق كبير بين يهوذا وبطرس! كانت توبة يهوذا بلا دموع - فقد كانت حزناً دنيوياً مع تأنيب الضمير الذي أودى به إلى الانتحار. ولكن حزن بطرس كان بحسب مشيئة الله (٢كو ٧:١٠). إن محبته للمسيح جعلته يبكي. كان بطرس ابناً لله حتى النخاع، ولكن يهوذا، كان ابناً للشيطان في الصميم. ولذلك يمكننا القول إن بطرس لم يكن بإمكانه أن يخطيء كما أخطأ يهوذا، وما كان بإمكان يهوذا أن يتوب كما تاب بطرس.

كانت دموع بطرس المريرة بداية لتوبة دائمة، فقد أذابت قلباً كان يمكن أن يقسو. لقد أصبحت تلك الدموع التلسكوب الذي نظر من خلاله ربه بوضوح أكثر.

لابد أن الفكرة المرعبة الخاصة بإنكار المعلم الذي كان يحبه كثيراً ويبجله قد أصابت بطرس بمخاوف عديدة خلال الأيام السوداء بعد الصلب، حتى أنه كان يلوم نفسه كثيراً ويعنفها إزاء ما فعله. ولنا أن نتصور كيف أن صوتاً واحداً كان يرن في أذنيه حتى النهاية، ألا وهو، صوت الديك. وكيف أن منظراً واحداً كان يجثم على ذاكرته، ألا وهو، تلك النظرة المحبة المتسمة بالعتاب من ربه عند مواجهته. ولكن لم ينته كل شيء بالنسبة لبطرس، فمع وصول خبر قيامة الرب، جاءت رسالة خاصة من المعلم لتلميذه التائب «اذهبن وقلن لبطرس».

إن بطرس ترك أكفانه خلفه بعد أن زار القبر الفارغ، تماماً كما تفعل الحشرة حين تترك الشرنقة وتتحول إلى فراشة ذات أجنحة تطير بها. لقد قام ثانية كإنسان جديد بعد أن خرج من قبر قلبه التائب، كصخرة قوية لمعلمه.

كره بطرس جريمة الخيانة لمعلمة وتخلي عن حياته السابقة وسقط في المعركة شهيداً وهو يدافع عن مليكه كنتيجة لصفح المسيح ووصيته له، فقد أعقب الإنكار اعترافاً ثلاثياً بالمحبة، وتلقي بطرس وصية ثلاثية للقيام بخدمة مستقبلية، يخبرنا سفر أعمال الرسل كيف أنه بعد سقوطه المدوي، فإن بطرس أصبح كالرمح المسنون في يد المعلم، لقد أصبح صياد السمك الواعظ الذي وعظ أهم عظة في تاريخ الكنيسة (أع ٢)، وهو الذي أجرى أول معجزة رسولية بعد الصعود (أع ٣:١-٤). لقد استجيبت صلاة المرنم «طريق الكذب أبعد عني» (مز ١١٩:٢٩) بالنسبة لبطرس، وبشفتين ممسوحتين أعلن قوة إنجيل المحبة المضحية والنعمة. وظلت هاتان الشفتان الملتهبتان تقدمان الحمد وتعلنان رسالة الإنجيل حتى أسكتهما الموت.

إن سقوط بطرس يقدم لنا رسالة، فإن أخطأنا، أو سقطنا من علٍ، فلنا رحمة وصفح، إذا تركنا الخطية وطلبنا الغفران الإلهي.

نسقط في الخطية نحن بشر
وأن نظل فيها نصبح شياطين
وأن نحزن على ارتكابها فنحن قديسون
وأن نترك كل خطية فنحن نتبع المسيح.

٧- الرسول الذي صلب

قال بطرس لربه مفتخراً، دون أن يعلم مغزى ما يقوله، إنه على استعداد أن يذهب إلى السجن وأن يموت لأجله. وبمرور الوقت، كان عليه أن يختبر كليهما، لأنه احتمل السجن وهو يحتمل المعاناة لأجل معلمه. وعلى مر سنوات عديدة، كان يعمل، مضحياً بكل نفيس، في خدمة تبشيرية شاملة كان خلالها واسطة لأجل هداية جماهير غفيرة إلى المخلص. وعلى الرغم أننا متأكدون من حقيقة استشهاده إلا أننا غير متأكدين من المكان الذي استشهد فيه. لقد أنبأ ربنا أن بطرس سوف يموت مصلوباً (يو ٢١:١٨) كتب لاكتانتيوس من الآباء الأوائل يقول: «حيث أن نيرون الذي كان من أردأ أنواع الطغاة الملاعين، صمم على القضاء على الكنيسة المقدسة ومحو البر، وأن يصبح مضطهداً لخدام الله، فإنه أصدر أوامره بصلب بطرس وقتل بولس».

وعندما نأتي إلى القسم الخاص بالمعلومات الأسطورية عن خدمة واستشهاد الرسل، نرجو أن نسجل بعض القصص المثيرة المتعلقة ببطرس، وفي نفس الوقت يمكن أن يقال إنه عندما جاء صالبوه لينهوا حياته الحافلة بالكفاح، رجاهم أن يعلقوه منكس الرأس - أي رأسه إلى أسفل ورجلاه إلى أعلى - لأنه حسب نفسه غير مستحق أن يموت في نفس الوضع الذي مات فيه ربه، لابد أن الأبواق قد

صدحت على الجانب الآخر من الأبدية عندما دخل الصياد الشهير وجلس مع الرب الذي أحبه بإخلاص وخدمه بكل تضحية.

ونحن كتابعي المسيح مثله، لا نمل من النظر إلى صورة بطرس لأنه كان يمثلنا تماماً كبشر حيث لم يكن فيه شيء يسمو على الطبيعة البشرية. إنه يذكرنا كثيراً بأخطائنا، ونحن نشعر بالبديهة أن ما عمله المسيح لأجله، يمكن أن يعمله لأجلنا. فإذا كان قد استطاع أن يجعل من هذا الإنسان الفاني المليء بالعيوب إنساناً عظيماً – أن يجعل من هذا الخليط المكون من الحديد والصلصال والنار والماء رسولاً قوياً قادراً لا يهاب شيئاً – فهناك تشجيع ورجاء. فعلى العالم أن ينظر ما يمكن أن يعمله الله في حياة قد سلمت نفسها تماماً لقيادته. سوف يظل بطرس دائماً وأبداً درساً لنا جميعاً لأنه يعطينا الإجابة على الضعف البشري، وكيف أن الضعفاء يمكن أن يصبحوا أقوياء والخائفين يمكن أن يصبحوا جسورين. إن سر التغيير يكمن في روح الله القوي، الذي أصبح لهذا المؤمن في يوم الخمسين مستودعاً لقوة لا ينضب معينها، ومصدراً للشجاعة والحكمة.

٨– الرسول الذي كتب رسالتين

«كما أن حياة وتجارب داود المتنوعة منعكسة في سفر المزامير الذي ألهم بكتابته، هكذا في رسالتي بطرس، يمكننا أن نميز الإشارات لأحداث حياته والمسجلة في الأناجيل وسفر أعمال الرسل، كما نجد دلائل على الدروس التي تعلمها من تجاربه وانتصاراته. ويتضح بكل جلاء أن الرسول في كتاباته لم يحاول أبداً أن يعتذر عن خطية (المعروف جيداً أنه قد ارتكبها)، التي هي إنكار ربه، وتنعكس هذه السقطة على بعض تحذيراته. كما يواصل بطرس في هاتين الرسالتين، استخدام المفاتيح للوصول إلى العديد من كنوز الحقيقة لاستنارة وتهذيب قطيع المسيح. يقول لاندنر Landner «إن رسالتي بطرس مع الحديثين اللذين ألقاهما في سفر أعمال الرسل، والجماهير التي تجددت بسبب هذين الخطابين، كلها دلائل على الوحي الإلهي، وإتمام وعد المسيح لبطرس «هلم ورائي فأجعلك تصير صياد للناس» من أين حصل هذا الصياد الفقير على هذه الحكمة والقوة سوى من الله؟ ليس في مجال دراستنا أن نقدم دراسة مستفيضة ومفصلة عن رسالتي بطرس، ولكن لنذكر ببساطة القليل من الإرشادات للوعاظ والمدرسين لكي يسيروا على منوالها في شرحهم للرسالتين:

الرسالة الأولى

قال أوسترفالد Ostervald عن هذه الرسالة إنها «واحدة من أجمل أسفار العهد الجديد» وحيث أنه من المرجح أنها كتبت لكل من اليهود والأمم المتجددين المشتتين في كل أنحاء آسيا الصغرى، فالرسالة تتسم بنوع خاص بالقوة والمهابة (١١، ٢:٩،١٠) وبما أنها كتبت حوالي ٦٣م فحسناً وصفها لايتون Leighton بالقول: «تمثل الرسالة خلاصة موجزة وواضحة لكل من التعزيات والتعليمات المطلوب لتشجيع وتوجيه المسيحي في رحلته إلى السماء، تجعله يرتفع بأفكاره ورغباته نحو تلك الجعالة العليا، وتحصنه ضد كل المعوقات في الطريق، سواء كانت من نتاج الفساد الداخلي، والتجارب والإغراءات من الخارج، والموضوعات الخاصة بالتعليم والمتضمنة فيها كثيرة، ولكن الموضوعات الرئيسية التي يركز عليها الرسول هي هذه الثلاثة، الإيمان، الطاعة، الصبر: للثبات في الإيمان، والتوجيه في العمل، والتعزية في الآلام، واضعاً نصب أعين الذين كتب لهم مثال الرب يسوع الذي لا يباري، وسمو تعهداتهم باتباعه».

ومن المفيد حقاً أن نقارن بين صورة بطرس في

الأناجيل وأقواله في رسالتيه. إن الفارق في الحالتين مذهل ومجيد. ففي الأناجيل، كان لبطرس امتياز رؤية ربه متجلياً، وفي رسالتيه، نرى بطرس أمامنا متجلياً عن طريق نعمة الله الفريدة وغير المحددة.

في الأناجيل، نرى بطرس مندفعاً مقداماً على استعداد لتلبية المجد الشخصي الزائل، طموحاً لتحقيق السلطة الأرضية، معتداً بذاته وإن كان جباناً بعض الشيء أحياناً.

وفي رسالتيه، نرى بطرس خاضعاً، صبوراً، متحملاً للآلام، متضعاً، محباً، ونرى ابتهاجه وإقدامه القديمين، وقد تطهرا وأصبحا يتسمان بالنبل والسمو. من بين الكلمات التي سلمت بيد سلوانس أحد رفقاء بولس (١٢:٥)، يمكننا أن نذكر ما يأتي:

(ثمين) للعديد من كُتّاب الكتاب المقدس تعبيراتهم الخاصة، وبالنسبة لبطرس، فإن اللفظ «ثمين» هو اللفظ الذي استخدمه سبع مرات.

الإيمان الثمين (١بط ١:٧، ٢بط ١:١).

الدم الثمين «الكريم» (١بط ١:١٩).

الحجر الثمين (١بط ٢:٧).

المسيح الثمين (١بط ٢:٧).

الروح الوديع الهادىء (كثير الثمن) (١بط ٣:٤).

المواعيد الثمينة (٢بط ١:٤).

(الرجاء) كان بطرس حاضراً في ذلك اليوم في العلية عندما قال يسوع «أتي أيضاً وآخذكم إليّ» (يو ١٤:١-٣). وبالمثل شهد صعود المسيح وسمع تأكيد السماء لوعد المسيح المقدم من قبل الرجلين من السماء «إن يسوع هذا.. سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلقاً إلى السماء» (أع ١:١٠،١١). كان بطرس يشير مراراً وتكراراً في وعظه بعد يوم الخمسين إلى «الرجاء المبارك» وقد كانت حقيقة المجيء هذه هي سبب ابتهاجه وغبطته، إذا كان بولس يبرز كرسول الإيمان، ويوحنا، كرسول المحبة، فإن بطرس يمكن أن يطلق عليه «رسول الرجاء» الذي آمن أن مجيء المسيح بمثابة نور مشرق في موضع مظلم.

«رجاء حي» (١:٣).

«استعلان يسوع المسيح» (١:٧، ١٣).

«إيمانكم ورجاؤكم» (١:٢١).

«إذ تأتون إليه» (٢:٤).

«سبب الرجاء» (٣:١٥).

«يطلع كوكب الصبح في قلوبكم» (٢بط ١:١٩).

الرب يسوع المسيح في رسالة بطرس الأولى

على الرغم أن رسالة بطرس الأولى رسالة عملية، إلا أنها إنجيلية كما لو كانت رسالة تعليمية في الأساس. كم تعد الرسالة غنية في إشاراتها للاهوت المسيح وعمله! إنها تشير إلى المسيح في كل جوانبها:

إلى كفارته التى سبق أن أنبأ بها الأنبياء، وكانت موضوع تأمل وتفكير الملائكة، وإلى قيامته، وصعوده، وهبة روحه، ومثاله كالمخلص المتألم، والأحداث الرهيبة في يوم الدينونة الأخير، والتعاليم العظيمة للإنجيل كالدوافع المحركة نحو القداسة والصبر، وكلمة الله الحية الباقية باعتبارها الوسيلة لنمو المسيحي في القداسة، انظر إلى (١:٢، ١٨، ١٩، ٢:٢١، ٢٤ ,٣:١٨، ٤:١، ٢بط ١:٨، ٣:١٨).

الألـــم

حيث إن هذه الكلمة ومرادفاتها ترد ٢١ مرة في هذه الرسالة القصيرة، فهي تؤكد الغرض من كتابة هذه الرسالة، إن آلام المسيح المشار إليها في كل الأصحاحات الخمسة، وتستخدم لتغذية القديسين في وسط الآلام التي يتحتم عليهم تحملها، ويعلمنا جزء كبير من الرسالة أن نتألم بصبر، وبفرح، ولمجد الله، والهدف الرئيسي لبطرس من كتابة الرسالة معبر عنه في ١٢:٥ «كتبت إليكم بكلمات قليلة واعظاً

وشاهداً أن هذه هي نعمة الله الحقيقية التي فيها تقومون. ولإثبات أن بطرس لم ينس أبداً الدروس التي تعلمها في مدرسة المسيح، قارن ١٧:١ بما جاء في سفر أعمال الرسل ١٥:١٠، ٣٤، وما جاء في ٤:٢-٨، جاء في مت ٨:١٦، بما جاء في ٢٥:٢، ٤:٢-٨، مت ٨:١٦، ٢٥:٢، يو ١:١٠، ١٩:٤، لو ٤٦:٢٣، ٢:٥، يو ١٥:٢١، ١٧، ٥:٥ ، يو ٤:١٣، ٥ .

وكإطار عام للرسالة لدينا

مقدمة ١:١ . ٢

١- نصائح عامة على المحبة والقداسة ١:٣-١٠:٢.

٢- نصائح خاصة تحض على القيام بواجبات محددة ١١:٢-١٢:٥.

خاتمة ١٢:٥ . ١٤.

الرسالة الثانية

تجتذب هذه الرسالة القصيرة اهتماماً خاصاً من حقيقة أنها كتبت عندما عرف بطرس نفسه أنه قاب قوسين أو أدنى من الاستشهاد، وحيث أن الرسول كان يواجه نفس الميتة التي أنبأه المسيح بها، كانت القداسة هامة جداً له وهو يتوقع خلوداً مجيداً. لاحظ كيف أن بطرس يركز على كمال الله، ومجد المسيح، والعواقب المريعة للخطية، وجلال الدينونة الآتية. وبعد حياة حافلة بالألم، ومع اقتراب موعد آلام الصلب، يبتهج بطرس باختياره لخدمة المسيح، ولذلك فنصيحته الأخيرة والدائمة للكنيسة التي كان بطرس عموداً قوياً لها هي: «انموا في النعمة وفي معرفة ربنا ومخلصنا يسوع المسيح». وشهادته الأخيرة للاهوت ربه، موجودة في تسبحة الشكر التي يقدمها الله - «له المجد الآن وإلى يوم الدهر آمين» (٢بط ١٨:٣).

ومع أن الرسول يوقع باسمه في بداية رسالته الثانية (٢بط ١:١)، إلا أنه ليس هناك سفر آخر في العهد الجديد تحوم حوله الكثير من الشكوك فيما يتعلق بكاتبه مثل هذه الرسالة، ليس هدفنا أن نبحث في صحة أو عدم صحة الاعتراضات المثارة بالنسبة لكتابة بطرس للرسالة، إن هذه الحقائق كافية من وجهة نظرنا:

كان الكاتب رسولاً ليسوع المسيح ١:١.

كان الكاتب واحداً من الثلاثة الذين كان لهم امتياز التواجد على جبل التجلي ١٦:١-١٨ . كتب الكاتب رسالة سابقة إلى نفس المجموعة من الناس ١:٣.

وعلى الرغم أن أسلوب بطرس مختلف عن الأسلوب المستخدم في رسالته الأولى، إلا أننا يجب أن نفهم أن الغرض مختلف في كل واحدة عن الأخرى. كتب الرسالة الأولى لتشجيع وتقوية المقدمين للمحاكمة والواقعين تحت الاضطهاد، والهدف من الرسالة الثانية تحذير المؤمنين من المعلمين الكاذبين وتعاليمهم الفاسدة والمفسدة (انظر ٤:١، ١٢:٢، ١٩، ٢٠). ويمكننا أن نلاحظ ثلاثة أقسام في الرسالة:

١- الفساد الأخلاقي ١:١-١٤ العدد الرئيسي ٤:١.

٢- الفساد التعليمي ١:١٥-٢٢:٢ العدد الرئيسي ١:٢ . ٢ .

٣- الثبات بالرغم من الفساد العدد الرئيسي ١٧:٣.

السمات الرئيسية للرسالة

وصف الفضائل المسيحية ١:٥-٨ .

قيمة معرفة الرب ١:٢، ٣ . ٥ . ٨ . ٢:٢٠، ١٨:٣ .

ضرورة الاجتهاد ١:٥، ١٠، ٣:١٤ .

بركات الذكرى ١:١٢ . ١٣ . ١٥، ٣:١، ٢.

مدح رسائل بولس ٣:١٦ .

إشارة مؤثرة عن سن بطرس المتقدم والموت المحدق به ١:١٤.

ولأن بطرس يهيمن على الأناجيل وعلى الجزء الأول من سفر أعمال الرسل، فإن تغطيتنا لطرقه، وكلماته، وأعماله كانت مطولة بأكثر من الاهتمام الذي أوليناه لكثيرين

آخرين من بين الاثنى عشر. ونحن نحب رفقته، فهو يشبهنا إلى حد كبير. ولكن بطرس مازال حياً، ليس فقط في السجل الكتابي لحياته وأعماله، وفي الرسالتين الثمينتين اللتين كتبهما، ولكن أيضاً في الآلاف التي لا حصر لها من الرجال الذين يحملون اسمه المبجل، وبالمثل في الأعداد غير المعروفة للكنائس التي تحمل اسم القديس بطرس.

تداوس
الرسول ذو الأسماء الثلاثة

نقرأ في سجل الخليقة أن الله عمل الشمس والقمر كنورين عظيمين. الشمس، النور الأكبر لحكم النهار. والقمر، النور الأصغر لحكم الليل. وقد عمل النجوم أيضاً (تك ١:١٦-١٨). وقد عمل الله أنواراً أخرى أيضاً، أنواراً روحية، ووضعها في جلَد كلمته المقدسة لتنير للبشر. والشخصيات الكتابية هي هذه الأنوار التي تنير ليس من ذاتها، بل من الله. والرب نفسه مصدر النور، نور الناس، نور العالم (يو ١:٤، ٨:١٢). والذين له يعكسون نوره، كأنوار-أنوار صغرى - للعالم (مت ٥:١٤).

وكما أنه بالنسبة للأجرام السماوية، توجد أنوار كبرى وصغرى - فالأنوار الصغرى، تختلف عن النورين العظيمين، الشمس والقمر - هكذا بين شخصيات الكتاب المقدس يوجد فرق مماثل، فالأنوار الكبرى مثل موسى، وداود، وإشعياء، ودانيال تبرز بوضوح وتشرق بضوء ساطع، ولكن هناك أنوار صغرى أيضاً - شخصيات أقل بروزاً نعرف عنها قليلاً، ومع ذلك فسواء كانت هذه الشخصيات كبيرة أم صغيرة، فلكل شخصية مهمة خاصة بها. فكما أنه لا يمكن إزالة أي نجم من النجوم التي تنير السماء دون أن نفتقده، هكذا لا يمكن التغاضي عن أي نور من أنوار الكتاب المقدس. إن كل حياة وشخصية تعلمنا الدرس الخاص بها. والهداية والمثل يأتيان من الشخصيات المجهولة كما يأتيان من الشخصيات المعروفة.

هناك مقارنة أخرى وهي أن الأعظم في حساباتنا ليس الأعظم دائماً فالنوران العظيمان في السماء، هما الشمس كالنور الأكبر والقمر كالنور الأصغر، يبدوان أعظم بالنسبة لنا من النجوم ولكن علماء الفلك يقولون لنا إن القمر مجرد لا شيء مقارنةً ببعض الأنوار البعيدة جداً عنا، وأن الشمس في الواقع أقل من عدد كبير من النجوم المتلألئة التي تبعد عنا ملايين الأميال.

ألا ينطبق ذلك بالمثل على بعض القديسين على الأرض والذين وإن كانت معرفتنا عنهم أقل من قديسين آخرين إلا أنهم قد يكونون عظماء في نظر الله كالأعظم في ملكوت السموات (مت ١١:١١). إن عدداً كبيراً من القديسين المتواضعين الغامضين، والمجهولين بالنسبة إلى العالم، سوف يسطعون بلمعان أكبر في السماء. يالللمفاجآة التي سوف تصادفنا عندما نصل إلى هناك! وإذ نتعامل مع الرسل، فإننا سوف نكتشف أنهم يشكلون أنواراً كبرى وأنواراً صغرى. إن بطرس، على سبيل المثال، كان شمساً لامعة، وأكثر ظهوراً من أي تلميذ آخر في قصة الأناجيل. ولكن رسلاً مثل سمعان الغيور، وتداوس الذي نحن بصدده الآن، من الأنوار الأصغر، إلا أن لهما مكاناً في خطة

المسيح. كل ما نعرفه عن هذا الرسول أنه كان له ثلاثة أسماء وسأل يسوع سؤالاً مكوناً من ١٣ كلمة. ومع ذلك فقد كان ضمن الاثنى عشر الذين اختارهم المعلم بعد ليلة صلاة، وأرسلهم ليبشروا برسالته ويسهموا في القيام بخدمته المعجزية، أما عن سجله الكامل، فهو محفوظ في السماء.

١- رجل له ثلاثة أسماء

على الرغم أن لبعض الرسل أسماءً مزدوجة، إلا أن تداوس هو التلميذ الوحيد الذي وُصف بأن له ثلاثة أسماء. أما عن نسبه، فقد كان «ابن يعقوب» كما تدعوه الـR.V، وليس أخاه كما تذكر الـ A.V، وكذلك كما هو موجود في ترجمة فانديك العربية (لو ٦:١٥). هناك على الأقل أربعة رجال أطلق عليهم الاسم «يعقوب».

يعقوب، ابن زبدي، أخو الرسول يوحنا.

يعقوب ، ابن مريم، أخو ربنا (أو قريبه).

يعقوب، ابن حلفي، الذي يعرف أيضاً بيعقوب الصغير.

يعقوب. الأب المجهول لتداوس، أو يهوذا ليس الإسخريوطي. وليس من أقرب المقربين ليسوع. مهما كان يعقوب هذا، فقد كان مخلصاً ليسوع. لقد بذلت الجهود للاستنتاج بأن تداوس، أو يهوذا، هو يهوذا الذي كان واحداً من إخوة ربنا، والذي كتب رسالة موجزة، ولكن بما أن عائلة ربنا رفضت ادعاءاته واستنتجت منها أنه مخبول وأنه لم يتجدد سوى بعد قيامة المسيح. فإن يهوذا، ليس الإسخريوطي، أو لنطلق عليه اسميه الآخرين، تداوس، ولباوس، لا يمكن أن يكون واحداً من عائلة يسوع، لأن يسوع اختاره في وقت مبكر من خدمته كرسول.

وكما يريد فيلسوف قديم منا أن نعرف أن «بداية المعرفة دراسة الأسماء» دعنا نلقي نظرة على مختلفة الأسماء المحيرة التي كانت لهذا الرسول.

يهوذا (لو ٦:١٦، يو ١٤:٢٢، أع ١:١٣)

لاشك أن هذا الاسم العبري كان يعني «الرب يقود» أو «الرب الذي سوف يعترف به». هذا هو الاسم الأصلي، أو اللقب الذي أطلق على هذا التلميذ المثلث الأسماء. يميزه يوحنا بحذر عن يهوذا الخائن بالملاحظة الاعتراضية «ليس الإسخريوطي» (يو ١٤:٢٢). كان لابد من هذا اللقب المميز لتميزه بوضوح عن يهوذا الآخر الذي باع سيده.

كان واحد منهما أميناً، وكان الآخر خائناً.. لذلك، فإن الخائن يلقب بمسقط رأسه. ولذلك فإن لقب «الإسخريوطي» في هذه الحالة، يعد وصمة عار، ولكن يهوذا الذي نحن بصدده الآن، ظل مخلصاً للمسيح.

تداوس (مت ١٠ :٣، مر ٣:١٨)

يعلق اليكوت بالقول إن كلمة (تد THAD) في اللغة العبرية المتأخرة، كانت تعني الصدر الأنثوي، وقد تكون أصلاً لكلمة تداوس، كدلالة أكثر من الاسم لباوس، على الإخلاص الأنثوي. إن هذه الصيغة اليونانية للاسم اليهودي، إذن، يمكن أن تعني «الطفل المحمول على الصدر».

لباوس (مت ١٠ :٣)

من المحتمل أن يكون الاسم مشتقاً من الأصل العبري «لب Leb» التي تعني القلب والتي تمثل الدفء والشخصية الجادة، ولذا فإن هذه الصيغة اليونانية تعني «الطفل المقرب إلى القلب»، وهناك معنى آخر لهذا الاسم هو «الشجاع» وقد يكون دليلاً على شخصيته. وربما أضيف الاسمان تداوس ولباوس للاسم الاصلي الذي كان يحمله كدليل على الإعزاز في طفولته، أو كعبارات وصفية تميز سماته الخاصة بعد أن أصبح تلميذاً بسبب سمة الرقة التي كان يتصف بها. من الواضح أن كلاً من متى ومرقس قد تجنبا

اسم يهوذا، لأن الرسول الخائن كان يحمل نفس الاسم، يستخدم متى الاسم «لباوس» فقط كتفسير هامشي خلفي للاسم «تداوس». وإذا أخذنا الثلاثة أسماء معاً فإنها تقترح فكرة أنه كان واحداً من أصغر التلاميذ الاثنى عشر، وكان ينظر إليه الآخرون نظرة عطف وحب عبرت عن نفسها في اللقبين المضافين إلى الاسم «يهوذا».

٢- رجل ذو سؤال

كل ما ذكر عن هذا الرسول باستثناء أسمائه الثلاثة هو أنه يوماً ما سأل يسوع سؤالاً موجزاً: «يا سيد ماذا حدث حتى أنك مزمع أن تظهر ذاتك لنا وليس للعالم؟» (يو ١٤:٢٢).

وفي نفس المناسبة في علية عيد الفصح، سأل توما هذا السؤال: «كيف نعرف الطريق؟» (١٤:٥). ويذكرنا هذان السؤالان بسؤالين آخرين:

«كيف يمكن أن يكون هذا؟» (يو ٣:٩).

«كيف انفتحت عيناك؟» (يو ٩:١٠).

مثل هذه الأسئلة لا يمكن أن تجاب بالكلمات. إن الطفل يسأل أمه: «ما مقدار حبك لي؟». إن أكثر الآباء حباً للأطفال لا يمكنه الاجابة على سؤال كهذا. وفي إجابته على السؤال الذي وجهه يهوذا، كرر ربنا كثيراً من الأقوال التي سبق أن قالها من قبل. لم يكن هناك تفسير للطريقة كما كان يرغب السائل. كم من الوقت يضيع في تخيلات عقيمة لا فائدة منها! إن يوحنا الذي سمع السؤال، رأى أنه سؤال يستحق التسجيل، ليس لأنه كان يحتوي على أي نور أو حكمة، بل بسبب الإجابة المجيدة التي قدمها يسوع.

لاشك أننا نتعلم من توجيه الأسئلة، وقد أظهر يهوذا علامات التلميذ النجيب، لأن التلميذ الحقيقي يكون على استعداد دائم لتوجيه الأسئلة، شغوفاً بالتعلم ومدركاً لحاجته العميقة للتعليم. ثم أن السؤال ينم دائماً عن السائل أكثر من أي شيء آخر، لأنه يظهر مرحلة التفكير العقلاني التي وصل إليها، ويبين الاتجاه العقلي في النظر إلى الموضوع. كان يهوذا قد سمع إجابات ربه على توما وفيلبس، وحاول أن يفهم سرها دون جدوى، ولذا فقد عبر عن عمق تفكيره بتوجيه الناس إلى المسيح عن الطريقة التي وعد أن يظهر بها ذاته. لقد أظهر السؤال صراحة إنسان ذا عقل يتسم بالأمانة، لم يفهم ولم يخجل من الاعتراف بجهله. ومثل هذا الجهل خيم على كل التلاميذ، وكان مصدراً لحزن المعلم.

فإذا كان أحد أسماء يهوذا، كما اقترحنا، يعني «شجاعة» فقد تطلب الأمر شيئاً من هذه الصفة لتوجيه السؤال الذي سأله، لأنه كان يرقي تقريباً إلى نوع من الاعتراض على كلام المعلم. ألم يخبرهم للتو أنه الإعلان عن الآب، وأنه سوف يظهر نفسه لتلاميذه، على الرغم أن العالم لن يستطيع رؤيته كما سوف يرونه هم؟ تقدم يهوذا بتحدٍ جسور: «ماذا حدث حتى أنك مزمع أن تظهر ذاتك لنا وليس للعالم؟». لقد اتبع يهوذا يسوع، شأنه شأن بقية التلاميذ، يحدوه توقع عظيم ورجاء مبارك. ولكن بغض النظر عن نوع الرجاء الذي كان يعتمل في ذهنه، فقد كان ذلك الرجاء يتطلب الوجود المنظور للمسيح وقوته حتى يتحقق. كان يسوع يتحدث عن تركه للعالم، وعدم إظهار نفسه له، وقد كان مثل هذا الأسلوب محيراً وخالياً من المعنى بالنسبة لفكر يهوذا المظلم روحياً.

في رده على سؤال التلميذ، لم يستطع يسوع أن يفسر نفسه تماماً حينئذ إذ لم يشبع حب استطلاع تلاميذه فيما يتعلق بالأمور اللاهوتية «وذلك ببساطة لأن أمور الإيمان غير متاحة للعيان وطرق الله لا تعرف سوى للقلوب المؤمنة». ولذلك، فإنه في تلك المرحلة، لم يشرح له وسيلة ظهوره كما كان تلميذه يريد. ولكن بعد القيامة ويوم

الخمسين، لم يكن أي واحد من تلاميذه بحاجة لتفسيرات عن الحقائق التي رددها يسوع حين كان معهم. وأخيراً، فقد آمنوا أن سر الرب دائماً لخائفيه ففي أثناء تلقيهم تعليمهم الروحي في مدرسة المسيح، كان يبدو أنهم مقيدون بالأرضيات في فهمهم لمسيانيته، ولكن صعوده مكنهم أن يروا بنوره نوراً.

إن الإجابة التي قدمها يسوع إلى يهوذا، لا تلقي بصيصاً من الضوء فقط على قلب وعقل الرسول، ولكنها كانت إجابة استطاع أن يستوعبها تماماً:

«إن أحبني أحد يحفظ كلامي ويحبه أبي وإليه نأتي وعنده نصنع منزلاً». لقد رأى يسوع في تلميذه روح المحبة الغيورة والطاعة، وعلم أن تلك الروح سوف تعلن له في الوقت المناسب، مالم يستطع أن يستوعبه تماماً في ذلك الوقت (يو ١٤:٢٣). إن الكلمة «يُظهر» التي استخدمها السائل، تدل على جوع روحي في عقله لم يجد ما يشبعه بمجرد سماع ورؤية المعلم، الذي أجاب على تفكير غير منطوق بالقول إن «الظهور (الإعلان) الذي يتحقق من تلقاء ذاته بالمحبة، لا يفهم إلا بالمحبة وحدها».

المحبة هي المفتاح الذي يفتح أبواب الطاعة، وهو أيضاً مفتاح الدخول في شركة مجيدة مع أقانيم اللاهوت الثلاثة. بالمحبة نصبح في علاقة مباركة مستترة مع الثالوث الأقدس «إن أحبني أحد يحفظ كلامي ويحبه أبي وإليه نأتي وعنده نصنع منزلاً» (يو ١٤:٢٣). لاشك، أنه لا توجد كلمات مباركة في كل الأناجيل أكثر من تلك الكلمات، وعلينا أن نكون ممتنين دائماً وأبداً لتداوس – لباوس – يهوذا لإبراز هذه الأقوال عن طريق السؤال الذي قاله للمعلم، حيث أظهر فيه أشواق عقله للبحث عن الحقائق العميقة.

وبالمناسبة، سوف نلاحظ أيضاً أنه، جنباً إلى جنب مع توما وفيلبس في نفس الأصحاح، فإن يهوذا بدأ سؤاله بأن دعا يسوع، رباً (سيداً) (يو ١٤:٥،٨،٢٢). ومثل هذه الصيغة في المخاطبة تدل على أنه كان تلميذاً مخلصاً ومطيعاً، وأنه قد تلقى قدراً معيناً من الإعلان فيما يتعلق بطبيعة وغرض المسيح. ألم يقل بولس أنه لا أحد يستطيع أن يقول أن يسوع «رب» إلا بالروح القدس؟ إن يهوذا الآخر لم نجده مرة واحدة يخاطب يسوع بكلمة «رب» على الرغم أنه كان واحداً من الاثنى عشر المختارين.

ليتنا لا نكون بطيئين في المعرفة كما حدث مع يهوذا، ليس الإسخريوطي، ونفهم أن أساس التلمذة هو المحبة التي تضمن الطاعة التي ينتج عنها الشركة مع الآب والابن! فعندما نحب فقط، يمكننا أن نطيع، وبالطاعة نختبر شركة دائمة مع السماء. فعن طريق الرسول الذي سأل يسوع سؤالاً نكتشف أن المحبة هي سر الطاعة، وأن الطاعة هي سر البركة.

٣- الرجل الذي عاش يلفه الغموض

كما ذكرنا من قبل، فباستثناء أسمائه الثلاثة والسؤال القصير الذي سأله، ليس لدينا معلومة أخرى عن الرسول الذي نحن بصدده. فنحن لا نعرف شيئاً عن حرفته قبل لقائه مع المسيح، أو ما هي الظروف المتعلقة بدعوته للتلمذة، أو ما هي إنجازاته التي حققها للمعلم، سواء قبل أو بعد الصعود. فالصمت الشديد يلف حياته وتاريخه، باستثناء السؤال الوحيد الذي سأله. وعن طريق الاستنتاج، نعرف أن يهوذا، المعروف أيضاً باسم تداوس ولباوس، كان ضمن قائمة الاثنى عشر كلما ذكر في الأناجيل، وأنه كان ضمن أولئك الذين شاركوا في الخدمة التي كلف بها يسوع الرسل، وأنه أوصى مع بقية الرسل بأن يذهب إلى العالم أجمع ليكرز بالإنجيل، وأنه كان ضمن الموجودين في العلية والذين كانوا يصلون في انتظار حلول الروح القدس عليهم ليلبسوا قوة من الأعالي للخدمة، وأن اسمه منقوش على

واحد من الاثنى عشراً أساساً للمدينة المقدسة التي يصفها يوحنا في سفر الرؤيا. وفيما بعد، سوف نجد أن التقليد يقول شيئاً عنه.

ولكن الحقيقة تبقى أنه مثل يعقوب الرسول، فإن السمة المميزة ليهوذا هي «الغموض». إن السمة البارزة لكليهما هي أنه لم يكن يشار إليهما بالبنان أو لم يحتلا موقع الصدارة في يوم من الأيام، ولكن لكونهما رجلين غير بارزين وبسيطين ونموذجين للإنسان العادي، فهذا لا يعني أن مكانهما في السجل المقدس ليس له أهمية أو قيمة بالنسبة لنا. فعلى الرغم من الغموض الذي يلفهما، إلا أنهما كانا مطيعين وكانا يذهبان إلى حيث كانا يرسلان، ويجاهدان الجهاد الحسن، ويحفظان الإيمان، ويكملان السعي بفرح. ومع أن اسميهما محفوران على صفحات تاريخ الإنجيل، إلا أنهما كانا رجلين مغمورين بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى. خصص لهما مساحة قليلة في السجل الكتابي، مما يوحي بأنهما لم يفعلا سوى القليل الذي يمكن ذكره. ومع ذلك فلم يكونا نكرة، لأن الذي دعاهما ليكونا إلى جانبه كان يعلم كل ما يتعلق بامكانياتهما.

بغض النظر عن كون يعقوب ويهوذا مغمورين، إلا أنهما لم يكونا معزولين، لأنه كانت لديهما دلائل على حضور الرب. لقد تلقيا وعده القائل «ها أنا معكم كل الأيام» ولذا فقد مضيا وعاشا وخدما «والرب يعمل معهما». وإزاء كل هذه التأكيدات لم يكن هناك ما يدعو لأي عامل مغمور أن يشعر بالوحدة. ولأنه كان مدركاً بأنه على مرمى بصر عين الرب وقريب من لمسة يده. فإن الخادم الذي يشعر بالوحدة وبأنه غير ملحوظ من أحد قانع بحاله. وبخصوص صمت الكتاب المقدس إزاء هذين الرسولين، يقول الدكتور الكسندر ماكلارين Alexander Maclaren:

إن كل الرسل لم يكونوا على أي حال هم العاملون الحقيقيون في الكنيسة، بل المسيح. ولو كانوا فائقي الأهمية لحصلنا على روايات دقيقة ومفصلة عن حياتهم وعملهم. ولذا، فان أحد أسباب الصمت فيما يتعلق بحياتهم، أن الروح القدس الذي أوحى بالأسفار المقدسة، أراد أن يركز على الرب يسوع كالشخص الكلي الأهمية. فمن غير المسموح لشخصية أي إنسان أن تطغي على شخصية المخلص وتحجب نورها. فامتياز أي قوة كانت لدى الرسل لم يكن من عندياتهم بل من الله. ولكن ياللاسف! فنحن غالباً ما نضفي أهمية زائدة على الأداة البشرية.

يبدو أنه يوجد، على الأقل، ثلاثة دروس يمكن أن نستخلصها من هذين الرسولين الغامضين اللذين يمر عليهما الإنجيل مرور الكرام بمجرد ذكرهما يودعهما دون أدنى كلمة:

على الرغم من كونهما مجهولين فانهما كانا أمينين

عند اختيار الرسل. ذهب الاثنا عشر مع المسيح دون أي ضمانات مالية، فقد كان موضوع إعالتهم مسئولية الشخص الذي دعاهم. ولابد أن الإخلاص له كان المحك الحقيقي لأمانتهم. ولكنهم كانوا جميعاً أمناء له، باستثناء الشخص الذي خان يسوع. وبعد صعوده، لم يكونوا يمتلكون شيئاً نعتبره جوهر للنجاح في المؤسسة المسيحية والكرازة. وحتى هذين التلميذين المغمورين كيعقوب ويهوذا كان لهما نصيب في قلب العالم رأساً على عقب على الرغم أن دورهما قد لا يكون ظاهراً كدور بطرس مثلاً. وعلى الرغم أنهما كانا بلا تاريخ، إلا أنهما كانا ضمن صناع التاريخ الحقيقيين للعالم.

ومع أن الآخرين لم يلاحظوهما، إلا أنهما بذلا كل ما في وسعهما، وعاشا للرب. ففي الغالب يكون من السهل

نسبياً أن تبذل كل ما في وسعك في مكان ظاهر حيث تتجه كل العيون نحونا، ولكن الانتصار والإنجاز الحقيقيين كدالة على الأمانة أن نبذل كل ما في وسعنا، ونكون في أحسن حالاتنا، عندما لا ترقبنا أي عين سوى عين الله.

إن بعض أعظم الأعمال وأكثرها تضحية في العالم هي التي يؤديها أناس مجهولون لن تظهر أسماؤهم في سجل الخالدين. إنهم لا يتوقفون عن العمل إذا لم تقابل أعمالهم بالاستحسان اللائق. فشعارهم ليس الشهرة بل الأمانة. إنهم يعرفون أنه عند كرسي الدينونة عندما يمتحن عمل كل واحد بالنار، للكشف عن معدنه، سوف يكون مديح المعلم من نصيبهم «نعماً أيها العبد الصالح والأمين، كنت أميناً في القليل، سوف أقيمك على الكثير، ادخل إلى فرح سيدك». إن خدمتهم المتواضعة، والمغمورة قد تمضي دون أن يسجلها الناس، ولكنهم سوف ينالون المكافأة الأكيدة عندما يقفون أمام ذاك الذي اكتفوا بخدمته سراً لينالوا مكافأتهم. ففي السماء، سوف يكون الأولون آخرين والآخرون أولين. إن عدداً كبيراً من الأسماء غير الملحوظة على الأرض سوف تكون ضمن أمجد الأسماء. وعلى الرغم أنهم كانوا مجهولين في السجلات الأرضية، إلا أنهم سوف يكونون مشهورين في سفر الحياة وسجلات السماء. قد ينطبق ذلك على حياة بعض الناس الذين يعيشون على الأرض، فقد يقضون حياة حلوة ومجيدة قد لا يلحظها العالم، ويبدو أنهم قد أضاعوا كل شيء جميل في حياتهم. ولكن لا يمكن للشهادة الأمينة أن تذهب سدى، أو يتم التغاضي عنها أو تنسى في السماء. قد يفوتهم المديح والاستحسان البشري، ولكن ولاءهم الدائم قد صعد أمام الله كخدمة مقبولة، وبخور رائحته طيبة، وسوف ينالون منه، أخيراً، المكافأة الثمينة. ليتنا ونحن نطيل البقاء وسط الظلال، سواء كنا ظاهرين أو مستترين، نوجد عائشين وفق ما يريدنا الله أن نعمله في عالم الشر والخطية.

توما
الرسول المفتري عليه

الفكرة الكامنة خلف المثل القائل «اعط كلباً اسماً سيئاً، وبذلك تكون مهمته قد انتهت قبل أن تبدأ» تنطبق بالتأكيد على توما، الذي لم يذكر عنه الشُراح والوعاظ كلمة مديح واحدة. فنادراً ما تعرض إنسان للتشهير والافتراء على أسس غير كافية مثل هذا الإنسان. لاشك أن توما يتطلب عطفنا بسبب سوء المعاملة التي لقيها. في أغلب الأحيان، تكون الانتقادات المعادية للرسول هي مجرد أصداء لانتقادات أخرى تتبع طريقاً مطروقاً، لمجرد أنه مطروق. مع وجود بعض المفسرين الذين يدارون عدم وجود رأي مستقل لديهم بتوجيه التوبيخ إثر التوبيخ لتوما. هاك بعض الانتقادات القليلة التي جمعناها. وجميعها تقرر نفس الفكرة بأساليب مختلفة، وبترديدها، فإنهم يعملون على دوام سلسلة من سوء الفهم، بالتعبير بألفاظ مختلفة عن عدة اعتراضات على توما. والاعتراضات التالية والمقتبسة من مصادر عليا لا تعطي للرجل حقه الواجب من الانصاف.

«يوجه الكثير من اللوم لتوما لعدم إيمانه، وهو بذلك يتناقض مع بقية الرسل في العلية» مرة أخرى «كان توما رجلاً قد أحسن اختياره، ولكن معنوياته كانت منخفضة» ثم «لو أن المطلوب كان عزف نغمة كئيبة مقبضة، فإن توما أصلح من يعزف تلك النغمة».

ثم «رجل ذو قلب دافيء ولكنه ذو مزاج سوداوي»

ثم «رجل ذو محبة كثيرة وإيمان قليل»

ثم «رجل يتميز بالصراحة والعزيمة ولكنه ميال لإخضاع غير المنظور إلى المنظور»

هاك وصف الكسندر وايت للرسول توما «إن شخصية توما تجسيد للكآبة، فعندما يذكر الرجل نتذكر الاكتئاب»، وعندما نقول توما الذي يقال له التوأم نتذكر الاكتئاب الديني. كان بطرس ذا مزاج متقد وحماسي حتى أنه كان يتكلم دائماً، بينما كان توما مكتئباً لدرجة أنه لم يكن يتكلم كثيراً وعندما كان يتكلم فقد كان ذلك دائماً من أعماق قلبه المصاب بوسواس الشك المرضي».

بصراحة، نحن ننأى بأنفسنا عن تقييم مزاج توما، تماماً كما نفعل بالنسبة للآخرين الذين يعتبر هو من بينهم بأعتباره الشخص المتسم بالشك وسط الرسل – رجل فقد إيمانه وهو يرتعب خوفاً. وقد وجد أنه من الصعوبة أن يستعيد إيمانه، شخص كان عليه أن يستعيد امتيازه الذي تركه عن طريق إعلان خاص من قبل الرب. لقد حان الوقت لإخضاع شخصية فذة كتوما لدراسة مستقلة، دون تحيز أو وضع غمامة على العين، مع رغبة في رؤيته على حقيقته.

لاشك أن توما كان لديه شكوك – وهذا يحدث عند أقدس البشر!.

أني لا اعتقد ولا للحظة واحدة أن توما كان من بين الذين «ولدوا حزانى» وأن قلبه كان «موطناً للحزن»، وكان «ينظر للحياة بمنظار أسود» وكان يحمل بين جنبيه قلباً مثقلاً. أو لا أعتقد أن «السيد خائف» الذي يصوره جون بنيان في «سياحة المسيحي» صورة حية لتوما.

ربما لا نجد شخصية أخرى بين الرسل أكثر وضوحاً منه، لأنه على الرغم من أن شخصية توما تبدو معقدة في جوانب معينة، إلا أنها «منطقية في أفعالها لدرجة أنه من الممكن أن نفهم مزاجه الخاص بدرجة من الدقة».

١– مغزى اسمه

اسمه العبري توما مع مرادفه اليوناني Didymus يعني «التوأم». من الواضح، أنه كان من عادة اليهود حين يسافرون إلى بلاد أجنبية، أو يختلطون باليونان والرومان، أن يخلعوا على أنفسهم اسماً يونانياً أو لا تينياً، سواء كان من ذوي القربي، أو له علاقة بمسقط رأسهم. وهكذا فقد دعي ربنا المسيح، نظرا للقبه العبري Mashiach، أو الممسوح. ودعيت طابيثا «غزالة» وكلا الاسمين يعنيان «ماعز».

«توما الذي يقال له التوأم»، توما، طبقاً للأهمية السورية لاسمه، كان يلقب بالتوأم – وكلا الاسمين يعنيان «التوأم» والاسم معبر عنه في لغات مختلفة.

والطبعة السورية تكتب العبارة هكذا «توما الذي يدعي تاما» لقد استخدم العديد من المفسرين خيالهم محاولين ايجاد أخ توأم لتوما في العديد من شخصيات العهد الجديد. وحيث أن اسمه يقترن بمتى، فهناك من يقترح أنهما ربما يكونان أخين توأمين، ويذهب آخرون إلى حد افتراض أن توما كان أخاً توأماً للرب نفسه.

نحن نريد أن نعرف كثيراً من كان الأخ التوأم لتوما، وسواء كان هو أو هي أيضاً تابعاً أو تابعة ليسوع المسيح. فهناك اقتراح معقول يأتي إلينا من تقليد قديم يقول إن التوأم الآخر كان أختاً تدعى ليزيا Lysia. وهناك استنتاجات أخرى تحمل سمة الابتكار. فعلى سبيل المثال، يؤكد ترنش أن «المصادفة بين الاسم وفكر توما المتقلقل شيء لافت للنظر (يع ١:٨، ٤:٨). فالإيمان وعدم الإيمان كانا يتزاحمان للسيطرة على عقله، كما كان عيسو ويعقوب يفعلان في رحم رفقة».

وهناك نوع من الوعي المزدوج في كل واحد فينا. «لست أفعل الصالح الذي أريده بل الشر الذي لست أريده فإياه أفعل». عندما يصمت الوحي، يجب أن نحتفظ بنفس الصمت، ولا نطلق لخيالنا العنان، نحن نأخذ اسم توما على علاته، أي، أنه توأم، وحمل هذا الاسم إلى دائرة الاثنى عشر دون أي بيان عن شخصيته أو مفتاح للطبيعة المزدوجة التي كان متسماً بها. يقول يوسابيوس واحد من أقدم المؤرخين للكنيسة إن اسم توما الحقيقي هو يهوذا، وأن لقبه «التوأم»، وقد استخدم من قبل زملائه لتمييزه عن التلميذين الآخرين الملقبين بهذا الاسم – يهوذا أخو يعقوب، ويهوذا الاسخريوطي.

٢– سجل دعوته ليكون رسولاً

هناك ثماني فقرات في العهد الجديد يذكر فيها اسم توما، أربع منها ضمن قوائم الرسل. ومع أن الشواهد قد تكون قليلة إلى حد ما إلا أنها مميزة عادة، ويمكن أن نحصل منها على تصور واضح لأسلوب وشخصية الرجل (مت ١٠:٣، مر ٣:١٨، لو ٦:١٥، يو ١١:١٦، ٢٠:٢٤، ٢٦، ٢١:٢، أع ١:١٣). ووفقاً لقصة الأناجيل، فنحن لا نعرف شيئاً على الإطلاق عن أقرباء توما، ومكان إقامته أو حرفته. والأناجيل الثلاثة الأوائل لا تعطينا شيئاً سوى اسمه المجرد، وكما رأينا مع فيلبس، فنحن مدينون ليوحنا

بالمميزات القليلة والشيقة في نفس الوقت، والتي تبرز توما كإنسان من لحم ودم، وتجعله يبرز أمامنا كإنسان حقيقي، ذي صفات مميزة وواضحة يمكن أن نتعلم منها الكثير.

من المؤكد أن توما كان يهودياً، ومن المرجح أنه كان جليلياً (أع ١:١١) ونستنتج من الأساطير أنه ولد من والدين فقيرين، علماه مهنة صيد السمك، ومنحاه قدراً من التعليم المفيد، ودرباه على الإلمام بالكتب المقدسة، حيث تعلم بحكمة كيف يمكن لها أن تتحكم في حياته وتصرفاته. وكما سوف نرى لاحقاً، فإن كتابات الأبوكريفا غنية بالإشارات لخدمة توما الأخيرة وموته. إن العهد الجديد صامت فيما يتعلق بالوقت الذي دُعى فيه توما ليكون تلميذاً والكيفية التي حدث بها ذلك. وكان أول ذكر لاسمه عندما اختار ربنا الاثنى عشر وأرسلهم اثنين اثنين. إن يوحنا هو الذي ينقذ توما من النسيان في إنجيله، ويجعله حقيقة راهنة، محيطاً إياه شخصياً باهتمام كبير في الحقائق الثلاث التي يسجلها عنه. ومع ذلك فالقليل الذي يذكره يخبرنا به عن توما كاف لمساعدتنا في فهمه، ولجعلنا نشعر أننا نعرف عنه أكثر مما نعرف عن بعض الرسل الآخرين الذين لدينا عنهم معلومات أكثر.

يشترك توما مع سمعان الغيور ويهوذا الاسخريوطي في الظهور في السجل المقدس دون إشارة لظروف دعوتهم لاتباع المسيح. ففي وقت ما، لابد أن توما استمع، مع الجماهير التي كانت تزحمه، إلى صوته وتعليمه، وقد حركه الروح القدس، فسلم حياته للمخلص، تاركاً كل شيء ليتبعه. ثم أنه لابد أنه رأى شيئاً في توما يدفعه لاختياره كرسول. يقول لنا إلدركمنج Elder Cumming ما يأتي:

إن غياب كل التفاصيل المتعلقة بتجديده ودعوته لايدل على شيء معين. إن ذلك يخدم هدفاً مزدوجاً، أنه يظهر مدى اختلاف الطريقة التي يحصل بها الخطاة على الخلاص. فالبعض منهم يقدم شهادة تحرك الآخرين كصوت البوق، والبعض الآخر لا يقدم شيئاً يذكر. هناك فرق شاسع في الشخصيات بين أبناء الله، ويظهر هذا الاختلاف في ميلادهم الجديد، كما يظهر فيما بعد ذلك. نعم، هناك كثيرون لا يستطيعون أن يقدموا رواية محددة عن تجديدهم. إنهم يعرفون أنه قد حدث، ولكنهم لا يعرفون متى أو كيف. وكل تلك الحالات يلفها الصمت الذي يحجب التغيير الكبير في حالة رسول مثل توما!.

تغيرت الحياة بالنسبة لتوما منذ الساعة التي التقى فيها بالمسيح. ومضى قدماً كرسول للمعلم، وبشير للعلي. وقد حصل على السلطان على كل الأرض، فرحاً لأنه حتى الشياطين كانت تخضع له، ولكنه كان أكثر فرحاً أنه بنعمته، قد كتب اسمه في السماء – جنباً إلى جنب مع أولئك السبعين الذين اختارهم المسيح بالمثل (لو ١٠:١٧–٢٤).

يدعم نظرتنا الأولى لشخصية توما قانون تداعي الخواطر. ففي قوائم الرسل تظهر الأسماء في ثنائيات – وهو ترتيب بإلهام الروح القدس، يظهر كيف أن الطيور على أشكالها تقع، فكل شخص ينجذب إلى توأمه الروحي. وهكذا نجد اسمي توما ومتى سوياً، ليس لأنهما، كما يقترح بعض المفسرين، قد يكونان أخوين، بل لأن هناك أشياء مشتركة تجمع بينهما، وبالتالي فقد انجذب كل منهما إلى الآخر. وبمقارنة القوائم المقدمة من الرسل يلاحظ أنه بينما يجعل لوقا ومرقس، الترتيب هكذا ومتى وتوما، إلا أن متى يضع في قائمته بتواضع جم، (توما) قبل نفسه.

إن متى وتوما، إذن، يوجدان جنباً إلى جنب، يجمع فيما بينهما اختبار مشترك وتعاطف شخصي يحقق فائدة لكلا الطرفين. كان هذان الاثنان لا ينفصلان، يتعلق الواحد

بالآخـــر كظله. ويدعم تلك الفكرة أن الرب الذي أرسل تلاميـذه اثنين اثنين، تأكد أنهمـا لم يكونا من ذوي النير المتخالف. فيتساءل ألان بول Allan Poole قائلاً: هل كان متى المصدر الذي استخدمه المسيح مثل الابن الضال؟ لاشك أنه كان مثلاً على معجزة الرحمة التي أجراها المسيح في دائرة الرسل. وإزاء حقيقة أن ذلك اليهودي المرتد الخارج على الجماعة قد اختير ليكون رسولاً نرى السر في انجذاب توما نحوه واحتكاكه به. لأن توما يرى أن اختياره ليصبح «إناء للكرامة نافعاً لخدمة السيد» معجزة دائمة. من المرجح أن تلك الفكرة الأولى التي كانت تشغل عقل توما وهي تعمل على تفسير الشيء الكثير من موقفه تجاه الرب.

٣- إخلاصه الذي جعله لا يهاب شيئاً (يو ١١:١٦)

نتجه إلى إنجيل يوحنا بحثاً عن الفقرات الثلاث التي يقدمها لنا عن توما الرسول - الذي يرى أولاً في حديثه مع يسوع عندما عبر يسوع عن نيته في الذهاب إلى اليهودية ومرة أخرى، ثم في العشاء الأخير عندما اعترف توما بجهله للمكان الذي كان يسوع ذاهباً إليه. ثم عقب القيامة، عندما صرح بعد أن رأى الرب بذلك الاعتراف المذهل «ربي وإلهي»! نحن نأخذ هذه الأحداث الثلاثة منفصلة، ونرجو أن نكتشف أن توما يمثل حقاً جميع الذين آمنوا بالرب ليخلصوا.

لم يكن قد مضى وقت طويل بعد أن أصبح توما رسولاً عندما أعلن عن رغبة قلبية في التعرض فوراً للمصير المحزن الذي قد يلاقي جميع الاثنى عشر، ألا وهو الشركة في موت السيد. فبعد أن علم يسوع بموت لعازر قرر أن يذهب إلى بيت عنيا ليقيم صديقه الذي أحبه، ولكن بقية الرسل حاولوا أن يثنوه عن عزمه بالذهاب إلى اليهودية بسبب القادة الدينيين هناك والذين كانوا يتآمرون على قتله. ولكن توما صرح بالقول إنهم لا يصح أن يعوقوا المعلم عن عمل ما كان يرغبه، على الرغم أن ذلك قد يكلفهم حياتهم. «لنذهب نحن أيضاً لكي نموت معه!» يوحي هذا القرار الشجاع أنه بدلاً من إقامة لعازر من الأموات، فإنهم هم أنفسهم قد يذهبون مع يسوع لملاقاة حتفهم.

ألا تشع كلمات توما بحب عميق وحقيقي للمعلم؟ نحن ننأى بأنفسنا عن أولئك الذين يستنتجون من هذا القول إن توما قد استسلم للتشاؤم عندما شعر أنه لا فائدة سوف تجنى من تلك الرحلة المتسرعة التي كان يسوع مزمعاً القيام بها سوى الموت لهم جميعاً. يدعو أحد الكُتَّاب توما بـ «المتشائم البطولي» ويتبع عدد آخر من المفسرين نفس هذه الفكرة الخاطئة عن توما. وعلى الرغم أنه لم يكن يعلم دلالة كل ما قال، إلا أن قوله كان صادراً من قلب مخلص ومحب وكان يحمل هذا المعنى، لن نتركه، وسوف نذهب أيضاً معه، وإذا لزم الأمر، سوف نموت معه. كم كان ذلك القول مختلفاً عن قول بطرس المليء بالزهو حين قال: «يارب إني مستعد أن أمضى معك حتى إلى السجن وإلى الموت». ولكن لم تكن تلك سوى مجرد كلمات، لم يعقبها عمل. أما بالنسبة لتوما فقد كان إعلاناً مؤيداً بالفعل لأنه عبر الأردن مع يسوع، وذهب إلى اليهودية، حيث لم يتوقع سوى الموت له ولبقية التلاميذ.

جميل دائماً أن نتشبه بيسوع، حتى لو تعرضت حياتنا للخطر (أع ١٥:٢٦، رؤ ١٢:١١). كان توما يفكر في الموت، ولم يكن يسوع يفكر سوى في مجد الله (يو ١١:٤).

لم يكن توما يرى سوى الجانب المظلم، الموت الأكيد - كما أنه فيما بعد لم يكن يرى احتمال القيامة (يو ٢٠:٢٥). وعلى الرغم أننا قد نتبين نوعاً من الإيمان بالقضاء والقدر في قراره باتباع يسوع، حتى على حساب حياته. إلا أن توما ربما يكون قد اقشعر من فكرة الموت، ولكنه لم يكن يفكر في الهروب. كان موقفه عند هذا المنعطف في خدمة

المسيح علامة على تعلقه به وإخلاصه له. ويبرزه كإنسان يتحلى بحب عميق وقوي تجاه المخلص كأي تلميذ آخر. كانت محبته لا تحتسب شيئاً ثميناً لديه. وكأشجع الشجعان، كان على استعداد ليضع رأسه بين فكي الموت في صحبة ربه. إن المحبة قد جعلته يستعذب الموت في مثل هذه الصحبة المباركة. فالمحبة الكاملة طرحت الخوف إلى خارج في ذلك الوقت.

كان من بين أتباع المعلم دائماً أولئك الذين كانوا يرون، كما بالإلهام، ما ينبغي أن يعمل. وقد كانوا مسرعين في رؤية إلى أين يقودهم الواجب، وما ينبغي للإخلاص أن يقودهم إليه، ويظل توما رائداً لهم جميعاً. لذلك، دعنا نتوقف عن الافتراء على توما، متهمين إياه بالخوف المرضي واليأس، والتشاؤم. لقد كان ذا روح وثابة، مع شخصية نبيلة جديرة بالاحترام لم ينصفها بعض اللاهوتيين. كانت السمة الرئيسية في توما أنه كان يتميز بمحبة عميقة ومخلصة وعلى استعداد دائم لترك كل شيء لأجل المسيح، والتضحية بكل شيء لأجل المسيح، والموت مع المسيح.

وكهؤلاء الفرسان الشجعان الملازمين لملك بوهيميا الأعمى، الذين امتطوا خيولهم في معركة «كريسي» وكانوا قد جدلوا لجمهم مع لجام حصان سيدهم، مقررين بذلك أن يشاركوه مصيره مهما يكن – وهكذا توما، فقد قُرر ألا يترك ربه سواء في الحياة أو الممات، حيث أنه كان مرتبطاً برباط الحب العميق الحماسي. ليت قلوبنا تكون مخلصة ومكرسة له مثل توما، وليت تلك المحبة الفياضة والبطولية تكون من نصيبنا! «لنذهب نحن أيضاً لكي نموت معه». لقد علم يسوع تلاميذه أنه ما لم يكونوا على استعداد أن يكرهوا حياتهم من أجله، لن يقدروا أن يكونوا تلاميذه. إن توما يستحق كل مديح لأنه كره حياته أيضاً! كانت مطالب المسيح تسبر أغوار النفس، ولكن توما المكرس كان على استعداد للتضحية بكل شيء، فبدلاً من اتهامه بأنه «تجسيد حي للاكتئاب» دعنا نحاول محاكاة روحه الوثابة البطولية ونبدأ في أن نحيا الحياة الحقيقية.

٤- بحثه العقلي عن المعرفة (يو ١٤:١-٦)

الإشارة التالية لتوما تأتي بنا إلى العلية حيث كان الرب مجتمعاً مع خاصته حوله. كانت مناسبة محزنة لأن فكرة وداع يسوع والافتراق عنه كانت تثقل قلوبهم مثل الكابوس، وقد أخرس شبح الانفصال ألسنتهم. ولكنه تحدث إلى قلوبهم المضطربة عن أفراح السماء وعن المكان الذي سوف يعده لهم، حتى يتبعوه. إنه لن يتركهم يتامي ولكنه سوف يأتي إليهم ثانية. لقد عرفوا المكان الذي كان ذاهباً إليه، والطريق للوصول إليه. ثم تحدث توما وقال إنهم لا يعرفون أين سيذهب، فما بالك بالطريق إلى ذلك المكان.

وعلى الرغم أن الرب تحدث بابتهاج عن عودته إلى بيت أبيه، إلا أن توما لم ير أن هناك شيئاً مبهجاً فيما يتعلق بالفراق اليائس الذي ينتظرهم. ولذا كان رده شأنه شأن كل كلماته المدونة عنه، يحمل لمسة من الحزن. «ياسيد لسنا نعلم أين تذهب فكيف نقدر أن نعرف الطريق؟» (يو ١٤:٥). وعندما صلب يسوع أخيراً، لابد أن توما شعر بأن قوى الظلام قد نجحت في انتزاع المحبوب من وسط الذين أحبوه. وفي كل مرة يذكر فيها فإنه «يعزف هذه النغمة الحزينة» ويظل في حالة معنوية منخفضة. كل ما قاله يسوع عن المنازل في المجد لم تخلب لبه. وكان كل ما يعرفه أن ربه العزيز سوف يتركه، وأنه كان يريد دائماً وأبدا أن يكون معه. ربما كان توما بطيء الفهم، وحذراً بأكثر ما ينبغي في قبول الحق، لذلك كان من الصعب عليه أن يؤمن. ولكن كانت هناك نار خامدة، تحت السطح بداخل هذا الرسول المتردد الهادىء، لا يمكن لأحد أن ينبيء بوقت اشتعالها، لقد ابتدأ بعض الرسل بداية حسنة، ولكنهم خيبوا ظن المسيح فيهم. ولكن توما كان يمضي بثبات،

مظهراً القليل من الصفات الجيدة أولاً، ولكنه أدهش الذين حوله بغيرته وإيمانه عندما تعمقوا في معرفته.

عندما يبدو أن توما يعترض على ما قاله يسوع، لا يصح أن ندينه بعدم الإيمان أو بالفشل التام في فهم تعليم ربه. إنه من بين أولئك الذين تفوتهم المعلومات لأنهم يفترضون أن لديهم معرفة ليست بحوزتهم. وقد قيل إنه «لو كان هناك فن في إخفاء ما لا يعرفه المرء، فإن هناك حكمة في إظهار قصوره». فالمعرفة في أحسن حالاتها نسبية – ويمكن الوصول إلى حدودها بسرعة. نحن لا نستوعب بسرعة حقيقية أن هناك دائماً أملاً مشرقاً بالنسبة للعقل الذي يدرك قصوره ونقائصه، ولكن لا قيمة للعقل القانع بما فيه من ظلام.

إن سؤال توما: «كيف نقدر أن نعرف الطريق؟» تظهره كباحث عن الحقيقة الأكمل، وقد كان يشبه جوته Goethe الذي في اشتياقه للمزيد من المعرفة، صاح قائلاً: «النور – النور – المزيد من النور، أعطنا المزيد من النور وإلا فاننا سوف نموت!» إن المزاج الطبيعي، الحذر للرسول لم يجعله يغلق عقله أمام المزيد من المعرفة. ربما أدى قلقه إلى ارتباك تفكيره بشكل مؤقت، لعدم فهم ما قاله يسوع، ويبدو مما قاله يسوع لتوما أن توما كان يعرف أكثر مما كان يعتقد أنه يعرفه، لأنه لابد أنه كان قد استجمع من الأشياء الكثيرة التي قالها يسوع أن يسوع سوف يموت، وبعد موته، سوف يعود لأبيه: لذلك ربما حاول توما أن يجعل نفسه يعتقد أنه أساء فهم تعليم المعلم، وابتدأ يعتقد أخيراً أنه كان يجهل الموضوع الذي لم تكن لديه رغبة في أن يكون واضحاً، بسبب الرحيل القادم للسيد عنه.

وفي رد يسوع على عبارة وسؤال توما تتضح حقيقة هامة، حيث ذكر يسوع واحداً من أسمى الإعلانات عن نفسه في الكتاب المقدس. «كيف نقدر أن نعرف الطريق؟». واحد فقط يمكن أن يقدم الجواب – الطريق ، نفسه، الذي هو مجمل كل ما نحتاج لمعرفته، والايمان به، ومحبته، واتباعه. إنه كل ما نحتاج إليه في هذا الزمن وفي الأبدية. ونحن لا يمكن أبداً أن نستحوذ على شيء أعظم منه، كما لا يمكننا أن نكتفي بما هو أقل منه. ولذا فان بحث توما عن معرفة أعمق قد وجد إشباعاً، ولابد أنه شعر بالإثارة حين علم أن ربه هو:

الطريق إلى الله – الطريق الذي بدونه لا يوجد أي ذهاب.

حقيقة الله – الحقيقة التي بدونها لا توجد أي معرفة.

الحياة من الله – الحياة التي بدونها لا توجد أي حياة.

٥– طلب الحقائق عن ربه (يو ٢٠:٢٤–٢٩)

على الرغم أن توما، الذي يدعي التوأم، كان واحداً من الذين أظهر الرب المقام لهم نفسه (يو ٢٠:٢١)، وهو من ضمن المذكورين في قائمة الرسل الحاضرين في اجتماع الصلاة السابق ليوم الخمسين (أع ١:١٣)، إلا أن تلك الحادثة العرضية المثيرة لاجتماع التلاميذ الخائفين معاً وظهور يسوع المفاجيء في وسطهم بعد قيامته، كانت المناسبة الأخيرة التي نرى فيها توما يتحدث عن المخلص، ثم إليه. ففي نفس اليوم الذي قام فيه، شق طريقه نحو البيت الذي كان فيه تلاميذه الحزانى وقدم لهم الدليل الكافي والتأكيد بأنه قد قام حقاً من الأموات وأنه حي إلى الأبد.

في هذا الاجتماع الأول مع التلاميذ، كان توما غائباً (يو ٢٠:٢٤). وقد أقنعه حديثه التالي معهم وترديدهم الشيق لما رأوه وسمعوه من المعلم المقام، حتى وإن لم يكن مقتنعاً تماماً بحقيقة القيامة، بأن يكون وسط التلاميذ بعد ثمانية أيام (٢٠:٢٦)، وحيث أننا نشعر أن عدداً كبيراً من الوعاظ والمعلمين قد أساءوا فهم غيابه عن الباقين عند أول

ظهور للسيد، ثم رفضه لقبول شهادتهم فيما يتعلق برؤية يسوع لذلك دعنا نحاول أن نعفي توما من الكثير من اللوم الملقى عليه عن طريق الخطأ. أولاً، خذ موضوع غيابه عن بقية التلاميذ بعد تجربة الجلجثة. هناك تفسير شائع يقول إنه سقط في مستنقع اليأس الديني، ولذلك رفض بعناد، أن يبقى مع التلاميذ الآخرين. وكنتيجة لذلك، قد فاته الظهور الأول للمسيح ونستنتج من ذلك أنه إذا تغيبنا عن اجتماع صلاة دون مبرر مقبول، نكون عرضة لأن نفقد البركة. لاشك، أن توما فقد الكثير بسبب الغياب في ذلك اليوم المشهود، يوم الرب الأول (يو ٢٠:٢٤).

ولكن ليكن معلوماً، أننا لا نعرف السبب في عدم تواجد توما. كما أننا لا نستطيع أن نخمن السبب في غيابه لوحده. ولأنه شعر مثل بقية التلاميذ، أن القبر المختوم كان مقبرة لكل الآمال. فربما التجأ توما لبقعة هادئة ليذرف الدمع لوحده ويبقى وحيداً في حزن مقبض. وكبطرس قبله، ربما أراد أن يهرب ليبقى وحيدا مع حزنه. ولربما دفعه خوفه القديم من اليهود بأن يبتعد (يو ١١:٨،١٦). ومن المرجح أنه لم يستعد صحبته مع التلاميذ الآخرين، بعد تشتتهم الأخير في البستان، عندما دفعت المخاوف كل واحد ليبحث عن بر الأمان. أليس من الخطأ أن نؤكد سبب غياب توما، حتى وإن كان الكتاب المقدس لا يقدم لنا سبباً لمقعده الخالي في المنزل الذي كان الآخرون مجتمعين فيه؟

ثم أننا متهمون بارتكاب خطأ آخر – ألا وهو سوء تفسير موقفه تجاه زملائه من الرسل عندما جاءوا إليه بخبر القيامة المجيدة. لقد رفض توما أن يقبل دليلهم، وقابل شهادتهم المثيرة بإعلانه أنه لن يؤمن مالم ير بنفسه آثار المسامير في يدي وقدمي يسوع. ألم يخطئوا مرة قبل ذلك، فيما يتعلق بظهور يسوع عندما مشى نحوهم على البحر؟ والآن فقد يكونون مخطئين مرة أخرى، فربما رأوا خيالاً بدلاً من رؤية جسده (مت ١٤:٢٥). كل ما طلبه توما أن يحصل على نفس الدليل الذي حصلوا هم عليه، حيث يستطيع أن يرى ويلمس شخص ربه بنفسه، وعندئذ لن يكون هناك حدود لإيمانه.

لاشك أن مثل هذه السمة الخاصة بتوما يجب أن تمتدح لا أن تدان! فالخبر الذي سمعه كان خبراً جيداً لدرجة أنه قد لا يكون حقيقياً، ولكنه لم يرفض ما سمعه. لقد كان يرغب فقط في أن يختبر الحقيقة كلها عن طريق الأدلة. ان إخلاصه هو الذي دفعه لأن يفترق عن بقية الرسل حتى يصل إلى اقتناع شخصي بخصوص القيامة.

ونفس هذا الإخلاص هو الذي اجتذب منه أعظم شهادة ذكرت عن المسيح. ولكن تأمل في الظلم الذي نتهمه به بإعطائه هذا اللقب «توما الشكاك». وعدم تذكر أي شيء عنه سوى شكه المزعوم، وتسمية أي شخص لا يقبل حقيقة مؤكدة بلقب «توما الشكاك». ومع ذلك فالسمة الرئيسية له ليس الشك بل الحب العميق المتفاني للمعلم.

قال توما «إن لم أبصر... لا أؤمن» (يو ٢٠:٢٥). وقبل أن ننتقده بقسوة كشخص عريق في الشك ومتهم بأرتكاب خطية عدم الإيمان الكبرى، دعنا نتذكر أن الرسل الآخرين لم يؤمنوا بالقيامة حتى رأوا الرب المقام نفسه. لذا لا يمكننا أن نفصل توما عن الباقين ونجعله الرمز الوحيد للشك وعدم الإيمان. جميع التلاميذ كانوا «الأغبياء» الذين تحدث يسوع عنهم، الذين كانوا بطيئي الفهم في الإيمان بجميع ما تكلم به الأنبياء، وما تكلم به هو نفسه فيما يتعلق بموته وقيامته وتمجيده (لو ٢٤:٢٥،٢٦).

ما لا يجب أن ننساه أن توما كان رجلاً كسير الفؤاد، وأن التحفظ الذي أبداه تجاه خبر قيامة المسيح ليس مصدره العقل بل القلب – ليس نتيجة لصعوبة عقلية، بل لحزن عظيم. في ظل ألم عظيم، تصبح الروح خرساء. وقد

ظل توما هكذا طيلة أسبوع كامل، ولذا وجد شيئاً من الصعوبة في قبول الخبر السار. لم يكن توما «شكاكاً وقحاً» فالشك الذي أبداه كان شكاً شخصياً أراد به الوصول إلى اليقين، لم يكن توما يتوق لشيء أكثر من رؤية ربه الحبيب مرة أخرى، يذكرنا تنيسون أن:

«الشك المخلص يحمل إيماناً أكبر

من الإيمان بنصف عقيدة»

ما هي سمات الشك المخلص؟ أولاً، إنه ألم عظيم، وهو يلهث ويتوق للنور، ولكونه مخلصاً، فهو يقبل إلى النور. قال أوغسطينوس: «شك توما حتى لا نشك أبداً». ويقول روبرت إليس طومسون «إن قصة توما تثبت، لو كان الإثبات مطلوباً، أن الرسل لم يكونوا مجموعة من الأتباع الأغبياء، الذين كانوا على استعداد أن يؤمنوا بكل ما يقال لهم، لأنه كان هناك واحد منهم على الأقل يصر على الدليل والبرهان، تماماً كما يفعل تندل أو هكسلي».

وعلى الرغم أننا لا ندين ما عمله توما، إلا أننا نسارع إلى القول إنه ليس شيئاً مثالياً لأن الإيمان لا يجب أن يستند إلى برهان، بل إلى مغامرة قلبية وعقلية، نابعة من الإيمان الشخصي. يقول كولبروج «لا تخف من الشك إذا كنت ترغب في الإيمان». كل المتشككين المخلصين قد فعلوا ما فعله توما، حين انتهى به المطاف أخيراً أن يركع على ركبتيه أمام السيد في شكر وسجود. يالها من فرصة مجيدة أنه بعد ثمانية أيام من ظهور المسيح الأول، جاء ثانية ووقف وسط أتباعه، وفي تلك المرة كان توما حاضراً – لا ليحل مشكلة شكوكه العقلية، بل ليختبر الشفاء الناجح لقلبه الكسير بسبب افتقاده الواضح لربه.

قال المعلم «سلام لكم» ثلاث مرات ليبعد الخوف عن تلاميذه، وفي كل مرة كان للكلمة معنى مختلف:

كانت الأولى مرتبطة بعمله الكفاري، لأنه ذكر أنه بعد أن قال سلام لكم (يو ٢٠:١٩)، «أراهم يديه وجنبه». إن أساس السلام هو دم الصليب (كو ١:٢٠).

وكان نطقه الثاني بكلمة السلام مرتبطاً بوصية معطاة للتلاميذ لكي يمضوا قدماً باسم المسيح. كان عليهم أن يكونوا رسلاً للسلام، لذلك قال: «سلام لكم» (يو ٢٠:٢١، أع ١٠:٣٦، أف ٢:١٧).

والنطق الثالث لكلمة السلام سُمِع في يوم الرب الثاني، عندما كان توما حاضراً مع بقية التلاميذ. لاشك أن عدم إيمانه كان مصدراً للاضطراب، ولكن بالرغم من حذر توما الشديد، تكلم المسيح بكلمة السلام واشترك توما نفسه في البركة بهذا السلام الذي يفوق كل عقل (يو ٢٠:٢٦).

بعد أن وجه يسوع انتباهه إلى توما، دخل معه في أحد الحوارات الشهيرة والتي كانت غالباً عبارة عن أحاديث موجزة من طرف واحد تظهره كالمحاور البارع. بعد أن أعطى يسوع البركة لجماعة التلاميذ الذين شعروا بالإثارة، وقدم دعوته لتوما ليلمسه كدليل على أنه قد قام حقاً، فإنه أظهر بذلك أنه عليم بكل شيء. «وباستخدامه لنفس الألفاظ التي كان توما قد استخدمها، طلب من تلميذه المتحفظ أن يفحص آثار الجروح بحثاً عن الدليل الذي كان يطلبه. ثم وبخ توما برفق بسبب ضعف إيمانه «لا تكن غير مؤمن بل مؤمناً».

كان ينبغي أن يكون كل ما سمعه توما من شفتي سيده بخصوص موته وقيامته كافياً بدون الرؤية. ولا شك أنه كان يستحسن أن يشك في حواسه بدلاً من عدم الثقة بكلام سيده.

وبالإضافة إلى ذلك، أليس من المحزن أن يضطر يسوع للحديث عن رسول بنفس الألفاظ التي استخدمها في شجبه وإدانته للعالم؟ فالكلمة (غير مؤمن) المستخدمة هنا هي نفس الكلمة التي استخدمها الرب في توبيخه لعدم

الإيمان السائد في جيله (مت ١٧:١٧). ولكن جواب توما كان رائعاً كما كان فورياً «ربي وإلهي!» فهو الشخص الوحيد في العهد الجديد الذي خاطب ربنا كالله. إن إنجيل يوحنا، بالطبع، من زاوية خاصة هو إنجيل لإثبات لاهوت ربنا. إن المخلص الرحيم لم يستغل حالة عدم إيمان تلميذه، ولكنه حضه على دعم إيمانه بتقديم دليل من الحواس، فاقتنع بخطأه بسرعة، واعترف بأن معلمه المقام هو القادر على كل شيء. لابد أن توما شعر بقدر كبير من الإثارة حين رأى كيف أن ربه قد انتصر على الموت!

أخيراً، انتقل توما إلى الجانب المنير من حذره المتجهم، وبعد أن أقسم تقريباً أنه لن يقبل حقيقة القيامة، نراه واثقاً أنه يقف أمام الرب نفسه، مقدماً شهادة رائعة لابد أنها أشبعت قلب معلمه – «ربي وإلهي!» حقاً، إنها أعظم وأقوى، وأقصر شهادة في العهد الجديد لحقيقة يسوع في الماضي والحاضر، وهي شهادة رائعة لكونها صادرة من توما. لقد صعد سريعاً من وادي الهوان العميق وأرض اليأس القاتل إلى الجبال البهيجة ومرتفعات الرؤيا السماوية، لكي يعيش، فيما بعد، حياة قوية في الإيمان، معطياً المجد لله.

اختفى الشك من عقل الرسول. وحين أدرك يسوع رغبة توما المخلصة في الإيمان، زوده بالإعلان نظراً لحالته العقلية، مما مكنه من أن يقدم أقوى شهادة قدمها أي تلميذ للاهوت المسيح، مما وضع توما في مقدمة جميع المؤمنين في تلك اللحظات الحاسمة من تاريخ العالم. صاحب هذا الاعتراف الرسولي العظيم ذلك التطويب المثير للمعلم حين قال: «لأنك رأيتني يا توما آمنت. طوبى للذين آمنوا ولم يروا» (يو ٢٠:٢٩). ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، فالإيمان الحي يجب أن يكون إيماناً شخصياً، مدعماً بقوة إعلان يقدمه الروح القدس للضمير والإدراك، ويكون مركزاً على المسيح دائماً. ألسنا من بين الذين لم يروا، ولكنهم آمنوا؟ لقد خلصنا بالإيمان بالنعمة ونثبت في الإيمان عندما نرى ما لا يرى.

نودع الآن توما الأكثر جاذبية، والذي، على الرغم أنه رجل متحفظ، وبطيء الفهم، وميال للنظر للأحداث بمنظار أسود، إلا أنه كان رجلاً لا يمكن أن يقنعه الآخرون ربما لم يره بنفسه. وما كان ينقصه فيما يتعلق بارتفاع روحه المعنوية، قد عوضه بشجاعته الفذة وعدم أنانيته المفرطة. يا للمغزي العميق في إعلانه «ان لم أبصر في يديه أثر المسامير... لا أؤمن». إن أي نظام ديني أو فلسفي يفشل في أن يحمل آثار المسامير هذه يجب أن يرفض. إن آثار الجلجثة هذه علامة أكيدة على المصداقية. ثم أننا كالذين أرسلهم الرب من الضروري أن نحمل سماته (غل ٦:١٧).

وعندما يرى الأشرار حولنا «آثار المسامير» في حياتنا، وسلوكنا، يكفون عن عدم الإيمان ويصبحون مؤمنين ويحصلون معنا على إيمان وفرح بهيجين.

سمعان القانوي
الرســـــول الـــثـــوري

يحمل هذا الرسول لقب «القانوي» في القوائم الرسولية لتمييزه عن «سمعان بطرس» (مت ١٠:٤، مر ٣:١٨). يدعوه لوقا «سمعان الغيور» (لو ٦:١٥، أع ١:١٣). قد يفيدنا أن نفهم مغزى اللفظين المستخدمين لوصف سمعان فُسِّرت كلمة «القانوي» خطأ بأنها من كلمة «قانا» أو «كنعان» على أساس أن قانا مسقط رأس سمعان، أو أنه كنعاني، فالدم الأممي، يجري في عروقه، ولذلك لم يكن يهودياً صرفاً.

الكلمة «قانوي» لقب مستمد من الكلمة العبرية «قانا» التي تعني «أن يكون متحمساً أو غيوراً» وهي المرادف العبري الدقيق لكلمة غيور التي يستخدمها لوقا. فهي ليست إذن، لفظاً جغرافياً، بل كلمة وصفية تربط سمعان بحزب راديكالي وثوري بين اليهود.

والاسم اليوناني Zelotes لوصف «الغيورين» وصلة سمعان بهم هو الشيء الوحيد الذي يخبرنا الكتاب المقدس عنه. ومع ذلك ففي هذه الكلمة الوحيدة Zelotes نرى يهودياً يتميز بغيرة ملتهبة وحماس مشتعل. ومن ثقب صغير يمكن للمرء أن ينظر منظراً طبيعياً مكتملاً، فهذه الكلمة الوحيدة تحمل إعلاناً. عندما يلقب إنسان بكلمة «شيوعي» تتوارد إلى الذهن في الحال أيديولوچية ذات مباديء عنيفة قاسية. ولذا فإن سمعان الذي نحن بصدده الآن، مجرد اسم في قوائم الرسل، شخصية صامتة في دائرة الاثنى عشر، اسم أكثر تعبيراً عن الأحوال الاجتماعية للعصر، من أي اسم آخر في قائمة الاثنى عشر. ثم أنه، لا يوجد اسم بهذا اللقب يحمل دليلاً أكثر جذباً للأنظار يدل على الغرض الشامل ليسوع في اختيار تلاميذه، من سمعان الغيور.

لقد بذلت الجهود (ولكن دون دليل حاسم) للقول بأن سمعان هذا هو سمعان أخو يسوع (مت ١٣:٥٥، مر ٦:٣) أو نثنائيل (برثولماوس). ولكن ما يزيد على حقيقة أنه أصبح رسولاً فإنه ليس لدينا سوى اسمه، ولقب يُعرف به ويتحدث الناس عنه. وعلى خلاف سميه العظيم، سمعان بطرس، الذي أصبح رئيساً وقائداً للاثنى عشر، لم تصل إلينا في السجل المقدس كلمة واحدة قالها سمعان الغيور، أو عمل واحد قام به. والصفة الخاصة بسمعان، وهو «غيور» ذات دلالة ويمكننا بواسطتها أن نعرف أي نوع من الرجال هو. أكد السير ريتشارد أوين، عالم الحيوان الشهير، أنه استطاع باستخدام عظمة واحدة أن يضع تصوراً لهيكل عظمي لحيوان انقرض منذ أمد طويل، ولذلك، ففي عدم وجود أي تاريخ شخصي لسمعان، أي نوع من الرجال كان

ذلك الغيور الغيور؟

١- محب لبلده

في «رسالة إلى سيدة»، كتب جون جاي John Goy، ١٦٨٥-١٧٣٢ عن شخص «كان غيوراً دائماً على مصلحة بلده». واللقب المعطي لسمعان يوحي بأنه كان وطنياً حماسياً. كان هناك حزب يهودي قومي فيما قبل ٧٠م يعرف باسم «الغيورين». ولكننا لا نعرف إن كان سمعان عضواً في مثل هذه الجماعة على وجه اليقين. ولكن لقب «سمعان الغيور» يميزه عن غيره من الشخصيات، ومن المرجح أنه يوحي بشيء ما عن حياته السابقة.

ولأجل فهم شامل للغيورين ننصح القارىء بالرجوع إلى رواية يوسيفوس، المؤرخ اليهودي. إن الوجود المتميز لهذه الجماعة يبدو أنه يرجع لوقت المكابيين. عندما تم اتخاذ موقف حازم ضد التأثير الأجنبي على الحياة الدينية. «كونوا غيورين للشريعة، وقدموا حياتكم في سبيل عهد آبائنا» (١مكابيين ٢: ٥٠). كان هؤلاء الغيورون فريسيي الفريسيين، أشد الطوائف تمسكاً في مدارس الربيين (معلمي اليهود). وهم يصرون على الالتزام الحرفي بالنصوص التقليدية للناموس. كانوا يتطلعون إلى المسيا الذي يرد الملك ثانية إلى إسرائيل بكل مجد الثيوقراطية القديمة. فقد تجمع الوطنيون الغيورون الملتهبون تحت قيادة يهوذا من ساما لا لإنقاذ اليهودية من السيطرة الرومانية، ولكن سجل الجرائم التي ارتكبوها باسم الوطنية يندي له الجبين.

أعلن هؤلاء اليهود المتعصبون أن روما لم تقض على استقلال إسرائيل فقط، ولكنها جعلت من الصعوبة بمكان ممارسة الطقوس العديدة المنصوص عليها في ناموس موسى. ومن مقرهم الرئيسي في الجليل، أثاروا التمرد والعصيان وانتهزوا كل فرصة لتأليب الشعب ضد الغزاة.

يقول إلدركمنج إن هؤلاء الغيورين كانوا حزباً مستقلاً وليسوا ، الفريسيين الحقيقيين، الذين كانوا يفوقونهم بمراحل في اللامبالاة، في حالة عدم التدخل في عبادتهم. وليسوا الصدوقيين، الذين كانوا أكثر تشككاً، ومهملين في تفسيرهم للناموس. وليسوا الأثينيين، الذين امتنعوا عن أي اشتراك في الحركات الشعبية، وليسوا الهيردوسيين، الذين اشتركوا مع هيردوس.

كان الغيورون نسيجاً خاصاً، لوحدهم، وكانوا على استعداد دائم للمقاومة حتى بالأسلحة ضد غطرسة وغرور السلطة الرومانية. وفي وقت المسيح، حكم على العديد من قادتهم بالموت. وفي وقت ما، كانوا سلطة كبرى في أورشليم، ومارسوا تأثيراً عميقاً على شئون البلاد. ولأنهم لم يخضعوا للقانون، فقد سنوا قوانين لأنفسهم، ووجدوا في أهدافهم وطموحاتهم تبريراً لحروبهم اليهودية السيئة السمعة، والتي يصف يوسيفوس أهوالها وتناقضاتها. كان باراباس أحد هؤلاء الغيورين، والذي ألقى به في غياهب السجون بسبب إثارة الفتنة وارتكاب الجرائم.

عندما نهب الجنود الرومان بقيادة تيطس أورشليم، حل العقاب الإلهي بهؤلاء المتعصبين. وكانت النيران التي شبت في الهيكل المقدس المحرقة التي قضت على فتنة هؤلاء الغيورين. لقد ضرب الله هذا الحزب المخدوع بضربة قاضية، عندما انهار الهيكل تماماً بعد ذلك.

لو كان سمعان الغيور واحداً من هؤلاء المتشددين في اليهودية، فربما يكون قد اشترك في بعض هذه الثورات المرعبة التي كانت تتخلل الحكم الروماني في فلسطين، ربما كان على استعداد أن يستل سيفه ويموت لأجل إنقاذها، وبذلك اكتسب شهرته ولقبه. واللقب المعطى له إذن عبارة عن صورة ذهنية يرى من خلالها الطموحات القومية تعمل لحل مشكلة الإنقاذ بوسائل عنيفة. ولكن سمعان اختبر

ذلك الغيور الغيور؟

١- محب لبلده

في «رسالة إلى سيدة»، كتب جون جاي John Goy، ١٦٨٥-١٧٣٢ عن شخص «كان غيوراً دائماً على مصلحة بلده». واللقب المعطي لسمعان يوحي بأنه كان وطنياً حماسياً. كان هناك حزب يهودي قومي فيما قبل ٧٠م يعرف باسم «الغيورين». ولكننا لا نعرف إن كان سمعان عضواً في مثل هذه الجماعة على وجه اليقين. ولكن لقب «سمعان الغيور» يميزه عن غيره من الشخصيات، ومن المرجح أنه يوحي بشيء ما عن حياته السابقة.

ولأجل فهم شامل للغيورين ننصح القارئ بالرجوع إلى رواية يوسيفوس، المؤرخ اليهودي. إن الوجود المتميز لهذه الجماعة يبدو أنه يرجع لوقت المكابيين. عندما تم اتخاذ موقف حازم ضد التأثير الأجنبي على الحياة الدينية. «كونوا غيورين للشريعة، وقدموا حياتكم في سبيل عهد آبائنا» (١مكابيين ٢: ٥٠). كان هؤلاء الغيورون فريسيي الفريسيين، أشد الطوائف تمسكاً في مدارس الربينيين (معلمي اليهود). وهم يصرون على الالتزام الحرفي بالنصوص التقليدية للناموس. كانوا يتطلعون إلى المسيا الذي يرد الملك ثانية إلى إسرائيل بكل مجد الثيوقراطية القديمة. فقد تجمع الوطنيون الغيورون الملتهبون تحت قيادة يهوذا من ساملا لإنقاذ اليهودية من السيطرة الرومانية، ولكن سجل الجرائم التي ارتكبوها باسم الوطنية يندي له الجبين.

أعلن هؤلاء اليهود المتعصبون أن روما لم تقض على استقلال إسرائيل فقط، ولكنها جعلت من الصعوبة بمكان ممارسة الطقوس العديدة المنصوص عليها في ناموس موسى. ومن مقرهم الرئيسي في الجليل، أثاروا التمرد والعصيان وانتهزوا كل فرصة لتأليب الشعب ضد الغزاة.

يقول إلدركمنج إن هؤلاء الغيورين كانوا حزباً مستقلاً وليسوا ، الفريسيين الحقيقيين، الذين كانوا يفوقونهم بمراحل في اللامبالاة، في حالة عدم التدخل في عبادتهم. وليسوا الصدوقيين، الذين كانوا أكثر تشككاً، ومهملين في تفسيرهم للناموس. وليسوا الأثينيين، الذين امتنعوا عن أي اشتراك في الحركات الشعبية، وليسوا الهيردوسيين، الذين اشتركوا مع هيردوس.

كان الغيورون نسيجاً خاصاً، لوحدهم، وكانوا على استعداد دائم للمقاومة حتى بالأسلحة ضد غطرسة وغرور السلطة الرومانية. وفي وقت المسيح، حكم على العديد من قادتهم بالموت. وفي وقت ما، كانوا سلطة كبرى في أورشليم، ومارسوا تأثيراً عميقاً على شئون البلاد. ولأنهم لم يخضعوا للقانون، فقد سنوا قوانين لأنفسهم، ووجدوا في أهدافهم وطموحاتهم تبريراً لحروبهم اليهودية السيئة السمعة، والتي يصف يوسيفوس أهوالها وتناقضاتها. كان باراباس أحد هؤلاء الغيورين، والذي ألقى به في غياهب السجون بسبب إثارة الفتنة وارتكاب الجرائم.

عندما نهب الجنود الرومان بقيادة تيطس أورشليم، حل العقاب الإلهي بهؤلاء المتعصبين. وكانت النيران التي شبت في الهيكل المقدس المحرقة التي قضت على فتنة هؤلاء الغيورين. لقد ضرب الله هذا الحزب المخدوع بضربة قاضية، عندما انهار الهيكل تماماً بعد ذلك.

لو كان سمعان الغيور واحداً من هؤلاء المتشددين في اليهودية، فربما يكون قد اشترك في بعض هذه الثورات المرعبة التي كانت تتخلل الحكم الروماني في فلسطين، ربما كان على استعداد أن يستل سيفه ويموت لأجل إنقاذها، وبذلك اكتسب شهرته ولقبه. واللقب المعطى له إذن عبارة عن صورة ذهنية يرى من خلالها الطموحات القومية تعمل لحل مشكلة الإنقاذ بوسائل عنيفة. ولكن سمعان اختبر

إنقاذاً أمجد من خلال التأثير العجيب للمسيح الذي كان غيوراً على نمط أسمى. وكما سترى، فإن انضمام سمعان لقائمة الرسل دليل على أن إنجيل النعمة قادر على أن يجعل من «المتمرد» كاهناً وملكاً. إن سمعان كشخص غيور أحب بلده وكان على استعداد أن يموت لأجلها ولكنه وجد المسيح، وأحبه بإخلاص. وإذا كانت الأسطورة حقيقية، فإنه مات من أجله كشهيد.

٢- محب لقائد أفضل

ياله من تغيير مذهل حدث عندما ترك سمعان قيادة يهوذا السمالي القائد الثوري الدموي ليحمل النير الحلو ليسوع الناصري! فعن طريق النعمة المذهلة تحولت وطنية سمعان الملتهبة إلى غيرة عميقة ودائمة للمسيح وملكوته. ولكننا لا نعرف كيف التقى مع المسيح، لأن كل ما هو مدون عن سمعان اسمه وسمته المميزة. وما هو متضمن في قصة الإنجيل حقائق مؤكدة يمكننا أن نعلن صحتها بصدده.

لابد أنه صالح لخدمة السيد، وإلا ما كان قد اختاره كرسول، لقد أصبح واحداً من رفقاء المعلم. ولابد أنه كان يقدم الخدمة له بهذه الصفة، وقام بدوره في العمل المرسلي المكلف به الاثنا عشر، عندما أرسلهم السيد اثنين اثنين.

لقد أحدثت رسائل يسوع الثورية وأساليبه ضجة كبرى. فبعد أن سمع عن هذا الغيور عن الشخص الروحي الجديد الذي كان قد ظهر في الأفق، التقى سمعان به وانجذب إليه، ربما لأنه ظن أنه يقود حركة ثورية أخرى - بالرغم أنها ذات طبيعة مختلفة، فبعد أن سمع ما قاله عن الملكوت، من المرجح أن سمعان اتبع يسوع معتقداً أنه الشخص الذي سوف يطيح بروما. نحن لا نعرف بالضبط ما حفز سمعان ليترك الغيورين المتعصبين. كل ما نعرفه على وجه اليقين أنه كان تحولاً سعيداً بالنسبة له عندما ترك حزب العصيان المسلح وذهب إلى ملك السلام. ولو كان من المتمسكين بيهوذا قائده القديم والذي تم سحقه، لكانت نار الحقد مازالت مشتعلة في صدر سمعان. ولكن عندما التقى مع المسيح، حدث تآلف بين القلبين، لأن سمعان تعرَّف في يسوع على مسيا إسرائيل الموعود به في البداية. لاشك أنه كان يتعلل بالرجاء السائد بأن يسوع سوف يناصر قضية اليهود، وينقذهم من روما بطريقة أرضية وبشرية. ولكن من خلال التعليم المتواصل للمعلم، تعلم سمعان أن ملكوت المسيح ليس من هذا العالم. دخل سمعان عالماً جديداً لأنه رأى قائداً لا صلة له بالمذابح، والكراهية، وأساليب المكر والخداع التي كان «الغيورون» يمارسونها. ها هو شخص يتحدث عن محبة الله، والدفاع عن حقه، ومحبة الأعداء، وعمل الصلاح تجاه الذين يستغلونك بخبث، وأن الشرك الأكبر لفلسطين لم يكن الإمبراطورية الرومانية، بل خطية الأمة والابتعاد عن الله. وهكذا حدثت المعجزة، ووضع هذا الثوري الغيور والعنيف غيرته عند قدمي يسوع ليصبح كارزاً ملتهباً بإنجيله.

هناك حقيقة ينبغي ألا ننساها وهي أنه بعد أن اختار المسيح سمعان كرسول، لم يكف أبداً عن أن يلقَّب بالغيور، على الرغم أنه عرف أن التحرير ينبغي أن يكتسب أولاً بالروح وبالحق. ربما تساءلنا عن السبب الذي جعل يسوع يختار رجلاً مثل سمعان ليكون رسولاً، ولماذا لا يسجل الوحي شيئاً عنه سوى اسمه.

لقد كان في إمكاننا أن نعتقد أن مثل هذا الغيور الطائش لن يكون رسولاً يؤتمن جانبه لئلا يسبب الكثير من الانزعاج لبقية الرسل، ويعرض قائده الجديد للشبهات ذات الطابع السياسي. ولكن يسوع تغاضى عن كل حكمة تدبيرية، لأن طرقه ليست كطرقنا. لقد علم رئيس إيماننا ما هو مقدم عليه، وأنه عن طريق سمعان يمكنه أن يصل إلى الطبقات الخطرة، كما أن الرسل الآخرين يمكنهم التأثير

على الطبقات المحتقرة، وبذلك يمكن تمثيل مختلف العناصر بين تلاميذه.

على الرغم أننا لا نسمع شيئاً أكثر عن سمعان بعد اختياره ليكون رسولاً، إلا أنه يمكننا أن نعتقد أنه بعد نموه وثباته، لم يكن هناك واحد من بين الاثنى عشر له نفس الحماس المتدفق والرغبة في مواجهة الخطر أو الموت لأجل المعلم مثل سمعان الغيور. فمع كبح جماح ميله للعنف واستخدامه للأسلحة الأرضية، أصبح واحداً من أجرأ وأقوى تابعي ابن داود. فمن كان ذات مرة وطنياً شرساً لا يمكن ترويضه، أصبح عن طريق قوة يسوع المسيح المغيرة، سمعان الذي أصبح رمزاً قوياً للنعمة الإلهية، ورائداً لمتمرد آخر، كان في الطريق إلى دمشق، ولكنه فجأة أمسك به الرب وجعله أسيراً له. وبالنظر إلى الاثنى عشر رسولاً ككل، نرى كيف يكونون تفسيراً عملياً لوظيفة الكنيسة. وأن الشرط الوحيد للدخول إلى شركتها هو الموافقة على رسالة المسيح، والطاعة للناموس الملوكي بالتسليم المطلق له».

٣- محب لدعوة أكثر قداسة

اختبر سمعان الغيور قوة المسيح، وهو يخدم الرب أثناء تغربه على الأرض، وبعد صعوده للسماء. لقد عرف سمعان ذاك الذي هو الحق، وتحررت روحه من التحزب المتسم بالتعصب. ووجد دعوة مباركة في «شركة الرسل المجيدة». لم تكن غيرته في الماضي حسب المعرفة. عندما تآمر مع آخرين للإطاحة بروما. والآن فإن غيرته الملتهبة وجموحه قد تم كبحهما وتكريسهما، وتعديل اتجاههما ليصبا في قناة أخرى ألا وهي التعريف بملكوت الله. إن ناراً أطهر قد اتقدت الآن على المذبح في قلب سمعان وكالنار التي اتقدت على المذبح قديماً، فهي نار دائمة لا تطفأ (لا ٦:١٣). لقد أصبحت لديه الآن غيرة آكلة لامتداد ملكوت المسيح. ومع اللهيب الداخلي لروحه المشتعلة حماساً والتي يزيد من اشتعالها الاتصال الدائم به، استطاع سمعان أن يقول معه «غيرة بيتك أكلتني».

عندما اتخذ المسيح سمعان خادماً له، فإنه لم يستأصل عاطفته المشبوبة، ولكنه عززها وجعلها تتوهج بنور سماوي. لقد قيل إنه «لم يؤد شيئاً عظيماً أو صالحاً بلا محبة متوهجة». ألم يظهر المسيح أسمى أنواع العواطف الجياشة عندما طرد صيارفة الهيكل من قاعاته بضربهم بسوط من الحبال؟ في أي ميدان من ميادين الحياة يعتبر الحماس القوة الدافعة للنجاح، لأنه يعطي المرء أقصى طاقة للعمل. والغيرة المرتبطة بالنعمة التي أظهرها سمعان مكنته من أن يحصل على نتائج روحية، ويواصل السعي بحماس منقطع النظير بين الاثنى عشر الذين اختارهم يسوع ليعملوا معه ولأجله، وإذا شهد سمعان الغيرة المقدسة للمعلم، فقد سعى لكي يتسم بتلك السمة من سمات ربه. قيل عن السير والتر رالي إنه «كان مكرساً تماماً لشيء واحد طوال الوقت». وقد انطبق ذلك على سمعان الذي كان له هدف واحد في الحياة، ألا وهو، أن يتمم بحماس لايفتر وغيرة لا تقهر مطلب البر الذي تجند لأجله. وكمعلمه، آمن أنه لا يمكن التساهل مع الشر في إنجيل نعمة الله.

إن سر عدم كفاءة الكنيسة وهي تواجه عالماً محتاجاً هو نقص حماستها الروحية. وحيث أن الكنيسة عاجزة واهنة بلا حول أو قوة، فهي في حاجة ماسة إلى غيورين لا يخافون ولا يخجلون أن يرفعوا راية الصليب في وجه عالم بلا إله. كما كان هؤلاء القديسون الأوائل ثوريين ملهمين وهم يقلبون المسكونة رأساً على عقب! وكم كانوا على استعداد أن يخاطروا بأرواحهم لأجل الإنجيل! وعلى الكنيسة أن تختبر معمودية أخرى بالنار إذا أرادت أن تبعث الحياة من جديد في عالم بارد وميت. يا لعظيم

التأثير الذي يمكن أن تحدثه لو أن كل عضو في حظيرتها أصبح كسمعان الغيور!

٤- محب للسلام الداخلي

قال هنري دراموند، الذي استخدمه الله بقوة وسط الطلبة في ادنبرة، والذي كان د.ل مودي الواعظ الشهير يكن له عظيم الاحترام، قال ذات مرة إنه «من الأفضل ألا تعيش بالمرة على ألا تحب» أراد الرسول يوحنا أن يجعلنا نعرف أن المحبة دليل على أننا على قيد الحياة: «نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب الأخوة».

وإذ نتأمل في حال الرسل كمجموعة، نرى كيف أن العداوات المتأصلة بينهم قد اختفت، وأن الرجال الذين كانت لهم آراء متباعدة تماماً قد أصبحوا رفاقاً في خدمتهم للمسيح.

كان هناك حب بين الأخوة، يبدو سمعان كشخص مملؤ بالغيرة، أولا ضد روما، ثم لأجل الفادي. ولكن إذ ننظر إليه كسمعان الرسول، نعرف أنه أصبح يمتلك سلاماً داخلياً يمكنه من حب الآخرين، خاصة بعد أن عاين المحبة المتجسدة التي ماتت على الصليب. وإذ نتأمل في الأضداد الذي أصبحوا رسلاً يمكننا أن نرى كيف أن الذي جاء كسلامنا وحد بين قلوب الاثنى عشر جميعاً برباط السلام.

أليس من المذهل أن نضع اثنين من هؤلاء الأعضاء من الجماعة معاً؟ على سبيل المثال، ضع سمعان الغيور ومتى العشار جنباً إلى جنب - كاره الضرائب وجامع الضرائب - وانظر كيف، بالرغم من أنهما يمثلان النقيضين، يلتقيان سوياً في شركة وثيقة يسودها السلام. كان سمعان وطنياً يهودياً، يعاني من النير الأجنبي، ويتوق للتحرير. وساعة الخلاص، وكان متى يهودياً غير وطني أذل نفسه بأن أصبح عميلاً لحكام روما، الذين كان سمعان يحاول القضاء عليهم. ومع ذلك ففي المسيح اتحد الضدان. قبل التقاء كل منهما بالمسيح، كان كل منهما يكره الآخر. ولكن عن طريق دعوة المسيح، تقارب سمعان ومتى معاً وأحب كل منهما الآخر وكان السلام يسود فيما بينهما. وأنت ترى، أن يسوع أحب كلا منهما، وكل منهما أحبه، ولذلك فقد كان من السهل عليهما أن يحب كل منهما الآخر. لقد أصبح كل من المتدين المتطهر والمنبوذ اجتماعياً وثيقي الصلة بيسوع المُصالح الأعظم، حتى أن عداوتهما السابقة قد نسيت ثم محيت بعد أن جمعتهما معاً وحدة العمل المشترك ومنادتهما معاً بإنجيل السلام.

كان يبدو مستحيلاً أن تمحى هذه الحزازات والعدوات التي كانت تفرق بين الرسل، ويجتمع شملهم سوياً في تناغم كامل قبل اختيار المسيح لهم كرسل. ولكن كل شيء مستطاع لديه. ويرسم جرينهوف Greenhough صورة لسمعان الغيور فيذكرنا بأن سمعان ومتى. كانا رجلين يفصل كل منهما عن الآخر فجوة عريضة وعميقة في الفكر والمشاعر، وحتى في الكراهية الشديدة. ومع ذلك فالعشار والغيور وضع كل منهما يده في يد الآخر واتحد قلباهما عند قدمي يسوع. ففي آتون محبته التحم هذان الضدان معاً. وفي ذلك صورة ونبوءة على نطاق ضيق لما سيحدث في الكنيسة على نطاق واسع، حيث ستنهار حواجز الخلافات، وحيث ستُصلب الحزازات القومية وتُدفن مع المسيح ليقوم أعضاء المسيح ثانية يجمعهم الإيمان المشترك والمحبة، وحيث لا يكون هناك يهودي أو يوناني، بربري، أو سكيثي، عبد أو حر، بل يكون المسيح الكل في الكل.

عندما نتطلع إلى تعليم المعلم، ليس لسمعان ومتى فقط، بل لجميع الرسل، فما هي بعض الدروس العملية لقلوبنا اليوم؟ **الدرس الأول**، أنه لا يحرم من الملكوت أي نوع من الأشخاص مهما كان نوع تفكيرهم وميولهم، وإن أي شخص غير مطالب بتغيير نفسه ليصبح من نوع مختلف

ليكون مقبولاً لدى المسيح ونافعاً لخدمته. فحيث أنه الإله الذي يحب التنوع، فإنه يسر بوجوده في الكنيسة، كما هو كذلك في الطبيعة. نحن نتحدث عن «معرفة مقدار ما لدينا من قمح بوضعه في مكيال شخص آخر» ولكننا لسنا مدعيين لكي نصبح أجهزة روبوت آلية، ولكن لكي نخدم الله الذي خلقنا جميعاً بحماس وغيرة بالرغم من اختلاف شخصياتنا ومواهبنا (١كو ٤:٤-١٣).

الدرس الثاني أننا نخدم المسيح بصورة أفضل، ليس بأن نختار شخصاً شبيهاً لنا، يستجيب بأقصى سرعة لأولوياتنا في العمل وطرق تفكيرنا ومشاعرنا، بل شخصاً على النقيض منا ولا يشبهنا في التصرف والطباع، يكون قادراً على استكمال نقائصنا في الفكر والنشاط، على المدى الطويل. إن الرب يعمل دائماً على أن يرسلنا معاً كأفراد مختلفين ولكن متحدين.

بطرس، المتحمس في إيمانه
توما، الشكاك، بالرغم من عمق محبته
يوحنا ويعقوب، ابنا الرعد
فيلبس، رجل ذو حكمة عملية وواقعية
نثنائيل، كشخص مكرس لخدمة السيد بالتمام
سمعان الغيور، الذي دفعه عنفه الطبيعي إلى التمرد

لقد جمعهم المسيح سوياً، بالرغم من عدم ملائمتهم، وصنع بهم عجباً فأصبحوا رسلاً، باستثناء يهوذا.

الدرس الثالث هو أننا عندما نصبح من أتباع المسيح لا يصح أن نكون مثل «الغيورين الفاسدين الذين تعوزهم الفضيلة» الذين كتب عنهم الكسندر بوب، بل أن نحتفظ بولائنا ومحبتنا وغيرتنا

إذا كان عيبنا نقص الغيرة وليس شدتها، فيا ليت الحماس الملتهب لسمعان الغيور، يلهمنا لنحذو حذوه! ليصلي كل منا من أجل انسكاب متجدد لروح القوة. لأجل القيام بجهود شاقة كما كان الحال في عصر الرسل. وحتى نتوق نحن أيضاً للحصول على القوة المبدعة التي اتسمت بها الكنيسة الأولى ونظهر قدراً من غيرة أولئك الذين جعلوا تاريخها خالداً. ليتنا نحصل على جذوة مشتعلة لا تطفأ من النار المقدسة!

فيلبس
الرسول متبلِّد العقل

لا يمكن للمرء أن يقرأ أسفار الكتاب المقدس دون أن يلاحظ أن هؤلاء الكتاب الأربعين أو نحو ذلك كانوا مؤرخين ومحللين من الطراز الأول، لأنهم كانوا يكتبون بوحي الروح القدس (٢بط ١:٢١). لم يكونوا يكتبون إلا ما هو ضروري ولم ينساقوا وراء تسجيل الحقائق غير الضرورية. فقد قدموا للعالم كل ما كان ضرورياً لمعرفته بطريقة تجعله سهل الفهم. وفي بعض الأوقات، قد نشعر أن بعض تواريخ الحياة قليلة، ومع ذلك فقد سجلت لنا القدر الضروري للتمييز بين سمات مختلف الشخصيات وأن نقرأ الشيء الكثير فيما بين السطور.

ويلاحظ أيضاً أن ما قد يحذفه كاتب من تصويره للشخصية، يصيغه كاتب آخر بلمسات قليلة ليعطينا صورة أكثر اكتمالاً. وهكذا، كما يذكرنا دانيل ماكلين:

«يتعامل البشيرون الثلاثة الأوائل أساساً مع الحقائق الأبدية في حياة المسيح، بينما يستخدم كاتب الإنجيل الرابع المعلومات التاريخية كأساس لإعطاء صورة عن المعلم الإلهي، وهو يكشف ببطء، من البداية إلى النهاية، عن أعظم تصور روحي لملكوت الله. إن كُتَّاب الأناجيل المتفقة (الإزائية) الثلاثة مؤرخون، سجلوا الدليل الخارجي على العمل والكلمة إثباتاً للإرسالية الإلهية للمسيا. بينما كان هدف يوحنا من تسجيل المعجزة والمثل أن يبين المبدأ العظيم الكامن وراء حياة المسيح في كشفه لما وراء هذه الظروف الخارجية».

وهذا المبدأ ملحوظ أكثر ما يكون فيما يتعلق بكل ما نعرفه عن فيلبس، الذي يسجل يوحنا وحده شخصيته المتميزة. إن كل ما قررته الأناجيل الثلاثة الأوائل عن

فيلبس لا يتضمن سوى ذكر اسمه في قوائم الاثنى عشر رسولاً الذين اختارهم يسوع. ولكن يوحنا هو الذي يرسم صورة أدبية لشهادة فيلبس التي لم يذكرها الكتاب الآخرون، وهو أيضاً الذي يتحدى معرفتنا بآخرين من الدائرة الرسولية مثل نثنائيل وتوما. ومع أن فيلبس مذكور في القوائم الأربعة الكاملة للاثنى عشر (مت ١٠:٣، مر ٣:١٨، لو ٦:١٤، أع ١:١٣)، إلا أنه من الشيق أن نلاحظ أن يوحنا هو الكاتب الوحيد الذي يخبرنا بكل ما يجب أن يقال عن فيلبس، ومع ذلك فهو الوحيد دوناً عن البشيرين الأربعة الذي لا يورد القائمة. ويعطينا البشيرون الثلاثة اسمه ويطلعونا على حقيقة أنه كان رسولاً، ولكن يوحنا يغض الطرف عن كرامة المنصب الذي كان فيلبس يشغله ويعطينا صورة جانبية عن الرجل نفسه بما فيه من خصائص متعلقة به وحده. ومع أن الحقائق الخاصة به

قليلة، إلا أنها كافية تماماً لكي ندرسها لنحصل على قدر كبير من الفائدة (يو ٦:٥-٧، ١٢:٢٠-٢٣، ١٤:٨).

١- مواطن من بيت صيدا الجليل

نستجمع من سجل يوحنا أن فيلبس ولد في بيت صيدا (١:٤٤-٥١، ١٢:٢١). المدينة التي قال عنها ربنا أشياء مخزية (مت ١١:٢١)، لأن الناس هناك رفضوا الحق الذي أعلنه المسيح لهم، والذي أيده بآياته الباهرة. ونتيجة هذا الرفض كان محزناً لأن معظم الألفاظ المريعة بخصوص مصير رافضيه جاءت على لسان نفس من سبق وأعلن الأخبار السارة. ومع ذلك فمن نفس هذه المدينة جاء فيلبس ليكون شاهداً للرب. وكان لبيت صيدا امتياز سماع الحق الذي كان له الامتياز الأعظم بمعرفته وإعلانه، بشر فيلبس أهل بلدته الذين سبق أن رفضوا يسوع. صحيح أن الشهود الأمناء للمسيح يأتون أحياناً من أماكن غير متوقعة. مثل القديسين في ساروس الذين هربوا من فساد المدينة التي كانوا يعيشون فيها (رؤ ٣:٤).

ألا يوجد مفتاح لتاريخ فيلبس الروحي في القول «وكان فيلبس من بيت صيدا من مدينة أندراوس وبطرس؟» إنها أكثر من مجرد ملحوظة جغرافية، أو إعلان عن العنوان البريدي لفيلبس. الجزء العام من عبارة يوحنا ليس فقط أن فيلبس ولد في بيت صيدا بل إنها كانت مدينة أندراوس وبطرس. والتجارب تقدس الأحداث والأماكن. وكانت بيت صيدا لا تمثل لدى فيلبس المكان الذي يسكن فيه فقط، بل ما هو أكثر بما لا يقاس، صداقاته. اثنان من قديسي الله كانا يعيشان في بيت صيدا هما الأخان أندراوس وبطرس. كانا صديقين لفيلبس، وساعدا على إعداده لدعوته الرسولية.

كان فيلبس مديناً بروحه، بعد الله، لأندراوس، وفي الأناجيل كانا وثيقي الصلة. كان فيلبس يلجأ لأندراوس عند مواجهة المصاعب، لأنه كان أبوه في الإيمان. وكنفسين باحثين، كان أندراوس وبطرس متطلعان إلى رجاء إسرائيل، ومن خلال مثال وتأثير بطرس، أصيب فيلبس بعدوي الانتظار المقدس. قال أوغسطينوس في عبارة قوية: «ما كان يمكن للكنيسة أن تربح بولس لولا صلاة استفانوس». وبنفس الطريقة، يمكننا أن نقول: «ما كان يمكن للكنيسة أن تربح فيلبس لولا أندراوس وبطرس». لواستطعنا أن نسأل فيلبس كيف كان بإمكانه أن يجلس على واحد من الاثني عشر كرسياً ليدين إسرائيل، وأن ينقش اسمه على واحد من الاثنى عشر أساساً للمدينة الأبدية، فلا شك أنه كان سيقول: «وُلدت في بيت صيدا، مدينة أندراوس وبطرس». هل بإمكاننا أن نقول إن حياتنا وسيلة للبركة لمن يعيشون معناً في بيت واحد، أو يعيشون في نفس الشارع أو في نفس المدينة؟ وكملح الأرض هل نعمل كمادة حافظة ضد الفساد المحيط والتلوث؟

ربما يجدر بنا، عند هذه النقطة، أن نوضح أن فيلبس الذي نحن بصدده الآن - فيلبس الرسول - لا يصح أن نخلط بينه وبين فيلبس، الشماس الكارز، الذي نقرأ عنه في سفر أعمال الرسل. ومع أنهما يحملان نفس الاسم، إلا أنهما شخصان مختلفان. ففيلبس الكارز كان المفسر المقنع للعهد القديم الذي اقتاد وزير خزانة الملكة كنداكة ملكة الحبشة إلى المسيح، والذي بدوره أدخل المسيحية إلى ذلك الجزء من العالم (أع ٦:٥، ٨:٥-٤٠). هناك حقيقة لافتة للنظر لا يجب أن تغيب عن أذهاننا وهي أننا لم نقرأ أبداً عن الشماس فيلبس قبل يوم الخمسين، وأننا لم نقرأ أبداً عن الرسول فيلبس بعد تلك الحادثة التاريخية.

ثم أنه، عندما استخدم الرب فيلبس الشماس بقوة وسط السامريين، استدعى اثنين من الرسل من أورشليم،

ليـزورا المكان، حـتى يمكن للمـتـجـددين أن يقـبلوا الروح القدس على أيدي الرسولين. ولو كان فيلبس نفسه واحداً من الرسل، لما كانت هناك حاجة لمثل هذا الاستدعاء من جانب الكارز (أع ٨:١). نحن لا نعرف أين وكيف كان فيلبس الرسول يخدم الرب أثناء الخدمة الكرازية لفيلبس الشماس. فقد كان كل واحد يعيش ويعمل للرب الواحد في منصبه وبطريقته.

٢- يهودي ذو اسم أممي

الأسماء الجيدة لا يمكن أن تُشترى، ولكنها تورَّث أو تُكتسب واسم فيلبس الجذاب، والذي يعني «محب للخيول» واحد من هذه الأسماء الحسنة والتي يا للأسف لم يكن يحملها دائماً رجال صالحون. وبما أن فيلبس اسم يوناني، فيبدو أنه كان للرسول صلات يونانية، مما يفسر لماذا تكلم الرسول بالنيابة عن اليونانيين في عيد الفصح، ولماذا جاء اليونانيون الذين كانوا يبحثون عن يسوع أولا إلى فيلبس. يذكرنا اسم الرسول بتاريخ الغزو المقدوني لآسيا على يد الإسكندر الأكبر، ابن الملك فيليب المقدوني. فقد كانت عادة شائعة في بعض أجزاء الإمبراطورية الرومانية أن يسموا الأطفال باسم الملك الحاكم. ومن الممكن أن يكون والدا فيلبس أسمياه هكذا على اسم فيلبس رئيس ربع على الجليل في ذلك الوقت.

هناك سمة فريدة متعلقة بالرسول وهي أننا لا نعرف له اسماً آخر. لابد أنه كان يمتلك اسماً يهودياً، لأن كل الرسل كانوا يهوداً، ولابد أن اسم والده كان مستخدماً كاسم للعائلة، ولكنه لم يعلن لنا، ولكن اسمه الأممي، لم يكن ذا أهمية نظراً لوجهة نظر فيلبس المسيانية. فقد كان عبرانياً خالصاً من ناحية الاقتناع الديني، وقد شعر منذ وقت مبكر باللمسة القوية لتعليم النبي الذي ينادي بالملكوت على ضفاف الأردن.

٣- باحث تم العثور عليه

يخبرنا يوحنا أنه بعد دعوة أندراوس بيوم، أراد يسوع أن يذهب إلى الجليل، وأنه بعد أن وجد فيلبس قال له: «اتبعني» (٤٣:١): يا لها من عبارة تحمل الكثير من المعاني تلك التي تقول: «فوجد (يسوع) فيلبس». إن الكتاب المقدس ميال لاستخدام هذا الفعل المتعدي «يجد» إن الشخص الأول الذي بحث عنه يسوع كان فيلبس، وقد أصبح تلميذه. إن الكلمة «يجد» تتضمن بحثاً دؤوباً مخلصاً. «اطلبوا تجدوا» لقد طلب يسوع ووجد فيلبس، ولكن من الواضح أن فيلبس لابد أنه طلب يسوع أيضاً، لأنه قال لنثنائيل «وجدنا... يسوع» (٤٥:١). كان الطلب متبادلاً، وهكذا كان أيضاً فرح العثور على الشخص المطلوب.

إذ ينظر كثيرون منا إلى بداية حياتنا المسيحية يمكنهم أن يقولوا: «طلبت الرب فاستمع إليَّ». آخرون مضطرون للاعتراف بالقول: «لقد بحث عني يسوع عندما كنت غريباً». في الحالة الأولى كان يسوع مطلوباً، وفي الثانية فهو الذي طلبنا. لقد سمع أندراوس يوحنا المعمدان يقول: «هوذا حمل الله!» وفي الحال خرج ووجده. كان طلبه للمسيح سبباً في كونه رسولاً. ولكن فيلبس كان مديناً لوجوده في زمرة الرسل لبحث المسيح عنه. «وجد (يسوع) فيلبس» الراعي وجد أحد الرعية، والطبيب وجد المريض، والمخلص وجد الخاطيء، ولكن سواء طلبنا أو طُلبنا فهذا لا يهم، الشيء الكلي الأهمية أن الخلاص يجب أن يسبق التلمذة.

وجد يسوع فيلبس. لم يوجد هذا «التلميذ الذي دعى أولاً» بالصدفة، أو اعتباطاً. ففي المعاملات الإلهية لا يوجد مكان للصدفة أو الحظ. لقد كان من المحتم أن يلتقي يسوع وفيلبس ، وعن طريق الاتصال المباشر أُدخل فيلبس إلى الحظيرة. لم يتدخل صديق، ولم يوجهه صوت بشري. وكما

كان شخص، مثل سمعان الشيخ، ينتظر تعزية إسرائيل، كانت أذن فيلبس مفتوحة، وكان قلبه مستعداً، وما أن سُمع الصوت السماوي يقول «اتبعني» حتى انطلق المخلص والخاطيء معاً. يوجد بين قديسي اليوم من يطلبهم المسيح ويبحث عنهم أولاً، دون وساطة بشرية، وقد أصبحوا له فوراً، كما حدث مع فيلبس. لقد كان لفيلبس امتياز أن يكون أول من دعى للتلمذة. وهكذا كان باكورة تلاميذ ربنا. وعلى الرغم أن أندراوس وبطرس كانا أول من أتيا إلى المسيح، إلا أنهما عادا لممارسة مهنتهما، وبعد حوالي سنة دعيا إلى التلمذة. ولكن فيلبس اتبع المسيح، حالماً وُجد.

من المفيد أن نلاحظ ترتيب الطلب والإيجاد الذي يسجله يوحنا. فبعد أن وجد أندراوس المسيا، فإنه وجد سمعان، وفيما بعد ذلك، يجد فيلبس نثنائيل. إن العلاقة بين الطلب والإيجاد في كل أرجاء الكتاب المقدس تعتبر أشبه ما تكون بالناموس الطبيعي الذي يتسم بكل الدقة والحتمية، فأحدهما يعتبر نتيجة ثابتة غير متغيرة وضرورية للآخر. فالطلب والإيجاد يردان دائماً جنباً إلى جنب.

«إن طلبتموه يوجد لكم» (٢أخ ١٥:٢)

«وتطلبونني فتجدونني إذ تطلبونني بكل قلبكم» (إر ٢٩:١٣)

«اطلبوا تجدوا» (مت ٧:٧)

«وجدت من الذين لم يطلبوني» (إش ٦٥:١)

«اطلبوا الرب مادام يوجد» (إش ٥٥:٦)

وهكذا، فكما يعقب النهار الليل والصيف الشتاء، هكذا كل من يطلب يجد. ما الذي استطاع فيلبس أن يفعله بمجرد أن وجده المسيح، سوى أن يجرى إلى صديقه نثنائيل ويصيح «وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء». ها هنا إذن بحث لا يخيب أبداً. ياليت عصرنا يكون عصر البحث عن يسوع! إنه من زاوية، عصر بحث الجماهير عن الخطية، واللذة، والثروة، وإرضاء الذات، وليس البحث عن ذاك الذي هو المصدر السري لكل شيء ثمين. «الذين يطلبونني يجدونني» .

٤- متجدد أصبح رابحاً للنفوس

ما أن وجد فيلبس، حتى مضى ليجد آخرين. فبعد أن لبى دعوة المسيح، مضى وأصبح واسطة في تجديد نثنائيل ودعوته. عندما التقى يسوع بفيلبس وجد قلبه المشتاق، وعقله المستفسر، ونفسه التواقة للهدف. وهكذا كان الحال مع أول متجدد على يد فيلبس عندما اتصل بيسوع. عندما بدأ يسوع يستجمع تلاميذ حوله، كان من المألوف بالنسبة لكل تلميذ جديد أن يبحث إما عن قريب أو عن صديق، ليأتي به إلى المعلم. يقول دين فارار إن فيلبس، ببحثه عن نثنائيل «كان يمارس أقدس امتياز للصداقة». ياله من حافز للكرازة الشخصية نراه في دعوة هؤلاء التلاميذ الأوائل!

أصبح المهتدي الجديد كارزاً، لأنه بعد أن خلص، قام بالخدمة، ولأنه كان متحمساً لكي يخبر الآخرين عن الخبر السار، فإنه لم يضع لحظة واحدة. لقد خرج، لا لكي يأتي بأردأ معارفه، بل بأحسنهم، الشخص الذي وجده فيلبس يقرأ كتابه المقدس ويصلي تحت شجرة تين. لقد كان قلب فيلبس يتوق لصديقه العزيز ورفيقه. كانت بين التلاميذ الأوائل قرابة تربطهم سوياً، قبل أن يوحدهم سيدهم في شركة أسمى. ونفس الكلمة استخدمت عن غيرة فيلبس النابعة من محبته الأولى كما ذكرت عن أول احتكاك له بالمسيح وجد (يسوع) «فيلبس» الذي وجد «نثنائيل». بعد أن استحوذ المسيح على فيلبس، كان كالعامل المساعد الذي يعمل على التخمر والانتشار، وعن طريق أول تلميذ دعاه»، جاء بالأخبار السارة لنفس باحثة أخرى. وهكذا، فإن نثنائيل، كشخص حلو الشمائل، بهرته وجذبته السعادة

الغامرة التي اختبرها صديقه. يقترح بعض المفسرين أن فيلبس ونثنائيل، أو برثولماوس، كانا أخوين، فإن كان الحال هكذا، فإنه كما ذهب أندراوس ليجد أخاه، هكذا مضى فيلبس ليجد أخاه أيضاً (يو ١: ٤٠-٤٦).

عندما تلقى نثنائيل الخبر السار الذي أعلنه فيلبس بحماس، فإن الرجل الذي لا غش فيه طلب الدليل على أن الشخص الذي وجد فيلبس كان هو المسيا حقاً. ولكن فيلبس إذ كان يعلم بعدم قدرته على الاقناع، رد على شكوك صديقه بتقديم الدعوة العاجلة: تعال وانظر.

وكرسول ناجح استطاع أن يقول : «يسوع وجدني» ولذلك استطاع أن يقدم حجة الاختبار كحجة قوية ودليل واضح إذ قال: «تعال وانظر!» لقد رأى فيلبس يسوع كالمسيا، واقتنع بذلك، وعلم أن أفضل دليل يقنعه بأنه كان على صواب هو الدليل الذي يستند على «النظر». ويمكن أن نقول دفاعاً عن نثنائيل، إنه استجاب لطلب فيلبس، وبرؤيته ليسوع صار بالمثل تلميذاً له. في خضم الكرازة الشاملة التي يتسم بها عصرنا، يبدو أنه غاب عن أنظارنا ضرورة وفاعلية الكرازة الشخصية. فقد كان هؤلاء المتجددون الأوائل يمثلون جماعة تكونت من أفراد. فقد انطلق كل من تجدَّد ليربح شخصاً آخر ليسوع. من المؤكد أن بطرس كان الشخصية القيادية للكرازة الشاملة كما نجد في سفر أعمال الرسل، ولكنه هو نفسه كان يمثل ثمرة مقتطفة باليد، لأن أخاه الأقل أهمية هو الذي اقتاده إلى المسيح.

٥- رفيق لشخص ذي عقلية أكثر ذكاء

في القوائم الثلاث للرسل والموجودة في الأناجيل الثلاثة الأوائل، يوضع فيلبس دائماً مع نثنائيل كرفيق أو زميل في العمل. وعلى الرغم أنهما كانا جليليين، إلا أنه ليس لدينا معلومات عن كيفية ارتباطهما معاً. والقائمة الرابعة للرسل في (أع ١) تجمع ما بين فيلبس وأندراوس، ربما كنتيجة للتغيير في موقف توما وموقعه بعد اعترافه الشهير بلاهوت المسيح.

الإثنا عشر يمكن تقسيمهم إلى ثلاث رباعيات، وفي كل قائمة، يرأس فيلبس الرباعية الثانية، يتبعه نثنائيل أو برثولماوس، ويوجد فيلبس دائماً كالخامس في الترتيب في القوائم، وفي كل قائمة تظهر الأسماء هكذا على التوالي. أندراوس وفيلبس ونثنائيل. وعندما يذكر اثنان منهما نجد أندراوس وفيلبس. إن موهبة فيلبس في فن الصداقة لم تجذب إليه فقط أندراوس عن طريق التقارب الروحي، ولكنها ظهرت أيضاً عن طريق قلقه على نثنائيل. سأل أحدهم الروائي الإنجليزي الشهير تشارلس كنجيزلي هذا السؤال: «ما سر حياتك؟» أخبرني، حتى أجعل حياتي جميلة مثلك. أجاب كنجيزلي باتضاع: «لقد كان لي صديق» ويُظهر تاريخ حياة الشخص الذي كان يدين له الروائي بأكثر مما تستطيع الكلمات أن تعبر عنه.

كان يمكن لفيلبس أن يقول: «كان لي صديقان كانت مشورتهما حلوة، وكانا يثقان بي ثقة كاملة، وكانت رفقتهما متميزة. لقد أحببنا وخدمنا نفس الرب، وكان كل واحد مصدر ثراء للآخرين. كان أندراوس في طرف، ونثنائيل في الطرف المقابل - لم يكن هناك ثلاثة في بيت صيدا ينعمون بالسعادة مثلنا». على الرغم أن كل ذلك صحيح إلا أنه لا يسعنا سوى أن نتأثر بالفروق الشاسعة فيما بين شخصيات الرسل. فكم كان الضدان متألفين! خذ على سبيل المثال فيلبس ونثنائيل كايضاح لاجتماع النقيضين في شركة واحدة، وكدليل على أن المسيح له مكان لكل واحد فينا بكل ما فينا من اختلافات شخصية.

كان فيلبس رجلاً بسيطاً، بطيئاً في اتخاذ القرار، متردداً في الأخذ بزمام المبادرة. وترى بساطة القلب والفكر في كل ظهور له في قصة الإنجيل. ومع أن له اسماً يونانياً،

إلا أنه لا يمتلك الذكاء الخارق ولا المهارة التي يتسم بهما اليوناني بل يبدو كإنسان مجتهد في عمله لكنه بطيء الفهم.

ولكن نثنائيل مختلف عن صديقه. كان حاضر البديهة، متيقظ الفكر. يرى في لمح البصر المتناقضات المتواجدة في أي عبارة. وهكذا شعر أنه لا شيء صالح يمكن أن يخرج من الناصرة. لقد استطاع أن يفهم الكتاب المقدس، وعلم ما يكفي منه مما جعله مقتنعاً بأن يسوع هو الشخص الذي يفي بتوقعات النبوات القديمة. ولكن على الرغم من اختلاف طبيعتهما، إلا أن الرب أرسلهما معاً – الرجل البطيء الفهم مع الرجل حاضر البديهة، لأنه كان محتاجاً لكليهما، وكان كل منهما بحاجة إلى الآخر. نحن نقرأ أن يسوع أرسل تلاميذه اثنين اثنين. كان لابد من اتباع مبدأ المعية. هذا، لأن الاثنين معاً، يشجع كل منهما الآخر، ويصحح كل منهما أخطاء الآخر.

لقد قيل إن «واحد + واحد أكثر من اثنين». والاشتراك في تحمل المسئولية يعني زيادة القوة. والانعزال في الخدمة المسيحية تكون غالباً سبباً في عدم الكفاءة. وهكذا فإن الشركة في المخاطرة مبدأ إلهي. وهكذا فان موسى يلزمه هرون، وإيليا يعوزه إليشع، وبولس بحاجة لبرنابا. إن بطرس وأندراوس، وابني الرعد، قد أرسلا معاً، لأن الرب كان محتاجاً لكليهما وكان كل منهما يحتاج إلى الآخر، وكان كل منهما يكمل نقصات الآخر. فالمعلم بحاجة إلى الشخص البعيد النظر، تماماً كحاجته إلى الشخص ذي البصيرة والنظر الثاقب للأمور. والتناقضات إذن تظهر في الثنائيات بين الرسل. فما ينقص في شخص، كان الآخر يكمله، وكان يخرج من شخصين غير مكتملين شخص مكتمل.

٦– دارس بطيء الاستيعاب

على الرغم أن فيلبس لم يكن بأي حال من الأحوال الأذكى بين الرسل، إلا أنه كان مختاراً من قبل يسوع ولذلك كانت له مكانة في خطته وغرضه. ما هي الصفات البارزة لهذا المواطن من بيت صيدا؟ مع أن الأناجيل لا تحكي لنا كثيراً عن فيلبس، إلا أن ما سجل يكفي ليعطينا صورة منطقية عنه. في البداية، نراه كرجل ذي عقل كثير الاستفسار، وفي شهادته إلى نثنائيل قال: «وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء». لقد اتبع أندراوس ويوحنا المسيح بناء على شهادة يوحنا المعمدان وما أملته قلوبهما عليهما. ولكن فيلبس قبل المسيح وتبعه لأنه وجد أن المسيح يحقق كل النبوات وتتم فيه كل الأوصاف المذكورة عنه في العهد القديم.

ولكن على الرغم أن فيلبس قد عاش مع المسيح، إلا أنه فشل في فهم حقيقة أنه جاء كالإعلان الكامل لله، وكالشخص الذي لديه القدرة على كل شيء. لم تكن درجة ذكائه الروحي مرتفعة، ولكن الرب كان يضم البليد والذكي جنباً إلى جنب في خدمته. يصف جرينهوف فيلبس بأنه عملي وحازم في قراراته، ولكن إدراكه الروحي كان ضعيفاً.

«كان عقله دقيقاً، ومنهجياً وآلياً تقريباً – عقل رجل أعمال منضبط، حي الضمير، متثاقل الخطى – ولكن بلا ابتكار. لم يكن لديه سوى القليل من الطموح الأخلاقي، وكان بطيئاً في الفهم وبطيئاً في الإيمان بما لا يستطيع أن يراه».

وكون فيلبس يتميز بمنطق جامد، واتجاه فكري مادي يظهر في ارتباطه بمعجزة إطعام الجماهير على الشاطيء الشرقي لبحر الجليل. إن الاثارة الشعبية التي خلقتها أفعال وأقوال يسوع أتت بجمهور من المعجبين الشغوفين إلى مكان بعيد عن مصادر الطعام، ولكون يسوع مهتماً بالاحتياجات البشرية لأولئك الذين احتشدوا حوله، فإنه

عرض المشكلة على فيلبس: «من أين نبتاع خبزاً ليأكل هؤلاء؟» (يو ٦:٥).

لماذا اختار المعلم هذا التلميذ ليسأله؟ لم يكن ذلك بقصد الحصول على المعلومة لأن يسوع كان يعرف كيف يمكن تلبية هذا الاحتياج. كان ذلك بقصد التعليم. كان السؤال تعليمياً. سأل يسوع ليمتحن فيلبس (يو ٦:٦). والكلمة (يمتحن) هذه تعني «يجرب أو يختبر». ها هنا فيلبس والباقون، في مكان لا يوجد فيه خبز، وكان الظرف امتحاناً لإيمانه بقوة المسيح. ولكن التلميذ كان بطيئاً في الاستيعاب، وكانت نتيجة السؤال هو عدم الإيمان. بعد أن استفسر فيلبس، وجد أن «ما يساوي مئتي دينار من الخبز» فقط هو المبلغ المتاح لإطعام الجموع، وكان هذا القدر الضئيل لا يكفي لاطعام كل هذه الأفواه الجائعة. كانت المائتا دينار تمثل كل النقود الموجودة في الخزانة المشتركة، وأخذ فيلبس يحسب ووجد أن مثل هذا المبلغ الهزيل لا يكفي لشراء الخبز المطلوب.

من الطبيعي أن يكون فيلبس الحذر والعملي التفكير متردداً بشأن اتخاذ خطوة ما لم ير الطريق التي يسلك فيها. كان رجلاً يعرف الكثير من علم الحساب مما يجعله غير ميال للقيام بمغامرات. ولأنه كان بطيئاً في الفهم الروحي، كان لا يستطيع أن يتصرف سوى بناء على الموارد التي لديه. كان قصد المسيح من هذه المعجزة أن يختبر إيمان فيلبس ويعمق فهمه للجانب الإلهي من إرساليته، ولكن حيرة تلميذه في حل المشكلة المعروضة أظهرت أنه يحتاج إلى مزيد من التدريب لهذا التلميذ بطيء الفهم في مدرسته. أظهر الامتحان أن فيلبس كان ينقصه «الخيال الروحي، وقوة البداهة وكنتيجة لذلك كان بطيئاً في الوصول إلى رؤى الإيمان».

لقد اختير فيلبس ليس لامتحان إيمانه فقط، بل لمواجهة تحدي هذه الفرصة العظيمة. فلنفترض أنه استجاب لسؤال المسيح عن الحصول على خبز لمثل هذا الجمع بالقول: «حسناً يارب، أنت تعرف كيف. أنت الكلي القدرة وأكثر من قادر على إعداد مائدة في هذه البرية». كم كان ذلك الرد يعود بالمجد ليسوع! ولكن فيلبس لجأ إلى الحسابات العقلية ليحل مشكلة لا يوجد حل لها سوى عند إله. مسكين فيلبس لأنه فقد فرصته وبركته، لأن يسوع اتجه إلى شخص آخر – حتى وإن كان ولدا صغيراً، ليثبت أنه لا يوجد احتياج يعسر تلبيته أمام قوته. كان إيمان فيلبس قليلاً، وفي رده على سؤال المسيح، أظهر ضعفاً جذرياً في الإيمان بأن الله قادر على كل شيء. أظهرته تلك الحادثة كواحد من أكثر الأشخاص مادية في الجماعة. وكان بحاجة ماسة إلى تعليم المسيح الأكثر صبراً واحتمالاً لينمي فيه العقلية الروحية. لاشك أنه تعلم أنه لا شيء يعسر على تلك القوة القادرة، عندما ترغب في الاعلان عن ذاتها. فإذا كنا نمتلك أي قدر من الحكمة التجارية، دعنا لا نفشل في الاتكال على المدبر الإلهي. أمامنا الطريقة الإلهية، كما توجد أيضاً طريقة الإدراك العادي للنظر إلى الأمور.

٧– مرشد لا يستطيع القيادة

النظرة التالية التي تلقيها على فيلبس متعلقة بجماعة اليونانيين الذين صعدوا ليسجدوا في العيد (يو ١٢:٢٠–٢٢). كان هؤلاء الأمميون، الذين تدفعهم رغبة حقيقية لرؤية المسيح قد سمعوا كثيراً عنه، فاقتربوا من فيلبس بسؤال: «ياسيد، نريد أن نرى يسوع». ولكنه لسبب ما لم يستطع أن يقرر تقديم هذه النفوس الباحثة عن يسوع إليه على الرغم أنهم التجأوا إليه لهذا الغرض. كانت لديه خبرة سابقة تهديه لأنه هو من بحث عن نثنائيل ليقدمه إلى يسوع، ولكنه الآن وهو في موقف الوساطة تردد. ربما

تساءل فيلبس عما إذا كان يسوع سوف يستقبل هؤلاء الأممين أم لا، ولذا فحيث أنه كان خائفاً من القيام بالمخاطرة فقد أوكل المهمة إلى أندراوس شريكه.

قد يكون من صفات فيلبس المميزة لشخصيته أنه كان دمث الأخلاق يسهل الاقتراب منه، ولتأثر اليونانيين بكرم أخلاقه،فقد شعروا أنه يمكن أن يكون الشخص المناسب الذي يستطيعون أن يكاشفوه برغبة قلوبهم. ولكن الحقيقة تبقى أنه كان يحمل اسماً يونانياً، ولذا فمن الجائز أنهم اعتقدوا أنه كان مثلهم من أصل يوناني. يقول لانج: «إن التجاءهم إلى فيلبس كان يعتمد على قانون التجاذب النوعي». وحيث أنه لا وسطاء بين النفس والمسيح، فإن هؤلاء اليونانيين كان يمكنهم أن يذهبوا مباشرة إليه. ثم أنه لم يكن من باب الاحتشام والتواضع أن يمتنع فيلبس عن أن يكون وسيطاً بين هؤلاء الباحثين وبين الشخص الذي كانوا يطلبونه، بل كان بسبب نقص الثقة في النفس مما جعله يتجه إلى أندراوس طلباً للنصيحة.

ربما يلتمس بعض العذر لتردد فيلبس نظراً لنوع تفكيره، لقد تذكر تحذير المعلم «وفي طريق أمم لا تمضوا». ولكن على الرغم أنه كان يعيش على حدود بلدهم، وكان لديه تعاطف سري مع حالتهم كمنبوذين، فقد كانت تنقصه الشجاعة لتقديم الغرباء إلى معلمه. وبذلك فقد كان على وشك أن يفقد فرصة أخرى لخدمته. ولحسن الحظ، استشار فيلبس أندراوس، ومضيا سوياً وأخبرا يسوع بطلبة الأمميين المتهودين حديثاً. وحيث أن كلا من هذين الرسولين كانا سائلين، فقد تعاطفا مع أولئك الذين جاءوا لكي يلتمسوا وساطتهما لمقابلة يسوع. أليس من المفرح أن نرى هذين الرسولين اللذين كان يعرف كل منهما الآخر في مقتبل حياتهما، يعملان سوياً في ارتباط وثيق الصلة؟ لقد كان لهما الامتياز أن يكونا واسطة لإعلان الحقيقة السرية عن موت يسوع وقيامته. كم كانا مبهورين برد السماء على طلب يسوع، «أيها الآب مجد اسمك»، وكم كانا ممتنين لأنهما كانا مرشدين لأولئك الأمميين – باكورات هذا الحشد المجيد. ولم يدركا تماما أنهما كانا الواسطة في هذا الحدث المجيد بالتحول العظيم في تاريخ العالم، ألا وهو، إرشاد الأيدي الممتدة للوثنية في بحثها عن الله.

٨– تلميذ كانت تنقصه البصيرة الروحية

في خلال الساعات الحزينة التي قُضيت في العلية المعدة لعيد الفصح أظهر يسوع ذاته كالوسيط بين الإنسان والله (يو ١٤:٦). وقد أعلن بنفسه أنه هو والآب واحد، وأعلن عن فضائله وأغراضه. ثم سأل فيلبس «ياسيد، أرنا الآب وكفانا» (يو ١٤:٧–١٢). هنا مرة أخرى، نرى فيلبس كالكمبيوتر العملي الذي ينفذ صبره سريعاً بالنسبة. لأي شيء روحي غامض. فالرؤية هي الإيمان بالنسبة له، لقد فشل في أن يتذكر أنه كرسول، كان يجب أن يكون الإيمان يعرف أنه عندما (يؤمن) فإنه يستطيع أن (يرى) وليس العكس. ألا تستطيع أن ترى فيلبس وهو يرتجف حين أجابه يسوع بالقول «أنا معكم زماناً هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبس؟». أليس من الغريب أن الشخص الذي كان فيلبس قد اقتاده إلى المسيح في البداية كان لديه الإعلان الداخلي بهويته بمجرد أن رآه: «أنت ابن الله! أنت ملك إسرائيل» (يو ١:٤٩). فمن المحزن أن فيلبس لم يستطع في نهاية رحلته مع المسيح أن يتوصل إلى مارآه نثنائيل في بداية تلمذته.

لاشك أن فيلبس كان صادقاً في الحديث عن أن رؤية الآب تكفينا، ولكنه افتقد الرؤية ونال التوبيخ المحب لربه حينما قال له: «الذي رآني فقد رأى الآب فكيف تقول أنت أرنا الآب؟» لاحظ الاستعمال الرقيق للاسم – يا فيلبس– النابع من الصداقة الحميمة. فعلى الرغم من وجود الحزن

في قلب يسوع بسبب عبارة فيلبس، إلا أن توبيخ المعلم كان رقيقاً وهينا. لقد فشل فيلبس أن يرى في يسوع تحقيق الإعلان عن الآب، وأنه على الرغم أنهما كانا متميزين في الأقنومية، إلا أنهما كانا واحداً في القوة، والعطف، والحكمة، والنعمة والمحبة. لابد أن فيلبس شعر بالخجل لفشله أن يرى في يسوع بهاء مجد الآب ورسم جوهره (عب ١:٣). بعد هذا الإعلان، لم يكن لدى فيلبس شك أن يسوع الذي كان يعرفه كان بالفعل الطريق إلى الآب، والحقيقة عن الآب، والحياة من الآب (١٤:٦).

إن الرؤية الوحيدة للآب كانت في وجه يسوع، وكان فيلبس ينظر إلى ذلك الوجه ما يقرب من ثلاث سنوات، ولكنه فشل في رؤية الكنز الذي أراده.

لقد اتبع المسيح، وعمل لأجله، وتعلم منه، وكان له امتياز الشهادة له، ومع ذلك كان الآب فيه، ولم يكن فيلبس يعرف ذلك. فقد طلب ما كان لديه بالفعل.

يقول أ.ب بروس في «تعليم الاثنى عشر»: إن الجهل والعجز الروحي لفيلبس بعد كل هذه المدة كان محبطاً ليسوع، ولكن المسيح كان يتسم بصبر لا ينفذ، ولم يشعر بالإساءة لا بسبب غباء فيلبس ولا للتناقض الذي توهمه في العبارة التي قالها يسوع». لم يكن مطلب فيلبس أن يرى الآب ضرورياً، بل كان ينم عن شيء من الجهل وعدم الادراك الروحي من جانبه فبعد ما يقرب من ثلاث سنوات من التعليم الروحي تحت إرشاد المسيح وتوجيهه، مازال فيلبس تلميذاً جاهلاً – يتعلم دائماً دون أن يصل إلى معرفة حقيقة الله الظاهر في الجسد. وبعد وقت طويل، كان لا يزال أسير الحواس، راغباً في رؤية بصرية لله. هل يحق لفيلبس الذي حصل على امتياز تلقي الفكر الروحي وتمتع به على مدى عدة سنوات من تلمذته، أن يطالب بدليل مادي على حقيقة الله؟ لقد فشل في إدراك أن الله كان في المسيح.

يوجد في سؤال فيلبس جانبان. جانب سيء وجانب حسن، يا سيد أرنا الآب وكفانا. الجانب السيء أن فيلبس كانت لديه فكرة خاطئة أن الله يمكن أن يرى بالعين المادية. ومع أن الله في المسيح كان واقفاً أمام فيلبس، إلا أنه لم يعرفه. والجانب الحسن في سؤال فيلبس ظهر في الشوق الداخلي، والحنين إلى من سوف يروي ظمأه ويريح قلبه. وكما أن اليونانيين الذين جاءوا إلى فيلبس أرادوا أن يروا يسوع، هكذا فإن فيلبس نفسه رغب في رؤية الله، مصدر الفرح الرئيسي لنفس الإنسان. صحيح أن فيلبس قد فاته الكثير، ولم يفهم، وكان أعمى روحياً، ولكن قلبه كان منصرفاً إلى رؤية من لا يرى، ومصدر كل الحياة والحقيقة «طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله».

٩- رسول مضى قدماً ليخدم

وكأخ ذو رتبة أقل بين زمرة الرسل الآخرين، فرح فيلبس بالمجد الذى آل إليه بعد أن استولت على مشاعره حقيقة لاهوت المسيح. وعلى الرغم من أن قدراً كبيراً من حياته اللاحقة غير معروف لنا، إلا أن ما لدينا يكفي لاقناعنا بأنه قد تغلب على كل نقائص شخصيته، وأنه قام بالمهمة التي كلفه بها ربه المقام وبقية الرسل، قبل صعوده، خير قيام. مضى فيلبس يكرز بالإنجيل، عالماً أن الرب كان معه يثبت الكلمة بالآيات (مت ٢٨:١٦-٢٠، مر ١٦:١٩-٢٠).

يظهر اسم فيلبس في قائمة الرسل المجتمعين في العلية للصلاة والتضرع، وقد كان واحداً منهم حين قبل معمودية الروح القدس بقوة في ذلك اليوم التاريخي، يوم الخمسين، مما مكنه من الكرازة بالإنجيل بلغة الناس المجتمعين معاً من كل أمة تحت السماء (أع ١:١٣، ٢:١-٧). كان فيلبس واحداً من الرجال الجليليين الذين أعلنوا عن أفعال الله العجيبة (أع ١:١١). ويزين اسمه واحداً من الاثنى عشر

أساساً للمدينة المقدسة (رؤ ٢١:١٤). وإذ نترك تأملنا في فيلبس، فما يشجعنا أن الرب يستخدم الأغبياء كما يستخدم الأذكياء في خدمته. وإذ ننظر حولنا إلى من يشكلون كنيسته نرى أنه محتاج لكل مراتب الذكاء. فإذا كنا، كفيلبس، مدركين لإيماننا الناقص، ومعرفتنا المحدودة، فدعنا نواصل السير حتى نحصل على النور الكامل «الذي يتبعني لا يمشي في الظلمة، بكل يكون له نور الحياة».

إذا كان يسوع المسيح إنساناً
وإنساناً فقط، فإني أقول
سوف التصق به دوناً عن سائر البشر
وابتعد عن كل ما عداه
وإذا كان يسوع المسيح إلهاً
والإله الوحيد، فاني أقسم
بأن أتبعه في السماء والجحيم.
والأرض، والبحر، والهواء!

متـــى
الرسول الذي كتب إنجيلاً عظيماً

إن اختيار المعلم لمتى دليل آخر على أن يسوع كان يجتذب الناس من كل ميادين الحياة، وفي أغلب الأحيان من طبقة لم يكن من المتوقع أن تمده بتابعين. لقد أظهر العطف على أناس ما كان في إمكاننا نحن أن نظهر العطف نحوهم. ألا نشعر بالدهشة إزاء تلاميذ المسيح الحقيقيين؟ ولأنه جاء كشخص قدوس، خال من العيوب، وبلا دنس، لم يكن ليدهشنا أن نرى أتقياء الأرض، مثل سمعان الشيخ وحنة، يفرحون ويهللون لقدومه. ولكن من منا كان يفتش وسط العشارين للبحث عن رسول؟ إن طبيعة متى الفاسدة، والتي أصبحت أكثر قساوة نظراً للاحتقار والكراهية اللتين نالهما بسبب حرفته، لاشك أنها قد حصنته ضد التأثيرات الإلهية!

ولكن المدهش أنه بمجرد أن سمع متى الدعوة، استجاب لها. ويعد خضوعه للمسيح واحداً من الأحداث الملهمة في الإنجيل، وهو باعث على التشجيع لمن يعمل لخلاص النفوس في الأماكن التي يستبعد فيها تماماً العشور على تابعين للرب. ولما كان متى منحرفاً في السلوك، طامعاً في الربح الحرام، فقد امتهن حرفة تثير حفيظة بني وطنه من اليهود. لاشك أنه كان مصدراً لتعاسة والديه التقيين. ومع ذلك فعندما نظر إلى وجه يسوع القدوس، اتحد الخاطيء والمخلص برباط وثيق إلى الأبد. يطلعنا جون كبل في قصيدته عن «القديس متى» على الطريقة التي «يدعو بها يسوع الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة» يكتب الشاعر التقي عن الطريقة التي «أمر بها يسوع ذلك العشار المطيع بترك منصبه المربح».

عندما أكد يسوع أنه لم يأت ليدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة، فقد أعلن أنه سوف يجد جواهره في أقل الأماكن احتمالاً لوجودها. كم يجب أن يصلح أواني الحياة الخزفية المكسورة. وأن يغير العصاة ليجعلهم ملوكاً وكهنة! وحيثما مضى يسوع يكرز فقد كان «العشارون والخطاة هم الذين يلتفون حوله ليسمعوه».

لم يكن بين الاثنى عشر الذين اختارهم يسوع شخصاً واحداً غنياً، ولم يكن واحد منهم ذا حسب ونسب، وليس فيهم من ذوي الثقافة والتعليم. ربما كان لدى متى مال وتعليم أكثر من الباقين. كان أكثر من نصفهم فلاحون متواضعون وغير متعلمين وصيادي سمك في الجليل. وعندما دعا متى ليتبعه، فقد تحدى كل اعتبارات الحكمة العالمية. وتغاضى عن كل قواعدها. كانت عين يسوع فاحصة كما كانت عليمة بكل شيء، ولذلك فقد كان يسوع

ينظر إلى القلب، ولا يضع في اعتباره سوى قدرة الإنسان على التوافق روحياً معه. كان حبه يتميز ببعد النظر كما يلاحظ من تعامله مع الشاب الغني الذي عندما نظر إليه أحبه.

١- ابن عبراني

هناك حقيقة لا يجب أن ننساها في أي دراسة للاثني عشر رسولاً وهي أنهم كلهم يهود. ولانتمائهم لبيت إسرائيل، فمن المرجح أنهم كانوا على دراية بأسفار العهد القديم منذ نعومة أظفارهم (٢تي ٣:١٤ ,١٥). لذلك عندما ظهر يسوع، «كمجد (لشعبه) إسرائيل» (لو ٢:٣٢)، فإن القلوب، المشتاقة لمجيئه، عرفته بالفطرة كالمسيا الموعود به، كما فعل برثولماوس أو نثنائيل (فعند الالتقاء به، تم الترحيب به كملك إسرائيل). وُلد متى لوالدين تقيين، والإنجيل الذي كتبه يظهر كم كان ملماً بالعهد القديم وبتقاليد معلمي اليهود أيضاً. فالطريقة البارعة التي قدم بها متى مادته عن الملك وملكوته، تثبت أنه كان واسع الاطلاع على كل ما يتعلق بالديانة اليهودية، وأنه كان حاصلاً على قدر فوق المتوسط من التعليم العام.

على الرغم أننا لا نعرف عملياً أي شيء عن متى نفسه من الإنجيل الذي كتبه، إلا أن معرفته بالتاريخ والتقاليد النبيلة لجنسه تظهر على كل صفحة تقريباً. ما أن سلم متى نفسه ليسوع وسمعه يفسر الأسفار المقدسة، حتى أصبح مبشراً ملتهباً بالمجد الآتي الذي سوف يأتي به ملك إسرائيل. واسمه نفسه لاوي، يدل على انتسابه للنظام الكهنوتي، مما يدل على عضويته في السبط المخصص لعبادة الله وخدمته (عد ٣:٦، تث ١٠: ٨, إلخ). طبقاً لمرقس ولوقا، فاسمه كان لاوي الذي يعني «يقترن» (تك ٢٩:٣٤) - كإشارة لتمسك هرون بخدمة الكهنوت (عد ١٨:١، ٢). يتحدث الرسول عن نفسه «كمتى»، ولكن مرقس ولوقا يستخدمان اسمه القديم لاوي، لعدم رغبتهما حتى بعد مرور ثلاثين سنة أو نحو ذلك في أن يلقباه بمتى الرسول. ولكنه قدم هذا اللقب ليثبت أنه عن طريق النعمة الإلهية فإن لاوي جابي الضرائب، قد أصبح متى الرسول (مت ٩:٩-١٣، مر ٢:١٣-١٧، لو ٥:٢٧-٣٢، أع ١:١٣).

كان من المرجح، بعد دعوة يسوع له، أن يتغير اسمه من لاوي إلى الاسم اليوناني متى، حيث لاوي هو اسمه القومي كعبراني، ومتى، اسمه المسيحي - وهو اسم يخلد ذكرى انتصار المسيح في حياته. والرجال الذين يحملون اسمين هم كثيرون في الكتاب المقدس - إن يعقوب أصبح برنابا.. إلخ. ولما كان الرسول شغوفاً بإعطاء المجد لصلاح ورحمة الله لخلاصه واختياره ليكون رسولاً، فإنه فضل أن يشير إلى نفسه بوضع اسمه تحت المسمى المحتقر «متى العشار» - كرمز للتغيير الهام الذي أجراه المسيح في قلبه وحياته.

من المرجح أن متى كان جليلياً ومولوداً في أو بالقرب من كفرناحوم، وقد كان ابناً لحلفي ومريم والتي من المحتمل أنها كانت قريبة لمريم العذراء. لابد أن والدي متى التقيين كانا كسيري القلب عندما اختار لاوي ابنهما حرفة ذات سمعة سيئة، حسبما كان اليهود الأرثوذكس يعتبرونها كذلك. وبينما كان يجلس لاوي ليتسلم حصيلة الضرائب، مع إضافة أرباحه الحرام، لابد أن أفكاراً مزعجة كانت تنتابه لأنه كان يتصور الوجه المهزول الذي كساه الحزن لأبيه التقي والملامح المرتعشة لأمه القديسة بسبب المنصب الحقير لابنهما، لابد أن التفكير في ابنهما. الذي سبب لهما فرحاً عندما جاء إلى العالم، والذي اختار أن يعمل بالأجر عند الغرباء، بسبب حبه للمال، والذي وجد نفسه مقيداً بأغلال ذهبية لدى الدولة الرومانية، كان بمثابة حمل ثقيل كان على أحبائه أن يتحملوه.

٢- جابي ضرائب روماني

إذا كان صحيحاً أن اليهودي العادي كان يمكنه أن يضيف إلى ثروته بينما كان الآخرون من قوميات أخرى يموتون في فقر مدقع، إذن فإن محبة المال كانت هي الخطية المحيطة بمتى بسهولة، وهي العيب الخطير في نسيج شخصيته. يمكننا أن نفهم كيف أن حبه الطاغي قد أتى به إلى طريق غير لائق بتكويم الثروة - إلى حد أن أصبح منبوذاً من أردأ الأنواع، ومنبوذاً من مجمع اليهود ومن المجتمع. لم يصبح لاوي كاهناً - بل عشاراً. من هو العشار أو ما هي حرفته؟ كانت وظيفة العشار تمثل وظيفة جامع الضرائب، وكان جباة الضرائب لدى قيصر عادة من الرومان وكانوا يرسلون إلى أقاليم الإمبراطورية ليجمعوا الجزية للإمبراطور.

كان الموظفون المسئولون عن جمع الضرائب الرومانية يطلق عليهم لفظ العشارين Publicani من الكلمة اللاتينية Publicanus، بسبب صلتهم الوثيقة بالخزانة العامة Public Purse. كان نظام الباشوية (نظام الالتزام) الذي كان سائداً في مصر في الماضي، قريب الشبه بنظام العشارين في إمبراطورية روما قديماً. كان عشارو روما يمثلون عاملاً نشطاً في حفر قبر الإمبراطورية بسبب طرقهم الفاسدة وظلمهم الشديد في وسائل جباية الضرائب. وجميع الذين أخذوا على عاتقهم القيام بهذا العمل البغيض كانوا يحصلون على مكافأتهم مما كانوا يستقطعونه لفائدتهم الخاصة بأكثر مما كان القياصرة يطلبونه. ولهذا السبب كانوا يلقبون بالطفيليين، لأنه كان يسمح لهم بأن يأكلوا حتى التخمة من ناتج عملهم. وفي اعترافه للمسيح، فإن زكا رئيس العشارين، يشير إلى اغتصابه للأموال التي كانت السبب في ثرائه الفاحش عندما تحدث عن ردم أربعة أضعاف الأموال التي نهبها من الفقراء (لو ١٩:٨).

واليهود الذين عانوا طويلاً تحت حكم الرومان وكانوا يبغضونه بشدة، قالوا إن أي واحد من أمتهم تولى منصب العشار لأجل خدمة الرومان، فإنه يعد غير مخلص لله وخارج نطاق الأشخاص الجديرين بالاحترام، ويجب أن يصنف كخاطيء. أصبح متى جابياً للضرائب في ولاية هيرودس انتيباس، وكسب احتقار مواطنيه اليهود والذين كانوا يعتبرون أن المغالاة في جباية الضرائب كانت دليلاً على العبودية للأجانب والسبب في تدمير كل آمالهم الوطنية. ولذلك فأي يهودي يقبل هذه الوظيفة كان يعتبر «منبوذاً اجتماعياً»، مرتداً عن إيمان أمته وخائناً للرجاء المسياني. وبالإضافة إلى حقيقة أن الرومان كانوا يبحثون باجتهاد عن اليهود الذين لا يعارضون جمع الضرائب من بني وطنهم، ليشغلوا هذه الوظيفة، فقد كان هناك عدم أمانة عند كبار العشارين مثل زكا، وصغارهم، كمتى. وقد أشار يوحنا المعمدان لتكويم الأموال عن طريق الجباية غير الأمينة للضرائب عندما جاء العشارون إليه طلباً للمعمودية وسألوه: «يا معلم ماذا نفعل؟ فقال لهم لا تستوفوا أكثر مما فرض لكم» (لو ٣:١٢، ١٣).

لم يكن هناك أناس مكروهون في المجتمعات اليهودية أكثر من جامعي الضرائب الرومان. ولذا، فعندما كان يهودي يقبل مثل هذه الوظيفة، كان ينظر إليه كشخص قد ضحى بوطنيته وباع نفسه لأجل الربح لسادته الرومان. لذا لم يكن غريباً إذن في العرف السائد أن يصنف جابي الضرائب مع الناس الأسوأ سمعة. ومن هنا وردت عبارات مثل «العشارون والزواني» و«العشارون والخطاة» (مت ٩:١١). هناك مثل شائع عند أولئك الذين كانوا يكرهون هذه الآفات في المجتمع يقول:

«لا تأخذ زوجة من تلك العائلة التي يوجد بها عشار، لأنهم جميعاً عشارون، ولصوص، وقطاع طرق، وخطاة

أشرار».

ولإشباع رغبته في الحصول على المال الحرام، تأمل في ما فقده متى. لقد باع عائلته، ووضع نفسه خارج شركة أحبائه، وأصدقائه من اليهود المحافظين ومعارفه، وباع بلده. كان أقرباؤه يعانون بسبب طغيان وقهر روما. وعندما دخل في خدمتها، فإن شرارة الوطنية الصادقة التي عرفها قد أطفأها حب من نوع رخيص. وباع ضميره لأنه كان يعلم أن جباة الضرائب عموماً، كانوا يمثلون حرفة غير شريفة، وهم مجموعة من المغتصبين المجردين من المباديء. فالشهوة إلى المال أخرست صوت الضمير الداخلي وأفقدته إيمانه. كان مجرد اسمه «لاوي» يربطه بسلالة تقية، تعود أصولها إلى قائمة طويلة من الكهنة حتى تصل إلى ابن يعقوب. ينسب إلى إيمرسون القول بأن «أردأ أنواع المال هو ذلك الذي يكلف الشيء الكثير للحصول عليه» لقد كلف المال متى الانفصال عن سبطه وأمته، والطرد من المجمع بكل ما يعنيه ذلك من مفردات في قاموس اللعنة.

في واحد من الأعمال العظيمة لفكتور هوجو يصور الكاتب الشخصية الرئيسية وهي تعاني من صراع مرير مع نفسها بشأن رجل تعرف بأنه معرض لحكم الموت شنقاً كمجرم هارب من تنفيذ العقوبة. ويعرف الرجل نفسه بأنه هو المجرم، ويعرف أن الرجل المدان بريء، فيسكت صوت ضميره عن طريق المنطق الزائف، ويقرر أن ينقذ نفسه على حساب الآخر. يمضي قدماً لقطع كل صلاته مع الماضي، فيسمع «أصوات ضحكات داخلية مكتومة» ويتأكد أنه على الرغم أن الناس سوف يرون قناعه، إلا أن الله سوف يرى وجهه، وعلى الرغم أن جيرانه سوف يرون حياته، إلا أن الله سوف يرى ضميره. ثم يتذكر «غابة صغيرة بالقرب من باريس، حيث يذهب المحبون لالتقاط الزهور في شهر إبريل» فيدخل المدينة التي سميت الغابة باسمها فيجد الشوارع صامتة، يرى رجالاً صامتين يستندون بظهورهم إلى الحوائط. خلف كل شجرة، وكل باب، وحول كل زاوية، يقف رجل صامت. الأرض رمادية كئيبة، والسماء من رصاص! يلمح فارساً عارياً ممسكاً عصا ثقيلة، وهو يمتطي صهوة حصانه ويشق طريقه في المدينة الصامتة ليؤدب سكانها. يترك الرجل المدينة في رعب ويتبعه الجمهور، الذي يستعيد صوته المفقود أخيراً. وهذا ما يقولونه: «ألا تعلم أنك مت منذ مدة طويلة؟» كان الرجل على استعداد أن يقتل نفسه ليسكت صوت ضميره: هذا هو درس هوجو العظيم.

لقد مات متى منذ أمد طويل لأنه باع شرفه، وأسكت صوت ضميره!.

يقول الدكتور و. جراهام إننا نرى آثار حرفة متى السابقة في استعماله لكلمة «جزية»، «بدلاً من الدينار» وفي تسجيله لمعجزة الإستار (مت ١٧:٢٢، ٢٧، ٢٢:١٩، مر١٢:١٥). ثم أن هناك استخداماً متكرراً في إنجيل متى للفظ المال أكثر من أي إنجيل آخر. ونجد ذكراً لكثير من العملات النادرة. يشير مرقس إلى ثلاث عملات فقط، وهي الأقل قيمة: الفلس، والدرهم، والدينار، ويشير لوقا إلى الفلس، والدرهم والأوقية، ولكن متى، الذي كان يتعامل مع النقود، يشير إلى العملات الأكثر قيمة في ذلك الوقت – فالوزنة، على سبيل المثال كانت تساوي ما يقرب من ٩٠ أوقية، وبينما يشير مرقس إلى النحاس (٦:٨)، ويشير لوقا إلى الفضة (٩:٣)، يتحدث متى عن الذهب، والفضة والنحاس (١٠:٩). وقد تعامل في قدر كبير منها أثناء الجلوس في مكان الجباية.

٣- التائب المضحي

من المثير أن نلاحظ كيف وأين تقابل الرب مع أولئك الذين حضهم على الدخول في خدمته. فقد أتتهم الدعوة

حيث كانوا موجودين. لم يضطروا إلى ارتداء الملابس والذهاب إلى الكنيسة لمقابلته. كان بطرس وأندراوس يلقيان شباكهما، وكان يعقوب ويوحنا يصلحان شباكهما، عندما كان يسوع ماشياً بالقرب من بحر الجليل، فحدثت المعجزة وأصبحا من تلاميذه. وكان شاول الطرسوسي في طريقه إلى دمشق ليضطهد قديسي الله هناك، عندما ظهر له المسيح الذي رفضه في الظهيرة، وفي الحال كف عن تمرده، ووجد نفسه مفتوناً ومأسوراً بالصوت الإلهي. وها هنا قصة متى الذي كان جالساً أمام مائدة يباشر عمله كجابي للضرائب في كفرناحوم، على الطريق الغربي الرئيسي من دمشق والشرق الأقصى والممتد إلى البحر المتوسط، حيث كان يستمع إلى كل ما يحدث من أنباء، وفجأة ظهر هذا الشخص الغريب من الجليل والذي كان قد سمع عنه، وعندما اقترب من جابي الضرائب، أمره بأن ينهض ويتبعه.

من المرجح تماماً أن متى ربما كان واحداً من المستمعين الشغوفين بالمعلم الجديد عندما ألقى موعظته التي لا تُنسى فوق الجبل، وربما التقت نظرته الخارقة بعين متى وهو يوبخ الخطية المحيطة بكثرة حول جابي الضرائب «لا تقدروا أن تخدموا الله والمال» من الواضح أنه عندما التقى يسوع بمتى عند مكان استلام الجباية قرأ سر قلبه في وجهه، علم أنه سوف لا يتردد بشأن الاستجابة لدعوته. «اتبعني!» ومثل هذه الدعوة الوجيزة أو الأمر الملكي وجد متى مستعداً وبدون أن يضيع لحظة، ترك عمله وأصحابه وتبع يسوع، وعندما فعل ذلك شق طريقه نحو الحرية والسلام. وفي الحال، تحررت القوى الحبيسة في طبيعته، وزالت كل ذنوب السنين المتراكمة، ومُسحت رأسه بزيت الابتهاج.

وبحسب علمنا فإن يسوع ربما وضع متى تحت المراقبة فترة من الزمن، وعندما شاهده عند مكان الجباية، رأى فيه قدرات استطاع أن يكتشفها ويستخدمها. فأقدامه التي كانت تسرع في طريق المال، سوف تكون أسرع وهو يبشر بملك السلام. جاءت دعوة المسيح المزدوجة إلى متى في نفس الوقت، آمن وتبع. فقام وتبعه. لاشك أنه فهم تنازل المسيح بدعوته إليه، وكيف أنه، عن طريق هذه الدعوة وصل إلى قمة المجد بعد أن لمس أعماق الهوان وبعد أن باع نفسه إلى أعلى سلطة في الإمبراطورية الرومانية، فإنه الآن يسلم ذاته لخدمة ملك أعظم من قيصر، وبدلاً من أن يعد فضته وذهبه بشراهة مما كان قد جمعه عن طريق الظلم، كان عليه الآن أن يختبر الثروة الروحية التي قدمها المعلم.

يا له من امتحان صعب أن يترك وظيفته المربحة، ويتبع يسوع دون أي احتمال أو وعد بدعم مادي! صحيح أن التلاميذ الآخرين قدموا تضحيات عند استسلامهم لمطالبه، ولكن من المرجح أن متى كان لديه المزيد من الثروة التي كان يتعين عليه أن يتخلى عنها أكثر من الباقين. كان لديه من قبل، وظيفة عامة، ومكتب، وحسابات، وأرباح، وربما عدد من الموظفين الخاضعين لإمرته. ومع ذلك فقد تخلى عن كل شيء، بسرعة باتخاذ القرار، وقوة الإرادة، ووضوح الرؤية، استجابة لدعوة المسيح مما وضع عليه خاتم النعمة، ومضى قدماً ليختبر أنه ليس صليباً أن يحمل صليب ذاك الذي جعله تلميذاً له. إن رد الفعل الفوري للدعوة الإلهية قد نتج عنه الميلاد الجديد لهذا الإنسان، وبرجاحة عقل لمسه المسيح، وقوة جسد أحياه، نهض متى تاركاً مكتبه واتجه نحو المعلم.

يذكر رتشارد چلوڤر، في تعليقه ذي الفائدة العظيمة عن متى، الكثير من الروائع المرتبطة بدعوة المعلم واستجابة العشار، هاك الإطار العام، والجدير بالتوضيح على يد الواعظ:

جدية الدعوة: إنها تدعو للتضحية بالثروة والوظيفة

والعادات، لأجل مستقبل مجهول وخطر.

الرحمة المتضمنة فيها: بما أنه لا يقبل أحد أن تكون له شركة مع عشار – ومع ذلك فإن يسوع قدم نفسه كالمخلص والصديق لخاطيء.

الوعد المتضمن: بدون المسيح، كان متى يعيش حياة كيفما اتفق. ولكن دعوة المسيح ليتبعه كانت وعداً بالخلاص، والشركة، والإرشاد، والحماية.

تأثيرها على التغيير: بالأمس، كان متى صديقاً للخطاة، واليوم فإنه تلميذ، وغداً، نبي الملكوت.

الكرامة المتضمنة فيها: شهدت الدعوة للطريقة التي أكرم بها يسوع خاطئاً ليصبح عاملاً معه، ورسولاً.

جوهرها: جوهر الدعوة «اتبعني» الخضوع لشخص، وليس لعقيدة فالطاعة للمسيح، والاعتراف به، والشركة معه كلها متضمنة في أمر المعلم.

نحن نقرأ أن متى نهض، وترك كل شيء، واتبع يسوع. وعندما سرد متى قصته، تجاهل تضحيته، وهكذا نلاحظ هذه الفوائد لطاعة الدعوة.

إن شجاعة وقوة قراره تعلمنا أن أشجع القرارات هي الطريق الأسهل.

حكمة القرار: أدى القرار إلى الخلاص، والسلام، والكرامة، لأن متى كتب إنجيلاً كان سبب بركة للملايين على مر العصور. ولو أن متى تراجع عن يسوع كما فعل الشاب الغني، كم كانت الكنيسة تخسر كثيراً! ولكنه أطاع. فهل أطعنا نحن؟! مازال المسيح بحاجة لأمثال متى، الذين ينهضون ويتركون كل شيء بمجرد سماع كلمة واحدة، على أساس أنها صادرة من قبل شخص يستطيع أن يبارك الحياة بركة عظيمة مهما كانت الظروف.

٤- المضيف الممتن

قبل أن يترك متى عائلته التقية ويتخلى عن المجمع، لابد أنه كان قد قرأ سفر المزامير عدة مرات واعتاد على النداء القائل: «ليقل مفديو الرب الذين فداهم من يد العدو» (٢:١٠٧). والآن بعد أن خلص متى من قوة عدوه، وتم فداؤه من جشعه وذنبه أراد أن يقول ويخبر بعمل الرب لأكبر عدد ممكن من الناس. وبعد أن اختبر فرح غفران خطاياه، حاول أن يخبر الآخرين عن الخبر السار، واختار طريقة مبتكرة ليفعل هكذا. بعد أن ترك متى وراءه شخصاً آخر يقوم بجمع الأموال بدلاً منه، رتب جابي الضرائب المتجدد وليمة على مستوى كبير وطلب من يسوع والتلاميذ وحشد كبير من جباة الضرائب من زملائه أن يأتوا. عبر متى بنفسه عن ذلك بالقول: «عشارون وخطاة كثيرون قد جاءوا واتكأوا مع يسوع وتلاميذه» (مت ٩:١٠). ويسرد لوقا تفاصيل أكثر فيقول: صنع له لاوي ضيافة كبيرة في بيته: والذين كانوا متكئين معهم كانوا جمعاً كثيراً من عشارين وآخرين» (لو ٥:٢٩).

إن العدد الكبير من أولئك الذين كانوا لا يزالون خارج دائرة المجتمع النبيل لم يجدوا صعوبة في قبول الدعوة لوليمة قدمها شخص كان واحداً منهم مدة طويلة من الزمن. لم يعط متى ظهره لأولئك الذين عملوا معه في خدمة روما. لقد أراد لهؤلاء الناس، الذين انحرفوا وضلوا عن جادة الصواب بسبب عملهم، أن يشاركوه فرحته، ويتبعوا معلمه، وقد بذل جهداً ليجعل من تلك المناسبة فرصة لا للبكاء، بل للفرح والامتنان. ولنا أن نتصور كيف أن متى أعطى يسوع مقعد الشرف على مائدته. اشترك يسوع بحماسة في الوليمة، لأنه عند دعوته للاوي، نهض وأصبح متى «رجل الله الحر. وبإيمانه الجديد، أراد متى أن يعترف بإيمانه وبرئيس هذا الإيمان في وجود الرجال الذين كان يعيش معهم، والذين كانوا يعرفون الجانب الأسوأ من حياته، والذين شاركهم مثلهم الدنيئة، وهو لم يكن خائفاً

في محضره يسوع.

شارك يسوع في خمس ولائم: في بيت سمعان الأبرص (مر١٤:٣)، وفي بيت فريسي عندما جاءت المرأة الخاطئة (لو ٧:٣٧)، وفي بيت فريسي آخر عندما تعجب أنه لم يغتسل قبل الغذاء (لو ١١:٣٨)، وفي بيت أحد رؤساء الفريسيين عندما لاحظ يسوع أن المدعوين اتخذوا المتكآت الأولى (يو ١٤:١)، وهنا في بيت متى. ومن بين جميع الولائم التي حضرها يسوع، ربما لم تكن هناك وليمة عزيزة على قلبه مثل تلك الوليمة في بيت متى، لأنه رأى أنها مقدمة من نفس شاكرة أرادت أن تخبر عن «أفراحها للجميع». وكانت الوليمة طريقة متى لإظهار أنه قد تخلى عن حياته القديمة، وأنه لم يخجل من الاعتراف بالشخص الذي صنع كل شيء جديداً. كان متى يتميز بروح تبشيرية حقيقية. وكانت هذه وليمة – وليست جنازة، استطاع متى وكل المدعوين أن يأكلوا، ويشربوا، ويفرحوا، لأن الضال قد وجد، والميت عاش ثانية. وإن المرء ليتساءل عن عدد الذين تركوا هذه المهنة واتبعوا يسوع من أصدقائه القدامي. هناك عدة جوانب في هذه الوليمة العظيمة تستحق أن نلفت الانتباه إليها:

١- أقيمت الوليمة في بيت متى الذي لابد أنه كان بيتاً كبيراً حتى يتسع لكل هذا العدد، وكل الموائد المقاعد الضرورية لمثل هذا الحشد. لم يكن هذا بيت رجل فقير. إن البيت ومظاهر البذخ في الإنفاق على الوليمة يشهد لحياة لاوي الذي كان ينعم بالرفاهية، ولكن لم يمض وقت طويل حتى عرف معنى مشاركة معلمه في الفقر وشظف العيش.

٢- كان المدعوون يمثلون تشكيلة غريبة. فقد كان كل العشارين والخطاة في المدينة هناك، ومن المرجح أن أقارب متى وأصدقاءه المتدينين القدامى قد حثهم أيضاً على الحضور، لأنه أراد الكل أن يلتقوا بالمخلص الذي يستطيع أن يفعل نفس الشيء، معهم، كما فعل معه. كانت هذه طريقته في تقديم يسوع لرفاقه القدامى والحاضرين الآخرين الذين كانوا بحاجة للخلاص في ذلك اليوم السعيد. سمعت نفوس منبوذة أخرى صوت يسوع وهو يقول: «تعالوا إليّ وأنا أريحكم». وكما عبر عن ذلك الدكتور ج. د. جونز: «سوف يعلن في ذلك اليوم العظيم أن هذه النفس وتلك وقد ولدتا هناك في بيت ووليمة متى».

٣- كانت هناك أصوات متنافرة. فبالأكل والشرب مع العشارين والخطاة، جعل يسوع نفسه عرضة لسوء السمعة، ولكنه تحدى تشهير أصحاب البر الذاتي. ومما أبهج متى العشار وكدر الفريسيين، أن يسوع جلس مع منبوذي المجتمع، وواجه التهمة التي تكونت أولا هنا، بأنه كان صديقاً للعشارين والخطاة. تذمر الكتبة والفريسيون ضد الوليمة. كان على هؤلاء المتدينين المرائين المحصورين في نطاق غرورهم وحقدهم المذهبي الضيق أن يعرفوا أن المسيح لم يأت ليدعو أبراراً، بل خطاة إلى التوبة.

كان حضوره في الوليمة إتماماً لرسالته بالذهاب إلى المنبوذين وتقديم هبة الصفح والغفران لهم. ولذا فإن يسوع واجه المشتكين عليه بحزم، متهماً إياهم بعدم معرفة الروح الحقيقية للرحمة الإلهي. اتهمهم يسوع بأنهم ينقصهم أبسط عناصر النعمة والتقوى، وأخبرهم بأن يذهبوا ويتعلموا رسالة هوشع «إني أريد رحمة لا ذبيحة».

تحمل يسوع الاتهام بسرور لأجل متى وأصدقائه، ولابد أن مثل هذا الموقف قد ينتج عنه تعزيز الحياة الروحية لمتى. تذمر الفريسيون – وهم دائماً يفعلون ذلك! «عندما يولد يسوع في عالم العشارين والخطاة، يتعجب الجميع. وعندما يسمح لهم بالتناول من مائدته المقدسة يتعجبون أكثر. وعندما يأخذ العشارين والخطاة، ويخلصهم بالنعمة، ليشتركوا معه في الوليمة السماوية. يتعجبون أكثر وأكثر».

٤- لم يكن الفريسيون لوحدهم هم الذين وبخوا يسوع. انزعج تلاميذ يوحنا المعمدان الغيورون أيضاً من حضور يسوع الوليمة. ربما كان من الطبيعي أن يتعجب أتباع «رسول البرية» الصارم عن سبب الوليمة بدلاً من الصوم. وبمقارنة الأناجيل يتضح أن الفريسيين، إذ كانوا يعلمون بشكوك تلاميذ المعمدان، أثاروهم ليوجهوا الأسئلة التي وجهوها (مت ٩:١٤،١٥، مر ٢:١٨، لو ٥:٣٣). ويلاحظ أنه لم يكن هناك توبيخ لتلاميذ يوحنا كما حدث بالنسبة للفريسيين بل تفسير رائع دافع فيه يسوع عن حرية تلاميذه. لقد أرسى يسوع قاعدتين:

أ- الفطرة مرشد جيد وشرعي في كل الأشياء البريئة وغير المضرة.

ب- في الديانة، يجب تجنب خلط العناصر غير المتجانسة (مت ٩:١٥-١٧).

لقد صدرت بعض من أثمن أقوال الرب في أثناء الوليمة، وهي أثمن من جواهر كثيرة الثمن. وخرجت من شفتيه الحقائق الغالية. وقد ساعدت هذه على جعل الوليمة التي أقامها متى ذكري لا تنسى. افحص ما كتب عن هذه الوليمة واعمل قائمة بالأقوال الثمينة ليسوع وسوف تجد أن اسمى هذه الأقوال ما أعلنه عن إرساليته: «لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى. لم آت لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة».

٥- الرسول المتواضع

تحلى متى بروح التواضع مما مكنه، حتى وهو رسول، ألا ينظر لذاته حباً في سيده. وفي سجله لأسماء الاثنى عشر رسولاً، يحرص متى أن يضيف إلى اسمه لقب - العشار - كتذكار لمديونيته للنعمة الإلهية (مت ١٠:٣). ولم يكن هناك ما يدعو لذكر هذه الحقيقة، التي لا تظهر في أي من القوائم الأخرى للرسل. وكما يذكرنا الدر كمنج: «كان هناك سبب لعدم ذكر أي شيء عن هذا اللقب، لأنه ينقص من كرامة الآخرين، بل ومن المعلم أيضاً، أن يكون واحد من خدام روما غير المحبوبين واحداً من رسله». ولكنها كانت سمة مميزة لروح متى الحقيقية والأمينة أنه أضاف سجل ماضيه غير المشرف إلى اسمه: لم يكن يريد أبدا للحقيقة القائلة أنه كان خاطئاً أن تنسى أو تتوارى. كان يمنعه من الكبرياء أن يتذكر كل ما كان عليه قبل لقائه مع المسيح. ألا تشعر بالامتنان لأن اسم شخص كان خاطئاً ومذنباً من قبل موجود بين الاثنى عشر؟ وبالإضافة إلى ذلك فهو يقدم مثالاً باهراً على التواضع بالأسلوب الذي يصف به تركه لكل الامتيازات العالمية. «وفيما يسوع مجتاز من هناك رأى إنساناً جالساً عند مكان الجباية اسمه متى. فقال له اتبعني فقام وتبعه» (مت ٩:٩). هذا الأسلوب في التقديم يوحي لنا بأن نصلي طالبين نعمة لكي نترك، كما فعل متى، كل الرغبات الدالة على الطمع، والحب المغالى فيه للثروة، وأن يكون لدينا الرغبة لاتباع الرب. هناك سمة خاصة بكُتَّاب الأناجيل وهي صمتهم إزاء التفاصيل الكثيرة المتعلقة بتاريخهم لشخصي «إنهم لا يبررون أنفسهم في كل ما كتبوه. فلم يكن هدفهم أنفسهم، بل المسيح يسوع ربهم. يذكرنا الدكتور وليم كيف William Cave في كتابه عن «الرسل» أنه يبدو أن التواضع كان الفضيلة اللافتة للنظر في حياة متى. كان «شخصاً عادياً ذا مواهب متواضعة في تقديره الشخصي، مقدماً الآخرين في الكرامة قبل نفسه. فبينما يضعه البشيرون الآخرون قبل توما، عند ذكر الرسل اثنين اثنين، فإن متى يذكره قبل نفسه باتضاع».

يذكر متى القليل عن تجاربه بين التلاميذ الآخرين. ونحن لا نعرف إن كانت ذكرى حياته السابقة هي التي أعاقته عن ذلك، أم أن خجلاً طبيعياً منعه من ذكر الكثير عن نفسه. الشيء المؤكد أنه كان يضع المسيح في المرتبة

الأولى في إنجيله. كان متى شأنه شأن بقية البشيرين مترفعاً بنبل عن التفكير في نفسه وهو يكتب. يقول جرينهوف: «لا يوجد كتاب آخرون قد عرفهم العالم تغاضوا تماماً عن أنفسهم وأخفوها في الموضوع الذي يكتبون عنه مثل هؤلاء الرجال». كان متى أكثر من الباقين، يضع شخصه وأفكاره في المؤخرة، دون أن يخبرنا شيئاً، عن طريق مباشر أو غير مباشر، عن نفسه. لقد أراد تمجيد الشخص الذي عمل الكثير لأجله. ويمكن تلخيص طموحاته في السطور الآتية.

لا أنا، بل المسيح، يكرم، ويُحَب، ويتمجد.

لا أنا، بل المسيح، يرى، ويعرف، ويسمع.

لا أنا بل المسيح، في كل نظرة وفعل.

لا أنا، بل المسيح، في كل فكر وكلمة.

٦- الكاتب الموهوب

في اختياره لمتى لدينا دليل كاف على التمييز بعيد النظر للمسيح الذي كان يعرف ما في الإنسان، فعند رؤيته لجابي الضرائب جالساً أمام مكتبه، استطاع أن يرى المواهب الأدبية لهذا الرجل، الذي حتى وإن لم يكن شهيراً وقتئذ، إلا أنه رأى أنه سوف يسدي خدمة لا تقدر لدعواه. ومع أنه لا يوجد لدينا ما يدل على أن المسيح أمر بكتابة أي رسالة من رسائله، إلا أن جانباً من جوانب حكمته الإلهية ظهر في اختياره لأولئك الذين يستطيعون أن يدونوا كل ما قاله وفعله بعناية، ثم أنه بإلهام الروح القدس، ذكرهم بكل شيء، ليكتبوا ويحفظوا بسجل دقيق لكل ما قاله وعمله المعلم، وهكذا ففي اختياره لمتى كرسول، فقد ضمَّن مؤرخاً متميزاً.

نظراً لأن متى كان مدرباً على وسائل منظمة، وموهوباً بقلمه فيما يتعلق بحرفته القديمة، كان عليه أن يتعلم كيف سيكرس ربه تلك المواهب من أجل استخدام أسمى. من الشائق جداً أن نعرف الوقت الذي وصلت فيه أول إشارة لمتى للاستخدام الإلهي لقلمه. نحن نتساءل، هل رأى متى لوقا يدون ملاحظات يوماً ما، وبعد أن عرف أن الطبيب كان ينوي أن يكتب إنجيلاً، قرر هو الآخر أن يفعل نفس الشيء؟ يقول الدكتور الكسندر وايت في كتابه الرائع «شخصيات الكتاب المقدس» إنه «عندما نهض متى وترك كل شيء وتبع ربنا، فالشيء الوحيد الذي أخذه منه من بقايا حرفته القديمة كان قلمه والمداد». كم نحن مدينون أنه أخذ قلمه ومداده ليكتب للأجيال الإنجيل المجيد الذي يحمل اسمه! بعد قصة الوليمة العظيمة التي عملها متى، اختفى من التاريخ، ولكنه يواصل المعيشة في الإنجيل الذي يكتبه ليعزي ويسعد نفوس البشر.

وسواء كتب متى روايته عن المسيح. وكشف عن مجده كملك إسرائيل، عن طريق الملاحظة أو الحدس، بالوحي أو الأمر، فهناك حقيقة مؤكدة: وهي أنه لم يكن يحلم، حين قام تاركاً مهمة جمع الضرائب، بالمهمة التي سوف يكلفه بها المعلم في الأيام التالية. قد لا يكون لنا امتياز كتابة إنجيل عن الملك، ولكن يمكننا أن نعيش ونعمل لأجله، وأن نسمح له بتحرير قوانا غير المدرَّبة بداخلنا، ونكرِّسها لغرض مقدس، يمكننا أن نصبح رسائل المسيح المكتوبة لا بحبر، بل بروح الله الحي، ونضيء كأنوار في العالم (٢كو ٣:٣).

لقد استخدم الله قلم متى المكرس إذن ليكتب أول إنجيل في كتبنا المقدسة والمشار إليه بأنه «أهم كتاب في الديانة المسيحية» و «أهم كتاب قد كُتب». ونظراً لأنه كتب حوالي ٧٠م، فإن متى لبى احتياج الكنيسة الأولى لسجل عن حياة وتعاليم المسيح، كانت الكنائس تتكاثر وكان الرسل يموتون، ولذلك فقد اضطر شهود العيان لكل ما عمله المسيح أن يتذكروا الماضي. وبالمناسبة، دعنا نسجل أنه على الرغم أن متى، بسبب تضامنه مع الحكومة

الرومانية، كان من الناحية العملية منبوذاً اجتماعياً من وجهة نظر اليهود، إلا أنه لابد أنه كان قد حصل على قدر كبير من التعليم حتى يعمل مع كل من الرومان واليهود كما فعل حين كان جابياً للضرائب. إن ماضيه المجهول لا يوحي بأي حال من الأحوال بأنه لم يكن مهذباً أو متعلماً. لابد أنه كان على دراية باللغتين الآرامية واليونانية. كتب متى إنجيله باليونانية، مع أن اللغة الآرامية كانت اللغة الشائعة في ذلك الوقت.

كُتب إنجيل متى بصفة خاصة إلى يهود اليهودية، غالباً ما كانوا واقعين تحت ضغوط الألم الرهيب الذي عانت منه أورشليم مؤخراً على يد تيطس في ٧٠سنةم. يعد هذا الإنجيل حلقة الوصل بين العهدين القديم والجديد، وتثبت أول عبارة فيه أن الكاتب كان ملماً إلماماً جيداً بالشخصية، والديانة، والآمال اليهودية وأنه شرع في تزكية المسيح وتقديمه إلى اليهودية. جاء المسيح كابن داود، وكان وارثاً للملكوت، جاء كابن ابراهيم، وكان وارثاً للبركة. أثرت هذه الحقائق على متى في انتقائه لمادة إنجيله، الذي يحتوى على قدر كبير من الخصائص العبرية، مما جعله «الرواق العبري للعهد الجديد».

يجمع التقليد على تأكيد أن الإنجيل كان لليهود، حيث أن ظاهرة وباطنه يثبتان ذلك.

قال عنه إيريناوس: «لقد أصدر متى إنجيلاً مكتوباً بين العبرانيين.. لقد كتب إنجيل متى لليهود».

وقال أوريجانوس: «كتب القديس متى للعبرانيين».

واعتقد يوسابيوس أيضاً أن «متى سلم إنجيله لبني وطنه».

من بين الأناجيل الأربعة، يعد إنجيل متى الإنجيل اليهودي الوحيد، الذي كتبه يهودي لأخوته اليهود، وهو يكشف كيف أنه كان مستغرقاً في الفكر اليهودي للعهد القديم. كان يعتقد أن مسيح التاريخ هو مسيح النبوات. وبالإضافة إلى ذلك، فإن إنجيله جليلي، ويركز على الأعمال التي قام بها المسيح في الجليل. يقتبس متى وحده الوعد العظيم الذي ذكره إشعياء: «... جليل الأمم الشعب السالك في الظلمة أبصر نوراً عظيماً، الجالسون في أرض ظلال الموت أشرق عليهم نور» (إش ٩:١، ٢، مت ٤:١٥، ١٦).

ولأجل تغطية لكل جزء من أجزاء الإنجيل، نشير على القاريء بالرجوع إلى القسم الرائع من كتاب الدكتور جراهام سكروجي «مرشد إلى الأناجيل» والذي يتعامل مع إنجيل متى. كل ما يمكننا عمله بالنسبة للصورة التي تقدمها للرسول أن نتحدث باختصار عن جانب أو جانبين من إنجيله. يتميز هذا الإنجيل بأنه إنجيل الأحاديث، وأنماط من التاريخ، والشريعة، والعبادة، والنبوة، والملكوت. تبرز فكرة الثواب والعقاب في كل جنبات هذا الإنجيل. ويمكننا أن نسميه «الملك والملكوت» وبالإضافة إلى ذلك، يتسم متى بسمات محبة الحق، والحس المرهف تجاه رحمة الله وبؤس الإنسان. وقد كان شاهد عيان للأحداث التي وصفها، وشاهد عيان على الأحاديث التي سجلها. ولذلك فإن متى يعظم الرب. من بين الـ ١٠٧١ عدداً المكونة لهذا الإنجيل كما لدينا في طبعة الـ A.V، هناك ٦٤٤ عدداً (أو أكثر من ثلاثة أخماس الإنجيل ككل) تحتوي على كلمات ربنا، وبما أن أشياء كثيرة في هذا الإنجيل ليست موجودة في الأناجيل الثلاثة الأخرى، فقد كنا سنفقد الشيء الكثير لو أن متى لم يكتب إنجيله، أو لو كان قد فقد.

الكلمة الرئيسية في إنجيل متى هي «البر» والكلمتان «بار» أو «البر» تردان ١٦ مرة في الإنجيل فقد جاء المسيح ليتمم كل البر (٣:١٥، ٥:١٧)، أي ليتمم كل مطاليب الناموس والأنبياء. لقد كان ربنا التجسيد الحي لكل فكرة وكل مطلب في الناموس قديماً. وإذا نظرنا إلى الإنجيل

ككل، إذن، نجد أن متى قدم صورة المسيا كما رآها – المسيا الذي جاء ليبارك كل العالم من خلال «الشعب المختار» المسيا الذي يحقق رجاء العالم، وهكذا فإن إنجيل متى يمكن أن ينقسم إلى ثلاثة أجزاء :

١- الأيام الأولى للمسيا (الأصحاحات ١-٤:١٦).

٢- آيات وأعمال المسيا (الأصحاحات ٤:١٧-١٦:٢٠).

٣- آلام المسيا (الأصحاحات ١٦:٢١-٢٨:٢٠).

نقول في الختام، إن متى سوف يظل دائماً وأبداً ملهماً لنا، في كل وقت نقرأ فيه إنجيله. إن حياته المتجددة تذكار لمنبوذي المجتمع اليوم بأنه يمكنهم أيضاً أن يختبروا قوة المسيح على تغيير مجرى الحياة الفاسد. إذن فالرسول كتب كل ما كتبه عن المخلص حتى يختبر قراؤه في حياتهم قوته القادرة على جعلهم تلاميذ نخبر له. تلك هي الخصائص التي ينفرد بها هذا الإنجيل والتي لا يجب أن تغيب عن أذهاننا، وإذ لم نستطع أن نخبر بكل شيء عن المسيح، يمكننا أن نخبز بكل ما رأيناه واختبرناه عن نعمته، وتمثيلنا له في الحياة وشهادتنا له سوف يكونان نبراساً وهداية للآخرين الذين ضلوا الطريق. ليت حياتك وحياتي تقدمان صورة أمينة للملك، كما يفعل إنجيل متى.

يعقوب بن حلفي
الرسول الذي قدم خدمة غامضة

تذكرنا ترنيمة حديثة بأن الناس «سوف يتذكروننا فقط لأجل ما فعلناه». وها هنا رسول يتذكره الناس فقط باسمه، لأنه ليست لدينا كلمة واحدة في العهد الجديد يمكن الاستناد إليها بشأن نوع الحياة التي عاشها أو الخدمة التي قدمها. ولكن بالنسبة إلى يسوع، فيعقوب هذا كان أكبر من اسم، لأنه إذ كان يعرف كل ما يزكيه فقد أدرجه في قائمة الاثنى عشر الذين اختارهم ليعمل معهم، ثم يذهب إلى العالم ليكرز ويعلم الحق الذي تلقاه فيه.

الاسم James يعقوب الذي نجد أصله في الاسم Ja-cob، كان اسماً شائعاً ومفضلاً في عصر يسوع، ولذلك فهو اسم مستخدم عدة مرات في العهد الجديد. ولذلك من الضروروي أن نفرق بين مختلف الرجال المعروفين بهذا الاسم.

١- يعقوب بن زبدي، أخو الرسول يوحنا، وقد كان الشهيد الثاني في الإيمان، حيث استفانوس أول شهيد.

٢- يعقوب أخو ربنا، ولم يكن هذا ضمن زمرة الرسل ولم يكن تلميذاً حتى وقت متأخر.

٣- يعقوب، أبو يهوذا ليس الإسخريوطي ولم يكن قريباً ليسوع، لقد كان يهوذا الذي احتفظ بولائه.

٤- يعقوب بن حلفي. يقول التقليد إنه كان جابياً للضرائب. كان أخاً لمتى الذي وصف أيضاً بأنه ابن حلفى، نالت هذه العائلة شرف أن يكون لديها ابنان أصبحا رسولين. وهذا هو يعقوب الذي نحن بصدده.

١- نسبه

ثار جدل كبير فيما يتعلق بيعقوب الذي نحن بصدده الآن: هل هو أخو ربنا وكاتب رسالة يعقوب أم لا. يقول الرأي المحافظ انه لا يوجد أساس لحقيقة هذا الادعاء فهو لا يمكن أن يكون واحداً من أخوة الرب، لأن الكتاب المقدس يقرر بوضوح أن «إخوة يسوع لم يؤمنوا به». وكلما ذكر إخوة يسوع فقد ذكروا كأشخاص متميزين ومنفصلين عن الرسل. نحن لا نعرف شيئاً مطلقاً عن يعقوب بن حلفى، سوى اسمه. قد يكون ابن خالة يسوع لأن أمه يتم الحديث عنها كأخت لأم ربنا (يو ١٩:٢٥) ولكن هذه الفقرة يمكن أن تحمل تفسيراً آخر. كل ما نعرفه عن هذا الرجل هو اسمه واسم أبيه – حلفى الذي يرد اسمه ايضاً باسم «كلوبا» ومن المرجح أنه «يعقوب الصغير» الذي يشير إليه مرقس، والذي يجب أن يكون «يعقوب قليل الجسم» على أساس قصر قامته (وهي سمة يشترك فيها مع زكا) وللتفريق بينه وبين يعقوب بن زبدي. ويُذكر بين الاثنى عشر المختارين قبل تحول يسوع عن أقربائه وأنسبائه. لذلك لا نعتقد أن يعقوب بن حلفى، كان أخاً لربنا، ولم يكن أخا

ليعقوب الذي يذكره بولس، ولا الشخص الذي رأس كنيسة أورشليم في وقت انعقاد المجمع الرسولي هناك. وهو لا يذكر على انفراد في الكتاب المقدس، ولكن يذكر فقط ضمن قائمة أسماء الرسل.

٢- رسوليته

مع أنه لا تذكر حادثة واحدة عن ابن حلفي هذا، فلا كلمة قالها، أو عمل واحد قام به قد سجل عنه، ومع ذلك فإن اسمه محفوظ لنا كشخص قد اختير ليكون رسولاً من قبل ربنا بعد ليلة من الصلاة. لابد أن هناك شيئاً ما يتعلق بيعقوب حفز يسوع ليضمه بين الاثنى عشر، الذين أرسلوا جميعاً ليكرزوا بالإنجيل ويعلموه، ويشفوا المرضى ويطردوا الشياطين. عندما اعترف يسوع إلى الآب، في صلاته الشفاعية، قائلاً «الذين أعطيتني حفظتهم». كان يفكر في يعقوب، كما في الباقين الذين اختارهم ليكونوا في صحبته. لاشك أنه علم أن هذا التلميذ يمكن الاعتماد عليه ليقدم خدمة أمينة حتى وإن لم يسمع بها أحد. والأيام التي قضاها يعقوب مع يسوع، جاءت ومضت حتى مات يسوع، وهكذا حدث بالنسبة للأيام التالية لصعوده. عاش يعقوب ومات، واختفى من مسرح الأحداث دون أي أثر له وفقاً للسجل المقدس. ويمكننا أن نتخيل أن ما نقص من قامة «يعقوب الصغير» قد عوضه في الخدمة، وذلك أنه على الرغم من كونه تلميذاً يشغل الكواليس الخلفية، إلا أنه لم يتسبب أبداً في مضايقة المعلم عن طريق الارتداد، والشك، أو سوء الفهم.

ربما اعتبره يسوع كرسول، ممثلاً لقائمة طويلة من التلاميذ الذين لا يوجد لدينا أي سجل عنهم، والذين لم يكن العالم مستحقاً لهم، والذين لن تذكر أسماؤهم مقرونة بخلاف خدمتهم الهادئة والأمينة وغير المعروفة في كنيسته. في ضوء هذه الحكمة والمحبة والبصيرة التي أفسحت مكاناً ليعقوب هذا، نعلم أن الذي عين الاثني عشر لديه متسع للأغلبية العظمى الذين لديهم وزنة واحدة فقط. إن بعض أعظم القوى في الطبيعة صامتة وغير مرئية.

٣- عدم شهرته

الصفة المميزة ليعقوب، ابن حلفى. هي عدم شهرته التي كان قانعاً بها، لم يكن يبحث عن الشهرة. والتلمذة في الظل هي ما أراده الرب له، وقد كان سعيداً وقانعاً بذلك، كانت ميزته أنه كان يذهب حيثما كان يرسله يسوع، وأنه جاهد الجهاد الحسن، وأكمل سعيه، وحفظ الإيمان، دون أي تفكير في الحصول على المديح والاستحسان من بشر. إن اسمه فقط منقوش على صفحات تاريخ الإنجيل، ولكن حياته وأعماله يلفها الغموض. إن الحياة الفردية لبعض الناس رائعة، ولافتة للنظر، تترك آثاراً أو انطباعاً لا يمحى على الآخرين. ولكن معظمنا أناس عاديون، لا نمتلك مواهب أو قوى خارقة. نحن أناس عاديون وبسطاء غير لافتين للانظار، ونعد نماذج للوسطية. ومع ذلك فالسمة المعتادة لمحدوديتنا لا يجب أن تجعلنا غير مبالين فيما يتعلق بأن نحيا حياتنا بالتمام في المجال المحدود الذي نعمل فيه. فكثير من الأعمال التي يكون العالم في أمس احتياج إليها والتي تعد سبب بركة له يؤديها أولئك الذين لا يعرف العالم عنهم شيئاً.

لم يفعل ابن حلفي شيئاً فريداً، ولم يفعل شيئاً يعتقد العالم أنه بحاجة إلى التسجيل. فإن لم يكن قادراً على عمل شيء عظيم، فلم يتوقع منه أحد شيئاً عظيماً، ولكن يسوع توقع من يعقوب كرسول أن يعيش كأفضل ما يكون – ونحن نشعر أنه فعل كذلك. لقد وضع بطرس خاتم شخصيته ورسالته على الكنيسة المسيحية الأولى. وترك بولس أثراً لا يمحى على لاهوت الكنيسة. وترك يوحنا رسول المحبة طابعه الشخصي على الحياة المسيحية. ولكن

يعقوب، لم يترك سوى اسمه.

فالصمت الذي يلفه مازال قائماً والمعلم الذي اختاره كواحد من أصدقائه يريدنا ألا ننسى أن نكون أمناء على القليل. قد يكون شيئاً شاقاً وكئيباً أن ندفن بذارنا ونجعلها غير مرئية في أعماق التربة، ونفس الشيء يحدث بالنسبة للحاصد حين لا يعرف حتى اسم الزارع.

إن الخدمة الأمينة الصابرة، والمتواضعة قد تمضي دون أن يسجلها أو يلاحظها البشر، ولكن أمانة القلوب الشجاعة المخلصة لا يمكن أن ينساها ذاك الذي يهتم بالعصفور الصغير. إن قديسي وأبطال الأرض غير المعروفين جمهور كبير. إنهم يبذلون كل ما في وسعهم، حتى وإن لم يلحظهم الآخرون أبداً، وهذا هو الانتصار والإنجاز النهائي لأمانتهم.

يصف ج.ب جونز زيارة قام بها لكاتدرائية لنكولن بصحبة قائد جوقة المرتلين في ذلك الوقت، تحدث الرجل بكل حماس إلى الدكتور جونز عن البرجين اللذين يزينان الواجهة الغربية من ذلك الصرح الرائع. وأشار إلى نواحي الجمال في المعمار والثراء والبذخ الظاهرين في تنفيذ تصميمات هذين البرجين. ثم أضاف بهدوء: «ولا أحد يعرف من بناهما». ولذا فإن بعضاً من أجمل الأعمال في الكاتدرائية قام به حِرَفي غير معروف كان أميناً في عمله، وقانعاً على الرغم أنه يعلم أن الناس سوف ينسونه، ولكن عمله باق، تحفة فنية جميلة ومصدر فرح دائم. يدعوننا هذا لنتذكر المرسلين في الأماكن المعزولة، ومعلمي مدارس الأحد، والعاملين في الأحياء القذرة بالمدن، وزوَّار المرضى الذين يشعرون بالوحدة والمحتاجين، والقانعين بالأماكن الوعرة والمحتقرة. إنهم يعلمون أن أسماءهم لن تدوَّن في سجلات التاريخ، ولكنهم يبذلون قصاري جهدهم لسيدهم والعالم الذي أحبه حتى أنه مات لأجله. إنهم يثقون أن شخصاً ما سوف يكتب هذه الكتابة فوق شاهد قبورهم: «لقد بذل كل ما في وسعه» وهي كلمة تأبين يستحقها يعقوب بحق.

٤- مكافأته

على الرغم أن أعمال يعقوب لم تدوَّن، إلا أنها لن تمضي هكذا بلا مكافأة. قد لا تعطينا الأناجيل سوى اسمه. ولكن اسمه يعيش إلى الأبد محفوراً على واحد من أساسات المدينة المقدسة، حيث أنه واحد من «رسل الخروف الاثنى عشر» (رؤ ٢١:١٤).

عند كرسي الدينونة، فإن كلمة السيد «نعماً» سوف تكون من نصيب المغمورين والمعروفين على السواء. يعقد بولس مقارنة صارخة بين حالة القديسين هنا وفي السماء. «كمجهولين» (طبقاً لسجلات الأرض) ونحن معروفون (في أسفار السماء) (٢كو ٦:٩). فالأمانة سوف تكون أساس المكافأة في الأبدية (رؤ ٢:١٠). والديان سوف يكافئنا لا على شهرتنا، بل على أمانتنا، فالجهد الدؤوب المخلص المبذول بحب وغير المرئي لا يتم تجاهله أو نسيانه في السماء، والحياة المجيدة الحلوة حتى وإن كانت مغمورة قد لا يراها البشر، ولكنها مرئية دائماً من ذاك الذي لا يخفي عليه شيء.

فيما يتعلق بصمت الكتاب المقدس عن حياة وأعمال يعقوب وآخرين، يقول الكسندر ماكلارن: «على أي حال فالرسل لم يكونوا العاملين الحقيقيين في الكنيسة، بل المسيح ولو أن الرسل كانوا فائقي الأهمية لتوفر لدينا سجلات دقيقة ومفصلة بكل ما قاموا به من أعمال. ولكن ما ذُكر حتى عن بعض التلاميذ الأكثر شهرة قليل نسبياً. وقد أطبِق الصمت على الآخرين، والسبب في ذلك يكمن في إصرار الكتاب المقدس على تركيز الانتباه على الشخص الكلي الأهمية، الرب يسوع المسيح.

لست أنا، بل المسيح، هو الذي له كل الإكرام والحب والتمجيد

لست أنا، بل المسيح، هو الذي يرى، ويعرف، ويسمع
لست أنا، بل المسيح، في كل نظرة وفعل
لست أنا، بل المسيح، في كل فكرة وكلمة
المسيح، والمسيح وحده، سوف يشبعني مرآه
سوف أرى المجد الفائق، سوف أراه قريباً
المسيح، والمسيح وحده، سوف يحقق كل أمنية
المسيح، والمسيح وحده، هو الكل في الكل لي

جميعنا قرأنا عن ليوناردو دافنشي الفنان العظيم الذي رسم صورة العشاء الأخير، والذي عندما أكمل الصورة، دعا أصدقاءه لتأملها، وبعد النظر إليها بعض الوقت أبدى أحد أفراد المجموعة ملاحظة قائلاً: كم جميلة تلك الأكواب الموضوعة على المائدة.

عندئذ عقدت الدهشة لسان هذا الصديق، عندما أخذ الفنان على الفور فرشاته وطمس الأكواب قائلاً «أريد أن ينظر الناس إلى المسيح». ونحن لا يسعنا سوى أن نشعر أن تلك هي المشاعر الفياضة دائماً وأبداً ليعقوب بن حلفي. فقد أراد أن يكون معلمه هو الكل في الكل، ولذا فقد ماتت الذات بداخله.

منذ اللحظة التي التقى فيها يعقوب مع المسيح وأصبح رسوله، وجد نفسه مشدوداً لمركبة معلمه، وكعبد لحبه، عاش لمجده فقط، ومات دون ترك أي سجل عن نفسه. ولكن في السماء، فهو يحيا ثانية، وسوف يسطع كالنجوم إلى الأبد. سوف يكون الاعتراف به كاملاً وينال مكافأة غير منقوصة في الموضع الذي يقال عنه «وعبيده يخدمونه وهم سينظرون وجهة واسمه على جباههم» (رؤ ٢٢:٣،٤).

وبمعنى آخر فإن يعقوب وجد المكافأة في الخدمة ذاتها مع أن الخدمة قد بذلت لأجل الخدمة. ومع أنه كان مدركاً أن المهام الملقاة على عاتقه متواضعة ومغمورة، إلا أنه قام بأدائها بأمانة وباجتهاد. فإن يحصل على ثقة معلمه فيه فهذه ليست مكافأة هينة.

ومع ذلك فالمكافأة الكاملة من نصيبه الآن، لأن كل خدمة مجهولة هنا على الأرض سوف يعترف بها في السماء. فقد خلع معلم يعقوب ثيابه وأخذ منشفة واتزر بها ليقوم بخدمة حقيرة وغير لامعة. ونفور سيده من كل محاولة لجذب الأضواء على النفس قد أثر تأثيراً كبيراً على تابعه المتواضع، مما ألهمه أن يخدم في ضوء الأبدية حيث «سيجازي (الله) كل واحد حسب أعماله» (رو ٢:٦).

يعقوب بن زبدي
الرسول الذي لُقِّب بالكبير

يأتي هذا الرسول قبل الرسول الآخر الذي يحمل نفس الاسم والذي تأملنا فيه للتو. في كل القوائم الأربع، فإن يعقوب، بن زبدي، يذكر دائماً بين الثلاثة المذكورين أولاً. والإشارة له تأتي مجزأة «إن أدوات دراسة شخصيته نادرة، وعلينا أن نستند إلى معرفتنا بالإنسانية عموماً لرسم صورة لأول شهيد رسولي في الإيمان المسيحي». ربما لا يعاني رسول آخر من فترات الصمت في حياته أكثر من يعقوب. فلو أن الأناجيل أعطتنا قصة شاملة لحياته لحصلنا على سجل رائع لهذا الرسول الملقب «ابن الرعد» ومع أنه كان واحداً من الأصدقاء المقربين من المسيح، ففي حالات نادرة فقط نرى يعقوب يقوم بدور بارز واضح المعالم حتى يطيح نصل السيف بحياته في ومضة من الصمت البليغ.

يقول دانيل ماكلين: «إنه يمر أمامنا على شكل ظل صورة وليس كصورة فوتوغرافية، والإطار الخارجي للصورة واضح بالدرجة الكافية التي تجعل هويته في الصورة المرسومة واضحة المعالم بحيث يمكن التعرف عليها، ولكن ليس بالتفاصيل الكافية التي تجعلنا قادرين على إدراك قسمات الوجه التي تعبر عن الشخصية بوضوح». يخبرنا يوحنا، أخو يعقوب، في ملحوظة إضافية ملحقة بإنجيله أنه لو أن كل أعمال يسوع، وكل ما يرتبط به قد كتب بالكامل، فإن العالم نفسه لن يسع الكتب المدون بها هذه الحقائق والتفاصيل (٢٥:٢١). دعنا نحاول أن نستجمع معاً الإشارات التي لدينا عن تاريخ هذا التلميذ الذي ختم الإنجيل بدم قلبه.

١- اسمه

كما سبق أن ذكرنا في الجزء الخاص بسميه «فإن الاسم يعقوب James، يرجع لـ يعقوب (Jacob) الجد العبراني، وهو لا يزال اسماً شائعاً لدي اليهود. فتحول Jago في أسبانيا وJacques في فرنسا وعاد للظهور في عمل أدبي إنجليزي بعنوان حروب وأغاني Jacobite اتخذ الاسم أشكالاً متقاربة من اللفظ يعقوب في الأقطار الغربية. واتخذ الاسم مستقراً له في بريطانيا في القرن الثاني عشر، عندما بدأ الحجاج يزورون ضريح القديس يعقوب بن زبدي، في كومبوستيلا بأسبانيا. في ذلك الوقت كان الاسم أكثر شيوعاً في اسكتلندا. ومع ارتقاء جيمس ستيوارت للعرش كأول ملك على كل من انجلترا واسكتلندا، بدأ الاسم يزداد شعبية في انجلترا، في القرن السابع عشر. ولكن خلال القرن التاسع عشر، أصبح الاسم عتيق الطراز،

عندما أُستخدِم كاصطلاح عام للدلالة علي من يقوم بالخدمة. أما الآن فإنه أكثر شيوعاً من أي وقت مضى.

٢- عائلته

كان يعقوب ابناً لوالدين تقيين، زبدي وسالومة، اللذين كانا يعيشان على شاطىء بحر الجليل، مكرسين كدهما وتقواهما ومعلمين لولديهما باذلين جهداً أميناً ليتصفا بالرجولة الحقة. من المرجح أن زبدي هو نفس الرجل الذي يذكره اليهود في تلمودهم تحت اسم «المعلم يعقوب بن زبدي» وكانت أمه المسماة مريم، تلقب باسم سالومة، والتي كانت على الأرجح قريبة لمريم، أم ربنا. وطبقاً للتقاليد اليهودية كان يطلق على الأقارب المقربين أسماء الأخوة والأخوات. وهكذا فإن يعقوب قد يكون من الأقارب المقربين ليسوع نفسه (مت ٢٧:٥٦، مر ١٥:٤٠، يو ١٩:٢٥).

يقول بعض المفسرين إن سالومة كانت أختاً لمريم العذراء، فإن كان الأمر كذلك، فيمكننا أن نفهم محاولتها أن تضمن لولديها، موقع الصدارة في ملكوت المسيح. يقول المثل: «الدم أكثر كثافة من الماء». وحيث أن يعقوب ويوحنا كانا ابني خالته فأنهما أولى من غيرهما بالحصول على مركزين متقدمين في الملكوت. ولكن بغض النظر عن هذه الرغبة الطموحة، فإن لسالومة شخصية يُعتدى بها. فنحن نجد العديد من الدلائل على صلتها الشخصية بالمعلم واحترامها له. لقد كانت تؤمن تماماً بملكوته الآتي (مت ٢٠:٢٠).

ونظراً لولعها بابنيها، فقد أظهرت رغبة عميقة لصالحهما، ولكن إيمانها بمستقبل المعلم نفسه كان راسخاً، وكان لديها إيمان كذلك بقوته على العطاء وتقديم العون، كانت واحدة من النساء اللواتي خدمنه من أموالهن، واتبعنه في رحلته الأخيرة إلى أورشليم. وفي أحلك ساعات تجربته، «كانت عند الصليب»، كواحدة من النساء المتعاطفات معه والباكيات، واللواتي شهدن آلامه النهائية. وقد جاءت أيضاً لتدهن جسده في صباح يوم القيامة (مر ١٥:٤٠، ١٦:١). كانت سالومة امرأة جريئة، ومخلصة، وعلى استعداد، كولديها، أن تسلم كل شيء للمسيح. ونحن نكرمها كالأم الجديرة بالاحترام لولدين جديرين بالاحترام، يعقوب ويوحنا، وهي شريكة لهما في إخلاصهما. وبما أن الأناجيل عادة تضع اسم يعقوب قبل اسم يوحنا، وتشير إلى الأخير بالقول «أخو يعقوب» فيُستنتج أن يعقوب كان الآخ الأكبر (مت ٤:٢١، مر ١:١٩، لو ٥:١٠).

أما عن زبدي، زوج سالومة، وأبو يعقوب ويوحنا، فهو لا يظهر سوى في قصة الإنجيل في المناسبة التي تركه فيها ولداه ليتبعا يسوع. فإما أنه مات بعد أن تتلمذ ولداه بوقت قصير، أو وهو الأرجح، فإنه كيهودي تقليدي، لم يشاركهما الإيمان بيسوع، كما أنه لم يوافق على التلمذة التي اختاراها.

ربما كان يسوع يشير إلى زبدي ومقاومته له عندما تحدث عن ترك الأم والأب لأجله (مت ١٠:٣٧، ١٩:٢٩)، كان الأمر مختلفاً بالنسبة لسالومة، فقد كانت من أوائل الذين آمنوا بيسوع، وكانت متفقة مع ولديها في قرار اتباعهما له وكما فعل ابناها، فقد سلمت كل شيء للمسيح.

٣- حرفته

من التقاليد اليهودية أن يمتهن الأبناء نفس مهنة الآب، كما حدث بالنسبة ليسوع حين أصبح نجاراً كما كان يوسف، أبوه بالتنشئة. كان زبدي صياداً للسمك على بحر الجليل ومن الواضح أنه كان رجلاً ذا مركز اجتماعي مرموق كما نفهم من حقيقة أنه كان قد استأجر خداماً ليساعدوه في مهنته الخاصة بصيد السمك (مر ١:٢٠). ثم أن هناك حقيقة أنه كان يمتلك منزلاً في أورشليم وكان يعرف عنه أنه كان صديقاً لرئيس الكهنة، قيافا، وأهل بيته،

ومن الواضح أن زبدي كان معتاداً على زيارة بيت رئيس الكهنة (يو ١٨:١٥-١٦).

امتهن يعقوب ويوحنا مهنة والدهما الذي لم يترك إدارة حرفته تماماً لولديه أو خدمه. فنحن نراه يصلح شباكه مما يوضح سر نجاحه: كان يقوم بالإشراف بنفسه على أدوات الصيد لكي تكون في حالة جيدة، وكانت كثرة السمك مكافأة الأب وولديه على عنايتهم الدؤوبة بالقوارب والشباك. وكان يونا من بيت صيدا، وولداه، أندراوس وبطرس، صيادي سمك بالمثل في الجليل، وكان يبدو أنه كان هناك نوع من الشراكة بين يونا وزبدي في عمليات الصيد.

يظهر يعقوب في البداية في السجل المقدس وهو يساعد بطرس في جمع السمك الكثير بسبب المعجزة التي أجراها المسيح. ونحن متأكدون من حقيقة أنه عندما قدمت دعوة المعلم لهم ليصبحوا «صيادي الناس» استجاب هؤلاء العاملون الكادحون في البحر بكل خفة ورشاقة. وكان كل من يعقوب ويوحنا، ابني زبدي، من بين أولئك الذين أظهر يسوع لهم نفسه مرة أخرى بعد قيامته حيث أنهم كانوا قد عقدوا العزم على العودة لحرفة الصيد (يو ٢١:٢).

٤- تلمذته

منذ حوالي مائة سنة، قدم فريدريك ادواردز في مؤلفه الرائع «هؤلاء الاثنا عشر»، المقدمة التالية للفصل الذي خصصه لـ «يعقوب بن زبدي»:

مرت ١٧ سنة فيما بين الدعوة التي تلقاها يعقوب من المعلم واستشهاده لأجله. والتاريخ الذي لدينا عنه يعد كاملاً تقريباً فيما يتعلق بثلاث سنوات منها، على الرغم أنه صامت، أو شبه صامت، إزاء الـ ١٤ سنة الأخرى. إنه أول الذين درسنا تاريخهم، ولسنا بحاجة لنتخيل ما مر به من أحداث في حياته، ويمكننا أن نكون منصفين تماماً إزاءه بمجرد اتباع السجل المكتوب».

من السجلات المتفرقة يمكننا أن نقول إن القصة الحقيقية لحياة يعقوب بدأت ذلك اليوم عندما رأى يسوع يعقوب ويوحنا وهو يمشي على ضفاف بحر الجليل، مع أبيهما، يصلحان شباكهما وخاطب الأخوين الكادحين بالقول «هلم ورائي» ثم نقرأ أنه للوقت، أو في الحال، وبلا تردد أو توجيه أسئلة، تركا قاربهما وأبيهما واتبعاه (مت ٤:١٨-٢٢).

نحن لا نعرف الحادثة الأصلية التي اقتادت يعقوب لمعرفة الرب والإيمان به، كما لدينا في المقدمة الأولى ليوحنا، عن كيفية معرفة أندراوس وبطرس به. فالدعوة التي وجهت إليه عند البحر لم تكن دعوة لقبول المسيح، بل أن يتبعه في خدمة رسولية، والأناجيل صامتة بشأن تجديده، ربما حدث عندما ترك بطرس وأندراوس ويوحنا ما يقومون به من أعمال الصيد ليسمعوا يوحنا المعمدان. وكنتيجة لتبشيره توثقت صلتهم الروحية بحمل الله. وربما، عند عودتهم إلى الجليل قدموا ليعقوب رواية حماسية بكل ما سمعوه ورأوه، ونتيجة لتأثره البالغ بشهادتهم، كرس حياته ليسوع وكان ينتهز الفرصة ليعلن ولاءه له علانية - وقد حدث ذلك بينما كان يسوع ماشياً في طريقه (لو ٥:١-١١).

فصيادو السمك الأربعة الذين أطاعوا الدعوة لاتباع يسوع، ظلوا أصدقاء حميمين له، وقد صنفوا في ثنائيات أولا طبقاً لأعمارهم - أندراوس ويوحنا، الاثنان الأصغر سناً، وبطرس ويعقوب، الاثنان الأكبر في السن.

وعندما كانوا يرتحلون مع يسوع، أصبحت الدوائر واضحة في زمرة الرسل، كانت الدائرة الخارجية محجوزة ليهوذا الإسخريوطي، الخائن. وكان سبعة رسل يشغلون الدائرة الأولى، ثم تأتي الدائرة الثانية لتضم ثلاثة رسل، مع أندراوس الذي يفوته الانضمام إلى الثلاثة بفارق

طفيف، أما عن الدائرة الداخلية المقربة، فإن بطرس ويعقوب يستبعدان منها، ويبقى فيها يوحنا وحده مع سيده. في إنجيل متى ولوقا، يأتي أندراوس في المرتبة التالية بعد بطرس، ومن الواضح أن ذلك يرجع لتميزه الأساسي في كونه أخاً لسمعان بطرس. وفي إنجيل مرقس، يحتل يعقوب المركز الثاني، ويظل الترتيب دائماً هكذا «بطرس ويعقوب ويوحنا». ويتحدث ماكنتوش ماكاي عن يعقوب بأنه «الرجل الذي كان يشغل المقعد الخلفي» وهذا وصف ينطبق على ما آل إليه ولكن هذا ليس بالتأكيد الكيفية التي بدأ بها.

٥- رسوليته

إن الرفقة والشركة مع المعلم قد أعدت يعقوب ليكون رسولاً، وقد أصبح واحداً من الدائرة الضيقة حيث كان وثيق الصلة، بكل الأحداث التي مر بها المسيح.

كان على الاثنى عشر ككل أن يكونوا شهوداً ليسوع في العالم بعد صعوده، ولأنه كان من واجباتهم المحددة أن يقدموا إلى العالم رواية أمينة عن كلمات وأقوال معلمهم، وصورة صادقة عن شخصيته، وانعكاساً حقيقياً لروحه» فقد حاول المسيح أن يجعلهم مرايا لامعة لتعكس صورته.

كان المسيح أكثر اهتماماً بالتأهيل للمنصب الرسولي منه بكرامة هذا المنصب كان يعلم أن اكتساب هذا التأهيل يأتي في المقام الأول، وهكذا ولمدة ما يقرب من ثلاث سنوات، حاول أن يعد يعقوب والباقين عن طريق التهذيب والتعليم. فلم يكن لسبب اعتباطي أن المسيح سمح بمرور سنة قبل أن يأذن ليعقوب بأن ينتقل من طور التلمذة إلى المركز الرسولي. كان على «ابن الرعد» هذا أن يتعلم أنه كلما سمت الدعوة صعب التدريب المناسب لها. فالرسل لا يولدون بل يصنعون: «فأجعلكما». في كثير من الأحيان، يشتهي الناس منصباً لا يكونون مستعدين له، لمجرد أنهم أنهوا فترة التدريب. ولذا فعندما اتبع يعقوب يسوع وخدمه، تعلم وأصبح عاملاً ليس لديه ما يخجل منه:

تغيير الاسم

عندما تخرج يعقوب وأخوه يوحنا من مدرسة الرسل، وأسماهما يسوع، بوانرجس أي ابني الرعد (مر ٣:١٧). وبنفس الطريقة، كما نرى فيما بعد، أنه أسمى سمعان بطرس، ما مغزى اللقب «بوانرجس»؟ يختلف العلماء بشأن المعنى الحقيقي لهذا الاسم. فهل كان مثل هذا الاسم الغريب سجلاً لحياتهما الماضية؟ هل كان هذان الأخان كصيادي سمك، سريعي الغضب، متهورين، يستسلمان كثيراً لنوبات غضب مفاجيء؟ هل كانا معتادين على استخدام كلمات قوية لا تتماشى مع أفكارهما ولا مع المناسبة التي استدعت استخدامها؟ هل أظهر هذا الاسم الجديد، أو اللقب أنهما كانا ذا مزاج ناري يتسم بالاندفاع؟ بما أن يسوع علم ما كان في الإنسان، فقد عرف كل ما يتعلق بالمزاج الطبيعي ليعقوب، ولم يعمل على استئصاله، بل على تقديسه. لقد روض شلالات نياجرا في يعقوب ليجعله قوة دافعة في ملكوته.

يقول بعض الكتاب إن يعقوب ويوحنا كانا يمتلكان بلاغة عاصفة، ويقول آخرون إنهما كانا رجلين لهما أصوات حادة النغمة.

ومازال آخرون يصرون على أن بوانرجس تعبير يصف المزاج الناري، الذي يعلن عن نفسه في الغيرة الآكلة. يقول وليم كيف، الذي كتب عام ١٨٤٠ كتاباً عن «حياة الرسولين» قال فيه:

«من المرجح أن التعبير قد لا يدل على أكثر من أنهما عموماً سوف يصبحان ذا مركزين رئيسيين وبارزين في هذا المشهد الجديد، مشهد تقديم الإنجيل، أو عهد الكرازة. بأن يطلق عليهما صوت يزلزل «لا الأرض فقط بل السماء أيضاً» (عب ١٢:٢٦)، ويتفق هذا تماماً مع الأهمية القوية

للكلمة التي تعني زلزالاً (حج ٢:٧)، أو اهتياجاً قوياً يجعل الضوضاء مثل الرعد.

ولذلك يمكننا أن نقول إنه كان ليعقوب غيرة آكلة، وحب قوي لمعلمه، لابد أنه عبَّر عن ذاته في صوته ووجهه الذي كان يتوهج. لم يكن يستطيع أن يفعل شيئاً بتراخ. ولذا فقد دافع عن قضية سيده باندفاع لم يكن له سوى ند واحد بين الرسل. يمكننا أن نعتبر ياهو هو المقابل ليعقوب في العهد القديم وهو الذي قال: «تعالوا... انظروا غيرتي للرب» ثم اقتلع بيت أخاب، واكتسح عبادة البعل من الأرض.

وبنفس الطريقة، فربما استخدم يعقوب صوته الجهوري كالرعد كسلاح للإصلاح، وقد حول المسيح بالتدريج غيرته العاصفة إلى قوة موجهة لكي يحتفظ بها لأسمي خدمة فعالة. والمعلم الذي قيل عنه «غيرة بيتك أكلتني» (يو ٢:١٧)، كان يغذي غيرة تلميذه يومياً.

كانت قوة يعقوب الذهنية، وحماسه الروحي، ونشاطه البدني كانت جميعها تحت تصرف سيده، وقد نتج عن ذلك أنه احتل مكانة بارزة في الكنيسة في أورشليم، وجلب على نفسه غضب ملك وقد أدى ذلك إلى استشهاده.

يعلمنا الرسول بولس أنه «حسنة هي الغيرة في الحسنى». وقد كان يعقوب واحداً ممن تأثروا بالغيرة فيما يتعلق برسالة المسيح، على الرغم من أنه في بعض الأوقات لم تكن غيرته القوية حسب المعرفة. تعد الغيرة بحق فضيلة نبيلة وممتدحة، ولكن إذا لم يمكن التحكم فيها أو توجيهها في الاتجاه الصحيح، فإنها تصبح رذيلة. إن بعض أسوأ الأفعال في تاريخ الكنيسة كانت تنشأ نتيجة لغيرة خاطئة. كان ليعقوب كقديس جاد وغيور، أخطاؤه – وهي أخطاء نابعة غالباً من فضيلته. فإلى جانب نقاط قوته كانت هناك نقاط الضعف – وهي النقائص الخاصة به.

التعصب الأعمى

استطاع جوزيف اديسون أن يكتب عن «التحزبات المخلصة الواضحة المعالم بشكل طبيعي بالنسبة للرجل الإنجليزي الأصيل». ولكننا لا نستطيع أن نقول أن تحزب العبراني الأصيل، يعقوب، كان ذا طبيعة مخلصة. وكمحب مخلص في حبه كان يمكن أن يكون مغالياً في كراهيته، ونفس حدة انفعالاته جعلت غضبه وعدم تسامحه، وتعصبه الأعمى أكثر توهجاً. فالتحيز والميول حادة النزعة، والتي لا يتسم بها يعقوب وحده، بل يتسم بها يوحنا أيضاً، يبدو أنها ذات طبيعة متقدة وعنيفة أكثر من بقية الرسل. ويمكن استنتاج ذلك مما حدث عندما قرر يسوع الذهاب إلى أورشليم وأرسل بعض تلاميذه كرواد لإعداد طريقه. وعندما أتوا إلى السامرة، تم رفضهم بطريقة غير متحضرة ورفض أهل السامرة استضافتهم. ولاشك أن النزاعات المتأصلة بين السامريين واليهود، بالإضافة إلى ما يبدو أنه استخفاف بجبل جزريم (مكان العبادة المعترف به لدى السامريين)، من قبل يسوع حين مر به للسجود في أورشليم، مما دفعهم لعدم تقديم أي نوع من كرم الضيافة أو الترحيب بيعقوب ويوحنا، وهو ترحيب كانوا يظهرونه لجميع المسافرين.

فالسامريين لم ينكروا كرم الضيافة فقط، ولكن على الأرجح فإن يسوع ورفاقه قد تعرضوا للكثير من الإهانات وصب اللعنات من قبل السامريين، لأن الفجوة بين اليهود والسامريين كانت عميقة (يو ٤:٩). لم يكن السامري بالنسبة لليهودي سوى كلب. والتعصب المكبوت لدى يعقوب ويوحنا يظهر بالفعل في حادثتين سجلهما لوقا. أولاً، لقد التقيا بشخص غير معروف يستخدم اسم المسيح ليطرد الأرواح الشريرة، من الواضح أنه كان مؤمناً بالمسيح، وكان يحمل الشهادة للمسيح بهذا النمط الرسولي، ولكن

لأنه لم يكن ينتمي لجماعة التلاميذ، وبخه الرسل بصرامة لم يكن لها ما يبررها، على أساس أنه لم يكن واحداً من الاثنى عشر.

ولكن يسوع وبخ في الحال عدم تسامحهم المتعجل وروح التحزب لديهم، وأرسى مبدأ يمكن تطبيقه على الكنيسة في كل العصور: «من ليس علينا فهو معنا» وكل من يحاول شفاء المرضى وخلاص النفوس باسمه يجب أن يعتبر كتلميذ وحليف (لو ٩:٤٩، ٥٠). إن التحزب المتصلب يمكن أن يسبب قدراً كبيراً من المرارة. ويجب ألا ننسى أن هناك العديد من أشجار الكروم الجيدة التي تنمو وتمد أغصانها فوق الجدار الخارجي للكرمة.

ثم أظهر الأخان اتقاد غضبهما وقوة تحيزهما وعدم منطقية طلبهما المتسم بالعنف والذي يدعو يسوع لكي ينزل ناراً من السماء لتدمر القرية السامرية التي رفضت استقبال يسوع واستقبالهما. إن مثل هذه الروح كانت منفرة ولا يمكن التغاضي عن عيوبها. كانت كلمات يعقوب ويوحنا حادة وهما يطالبان بعقاب أكثر حدة ليحل بالناس لأجل الإهانة الموجهة لربهما.

ولكن يسوع وبخهما بلغة قاسية، مذكراً إياهما بأن روح إيليا ليست هي روح الإنجيل الذي جاء يسوع ليعلنه، أي أن مهمته ليست القضاء على أرواح الناس، بل إنقاذهم. لاشك أن يعقوب نسى تعليم معلمه عن محبة أعدائنا، والإحسان للذين يكرهوننا، والصلاة لأجل الذين يسيئون إلينا. نحن بحاجة، بالطبع، لنحمي أنفسنا من المحبة الزائفة، وألا نسيء إلى الحق بالتسامح مع الشر.

فعلاج الخطأ، لا يكون عن طريق توجيه الاتهامات المدوية، ولا يكون عن طريق نار الحرمان الكنسي. أفضل طريقة للتغلب على الخطأ يكون إعلان الحق، ويجب إعلان الحق بالمحبة (لو ٩:٥١-٥٦). وعلى الرغم أننا لا نستطيع أن نعذر عدم التسامح الكريه وغير المسيحي ليعقوب ويوحنا أخيه، إلا أنه قد يكون هناك لمسة من النبل فيه. ألم يكن من الأفضل أن يثورا في غضب مقدس كما فعلا، بدلاً من أن يشهدا الإهانة الموجهه لسيدهما دون أي انتفاضة أو رجفة يعبران بها عن ألمهما؟ ليت الله يخلصنا في الكنيسة اليوم من اللامبالاة اللاودكية!

الطموح

إن الطموحات النبيلة يجب أن تغرس. وغياب الطموح الحقيقي ينتج عنه غالباً ضعف المستوى. والسمة التي أعلنتها سالومة نيابة عن ابنيها كانت من النوع الخاطيء. يتحدث شكسبير عن «الطموح الخاطيء» وكتب الشاعر أيضاً عن «الطموح المغالي فيه الذي يتخطى حدوده، ليسقط في هوة عميقة».

في رحلته الأخيرة إلى أورشليم، هيأ يسوع عقول رسله لموته ورحيله عنهم. شرح بوضوح أنه سوف يعاني ويموت، ولكنه على أي حال سوف يقوم ثانية. وبينما كانت عقول عدد كبير من التلاميذ مشغولة بفكرة السلطة الزمنية المستقبلية لربهم وملكوته، إلا أن يعقوب ويوحنا، وقد افترضا أن القيامة التي تحدث عنها سوف تكون مؤشراً على سلطته وعظمته، فحثَّا أمهما أن تقدم التماساً نيابة عنهما. ألم يعد أنه عندما يأتي في ملكوته، فإن تلاميذه سوف «يجلسون على اثنى عشر كرسياً، ويدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر» (مت ١٩:٢٨)؟

ولذلك، وقد تجاسرت بفضل ما عمله يسوع لتكريم ابنيها فقد طلبت منه بألفة تتسم بالود، أن يعطي ليعقوب ويوحنا عندما يأتي في ملكوته مركزين متقدمين من مراكز الشرف والكرامة تابعين لمركزه هو شخصياً، الواحد عن يمينه والآخر عن يساره. وفي رد يسوع على الطلبة، وجه إجابته ليعقوب ويوحنا، لأنه كان يعلم أن كل ما عملته

أمهما أنها عبرت عن طموحهما نيابة عنهما. إن روح التنافس الطموح لدى التلميذين دفعتهما إلى حافة خطرة عندما حاول ابنا زبدي أن يتبؤاالمراكز المتقدمة في الملكوت المنتظر ربما كانا يغاران من شهرة بطرس وأرادا أن يتأكد أنهما لن يتركا للقيام بدور ثانوي. كم كان هذا الصراع للحصول على المناصب العالمية محزناً لقلب يسوع الذي كان قاب قوسين أو أدنى من صليبه الذي كان من المقرر أن يموت عليه كمجرم! ها نحن نرى اللذين هاجما السامريين، وقد أصبحا يطمحان في الحصول على المنصب، جاعلين من غيرتهما وسيلة لنوال الحظوة لدى المعلم، وها نحن نراهما يقللان من شأنه بتحويله إلى حاكم ظالم بإسناد المناصب على أساس المحسوبية دون اعتبار للكفاءة والاستحقاق.

فضح يسوع الجهل الكامن وراء الخطأ المريع لطلبتهما فقال، بلغة العطف أكثر منه بلغة الافتخار «لستما تعلمان ما تطلبان.» ثم أردف بسؤاله المحرك للمشاعر «أتستطيعان أن تشربا الكأس التي سوف أشربها أنا وأن تصطبغا بالصبغة التي أصطبغ بها أنا»؟ أظهر يسوع بمثل هذا السؤال الموجه بلغة العطف أكثر منه بلغة التوبيخ، أن الطريق الوحيد إلى العرش يمر بالصليب، كما كان على وشك أن يبين في موته القادم، وقيامته ومجده. كان بإمكان يعقوب ويوحنا أن يدخلا ملكوته فقط عن طريق الضيقة العظيمة، والثمن الذي كان عليهما أن يدفعاه للحصول على المركز المرغوب فيه كان يتضمن احتمال التجارب القاسية، والإخلاص له في أقسى الظروف، والإمانة حتى الموت.

سأل يسوع مقدمي الطلبة عما إذا كانا يستطيعان أن يشربا الكأس التي يشربها وأن يصطبغا بالصبغة التي يصطبغ بها، وأن يقدما كل ما يمكنهما من تضحية، فكانت إجابتهما على الفور «نستطيع». وهنا يثور سؤال عما إذا كان هذا الرد الفوري يدل على أن النار المقدسة لروح الشهيد قد اتقدت في روحيهما أم أن الأخوين كانا على استعداد أن يعد بأي شيء طالما كان بإمكانهما الحصول على المكافأة المشتهاة. قال بطرس متظاهراً بالشجاعة «وإن شك الجميع فأنا لا أشك». ولكنه مضى لينكر يسوع ويعلن بقسم أنه لا يعرفه.

نحن نميل للاعتقاد، بأنه بسبب محبة وغيرة هذين الساعيين لكراسي العرش، فأنهما سوف يستجيبان لجميع المطالب، وأنهما، إذا كانا أنانيين في طلبتهما، فقد كانا رائعين في ردهما. ومع أن يسوع وحده عرف كل ما كان متضمناً في مشاركته كأسه، إلا أنه قبل رغبتهما المعلنة في تجرع الكأس المريرة معه، على علاتها. وفيما يتعلق بيعقوب، فعندما رأى معلمه يذهب إلى عرشه عن طريق الصليب، فإن روحه قد استنارت وكنتيجة ليوم الخمسين اختفى تعصبه كما اختفى سعيه الطموح نحو السلطة، وأصبحت غيرته لأجل المسيح أكثر حدة على مدى ١٤ سنة، وخدم الشخص الذي أحبه بقوة وبتكريس ثابت لا يتزعزع. لقد أراد يعقوب تاجاً – وأعطاه المسيح كأساً، وكان يرغب في السلطة وأصبح عبداً ليسوع المسيح، وأراد أن يحكم ولكنه وجد قبر الشهيد.

عندما نتأمل في موضوع استشهاد يعقوب سوف نكتشف كيف أنه عندما ضرب سيف هيرودس «هذا الابن النبيل للرعد» فإنه دخل من الباب اللؤلؤي نحو الرؤية الكاملة، والنور الكامل، وسوف يملك إلى أبد الآبدين (رؤ ٣:٢٢-٥). وقد عرف كيف كانت كلمات ذاك الذي توَّج رأسه قبل أن يتوجها المجد صادقة «من يغلب فسأعطيه أن يجلس معي في عرشي كما غلبت أنا أيضاً وجلست مع أبي في عرشه» (رؤ ٣:٢١).

٦- شهرته

كرسول المحبة، والكاتب لخمسة كتب في العهد الجديد، يبدو أن يوحنا، كان أكثر شهرة من أخيه يعقوب في الأناجيل الثلاثة الأوائل، وأن الترتيب كان ينبغي أن يكون هكذا «يوحنا بن زبدي ويعقوب أخوه» ولكن الحقيقة ليست هكذا! فكلما ذُكر الاثنان معاً يكون الترتيب هكذا «يعقوب بن زبدي ويوحنا أخوه». وهناك سمة ذات دلالة نوعاً ما في إنجيل يوحنا وهي أن يوحنا لا يذكر أخاه بالاسم أبداً. يدعو مرقس الرسول الآخر ليعقوب «يعقوب الصغير» ليفرق بينه وبين يعقوب بن زبدي الذي أصبح يعرف باسم «يعقوب الكبير» وهو تعبير لا صلة له بالحجم أو التفوق، ولكن بالسن فقط، فمن المرجح أن المعنى الدقيق للاصطلاحين هو الأصغر والأكبر بسبب العمر.

في البداية، لنفهم أن يعقوب الذي نحن بصدده لم يكن هو الذي كتب رسالة بهذا الاسم، ولم يكن هو الذي أصبح رئيس مجمع أورشليم. إن يعقوب هذا، وهو ابن زبدي، والذي برز إلى المقدمة بين أصدقائه من الثابت أنه أصبح واحداً من الرسل الثلاثة الذين يُذكر أسماؤهم دائماً هكذا «بطرس، ويعقوب، ويوحنا» قد اختار المعلم هؤلاء الثلاثة لرابطة أوثق، لعلاقة أكثر حميمية، وثقة أكمل، فقد شاركوا المعلم في بعض التجارب العظيمة في خدمته، والتي يبدو أن بقية الرسل قد استُبعدوا منها، ولابد أن هذه الأحداث قد انتجت انطباعات ذات أثر لا يُمحى.

سمح ليعقوب والاثنين الآخرين بالدخول إلى حجرة الموت ليشهدوا أول انتصار للمسيح على الموت بإقامة ابنة يايرس. «لم يدع أحد يتبعه إلا بطرس ويعقوب ويوحنا أخا يعقوب» (مر ٥:٣٧). وبالإضافة الوحيدة لاسم يوحنا والتي ذكرها متى أيضاً (١٧:١)، قد تمثل إحساساً بين الرسل الآخرين، فيما يتعلق بسبب السماح ليوحنا الخجول بالدخول، ومع ذلك فقد كان أعظم شاهد موثوق بشهادته عن معجزة قيامة المعلم. ثم إن شخصيته وتأثير كل من بطرس ويعقوب قد أهلتهما أيضاً ليكونا شاهدين.

وقد كانت هناك أيضاً التجربة الباعثة على الرهبة على الجبل عندما تجلى يسوع أمام بطرس ويعقوب ويوحنا. يقول بطرس عندما كتب عن هذه الحادثة الرائعة أنهم كانوا «معاينين لعظمته» على الجبل المقدس. كان لهم امتياز أن يشاهدوا بريق لاهوته من خلال ثوب بشريته. ولما خلب ألبابهم جلال هذا الإعلان، عبَّروا عن رغبتهم في البقاء هناك إلى الأبد. ولكن رؤيتهم كانت تعدهم للمهمة التي كان يتعين عليهم القيام بها في الوادي أسفل الجبل.

ونحن نلحظ أيضاً الحميمية بين يعقوب ومعلمه في ما كتب عن جثسيماني، لأنه كان واحداً من الثلاثة الذين طلب منهم يسوع أن يصطحبوه إلى ظلال أشجار الزيتون، ليشهد هناك آلامه المبرحة كمقدمة للدخول إلى شركة آلامه. «ثم أخذ معه بطرس ويعقوب ويوحنا» (مر ١٤:٣٣). من المرجح أن الآخرين لم يكن بمقدورهم تحمل عبء رؤية آلامه، ولكن ما حدث هو أن الثلاثة المختارين للرؤية والاستماع، قد فشلوا في أن «يسهروا» لأن الرب «وجدهم نياماً، إذ كانت أعينهم ثقيلة»، في الوقت الذي كان يواجه فيه يسوع «ساعة وسلطان الظلمة».

في كل هذه الأحداث الثلاثة، ذكر يعقوب كالثاني بين الثلاثة، لأجل السبب الواضح بأن شخصيته الأقوى حجبت أخيه يوحنا، وبمقارنة الأخوين يبدو أن يعقوب كان موطد العزم وقوياً ونشيطاً.

ويوحنا كان مستغرقاً في التأمل الروحي، يميل للتخمين والحدس، والتفكير الباطني. ترى شهرة يعقوب واضحة كحقيقة مؤكدة، عندما «مد هيردوس الملك يديه ليسيء إلى أناس من الكنيسة» (أع ١٢:١) بعد قيامة ربنا بحوالي ١٤

سنة، ولكنه لم يقبض على الأصغر بين الأعضاء – بل الأكثر بروزاً فقط. لقد قبض على قائدين، يعقوب وبطرس، ولكنه قبض على يعقوب أولاً، لأنه من المرجح أنه كان متفوقاً على بطرس من بعض النواحي. هنا أيضاً، نجد مقارنة بينهما – كانت مواهب بطرس تتعلق بالريادة وتمهيد الطريق، أما مواهب يعقوب فقد خُصِّصت للحفاظ على النتائج.

كان بطرس بارزاً في الخطابة، والدعاية ومواجهة الجماهير، أما يعقوب فقد كان يعرف كيف يؤكد المكاسب وكانت له عبقرية إدارية وتنفيذية.

يعقوب، إذن، كان واحداً من أولئك الذين كانوا يعيشون بالقرب من المسيح، ومازال المسيح يدعو النفوس المخلصة لتدخل في الدائرة المقرَّبة من أصدقائه، وأن يحصلوا على دلائل الحب والثقة غير المعروفة للآخرين. إنهم يستمعون لصوته ويفكرون مثله. إن معظم تلاميذه يبدون قانعين إذا سمح لهم بأن يلمسوا هدب ثوبه، أو إذا كان ذلك دليلاً على الشركة الحميمة بأكثر مما ينبغي، فإنهم يتبعونه من بعيد. فإذا كان يعقوب مقرباً من يسوع أكثر من الآخرين، فلا يرجع ذلك لنوع من المحسوبية، بل يرجع للتفضيل السامي للمعلم. فقد كان يبدو كما لو كان ناموس الانجذاب نحو النقيض قد جعل ابن الرعد عزيزاً على قلب يسوع الذي لم يكن يخاصم ولا يصيح ولا يسمع أحد في الشوارع صوته.

٧– استشهاده

كان يعقوب أول من شعر بعداوة هيرودس، وكان التالي لاستفانوس في نوال شرف الاستشهاد في الكنيسة الأولى (أع ١٢:١–٤). وبما أن الموت القاسي ليعقوب سرّ اليهود، فقد قبض هيرودس على بطرس وألقى به في غياهب السجون. وهكذا أصبح عمودي الكنيسة البارزين من ضحايا غيرة هيردوس الجديدة على اليهود. لماذا نال يعقوب شرف الاستشهاد تحت حكم هيردوس، وأُنقذ بطرس من بطشه؟ إن ذلك سر من أسرار ذاك الذي يتصرف بطريقة غامضة ويجري عجائبه.

بعد ١٤ سنة من الشهادة المضنية، أفضل شهادة تسببت في حقد هيرودس وفرح اليهود لموته، ورد نبأ قتل يعقوب وموته كشهيد. فقد انهى سيف الطاغية حياة كانت مكرسة على المذبح، ولكن يعقوب لم يكن يخاف من الذين يستطيعون أن يقتلوا الجسد. كان محاطاً بنعمة الله من كل جانب ولم يستطع الموت أن يفصل الرسول عن «محبة الله التي في المسيح يسوع ربنا» (رو ٨:٣٧–٣٩). كان يعقوب أول شهيد بين الرسل، وأول من ربح الأكليل، وقد أخذ بفرح تلك الكأس التي قالوا لربهم إنهم على استعداد أن يشربوها.

قد لا يسجل سفر أعمال الرسل كلمة واحدة قالها يعقوب، أو أي عمل أجراه، ولكنه يخبر عن استعداده لكي يقدم كذبيحة لأجل المسيح. إن جسارته الطموحة قد ميزت خدمته ولكنها عجلت بنهايته الملطخة بالدم. وقد دفعه غضبه المقدس وغيرته الملتهبة إلى الصفوف الأولى من مواجهة الخطر وجلب له معمودية الدم في سبيل الحق الذي كان يتحدى دائماً قوة النار والسيف. يعبر دانيل ماكليمن بصورة رائعة عن ذلك فيقول:

«لقد كرس دم يعقوب قضية الحق الإلهي، حتى أن موته كان إيذاناً ببدء حقبة من النشاط المتزايد تتميز بالكثير من الإنجازات.

صمم هيرودس الأول على «ذبح الأطفال الأبرياء». وقطع هيرودس الثاني رأس يوحنا المعمدان وقتل هيردوس الثالث يعقوب. ولكن في كل مرة فشلت المحاولة في سحق خطة الله فشلاً ذريعاً. ثم أن وصمة الدم على بيت هيردوس تنبيء بالمصير النهائي للصراع بين القوة الغاشمة والإيمان

٦- شهرته

كرسول المحبة، والكاتب لخمسة كتب في العهد الجديد، يبدو أن يوحنا، كان أكثر شهرة من أخيه يعقوب في الأناجيل الثلاثة الأوائل، وأن الترتيب كان ينبغي أن يكون هكذا «يوحنا بن زبدي ويعقوب أخوه» ولكن الحقيقة ليست هكذا! فكلما ذُكر الاثنان معاً يكون الترتيب هكذا «يعقوب بن زبدي ويوحنا أخوه». وهناك سمة ذات دلالة نوعاً ما في إنجيل يوحنا وهي أن يوحنا لا يذكر أخاه بالاسم أبداً. يدعو مرقس الرسول الآخر ليعقوب «يعقوب الصغير» ليفرق بينه وبين يعقوب بن زبدي الذي أصبح يعرف باسم «يعقوب الكبير» وهو تعبير لا صلة له بالحجم أو التفوق، ولكن بالسن فقط، فمن المرجح أن المعنى الدقيق للاصطلاحين هو الأصغر والأكبر بسبب العمر.

في البداية، لنفهم أن يعقوب الذي نحن بصدده لم يكن هو الذي كتب رسالة بهذا الاسم، ولم يكن هو الذي أصبح رئيس مجمع أورشليم. إن يعقوب هذا، وهو ابن زبدي، والذي برز إلى المقدمة بين أصدقائه من الثابت أنه أصبح واحداً من الرسل الثلاثة الذين يُذكر أسماؤهم دائماً هكذا «بطرس، ويعقوب، ويوحنا» قد اختار المعلم هؤلاء الثلاثة لرابطة أوثق، لعلاقة أكثر حميمية، وثقة أكمل، فقد شاركوا المعلم في بعض التجارب العظيمة في خدمته، والتي يبدو أن بقية الرسل قد استُبعدوا منها، ولابد أن هذه الأحداث قد انتجت انطباعات ذات أثر لا يُمحى.

سمح ليعقوب والاثنين الآخرين بالدخول إلى حجرة الموت ليشهدوا أول انتصار للمسيح على الموت بإقامة ابنة يايرس. «لم يدع أحد يتبعه إلا بطرس ويعقوب ويوحنا أخا يعقوب» (مر ٥:٣٧). وبالإضافة الوحيدة لاسم يوحنا والتي ذكرها متى أيضاً (١٧:١)، قد تمثل إحساساً بين الرسل الآخرين، فيما يتعلق بسبب السماح ليوحنا الخجول بالدخول، ومع ذلك فقد كان أعظم شاهد موثوق بشهادته عن معجزة قيامة المعلم. ثم إن شخصيته وتأثير كل من بطرس ويعقوب قد أهلتهما أيضاً ليكونا شاهدين.

وقد كانت هناك أيضاً التجربة الباعثة على الرهبة على الجبل عندما تجلى يسوع أمام بطرس ويعقوب ويوحنا. يقول بطرس عندما كتب عن هذه الحادثة الرائعة أنهم كانوا «معاينين لعظمته» على الجبل المقدس. كان لهم امتياز أن يشاهدوا بريق لاهوته من خلال ثوب بشريته. ولما خلب ألبابهم جلال هذا الإعلان، عبَّروا عن رغبتهم في البقاء هناك إلى الأبد. ولكن رؤيتهم كانت تعدهم للمهمة التي كان يتعين عليهم القيام بها في الوادي أسفل الجبل.

ونحن نلحظ أيضاً الحميمية بين يعقوب ومعلمه في ما كتب عن جثسيماني، لأنه كان واحداً من الثلاثة الذين طلب منهم يسوع أن يصطحبوه إلى ظلال أشجار الزيتون، ليشهد هناك آلامه المبرحة كمقدمة للدخول إلى شركة آلامه. «ثم أخذ معه بطرس ويعقوب ويوحنا» (مر ١٤:٣٣). من المرجح أن الآخرين لم يكن بمقدورهم تحمل عبء رؤية آلامه، ولكن ما حدث هو أن الثلاثة المختارين للرؤية والاستماع، قد فشلوا في أن «يسهروا» لأن الرب «وجدهم نياماً، إذ كانت أعينهم ثقيلة»، في الوقت الذي كان يواجه فيه يسوع «ساعة وسلطان الظلمة».

في كل هذه الأحداث الثلاثة، ذكر يعقوب كالثاني بين الثلاثة، لأجل السبب الواضح بأن شخصيته الأقوى حجبت أخيه يوحنا، وبمقارنة الأخوين يبدو أن يعقوب كان موطد العزم وقوياً ونشيطاً.

ويوحنا كان مستغرقاً في التأمل الروحي، يميل للتخمين والحدس، والتفكير الباطني. ترى شهرة يعقوب واضحة كحقيقة مؤكدة، عندما «مد هيردوس الملك يديه ليسيء إلى أناس من الكنيسة» (أع ١٢:١) بعد قيامة ربنا بحوالي ١٤

سنة، ولكنه لم يقبض على الأصغر بين الأعضاء – بل الأكثر بروزاً فقط. لقد قبض على قائدين، يعقوب وبطرس، ولكنه قبض على يعقوب أولاً، لأنه من المرجح أنه كان متفوقاً على بطرس من بعض النواحي. هنا أيضاً، نجد مقارنة بينهما – كانت مواهب بطرس تتعلق بالريادة وتمهيد الطريق، أما مواهب يعقوب فقد خُصِّصت للحفاظ على النتائج.

كان بطرس بارزاً في الخطابة، والدعاية ومواجهة الجماهير، أما يعقوب فقد كان يعرف كيف يؤكد المكاسب وكانت له عبقرية إدارية وتنفيذية.

يعقوب، إذن، كان واحداً من أولئك الذين كانوا يعيشون بالقرب من المسيح، ومازال المسيح يدعو النفوس المخلصة لتدخل في الدائرة المقرَّبة من أصدقائه، وأن يحصلوا على دلائل الحب والثقة غير المعروفة للآخرين. إنهم يستمعون لصوته ويفكرون مثله. إن معظم تلاميذه يبدون قانعين إذا سمح لهم بأن يلمسوا هدب ثوبه، أو إذا كان ذلك دليلاً على الشركة الحميمة بأكثر مما ينبغي، فإنهم يتبعونه من بعيد. فإذا كان يعقوب مقرباً من يسوع أكثر من الآخرين، فلا يرجع ذلك لنوع من المحسوبية، بل يرجع للتفضيل السامي للمعلم. فقد كان يبدو كما لو كان ناموس الانجذاب نحو النقيض قد جعل ابن الرعد عزيزاً على قلب يسوع الذي لم يكن يخاصم ولا يصيح ولا يسمع أحد في الشوارع صوته.

٧– استشهاده

كان يعقوب أول من شعر بعداوة هيرودس، وكان التالي لاستفانوس في نوال شرف الاستشهاد في الكنيسة الأولى (أع ١٢:١–٤). وبما أن الموت القاسي ليعقوب سرّ اليهود، فقد قبض هيرودس على بطرس وألقى به في غياهب السجون. وهكذا أصبح عمودي الكنيسة البارزين من ضحايا غيرة هيردوس الجديدة على اليهود. لماذا نال يعقوب شرف الاستشهاد تحت حكم هيردوس، وأُنقذ بطرس من بطشه؟ إن ذلك سر من أسرار ذاك الذي يتصرف بطريقة غامضة ويجري عجائبه.

بعد ١٤ سنة من الشهادة المضنية، أفضل شهادة تسببت في حقد هيرودس وفرح اليهود لموته، ورد نبأ قتل يعقوب وموته كشهيد. فقد انهى سيف الطاغية حياة كانت مكرسة على المذبح، ولكن يعقوب لم يكن يخاف من الذين يستطيعون أن يقتلوا الجسد. كان محاطاً بنعمة الله من كل جانب ولم يستطع الموت أن يفصل الرسول عن «محبة الله التي في المسيح يسوع ربنا» (رو ٨:٣٧–٣٩). كان يعقوب أول شهيد بين الرسل، وأول من ربح الأكليل، وقد أخذ بفرح تلك الكأس التي قالوا لربهم إنهم على استعداد أن يشربوها.

قد لا يسجل سفر أعمال الرسل كلمة واحدة قالها يعقوب، أو أي عمل أجراه، ولكنه يخبر عن استعداده لكي يقدم كذبيحة لأجل المسيح. إن جسارته الطموحة قد ميزت خدمته ولكنها عجلت بنهايته الملطخة بالدم. وقد دفعه غضبه المقدس وغيرته الملتهبة إلى الصفوف الأولى من مواجهة الخطر وجلب له معمودية الدم في سبيل الحق الذي كان يتحدى دائماً قوة النار والسيف. يعبر دانيل ماكليمن بصورة رائعة عن ذلك فيقول:

«لقد كرس دم يعقوب قضية الحق الإلهي، حتى أن موته كان إيذاناً ببدء حقبة من النشاط المتزايد تتميز بالكثير من الإنجازات.

صمم هيرودس الأول على «ذبح الأطفال الأبرياء». وقطع هيرودس الثاني رأس يوحنا المعمدان وقتل هيردوس الثالث يعقوب. ولكن في كل مرة فشلت المحاولة في سحق خطة الله فشلاً ذريعاً. ثم أن وصمة الدم على بيت هيردوس تنبيء بالمصير النهائي للصراع بين القوة الغاشمة والإيمان

القوي، وختم دم الصليب عهد النعمة إلى الأبد. وقد أصبح دم الشهداء بذرة الكنيسة».

لما كان يعقوب قد أظهر ولاءً مقدساً لله يدفعه ضمير مستنير روحياً، فإنه قد ارتفع فوق هيرودس وسيفه المغموس في الدم ليلمس وهو في وضع الركبة المنحنية صولجان السماء الملوكي. وهكذا فإنه أصبح في موته أعظم من حياته، لأن سيف الروح قطع سيف هيردوس، وباستشهاد قديسين مثل استفانوس ويعقوب، تم تحرير الرجاء الخالد للإنجيل.

٨- مثاله

يريدنا يعقوب أن نتبعه كما تبع هو سيده، وأن نكتسب التعليم الروحي من كل سجلات العهد الجديد عن حياته وشهادته. ألا يعلمنا أن الشركة مع المسيح تحول العنف إلى قوة، والبحث عن إرضاء الذات إلى تضحية، والبرق إلى نور؟ فقد كانت علاقته الحميمة مع المسيح، وإيمانه بقوته هي التي جعلت من «ابن الرعد» هذا بطلاً، وجعلت من هالة المجد على جبينه تاجاً للانتصار الروحي. إن شخصيته جديرة حقاً بتأملاتنا بروح الصلاة، لأنه أمامنا هنا رجل قوي، وقادر، وكادح، وطموح، ما أن تحرر من وهم كل أحلامه العالمية بشأن دعوى المسيح، حتى نراه يندفع إلى الصف الأمامي بنفس الصفات الطبيعية التي حباه الله إياها، ويترك لنا مثالاً لحياة نكتسب منها الإلهام.

على الرغم أننا قد ذكرنا أن لا يوجد لدينا سجل لأي رسالة نطق بها يعقوب، إلا أن هناك من يقترحون بأنه من المحتمل أن يكون هناك استثناء لذلك في صلاة الشكر المقدمة عندما سجن بطرس ويوحنا لأجل شهادتهما الجسورة وخدمتهما المؤيدة بالمعجزات (أع ٤:٢٣-٣١). من ياترى صاحب هذه الصلاة الرائعة التي احتفظ بها لوقا لنا؟ هل يمكن أن يكون يعقوب بن زبدي ، هو الذي قاد صلاة الجماعة؟ إن كان الأمر كذلك، فإن هذه الكلمات الرصينة هي الكلمات الوحيدة التي لدينا منه: «أيها السيد أنت هو الإله الصانع السماء والأرض والبحر وكل ما فيها، القائل بفم داود فتاك لماذا ارتجت الأمم وتفكر الشعوب بالباطل. قامت ملوك الأرض واجتمع الرؤساء معاً على الرب وعلى مسيحه. لأنه بالحقيقة اجتمع على فتاك القدوس يسوع الذي مسحته. هيرودس وبيلاطس البنطي مع أمم وشعوب اسرائيل. ليفعلوا كل ما سبقت فعينت يدك ومشورتك أن يكون. والآن يارب انظر إلى تهديداتهم وامنح عبيدك أن يتكلموا بكلامك بكل مجاهرة، بمد يدك للشفاء ولتجر آيات وعجائب باسم فتاك القدوس يسوع».

ألا تردد هذه الصلاة الرائعة صدى روح يعقوب التي تتسم بالتحدي والغيرة والشجاعة؟ وبفحص هذه الطلبة المليئة بروح التحدي نلاحظ هذه السمات:

- كانت مليئة بالاحترام ولكنها كانت تعبر عن ثقة مقدسة وجسارة.
- كانت تتضمن أنه من المسلم به أن تهديدات المجمع سوف لا يكون لها أي أثر على إسكات أصوات سجيني الإيمان، بطرس ويوحنا.
- تبرز بحق أن قوة الله في قلوبهم، هي وحدها التي تستطيع أن تحفظهم ثابتين غير متزعزين.
- تستخدم نبوة العهد القديم بحرية للحديث عن المسيح وعن أعدائه.
- ترى يد الله في كل ما يعملوه، كرسل، وفي كل ما يعانون منه.
- تركز بثقة وحب على الاسم المتكرر مرتين «فتاك القدوس يسوع».

إن كانت هذه الصلاة بحق صادرة من فم يعقوب، إذن فهي تعد نافذة لنا. امتياز أن نطل منها على مدى القوة

والرقة الممتزجتين في نفس هذا القديس، الذي لم يكن يخشى أحداً سوى الله. يقول الدكتور ج. إلدر إننا يمكن أن نركز على الملامح الآتية:

١- المحبة العميقة والشركة الحقيقية بين يعقوب ومعلمه، والمشهود لها كثيراً من قبل كل الأناجيل، نرى هنا أيضاً «تلميذاً أحبه يسوع». كان حضور هذا الرجل عزاء وكان تعاطفه نعمة، لرجل الأوجاع. فإن لم يكن يتميز بشيء أكثر من ذلك، فعلينا أن نحبه لأجل ذلك ونكون من الشاكرين له.

٢- ها هو رجل قدم تضحية عظيمة، عن طيب خاطر، لأجل يسوع المسيح، فإنه مثل بقية الرسل، ترك كل شيء الأب والأم، والعائلة والأصدقاء - ليتبعه. ربما ترك يعقوب شيئاً أكثر من جميعهم - عائلة أكثر سعادة ووظيفة أسهل، أبا ذا نفوذ، وأما محبة. لا شيء سوى الاقتناع العميق في داخل نفسه كان يمكن أن يجعله يترك هذه الأشياء، لا شيء سوى الإيمان الصادق يجعله يفعل ذلك. والرجال الذين لا يتحدثون كثيراً عن أنفسهم ليسوا أقلهم اهتماماً بالمشاعر أو الألم.

٤- وها هو أيضاً شخص تغيرت شخصيته تحت تأثير يسوع المسيح. في البداية كان الأخان يدعيان بوانرجس - الصاخبان، الغيوران، اللذان كانا يزمجران ضد شرور العصر، ويهاجمان المرائين الذين كانوا في مراكز مرموقة. ونحن نرى لمحة مشابهة عن يعقوب عندما يحاول أن يصب اللعنات والنار من السماء على أولئك الذين يرفضون معلمه. ولكنه لا يظل دائماً هكذا، فنراه يتغير ببطء إلى رجل مسالم وهاديء. فالشركة مع المسيح قد جعلته هكذا. لقد مكنته من السيطرة على طبعه، وأصبح قادراً على أن يلجم لسانه. وأصبح قلبه هادئاً بداخله، دون أن يطلب الانتقام. لقد تعلم من يسوع المسيح أن يكون وديعاً ومتواضع القلب. لقد وجد الراحة. هل يمكننا أن نشهد لمثل هذا التغيير؟

٤- وها هنا أيضاً رجل الصلاة الذي يمسك بالله، عالماً أمانته، ويستريح واثقاً من الحب الذي يكنه لنا. فعندما صعدت صلاة الرسل إلى السماء من فم هذا الرجل، فإنها قد أُظهرت مقدار الإجلال الذي يكنه لله، ومقدار الصلة الوثيقة به، والمعرفة القوية بسر الرب، ومقدار جسارة القدوم بثقة إلى قدوس القدوسين!

«ولما صلوا تزعزع المكان الذي كانوا مجتمعين فيه» (أع ٤:٣١).

٥- نرى هنا، مرة أخرى، رجلاً واجه احتمال الاستشهاد عدة سنوات، ولم يهرب، وعندما جاء أخيراً، التقى به ومضى دون أن ينبس ببنت شفة. فلو كانت هناك شهادة مائتة، أو خوف، أو صرخة، ألم يكن من الواجب التنويه عن ذلك؟ ليس هناك كلمة واحدة. إنه يشرب كأس المعلم حتى الثمالة، ويتبعه، ليكون معه حيث يكون، على الضفة الأخرى.

٦- ويبدو واضحاً أيضاً أنه لم يكن هناك بحث عن الشهرة، أو القوة، ولم يكن هناك حب للصيت، أو الرغبة أن يكون الأول في هذه السنوات الأخيرة. كان راضياً بأن يكون واحداً من التلاميذ. وعندما أصبح كل من صديقه القديم بطرس، وأخوه الأصغر يوحنا، أمامه - أكثر شهرة وكرامة - لا نجد أي احتجاج أو اعتراض. لم يكن هناك أي نوع من التذمر. فأن يتبع يسوع ويكون معه، فهذا فيه كل الكفاية، أين تعلم ذلك؟ أين يجب أن تتعلم أنت وأنا، وكل البشر المساكين الخطاة، نفس هذه الدروس؟ ذلك بلا شك عند قدمي يسوع!

يهوذا الإسخريوطي
الرسول الذي قتل نفسه

القصة المؤلمة ليهوذا واحدة من أكثر القصص مأساوية وغموضاً في الكتاب المقدس، وهي تحتوي على ملامح لا نستطيع تفسيرها. يأتي اسم يهوذا دائماً في ذيل قائمة الاثنى عشر، وقد أصبح أكثر شهرة عن بقية الرسل بسبب فعلته الشنعاء. كان من الأفضل لهذا الخائن أن يظل في طي الكتمان دون أن يعرف عنه أحد شيئاً. قال عنه يسوع أسوأ ما يمكن أن يقال عن أي إنسان، «كان خيراً لذلك الرجل لو لم يولد». وظل العالم يردد هذه العبارة لما يزيد عن عشرين قرناً من الزمان عن الذين بعد أن ولدوا دمروا حياتهم. إن يهوذا الإسخريوطي وبيلاطس البنطي يوضعان جنباً إلى جنب كموضوعين لاحتقار العالم وكرجلين حقيرين اكتسبا لنفسيهما خزياً أبدياً. بالطبع، يحمل اسم يهوذا الوضيع ذنباً أثقل من ذنب الحاكم الروماني الذي كان يؤمن ببراءة الشخص الذي تمت خيانته.

لقد اعتُبرت خيانة يهوذا أقذر عمل ارتكب على مرالعصور. لقد وصف الفنانون يهوذا كموضوع للتخطيط لأحط النزعات الجهنمية، وذكر الشعراء كل أهوال الخيال لتمثيل خبثه الأسود وعدم امتنانه المؤسف. إن الأطفال الذين قورئت لهم قصة يهوذا يرتجفون رعباً لمجرد التفكير في جريمته وبسبب الشعور بالاشمئزاز من جريمته. قد أصبح اسمه كناية عن الخيانة والخديعة. ولا يمكن لأم أن تسمى ابنها باسم يهوذا، تماماً كما أنها تكره أن تسمي ابنتها إيزابل. يقول تشارلس ستانفورد: «من بين كل الأشباح التي تقلق مضجع الشاعر دائماً في خياله، أو النائم التقى في أحلامه، أو تجمد الدم في عروق الرائي، ليس هناك بلاشك شبح مرعب كشبح يهوذا». هناك أربعون عداً في العهد الجديد تحمل إشارة لتسليم ربنا في العهد الجديد، وفي كل منها نجد تسجيلاً لخطية يهوذا المتسمة بالغدر. يقدم لنا كاتب موهوب من القرن الماضي في تصوير رائع لانحطاط الشخصية، وصفاً قد ينطبق على الدور الذي قام به يهوذا:

«الخائن يجب أن يكون له وجه لا تترك عليه الرذيلة أي آثار، وشفتان تكذب مع ابتسامة جذابة، وعينان ذات بريق آخاذ وقلب لا يؤثر عليه الفعل الشائن، ووجنتان متوردتان بعد ارتكاب الجريمة ولا تبدوان مهزولتين أو غائرتين».

عندما تقرأ الأناجيل يبدو أن بقية الرسل لم يشكوا في يهوذا حتى اللحظة الأخيرة ولم تخطر فكرة الخيانة ببالهم قط حتى تم ارتكاب العمل المشين. ولكن بعد الخيانة، فهموا

أن العمل القذر الذي ارتكبه يهوذا كان مخططاً ومتعمداً. ولذا فإن اسم يهوذا مستهجن على نطاق العالم بأسره حتى أنه لا توجد عائلة في العالم المتحضر بأسره تفكر في تخليد ذكراه. في رحلة دانتي إلى الجحيم يصور يهوذا بأنه يشغل أسفل دائرة مع الشيطان، وهو يتجرع «أسوأ عقاب» مستحق، ملعوناً ومتجنباً حتى في كهوف الملعونين.

إن بقية الاثنى عشر الذين اختارهم يسوع كانوا، على الرغم من عثراتهم، مكللين بمجد ليس منهم، باستثناء يهوذا الإسخريوطي الذي باع صديقه، وحبيبه، ومعلمه، وسيده من أجل حفنة قليلة من الفضة. وبمثل هذا الفعل الشيطاني أبعد نفسه عن «جماعة الرسل المجيدة» وأغرق نفسه في هاوية لا قرار لها من السخرية والاشمئزاز، واستبدل موضع الكرامة الذي كان يمكن أن يكسبه بقبر مهلكٍ وإدانة مريعة وسمعة سيئة. لقد باع ربه عامداً متعمداً، متسبباً بذلك، في موته المريع على الصليب. وبعد أن أنبه ضميره، مضى وخنق نفسه على شجرة. دعنا الآن نحاول أن نقدم الحقائق، كما هي مقدمة في الكتاب المقدس، فيما يتعلق بهذا الخائن من بين الاثنى عشر.

١- كان من قريوت

الاسم المعطي لخائن يسوع كان يهوذا، والاسم الثاني وهو الإسخريوطي، مشتق من كلمة يونانية تعني «رجل من قريوت» المدينة التي ولد فيها، وقد أعطي هذا الاسم المزدوج لأبيه، سمعان الإسخريوطي (يو ٦:٧١، ١٣:٢، ٢٦ R.V).

ربما أضيفت كلمة الإسخريوطي ليهوذا، لتمييزه عن ستة أشخاص آخرين يحملون نفس هذا الاسم الشائع في ذلك الوقت. يفضل شكسبير أن يدعو يهوذا «اليهودي الوضيع الذي باع لؤلؤة أثمن من كل أفراد سبطه».

قريوت أو نريوت المدينة التي جاء منها يهوذا، قد زالت من الوجود. وقد كان هو التلميذ الوحيد في زمرة الجليليين الذي كان يمثل هذه المنطقة حول أورشليم، وعلى هذا الأساس لم يكن منسجماً تماماً مع الباقين. من الناحية التقليدية، كانت أورشليم تحتقر الجليل، ولكن يهوذا كان يحتقر الرأي العام للجنوب وقد انضم إلى القائد الشمالي الذي كان الناس يجتمعون من حوله من كل ناحية. لم يكن الجليليون يعتبرون يهوداً خالصين من قبل إخوتهم من الجنوب (يو ٧:٥٢).

قريوت Kerioth هي نفس كلمة Kirjath، «قرية» وهي تعني مدينة، كما في قرية يعاريم، ولكن الاسم كان يطلق على مدينتين. إحداهما في موآب (عا ٢:٢)، والأخرى في يهوذا، على الحدود الجنوبية الشرقية الغريبة من أدوم (يش ١٥:٢٥). وهناك إجماع في الآراء بأن يهوذا كان من قريوت التي كانت تقع في يهوذا. لقد جاء جميع الرسل الآخرون من الجليل، في أقصى الشمال من فلسطين.

٢- كان تلميذاً

بما أن أول إشارة في الكتاب المقدس إلى يهوذا تتحدث عن اختياره، ليكون رسولاً (مت ١٠:٤، مر ٣:١٩، لو٦:١٦)، لذا لا نعرف متى وكيف أصبح تلميذاً ليسوع. ومن المرجح أنه كان حاضراً أثناء خدمة يوحنا المعمدان في بيت عبرة في عبر الأردن (يو ١:٢٨). أو ربما التقى بيسوع أثناء عودته مروراً باليهودية مع تلاميذه (يو ٣:٢٢). ربما كان ضمن أولئك الذين تلقوا الدعوة عند بحيرة طبرية (مت ٤:١٨-٢٢). وعلى الرغم من التركيز على الظروف التي أحاطت بدعوة بعض الرسل (مثل ما حدث مع متى عند مكان الجباية)، إلا أن الصمت يلقي بظلاله فيما يتعلق بأول لقاء بين يهوذا ويسوع. وحيث أن التلمذة لابد أن تسبق الرسولية، فلابد من توفر بعض الصفات والقدرات التي عرفها يسوع في يهوذا. ربما كان إعجاب يهوذا

بالمعلم الجديد ومحاكاته له هو السبب في دعوة يسوع له ليكون تلميذاً.

فإذا كانت شخصية يهوذا مشوبة بالنقص بصورة لافتة للنظر على الجانب العاطفي، فإن ذلك يفسر التحفظ الذي كان يميز سلوكه أثناء تواجده مع يسوع. وعندما انضم إليه. فقد فعل ذلك من منطلق أن يسوع كان قائداً وطنياً أو سياسياً بأكثر من كونه صديقاً شخصياً، وكان عقله يفسر كلمات وأقوال المسيح من خلال توقعاته الخاصة. ولما كان يهوذا عنيداً ومغروراً، لم يتحمل فكرة أن يكون مخطئاً فيما يتعلق بفكرته الأولى التي كوَّنها عن الملك الجديد. لقد وجد التلاميذ الآخرون معلماً أيقظ فيهم الإعجاب وغرس فيهم المحبة له، ولكن بالنسبة ليهوذا كان الأمر مختلفاً لقد كان الطموح السياسي، وحب المركز والسلطة، واحتمال إعلان الملكوت دوافعه الرئيسية للانضمام إلى أولئك الذين كانوا يتبعون الملك.

ونحن نميل للاعتقاد بأنه في وقت اختيار يهوذا أن يتبع يسوع، لم يكن مرائياً عامداً أو متعمداً، وأن الحمية والحماس اللذين أظهرهما لم يكونا زائفين، فقد كان مخلصاً في تلميذته الأولية، حيث كانت لديه رغبة مخلصة في اتباع المسيح. ولكن الحقيقة تبقى أنه بالرغم من أنه قد يكون مخلصاً، إلا أنه لم يكن موحد القلب في قراره، إذ لم يترك كل شيء ليتبع يسوع، ولكنه قدم ليسوع ولاءً مزدوجاً. كانت محبة المال في قلبه منذ نعومة أظفاره، ولذلك فقد كان رجلاً ذي رأيين. فلو كان قد اتبع المعلم تماماً لكانت حياته من *أقدس ما* تكون الحياة ولكان مصيره أكثر بركة من الجميع، ولكنه أخذ خطيته معه في خدمة المسيح حتى أصبح داره في النهاية خراباً وأخذ وظيفته آخر (أع ١: ٢٠).

٣- كان رسولاً

كما ذكرنا سابقاً، لا شيء، يقال عن دعوة يهوذا: أين حدثت، أو متى، وما هي الملابسات المتعلقة بها. يأتي أول ذكر لاسمه، عندما اختار يسوع الاثنى عشر بعد ليلة قضاها في الصلاة، وأدرج يهوذا بينهم، وفي كل قائمة يأتي اسمه في ذيل القائمة - ولا عجب في ذلك! اختير يهوذا مع بقية الرسل ليتعلم من المسيح ويعمل لأجله. فقد كان على الرسول أن يكون قد رأى يسوع وسمعه، وأصبح رفيقاً له. ولاشك أن يهوذا قد تزود بالقوة مع بقية الرسل ليكرز، ويشفي الأمراض، ويخرج الشياطين (مر ٣: ١٤-١٩). وهكذا، فعلى الرغم من غياب النعمة العميقة في قلبه إلا أنه استخدم كأداة لتنمية عمل النعمة في قلوب الآخرين. وإن المرء ليتساءل عما فكر فيه يهوذا حين أعلن يسوع عن أولئك الذين يخرجون الشياطين باسمه، ولكنه يضطر أن يقول لهم «إني لم أعرفكم قط. اذهبوا عني يا فاعلي الإثم» (مت ٧: ٢٣).

وكيهودي خالص ينحدر من سبط يهوذا، وجد يهوذا نفسه لوحده تقريباً في دائرة الاثنى عشر، ولكنه كان غيوراً بلاشك كالباقين في دعم وامتداد رسالة المسيا. وكشخص مقرب له، كان يهوذا ينظر كثيراً إلى وجهه الرائع ولابد أن وجهه قد أحمر خجلاً عندما كان يفكر في الخطية التي كانت تسمم روحه. فلو أتيح لإنسان الفرصة ليكون قديساً، لا نطبق ذلك على يهوذا، الذي عاش لما يزيد عن عامين مع أقدس إنسان على الأرض، فليس صحيحاً دائماً أن ما يؤول إليه الإنسان يعتمد إلى حد كبير على البيئة المحيطة به فلو كان الأمر هكذا في حياة يهوذا، لاستطاعت السنوات التي قضاها في علاقة حميمة مع الإنسان الكامل الذي مشى على تراب هذه الأرض، أن تلهم يهوذا لينمو يومياً بصورة أفضل وأنبل وأقدس. ولكن الشيطان دخل حتى إلى قلب رسول، مما يثبت أنه حتى أكثر الامتيازات الدينية المشتهاة عاجزة عن إنقاذ الإنسان. يخبرنا بنيان

في العبارة الأخيرة في «حلمه» أنه رأى طريقاً إلى جهنم مبتدئاً من أبواب السماء.

كم كانت ضربة قاصمة للمسيح كان يصعب تحملها حين أتته الخيانة، لا من عدو علني، بل من شخص اختاره ليكون رسولاً وقد استمتع بصداقته الحميمة مدة طويلة! ليس من الصعب أن نرى نبوة عن يهوذا في الصورة التي رسمها داود عن صديق خادع:

«لأنه ليس عدو يعيرني فأحتمل. ليس مبغضي تعظم عليَّ فأختبيء منه، بل أنت إنسان عديلي إلفي وصديقي الذي معه كانت تحلو لنا العشرة. إلى بيت الله كنا نذهب في الجمهور. ليبغتهم الموت لينحدروا إلى الهاوية» (مز ٥٥:١٢-١٥).

لقد مضى يهوذا الرسول وواحد من معارف المسيح إلى الظلمة (مز ٨٨:١٨)، ويظل السر قائماً، لماذا اختاره المسيح كرسول؟ هل كان يعتقد أن يهوذا شخص مختلف عما ظهر عليه بعد ذلك؟ ألم يكن مدركاً لشخصيته؟ وهل خدع فيه كما حدث بالنسبة لبقية الرسل؟ في البداية، دعنا نقول إننا نرفض تماماً الاقتراح المقدم من الأستاذ أ.ب بروس أن «الإسخريوطي قد اختير لمجرد أن يكون خائناً، كما يختار الممثل ليلعب دوراً ما» فمثل هذه النظرية التي يستحيل تصديقها مضادة تماماً لطبيعة المسيح الخالية من الغش والخداع، ولهدفه من اختيار الاثنى عشر، فالتأكيد بأن يسوع اختار يهوذا ليكون خائناً يعني جعل المسيح مسئولاً عن خيانة الرسول له - وهو عمل يعفي يهوذا من كل لائمة.

ما تعلنه الأسفار المقدسة أن يسوع، كالعليم بكل شيء، علم ما كان في الإنسان، ولذلك «من البدء علم... من هو الذي يسلمه» أي أنه منذ اللحظة التي رأى فيها يسوع يهوذا وقرر أن يضم اسمه إلى قائمة الرسل» (يو ٢:٢٤، ٦:٦٤). ولكن نظراً لسابق علم المسيح بكل ما سوف يحدث، لماذا اختار يسوع يهوذا لخدمته بعد الصلاة وعن عمد، ولماذا ائتمنه على كل تعاليمه وأسراره، بل وأرسله مع الرسل المختارين الآخرين ليبشر، ويشفي المرضى، ويخرج الشياطين؟ الإجابات على مثل هذه الأسئلة ليست سهلة، لأنه مهما كانت التفسيرات المقدمة فسوف نجد أنفسنا نواجه «المشكلات المستعصية على الحل والمتعلقة بأصل الشر وعلم الله بكل شيء، بالإضافة إلى حرية الإرادة البشرية».

ولكن ما نعلمه، أن يسوع قد قام باختياره:

لأن ذلك كان يتم بحسب مشيئته السامية أن يفعل هكذا، «كل ما شاء الرب صنع في السموات وفي الأرض» (مز ١٣٥:٦).

ولأنه كان لابد من إتمام نبوات العهد القديم فيما يتعلق بكل جانب من جوانب حياته ورسالته. ولفضح خيانة يهوذا. اقتبس يسوع الآيات التي تنبيء بذلك (مز ٤١:٩، ٦٩:٢٥، يو ١٣:١٨، أع ١:٢٠). ولأن الله يعلم النهاية من البداية فقد استطاع أن يُسجل ما سوف يفعله يهوذا، قبل ميلاده بعدة قرون، إذن، فكل النبوات المتعلقة بالخائن تثبت بعد نظر السجل المقدس.

ولأن خيانة يهوذا تظهر أن الارتباط مع الأتقياء - وحتى مع المسيح، الذي لم يعرف خطية - ممكن، دون أن يكون هناك تجديد كحقيقة اختبارية. فالمرء يمكنه أن يكون في خدمة المسيح دون أن يختبره في القلب كمخلص ورب. كان ينقص يهوذا الشيء الضروري. كان ينقصه الإيمان والمحبة.

ولأن المال الذي سعى يهوذا لاقتنائه من وراء تلك الفعلة الشنعاء يظهر أن «محبة المال أصل لكل الشرور». وسوف يظل يهوذا شاهداً على لعنة المال وأنه شرك مريع، وكيف

أنه يمكن أن يغرق الناس في العطب والهلاك.

ولأن يسوع أراد أن يعلن احتماله المذهل وطول أناته، فهو لم يفضح يهوذا عندما لاحظ تدهوره الأخلاقي المتدرج، بل تركه للوقت الذي يكشف فيه عن شخصيته الحقيقية. كم استطاع يسوع أن يكبح جماح غضبه في الليلة التي خانه فيها، عندما رفع آكل الخبز معه عقبه عليه! ألم يكن التناقض صارخاً في تلك المناسبة بين الخائن وبين من ارتكبت الخيانة ضده؟

ولأن الحزن الفريد الذي اختبره ربنا نتيجة لاختياره ليهوذا كان ضرورياً لاكتمال أهليته كرئيس كهنة على بيت الله. فقد كان مجرباً في كل شيء مثلنا، ولكنه أصبح كاملاً من خلال آلامه (عب ٢:١٠، ١٧،١٨).

وبالإضافة إلى التفسيرات المحتملة السابقة لمشكلة اختيار يهوذا، يمكننا أن نقول إنه على الرغم أن يسوع رأى فيه ميولاً شريرة مؤكدة يمكن أن تتطور، إلا أنه رأى أنه يمتلك صفات أخرى جيدة يمكن عن طريق تعليمه وتأثيره أن تتغلب على الميول الوضيعة. كان يسوع ملماً بالصراع الذي يدور في قلب هذا الرجل بين النور والظلام، وصلى له وكان يرجو أن يتغلب الجانب الخير في يهوذا، ولكنه يأس منه قائلاً له: «ما أنت تعمله فاعمله بأكثر سرعة» (يو ١٣:٢٧). لقد اتحد الطمع مع دوافع أخرى، وجر يهوذا إلى القيام بفعلته الشاذة الجهنمية حقاً، مما أكسبه إلى الأبد ذلك اللقب السيء السمعة والمكتوب على جبينه «يهوذا الإسخريوطي الذي أسلمه».

بذلت جهود للدفاع عن يهوذا، والتقليل من خطورة جريمته، بل وتحسين صورته، يحاول بليس Pleas، أن يدافع عنه ويجعلنا نعتقد أن صورته ليست بهذا السوء الذي رسمت به، وأنه أخطأ بدافع عدم التمييز بأكثر منه بدافع النوايا الإجرامية. ويقترح توما الأكويني Thomas De Quincey، على سبيل المثال، أن هدفه لم يكن تسليم المسيح ليد أعدائه، بل إجباره على استخدام قوته المعجزية ضدهم، أو أن يجبر يسوع على اللجوء إلى القوة لتأسيس ملكوته. وعندما فشل في إجبار المعلم على اتخاذ أي عمل، دهش يهوذا وصدم، ولأن حساباته قد فشلت، مضى وقتل نفسه. لو كانت هناك أي حقيقة في مثل هذا الدفاع، لكان يهوذا أول مسيحي من أردأ الأنواع لأنه اعتقد أن الغاية تبرر أسوأ الوسائل السيئة السمعة واللا أخلاقية.

ولكن أي حجة لتبرير ساحة يهوذا تبطلها حقيقة أنه عندما تآمر لبيع يسوع بثلاثين من الفضة، تحدث يسوع عنه «كابن الهلاك» وسمح له بأن يموت بيده هو، وينتقل إلى الظلام الدامس إلى الأبد. لو كان يهوذا أحب يسوع، لكانت محبة المال خنقت هذا الحب، وأصل المرارة تملكته، لأن هناك أثر للحقد ورائحة الانتقام في فعلته الأخيرة من أفعال الخيانة والغدر. ولكوننا منهمكين في مشكلة سبب اختيار يسوع ليهوذا، دعنا لا نكف عن النظر لأنفسنا ونتأمل في مشكلة مشابهة تتعلق بالسبب في دعوتنا نحن لخدمته. ما الذي رآه فيك، وفي، مما جعله يسكب فيض محبته علينا؟ ألا تتوقف ذات مرة لتسأل عن السبب الذي جعل المسيح، في حبه الذي لا مثيل له، يدخلك إلى الشركة معه؟ نعم، وإذ تدرك الخطية الموروثة الساكنة فيك، ألا تشعر بالحاجة للاهتمام الدائم بالتحذيرات الجادة؟ «من يظن أنه قائم فينظر أن لا يسقط» (١كو ١٠:١٢، عب ١٢:١٥).

٤- كان أمين الصندوق

كان يهوذا موضع الثقة كالحامل لأموال جماعة الرسل. لم يكن حالماً كيوحنا أو مندفعاً كبطرس، ولكنه كان يمتلك مواهب اقتصادية، واستعداداً لتصريف الشئون المالية، وحب المساومة وهي صفات ترتبط غالباً بمحبة المال. كانت

النساء الثريات يتبرعن لخدمة المسيح وتلاميذه (لو ٨:٣). وقد عُيِّن يهوذا أميناً للصندوق ومشرفاً على ذلك الدعم المالي. ونفس حقيقة أنه قد أنيط به هذه المسئولية تثبت أن الرسل الآخرين كانوا يثقون في أمانته، وقد ظلت هذه الثقة ثابتة حتى الليلة التي أسلم فيها يسوع للأعداء. كان يحمل الصندوق وهذا منصب دنيوي يتطلب رجل أعمال ماهر. ولا يستدعي بالضرورة أن يكون قديساً، وبهذه المقدرة في هذا الاتجاه، ربما كان يهوذا يغذي طموحاً سرياً ليصبح «وزير للخزانة» في الملكوت الجديد، الذي كان يعظ عنه معلمه.

ولكن المأساة أنه استفاد من هذا المركز وكما يخبرنا يوحنا بوضوح «لأنه كان سارقاً وكان الصندوق عنده وكان يحمل ما يلقي فيه» (يو ١٢:٦). ياله من عمل دنيء! لاشك أن الضمير – وهو مشتكي لا يصمت أبداً – سبق أن حذره من الجشع وحب اكتناز المال، وأن ما ظنه مخفياً عن الأعين كان معروفاً لمعلمه الذي كان يقرأ الأفكار وكان يعلم ما في الإنسان، هل يمكن أن يكون الطمع والشك اللذين رأهما المسيح يعملان وينموان في يهوذا هما السبب الذي حفزه للإدلاء بكلمات التحذير عن اشتهاء ما للغير، وكيف أن كل خفي سوف يعلن في النور يوماً ما؟ لقد جعل الطمع من يهوذا لصاً، وفي النهاية، خائناً، مرتكباً أفظع جريمة في التاريخ انتهت به إلى الموت.

من الملامح المؤثرة لعلاقة يسوع بيهوذا الطريقة التي كان يحذره بها مراراً وتكراراً، بطريقة مباشرة وغير مباشرة، من الخطر الذي كان يواجهه. إن يهوذا لم يندفع بجهل وهو مغمض العينين نحو مصيره المريع. لقد كانت تدوي في تعليم ربنا المستمر عن محبة المال وتأثيره على الشخصية نغمة التحذير مراراً وتكراراً وسمع يهوذا هذا التعليم كثيراً، ونظراً لاهتمامه البالغ بنفس يهوذا، ردد على مسامعه هذا القول «لا تقدرون أن تخدموا الله والمال». ألا تعتقد أنه كان ينظر إلى يهوذا عندما قال: «ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟» ألم يكن لفائدته أن يذكر يسوع مثل الغني الغبي ومخازنه التي امتلأت بالغلال عن آخرها، ولكنه بالرغم من كل ما كسبه، كانت نفسه غير مستعدة حين واتته المنية فجأة.

في قصة غسل أرجل التلاميذ بما فيها من دروس عن التواضع (يو ١٣:١–٢٠)، قدم يسوع إشارات تمهيدية لحقيقة وجود خائن في وسط الاثنى عشر، وألمح إلى أنهم ليسوا كلهم طاهرين، مشيراً بذلك إلى أنه كان يوجد واحد منهم كان يعلم ولكنه لا يعمل «لأنه عرف مسلمه» (يو ١٣:١٠، ١١،١٨). عندما انتهى يسوع من خدمة المحبة وشرح سبب القيام بها، تقدم في الحال لتولي المهمة الثقيلة بالإعلان عن تسليمه. لابد أن روحه اضطربت بسبب التفكير في المهمة الأليمة، ولابد أن قشعريرة سرت في جسده في مواجهة الشر الشيطاني. وفي أثناء تناول العشاء، حدد شخصاً معيناً بقوله إن مسلمه هو الشخص الذي سوف يعطيه اللقمة بعد أن يغمسها في الطبق.

وحتى قرب النهاية عندما قال يسوع «ما أنت تعمله فاعمله بأكثر سرعة» (يو ١٣:٢٧)، كان ذلك أبعد ما يكون عن إصدار أمر ليهوذا ليذهب وينهي عمله الجبان، بل تحذيراً مريعاً، وإعلاناً ليهوذا عن سابق علم المسيح بشره واستعداده له. ولذلك فقد افترض بعضهم بناء على حسابات غريبة أن هذا القول كان من المفروض أن يثني يهوذا عن تنفيذ غرضه المهلك. ولكن كل التحذيرات ذهبت أدراج الرياح وخرج «يهوذا» للوقت من زمرة الرسل كعضو غير جدير بأن يكون رسولاً. ما يدهش كان انضمامه إلى الرسل. نأتي الآن إلى تصنيف الإشارات ليهوذا في الأناجيل وسفر أعمال الرسل، لعمل نسق لخلفية جريمته البشعة، يبدو أن هناك ثلاثة ملامح رئيسية في مأساة

شخص كان عضواً في الدائرة المقربة من المسيح.

٥- الصفقة التي تم التخطيط لها

على الرغم من وجود ظروف غيرت يهوذا من خائن محتمل إلى خائن فعلي، إلا أنه كان خائناً في قلبه منذ البداية. فالسرقة الضئيلة من المال القليل الذي كان في صندوق الرسل كان علامة أكيدة على نفس دنيئة وخسيسة. وفي حين أن الأناجيل لا تفسر بل تسجل فقط شر يهوذا، إلا أنه من السهل أن نتعرف على شخصيته من واقع القصص المذكورة عنه.

بإيعاز من الشيطان

كان المجرب من وراء الخائن لأن يهوذا لم يكن سوى ألعوبة في يد الشيطان، كما تبين الإشارات بوضوح أن الشيطان كان يمتلكه. يؤكد يوحنا الدور الذي لعبه الشيطان في جريمة الخيانة. كم كان تأكيد يسوع واضحاً ومحدداً «أليس أني أنا أخترتكم الاثنى عشر وواحد منكم شيطان» (يو ٦:٧٠). لم يكن يسكن يهوذا روح شرير، بل شيطان كما يوحي النص في اللغة اليونانية؟

لقد دخل الشيطان في يهوذا كالمحرض على ارتكاب هذا العمل الشرير، «قد ألقى الشيطان في قلب يهوذا سمعان الإسخريوطي أن يسلمه» (يو ١٣:٢). إذن فالشيطان هو الذي تقمص يهوذا كمصدر لعمل شيطاني «فبعد اللقمة دخله الشيطان» (يو ١٣:٢٧).

يبدو أن اللقمة المعطاة ليهوذا كانت أكثر من دليل على الثقة والكرامة، لقد كانت آخر عمل قام به يسوع لإنقاذ يهوذا من ارتكاب جريمته النكراء. عندما أُكلت اللقمة وفشلت الكرامة التي منحتها له في تحقيق غرضها، لم يكن هناك شيء يُعمل سوى الإجبار. إن الشيطان، وليس يسوع، قد استحوذ على قلب يهوذا. وبالرغم من كل الامتيازات المتضمنة في كونه رسولاً، قامر يهوذا. بمصيره، وذهب إلى مكانه» فشل الشيطان في إخضاع المعلم لسيطرته، و لكنه نجح في السيطرة على رسوله الذي شرب كأس الهوان والحزن بكاملها. كان على يهوذا أن يشرب كأس المر حتى الثمالة.

حيث أن يسوع رغب أن يقضي ساعاته الأخيرة في صحبة رفاق مخلصين يثق فيهم، دون وجود عدو قاتل بينهم، فإنه لم ينتظر حتى يروق ليهوذا أن يترك الجماعة.

أكد يسوع سلطته على يهوذا، حتى وإن كان قد دنس امتيازاته وباع نفسه للشيطان، فأمره بترك الجماعة وإكمال فعلته القذرة. فشل يسوع في السيطرة على الفكرة الشاردة ليهوذا قبل أن يتحول شيطان الشك إلى شيطان الفعل، وقبل أن يتحول الاغتراب الفكري إلى قطيعة كاملة، جاء يهوذا إلى العشاء وهو مثقل بذنب دفين في أعماق وجدانه، وبرشوة في يده، ولابد أنه كان يشعر بأكبر قدر من عدم الارتياح بسبب عين ذاك الذي كان بمقدوره أن يرى كل ما كان يعمل بداخله.

لقد باع يهوذا الطموح النهم نفسه للشيطان، كما فعل فاوست حين باع نفسه إلى الشيطان في رواية الأديب الألماني الشهير جوته . وحيث أنه كان مقامراً، فقد عرَّض كل شيء للخطر وفقد كل شيء، ولم يتبق له سوى أن يكفر عن الدم بالدم. بلغ طموحه أبعاداً غير مسبوقة فسقط بتهور دون تردد وانفجر. ولكن على الرغم من أن شخصية الشيطان كانت وراء هذه الخيانة، لما فيه من شر دفين، إلا أنه لا يجب أن نضع عليه كل اللوم. فعندما أتى الشيطان إلى يسوع باقتراحات بعيدة تماماً عن الأهداف الإلهية، استطاع أن يقول له: «ابعد عني يا شيطان». ولكن يهوذا ترك الباب مفتوحاً أمام الشيطان، فعملت طبيعته الجشعة وطمعه المخزي، اللذان اتضحت معالمهما في سرقته لكيس نقود الرسل، على إغراء

الشيطان بأن يحكم قبضته على اللص.

من كان يعتقد أن سرقة عدد قليل من العملات الصغيرة في غفلة من الجميع سوف تفتح الباب على مصراعيه لتقمص الشيطان له، مما يؤدي لارتكاب أبشع جريمة وإزهاقه لروحه؟ فنحن لا يمكننا أبداً أن نحرص الحرص الكافي على تجنب ما يطلق عليه الخطايا الصغيرة، لأن الخطية لها قوة مخيفة على التكاثر.

فالفكر يصبح عملاً

والعمل يصبح عادة

والعادة تكسب الشخصية

والشخصية تشكل الأبدية

ولما كان الشيطان في عداوة مريرة مع المخلص ورسالته، فقد كان هو المحرك الأول لمحاولة يهوذا في الإسراع بموت يسوع. ولو كان عدو النفوس قد عرف كل ما كان سوف ينجم عن الموت القاسي ليسوع فوق الجلجثة، لكان أقل حماساً في الإسراع به نحو الصليب. فهو كالخروف المذبوح، فإنه سوف يقضي في النهاية على إبليس وأعماله، ويملك إلى الأبد. من المعزى أن نتذكر أن الخطط الشيطانية، غالباً ما تستخدم، كما في هذه الحالة لتحقيق أقدس الأغراض.

بتدبير من يهوذا

هناك العديد من الجوانب في هذه القصة المأساوية التي تثبت كيف أن يهوذا قد تصرف بلا قلب وبقسوة في تنفيذ فعلته القذرة. لا يمكن تفسير جريمته كنوع من الخطأ، ولا يمكن اعتبار يهوذا نفسه كشخص مخطيء. فالكتاب المقدس ينظر بالتأكيد إلى ما فعله على أنه سر الإثم الحقيقي، ويمثله كشخص هادىء دبَّر لجريمته التي ارتكبها. كما يعبر ألن بول Allen Poole عن ذلك فيقول: يبدو يهوذا من بعض الجوانب أنه أكثر أفراد جماعة الرسل بعداً في النظر، فلا شك أنه كان الأقدر على قراءة علامات الأزمنة من الجانب السيء. فقد فكر في الكيفية التي حاول بها اصطياد يسوع، وراقب أفعاله، ووزن حديثه، وقسَّى قلبه بفعل الكراهية له ثم تآمر على قتله. لدينا هنا مفتاح للإشارات المتكررة عن الصليب، حتى أدرك يهوذا أخيراً نهاية كل شيء كان قد دفعه ليقبل التلمذة ويواصل المسيرة مع المسيح.. إن الكشف عن كل شيء في العشاء الأخير حدد غرضه، وجعله يوطد العزم على تسليم سيده.

١- تدبير مناسب ومرتب

يسجل كل من متى ومرقس كيف كان يهوذا يترقب بمكر ليجد الفرصة المناسبة ليبيع المسيح: «كان يطلب فرصة ليسلمه» (مت ٢٦:١٦) «كان يطلب كيف يسلمه في فرصة موافقة» (مر ١٤:١١).

لم يتصرف يهوذا في لحظة غضب شديد أو جنون. كانت فعلته السوداء مخططة بهدوء وعن عمد. كان يتحين اللحظة المناسبة ليضمن مال الدم. كان يبحث عن الباب المؤدي لجهنم، وانتظر حتى يفتح، وعندما فتح، أخطأ يهوذا ضد النور والمحبة. يالشر الإنسان! ومازال البشر يتحينون الفرصة المناسبة للتخلص من المسيح، وخلاصه ودعواه.

٢- تدبير جبان

كثيراً ما وطأت قدما يهوذا الطريق المقدس المؤدي إلى جثسيماني، واستمع إلى تعليم يسوع المقدس وصلواته الحارة، لأن يوحنا يخبرنا أن يهوذا كان «يعرف الموضع» (يو ١٨:٢). وها هو الآن يستخدم معرفته بهدف تسليم معلمه إلى أعدائه. لقد سقط في أعمق أعماق الشر عندما استخدم البستان لتحقيق غرضه الدنيء. إن المؤثرات الشيطانية يمكن أن تجعل النفس تتناسى أقدس الاعتبارات، لقد وصل تدنيس المقدسات إلى أوجه عندما خان يهوذا معلمه في جثسيماني. وعلى الرغم أنه كان

يعرف هذا الموضع المقدس، إلا أنه كان دائماً على غير سجيته عندما يكون فيه.

وفي النهاية مضى «ليذهب إلى مكانه» (أع ١:٢٥)، ولكنه لم يكن جثسيماني.

يذكرنا كل من لوقا ويوحنا بجبن الخائن الذي كان يكن القليل من الاحترام لمقدسات الحياة.

«فواعدهم وكان يطلب فرصة ليسلمه إليهم خلواً من جمع» (لو ٢٢:٦). «خرج للوقت وكان ليلاً» (يو ١٣:٣٠). نفذ يهوذا المهمة الشيطانية في غياب الجمع لأنه كان يخشى ما كان يمكن للجمهور، الذي يتكون من عامة الناس الذين كانوا يسمعون يسوع بفرح، أن يفعلوه به. كان يخاف أن يقطعه الناس إرباً إرباً إذا اكتشفوا فعلته السوداء. لقد جعله ضميره الخائف جباناً. ثم تأتي لمسة يوحنا حين يقول «وكان ليلاً» مما يوحي بنفس الإطار الفكري للخوف. لم تكن الظلمة فرصة فقط لوجود عدد قليل من الناس، ولكنها كانت تتيح له فرصة تغطية تحركاته.

يذكرنا لوقا بأن يهوذا نزل إلى مرتبة الدليل لفرقة العسكر الرومان الذين جاءوا للقبض على يسوع بتحريض من الفريسيين (أع ١:١٦). كم كان التحالف مفتضحاً هنا! فقد تشابكت أيدي القوة المادية والسلطة الكهنوتية، والتلميذ الخائن ضد الرب الممسوح، كان يهوذا أسوأ خاطيء في تلك الجماعة، لأنه كان يخطيء ضد النور والمعرفة، فبعد أن نال خيراً على يد الرب، يرد على جميله الآن بالخيانة والغدر.

٢- تدبير جاحد

القبلة تعد دائماً تعبيراً عن الحب والصداقة، ورمزاً للإخلاص. ولكن قبلة يهوذا كانت دنسة، لأنها كانت علامة للقبض على يسوع. فقد شعر في أحيان كثيرة أنه يختلف عن بقية التلاميذ الذي يخضعون للتعاليم المجيدة للمسيح، ولكونه شديد الحساسية تجاه الإهانة ونقص المحبة لم يكن بمقدوره أن يصمد في وجه الانتقام. ولذلك كانت الضغينة بداخله مثل شعلة من جهنم احتدمت النيران في قلبه، واقتادته ليكون على رأس فريق يحمل المشاعل، فيتقدم نحو المعلم ليطبع قبلة محرقة بشفتين نجستين، «الذي أقبله هو هو» (مت ٢٦:٤٨).

«يهوذا..... دنا من يسوع ليقبله» (لو ٢٢:٤٧).

هناك أسطورة عن رجل أخذ ثعباناً ساماً في حضنه ليدفئه ولكنه كافأه بغرس أنيابه في جسده. عندما اقترب يهوذا من يسوع، وتهيأ ليقبله، دعا المسيح الخائن بحب، «يا صاحب» (مت ٢٦:٥٠). ولاشك أنه رد على القبلة بقبلة مماثلة، لأن الحب الإلهي لا ينتقم لنفسه أبداً.. ولكن السماء والجحيم التقيا عند العناق - وهناك قال ابن الإنسان كلمته الأخيرة لابن الهلاك. لقد اتحدت الأبديتان في تلك اللحظة الغريبة التي جرت فيها قبلة ينظر إليها التاريخ برعب وإشفاق.

إن قبلة من يوحنا وهو يتكيء على صدر يسوع تعد قبلة حلوة، ولكنها حين تصدر من رسول قد صار عدواً مهلكاً، فإن مثل هذه القبلة كدليل على الحب تعد شيئاً مقيتاً وبغيضاً. لم تكن القبلة ضرورية لإنجاح المؤامرة التي دبرها يهوذا، كان الجنود يحملون المشاعل، وكان يمكن إرشادهم بعلامة أخرى بينما كان يهوذا يحتفظ بمكانه في المؤخرة، ولكنه لم يفعل ذلك، ولأنه كان ما يزال يعتقد أن يسوع معلمه فقد تصرف كما لو كان صديقه الحميم ولكن القتل كان في قلبه وقبلته.

أراد يسوع أن يعفي يهوذا من أداء هذا الجانب من الخيانة، والذي يمثل القشة التي قصمت ظهر البعير، ألا وهو إظهار الرياء المتمثل في قبلة خائن. لم يكن هناك ما يدعو لأن يقوم يهوذا بالإشارة إلى يسوع، وقد حاول يسوع أن

يبطل رمز الخيانة بقوله للجنود الذين جاءوا إلى البستان.

«من تطلبون؟ أجابوه: يسوع الناصري. قال لهم يسوع: أنا هو» (يو ١٨:٤،٥).

ولكن يهوذا رفض الاستفادة من العرض – أو هل نقول إن الشيطان لم يدعه ينتهز هذه الفرصة؟ كان على يهوذا أن يشرب من الكأس حتى الثمالة، وأن يعفر وجهه في التراب، ولذا «تقدم إلى يسوع وقال السلام يا سيدي وقبله»!

بترحيب من قبل الكهنة

إن الكراهية التي كانت في صدور الكتبة والفريسيين من نحو المسيح جعلتهم شغوفين لسماع العرض المقدم من يهوذا لتسليم المسيح لهم: «ولما سمعوا (رؤساء الكهنة) فرحوا ووعدوه أن يعطوه فضة» (مر ١٤:١١). لقد أتاح الرسول الساقط الفرصة للشيطان لكي تكون له الكلمة العليا في حياته. وعندما باع يهوذا المسيح الذي كان الشيطان يكرهه، وجد وجوه الجحيم المبتسمة على أتم الاستعداد لدفع الثمن المتفق عليه. لابد أن أعداء المسيح الفرحين هؤلاء كان لديهم فكرة سيئة عن يهوذا. فعلى الرغم من كونهم مرائين، إلا أنه لابد أنهم كانوا يكنون احتقاراً في قلوبهم لتلميذ مرتد على استعداد لبيع سيده. إن الأعداء الظاهرين والمستترين والجهنميين يفرحون في اللحظة التي ننزل فيها من على جناح الهيكل ونصبح أقل تمسكاً بمسيحيتنا، إن قوى الجحيم كلها تسر عندما يكون الناس على استعداد لأن يبيعوا المسيح لأجل مسرات هذا العالم وممتلكاته. اخفض الراية، وساوم، واعرج بين الفرقتين، وسوف تجد أنصاف المتدينين على استعداد للترحيب بك «كزميل طيب».

٦– اكتمال الصفقة

وصلنا الآن إلى لب قصتنا المحزنة والدنيئة. إن تسليم يسوع والقبض عليه بث الرعب في قلوب التلاميذ الآخرين، فتركوه وهربوا (مت ٢٦:٥٦). اقتيد يسوع لمواجهة رئيس الكهنة والسنهدريم، حيث تحمل اتهاماً زائفاً، واحتمل العار والخزي. ولكن عند هذا الوقت كانت الصفقة قد كملت وكان المسيح الذي أسلم في أيدي أولئك الذين حاولوا قتله أكثر من مرة.

ثمن الشراء

إن كان حب المال هو الدافع للخيانة، لكان الثمن المدفوع قليلاً جداً، ربما كان هذا الثمن دفعة أولى من مبلغ أكبر متفق عليه كان سيُدفع مؤخراً. عندما احتج يهوذا على سكب كمية كبيرة من الطيب على رأس يسوع سأل: «لماذا لم يبع هذا الطيب بثلثمائة دينار ويعطي للفقراء؟». وحيث أن الدينار الروماني كان الأجر اليومي المعتاد للفلاح في ذلك الوقت، فإن ٣٠٠ دينار كانت تعادل أجر الفلاح لمدة ٣٠٠ يوم – وهي كمية تكفي لجعل لعاب يهوذا يسيل لأجلها. ومع ذلك فقد ساوم ليسلم ابن الله لأجل ثلاثين من الفضة، وهي أقل من نصف المبلغ المتمثل في الـ ٣٠٠ دينار. كل ما كان المسيح يساويه بالنسبة ليهوذا ثمن عبد عندما يقتله ثور (خر ٢١:٣٢). «وأخذوا الثلاثين من الفضة ثمن المثمن الذي ثمنوه من بني إسرائيل» (مت ٢٧:٩).

لابد أن ضآلة المبلغ المقدم من المال كانت إهانة ليهوذا، ولكنه أخذ المبلغ البائس دون أن ينبس ببنت شفة. لو أن شخصاً قال ليهوذا يوم اختياره رسولاً إنه يوما ما سوف يبيع المسيح الذي دعاه لأجل ثلاثين من الفضة، لا نفجر غاضباً بشدة لمثل هذا القول. ولكنه احتفظ بخطية الجشع في قلبه، وظلت تنمو حتى دفعته لارتكاب جريمة وحشية يعجز اللسان عن وصفها وقد جعلته محتقراً حتى يومنا هذا. لقد ولدت الشهوة خطية، وعندما اكتملت الخطية انتجت موتاً مريعاً، يالهول الأفعال التي يرتكبها البشر لأجل المال!

يتحدث حزقيال عن تدنيس الله عند شعبه «لأجل حفنة شعير ولأجل فتات من الخبز» (حز ١٣:١٩).

ويصف عاموس الذين «باعوا البار بالفضة والبائس لأجل نعلين» (عا ٢:٦)

ومازال هناك الذين يبيعون الشرف والحق، ويقايضون نفوسهم بالمال ويضحون بالديانة وأي رجاء في السماء لأجل المكسب المادي. وكما كان مع يهوذا قديماً، فإن شهيتهم المفتوحة لاكتناز الذهب تجلب عليهم خسارة أبدية، لقد علم يسوع أن نفس الإنسان أثمن من كل ثروة عالمية، ومع ذلك فقد قدرت قيمة السيد بما يعادل ١٠٠٠ دولار. أما يوحنا الذي اكتشف كم كان ربه الذي لا مثيل له ثميناً لديه، فقد كان ثمنه يفوق اللآليء لم يحدث أبداً أن دفع مثل هذا الثمن الهزيل مقابل أنفس كنز في الوجود.

علينا أن نحترس من الإقلال من قيمة المسيح. فإذا اعتبرناه كنزنا الثمين لا يكون هناك مجال للخوف من بيعه وخيانته، أو مقايضته بكنز أقل. حولنا الكثيرون الذين يتخلون عنه وعن الضمير الصالح لأجل الحصول على قدر من المتعة، والاستمتاع بأصدقاء السوء، ولأجل خطيتهم المحبوبة، ولأجل حب الظهور ومديح الناس. إن فكرة أن واحداً من مختاريه الاثنى عشر قد باعه لأعدائه الألداء بثمن عبد قد اخترقت قلب يسوع وأدمته.. اضطرب (يسوع) بالروح وقال: «الحق الحق أقول لكم إن واحداً منكم سيسلمني» ليتنا نحذر من مبادلة المحبة بالخيانة. وطعن جنب المخلص من جديد!

المشترون عديمو الرحمة

شعر يهوذا بالندم، عندما رأى يسوع يسلم إلى بيلاطس البنطي، فحاول رد الثلاثين من الفضة إلى رؤساء الكهنة والشيوخ، معترفاً بعد فوات الأوان أنه قد أخطأ إذ سلم دماً بريئاً. ولكنهم سخروا منه، هؤلاء القادة الدينيون الكارهون ليسوع لم يكن يهمهم مصيره، ولم يكن يؤرقهم ضمير يهوذا المتعب.

«ماذا علينا؟ أنت أبصر» (مت ٢٧:٤). إذا كان ذنب يهوذا عظيماً، فإن سخرية الذين عيروه كانت محملة بذنب أعظم، من يعلم؟ ربما لو كان يهوذا قد لقي عطفاً ومشورة من أولئك، الذين كان يجب عليهم أن يقدموهما بسبب مركزهم الديني، لكان قد خلص حتى في تلك اللحظة الأخيرة.

وكم كان منطقياً رد فعل أولئك الذين استغلوا يهوذا للإيقاع بيسوع بين أيديهم! فقد اعتبروا يهوذا مسئولاً عن الصفقة التي اتفقوا معه عليها سوياً. في أحيان كثيرة، عندما يبيع الناس المسيح لأجل طبخة عدس كعيسو، ثم يعربون عن ندمهم الشديد لذلك، فإنهم يعاملون باحتقار ولا مبالاة من قبل أصدقائهم الأشرار. أن التائب لا يجد أي عطف من قبل أولئك الذين يرغبون بشدة في التخلص من المسيح. ولسان حالهم يقول «عليك أن تترك لحالك لتتحمل كل نتائج خطيتك». إنهم يسخرون ويستهزئون من أولئك، الذين عندما يرون خطأ طرقهم أخيراً. وإن المرء ليتساءل عما كان يمكن أن يحدث لو أن يهوذا قد أتيحت له الفرصة للبوح بالآلام التي يكابدها ضميره المعذب أمام يسوع بدلاً من التصريح بذلك أمام الكهنة والشيوخ قساة القلوب.

٧- التوبة عن الصفقة

نأتي الآن لاستعراض العواقب الوخيمة الناتجة من الصفقة الرهيبة التي عقدها يهوذا مع أولئك القادة الدينيين، وعندما نفعل ذلك لا يسعنا إلا أن نعرف مقدار صحة هذه الكلمات التي تصف ماحدث ليهوذا الخائن «كل واحد يجرب إذا انجذب وانخدع من شهوته، ثم الشهوة إذا حبلت تلد خطية والخطية إذا كملت تنتج موتاً» (يع ١:١٤،١٥).

ضمير معذب

مراراً وتكراراً نسمع صيحة القلوب التائبة «أخطأت» قد نوافق مبدئياً على العبارة العامة التي قالها بولس «إذ الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله» (رو ٣:٢٣)، ولكن كم عدد الذين يرفعون أياديهم إلى السماء ويقولون: «أخطأنا خطية عظيمة» (خر ٣٢:٣٠)؟ إن الملك شاول، الذي يعد من بعض النواحي يهوذا العهد القديم، وصاح بنفس متألمة: «قد أخطأت» (١صم ١٥:٣٠، ٢٦:٢١). وقد كانت هذه أيضاً صيحة أيوب (٧:٢٠، ٣٣:٢٧). يخبرنا متي أن يهوذا قد ندم وهي لم تمكن توبة نحو الله. عندما سمع يهوذا حكم الموت يصدر على يسوع، فإن آلام الندم أمرضت روحه، ولكن لم تكن هناك دموع كدموع بطرس الذي «بكى بكاء مراً» بسبب إنكاره للمعلم. وأخيراً، فإن ذكرى الصديق الذي سلمه أصبحت ناراً محرقة عندما استرجع ذكرى الصداقة المطعونة، وحاول بروح الندم التخفيف من وقع الجريمة على ضميره، بالاعتراف بالذنب ونبذ مكاسبه الدنسة ولكن دون جدوى!

جميع الذين يسلمون دماً بريئاً يكتشفون إن آجلاً أو عاجلاً مهما كبر حجم خطيتهم. قبل ارتكاب الخطية، يرون المكسب المادي، وبعد ارتكاب الخطية، يكون الشعور بالذنب وتأنيب الضمير. مسكين يهوذا، لقد خسر المسيح، وخسر زملاءه الرسل، وخسر المال الحرام، وأخيراً خسر نفسه والسماء. ليت جموع الرجال والنساء الذين أعمتهم الخطية يدركون أن الثمن الذي يدفعونه في الخطية فادح حقاً، فإذا لم يندموا على اليوم الذي استخفوا فيه بالمسيح وأهانوه، سوف يكون الندم اللانهائي من نصيبهم حيث الدود الذي لا يموت.

اسم ملوث

رأينا من قبل أنه حيثما يذكر يهوذا، نتذكره مسربلاً بهذه اللافتة «الذي أسلمه» ففعلته الشنعاء مرتبطة باسمه، حتى يربط الناس دائماً بين الاثنين معاً. إن الاسم يهوذا الإسخريوطي يستدعي دائماً لذاكراتنا الرجل الذي لوث يديه بدم أطهر إنسان سار فوق أديم هذه الأرض، وطالما كان العالم قائماً سوف يذكر اسم يهوذا لسبب واحد، أنه الذي باع ربه! وكل شيء بخلاف ذلك في طي النسيان.

ولكن أكثر أوصاف الخائن رعباً، ذلك الوصف الذي صدر من شفتي الشخص الذي سلم بواسطته. قال يسوع عن يهوذا إنه «ابن الهلاك» أي، الشخص الجدير بالهلاك (يو ١٧:١٢، انظر مت ٢٣:١٥، ٢تس ٢:٣). يذكرنا الاستاذ أ.ب بروس أن «يسوع استطاع أن يحتمل نقائص التلاميذ المخلصين، ولكن شخصية يهوذا التي تجمع ما بين التفكير السليم ورقة المشاعر وبين خداع القلب والإنحلال العملي سلوكياً، والتي تكتفي بتقديم الوعود دون الوفاء بتلك الوعود، وتستبدل بأداء العمل أداء صحيحاً بمجرد التفوه بكلمات بشأن أداء ذلك العمل – كانت منفرة وباعثة على الاشمئزاز في روحه.

وإشارة ربنا إلى يهوذا بأنه «ابن الهلاك» قد ترجمها مارتن لوثر بأنه حقاً يمثل «الرسول الضال». كان يسوع ساخطاً على يهوذا بسبب ما أسماه «القفر» والكلمة التي استخدمها يسوع وهي «الهلاك» هي نفس الكلمة المقابلة في اللغة اليونانية الكلمة «قفر». لقد سلب الطمع الخصال الجيدة في شخصيته بالتدريج، ولذلك فإن يهوذا مات مجدباً.

«اسم الاشرار ينخر» (أم ١٠:٧) ليتنا نسعى جاهدين لنترك وراءنا اسماً حلو الرائحة كالطيب المهراق! ذكر الصديق للبركة» (أم ١٠:٧).

نهاية مأساوية

يقول بعض الدارسين إن الأمل كان يراود يهوذا بأن

يسوع سوف يجري معجزة ويهرب من أيدي الذين قبضوا عليه، ولأن يسوع لم يفعل ذلك، فإنه مضى وخنق نفسه. ولكن يهوذا قتل نفسه لأنه علم أن حبه للمال قتل معلمه في النهاية، «خنق نفسه» (مت ٢٧:٥). و«انسكبت أحشاؤه كلها» (أع ١:١٨). هل يمكن أن يكون اعترافه بشأن تسليمه دماً بريئاً نابعاً من ناموس موسى، الذي كان اليهودي، يهوذا، ملماً إلماماً تاماً به؟ «ملعون من يأخذ رشوة لكي يقتل نفس دم بريء ويقول جميع الشعب آمين!» (تث ٢٧:٢٥).

كم كان انتحار يهوذا عملاً مأساوياً مصاحباً لصلب المسيح، فقد كان يهوذا سيئاً جداً ليرتكب مثل هذا الفعل الشائن، وكان حسناً لدرجة أنه لم يستطع أن يتحمل عبء ذنبه. وكما قال يسوع، كان خيراً له لو لم يولد. ولما تبرأ منه الكهنة الدينيون الماكرون الذين سخروا من مبادئه فيما يتعلق بأخذ أموالهم، ولمَّا كان ضحية عذاب الضمير الذي كان يوخزه بشدة مما سبب له جحيماً لا يطاق في كيانه. فإن قلبه الذي طالما كان قاسياً قد أصبح كسيراً في النهاية، فوضع نهاية لحياته. لقد سعى يهوذا نحو حتفه ومضى نحو أبدية يكللها العار والخزي بعد أن انتحر أدبياً وأزهق روحه. إن للخطية نهاية مريعة، فلابد أن وراء العديد من المآسي من حالات الانتحار وجرائم القتل قصصاً كثيرة عن مسيح قد رفضه الناس أو باعوه!

والأبيات التي كتبها وبلين Blane مناسبة في هذا المقام:

ثلاثون من الفضة

أعطوا ثلاثين من الفضة ثمناً لرب الحياة
ثلاثون من الفضة، ليست سوى ثمن عبد
ولكن هذه كانت القيمة الكهنوتية لقدوس الله
ووزنوها في الهيكل ثمناً لدمه الثمين
ثلاثون من الفضة في يد الإسخريوطي
ثلاثون من الفضة ومساعدة عصابة مسلحة
كشاة تساق إلى الذبح جاءوا بابن الله المتواضع
في نصف الليل من البستان، حيث كان عرقه كقطرات الدم
ثلاثون من الفضة تلهب عقل الخائن
ثلاثون من الفضة – أوه، إنها ربح جهنمي
وأخيراً صرخ بصوت خفيض
أخطأت وسلمت دماً بريئاً
عندما ألقى بها في الهيكل
واندفع يخنق نفسه كالمجنون
ثلاثون من الفضة في بيت الله
ثلاثون من الفضة، ولكنها كانت ثمن دم
وهكذا أعطوا ثمناً لمقبرة يدفن فيها الغرباء
ثمن المسيا، الذي وضع في قبر مستعار

أبدية مريعة

لو كان يهوذا يعتقد أنه بإنهاء حياته، ينهي عذاب الضمير، فإنه يكون قد ارتكب خطأ مريعاً. عندما تتآمر الخطية والمتاعب على إنسان، ويبأس من الحياة، ويفكر في الانتحار كمهرب من الندم الداخلي، فهو مخدوع بشدة من الشيطان، لأنه إذا مات بلا مسيح، فسوف يذهب إلى أبدية يجتر فيها الندم العميق. يقول لوقا «الرسالة التي تعداها يهوذا ليذهب إلى مكانه» (أع ١:٢٥). يستخدم يوحنا هذه العبارة اللافتة للنظر: «ذاك.. خرج للوقت. وكان ليلاً» (١٣:٣٠). قال يسوع عن الخائن: «كان خيراً لذلك الرجل لو لم يولد» (مر ١٤:٢١). ونفس الاسم الذي ذكر عن ضد المسيح الآتي استخدمه يسوع عن يهوذا «ابن الهلاك» (٢تس ٢:٣). ألا تدل هذه الأوصاف الخطيرة على أنه بسبب فشل يهوذا في الصراخ في ضيقته لمخلص الخطأة، فإنه مات في خطيته ومضى إلى المكان الذي يتفق مع حياة

كان يمتلكها الشيطان؟

لقد وضع دانتي يهوذا في روايته الشهيرة «الكوميديا الإلهية» عن الجحيم في أسفل دائرة تضم الملعونين كالشريك الأوحد للشيطان نفسه لينال أقسى عقاب. خرج يهوذا وكان ليلاً. أليس الأمر هكذا دائماً؟ لأن جميع الذين يموتون بدون نور العالم في قلوبهم، هناك الظلام الدامس إلى الأبد، حتى لو بحثوا عن السلوان في الانتحار. قال أوريجانوس أحد آباء الكنيسة الأوائل، إنه ربما واتت يهوذا في وسط العذاب الذي كان يعانيه، فكرة مشوشة بأنه في عالم الموتى، خلف الحجاب، قد يرى ربه ويعترف له بذنبه الذي ارتكبه في حقه. ولكن يسوع ما كان قد قال عن يهوذا إنه كان خيراً له لو لم يولد، لو كان هناك غفران لجريمته النكراء في عالم آخر. إن ابن الهلاك هذا قد أصبح محروماً من المسيح إلى الأبد» إن حياة يهوذا، التي ظلت لما يقرب من ثلاث سنوات خاضعة لأسمي المؤثرات، مع أنها مضت إلى ليل أبدي كان يمكن أن تصل إلى قداسة يوحنا .

قال يسوع «أنا أمضي لأعد لكم مكاناً» (يو ١٤:١-٣). ياله من مكان مختلف عن المكان الذي ذهب إليه يهوذا! لأنه لجميع الذين يموتون في المسيح، يوجد أرض الفرح الكامل، ومكان للسلام الأبدي ولكن بالنسبة لجميع الذين يعيشون ويموتون بدون المخلص، فانهم يذهبون إلى مكانهم – مكان العذاب الأبدي. مع أن يسوع قال إنه كان خيراً ليهوذا لو لم ير نور النهار، إلا أن والديه اعتقدا أنه من الخير أن يأتيا به إلى العالم، وقد ابتهجا لمولده. ربما أن تهذيبهما المبكر لابنهما كان ناقصاً، ولم يتم كبح جماح ميله نحو حب المال. فلو كان عمل الخلاص قد بدأ في البيت مع التحكم في الميول الشريرة بحب الانضباط، فلربما كان يهوذا قد نجا من تلك الميتة التي اختارها لنفسه بالانتحار. على الآباء أن يتذكروا دائماً أن التدريب الروحي للأطفال يجب أن يبدأ في وقت مبكر وأن الانضباط الذي يهدف إلى الاتجاه إلى الله يجب أن يكون صارماً.

قبل أن نترك الرواية المأساوية ليهوذا، ما هي بعض الدروس التي يجب أن نتعلمها من شخصيته وجريمته؟ يتبادر إلى أذهاننا في الحال نصيحة رسول آخر أكمل سعيه بفرح «من يظن أنه قائم فلينظر أن لا يسقط» (١كو ١٠:١٢). ويمضي بولس عندئذ ليقول إنه مهما تعرضنا للتجارب، يوجد دائماً طريق للهروب – افتقده يهوذا بكيفية ما! علينا أن نحذر من التساهل واللامبالاة إزاء أفعال إبليس الماكرة والخطية، «لئلا يتقسى أحدكم بغرور الخطية».

علينا ألا نعبث حتى بالتفكير في الخطية، لأن الفكر ينتج عملاً، والعمل يخلق عادة، والعادة تكون الشخصية، والشخصية تحدد الأبدية. كان في إمكان يهوذا أن يصبح أفضل الاثنى عشر ويصبح اسمه منقوشاً على أحد أعمدة المدينة المقدسة، ولكنه بدلاً من أن يكون مثالاً رائعاً للخدمة المسيحية، أصبح اسمه أقسى إهانة يمكن أن يلصقها شخص بآخر – خائن!

بالإضافة إلى ذلك يمكننا أن نذكر أفكاراً أخرى نابعة من تاريخ حياة يهوذا. على سبيل المثال، فنحن لا يجب أن نندهش عندما يكون هناك إنسان شرير في الكنيسة، فقد كان هناك رجل سيىء وسط الاثنى عشر رسولاً، فعندما يتضح أن استاذاً في اللاهوت مراءٍ، فليس هذا دليلاً يقام ضد صحة المسيحية. والعيب الذي ظهر في يهوذا لم يترك وصمة عار على اسم يسوع ولم يثبت عدم ولاء بقية التلاميذ، كما أن النعجة السوداء لا تكون قطيعاً أسود اللون. كان يهوذا في الظاهر تلميذاً – وكان من الداخل شيطاناً. وهو يقدم لنا التحذير بأنه حتى امتياز القرب من المسيح لا يعني أن شخصياتنا مقدسة. لقد عاش ثلاث

سنوات في شركة حميمة مع المسيح، وسمع كلماته ورأى أفعاله، وعاش في جو المحبة، وتلقي التعليم دون تغيير. ولكنه بعد أن كُرِّم كرسول، أصبح مذنباً بارتكاب جريمة الخيانة البشعة، وأصبحت جثته ممددة على عتبة الكنيسة كإنذار وتحذير لنا.

من الممكن للأسف أن تحسب ضمن المسيحيين، وأن تذهب إلى الكنيسة وأن تتلو الصلوات، وأن تقرأ الكتاب المقدس، وأن يكون لك اسم أنك حي ولكنك ميت روحياً، وأن ترتمي في حضن المسيح ومع ذلك يكون قلبك مختوماً يحول دون دخول محبته. لقد سقط يهوذا لأنه اتبع المسيح بقلب منقسم «كان عقله منصباً على ما يمكن أن يحصل عليه وليس على ما ينبغي أن يعطيه. فابن الهلاك هنا لم يصل إلى المستوى الرفيع الذي وصل إليه بطرس صاحب العبارة الشهيرة «قد تركنا كل شيء وتبعناك» كانت مشكلته أنه كان يحمل العالم في شهادته، وكان يحكمه رئيس هذا العالم وليس معلمه الصالح. ومع أنه قد ارتقى لمرتبة الرسولية، إلا أنه كان قانعاً بمجرد الانتماء إليها، والرسالة التي أعلنها عندما اتبع المسيح لم يكن لها مكان في قلبه وحياته، كان يعلن الكثير، ولكنه لم يكن يمتلك شيئاً – ولا حتى الفضة التي باع بها نفسه.

سقط يهوذا من على جناح الامتياز الشاهق الارتفاع إلى الأعماق السحيقة ومع ذلك لم يكن وليد الظروف، فمن المرجح أنه هو الذي أوجدها. إن اقترابه من يسوع كان يجب أن يغير قلبه، ولكنه حول عدم الثقة إلى كراهية. كانت له نفس امتيازات يوحنا ولكن كانت لها تأثيرات عكسية. إن وسائط النعمة قد تكون بركة أو لعنة، فكما أنها يمكن أن تكون حافزاً روحياً فإنها قد تكون فخاً، أو سماً زعافاً، فالنعمة تجعل الجيد، أكثر جودة، والرديء، أكثر رداءة. ليس الخائن وحده هو الذي ضحى بالمثل العليا من أجل المباديء الوضيعة. فقد نتراجع في رعب من خيانة يهوذا، ومع ذلك نفعل مثله ولكن بأشكال مختلفة. علينا أن نواصل التقدم، ونحافظ على مركزنا في الحياة، ونساير المتقدمين والأفاضل فنحن لا نستطيع أن نكون بمعزل عن الآخرين. وانتهاج طريق العزلة ينتهي عادة بخيانة كل مقدسات الحياة.

درس آخر نستنبطه من القصة المحزنة ليهوذا وهو أن المحبة هي دائماً الاختبار الحقيقي للتلميذ، ومحك الإخلاص في المناداة بالرسالة. فبدون المحبة العميقة والتي تزداد عمقاً للمسيح، يكون كل شيء عبثاً (يو ٢١:١٥–١٧). إن الاختبار القلبي لقدرته على خلاصنا وتقديسنا يمكن وحده أن يساعدنا في الصراع الدائر بين مثلثي الشر والخير في العالم. عندما قال يسوع للاثنى عشر المجتمعين حول المائدة «إن واحداً منكم سيسلمني» لم يوجه إصبع الاتهام ليهوذا، مع أن العبارة كان هو المقصود بها. وحيث أن كل واحد من التلاميذ الآخرين، كان يعلم نقطة ضعفه، فقد انتابهم الخوف فابتدأ كل واحد منهم يقول «هل أنا هو يارب؟» لم يقل أي واحد من الأحد عشر: «المقصود بهذا الكلام هو يهوذا» كلا، فقد نظر كل واحد إلى الحفرة التي لا قرار لها في قلبه، شاعراً أنه ربما يكون هو الخائن الذي كان يسوع يفضح أمره. شعر كل واحد أنه ربما يكون متهماً بهذا الاحتمال «هل أنا هو يارب؟» يجب أن أتعامل مع هذا التحذير كما لو كان موجهاً لي، وأعرف فقط أن المحبة الإلهية وحدها يمكن أن تغير القلب النجيس إلى قلب جدير بسكنى الملك.

هناك تحذير آخر يجب أن نعيره الالتفات وهو أن التوبة قد تأتي بعد فوات الأوان. فعندما انتابت يهوذا حالة من الندم، عرف أنه لا يستطيع إرجاع عقارب الساعة إلى الوراء، لقد تخطى نقطة الفداء. قد يصيح قائلاً: «أخطأت»

ولكن المسيح لم يعد قريباً منه ليقول «مغفورة لك خطاياك». وصل يهوذا إلى نقطة في تاريخ نفسه لم يعد فيها ربه وحبيبه قريباً منه حتى يتدخل. لقد حال يسوع على مدى سنوات بين يهوذا وبين خطيته المميتة، وقد كرمه المعلم، حتى وهو على عتبة خيانته، بأن حياه قائلاً: «يا صاحب». وتحمل لمس شفتيه الخادعتين. وإذا أحبه حتى إلى المنتهى، فقد سمح له بأن يمضي قدماً لأنه لم يكن حاكماً مستبداً يفرض أو يجبر يهوذا على التوبة.

كم هي مريعة تلك الفكرة بأنه في نهاية المطاف تترك بعض النفوس تماماً لترتكب الشر كما يحلو لها لدرجة أن الرحمة الإلهية تجد آذاناً صماء! ويمضي الشرير حيث يذهب إلى مكانه. ليس لأن الله لم يحبه، وليس لأنه لم يحذر دائماً ضد الخطر، ولكن بالرغم من كل المؤثرات المحيية والسامية الصادرة من السماء، «لم يهلك منهم أحد إلا ابن الهلاك». فالموت إذن، هو الاختبار الحقيقي للحياة، ويكتب كل خاطيء تاريخ حياته بنفسه في العبارة التي تقول «وذهب إلى مكانه». جميع الناس يفعلون ذلك، القديسون والخطاة على حد سواء. عزيز في عيني الرب موت أتقيائه، لأنهم يمضون لكي يكونوا معه في المكان الذي أعده لهم (يو ١٤:١-٣). ولكن تدنيس النفس يجب أن ينتهي بالهلاك. إن الفارق بين موت يسوع وموت يهوذا يمتد بطوال الأبدية. السماء أو جهنم، الفردوس أو الهلاك - الاختيار يبدأ من هنا.

يـوحـنـا
الرسول الذي جسَّد المحبة

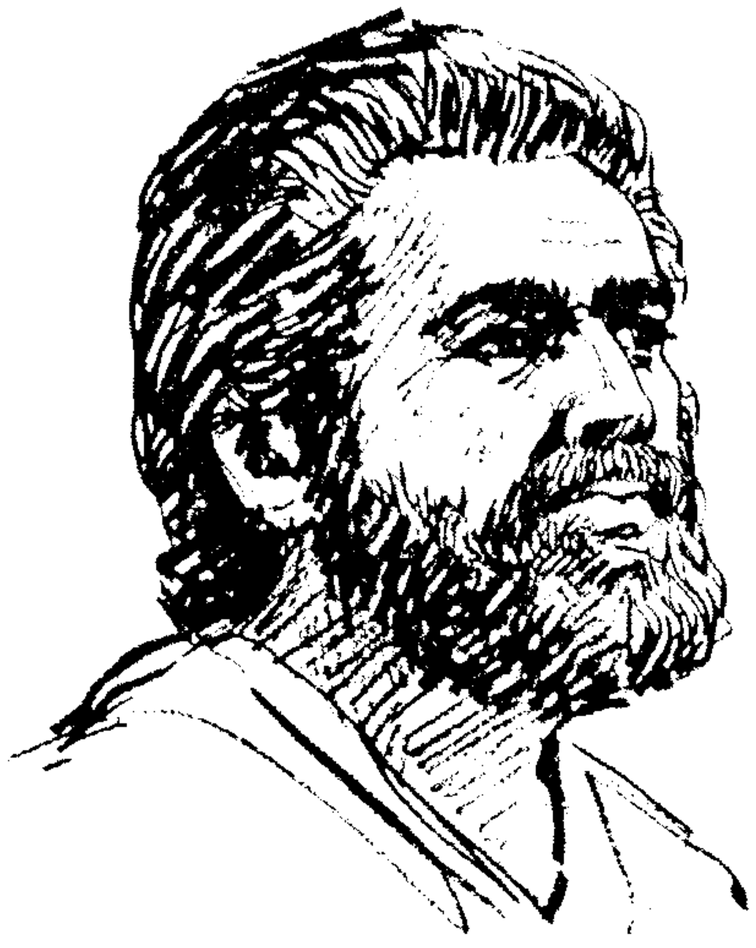

عندما نواصل تقديم لمحات عن الرسل يتضح بالتدريج أن دراسة تاريخ الحياة تأتي في المرتبة الأولى من الأهمية والإثارة. كم هو مفيد وجذاب أن نتتبع حياة شخص من البداية إلى النهاية، بملاحظة الملامح العديدة، ومتابعة الظروف والأزمات التي يجتازها لنكتشف ينابيع الشخصية وسر القوة. إنه اختبار مثر أن نتتبع مسار حياة من بدايتها حتى نهايتها. ولهذا السبب فإن الكتاب المقدس - تاريخ حياة البشرية - جذاب، لأنه يتعامل مع الحياة، بشخصياتها، وبمشكلاتها البشرية واحتياجاتها، وضعفاتها، وتجاربها وانتصاراتها.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن تأملاتنا تثبت أنه دوناً عن سائر البشر المدونة تواريخ حياتهم في الكتاب المقدس، لا توجد تواريخ حياة أكثر قيمة وإلهاماً من حياة الرسل. بسبب ارتباطهم الوثيق بالمسيح، مما أعطاهم فرصاً نادرة من الثقافة الروحية والخدمة، ودوناً عن حياة سائر الرسل ربما يعد يوحنا هو الشخصية البارزة بسبب شركته المجيدة والحميمة مع معلمه والذي خدمه مدة أطول من أي رسول آخر. دعنا نحاول إذن أن نرسم خطوط الملامح البارزة لذلك الشخص الذي كان ملماً بالأسرار الداخلية لسيده كما لم يحدث مع أي تلميذ آخر. يبدو أن يوحنا يحتل ركناً لوحده في معرض الرسل. ومع ذلك فعلى الرغم أن كتاباته التي حُفظت أكثر من كتابات أي رسول آخر، إلا أنه نادراً ما يكتب عن نفسه. هناك القليل من سرد لتاريخ الحياة في الكتب التي كتبها يوحنا، ولكن الأمر يختلف بالنسبة للرسول بولس فإن رسائله، جنباً إلى جنب مع سفر أعمال الرسل، تقدم لنا الكثير من الصور الوصفية لتاريخ حياته.

ومع ذلك فحتى ما يكتمه يوحنا فإنه يبوح به دون قصد. فالمعلومات المتعلقة بيوحنا تعد الأكمل من بين الاثنى عشر، فهو معلن لنا، ليس فقط في البشائر الثلاث الأول، ولكن في كتاباته هو أيضاً - وعن طريق تحفظه في الحديث. إن دراستنا لشخصية يوحنا، كما لكل شخصيات الكتاب المقدس الخاضعة للتأثير الإلهي، تؤكد القول الشائع للفيلسوف الإنجليزي، چون لوك، بأن «الله، عندما يصنع نبياً، فإنه لا يلغي وجود الإنسان بداخله». وعندما نستعرض كل رجال العلية ونرى صورهم أمامنا في ملف واحد، لا يسعنا سوى أن نرى قصورهم، وضعفهم، وبشريتهم، وكلها تشكل مادة للنحات السماوي الذي قال «هلم ورائي فأجعلك..» إن يوحنا وبقية الرسل كانوا «جواهر غير مصقولة في حاجة للصقل على عجلة الخدمة على يد صاقل الحجارة الكريمة»، كل واحد اختاره يسوع،

نما مثله بطريقته الخاصة، فالمسيح لم يقض على الشخصية الفردية أو يكبتها، ولكن صانع الرجال نماها وقدسها.

١- اسم ذو كرامة

من المثير أن نلاحظ الرسول يوحنا أشار في بداية إنجيله إلى ممهد الطريق ليسوع دون ذكر لقبه المميز «المعمدان». وقد كان الرسول بالنسبة له بمثابة التلميذ إلى معلمه. يعلق اليكوت على ذلك بالقول «لم يظهر معلم أعظم منه حينئذ، ولكن عندما ظهر (المسيح)، فكل من المعلم السابق والتلميذ شهدا له على السواء، وعلى الرغم أن ممهد الطريق ليسوع كان عظيماً، إلا أن الأصغر في ملكوت السماء أصبح أعظم منه. ولكن التلميذ الذي نحن بصدده الآن كان أيضاً «إنساناً مرسلاً من الله، اسمه يوحنا» (يو ١:٦) ومثل سميه أقيم ليشهد لذاك الذي جاء نوراً للعالم.

على الرغم أن يوحنا ذكر يوحنا المعمدان بوضوح على نحو بارز، دون إعطائه أي مؤهل، أو وصف، أو نسب، كما لو كان الشخص الوحيد في الأمة بهذا الاسم، والشخص الوحيد في عصره وفي الإنجيل، إلا أنه لم يذكر اسمه هو مرة واحدة في الـ ٢١ إصحاحاً التي تكون الإنجيل المسمى باسمه. يوحنا هو الوحيد دوناً عن البشيرين الأربعة الذي لا يقدم قائمة بالاثنى عشر رسولاً، والذي كان واحداً منهم، وبتواضع حقيقي، نادراً ما يشير يوحنا إلى شخصه - وهذه حقيقة سوف نتحدث عنها باستفاضة فيما بعد.

الاسم يوحنا، أو يونا - اسم شائع في عصره - يتفق في صيغته العبرية، مع الاسم يونا Jonah في العهد القديم وهو الاسم الذي يعني «حمامة» وقد كان الرجل الوحيد الذي يحمل ذلك الاسم بالضبط، على قدر معلوماتنا. ويبدو أن دلالة ذلك الاسم لا علاقة لها بشخصية يونا التي، أقل ما يقال عنها، أنها لم تكن كثيرة الشبه بالحمامة. ولكن بالنسبة لرسول المحبة فالأمر مختلف، وكما سوف تظهر الصورة التي رسمناها عنه، كان يظهر الكثير من ميزات الحمامة، إن الاسم يوحنا يعني «الرب رحيم» أو «نعمة الرب» وكان اسماً مفضلاً في الكنيسة الشرقية. ويقال إن الصليبيين قد حملوا الاسم معهم إلى إنجلترا، حيث بدأ ينتشر في القرن الثاني عشر. وكانت صيغته الأولى في أوروبا الاسم اللاتيني Johannes يوهانس، والذي اختصر إلى Johan يوهان وJon، ثم John (يوحنا).

٢- صياد سمك من الجليل

كان يوحنا الابن الاصغر لزبدي وسالومة، ولهذا السبب يمكن أن يسمى باسم أخيه، يعقوب، (يرجي من القاريء أن يتذكر أن الكثير مما قلناه عن يعقوب ينطبق أيضاً على يوحنا). ويوحنا بالمثل أصغر تلميذ سناً بين تلاميذ المسيح وأطول رسول من رسل الكنيسة عمراً. وطوال رحلة المعلم على الأرض، فإن الترتيب «يعقوب ويوحنا» يدل على الترتيب من حيث الأولوية في الميلاد (لو ٩:٢٨ هو الاستثناء الوحيد فقط). جاء يوحنا من عائلة ميسورة مادياً تقريباً، لأن والده زبدي كان يمتلك عدداً من القوارب، وكان يستأجر خداماً لمساعدته في مهنة صيد السمك المربحة (مر ١:١٩، ٢٠). من المرجح أن مركز يوحنا كان أفضل إلى حد ما من مجرد صياد سمك عادي بسبب الأجراء الذين كان والده يستعين بهم.

ربما كان زبدي له نفوذ كبير (مت ٢٧:٥٦، يو ١٨:١٥، ١٦، ١٩:٢٧). ومن المؤكد أنه كان مشهوراً في بلدته، بيت صيدا (يو ١:٤٤). ومع ذلك لا يذكر شيء عن رد فعله تجاه قرار ولديه بترك مهنة العائلة واتباع المسيح. لم يخبرنا الكتاب إن كان مسروراً أو متألماً بتركهما لحرفتهما وبيتهما. أما عن أم يوحنا، سالومة، فقد كانت

تلميذة ليسوع، واتباعها إياه يوحي بأنه بعد ترك الولدين للبيت، مات زبدي، وتم بيع معدات الصيد، مما أتاح لسالومة أن تكون إحدى النساء اللواتي خدمن يسوع من أموالهن. ياله من امتياز روحي عظيم أن نكون أطفالاً في بيت تقي!

لابد أن يوحنا، بامتهانه مهنة والده، كان معتاداً على مواجهة الخطر والمصاعب، ولتعرضه لكل أنواع الطقس، ولكل أشكال المخاطر المرتبطة به. لابد أن رجولته قد أشتد عودها، مما جعله قادراً على تحمل كل تجارب الخدمة لأجل المعلم. ومن المرجح أنه بسبب مهنة أبيه المربحة، فإن يوحنا لم يعرف الفقر أبداً حتى اشترك فيه مع يسوع. ألا يمكنك أن تتصور يوحنا يعمل بيديه التي أضناهما التعب، وملامحه التي اكتسبت لونا برونزياً بسبب البحر والعواصف؟ كان قوياً وجسوراً، يتسم بشجاعة في مقابل أي طاريء، ولم يكن يهزه أي مصدر عادي للخوف. هل يمكن أنه بسبب قوته، ورقته، اعتمد عليه يسوع طلباً للمساندة ووثق فيه؟ وبسبب كل امتيازات شبابه وقوته وشجاعته فنحن لا نندهش لأن اختيار المخلص ليوحنا كان له ما يبرره بسبب كثرة المؤهلات التي كانت تتطلبها التلمذة فيه.

يقول دانيل ماكلين إن مزاج يوحنا كان يتلاءم مع مكانته في العائلة، وأنه كان متاحاً له أن يمارس ما يحبه بسهولة أكبر من أخيه الأكبر يعقوب. «يبدو أنه كان الابن الموهوب - عبقري العائلة، كما نقول - ومن الواضح أنه كان مزوداً بمواهب روحية على مستوى عال، وبالاختصار، فإن بصيرة الشاعر وبُعد نظر النبي كانتا من الصفات الفطرية فيه، وقد مكنته مهمته السهلة في البيت، بالإضافة إلى عمق تفكيره، من الامتثال للدوافع التي أيقظتها موجة الإثارة التي خلقها يوحنا المعمدان».

يؤكد بعض الكُتَّاب الأوائل أن يوحنا يبدو دائماً أنه عاش حياة العزوبية فقد أعلن أمبروز بقوة أن جميع الرسل كانوا متزوجين باستثناء يوحنا وبولس. وفي العصور الوسطى، كان هناك من يحاول دون نجاح أن يقول إن يوحنا كان هو الشخص الذي كان يتزوج في عرس قانا الجليل، وأنه عندما رأى يسوع يحول الماء إلى خمر، فإنه أصبح تلميذه على الفور. ما هو واضح تماماً حقيقة أن يوحنا كان له بيته الخاص والذي أصبح بعد موت يسوع بيتاً لمريم، أم يسوع. كان من خلف يوحنا وأخيه الأكبر يعقوب، تأثير منزلي مبارك لابد أنه شكل حياة يوحنا العائلية. وعلى الرغم أنه لا ذكر للتأثير الذي كان لوالده، زبدي، على حياته، إلا أنه لابد أن يوحنا قد تأثر كثيراً بحياة أمه العزيزة وشهادتها. نحن لا نعرف متى أصبحت سالومة تلميذة للمسيح، فمن المرجح أن ذلك لم يحدث سوى بعد أن تلقى ولداها الدعوة لاتباعه، وإذا كان مما يسجل ليوحنا أنه كان السبب في الاتيان بأمه إلى المسيح، فلابد أن قلبه قد شعر بقدر كبير من الإثارة عندما لاحظ تكريسها المخلص والمتزايد لشخصه.

٣- تلميذ للمعمدان

لإتمام إرادة الله في عمل الله، على المرء أن يكون لديه استعداد روحي كاف وأكيد فلا شيء ذو قيمة ودائم يمكن أن يأتي من فراغ. لقد بدأ يوحنا الاستعداد لخدمته لجميع الأمم ولكل العصور، كتلميذ ليوحنا المعمدان. ونحن لا نعرف كم من الوقت قضاه مع المعلم في الأماكن الصحراوية! وكل الذين جاءوا له اعترفوا بخطاياهم، وتعمدوا، واعترفوا أنه نبي مرسل من الله. نتج عن احتكاك يوحنا بالمعمدان تغير روحي مفاجيء. فكيهودي تقي متحمس يعرف واجباته جيداً، توقع يوحنا مجيء المسيا، وعندما أعلن المعمدان أنه قد أتى ليعد الطريق

للمسيا الموعود به منذ أمد طويل، آمن به.

يالها من أيام زاخرة بالأحداث تلك التي قضاها يوحنا وسط الجموع عند نهر الأردن، وهو يستمع للكرازة القوية للمعمدان الذي اتسم بشيء من روح وقوة إيليا! كم تأثر يوحنا تأثراً بالغاً لشخصيته القوية والتعليم المذهل للمعمدان! وعندما أتت الساعة وظهر يسوع، وأشار المعمدان إليه، قائلاً: «هوذا حمل الله!». كم امتلأ قلبه بالفرح لرؤية المسيا. ولأنه كان ملماً بالعهد القديم، فقد كان على دراية بكل ما يتعلق بخروف الفصح، وبالنبوة عن أن المسيا سوف يأتي هكذا (إش ٥٣:٧). ولذلك، فعندما أشار المعمدان إلى يسوع كحمل الله الذي جاء ليرفع خطية العالم، ترك يوحنا المعمدان وتبع يسوع، ومن المرجح أن «التلميذ الآخر» الذي كان مع أندراوس كان يوحنا، وأنه أخفى اسمه بقصد التواضع (يو ١:٣٥، ٤٠).

من الواضح أنه كان هناك شيء ما في دعوة المعمدان لمست أوتار قلب كل من هذين الصيادين اللذين كانا يراودهما الأمل في مجيء المسيا. وكما عبر أحد الكتاب عن ذلك فقال: «لمست رسالة الكارز الغيور أعمق الأشواق القلبية، وشدتهما إلى ركب هذا الغريب بقوة جاذبة لم يستطيعا مقاومتها أو تفسيرها». منذ تلك الساعة صار قلب يوحنا أسيراً، ولم تفارقه فكرة رؤية يسوع كحمل الله. لقد أصبحت هذه الحقيقة أكثر وضوحاً عندما رأى المسيح يساق إلى الذبح، ويصلب على صليب. فقد أصبح «الخروف هو الخروف المذبوح» الحقيقة الرئيسية للإنجيل، والرسائل، وسفر الرؤيا وهي الأسفار التي كتبها. يشير يوحنا أكثر من عشرين مرة في السفر الأخير من الكتاب المقدس إلى الخروف، ويمجده كالموضوع المحوري للترنيمة الأبدية أمام العرش. كانت كرازة المعمدان صارمة، ولا تعبر عن الرقة التي تعلمها يوحنا من يسوع، والتي جعلته عظيماً كالكارز بالجَمَل الثمين.

كانت هناك أربع مراحل في التنمية الروحية لدعوة يوحنا وإرساليته:

١- متجدد وتلميذ ليوحنا المعمدان (يو ١:٣٥، ٤٠).

٢- اتصال وثيق بالمسيح عندما ترك المعمدان (يو ١:٤٠) فصار من أوائل التلاميذ الذين تمت دعوتهم.

٣- تلمذة تحت قيادة وتدريب المعلم (مت ٤:٢١، ٢٢).

٤- رسول لأكثر من ٧٠ سنة (لو ٦:١٣، ١٤). كان يوحنا من أوائل الرسل الذين ذكرت أسماؤهم (مت ٤:١٨-٢٢).

كان الهدف الذي أمام يسوع وهو يختار الرسل بعد ليلة صلاة (لو ٨:١٢)، أن تنتقل الخدمة إليهم، فقد كان يعلم أنه لن يبقى في العالم ليكرز لكل الناس. كانت تلك المهمة ستنتقل إلى أتباعه، فإذا فشلوا، فإن الكنيسة التي تخيلها يسوع سوف يتأثر نموها إلى حد خطير. ولكن كما يثبت سفر أعمال الرسل، فإن الرسل قد نجحوا نجاحاً منقطع النظير. كان خلاص العالم الهالك والخاطيء ليتم فقط عن طريق المخلص - وكانت كرازة العالم رسالة أولئك الذين كانوا شهوده. كان اختيار يوحنا كواحد من المفسرين الأوائل لرسالة المسيح المخلصة قد أتت بثمار كثيرة، لم يكن يوحنا، جنباً إلى جنب مع بقية الاثنى عشر المختارين، يمتلك الثروة، والمركز الاجتماعي، أو النفوذ السياسي، ومع ذلك فقد ذهبوا جميعاً ليكرزوا بالإنجيل للعالم وليس لبلد واحد أو إقليم معين (يو ٣:١٦).

٤- ابن الرعد

ما قلناه متعلقاً بهذه السمة المميزة في تصويرنا ليعقوب، مناسب هنا ونحن نتأمل في أخيه يوحنا. كان كلا الأخوين غير متسامحين، يكرهان الظلم وسوء المعاملة،

وكانا صارمين في موقفهما من المعتدين، وقد وجدا أنه من الأسهل بكثير أن يطلبا إنزال نار من السماء، من أن يقابلا الإهانة بالوداعة، وعندما كانا يشعران بالتعب والإرهاق، كانا يذهبان إلى قرية أخرى. ولذا فقد كان على يوحنا أن يتعلم درس التواضع «لستما تعلمان ما تطلبان» (مت ٢٠:٢٢). لم يكن الاندفاع من طرق المعلم، ولا يصح أن يكون طريقة يوحنا. لقد أصبح «ابن الرعد» ابنا للمحبة بالنعمة الإلهية. يبدو أن يوحنا كان أكثر شجاعة من بطرس ويعقوب، وقد ظل «ابن الرعد» بحق في تقديم مطالبه إلى الرب، وتقديم مطالب الرب إلى الناس بقوة وحماس.

عندما نأتي إلى تفنيد يوحنا القوي للآراء الزائفة عن المسيح في رسائله، نشعر بحيوية قوية ونشاط، وفكر دقيق قادر على مواجهة أقوى المهاجمين للحق والتعامل معهم. يخبرنا الدكتور إلدركمنج أنه اعتاد على أن يتساءل عن السبب في أن هذا الاسم الجديد «ابن الرعد» الذي أطلقه المسيح على يوحنا واخيه لم يستخدمه يوحنا أو يعقوب، كما استخدم بطرس اسمه سمعان، ولكن كما يمضي الكاتب إلى القول: «لقد توصلت إلى أنه لم يكن اسماً جديداً» بل اسماً «للإنسان العتيق» في فترة الشباب، كان عليه أن يمضي ويفسح الطريق «للإنسان الجديد» في المسيح. «ابن الرعد» رجل ينفجر فجأة في ثورة غضب بصوت عال، وعينين لامعتين - عاصفة تمضي في دقائق قليلة... لقد انقشعت سحابة الصباح، المظلمة، والمنذرة السوء، وكان غروب الشمس هادئاً، واضحاً، وجميلاً للغاية. لقد أصبح ابن الرعد ابنا للسلام».

٥- المؤتمن على أسرار المسيح وصديقه الحميم

يطلب منا بولس أن نجد بحماس للمواهب الروحية، ونحن نكتشف أننا نشتهي مكانة يوحنا أكثر من صدارة بطرس أو عرش يعقوب. وعندما يذكر الثلاثة سوياً يكون الترتيب كالآتي «بطرس، ويعقوب ويوحنا»، ولكن إذا كان بطرس ويعقوب يأتيان في المركز الأول بين الاثنى عشر، يأتي يوحنا في المرتبة الأولى في الاستحواذ على محبة سيده. ربما يكون بطرس ويعقوب قد شغلا المقام الأول في الكلية الرسولية، ولكن يوحنا احتل المركز الأول في قلب المسيح. ولذلك فإن الوصف الأجمل والأكثر بركة والذي يمكن أن يحظى به أي تلميذ كان من نصيب يوحنا في العبارة التي قيلت عنه «التلميذ الذي كان يسوع يحبه». صحيح أنه أحب جميع الذين اختارهم (يو ١٣:١. ٢)، ولكنه بكيفية ما أحب يوحنا كنفسه. لقد أصبح يوحنا رجلاً بحسب قلب الله. كان المعلم يسر كثيراً في صحبته لأنه وحده قريباً من نفسه. وعلى الرغم أنه لم يكن يحابي أحداً إلا أنه كان يجد في يوحنا القدرة العميقة على التأمل في الحقائق الروحية، وهي نوع من البصيرة الروحية التي تمكنه من فهم خطته.

بالنظر إلى ربه، تغير يوحنا إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد. وبالإضافة إلى ذلك، فإذا كان هو التلميذ الذي كان يسوع يحبه، فإن تلك الميزة توحي بأن يوحنا كان التلميذ الذي أحب يسوع أكثر من الكل، وبقوة محبته له كان يمتلك حساسية صادقة ورؤية حادة البصر لفكر معلمه وروحه. عندما كان يوحنا يتكيء في حضن يسوع، فإنه كان يعرف شيئاً عن دقات قلبه. كانت مثل هذه المكانة شرفاً يسعى إليه الكثيرون في رابطة المحبة.

كان تواضع يوحنا الجم والذي يرى في الطريقة التي يخفي بها جدارته وكرامته، يظهر في إنجيله، عندما يتحدث عن «التلميذ الذي كان يسوع يحبه». إنه يحذف اسمه كالتلميذ المتميز، تاركاً القاريء يخمن من هو الشخص الذي سمح له بالحصول على كل امتيازات ومقدسات صداقة المسيح. إن الشخص الذي كان أقرب

المقربين له، وأكثر الأصدقاء حميمية هو الوحيد الذي كان بإمكانه أن يفهم محبة قلبه، وهو الذي يستطيع أن يكتب عن تلك المحبة كما لا يستطيع شخص آخر أن يفعل. إن كل تعليم يوحنا عن المحبة نابض الحياة عن المعرفة القلبية الاختبارية العميقة من شخص سبر أغوار تلك المحبة. والتأكيد على محبة ربنا ليوحنا لافت للنظر بنوع خاص، لكونه موجوداً في خمس فقرات، أربع منها تحوي أحد معاني المحبة، وفقرة واحدة تحوي الكلمة اليونانية الأخرى المترجمة (محبة) والكلمة الأولى تعني الحب غير الأناني، المحبة التي لا تطلب أي مقابل (يو ١٣:٢٣، ١٩:٢٦، ٢١:٧، ٢٠-٢٣، انظر ٢٠:٢). وفي كل حالة نلاحظ أن المعنى الحرفي هو «الذي استمر يسوع يحبه» والكلمة التي يستخدمها يوحنا في مقابل يحب في حادثة القيامة هي نفس الكلمة التي استخدمها عند الحديث عن محبة الرب للعازر (١١:٣، ٢٠:٢) لقد ظلت محبة يسوع ليوحنا واهتمامه به باقيين وقد أعلنا عن نفسيهما بالعديد من الطرق لصالح التلميذ.

ثم إنه لا يوجد شيء جائر في شوق ربنا لمقابل نظير المحبة «أتحبني؟» (يو ٢١:١٥). فبعد سنوات من تلك الحادثة استطاع يوحنا أن يكتب قائلاً: «نحن نحبه لأنه هو أحبنا أولاً». كل شيء نقي وصادق في رغبة المسيح أن يجد نفسه محبوباً من قبل خاصته. كم هي معزية تلك العبارة التي تقول «الذي كان يسوع يحبه» أي، بمحبة متشبسة بنا لأن محبته من النوع الذي لا يجعلنا نفلت منه! نحن محبوبون بمحبة أبدية».

التلميذ الذي كان يسوع يحبه! ألا ينطبق هذا على كل واحد فينا، وعلى جميعنا، المفديين بدمه الثمين؟ لا تكون المحبة مؤثرة، إلا إذا كانت فردية وشخصية. ولأن المسيح أحب الجميع ومات لأجل الجميع، فإنه أحب كل واحد ومات لأجله. يمكن ترجمة «العام» إلى «خاص» فنصيح مع الرسول بولس قائلين: «الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي!» (غل ٢:٢٠). عندما وصف يوحنا حادثة تسليم يسوع صور نفسه حين قال: «وكان متكئاً في حضن يسوع واحد من تلاميذه كان يسوع يحبه» (١٣:٢٣).

يخبرنا الدكتور ج.ب جونز عن بستاني خاطب قطعة من الطين عبقة الرائحة في بستانه فقال لها: «ما هويتك؟ هل أنت وردة؟» أجابت قطعة الطين: كلا، ولكنهم وضعوني بجوار وردة» ألا نحصل على بركة مضاعفة، إذا كنا، مثل يوحنا، تلتصق بنا رائحة المسيح الذكية، نرجس شارون، ونعرف معنى أن نصبح كالورد في حين أننا لسنا سوى طين الأزقة؟

هناك دليل علني ومؤثر على صلة المحبة المقدسة القائمة بين يسوع ويوحنا يُرى عند الصليب حيث يبدو أن يوحنا هو الرسول الوحيد الحاضر، مع أن بطرس يعلن أنه، هو أيضاً، كان شاهداً على صلبه على عود الصليب (أع ٣:١٥). ولاهتمامه بمستقبل مريم، فإن يسوع في رقة محبته يستودعها لرعاية يوحنا الذي كان يسوع نفسه يحبه أكثر من الآخرين، لأنه كان بمقدوره استقبال محبته أكثر من الآخرين.

كان هذا الاستيداع الجاد المثير للحزن مزدوجاً، لأن قلب يوحنا المحب سوف يجد، كما أنه سوف يعطي عطفاً ومساندة حباً للأم. ومنذ تلك الساعة المقبضة، فإن التعاطف المتبادل لخسارتهما المشتركة قد أثبت أنه مصدر لمحبة كل منهما للآخر. وكما قرأنا «من تلك الساعة» فإن أي بيت كان ليوحنا كانت مريم تشاركه إياه. ولا يسعنا سوى أن نتساءل عن السبب في عدم ترك مريم في رعاية أخوة يسوع الآخرين، هل كان ذلك بسبب موقفهم من يسوع، لأنه في ذلك الوقت لم يكن إخوته يؤمنون به (يو

٧:٥، ٧)؟ نحن نقول إن «الدم أشد كثافة من الماء». ولكن تسليم مريم لتكون في رعاية يوحنا يثبت أن «الروح أشد كثافة من الدم». إن أصدق رابطة بين الناس هي التعاطف مع المسيح. فالمحبة له هي العامل المؤثر الذي يحرك أصدق المشاعر الإنسانية، ولذلك فإن الفرص المتاحة ليوحنا من قبل ربه المالك بإظهار حبه نيابة عنه، كانت ذات قيمة عظمى لتنمية شخصيته.

لاشك إذن أن يسوع لم يكن في إمكانه أن يعطي شهادة أعظم، في إظهار حبه الخاص ليوحنا، من أن يستودع أمه، التي كان يكن لها معزَّة أكثر من كل الأقارب الأرضيين، إلى رعاية يوحنا واهتمامه. ألا نستطيع أن نتصور كيف وقف يوحنا بجوار مريم، يساندها بذراع قوية في ساعة آلامها الشديدة، ثم عندما انتهى كل شيء اقتادها بعيداً إلى مسكنه الخاص، الذي كان عليها أن تشاركه فيه حتى وفاتها؟ لم يستطع يوحنا أن ينسي لغة المحبة من قبل معلمه له قبل موته، ألم يكن هو آخر صديق تحدث معه قبل أن يموت؟ كان يسوع يعلم أن يوحنا مزود بعناصر قوة الشخصية الفطري منها والمكتسب، مما يجعله قادراً على تلبية المتطلبات الموضوعة على عاتق التلميذ الذي أحبه، كان العبء موضوعاً على الكتفين المناسبتين، لقد أعطى شرف القيام بأسمى مهمة لذاك الذي تشرَّب من روحه، وامتلأ برقته وعطفه. ليتنا نتأكد أننا لا نضطلع بأعباء أسمى مما نكون مستعدين لها بالفعل!

٦- بشير المحبة

يقول الأسقف المبجل روبرت لوث Robert Lowth : «إن الله الذي يوزع نعمه ومواهبه بكثرة كما يشاء، يبدو أنه قد أعطى ليوحنا بصيرة خاصة لفهم أسرار المحبة الإلهية. ثم أن يوحنا يجد متعة خاصة في توسيع نطاقتها، وهو يتعامل معها بطريقة بسيطة وغير مفتعلة، ولكن بفصاحة رفيعة المستوى تفوق القواعد الفنية البشرية، ولا يمكن نسبتها سوى للروح القدس الذي أعطاه هو الأقوال التي تفوه بها».

ثم أنه بسبب حياة المحبة التي شارك فيها يوحنا يسوع، والأهمية التي أولاها للمحبة في كتاباته اكتسب يوحنا لقب «رسول المحبة». ففي إنجيله ورسائله، قدم للعالم تعريفاً للمحبة لا يوجد في كتابات أي كاتب آخر، متديناً كان أم دنيوياً. ومثل هذا الإعلان عن المحبة ما كان من الممكن التوصل إليه سوى من الاحتكاك الشخصي الوثيق بمحب البشر نفسه. فبعد أن اجتاز يوحنا كل اختبارات النمو الروحي، أدرك أن محبة المعلم قد جعلته أسيراً لهذا الحب. ولهذا السبب استطاع أن يتحدث عن نفسه بتأكيد خاص، «كالتلميذ الذي كان يسوع يحبه» كما لو كان مصراً على أن الإنجيل هو نظرية حياة كما أنه اختبار عملي يقوم على مبدأ عظيم واحد هو المحبة.

يستخدم يوحنا مصطلح المحبة في كتاباته أكثر من ثمانين مرة، ولم تكن المحبة التي تحدث عنها المسيح بالنسبة له إحساساً عاطفياً، بل مبدأ، وفضيلة مغيرة للحياة. والمادة التي يسجلها يوحنا عن المحبة الإلهية يمكن تصنيفها هكذا.

١- الله إله المحبة (يو ٥:٤٢، ١٥:١٠، انظر لو ١١:٤٢).

٢- الله أحب ابنه (يو ١٠:١٧، ١٥:٩، ١٧:٢٣، ٢٤، ٢٦).

٣- الله أحب تلاميذ المسيح (يو ١٦:٢٧، ١٧:٢٣).

٤- الله يحب كل البشر (يو ٣:١٦).

٥- المسيح يحب الله (يو ١٤:٣١).

٦- المسيح أحب التلاميذ عموماً (يو ١٣:١-٣٤، ١٤:٢١، ١٥:٩، ١٠).

٧- المسيح أحب الأفراد (يو ١١: ٥، ٣٦، ١٣: ٢٣).

٨- توقع المسيح من كل البشر أن يحبوه ويحبوا الله (يو ٨: ٤٢، ١٤: ٢٣).

٩- تعليم المسيح أننا يجب أن نحب بعضنا بعضاً (يو ١٣: ٣٤، ٣٥، ١٥: ١٢، ١٣).

١٠- أكد المسيح أن المحبة هي خلاصة وجوهر الناموس، ويمكن حفظ الناموس بحق عندما يحب الإنسان الله والقريب (خر ٢٠: ١-١٧، مت ٢٢: ٣٦-٤٠).

وبالإضافة إلى مواهب الأخرى، كان قلب يوحنا مفعماً بالمحبة. فإذا كان بطرس هو الأول في الترتيب. فلا شك أن يوحنا كان يحتل المرتبة الأولى في المحبة. فالمحبة بالنسبة له، كما يوضح في رسالته الأولى - هي الحياة - فالمحبة دليل على الحياة - والدليل على المحبة حفظ وصايا المسيح. والله محبة، وكما هو، يجب أن نكون نحن في هذا العالم. وحيث أن يوحنا كان محبوباً حباً جماً من المسيح، فقد أصبح يمثل الصدى المستجيب لهذا الحب - المرآة التي تعكس الصورة - والقيثارة التي تستجيب للمسة يد الموسيقار الماهر.

يقال إنه عندما كان يوحنا في أفسس، فلكونه مسناً، كانوا يقتادونه إلى الكنيسة هناك ليجيب على كل الاستفسارات المتعلقة بالإيمان، وكان يجيب دائماً بنفس العبارة «يا أولادي حبوا بعضكم بعضاً». وعندما كان ينفذ صبر الناس من هذه النصيحة الثابتة غير المتغيرة ويسألون عن السبب في عدم تغييرها، كان يوحنا يجيب بالقول إنها وصية ربنا، وأنه إذا اتبعت لوحدها، ففي ذلك كل الكفاية. يا أحبائي، دعنا نحب، لأن المحبة هي الراحة!

٧- شاهد أمين

يبدو أن كتّاب الكتاب المقدس كانوا يستخدمون كلمات أساسية معينة، كان تكرارها يدل على حقائق يريدون تأكيدها. ومن بين الكلمات الأخرى الأساسية ليوحنا، والمتكررة في إنجيله، ورسائله، وسفر الرؤيا كلمة «شاهد» وهي كلمة مستخدمة ٣٠ مرة.

ولكن الكلمات المشابهة مخفية جزئياً بواسطة الترجمات العديدة، فالكلمة «كتب» مستخدمة ١٣ مرة، وكلمة «يشهد» و«شهادة» مستخدمة ٢٥ مرة، كل هذه الكلمات الثلاث من أصل يوناني واحد، وهي قريبة من اللفظ «شهيد» يقدم يوحنا إنجيله بالتركيز على عمل يوحنا المعمدان كشاهد للمسيح كالنور، وأنه عن طريق مثل هذه الشهادة يؤمن الناس به. ولكن الرسول قدم شهادة أعظم (يو ٥: ٣١-٤٧).

ولأن يوحنا كان قريباً وشاهد معلمه يموت، فقد استطاع أن يكتب شهادته بأن كل ما رآه حقيقي (يو ١٥: ٢٧) ولأن يوحنا يعيش في السماء مع جميع الذين عرفهم وأحبهم. فقد كانت له شهادة لا يستطيع أحد مهاجمتها (يو ١٩: ٣٥، ٢١: ٢٤)، المسيحية حقيقية، وهي مؤسسة على حقيقة. يضع يوحنا مالا يقل عن سبعة أشكال من الأدلة التي يمكن الاعتماد عليها:

١- شهادة يوحنا المعمدان، الذي مهد الطريق ليسوع (يو ٥: ٣٢، ٣٣).

٢- شهادة الكتاب المقدس (يو ٥: ٣٩).

٣- شهادة الآب (يو ٥: ٣٧).

٤- شهادة المسيح نفسه (يو ٨: ١٤).

٥- شهادة معجزات المسيح (يو ٥: ٣٦).

٦- شهادة الروح القدس (يو ١٥: ٢٦).

٧- شهادة التلاميذ (يو ١٥: ٢٧).

إن إنجيل شخص ربنا يسوع المسيح وعمله يأتيان لنا على أساس الشهادة الإلهية والبشرية المؤكدة ويأمر كلٌ منهما أن نؤمن ونحيا (١يو ٥: ٧-١١). لاشك أن يوحنا

كان رائياً، ومؤشرات قدرته الرؤوية مقدمة لنا قبل صعود المسيح، وكان يوحنا أول من رأى حقيقة القيامة، وكشاهد مدقق وصف كل ما رآه، حتى موضع الملابس المتروكة. ثم أنه كان أول من عرف شخص الرب على شاطيء البحيرة عندما ظهر للتلاميذ بعد ليلة شاقة لم يصطادوا فيها شيئاً، ومرة أخرى فإنه كشاهد وصف كل ما حدث. ولكن قدرة يوحنا كرائي كانت في أحسن حالاتها في سفر الرؤيا - وهو سفر يصبح أكثر روعة كلما تمت دراسته بعمق. يا لها من شهادة لانتصار المسيح النهائي، فإذ يشهد فيه يوحنا لكل ما رآه، فإنه يقدم الحقائق الأساسية لإنجيل المسيح (رؤ ١:٤-٨)، وفي كل جنبات السفر، نرى المسيح ممجداً «كالشاهد الأمين».

قبل أن يتمكن يوحنا من الشهادة للعالم بالحقائق العظيمة التي أراد الله أن يظهرها، كان من الضروري بالنسبة له أن يرى المعلم الذي طالما أحبه وخدمه في مجده السماوي (رؤ ١: ١٠-٢٠). وما رآه وسمعه كتبه في كتاب، يمكن تلخيص محتوياته هكذا:

١- رؤية الرب يسوع المسيح في كل جلاله.

٢- رؤية كنيسته على حقيقتها.

٣- رؤية العالم الهالك بكل ما يحمله من عداوة.

٤- رؤية الأبدية بكل أمجادها.

استمر يوحنا لأكثر من سبعين سنة يقدم شهادة حاسمة جريئة لمعلمه، وقد خلق بذلك في قلوب القديسين من كل العصور كلاً من العجب والإيمان. وفي كل الظروف قدم الرسول شهادة تحمل اعترافاً عظيماً. كان حبه مركّزاً دائماً على معلمه، وكانت شهادته وعمله دائماً لمجده. شهد يوحنا في إنجيله لحقيقة أن رجل الجليل هو الله، وشهد في رسائله أن الله قد صار إنساناً، وفي سفر الرؤيا شهد بأن النصر النهائي الشامل على كل قوى الشر سوف يكون للرب يسوع - الله الإنسان. قام اللاهوتي الفرنسي الشهير جوديت، بتقديم هذا الوصف الملائم للشهادة المؤثرة ليوحنا في العصر الرسولي.

دقت ساعة العمل في المقام الأول لبطرس. فقد أسس الكنيسة في فلسطين، وأقام راية العهد الجديد على أنقاض حكم رجال الدين من الفريسيين والصدوقيين، وتبعه بولس، وكانت مهمته تنحصر في تحرير الكنيسة من قيود اليهودية التي تلفظ أنفاسها، وأن يفتح باب ملكوت الله للأمم.

خلفهما يوحنا، والذي كان أول من أتى، ولكن أبقاه المعلم ليكون آخرهما، أكمل يوحنا إندماج تلك العناصر المختلفة التي تكونت منها الكنيسة، ورفع المسيحية إلى مرتبة الكمال النسبي والتي كانت قادرة عليه وقتئذ. ولذا يمكن أن يقال إن:

بطرس كوَّن الكنيسة الأولى

وبولس حررها

ويوحنا أسسها

٨- كاتب ذو شهرة

ذكر السير فيليب سيدني، ١٥٥٤-١٥٨٦ في إحدى قصائده الشعرية هذه العبارة: «قالت لي ملهمتي ربة الشعر: انظر إلى داخل قلبك واكتب» هذه هي الطريقة التي كتب بها يوحنا، الذي أحب أن يستخدم القلم والحبر والورق (٢يو ١٢، ٣ يو ١٣). وكانت كتابته على أعلى مستوى روحي لأن قلبه كان قصراً للملك الذي أحبه وأطاعه. تحدث اللاهوتي لوك Lucke بحق عن يوحنا فقال: «إنه يعيش وسوف يعيش دائماً وأبداً بكتاباته، والمستقبل ينتمي له، كما ينتمي الماضي» فالرسول الذي يعد من أقرب المقربين إلى المسيح، والذي اتكأ على صدره، أبقاه الله على قيد الحياة سنوات طوال ليكتب لأجل الكنيسة المسيحية ككل، وللعالم على نطاق واسع. وعلى

العموم، فقد كتب يوحنا كشاهد عيان (١يو ١:١). كانت له أفضل السبل حيوية لوصف الأشخاص والأحداث وإذا نقلب في صفحات إنجيله على سبيل المثال، نجد دقة الوصف، وإعادة تمثيل للمشهد كله كما لو كانت ذاكرته تحوي صوراً فوتوغرافية، وهي ذات قيمة أعظم من أي عدد من الاقتباسات الفردية (اقرأ يو ٣٨:١-٥١، ١٣:٢-١٧، ٨:٢٠-١٠). يتذكر يوحنا الأيام والساعات التي حدثت فيها الأحداث، لأنه كان حاضراً، ولأنه كان يكتب من الذاكرة فقد كان يعرف ما حدث في الساعة العاشرة، والسابعة، والسادسة (٣٩:١، ٥٢:٤، ١٤:١٩، إلخ).

أما عن أسلوب يوحنا في الكتابة، قد يذكرنا الدكتور و.جراهام سكروجي أنه «لا يوجد أحد من البشيرين لديه مفردات محدودة مثل الرسول يوحنا، ولكن لا يوجد واحد منهم يستطيع أن يستغل ما لديه من مفردات أفضل استغلال مثل يوحنا». كتب جودت عنه قائلاً «إذا لم يكن لدى الكاتب سوى القليل من الألفاظ في مفرداته فإن هذه الألفاظ يمكن مقارنتها بالقطع الذهبية التي يقدم بها السادة العظام المكافآت السخية». إن أسلوب يوحنا فريد من عدة نواحٍ - وهو شيء، يشعر به المرء دون أن يستطيع تحديده على وجه الدقة. يقول الدكتور بلمر Plummor، إن «أقل الناس إلماماً بالقراءة والكتابة يدركون تلك الخاصية، وأكفأ النقاد لا يمكنهم تحليل أسلوبه بما فيه الكفاية». وفيما يتعلق بتكوين الجمل، فإن يوحنا عادة يجعل جمله قائمة بمفردها، حتى أنه على الرغم من وجود التواصل الفكري، إلا أن هناك القليل من التراكيب اللفظية. ويمكننا أن نجد مثالاً لذلك في يو ١:١-٥ R.V، حيث نجد عشر جمل لا يربط بينها سوى (واو) العطف المتكررة ست مرات، وهناك خاصية أخرى لكتابته وهي تكرار كلمة أو جملة للتأكيد على الفكرة المراد توصيلها (٣١:٥، ٣٢، ١٠:١١، ١:١٤-١٩إلخ).

هناك خصائص أخرى لأسلوب يوحنا منوه عنها بالتفصيل في تعليق اليكوت في مقدمته عن إنجيل يوحنا، وفي «المرشد إلى الأناجيل» بقلم الدكتور جراهام سكروجي. وعلى العموم، فأسلوب يوحنا «دراسي وليس جدلياً، هادىء، وليس عنيفاً، بسيط، إلا أنه عميق، مباشر أكثر منه غامض، يتسم بالشفافية، وفي نفس الوقت عويص، روحي، وليس تاريخياً. كان وراء قلم يوحنا، فكر ثاقب لأنه كان مفكراً في مرتبة موسى أو بولس. إن زوّار متحف متروبوليتان للفنون في مدينة نيويورك تخلبهم غالباً لوحة «المفكر» وهي للفنان الفرنسي الشهير فرانسوا أوجست رودان، وهي عبارة عن لوحة حجرية لشخص جالس، ينحني إلى الأمام، واضعاً كوعه على الركبة، وذقنه على يده، وهو يحملق بعينيه اللتين تفحصان مجالات الفكر. لابد أن يوحنا جلس كثيراً، وهو يفكر، ويتأمل، مستكشفاً الأمور التي لها علاقة بشخص ربه وأعماله وأقواله، حتى تتضح ويظهر ترابطها المنطقي.

نحن لا نستطيع أن نقرأ كل ما سجله يوحنا دون أن نتأثر بالمركز السامي الذي ينسبه إلى يسوع. لقد كان ربه بالنسبة له الشمس التي يفوق نورها كل ضياء - والحياة السابقة على كل وجود - والعامل المحرك لكل طاقة.. بينما كان يوحنا يجلس ويفكر، كانت أفكاره الرائعة فيما يتعلق بلاهوت المسيح يتردد صداها على مر العصور، صاح كريسوستوم قائلاً :«اسمع كيف يدوي صوت يوحنا كالرعد!» علق أوغسطينوس على الكلمات الافتتاحية لإنجيل يوحنا فقال: «استهل يوحنا إنجيله بكلمات قاصفة كالرعد». ويتحدث بنجل Bengel عن نفس الجزء فيقول: «هذا هو الرعد الذي يأتي لنا به ابن الرعد». يبدو أن يوحنا قد سبر أغوار الرؤيا بينما كل ما قام به آخرون هو

تحريك السطح. » كان يوحنا يتأمل حتى كان خياله يتخذ أجنحة تحلق عالياً حيث كان يسمع ويرى ما يفوق أي شخص آخر. كان التفكير والخيال والبداهة من وراء قلمه القوي، وكذلك «روح الحكمة والإعلان في معرفة» من أحبه.

ولما كان يوحنا ملماً إلماماً رائعاً بلغة بلده، فقد تُرجم من العبرية الأصلية، وما كان ينقصه في أي دقة يونانية في أسلوبه كان يستعيض عنه بوفرة من طريق حماسة نزعته، وفخامة وسمو مادته اعترف باسيل Basil أحد آباء الكنيسة العظام من القرن الثالث بأنه «لا يوجد أحد من بين كل البشيرين الإنجيليين مثل القديس يوحنا، ابن الرعد في سمو حديثه، وارتفاع مستوى أحاديثه عن قدرة أي إنسان على التوصل إليه وفهمه كما ينبغي». ويمكن أن يضاف إلى ذلك شهادة القديس سيريل الاسكندري الذي قال عن كتابات يوحنا:

«انظر لسمو أفكاره التي لا يسبر غورها، وفطنة تناغم منطقه، والاستدلالات السريعة لأحاديثه التي تتعاقب دائماً ويتبع كل واحد منها الآخر، فنحن بحاجة أن نعترف ونقر بأن إنجيله يفوق كل إعجاب».

كان المتصوفون (الباطنيون) القدامى ينظرون إلى يوحنا باعتباره البشير النسر، (النسر الطائر، ملك الطيور رؤ ٤:٧)، لأنه بجناح قوى وعين ثابتة كان قادراً على التحليق في السماوات المفتوحة بإيمان نبوي وكان بمقدوره أن يأتي بسر الله من وراء السحب في أيام الصلب، تلك الأيام الحالكة السواد. كان يوحنا يستجمع رموزه وإيضاحاته من أوسع الميادين. كان بحق الرائي الذي له رؤية النسر، والخيال الجسور والعبقرية الشعرية. كان يوحنا يصور في اللوحات الفنية للعصور الوسطى بوجه امرأة، لأن تشبثه بالثقة وأفكاره المباشرة جعلته المفسر الحقيقي للغة القلب بنوع خاص. ولهذا فإن اللقب الذي أُطلق عليه وهو «أفلاطون المسيحي»، لم يأت من فراغ. يقول الكسندر وايت في كتابه الفريد «شخصيات الكتاب المقدس» : «إن يوحنا، ابن صياد السمك لاغير، حباه الله منذ ولادته عقلاً من أذكى العقول التي وهبها صلاح الله لأي من أبناء البشر».

لقد استطاع هذا الجليلي غير المتعلم أن يصبح بفضل قلمه واحداً من الخالدين في العالم. ومع ذلك فإن يوحنا لم يكن يفتخر بكتبه التي لا تضاهي. فقد كان القلم والكتب والشهرة بالنسبة له كغبار الميزان، أو كلا شيء. فإذا تحدث الناس معه عن تأثيره ومؤلفاته، فإن رده الفوري يكون هكذا «حاشا لله أن أفتخر سوى بأن، يسوع أحبني!» لقد جادت قريحة يوحنا بخمسة كتب من الكتاب المقدس حيث كان قلمه مغموساً بمداد الإلهام، وكلها مليئة بما يدل على شخصيته، وعلى الرغم أنه مات منذ عدة قرون، إلا أنه وإن مات يتكلم بعد. وكل أسفاره الخمسة هي نفحات روحية خالصة. ومع أنه ليس لدينا متسع في مجال كلامنا عن الرسل تناول تفسير كل كتاب من كتب يوحنا، إلا أنه يكون من الملائم أن نقدم وصفاً مختصراً لكل كتاب.

إنجيله

لكون يوحنا يتصف بالتواضع فإنه لم يضع اسمه على هذا الإنجيل الرابع من أناجيل العهد الجديد والذي هو أساساً «إنجيل الحوارات» لأنه يؤكد على تفرد شخصية يسوع أكثر من الأناجيل الأخرى، وذلك من خلال الإفصاح عن مقابلاته ولقاءاته. هناك ٢٤ حواراً مع ١٧ شخصاً، ويمكن عمل قائمة بهم كما يلي:

نثنائيل الذي لا غش فيه

مريم أم يسوع التي احتفظت في قلبها بكل الكلمات التي قيلت لها عن ابنها المبارك، مرتين.

الرئيس المتحير، نيقوديموس.

المرأة السامرية الخاطئة والتي بالرغم من ذلك قدرت ربنا حق قدره.

قائد المئة من كفرناحوم.

رجل مقعد عند بركة بيت حسدا.

أحاديث مع فيلبس، ورجل أعمى، ومرثا، ومريم، ويوحنا، وبطرس - ٤ مرات، ورئيس الكهنة، وضابط، وبيلاطس، ومريم المجدلية، وتوما - الحديثان الأخيران بعد القيامة.

كانت غالبية هذه الحوارات عبارة عن أحاديث موجزة ليسوع، وكان بعضها عبارة عن توجيهات متعلقة بمعجزاته، وكانت مرتبطة بأحوال عديدة مختلفة. توجد في طبعة الـA.V. من الإنجيل ٨٧٩ عدداً، هناك ٤١٩ عدداً منها تحتوي على كلمات قالها ربنا، وهي نصف الإنجيل تقريباً. وهناك عبارة محددة فيما يتعلق بغرض ومحتويات إنجيله قد ذكرت قرب ختام الإنجيل وهي: «وأما هذه فقد كتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه» (٢٠:٣١). يتضح من ذلك إذن، أن يوحنا كان يركز على جانبين واضحين:

١- أن يقود الناس للإيمان الشخصي بيسوع التاريخي كالمسيح، أو المسيا (لليهود)، وكابن الله (للأمم).

٢- أن يقود الناس، عن طريق الإيمان، إلى نوال الحياة باسم يسوع.

يدعو إكليمندس الاسكندري إنجيل يوحنا هذا، بالإنجيل الروحي، وهو يقصد بذلك أنه يحتوى على قدر أقل من الرواية التاريخية عن أي إنجيل آخر، والمزيد من التعاليم، إنه يقدم بياناً أكمل عن الحقائق المسيحية، والمعدلة بطريقة رائعة لتفنيد الهرطقات المختلفة المتعلقة بشخص ربنا المبارك، والتي ظهرت منذ كتابة الأناجيل الثلاثة الأولى. تعد الـ ١٨ عدداً الأولى من الأصحاح الأول مفتاحاً للقصد من الإنجيل كله. ويركز يوحنا بصفة أساسية في إنجيله على الجانب الروحي من شخصية المسيح وتعاليمه. يدعو س.د جوردون هذه الأعداد «المفتاح الرئيسي للباب الأمامي»، وهناك «مفتاح الباب الجانبي» في أصحاح ١٦:٢٨ و«مفتاح الباب الخلفي» في ٢٠:٣١.

نحن في إنجيل يوحنا نجد أنفسنا في منطقة فكرية مختلفة اختلافاً كبيراً عن تلك الموجودة في الأناجيل الأخرى. وكما يقول اليكوت: «تعبر الأفكار المميزة عن نفسها في كلمات مميزة». وها نحن نورد، بعض هذه الكلمات، التي تعبر الصيغ الخاصة لها عن الأفكار الخاصة التي أتت إلينا عن طريق يوحنا:

النور - ٢٣ مرة

الحياة - ٥٢ مرة

المحبة - ٧ مرات (١٧ مرة في رسالة يوحنا الأولى)

الحق - ٢٥ مرة

حقيقي - ٥ مرات

شاهد - ٤٧ مرة (اسم وفعل)

يؤمن - ٩٨ مرة

العالم - ٧٨ مرة

علامة (آية) - ١٧ مرة

إن لإنجيل يوحنا سمة وتاريخاً فريداً أيضاً. وقد أسماه المعلق لانج: «لؤلؤة بين الأناجيل». بينما كتب عنه ڤان دورين قائلاً: «إنجيل الأناجيل» كذلك قال عنه شخص آخر «قدس الأقداس».

رسالته الأولى

في أي سفر آخر من أسفار الكتاب المقدس تسطع وجهة النظر السامية عن محبة الله بوضوح كما في رسالة يوحنا الأولى؟ كان الخطأ الأول الذي أزعج الكنيسة الأولى

يتركز في إنكار الطبيعة البشرية للمسيح، وليس الطبيعة الإلهية فيه. كانت مهمة هذه الرسالة تنحصر في تثبيت المؤمنين بشأن الآراء الصحيحة المتعلقة بشخص ومركز المسيح وطبيعته البشرية والإلهية، وكفارته. ولكن كما في كل كتابات يوحنا لم يكن يتم ذلك في صيغة بحث مجرد، بل بروح تتسم بأقصى دقة تدعو إلى الإقناع.

ويركز يوحنا بنوع خاص على محبة الله في الفداء، ويعتبرها حافزاً للقداسة والمحبة المتبادلة. وهذه الرسالة، في مجملها، مفيدة بشكل خاص، باعتبارها تقدم العديد من الاختبارات التي يمكن بها أن نمتحن صدق مجاهرتنا بالإيمان المسيحي (انظر ١يو ٢:٤، ٥، ١٥، ٣:٧، ١٥،٤: ١٣، ١٨،٤:٥). فإذا كانت هذه الرسالة، كما يقترح الأسقف وستكوت، كانت آخر سفر في العهد الجديد حسب الترتيب الزمني للكتابة، فإن هناك مقابلة مدهشة بين الكلمات الافتتاحية في الكتاب المقدس والعبارة الختامية فيه:

«في البدء خلق الله» تك ١:١

«أيها الأولاد احفظوا أنفسكم من الأصنام» ١يو٥:٢١ .

بصمته المعهود يخفي يوحنا اسمه كالكاتب لهذه الرسالة العامة، الموجهة لكل العصور والأماكن. كان يعلم أن الناس سوف تهتم بما تقوله الرسالة أكثر من الاهتمام بمعرفة اسم كاتب الرسالة. ولم يكن أحد يشك في أن الرسالة كُتبت بيد يوحنا الملهم.

رسالته الثانية

هذه الرسالة الأخرى، والرسالة التالية لها، عبارة عن رسالتين قصيرتين، أو مذكرتين تحتويان على القليل من الأعداد، وموجهتين لأشخاص معينين. فالتعليم والأسلوب والتصميم في هاتين الرسالتين تشهد بأن يوحنا هو كاتبهما. فعباراته جادة وبسيطة، قصيرة، ونافذة، وسواء كانت هذه الرسالة موجهة إلى كنيسة أو لعائلة فهذا سؤال قابل للنقاش. فمن بين الـ١٣ عدداً التي تحتويها رسالته الثانية، هناك ثمانية أعداد موجودة بجوهرها في الرسالة الأولى.

فإذا كانت موجهة لأم مسيحية، سيدة من أصل نبيل، لتحذيرها من الخطأ الشائع في ذلك العصر، فيما يتعلق بشخص ربنا المجيد، فهي إذن تتضمن أهمية الأم المسيحية في نظر الله، والجدية التي يجب أن تتعامل بها مع الحرب الروحية لأولادها والتشجيع الذي يجب أن تقدمه للخدام المسيحيين، وتثبيت دعائم الحق، بعمل ذلك.

رسالته الثالثة

كانت هذه الرسالة القصيرة موجهة إلى غايس المحسن والمضياف، والصديق المحبوب ليوحنا، والشخص الدمث المضياف لكل المؤمنين المحتاجين. من المرجح أن غايس هو الشخص الذي ذكره بولس (رو ١٦:٢٣، ١كو ١:١٤)، ولأنه كان يشتهر بنوع خاص بعطفه على الذين كانوا يتجولون للتبشير بالإنجيل، يعبر يوحنا عن فرحه المتزايد لذلك ولأجل الدلائل الأخرى على تقواه. نجد كلمة «الحبيب» ١٠ مرات في رسائل يوحنا الثلاث، وهذا اللفظ الجميل ذو المغزى يعبر عن الوحدة الجذابة في المسيح بين الرسول وغايس.

أما عن ديوتريفس، السيء السمعة بسبب طموحاته غير المقدسة والاضطرابات التي يتسبب فيها، فلا شيء يعرف عنه بخلاف العبارة الوجيزة التي يصف فيها يوحنا شخصيته بوضوح. هناك تناقض لافت للنظر في شخصية غايس، الذي يستخدم يوحنا لأجله لفظه المفضل «الحبيب» للمرة الرابعة في هذه المذكرة الموجزة. يزكي الرسول بشدة ديمتريوس ليكون صديقاً لغايس، كشخص مشهور بأمانته، وتختتم الرسالة بإرجاء الحديث في موضوعات أخرى إلى الوقت الذي يجتمع فيه يوحنا وغايس للحديث الشخصي

فيما بينهما.

سفر الرؤيا

لايشك أحد في نسبة هذا السفر الأخير من الكتاب المقدس ليوحنا. وعلى الرغم من حجبه لاسمه من إنجيله ورسائله، إلا أنه يستخدمه ٥ مرات في سفر الرؤيا (انظر ١:١، ٤، ٩، ٢:٢١، ٨:٢٢). كتب السير اسحق نيوتن يقول: «لا يوجد سفر في العهد الجديد مشهود له بقوة أو تم التعليق عليه منذ وقت مبكر مثل هذا السفر: ولا يضاهيه سفر آخر في سمو ورفعة مادته». أعطيت الرؤى المتضمنة فيه من قبل المسيح لتلميذه المحبوب، أثناء نفيه في جزيرة بطمس، وقد نشر ليس بعد وفاته بوقت طويل، في حوالي سنة ٩٧م.

وكل ما يجب أن يقال حيال هذه النقطة عن سفر يوحنا الشديد الإثارة هو ما كتبه د.م بانتون Panton ذات مرة:

«يعتبر سفر الرؤيا صدمة للنائم، ولدغة للجسداني، ومقو للأخيار، واستدعاء للموتى، وبالكشف عن الأشياء التي سوف تحدث بالتأكيد، فإنه يضع في أيدينا المفتاح الرئيسي لكل مشكلة معاصرة».

وهو يلقي بالضوء على الماضي كالوميض الكهربائي، وبالكشف عن مصادره، فإنه يكشف عن لب التحركات التي حولنا، حتى تتجه أقدامنا إلى الأبد إلى الطريق الضيق».

٩- سجين نيرون

سوف نتعامل في فصل تال عن التقاليد والأساطير المرتبطة بالسنوات الختامية ليوحنا وموته، وفي هذا الفصل فنحن نلفت الانتباه ببساطة إلى السجل الحقيقي لما يقوله الرسول نفسه فيما يتعلق بنهاية خدمته. من المرجح أنه بعد وفاة مريم (التي اعتنى بها يوحنا بأمانة تذكاراً لابنها الذي أحبه كثيراً). قرر بتصميم واضح أن يعطي ظهره لبيت الذكريات المقدسة، ومضى إلى كرم الرب الواسع العظيم. وعلى الرغم من القرون التي تفصلنا عنه، إلا أننا نجد أن الجلال المنفرد ليوحنا باعثاً على الرهبة. كان لبولس العديد من رفاق السفر ومريديه الذين كان يحبهم كثيراً، من أمثال الشاب تيموثاوس، يلتفون حوله. ولكن يبدو أن سجل يوحنا به كثير من الفراغات. بعد صعود المسيح، لابد أن الرسول قام بالخدمة لما يقرب من سبعين سنة، ومع ذلك فالستار لا يرفع بما فيه الكفاية للكشف عن حياته الطويلة.

وعندما يُرفع الستار لآخر مرة، نرى يوحنا رجلاً متقدماً في السن في عزلة المنفى فوق جزيرة معزولة، بدأ يوحنا حياة المعاناة لأجل المسيح عندما قُبض عليه مع بطرس ووُضع في السجن (أع ٣:٤) ولكنه عاش بعد استشهاد بولس وبطرس لما يقرب من ثلاثين سنة. صوَّر الشاعر برونينج في قصيدته «موت في الصحراء» عزلة يوحنا فقال:

مضى وقت طويل
منذ انطلق يعقوب وبطرس عن طريق الموت
وأنا لوحدي فقط، أخوك يوحنا
الذي رأى وسمع، ويستطيع تذكر كل شيء
لم يتبق على الأرض
أحد عائش عرف
ورأى بعينيه ولمس بيديه
ذلك الذي كان من البدء ، كلمة الحياة

كيف سيكون الحال، عندما لا يقول أحد آخر، إني رأيته؟

ولدينا أيضاً هذه السطور الأخرى المعبرة من الشاعر المسيحي:

بما أنني تعلمت من فم المسيح، وقد أمرت أن أعلّم

انطلقت لسنوات طوال أجوب العالم
قائلاً: «كان الأمر هكذا، هكذا سمعت، وهكذا رأيت»
تكلمت حسبما اقتضت الضرورة: وآمن الناس.

ولكن الشهادة الجميلة أتت على فم آخر شاهد بقي على قيد الحياة، وشهد لحياة، وموت، وقيامة وصعود يسوع المسيح. فقد بدأ امبراطور جديد، دومنيان، سلسلة جديدة من الاضطهاد عندما أخذ يكيد للكنيسة. فقد أبلغ شخص من آسيا الصغرى بأنه يوجد مسيحي بارز هناك يبشر بطريق المسيح. وسرعان ما وصل مرسوم من روما يأمر بالقبض على يوحنا ونفيه إلى بطمس. يبدو من السخف أن يخاف أي إنسان من رجل في التسعين من عمره.

فمثل هذا الرجل العجوز كان بحاجة للمحبة الحانية ولكن في بطمس لم يكن هناك أحد ليرعاه. ونحن لا نعرف كم الصعوبات التي عانى منها يوحنا. يخبرنا التاريخ أنه في مناجم الرخام في هذه الجزيرة «كان الرجال يعملون وهم مقيدون بسلاسل تربطهم إلى عربات الأسر». ولما كان يوحنا يفكر في القديسين الآخرين الذين يتحملون أقسى أنواع الاضطهاد، كتب إليهم يقول «أخوكم وشريككم في الضيقة» (رؤ ١:٩). ألا تشعر بإغراء أن تسأل هذا السؤال «لماذا سمح الله لأكثر الناس أمانة له أن يصل إلى السن التي يتخلى فيها النشاط عنه، ولا يتبقى له سوى ثمالة الحياة، كي يتحمل القبضة الحديدية للإمبراطورية الرومانية؟ هل لكي يثبت مرة أخرى أن قوته في الضعف البشري تكمل؟

كان موسى يبلغ من العمر ٨٠ سنة عندما جاءته الدعوة ليقوم بأعظم عمل في حياته، ويوحنا، وها هو قد بلغ التسعين، أو نحو ذلك، كان في بطمس، ولكنه وجد نفسه «في الروح في يوم الرب» وأعطى رؤيا - مجيدة، وملهمة، ومثيرة. «كانت بطمس محاطة بالبحر، مما يجعل الهروب مستحيلاً، ولكن يوحنا، عندما كان في السماء الثالثة سمع الرسالة القائلة: «والبحر لا يوجد فيما بعد» لقد كلف هذا الرجل العجوز بمهمة رائعة. لقد كان هناك أنبياء، ولكن ليس من المبالغة أن نقول إنه فيما يتعلق بالمستقبل، وبنوع خاص المستقبل البعيد، فإن يوحنا في سفر الرؤيا قد تنبأ وعلم أكثر من كل الأنبياء القدامى مجتمعين، وكما يعبر إلدركمنج عن ذلك بالقول:

«لم يسبق أن أتيحت الفرصة لأي إنسان لكي يبدأ رحلة بهذه الروعة والوضوح والمهابة والقداسة، ولكن كان على الله أن ينتظر حتى يبلغ يوحنا من العمر أزدله، وحتى يكاد ينفض يديه من العالم، قبل أن يعهد إليه بتلك المهمة، كانت عيناه وقلبه يتجهان بشكل تلقائي - ربما يجب أن أقول روحياً - إلى ذلك المستقبل الذي كان على وشك الوقوف على أعتابه».

انتصر يوحنا انتصاراً باهراً على العدو الروماني الذي ناصب المسيح وكنيسته العداء. وبالرغم من وجود الخطر بادياً للعيان، إلا أنه لم يكن هناك سبب للخوف، لأنه كان يرى المسيح في وسط كنيسته، وكان قادتها في يده اليمنى (رؤ ١:١٦-٢٠). وهكذا فإنه لولا سجن يوحنا، ما كان يمكنه للكنيسة أن تتاح لها فرصة رؤية المسيح، كرب الحياة، والحارس غير المنظور، والممسك بالمفاتيح.

وكما سنرى في فصل تال. هناك الكثير من التقاليد المتعلقة بيوحنا فهناك أساطير، على سبيل المثال، عن استشهاده، ولكن بعض الآباء الأوائل الذين كانوا من تلاميذ يوحنا قد سجلوا أنه عند إطلاق سراحه من بطمس، عاد إلى أفسس، حيث استغرق في النوم، وانتقل مرة أخرى ليكون في حضرة معلمه، ولكن هذه المرة إلى الأبد، وقبره، مثل قبر موسى، لا يعرف أحد مكانه سوى الله، وكما يعبر دانيل ماكلين عن ذلك بطريقة رائعة فيقول:

«لقد مات يوحنا كما ينتهي يوم صيف قائظ. كان قلبه يتمدد كالشمس الغاربة، وتتحرر السحب من رعدها لتلحق بوهج الشفق ذي الضوء الدافيء كما لو كانت مركبة النار التي حملت إيليا إلى السماء قد عادت برقة وعذوبة لتحمل حبيب الرب إلى أعلى. لقد توِّج العصر الرسولي، وختم سفر الإعلان الملهم بنوع من رجع لصدى الوعد الصادر عند صعود المسيح وهو يقول: «آمين تعال أيها الرب يسوع» لقد أتاح له ذلك المجيء الاستمتاع الكامل بما سبق ان رآه في الفكر. وهو الآن يمشي مع المسيح وسط المنائر الذهبية».

يزين قبر د.ل مودي، الكارز الشهير، في نورث فيلد بولاية ماسوشتيس، لوحة حجرية حفر عليها هذا العدد المفضل لديه: «وأما الذي يصنع مشيئة الله فيثبت إلى الأبد» (١يو ٢:١٧). عندما خط الرسول يوحنا هذه الكلمات فقد كان يكتب بالفعل لوحة التكريم الخاصة بموته.

١٠- نموذج يُحتذى

هناك مثل يقول إن «القدوة العملية أفضل من الحديث النظري». ونحن لنا امتياز الحصول على كل من القدوة والحديث النظري من يوحنا مما يتيح لنا الفرصة لكي نحذو حذوه. وما عمله الله لأجل يوحنا ومن خلاله، فهو قادر أن يفعله لأجلنا إذا وطدنا العزم على التمسك بمشيئة الله كما فعل الرسول، وعندما كان رسولاً نراه في العشاء الرباني يتكيء في حضن يسوع وقد أشرنا من قبل إلى تكوينه الشخصي مما أتاح له ذلك الامتياز هل نحب أن يكون لنا نفس امتياز هذه الصلة الحميمة؟ هل نرغب أن نعيش قريبين منه بالدرجة الكافية - أقرب إليه من كل الآخرين - أن نسأله ونستمع إليه وهو يجيب على أسئلتنا؟ إذن فعلينا أن نكون تلاميذاً مثلما كان يوحنا، لأن سره يمكن أن يكون لنا.

المسيح الذي عرفه يوحنا كان مسيح الاختبار الشخصي الذي رآه وسمعه وتعامل معه. فقد كان بالنسبة للرسول نعم الصديق، والنور، والحب، وبالثبات فيه يمكن للمؤمنين أن يكونوا مثله. ربما يكون مجمل تعليم يوحنا لقلبك ولقلبي أن السماء سوف تكون في حضور المسيح. لأن المسيحي الذي أصبح مثله يمكنه، لذلك، أن يراه كما هو. ثم إن حياة يوحنا توضح أن صورة يسوع ترى بأجلى وضوح وتنعكس في حياة أولئك الذين يكونون أكثر استجابة لمحبته، كم نحن مدينون ليوحنا.

إنه الذي يقودنا لنكون في أقدس شركة مع ربنا. وهو الذي يأتي بنا لنرى شفقة المسيح علينا في خطيتنا، وعطفه علينا في حزننا وفقداننا لأعز أحبائنا. إنه هو الذي يرينا كيف نحتفظ بحبنا للمعلم من خلال تجاربنا، وأنه بخضوعنا له، واتكالنا على محبته، نحصل على البركة.

إذن، ألا يمكننا أن نتعلم أكثر الدروس قيمة فيما يتعلق بالنعمة الإلهية، عندما نتأمل في التطوير الروحي الهائل الذي اختبره يوحنا؟ دعنا نتأمل في روح التحزب التي كانت لديه وعدم التسامح، والطائفية والتنافس الديني، ومزاجه الحاد الذي دفعه ليطلب نزول نار من السماء لتحرق السامريين، وتوبيخ المسيح الصارم بسبب مثل هذه الغيرة الخاطئة والروح التي تنفث تهديداً ملتهباً. ولنتأمل أيضاً في طريقه القصير والسهل نحو الكرامة وبحثه الدؤوب وطموحه للوصول إلى أعلى المناصب. ولكن، بعد رؤيته لربه، كما في مرآة، تغير يوحنا إلى صورة الرب عينها، لأن محبة المسيح سطعت بقوة فبددت الظلام الكامن في نفس التلميذ، فأصبح مثله بسبب قوة المسيح المغيرة ومحبته المهيمنة».

قد نعتقد أننا خامة غير جديرة بالتشكيل في يد الفخاري الأعظم، ولكنه مازال قادراً على تغيير ابن الرعد

حتى يصبح تجسيداً حياً للرقة والشفقة.

فالمسيح بمقدوره أن يحول البركان إلى ينبوع من الوداعة والمحبة. والشخص الذي أجرى تغييراً كاملاً في الطبيعة التي كانت غاضبة وعاصفة يوما ما، مخضعاً كل ما فيها لصفاته الحلوة، تاركاً فيها قوة الأسد، ومانحاً إياها في نفس الوقت وداعة الحمل، مازال هو هو اليوم. والسؤال هو: هل نحن خاضعون للمشيئة الإلهية كما كان يوحنا؟ هل نحن على استعداد للتغيير بتجديد أذهاننا؟

ليس كما أنا، يارب، بل كما أنت
ذلك وحده، يمكن أن يكون راحة نفسي الحقيقية
محبتك، وليست محبتي، تطرد الخوف والشك
وتهدىء العاصفة التي تعتمل في صدري.

٢- الرسل الآخرون
الدائرة الأكثر اتساعاً

كلما تفكرنا في الرسل أو تحدثنا عنهم، من الطبيعي أن نتذكر الاثنى عشر الذين اختارهم يسوع في بداية خدمته ليكونوا معه ويتدربوا للخدمة المستقبلية. يطلق عادة على جماعة الرسل الذين انتهينا للتو من التأمل فيهم لفظ «التلاميذ» أو «تلاميذ المسيح». ولكنهم لم يكونوا تلاميذه الوحيدين، أو الرسل الوحيدين، فقد كانت هناك دائرة أكثر اتساعاً من أولئك الذين اجتذبهم المعلم لنفسه. فقد كان هناك على سبيل المثال «السبعون الآخرون أيضاً، الذين عينهم» وأرسلهم اثنين اثنين أمام وجهه إلى كل مدينة وموضع حيث كان هو مزمعاً أن يأتي (لو ١٠:٣٩)، كما تكاثر الرسل كثيراً بعد يوم الخمسين (أع ٢:٤١، ٤:٤).

هكذا كان الحال بالنسبة للمركز الرسولي الذي لم تجعله الكنيسة الأولى قاصراً على الاثنى عشر، على الرغم أن مركزهم ظل فريداً ومتميزاً. ونحن نتساءل في بعض الأحيان عن السبب في عدم إدراج قديسين بارزين في قائمة الرسل على الرغم من ذكر أسمائهم في الأناجيل وسفر أعمال الرسل، وكان يبدو أن لديهم المؤهلات الضرورية ليكونوا رسلاً - أناس مثل مرقس، ولوقا، واستفانوس، وفيلبس الكارز. وبالرجوع إلى سفر أعمال الرسل والرسائل، دعنا نحاول أن نذكر أسماء أولئك الذين أضيفوا إلى جماعة الرسل المجيدة، وها نحن نتعامل مرة أخرى مع أولئك الذين دعوا هكذا، أبجدياً، كما فعلنا مع الاثنى عشر، مع تذكر أننا قلنا من قبل أن اللفظ «رسول» يعني «شخصاً مرسلاً».

الرسل الذين نحن الآن بصددهم لم يكونوا بأي حال من الأحوال أقل من الاثنى عشر. صحيح أنه كانت توجد فروق فيما بينهم - فروق ترجع للمواهب الطبيعية، والاستعدادات الشخصية، والخبرة، والمواهب الروحية. وهكذا فإن بطرس ويوحنا كانا أكثر تميزاً من تداوس أو سمعان القانوي، تماماً كما أن بولس يبرز كثيراً عن برنابا. إن عمل الرسول والذي يتضمن الخدمة الرسولية، كان يقاس بكم المواهب المعطاة له والمهام المنوطة به، وقد كان بطرس وبولس بارزين في هذا الصدد. لم يكن الرسل وقتئذ يشكلون دائرة محددة من العاملين يشغلون مركزاً سلطوياً واضح المعالم في الكنيسة ولكنهم كانوا مجموعة كبيرة من الناس يقومون بمهمة من أسمى مهام الخدمة النبوية (١كو ١٢:٢٨، أف ٤:١١). فقد بنيت الكنيسة على أساس الرسل والأنبياء ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية (أف ٢:٢٠). والتمييز بين الرتبتين المذكورتين يتلخص في أنه بينما كان النبي هو المتحدث باسم الله إلى الكنيسة المؤمنة (١كو ١٤:٤، ٢٢، ٢٤، ٣٠، ٣١)، فإن الرسول كان مبعوثه إلى العالم غير المؤمن (غل ٢:٧-٩).

أبفرودتس
الرسول الذي خاطر بكل ما عنده

لا يمكن للمرء أن يقرأ رسائل بولس، المرصعة بأسماء القديسين الذين أضفى عليهم ذكرى خالدة، دون أن يدرك مدى عبقرية بولس في فن كسب الأصدقاء. وإذ نفكر في العهد الجديد ككل، لا نجد شخصاً كان له أعداء شرسون كبولس، ولكن عدداً قليلاً من الرجال في العالم كان لهم أفضل الأصدقاء مثله. إنهم يجتمعون حوله بكثافة، خاصة في رومية، لدرجة أننا نفتقد معالم شخصيتهم في غمرة

ولائهم له. وكما عبر الكسندر وايت عن ذلك فقال: «إن بولس يحجب كل معاصريه حتى أننا لا نلمح أي شخص بخلاف بولس إلا بصعوبة بالغة. ولكن بولس، عن طريق ذكره الدائم لأصدقائه الذين احتشدوا حوله كالنحل حول الخلية، يجبرنا على التفكير في شخصيات لافتة للنظر ساروا في ركابه.

كان رفاق العمل لهذا الجندي العظيم من جنود الصليب هم أنفسهم قادرون على القيام بحملات ناجحة أو تأدية خدمة متميزة لوحدهم. ومن المفيد أن نتأمل في بعض هؤلاء التابعين المخلصين على انفراد، لكي نعيد لهم دائرة شركتهم وخدمتهم الذهبية. كان أبفرودتس واحداً من الذين ارتبطوا ببولس برباط المحبة. وصف وليم بن، منذ عدة قرون سبعة ملامح للصداقة القلبية الوطيدة بهذه الطريقة:

«الصديق الحقيقي يفصح عن مكنونات صدره بحرية
وينصح بأمانة
ويتأهب للمساعدة
ويخاطر بجسارة
ويتحمل كل شيء بصبر
ويدافع بشجاعة
ويظل صديقاً بثبات»

وكما سنرى فإن أبفرودتس ينجح في هذا الاختبار الصعب بتفوق. كان صديقاً لبولس ألزق من الأخ، وكان صديقاً حقيقياً عند الحاجة. وعلى الرغم أنه كان واحداً من أفضل رفاقه، ونحن ندرجه في دائرة الرسل الأكثر اتساعاً، إلا أن البعض شكك في وجوب إدراجه بينهم، ففي مديحه لأبفرودتس، يشير بولس إليه في الكتابة إلى القديسين في فيلبي بالقول إنه «رسولكم» Your Messenger (في ٢:٢٥-٣٠).

وكلا الكلمتين Messenger و Apostle هما نفس الكلمة الأصلية في اليونانية، والهامش في الـ R.V ذكر Your Apostle. اقترح بعض المفسرين أن أبفرودتس كان اسقفاً أو رئيساً للرعاة في كنيسة فيلبي، ولكن لم يحدث من قبل أن أطلق على راعي الكنيسة لفظ رسول. ومن بين «رسل الكنيسة» أدرج بولس تيطس، وهنا مرة أخرى تعطينا الـR.V هذه العبارة: رسولاً الكنائس (٢كو ٨:١٦-٢٤). وعلى الرغم أننا لا نعرف إن كان لدى أبفرودتس المؤهلات الضرورية ليكون رسولاً فعلياً أم لا (أع ١:٢١، ٢٢)، إلا أننا متأكدون أنه كان يمتلك كل الفضائل الروحية «كشخص مرسل» ليشهد للمعلم، وكان جزءا لا يتجزأ من «مجد المسيح» الذي يتحدث عنه بولس في الرسالة الثانية إلى كورنثوس ٨:٢٣ (هامش الـR.V).

كل ما نعرفه عن أبفرودتس، المقدوني الشجاع مسجل في فقرتين نابضتين بالحياة في رسالة بولس المفرحة إلى كنيسة فيلبي، ولكن هاتين الفقرتين الموجزتين تكتسب قدراً كبيراً من المعرفة فيما يتعلق بحياة وشخصية هذا القديس الذي كان عزيزاً على قلب بولس المسن. ومع أن «أبفراس» صيغة مختصرة من أبفرودتس، إلا أننا لا يجب أن نخلط بينه وبين رسول جماعة المؤمنين في فيلبي الذي نحن بصدده الآن، كان أبفراس بالفعل صديقاً آخر وشريكاً لبولس في العمل وقد سجن بولس معه (فل ٢٣).

كان أبفراس الرسول الذي كان الواسطة في تجديد أهل كولوسي واعتناقهم للمسيحية (كو ١:٧، ٤:١٢). أعلن بولس تقديره له بتسميته العبد الحبيب معنا وعبد للمسيح. وهو وصف يطلقه بولس عدة مرات على نفسه، ولكن يطلقه مرة واحدة فقط على شخص آخر بخلاف أبفراس (كو ١:٧، ٤:١٢، في ١:١).

يطلعنا بولس على الشخصية الحقيقية لأبفرودتس، الذي كان واحداً من أخلص خدام الرب المذكورين في

الرسائل البوليسية وأكثرهم تكريساً له. لم تكن محبة الرسول تجاه المؤمنين الحقيقين تعرف حدوداً. ولدينا إعلان عن محبته العميقة لأهل فيلبي في موقفه من أبفرودتس، الذي كان واحداً منهم، والذي خاطر بحياته، وتعهد بالقيام برحلة خطرة إلى روما حتى يحمل هدية قيمة إلى خادم الله الأسير. وقد تسبب المجهود الذي بذله في هذه الرحلة في مرض خطير مما جعل أبفرودتس قاب قوسين أو أدنى من الموت، ولكن الله منَّ عليه بالشفاء بطريقة عجيبة حتى يستطيع أن يقوم بالمزيد من الأعمال التي تتسم بالمحبة المتمثلة بمحبة المسيح. وبذلك نأتي إلى قيمته المزدوجة.

١- قيمته لبولس

شهد الرسول بطريقة رباعية لنوعية ومؤهلات صديقه الذي يحبه كثيراً. والمسميات الثلاثة الأولى مرتَّبة ترتيباً تصاعدياً وهي في اليونانية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً معاً وتكون نوعاً من الذروة، كل من المسميات التي يطلقها بولس على صديقه تتضمن رابطة من نوع معين «أخي» «العامل معي»، والمتجند معي. هنا نرى التعاطف المشترك، والأعمال المشتركة، والخطر والمعاناة المشتركة. تم يمتدح بولس أبفرودتس لأجل رقته، ومثابرته وشجاعته، ويندر حقاً أن تجد هذه الخصال الثلاث مجتمعة معاً. فالرجل الرقيق لا يكون مثابراً دائماً، ولا القوي يكون دائماً رقيقاً، ومع ذلك فهذا الثالوث من الفضائل تمكن من نفس أبفرودتس وقد رأى رفاقه من المؤمنين «أعماله الحسنة ومجدوا أباهم الذي في السموات» طبقاً لنبوة المسيح في العظة على الجبل.

أخي (في ٢:٢٥)

كانت هذه علاقة مبنية على التجديد. كان الاحتمال الأكبر أن أبفرودتس قد تجدد على يد بولس، أو لوقا، وكمؤمن، فإن كل الآخرين الذين لديهم اختبار نعمة المسيح المخلصة كانوا إخوته وأخواته. ولذلك كان بولس يعتبر صديقه كأخ في الإيمان المسيحي المشترك. وبعد أن حصل على روح التبني. استطاع هذا الرسول من فيلبي أن يدعو الله أباه، وبولس أخاه. إحدى ترجمات الاسم أبفرودتس «محبوب»، وهو بلا شك جعل لنفسه مكاناً فريداً في قلب بولس، الذي استطاع أن يتكلم عنه بشعور فياض داعياً إياه «أخي».

العامل معي (في ٢:٢٥)

لما كان أبفرودتس نافعاً في خدمة بولس، فقد اكتسب لقب شريك بولس في خدمة السيد. فإذا كانت النقطة الأولى تتحدث عن محبة بولس غير المتحفظة وشركته، فإن هذه السمة الثانية تظهر المعونة القلبية والشجاعة اللتين حصل عليهما بولس من «أخيه». عندما كان س.هـ سبرجن يعظ في سرادق متروبوليتان بلندن، كانت هناك سيدة وحيدة عجوز معتادة على الجلوس في كل يوم أحد بانتظام، وكانت تنتقي عشرين وجهاً غريباً في الاجتماع لتصلي لأجلهم أثناء الأسبوع. كان كل من يراها يعتقد أنها ذات نفع قليل لراعيها، ولكن عندما كان سبرجن يقود مراسم دفنها، كان يشير إليها معترفاً بفضلها قائلاً إنها كانت «خير معين» له. كان أبفرودتس واحداً من أفضل معاوني بولس، لكونه واحداً من هبات الرب لكنيسته، والذي يصفه الرسول بأنه من «الأعوان» (١كو ١٢:٢٨)

المتجنِّد معي (في ٢:٢٥)

يالها من صورة معبرة! رفيقي في السلاح. يمتدح هنا بولس رفيقه لأجل احتماله وبطولته. المتجند معي والذي «مرض قريباً من الموت»، ثم يمضي إلى الثناء على عزيمته التي لا تلين قائلاً إنه «قارب الموت مخاطراً بنفسه لكي يجبر نقصان خدمتكم لي». لقد اشترك أبفرودتس في احتمال المشقات كجندي صالح ليسوع المسيح (٢تي ٢:٣،٤). لم يكن هناك فارس أكثر بسالة من الرسول

بولس، أو مدافع عن الإيمان أكثر قوة، وقد أشعل أبفرودتس شمعته من حرارة لهيبه. لقد وجد بولس فيه روحاً قريبة منه، ولذا فقد دعاه «المتجند معي».

في روما، كان هذان الرفيقان يعملان في أجواء من عبادة الآلهة الوثنية. وعندما كان يجدف على الله أو يتم سب الصليب أو مهاجمة الكتب المقدسة، هل كان شريكا الخدمة هذان يلوذان بالصمت؟ كلا، وألف كلا! كمتجندين كانا يقفان لابسين درع الإيمان ممنطقة أحقاؤهما ويهبان للدفاع عن الحق والبر. يذكرنا الأسقف لايتفون، في تعليقه الرائع على رسالة أهل فيلبي أن لوحة في فيلبي كانت تحمل اسم «غايوس كلوديوس أبفرودتس» ويقترح أن تشابه الأسماء هذا قد يدل على أن أبفرودتس الذي من فيلبي هذا هو «غايوس»، الرفيق المكدوني لبولس الذي كان يعمل مع أرسترخس وقبض عليه في أثناء الشغب الحادث في أفسس، ونجا من القتل بأعجوبة (أع ١٩:٢٩). إن كان الأمر كذلك، يكون لدينا دليل آخر على شجاعة المناضل المتجند مع بولس.

خادمي (في ٢:٢٥)

يالها من عبارة تشيع البهجة والسرور «الخادم لحاجتي». سبق أن رأينا معنى «رسولكم» أو «رسول» ولذا فلدينا منظر رسول يخدم احتياجات رسول آخر. ألا توجد في هذه الكلمة «خادم» نبرة تدل على جلال التضحية؟ إنها كلمة لها مدلولات مقدسة ووطنية وهي أصل كلمة الطقوس الدينية Liturgy. يوحي ذلك بأن أبفرودتس ذهب لإضفاء السرور على قلب بولس في روما، وكان لديه إحساس الكاهن الذي يحمل التقدمة ذات الرائحة الطيبة المقبولة المرضية عند الله والناس (في ٢:٢٥، ٤:١٨).

٢- قيمته لدى الكنيسة

كون أبفرودتس يحمل سمعة طيبة لدى القديسين في فيلبي وهذا واضح مما يقوله بولس عن خدمته المضحية لصالح الكنيسة هناك. وبالاختصار فالموقف المذكور كان هكذا:

حينما كان أبفرودتس في روما، مرض مرضاً ميئوساً منه «قارب الموت». وكان مرضه نتيجة لإخلاصه الشديد في عمل المسيح. وكان مشتاقاً للذهاب إلى فيلبي، ويتوق لرؤية القديسين هناك مرة أخرى. وتم إبلاغ أصدقائه في فيلبي بمرضه وقد شعروا بالحزن لحالته.

سمع أبفرودتس بحزنهم وبسبب محبته لهم، كان مغموماً. وقد تحقق شفاؤه بسبب رحمة خاصة من الله.

كان في طريق العودة إلى فيلبي. وقد اشترك هو وبولس وكل رفاقه الآخرين في تقديم صلاة شكر لله. طلب بولس أن تستقبله الكنيسة بفرح وأن يكون مكرماً لديهم. ونحن واثقون أنهم فعلوا ذلك لأنه ضحى بحياته ليتمم خدمة المحبة التي لم يستطيعوا أن يظهروها لعدم وجود الفرصة.

هناك عبارتان أو ثلاث في الصورة التي رسمها بولس والتي تتطلب فحصاً أعمق. فعلى سبيل المثال: «كان مشتاقاً إلى جميعكم» و«مغموماً» تختلف كل منهما عن الأخرى بالنسبة لقرار بولس في إرسال صديقه إلى موطنه. فأصل العبارة الأولى قوي ويعني لأنه كان مشتاقاً باستمرار (١:٨، ٢:٢٦، ٤:١) فقد كان يتوق لرؤية القديسين في فيلبي مرة أخرى. «مغموماً» تعني أنه كان حزيناً ومثقلاً بسبب القلق الناتج عن خبر مرضه الخطير.

ولكن المعجزة تتمثل في أنه على الرغم من أنه «مرض قريباً من الموت» «لكن الله رحمه»، ثم لاحظ «ليس إياه وحده بل إياي أيضاً لئلا يكون لي حزن على حزن» والعبارة الأخيرة تعني أن بولس لم يكن يريد الحزن الذي ينتج عن فقدان شخص خاطر بحياته لأجله، لكي يضاف

إلى الحزن الناتج عن أسره (في ٢:٢٧، ٣٠). وكرسول، كان لبولس القدرة على الشفاء، ومع ذلك فمثل هذه القدرة، بالرغم من عظمتها، لم تكن ملكاً له، ليستخدمها وفقاً لإرادته، فالقدرة على إجراء القوات، «علامات الرسول» كانت تمنح في أوقات معينة (أع ١٩:١١، ٢كو ١٢:٨-١٠). في أثناء مرض أبفرودتس، «لم يستطع الرسول، لأن ربنا لم يأذن بإجراء معجزات لتلبية احتياجاته الخاصة كما يقول إليكوت «ولذلك، في هذه الحالة، بالرغم من أن بولس حزن لأجل أبفرودتس، لم ترد أي إشارة عن ممارسته لتلك القدرة من جانبه. كل ما استطاعه فقط أن يصلي لكي يرحمه الله، ويشكر الله عند استجابة تلك الصلاة».

بالإضافة إلى ذلك، هناك ثراء في المعنى في هذه العبارة، «قارب الموت مخاطراً بنفسه» (في ٢:٣٠). يوضح ج.ب فيلبس تلك العبارة الأخيرة بالقول: «خاطر بحياته لكي يفعل لي بشخصه ما منعكم البعاد عن فعله».

ألم يتأثر بولس بشدة بسبب مواجهة أبفرودتس للمخاطر بشجاعة وبصدر رحب من أجل خدمته؟ فيما بين سطور مديحه لهذا الرفيق المخلص له، يمكننا أن نقرأ شيئاً عن المخاطرة الشخصية المتضمنة في إحضار الهدية السخية من الكنيسة في فيلبي إلى بولس. إن أبفرودتس لم يكن مريضاً فقط بل كان يعاني من الصحة السيئة عموماً، ولكن هذا الضعف لم يكن ليرعب هذا الرجل صاحب الدوافع النبيلة والجرأة المقدسة (في ٢:٣٠).

كان يعرف كل شيء عن الخطر، ولكنه خاطر بحياته بهدوء، طالما كان في استطاعته أن يكون إلى جانب بولس ليواسيه، ولذا فقد مضى قدماً وواجه الأخطار ووجد مكافأة متلائمة مع الخطر الذي تعرض له - مكافأة فرح بولس الكثير لرؤيته واستلام الثمر من بستانه الثمين في فيلبي (في ٢:٢٥، ٤:١٠، ١٧). وعلى الرغم من مرضه الواضح، إلا أنه واجه احتمال الموت بشجاعة، ولكنه خرج في النهاية منتصراً (انظر ٢كو ١١:٩).

مازالت هناك فكرة أخرى نابعة من العبارة التي يستعلمها بولس في تقريره إلى الفليبيين عن أبفرودتس «مخاطراً بنفسه». هذه العبارة، في الأصل، هي الكلمة Paraboleuomei وهي تعني «يطرح جانباً» أو «يعرض نفسه للخطر» و«يخاطر بحياته» تستخدم الـR.V هنا كلمة «مخاطر» في (في ٢:٣٠) واللفظ مشابه لما فعله بولس وبرنابا اللذان «بذلا أنفسهما لأجل اسم ربنا يسوع المسيح» (أع ١٥:٢٦). ونفس هذه الكلمة Paradidomi وردت بمعنى «يُسلَّم» فيما يتعلق بفعلة يهوذا الشنعاء (مت ١٧:٢٢)، فإذا كان الخائن قد راودته الفكرة بأن يسوع سوف يجري معجزة وينقذ نفسه من أيدي أولئك الذين دفعوا ثمن القبض عليه، فقد قام بمخاطرة كبرى - وخسر كل شيء!

تعليق اليكوت القيم يقول إن العبارة «مخاطراً بنفسه» كما وردت في الـA.V يمكن أن تعني «خاطر بحياته» أو حرفياً «قامر بحياته» ليس مجرد تعريضها للخطر، بل تعريضها للخطر برعونة. خاطر أبفرودتس بحياته عن طريق الإجهاد الشديد في سبيل المسيح كسجين ينتظر المحاكمة، وقامر بالفعل بحياته لمثل هذا الهدف النبيل، والرحلة التي قام بها هذا الرجل الطيب القلب لتلبية حاجة خادم مسن أبلى نفسه في خدمة المسيح، كانت تنطوي على خطورة كبيرة، ولكنها حققت النتائج المرجوة منها!

لقد عرف أبفرودتس كل ما يتعلق بالمخاطرة بحياته في أمجد مشروع على الإطلاق، خدمة سيده.

قد يكون هناك أيضاً علاقة بين هذا العمل المنطوي على التضحية، والاسم الذي يحمله - فالاسم أبفرودتس، الذي كان اسماً شائعاً في العصر الروماني، كان يرد كثيراً في

كل من الكتابات اليونانية واللاتينية. يقترح هارنجتون ليز أنه أمامنا هنا إحدى اللمسات المرحة التي كانت تميز أسلوب الرسول الجاد الذي كان يتلاعب بالألفاظ باستخدام اسم صديقه. وكان هذا اللعب على وتر أسماء الأعلام شائعاً في حياة الشرقيين.

فعلى سبيل المثال فإن زكريا في صلاته يلعب على أوتار أسماء زوجته – (قَسَم الله)، وابنه – (رحمة الرب)، واسمه هو (ذاكرة الرب) في الكلمات التي تقول: «ليصنع رحمة... ويذكره عهده المقدس، القَسَم الذي حلف» (لو ١:٧٢، ٧٣). ونحن نعرف كيف أن بولس، في رسالته الرقيقة إلى فليمون، لعب على وتر الاسم أنسيمس، الخادم الهارب، والذي يعني «غير النافع». ومع أنه كان غير نافع لسيده في الماضي، إلا أنه بعد أن صار مسيحياً من خلال خدمة بولس، فقد أثبت أنسيمس أنه الأكثر نفعاً.

عندما كتب بولس رسالته إلى فيلبي كان يقصد أن يقول «أبفردوتس مقامر بحياته» (في ٢:٣٠) وهذه دعابة يقصد بها التلاعب بالألفاظ لأن الكلمة أبفرودتس تعني مقامر. كانت أفروديت أو ڤينوس إلهة الحظ الحسن في ألعاب الحظ لدى اليونان والرومان. وكانت أعلى رمية بالنرد تدعي أفروديت أو ڤينوس، وكان الشخص السعيد الحظ في اللعب يدعي أبفرودتس أو ڤينوس، لأنه تحمل المخاطرة وخرج فائزاً لأن يده كانت خاضعة لقيادة إله وثني. ولذا فمن الجائز أن بولس بابتسامة على شفتيه، كتب أن أبفرودتس المتجند معه، خاطر بحياته، وخرج من المخاطرة ناجحاً لأن يد الله كانت عليه. فأناس مثل زبولون ونفتالي وبرنابا وبولس وأبفرودتس يمكن أن يقال إنهم أهانوا أنفسهم إلى الموت على روابي الحقل (قض ٥:١٨، أع ١٥:٢٦، في ٢:٣٠).

في العصور الوسطى كانت هناك جماعة من الأتقياء كانوا يخاطرون بحياتهم لأجل المسيح وكانوا يدخلون البيوت المصاب أهلها بالطاعون ليقدموا الخدمة للمرضى. وقد أسموا أنفسهم PARABALANI المغامرون، وهم واثقون أن الأذرع الأبدية تحميهم بما فيه الكفاية. والترجمة القديمة لويكليف Wyclif بخصوص خروج يوسف من المخاطر التي تعرض لها، ترجمة معبرة، فهو يقول «كان الرب معه وكان شخصاً محظوظاً» (تك ٣٩:٢).

ونحن كجنود للملك نواجه مراراً وتكراراً بضرورة القيام بمخاطرات: نحن مقامرون لأجل الله، ولكنه يمسك بأيدينا عندما نلقي النرد ونحن نربح.

قبل أن نترك تأملنا في الرسول الذي خاطر بكل شيء، يلزم أن نقول كلمة عن اللغة الجميلة التي يستخدمها بولس في وصف الهبة التي خاطر أبفرودتس بحياته لكي يأتي بها إلى روما. إن مرضا مجهولاً قد أطبق على جسده المطحون وكاد أن يفتك به، ولكن «الله رحمه» واستطاع أن يكمل سعيه بفرح. قيل إن الإسكندر المقدوني، المنتصر، كان يحمل معه في كل مكان يذهب إليه تمثالاً صغيراً لهرقل، على الرغم أنه كان يعتبر نصف إله يمثل القوة والانتصار على المصاعب والأخطار وهو بطل ١٢ حملة عسكرية ظافرة. ولكن أبفرودتس، وهو مقدوني آخر، كان يضع الرب أمامه، واثقاً أن بإمكانه التغلب على كل المخاطر بواسطته، وأن مهمته سوف تكتمل.

جاء إلى الكنيسة العاملة في فيلبي خبر مفاده أن بولس كان سجيناً في روما، بعد أن تحطمت به السفينة وخسارته لكل متعلقاته الشخصية، وفكروا فيما يتعلق براحته واحتياجاته، ولكن لم يظهر شخص كان يمكن إرساله في ذلك الوقت «كنتم تقتنونه ولكن لم تكن لكم فرصة» (في ٤:١٠). فيما بعد تطوع أبفرودتس لكي يمثل الكنيسة ليكون رسولها المعتمد لكي يجبر نقصان خدمتهم

له (في ٢:٢٥، ٣٠) كانت المعونة المالية التي أحضرها لبولس مفرحة لقلب الرسول «قد أزهر أيضاً مرة اعتناؤكم بي». وفيما يتعلق باعترافه بالجميل للهبة قال بولس: «قد استوفيت كل شيء واستفضلت. قد امتلأت إذ قبلت من أبفرودتس الأشياء التي من عندكم نسيم رائحة طيبة ذبيحة مقبولة مرضية عند الله» (في ٤:١٨)

اللغة هنا تدل على أن بولس قدم الهبة لله قبل أن يستعملها. فقد كانت بطريقة ما تدل على ذبيحة مزدوجة، من قبل الكنيسة التي قدمتها، والمخاطرة الجسدية العظيمة من جانب الشخص الذي جاء بها إلى بولس، والكلمة التي استعملها مقابل كلمة ذبيحة تحمل فكرة الاسترضاء «ذبيحة حية» (رو ١٢:١، ١بط ٢:٥). نحن لا نعرف طول المدة التي مكثها أبفرودتس مع بولس بعد تسليم الدليل الملموس على المحبة والاهتمام من قبل كنيسة فيلبي. وسواء كانت الأيام التي قضاها معه كثيرة أم قليلة، فلابد أنه كان وقتاً للشركة المقدسة سوياً ساعد فيها أبفرودتس قريبه بتقديم أفكار ذات «نسيم رائحة طيبة».

أبـلـــوس
الرسول الذي اتسم بالفصاحة

عندما كتب بولس عن الرسل الذين أصبحوا منظراً للعالم والملائكة والناس، يبدو أنه أدرج أبلوس جنباً إلى جنب معه في الدائرة الأوسع للرسل (١كو ٤:٦،٩). احتك هذا اليهودي المثقف المتعلم الإسكندري الجنس ببولس (أع ١٨:٢٤) عندما كان في أفسس قبل رحلته التبشيرية الثالثة. يقدم لنا لوقا رواية كاملة عن المقدرة الفائقة لأبلوس في شرح الأسفار المقدسة وكيف أنه بعد تلقيه تعليماً خاصاً على يدي أكيلا وبريسكلا التقيين، استطاع أن يقنع اليهود بقوة بمسيانية يسوع (أع ١٨:٢٤-٢٨). يبدو أن بولس يشير إلى بلاغة أبلوس، وحكمته، وقد ذكر كلمة مديح دفاعاً عن مركزه كرسول له سلطان (١كو ١:٣-٢٢،٨). نرى أبلوس للمرة الأخيرة عندما كان يزكِّيه بولس مع زيناس المحامي لدى تيطس (تي ١٣:٣)، والذي كان وقتها في رحلة تبشيرية في كريت، وكان على الأرجح حاملاً لهذه الرسالة الموجهة له من قبل بولس (تي ١:٥).

هناك ميل لتمثيل بولس وأبلوس كشخصين متنافسين بناء على ملحوظة بولس فيما يتعلق بالتحزب «أنا لبولس وأنا لأبلوس» ولكن هذين العاملين كانا مرتبطين معاً قلبياً برابطة لا تنفصم عراها. اختبر هذان الرسولان صداقة تصمد لأعظم التجارب التي يمكن أن تصيب الكارزين ألا وهي الحسد! كان بولس يسمع عن الجماهير التي كانت تتزاحم في كورنثوس لتستمع إلى عظات في الكتاب المقدس يقدمها أبلوس الفصيح اللسان، وكان يسره ذلك. عمل الاثنان كل بمعزل عن الآخر في أفسس وكورنثوس، ثم عملا معاً في أفسس.

لابد أن هناك شيئاً منعشاً فيما يتعلق بالخدمة الفريدة لأبلوس ويمكن استنتاج ذلك من الطريقة التي يشبهه بها كل من لوقا وبولس بالماء. إن لوقا، المؤرخ، كان يقول عن أبلوس أنه «حار بالروح»، وبولس الرسول العظيم، تحدث عن كلمات أبلوس وشبهها بينابيع الماء البارد على أرض مشققة متعطشة للماء «أبلوس سقي» (أع ١٨:٢٥، ١كو ٣:٦). فالمتجددون حديثا في كورنثوس والمتعطشون بشدة روحياً، قد انتعشوا بتأثير وعظ أبلوس، وقد ابتهج بولس شريكه في الخدمة لأنه ربح مثل هذا الشريك الكفء. في داخل الكنيسة اليوم توجد الكثير من النباتات الذابلة اليائسة في حاجة ماسة للإرواء، ولكن حالتها تصير يائسة لو أن المنبر يعوزه أبلوس الذي يستطيع أن يروي بستان الله.

أندرونكوس
الرسول ذو الشهرة

في معرض لوحات بولس للقديسين الذين حاول أن يزكيهم قبل إكمال سعيه، كان أندرونكوس، الذي كان إلى جانب يونياس، الرسول الذي وصف بأنه «مشهور بين الرسل» (رو ١٦:٧) يعطينا بولس في الواقع أربعة ملامح رئيسية لهذين العاملين معه:

«نسيبيّ»

«المأسوران معي»

«مشهوران بين الرسل»

«كانا في المسيح قبلي»

«نسيبيّ» لقب يعطيه بولس لستة أشخاص في هذا الأصحاح، ومن المرجح أنهم أفراد من نفس الأمة – يهود كبولس.

«المأسوران معي» عبارة توحي بأنهما في وقت ما شاركا بولس في السجن.

لقد كانا، كما يذكر الأسقف مويل، زميلين أسيرين مع بولس في الحرب لأجل المسيح. «مشهوران بين الرسل» يمكن أن تعني شيئاً من اثنين: إما أنهما أنفسهما كانا بارزين كرسولين مدرجين مع «الرسل أجمعين» (١كو ١٥:٧)، أو أن أندرونكوس ويونياس كانا يحظيان بتقدير كبير من قبل الدائرة الرسولية، لكونهما مكرمين أكثر من الآخرين نظر لشخصيتهما وتعبهما.

«كانا في المسيح قبلي» نحن لا نعرف متى تجدد هذان الرسولان، ولكن بولس كان قد سمع منهما عن اختبارهما. يعلق الأسقف مويل قائلاً «ليس مستبعداً أن هذين المتجددين منذ وقت مبكر قد ساعدا على نخس ضمير قريبهما الذي كان لا يزال مضطهد الكنيسة، وقد ساعدا على إعداد طريقة إلى المسيح في قلبه» (أع ٢٦:١٤) كان أندرونكوس واحداً من «المبشرين المتجولين أو المرسلين الذين كانوا يكرزون بالإنجيل من مكان إلى مكان» ومن المحتمل أنه كان واحداً من أبرز وأنجح هؤلاء المبعوثين المتجولين في الكنيسة الأولى.

برنـــــابـــا
رسول التعزية (ابن الوعظ)

انطباعنا الثابت عن برنابا أنه إنسان ذو قلب رقيق – كثير الشفقة، والصفح وطيب إلى أبعد الحدود – ابن الوعظ. يلخص لوقا شخصيته بطريقة جميلة في هذه الكلمات المعبرة «كان رجلاً صالحاً وممتلئاً من الروح القدس والإيمان» (أع ١١:٢٤).

ثم ترد عبارة مليئة بالمغزى بعد ذلك – فحيثما يذهب – كان ينضم «إلى الرب جمع غفير». كان الصلاح قوته الدافعة، ويبدو أنه كان مستحقاً أن يدرج اسمه مع جماعة الرسل المجيدة. يُدرج لوقا بولس وبرنابا معاً كرسولين (أع ١٤:١-١٤). يذكر التقليد أن برنابا كان واحداً من السبعين رسولاً الذين أرسلهم يسوع (لو ١٠:١).

فإن برنابا كان يمتلك أحد المؤهلات المتميزة للرسل، وذلك بأنه قد رأى الرب المسيح، وتبعه أثناء خدمته الأرضية، فإن كان الأمر كذلك فمن المرجح أنه كان واحداً من الـ ٥٠٠ أخ الذين يتحدث عنهم بولس، والذين رأوا المسيح المقام (١كو ١٥:٦)، والذين كان أغلبيتهم مازالوا على قيد الحياة عندما كتب رسالته إلى أهل كورنثوس. ولكن العهد الجديد لا يذكر أي إشارة لأي تلمذة سابقة لبرنابا قبل يوم الخمسين. وهو يظهر أولاً عند إنشاء الجماعة المسيحية في أورشليم، مما يوحي أنه صار مسيحياً نتيجة للفيضان الغامر من الحماسة والتجديد اللذين ابتدءا في ذلك اليوم التاريخي، يوم الخمسين. ويمكننا أن نلخص باختصار حقائق وملامح حياته بالطريقة التالية: سوف يجد القارىء مادة إضافية في كتاب المؤلف «كل رجال الكتاب المقدس».

١- مع أن برنابا لم يكن واحداً من الاثنى عشر، إلا أنه يبرز كأهم رسول في الكنيسة الأولى إلى الأمم باستثناء بولس. إنه الشخصية المحورية في شئون الكنيسة الوليدة (أع ١١:١٩-١٥:٤١)، ويتردد اسمه كثيراً في رسائل بولس (١كو ٩:٦، غل ٢:١، ٩، ١٣، كو ٤:١٠). يضع فرانسيس بورد يلون في كتابه عن «الشخصيات الصغرى في الكتاب المقدس» برنابا بين «الأنوار الأقل لمعاناً». ولكننا لا نتفق معه في هذا التصنيف، لأنه يضيء كنجم من الطراز الأول، إنه بارز كواحد من هؤلاء الذين:

يؤثرون بإيمانهم اللامع القوي

القلوب الخائرة فتتقوى

أدهش برنابا أهل لسترة فظنوه شبيهاً بالله. في الواقع، كان لدى أهل لسترة أسطورة تقول إنه إذا نزل «الأب من السماء» ليمشي على الأرض، فانه يكون قريب الشبه من برنابا. ومهما كان السبب وكيفما كانوا مخطئين فقد «دعوا برنابا (جوبيتر) أي (زفس)» وقد حدث تأثير مماثل في تاريخ سابق، فقد تأثر أهل أنطاكية كثيراً بشخصية هذا الرسول، لأنه طول مدة إقامته هناك وتبشيره مع شاول الطرسوسي المتجدد حديثاً وآخرين في شوارع المدينة الملوثة، كان يطلق عليهم اللقب الذي ننعم نحن به الآن «مسيحيون» أو «رجال المسيح» ليحمل الانطباع بالشبه بين برنابا ورفقائه وبين المعلم الذي يبشرون به.

٢- يبدو أن برنابا كان يهودياً هلينياً (يونانياً) من عائلة قبرصية انضمت إلى كنيسة أورشليم بعد موت يسوع بوقت قليل. استقر عدد كبير من اليهود في جزيرة قبرص، ومع أن هذه الدولة غير مذكورة بالاسم بين الدول التي

سمع أهلها الرسل يتحدثون بلغتهم في يوم الخمسين، ألا أنه كان هناك بلاشك أناس من دول لم تُذكر أسماؤها. ألا تقرأ أنه «كان يهود رجال أتقياء من كل أمة تحت السماء ساكنين في أورشليم؟»

من المرجح أن برنابا قد جاء من قبرص ليكون حاضراً في العيد، وعند سماعه لبطرس وهو يكرز بالإنجيل بلغته، كان بين الـ ٣٠٠٠ نفس الذين تابوا وآمنوا (أع ٢:٤١). ومن الأدلة على أن عمل النعمة قد أجرى في قلبه تكليفه بالدور القيادي الذي أُسند إليه في كل ما أعقب أحداث يوم الخمسين الرائعة. وسواء رجع إلى قبرص ليشهد لبني وطنه أم لا، فهذا ما ليس لنا به علم، يبدو أنه بقي في أورشليم حيث أصبح شخصية بارزة، وكان بين هؤلاء التلاميذ الذين تشتتوا نتيجة للاضطهاد، عقب موت استفانوس الذي اشترك في نشر الإنجيل في كل أنحاء اليهودية والسامرة (أع ٨:١).

٣- مع أن برنابا هو الاسم الذي نعرفه به كرسول، إلا أن اسمه الأصلي كان يوسف، وقد دعاه الرسل برنابا، بعد أن أصبح مسيحياً (أع ٤:٣٦). وكيهودي بالميلاد، ومن قبيلة لاوي كان «يوسف» اسماً ملائماً لشخص أصبح يشتهر باسم برنابا، والذي يترجم «ابن التشجيع» أو «ابن الوعظ» أو «ابن التعزية» وهذا الاسم العبري، طبقاً للاستعمال الشائع في اللغة العبرية، يعني شخصاً عظيماً في مواهب النبوة أو الوعظ، ومعنى كلمة برنابا في اللغة العبرية يعني «ابن النبوة» ولوقا يقول «الذي يُترجم» «ابن التعزية» ولا يوجد تشويش هنا، لأن عبارة «الذي يُترجم» معناها الذي يُترجم من اللغة العبرية إلى اليونانية - اللغة التي كتب بها سفر أعمال الرسل.

في اللغة اليونانية تستخدم نفس الكلمة للدلالة على كل من الوعظ والتعزية، وربما قصد الرسل الذين أعطوا يوسف الاسم برنابا كلا الصفتين. ولاشك أن شخصيته تناسب المعنيين. فكابن لقوة البراقليط «الروح القدس» نجده يفرح بالمتجددين حديثاً «ووعظ الجميع أن يثبتوا في الرب بعزم القلب» (أع ١١:٢٣). استطاع برنابا أن يقدم «هذا الحافز المعزي» لأنه كان مملوءاً بالمعزي السماوي. ولقد دعاه الناس في أورشليم «ابن التعزية» بكل معنى الكلمة - فالتعزية تدل على القوة كما تدل على الرقة. يقول ج.ج جرينهوف عن اسمه ذي الدلالة البارزة ما يأتي:

«دعاه التلاميذ بهذا الاسم لأن قلبه وحياته كانا ممتلئين بالأفكار الملائمة، والدوافع النبيلة، والمحبة الدافئة، كان رجلاً روحه المتسامحة والنبيلة خالية من كل ذرة حسد وحقد، كما تثبت كل تفاصيل علاقته مع بولس، ولابد أنه كان ممتلئاً بالتحمل، وطول الأناة، والتسامح، والمحبة التي أشاد بها بولس بشدة.

وذلك ما جعله ينحاز إلى جانب إنسان مخطىء في النزاع الذي فرق بين الرجلين أخيراً.

كان برنابا «ابن التعزية» مما نفهم منه أنه كان ذا قلب حار ويد مفتوحة. كانت هناك دائماً علاقة وثيقة بين شخصيته واللقب الإضافي الذي أعطاه الرسل له، لأن حياته كلها تظهر الأدلة على موقف الشفقة ومراعاة مشاعر الآخرين بصفة خاصة. كان معروفاً في الكنيسة بأنه صاحب شخصية يوحنا بنيان «القلب الكبير» في كتاب «سياحة المسيحي» لا يجذب برنابا أنظارنا كشخص ذي ذكاء حاد، أو مقدرة هائلة أو بناءة، كما كان صديقه بولس. ومع ذلك فنحن نراه يتحرك في المشهد كالملاك الجميل، محبوباً وموثوقاً به دائماً، منحازاً بصفة دائمة إلى جانب التعاطف مع الاهتمامات البشرية العريضة، ولذلك نرى نفوذه الاجتماعي يرفعه إلى مرتبة الصدارة في الأيام الأولى للمسيحية.

٤- ليس من قبيل الصدفة أن يلقبه الرسل برنابا عند استعراض التضحية الرائعة عندما قرر أولئك الذين كان لهم قلب واحد ونفس واحدة ألا يقول أحد إن شيئاً من أمواله بل كان عندهم كل شيء مشتركاً، ولكنهم باعوا مقتنياتهم ليكوِّنوا حصيلة مشتركة يحصل كل واحد منها على نصيب متساو (أع ٤:٣٢-٣٧).

ولما كان برنابا صاحب أرض، فقد باع أرضه وسلم كل المبلغ تماماً إلى الرسل. أما حنانيا وسفيرة فقد لقيا نهاية مأساوية لأنهما تصرفا كما لو كانا قد باعا كل شيء وأعطيا كل شيء، ولكنهما احتجزا جزءاً من ثمن ما باعاه (أع ٥:١-١١). إن الفخر بامتلاك الأشياء يمكن أن يصبح مدمراً، ولكن الشخص المدعو يوسف سابقاً كواحد من سبط لاوي، كان يعرف أنه طبقاً للناموس، كان اللاويون ممنوعين من امتلاك العقارات، والآن، بعد أن صار برنابا فقد باع كل مقتنياته، وأعطى الحصيلة كلها. وفعل ما فعله بولس، حيث امتهن حرفة حتى يكسب لقمة العيش بعرق جبينه أثناء الكرازة بالإنجيل دون أن يتقاضى أجراً عن ذلك. يذكر بولس تلك الحقيقة الهامة عن برنابا، الذي افتقر عن طواعية لأجل الكنيسة، وقد وجد يعمل بيديه ليعول نفسه في رحلاته التبشيرية.

بعد إطلاق سراح بطرس ويوحنا من السجن عقب القبض عليهما لأجل شفاء المقعد عند باب الجميل، عقد اجتماع شكر وتم وضع أسس الاشتراكية المسيحية، وهي مقدمة مجيدة لليوتوبيا التي يحلم البعض بتحقيقها عندما يغمر السلام والبر ربوع العالم. ويغطي الأرض كما تغطي المياه البحر. لا يجب أن نخلط بين مجتمع الأخيار الذي أسسه الرسل وبين الشيوعية اللا دينية التي تسيطر على حياة ملايين البشر بالقوة.

٥- يشتهر برنابا أيضاً بأنه كان أول من قدم يد الصداقة المسيحية الحقيقية لبولس بعد تجديده المثير في ذلك الطريق إلى دمشق. قال أوغسطينوس تلك المقولة الشهيرة: لولا صلاة استفانوس لما أصبح بولس كارزاً بالإنجيل، وبالمثل فلو لم يفتح برنابا الباب لما وجد بولس باباً مفتوحاً للكرازة بالإنجيل. يمتدح الكسندر وايت برنابا لأجل استضافته لشاول المعزول عن الجميع بالقول: «لا يمكن لأي صاحب بيت مهما كان مزهواً أن يسرق هذا الشرف من برنابا، لأنه كان أول رجل صاحب نفوذ ومسئولية فتح قلبه وبيته لشاول الطرسوسي عندما كانت كل أورشليم مازالت تلقى الأحجار عليه» (أع ٩:٢٠-٣١).

والتلاميذ في أورشليم، والذين لم يعرفوا شاول سوى كمضطهد عنيف للقديسين والذي كان ينفث تهدداً وقتلاً على تلاميذ الرب، كانوا خائفين منه، ولم يستطيعوا أن يصدقوا أن الذئب قد تم ترويضه. ولكن برنابا الذي كان محترماً من قبل القديسين، تقدم وأظهر شفقة عظيمة نحوه، ومع أن الآخرين ابتعدوا عن شاول في خوف وشك، إلا أن برنابا قدمه إلى الرسل، وأخبرهم بقصة تجديده المعجزي وكيف أنه جاهر في دمشق باسم يسوع (أع ٩:٢٧). لا يسعنا سوى أن نعجب بهذا السلوك النبيل من قبل برنابا في رعايته لشاول، والذي عندما أصبح معروفاً كبولس الرسول، كان يتذكر دائماً الروح النبيلة التي أظهرها «ابن التشجيع».

بعد أن أخذ برنابا شاول تحت جناحيه، وأصبح صديقه الحميم، أتاح ذلك لبولس القيام بالخدمة العظيمة التي اضطلع بأعبائها. كم كان شاول شاكراً لأن أول رفيق مسيحي له كان رجلاً ذا قلب كبير كبرنابا! وقد مضيا سوياً ليفتتحا عالماً أكبر للمسيح. وقد استطاع بولس إلى حد ما أن يتفوق على برنابا لأنه كان أذكى وأقوى شخصية من زميله والمتجند معه. ومع ذلك فعندما يذكر الرجلان في

سفر أعمال الرسل، يأتي برنابا أولاً. من الواضح أن ذلك كان المركز المعين له من قبل الكنيسة التي أرسلته. كان هذان هما الرسولين الأولين اللذين استوعبا المدى الكامل لخطة خلاص المسيح المعدة لتحتضن الجميع، ولذلك كانا أول من خاطرا بالذهاب إلى مجاهل الوثنية القاحلة لجذب العالم كله إلى السيد.

اكتمل هذا المشروع الجبار أولاً في قلب وعقل برنابا، وجسّده بولس فيما بعد وعبر عنه بأعماله التي امتدت إلى آفاق أوسع وأرحب. يذكرنا هذا الثنائي بمارتن لوثر وصديقه، فيليب ميلانكثون. فقد كان لدى الأخير والأقل شهرة، أول رؤية للإصلاح الديني، وحول الأول صاحب النشاط الأكبر، الرؤية إلى حقيقة.

أتى النور أولاً إلى برنابا، وبانضمام شاول إليه، أصبح هذان الاثنان رسولين إلى مناطق بعيدة لكونهم على استعداد لبذل أنفسهما لأجل اسم ربنا يسوع المسيح، (أع ١١:٢٥، ١٥:٢٥، ٢٦، غل ٢:١-١٠).

وعندما أصبح بولس أكثر بروزاً، توارى برنابا بهدوء إلى المركز الثاني، ولم يمض وقت طويل حتى انزوى في الظل حين حدث ذلك الصراع الخطير بينهما بسبب يوحنا مرقس (غل ٢:١١-١٣، أع ١٥:٣٦-٤١)، مما أدى إلى قطيعة بينهما، حيث عاد برنابا إلى قبرص (أع ١٥:٣٩)، والإشارة الأخيرة لبرنابا ذكرها بولس بعد ذلك بعدة سنوات قليلة عندما بدا الأمر كما لو كانا صديقين مرة أخرى يعملان سوياً لتحقيق هدف مشترك (١كو ٩:٦).

بـــولـــس
الرســـــول الفائـق

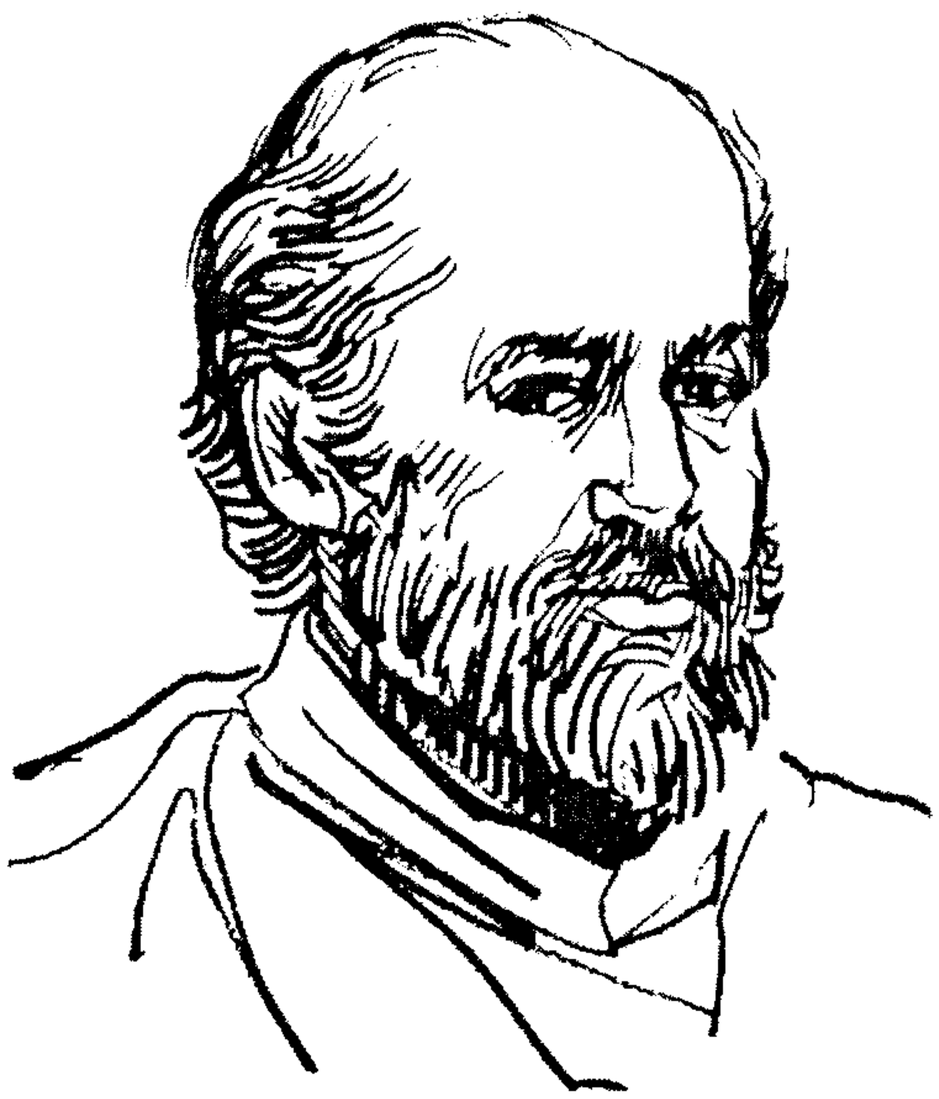

يشبه العنوان فأس إليشع، فهو مستعار! فقد تصادف أن كان عنواناً لأحدث التحليلات لشخصية ورسالة القديس بولس. في كتابه «الرسول الفائق» قدم لنا الدكتور ر.أ. دوايت. استاذ اللغة اليونانية والفلسفة في كلية اللاهوت المعمدانية باسكتلندا، دراسة مفيدة عن الرسول بولس: ويمكن وصف كتابه العظيم الفائدة هذا، بأنه صورة حديثة». يخبرنا الدكتور وايت أن الهدف من هذه الصورة أن يقدم لنا أشهر الرسل

كأعظم المسيحيين

وأعمق المعلمين تفكيراً

وأكثر الأصدقاء إخلاصاً

وأشجع المغامرين

وأكثر المتألمين بسالة

وأكثر القديسين مدعاة للسرور

بولس الطرسوسي، الجندي والعبد والمحب ليسوع المسيح ربنا

والدليل على أن مؤلف الكتاب المذكور نجح في مهمته واضح من الطريقة التي جعل بها رسول القرن الأول الفائق يعيش ثانية بين التلاميذ العاديين في القرن العشرين.

إن رسم صورة مكتملة لبولس يتطلب مساحة كبيرة، لم نستطع للأسف أن نصل إليها لمثل هذا القديس المغامر لأجل المسيح. ومن ذا الذي يمتلك موهبة تمكنه من رسم صورة كاملة لهذه الشخصية الرائعة والذي كان تجديده عنيفاً ومثيراً، وكانت حياته مليئة بجلائل الأعمال ومواجهة الأخطار، والذي استطاع أن يحول المسيحية من طائفة عبرية صغيرة إلى عالمية. كما عبر عن ذلك أرنست هوسر بطريقة جيدة في العدد الصادر في يناير ١٩٦٧ من مجلة الريدرز دايجست. لدينا مادة موثقة عن تاريخ حياة بولس أكثر مما لدينا عن تاريخ حياة أي شخصية أخرى في العهد الجديد باستثناء ربنا. إنه يبدو مسيطراً على أحداث سفر أعمال الرسل! أما عن رسائله التي لا تقدر بثمن، فهي بالمثل موثقة جيداً ومليئة بلمحات عن تجاربه وانتصاراته. إن أزماته العديدة، وقراراته السريعة، والمرات التي نجا فيها من الموت بأعجوبة وموجات العنف المتفرقة التي اجتاز فيها تجعل من حياته واحدة من أعظم قصص المغامرات في كل العصور.

ألم تتساءل ذات مرة عن الشكل الحقيقي لأول لاهوتي مسيحي بارز؟ ومع أن الفنانين حاولوا رسم صورته، إلا أنه

لا توجد صورة معاصرة لبولس كل ما لدينا من القرن الرابع لوحة مزدوجة وميدالية كبيرة من المقبرة الرومانية في دوميتبلا، وطبق من الزجاج في المتحف البريطاني بلندن. ومن هذين المصدرين، ومن كتابات قديمة، قدم لنا فولتون أورسلر في كتابه «أعظم إيمان على مر العصور» هذه الصورة الفريدة للرسول الفائق:

إن بولس الذي كان ينفث تهدداً وقتلاً، كان قصير القامة. ولكنه كان عريض المنكبين. فقد صلبت الانتصارات الرياضية في شبابه من عوده المتناسق. كان جسده رشيقاً على الرغم من رأسه الأصلع قبل الأوان والشعيرات البيضاء المبكرة التي زحفت على حاجبيه المتلاحمين ولحيته الكثيفة وهو في الثلاثين من عمره. ومع ذلك لم يكن بنيانه القوي، ولا بشرته الصافية، ولا العزيمة التي توحي بها أنفه الطويل المعقوف، ولا حتى أسلوبه الدال على السيطرة هو الذي جعل المجمع المزدحم يصمت.

ما ميز بولس، وخلب لب سامعيه، كان إيمانه الملتهب، وغيرته، وحماسه الذي كان يومض ويلمع في تلك العينين الواسعتين اللتين كانتا مثل نافذتين تخرجان هواء لافحاً من فرن بشري. والشخص الذي أقر بأن هيئته ليست مؤثرة وقف في مجمع دمشق وأثر على الجميع بنبرة صوته، بادئاً هناك خدمة للمسيح دامت طوال ٣٩ سنة.

فيما يتعلق بمظهره الجسدي، هناك بعض الوسائل تطلعنا على معلومات لابأس بها. لم يكن مظهره ذا تأثير طاغ، ولم يكن جذاباً أو باعثاً على المهابة والاحترام. كان رجلاً صغير الجسم، واهناً، بسيطاً، يعاني من قصر في نظره، وكان أصلع منذ مقتبل حياته. هناك رواية في كتاب أبو كريفي من القرن الثاني تحت مسمى أعمال بولس تقول «كان رجلاً قصير القامة، أصلع جزئياً، ساقاه معوجتان، ذا بنيان قوي، عيناه قريبتان من بعضهما، وأنفه كان معقوفاً إلى حد ما». قال أعداؤه إن «حضوره الجسدي ضعيف، وكلامه حقير» (٢كو ١٠:١٠). وقال هو عن نفسه «أنا كنت عندكم في ضعف، وخوف ورعدة كثيرة» (١كو ٣:٢).

«عامي في الكلام» (٢كو ٦:١١)

«من خارج خصومات، من داخل مخاوف» (٢كو ٥:٧)

«بضعف الجسد بشرتكم في الأول» (غل ١٣:٤)

«لو أمكن لقلعتكم عيونكم وأعطيتموني» (غل ١٥:٤)

«أريد أن أكون حاضراً عندكم الآن وأغير صوتي» (غل ٢٠:٤)

كل هذه السمات تدل على أن الرسول كان له جسد ضعيف، كان يئن تحت ثقل المسئوليات التي كان منوطاً بها، وهو بالكاد يستطيع تلبيتها. ومع ذلك فقد كان وهج الغيرة يلتهب في هيكله الضعيف، ويكاد يبليه بحماسته الملتهبة. ولكن الله عظم نعمته وقوته بوضع هذا الكنز في آنية خزفية ولكنها كانت آنية أرضية طاهرة.

إن أعظم سجل جذاب عن بولس هو ما يمضي فولتون أورسلر في سرده لنا في كتابه، وهو ما لا يجب أن يفوت أي كارز بالإنجيل. وكل ما يمكننا عمله في بحثنا البسيط أن نضع أيدينا على نقاط محورية قليلة في حياة هذا الرسول، الذي كتبت عنه كتب أكثر من أي شخصية كتابية أخرى، باستثناء المسيح. إن مجموع ما كتبه بولس كمٌ هائل، ربما كان بولس قصيراً في القامة الجسدية، ولكنه يقف شامخاً، ذا قامة مهيبة روحياً حيث يأتي التالي بعد المعلم نفسه في تاريخ الإيمان المسيحي وفي الأدب المسيحي عبر العصور.

١- رجل من طرسوس

يثبت تاريخ الكنيسة أنه في وقت الأزمات يعرف الله أين يجد الإنسان الذي يحتاجه كسلاح في حربه المقدسة.

وكما حدث في الماضي حين احتاج لأناس غيروا وجه التاريخ في العهد القديم، فأقام إبراهيم وموسى، هكذا حدث بالنسبة للعهد الجديد، فقد عرف الله أين يضع يده على أناس عظام، أثبتوا أنهم أفضل عطاياه للكنيسة وللعالم.

وما سجل المسيحية إلا تاريخ حياة أولئك الذين كانت خلفية حياتهم تلائمهم لرفع لواء المسيحية في عالم محتاج، وأسطع النجوم في سمائها هو الرسول بولس الذي جعله الله أسيراً له وشكل حياته بنعمته وقوته ليكون بطلاً رائعا للمسيحية الناهضة والكارز الذي كانت رسالته دائماً – إنجيل الخلاص كهبة الله لعالم خاطيء.

نحن نتفق تماماً مع الرأي القائل إنه: «لولا الجهود المكرسة لهذا الرجل الذي كان يهيم حباً بالمسيح فمن المشكوك فيه أنه كان يمكن للمسيحية أن تصبح ديانة عالمية. لا توجد شخصية في تاريخ الكنيسة تقف بمثل هذا الشموخ أو لها مثل هذا الأثر البعيد مثل هذا الرسول بالنسبة للعالم غير اليهودي. والقرون لم تقلل من بريق شخصيته ولما تزحزح مكانه في التاريخ المسيحي. وحينما وحيثما ترك انتشار الممارسات الدينية الخاطئة بصماته على الكنيسة وجعلها في حاجة إلى نهضة جديدة، كان يتم اللجوء إلى بولس، كما إلى ينبوع يستمدون منه الماء النقي للإيمان المسيحي وإعادة نشر جوهر إنجيل المسيح.

يمكن تجميع خلفية التدريب السابق الذي حصل عليه بولس من سفر الأعمال، ومن رسائله الخاصة. وهذه هي الحقائق المقدمة أساساً منه.

١- يهودي طرسوسي من مدينة كيليكية (أع ٣٩:٢١)

٢- مواطن روماني حر (أع ٢٨:٢٢)

٣- فريسي ابن فريسي (أع ٦:٢٣)

٤- عبراني من العبرانيين من سبط بنيامين (في ٥:٣)

٥- تلميذ غمالائيل، تعلم طبقاً لناموس الآباء الكامل (أع ٣:٢٢، غل ١٤:١)

٦- تعلم اليونانية، والأدب اليهودي (أع ٢٨:١٧، تي ١٢:١)

٧- رجل تغير اسمه (أع ٩:١٣)

ولذلك فإن بولس يتميز عن بقية الرسل كرجل ذي تعليم وثقافة، معداً ومهيأ بتفوق عن طريق الميلاد، والتعليم والخبرات المبكرة ليشغل المكانة الفريدة في تأسيس وامتداد وتهذيب الكنيسة. كم كان مدرباً جيداً ليكون المفسر الرئيسي لأفكار وغرض سيده. وبسبب خلفيته الفريدة وعلاقاته السابقة، كان معداً إعداداً أفضل من رجال الجليل ليأخذ فكرة شاملة عن مهمة المخلص وأهدافه. «إن مراجعة وجيزة للحقائق التي يذكرها بولس عن نفسه ضرورية من أجل فهم كامل لكل ما آل إليه وما أنجزه.

أنا رجل يهودي (أع ٣:٢٢)

بعد بداية العصر المسيحي بوقت قليلُ ولد بولس من عائلة يهودية متمسكة تمسكاً صارماً بتعاليم الفريسيين. وهو من «سبط بنيامين» الوثيق الصلة بجوهر اليهودية في أورشليم. كان يهود طرسوس على علاقة بالحياة العملية في المدينة. وحيث أن بولس كان صانع خيام فمن المرجح أنه امتهن حرفة والده.

وكان عدد كبير من يهود طرسوس مواطنين رومان، بعضهم عن طريق المنحة، والبعض الآخر بالشراء. كان جيروم في القرن الرابع للميلاد يعتقد أن والدي بولس كانا من جيسكالا في الجليل، وأن أباه قد حصل على رعويته الرومانية بعد الذهاب إلى طرسوس كأسير حرب.

عندما كان قائد المئة الروماني على وشك أن يجلد بولس، احتج الرسول بالقول «أيجوز لكم أن تجلدوا إنساناً

روماني؟» وبعد مزيد من الفحص، قال بولس «أنا قد ولدت في الرعوية الرومانية» (أع ٢٢:٢٤-٢٩) كانت هذه الرعوية قيمة، لأنها كانت تحمل معها حقوقاً خاصة وامتيازات، من بينها التحصن ضد الجلد أو الصلب، وفي أواخر أيامه، عندما رغب بولس أن يرحل إلى روما، فإن رعويته الرومانية قد مكنته من الرحلة، على الرغم أنه ذهب إلى هناك كسجين (أع ١٩:٢١، ٢٥:١١ . ١٢).

وبممارسته لامتياز حصوله على الحرية الرومانية، صاح في البلاط الملكي قائلاً: «إلى قيصر أنا رافع دعواي». وبموجب القانون الروماني، لم يكن لدي السلطات المحلية خيار سوى الرد بالقول: «إلى قيصر تذهب» وتعليق الدكتور وايت جدير بالاقتباس:

«لم ينس بولس أبداً رعويته الإسرائيلية، ولم يقلل أو يبالغ في رعويته الرومانية، ولكنه لم ينس أبداً في كل العصور أولوية عضويته في مدينة الله، واكتشف أخيراً، بعد حياة حافلة أن العالم لم يكن مستحقاً لها، وأن أثمن رعوية للمسيحي هي حقاً في السماء».

على الرغم من حقيقة أن أفراد عائلة بولس كانوا مواطنين رومان، ألا أنهم ظلوا مخلصين لإيمانهم وممارساتهم اليهودية، وهكذا فإن شاول الشاب قد تربى في ظل التعاليم اليهودية الصارمة، وكان يذهب إلى مدرسة المجمع وقد تعلم بكل إخلاص ونبوغ، كما تثبت رسالته إلى أهل رومية، كل ما كان مطلوباً منه كتلميذ للكتب المقدسة وناموس الآباء: «اجتهد أن تقيم نفسك لله مزكى...» (٢تي ١٥:٢). كان عقله يقظاً تجاه التناقض فيما بين السلوك الأخلاقي والديني الصارم المطلوب منه والسلوك الأخلاقي المنحل المنعكس في بيئة تسيطر عليها الوثنية (رو ١:٢٠-٣٢). وعندما كتب بولس إلى أهل فيلبي وصف نفسه بأنه «عبراني من العبرانيين» (٣:٥) هنا كان يعيد تأكيد تراثه الذي يفخر به والذي كان يرجع إلى أبي اليهود، إبراهيم، فهو أبو الآباء وأول عبراني. وهكذا فقد أشار إلى نفسه بالقول بأنه «من نسل إبراهيم» (رو ١١:١). وعلى الرغم أنه أصبح رسولاً إلى الأمم، بعد أن أنقذ من التعصب الضيق الأفق لجنسيته كيهودي فلسطيني، إلا أن بولس لم يفقد أبداً حبه واهتمامه بأنسبائه حسب الجسد (رو ٩:٢-٥). وعندما بدأ يقرأ الأسفار اليهودية بعيون مسيحية، كان أكثر يقيناً عن ذي قبل بأن مصدرها هو الله، حيث كان دائماً يكرر هذه العبارة: «مكتوب»، وهي العبارة التي كان ينهي بها كل جدال ويختم أي نقاش.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد قيل لنا إن بولس، كشاول كان «رجلاً طرسوسياً» وقد قُدِّم لنا بهذه الصفة أولاً، عندما وجد، ليس في مدينته، بل في أورشليم (أع ٨:١، ٩:١١). وكما يقول ج. باترسون سميث في كتابه «قصة حياة القديس بولس ورسائله»: «فجأة وعلى غير توقع، يظهر شاول الطرسوسي من المجهول على مسرح التاريخ. يرفع الستار على جمهور من الرعاع يتصارعون ويلقون بالحجارة في الهواء ثم نجد معلماً يهودياً شاباً في خلفية المشهد «مع أردية موضوعة عند قدميه».

ما تأثير طرسوس مسقط رأسه على حياة وشخصية هذا الشاب الفريسي وهو يشاهد استفانوس يقتل بالحجارة من قبل جمهور مسعور من الغوغاء؟ في القرن الأول، فقد كانت طرسوس عاصمة كيليكية، وهي إقليم من أقاليم آسيا الصغرى. ولكونها كانت تقع على مصب نهر سدنوس، كانت تشرف على مكان ذي أهمية كبرى تجارياً بسبب موقعها على واحد من أهم طرق التجارة البرية في العالم القديم – مكان التقاء الشرق بالغرب حيث كانت التجارة تتواصل في كلا الاتجاهين براً وبحراً.

كانت طرسوس أيضاً مشهورة «كمدينة حرة»، وقد

منحت لها حريتها على يد القائد الروماني، مارك أنطونيو، في سنة ٤٢ ق.م. وكمدينة حرة لم يكن مطلوباً منها أن تدفع الجزية المعتادة التي تدفعها المدن المهزومة إلى روما. ومع أن طرسوس كانت جزءاً من الإقليم الروماني، إلا أنها كانت تتمتع بالحكم الذاتي. وكانت المدينة أيضاً مكاناً شهيراً لالتقاء الفلاسفة والشعراء. كانت طرسوس كمدينة جامعية، مركزاً للثقافة وقد أصبحت تشتهر بتعليمها الرواقي. لم يكن المذهب الرواقي يعترف بإله شخصي، ولعلم بولس بسيكولوچيته فقد عرف كيف يقاومه، كما فعل في تعليمه عن النعمة الإلهية. امتدح سترابو، العالم الجغرافي اليوناني الشهير، والمعاصر للإمبراطور أوغسطس أهل طرسوس بشدة لاهتمامهم بالتعليم والفلسفة وشبه المدينة بأثينا والإسكندرية.

لم تكن طرسوس بالنسبة لبولس، مدينة حقيرة، وقد تركت مناظرها ومشاهدها آثاراً لا تمحى على عقله، وحيث أنه نشأ في هذه المدينة الشهيرة حيث قضى سنوات طفولته وشبابه حين كان في طور التكوين. فإنه لم ينس أبداً تجربته هناك، كما تدل كتاباته على ذلك، فقد شهد أسواق العبيد في طرسوس ولاحظ علامات الملكية المطبوعة على جباه وأيدي العبيد الذين كانوا يباعون هناك، ولوجود ذكراها في عقله، استطاع أن يكتب في السنوات اللاحقة هذه الكلمات «لأني حامل في جسدي سمات الرب يسوع» (غل ٦:١٧). ولذلك فعندما كان يفكر في هؤلاء العبيد الموسومين يباعون لسيد، فإنه تبني اللفظ اليوناني Dou-los، الذي يعني «العبد» ليوضح كيف أنه في علاقته بالمسيح سيده، كان خاضعاً تماماً لإرادته وتحت سيطرته. وحينما كان صبياً، كان يرى الجنود الرومان بخوذاتهم، وعدتهم الحربية ورماحهم، وقد استخدم الكثير من الاستعارات الحربية في تبشيره وكتابته (٢كو ١٠:٤، أف ٦). وقد تعلم بولس من المركز الرياضي في طرسوس، لغة الرياضيين التي استخدمها بمهارة بالغة (١كو ٩:٢٤-٢٦).

بالإضافة إلى ذلك، فعندما يرسم بولس صورة لشخصيته في تلك الأيام المبكرة من حياته قبل أن يصير مسيحياً، يخبرنا أنه عاش «حسب مذهب عبادته الأضيق» وأنه كان فريسياً وأنه «حسب البر الذي في الناموس» كان «بلا لوم» (أع ٢٣:٦، ٢٦:٥-١١، في ٣:٤-٨). ياله من اعتراف يقدمه عن نفسه! يقول الدكتور ر.أ وايت: «إن الحركة الفريسية برزت إلى الوجود لتدافع عن كل ما هو يهودي ضد تغلغل الوثنية اليونانية والرومانية. وقد خدمت الأمة جيداً في الحفاظ على الديانة والناموس والأخلاق» ولكن منذ القرن الأول للميلاد فسدت واقتصرت على البر الذاتي، والرياء، والتقليد الحرفي بالناموس مع الجمود والآلية.

ولكن بولس كان شاباً يهودياً مثالياً، من الطراز الأول، وعن طريق تهذيبه في البيت والمجمع، كان ملتزماً بالسلوك الخارجي، لا مظهرياً فقط، بل خالياً من أي لوم. كان مستجيباً بالكامل للمتطلبات الطقسية لموسى، مجاهداً دائماً أن تكون حياته نقية خالية من أي لوم، وعندما صار مسيحياً أخذت غيرته على القداسة بعداً آخر، ليس كعبد للناموس، بل للرب الذي جاء كالمكمل والمتمم للناموس. فإذا كان «أوفر غيرة في تقليدات آبائه» متقدماً في الديانة على كثيرين من أترابه في جنسه (غل ١:١٤)، فما أن دعاه المسيح ليكون له حتى فاق كل الآخرين في الخدمة المضحية في الكنيسة المسيحية في عصره، وهو يموت يومياً لأجل المسيح.

مؤدباً عند رجلي غمالائيل

(أع ٥:٣٤، ٢٢:٣)

ربما كان بولس قصير القامة ولكن ما كان ينقصه

جسدياً، قد استعاضه عقلياً. فقد كان بلا شك، أرجح عقلاً من بقية الرسل، لم تكن قدرته الخارقة على الاقناع تثير الكثير من الدهشة عندما نتذكر أنه تعلم عند قدمي غمالائيل، أشهر معلم رباني في عصره، رجلاً متحرراً ذهنياً ومتسامحاً روحياً، كان معلم بولس هذا العالم البارز في الناموس الذي نصح المجمع أن يتركوا الرسل وشأنهم (أع ٥:٣٣-٣٩). كان اليهود يكرمون غمالائيل «كمجد الناموس» وكان أول من أطلق عليه لقب «معلمنا». كان ابن المعلم سمعان، وحفيد هليل، وقد أصبح رئيس السنهدريم في عهد طيباريوس وكاليجولا، وكلوديوس، وقد مات قبل سقوط أورشليم بـ ١٨ سنة.

تضمن تهذيب هذا المعلم الشهير «المكرم من قبل كل الشعب» دراسة شاقة للأسفار اليهودية جنباً إلى جنب مع التعليقات الشاملة عليها من قبل معلمي اليهود. وكتلميذ لغمالائيل، تمسك بولس بدراسات معلميه تمسكاً شديداً كما يظهر من ولائه فيما بعد للناموس واستخدامه المتكرر لأساليبهم. كان المطلوب من تلاميذ غمالائيل أن يتعلموا حرفة حتى يمكنهم في النهاية أن يعلموا دون أن يصبحوا عبئاً على الشعب. ومن المرجح أن بولس مارس حرفة شائعة في طرسوس، وهي صناعة الخيام من صوف الماعز، وقد أفادته مهارته في هذه الحرفة فائدة كبرى في مقتبل أيامه أثناء قيامه بالخدمة الرسولية الشاملة.

كانت معرفة بولس للغة أيضاً إضافة لتفوقه العقلي ولمقدرته كمبشر وككاتب.. إنه «كعبراني من العبرانيين» بمعنى أنه كان يهودياً خالصاً، كان ملماً إلماماً جيداً بلغته الأصلية، وقد تعلم أيضاً اليونانية ومن المرجح اللاتينية كذلك. وفي عظته الشهيرة على تل مارس، اقتبس بولس سطراً من أراتوس، وهو فيلسوف رواقي شاعر من كيليكية، وكان قد مات قبل ولادة بولس بوقت طويل. «كما قال بعض شعرائكم أيضاً لأننا أيضاً ذريته» (أع ١٧ :٢٨). في رسائله وأحاديثه، كان الرسول يقتبس عادة من العهد القديم في طبعته اليونانية، ولذلك فإن الدكتور وايت يقول: «كانت اللغة اليونانية لغته الأصلية وكانت العبرية مجرد لغة ثانية». كانت بلاغة بولس في اللغة اليونانية هي التي أعطته إلماماً فائقاً باللغة الدارجة لمعظم شعوب العالم المعروف آنئذاك مما كان يعد أفضل مصدر قوة للعمل المرسلي في العالم في القرن الأول، ولاشك أن خلفيته الثقافية ومقدرته اللغوية قد أعطته الفرصة للتقرب من رئيس الكهنة ونوال ثقته (أع ٢٢:٥).

كما أن مؤهلاته العديدة أتاحت له الحصول على مقعد في السنهدريم، قبل أن يصبح بولس مسيحياً، إذ كان حاضراً عندما كان المسيحيون يحاكمون أمام هذه الهيئة الحاكمة، «وأعطيت صوتي ضدهم R.V» [1]. وبما أن حق التصويت كان قاصراً على المتزوجين فقط من الرجال، فإن ذلك يوحي بأن بولس كان متزوجاً، ويقول بعض الكتاب إننا نجد دليلاً على وجود زوجة لبولس قد ماتت في الرسالة إلى رومية «سلموا على روفس المختار في الرب وعلى أمه أمي» (١٦:١٣). والاستنتاج المنطقي المستمد من هذه التحية أن أم روفس كانت أما لزوجة بولس. وفي هذه الحالة كانت ابنة سمعان القيرواني (الذي أجبر على حمل صليب يسوع إلى الجلجثة) وكان أباً لروفس (مر ١٥:٢١).

شاول الذي هو بولس (أع ١٣:٩)

التغيير ذو أهمية إلى حد ما والاسم شاول هو Shaul في العبرية. ومن المحتمل أن هذا هو الاسم الذي لقبه به والداه عند ميلاده تيمناً باسم أول ملك لإسرائيل، ألا وهو شاول. ولكن بولس كان الاسم الروماني الذي اختاره وهو الاسم الذي نال العظيم من التكريم والاحترام عبر القرون،

---

١. وردت في ترجمة فاندايك باللغة العربية هكذا: «ولما كان يقتلون ألقيت قرعة بذلك» (أع ٢٦:١٠) (المترجم).

يبدو أن تغيير الاسم هذا بعد تجديده قد حدث في قبرص (أع ١٣:٤،٩) ربما كمجاملة لسرجيوس بولس، والي الجزيرة الذي اعتنق المسيحية.

شاول يعني «المطلوب» بينما بولس يعني «الصغير» أو «الشخص الصغير الجسم» مما حدا بعدد قليل من الكتاب أن يقترح وجود علاقة بين هذا الاسم وقامته القصيرة. في لسترة، اعتقد الناس أن بولس هو هرمس وهو إله يوصف أحياناً بأنه صغير الجسم ومفعم بالحيوية (أع ١٤:١٢).

٢- مضطهد الكنيسة

ذُكر بولس أولاً في العهد الجديد كشاب في حوالي الثلاثين من العمر وهو الذي وضع الشهود ثيابهم عند قدميه عند رجم استفانوس، ولذلك فقد كان من الموافقين على قتل ذلك الشهيد (أع ٥٨:٦٠، ٢٢:٢٠). من المرجح كثيراً أن بولس كان من المشار إليهم من مجمع الليبرتينيين والقيروانيين... ومن الذين من كيليكيا (مسقط رأسه). الذين كانوا «يحاورون استفانوس» وقد اشترك في اتخاذ القرار بقتله كمجدف. وفيما بعد أصبح العامل الرئيسي في الاضطهاد الشديد الذي حدث للكنيسة الفتية والسريعة النمو. بعد أن احتمل مكان الصدارة في أورشليم كعضو نشط لا يكل في حزب السلطة الكهنوتية، لم يظهر هذا المضطهد الرئيسي للقديسين أي رحمة حيث كان يسطو على البيوت للقبض على المسيحيين (أع ٨:١-٤، ٩:١-٢).

كانت العوامل المسببة لتفجُّر ثورة غضب الفريسيين ضد المسيحيين الأوائل معروفة جيداً. فقد ظهرت من بين اليهود الأرثوذكس طائفة جديدة، الناصريون، والذين اتبعوا يسوع الناصري، وقد أكدوا أنه المسيا المتنبأ عنه في القديم. وقد اعتقدوا هم أنفسهم أنهم «إسرائيل الله» الجديد الحقيقي أهل العهد الجديد، الذين سوف يتمون كل ما قصده الله لشعبه وأنهم سوف يرثون كل الوعود المعطاة في التاريخ العبري لشعب العهد القديم.

كانت هذه المزاعم الجريئة من جانب عدد قليل من القرويين غير المتعلمين من الجليل، وخاصة ممن اتبعوا المسيا المصلوب والمقام، مضادة للتعاليم اليهودية ودراسات الربانيين التي تلقاها بولس. كان بولس - شأنه شأن الفريسيين الآخرين - يتطلع إلى المسيا الموعود به، ولكن ليس إلى شخص يموت كمجرم على قطعة من الخشب. كان بولس ينتظر مسيح الله الذي يأتي بكل مجده كالملك. ولذلك، فإن هذا التعليم الجديد «لشيعة الناصريين» (أع ٢٦:٩-١١) كان بمثابة تهديد للمباديء الأساسية لليهودية كما فهمها الفريسيون، ولذلك كان يجب إبادتهم. مضى بولس قدماً لإبادة هذه الهرطقة التجديفية من أصولها، وكان هذا القرار هو الشغل الشاغل في حياته (غل ١:١٣). ولأن حقده قد أعماه، فقد ظن أن إرادة الله أن يقاوم بكل وسيلة في متناول يديه كل من اتبع هذا الطريق. ويذيقهم الموت، ويقضي على الكنيسة (أع ٨:٣).

لما كان بولس معادياً بشدة للإيمان المسيحي، ومعارضاً بنوع خاص لبعض تعاليمه الثورية (بالنسبة له)، فقد كان جادًا عندما حاول أن يكتسح مثل هذه الهرطقة ويسكت كرازة الرسل. كان يشعر بحنق شديد وغضب مكبوت تجاه القديسين الذين قلبوا عليه المائدة وأفسدوا خطته عندما حملوا معهم إلى المنفى إيمانهم بيسوع الناصري، كالمسيا الذي جاء من السماء. ولما سمع بولس أن دمشق قد صارت ملجأ مسيحياً للناصريين الهاربين، فقد طلب إذناً من رئيس الكهنة ليقتفي أثر العدو المتقهقر إلى العاصمة السورية، كان غضبه يتمثل في الطريقة التي اتبعها لتنفيذ خطته بحرص، حيث كان مسلحاً بمستند للبحث والتفتيش، وقد بدأ رحلته كقائد ملتهب حماسة ومعه أمر بالقبض على الناصريين وإرجاعهم إلى أورشليم

لمحاكمتهم على هرطقتهم.

يذكرنا إيمرسون بأن «تاريخ الاضطهاد وهو سجل لمحاولات خداع الطبيعة، وجعل الماء يتجه إلى أعلى، فلا يمكن تلويث سمعة الشهيد. وعند معرفة الحقيقة يتم تبرير الشهداء وتكريمهم من قبل الأفراد والجماعات بعد إعمال العقل والتأمل». استعان اليهود الأرثوذكس بكل ما يحملونه من عداوة مريرة، بكل قوى السنهدريم ضد دفاع استفانوس الجريء، وعدم تهيب أولئك الذين اعتنقوا الإيمان المسيحي، ولكن ممثلهم – بولس، المضطهد الذي كان ينفث تهدداً وقتلاً والذي شهد لحظات الاستشهاد الرائع لاستفانوس كان عليه أن يؤمن بأن «دم الشهداء هو بذرة الكنيسة».

لم تتعرض قضية المسيحية لما هو أسوأ مما حدث في بداية رحلة بولس للقبض على المسيحيين الهاربين إلى دمشق. ولنا أن نتصور كيف ارتعب القديسون عندما سمعوا أن عدوهم اللدود كان في طريقه لتدميرهم والقضاء عليهم. ولكن، كما سنرى، «فالإنسان في التفكير – والرب في التدبير» لأنه على الرغم أن بولس وصل إلى دمشق، إلا أن الوثائق التي كان يحملها من قبل السلطات الدينية في أورشليم بالقبض على كل تابعي الناصري لم تستخدم. فالذي كان ينفث تهدداً وقتلاً وكان في طريقه لتنفيذ مهمة اضطهاد جديدة توقف فجأة عن تنفيذ تهديداته، لأنه في الطريق إلى دمشق حدثت معجزة لكاره القديسين هذا والمجدف المتعطش للدماء – ويالها من معجزة!

٣- تجديد بولس

بمجرد أن تجدد بولس بمعجزة عينه الرب، وأمره على الفور، كإناء مختار أن يحمل اسمه أمام اليهود، وكذلك أمام الأمم، واستمر هكذا يعمل لما يقرب من ثلاثين عاماً حتى سنة ٦٦م حيث يعتقد أن رأسه قطعت بأمر من نيرون في روما (أع ٩:٣-٨، ١٣،١٥:٤٦، ٢٢:٢١، غل ١:١، ٢:٨،٩). إن الفقرات الافتتاحية للدكتور ر.أ. ووايت في الفصل الذي كتبه عن التغيير المعجزي لبولس، فقرات معبرة وجديرة بالاقتباس.

«من بين آلاف حالات التجديد في التاريخ المسيحي، فإن هذه الحالة فقط، والخاصة بتجديد حياة بولس – يحتفل بها في يوم عيد معين في تقويم الكنيسة، ونظراً لأنها تحتل المرتبة التالية لميلاد وموت وقيامة يسوع ويوم الخمسين، فهي بالطبع أهم حدث في العهد الجديد، ولا شيء في التاريخ اللاحق للكنيسة يساويها في أهميتها لكل العصور وللعالم كله.

إن ذلك اللقاء الوجيز والمدهش أيضاً خارج دمشق قد أكسب يسوع أخلص تلاميذه، وأعظم رسله، وأوفي خدامه المخلصين. فقد أزال بضربة واحدة أقوى أعداء الكنيسة وأشدهم بطشاً. وقدم للمسيحية. أشجع أبطالها وأخلص كارزيها وأذكي قادتها وأعمق مفكريها وواحداً من أكثر قديسيها جاذبية

وأتاح هذا اللقاء التراث الفني لكتاباته للمشورة والتشجيع لكل القرون اللاحقة وهو يحدد بوضوح أكثر من أي تعليم، الغرض الرئيسي للإنجيل ومعناه، ويظهر بقوة لا مهرب منها القدرة الإلهية العاملة في المسيحية.

لم يكتب دفاع عن تجديد بولس أروع من هذه الصيغة التي جادت بها قريحة الدكتور وايت. دعنا الآن نحاول أن نفحص، بتدقيق أكثر، ما حدث في ذلك اليوم في الطريق إلى دمشق عندما تدخل الرب بطريقة دراماتيكية إلى جانب قطيعه الصغير المعتدي عليه بهجمات متكررة. كان ذلك اليوم من أخطر الأيام في تاريخ الكنيسة من جوانب عدة – وكان حدثاً بالغ الأهمية مما جعل الله يفرد له أربع روايات (أع ٩:٣-١٩، ٢٢:٦-٢١، ٢٦:١٢-١٨، غل ١:١١-١٧).

تختلف هذه الروايات اختلافاً طفيفاً في التفاصيل المصاحبة للظواهر، ولكنها تتفق في الجوهر فيما يتعلق بما رآه بولس، وبما سمعه وقاله، وعن علاقته التالية بحنانيا في دمشق. كانت ملابسات الحادث كما يلي:

كان بولس في الطريق إلى دمشق ومعه رسائل من رؤساء الكهنة في أورشليم لمعاقبة تابعي المسيح الذين يمكن أن يجدهم هناك. كانت الطرق التي كان عليه أن يسلكها لا تسمح له سوى بركوب الخيل – وهي رحلة تستغرق ستة أيام بالنسبة لبولس ورفاقه يخبرنا التقليد أنهم تعبوا كثيراً بسبب حرارة الشمس، والسفر في الصباح والمساء، حتى أصبحوا على مشارف دمشق، كان شاول مستريحاً وبمفرده عندما حدث شيء بغتة، ففي منتصف النهار، عندما كانت الشمس في أوج قوتها، أبرق حوله ضوء أشد لمعاناً من الشمس، وفي الحال سقط على الأرض وسمع صوتاً، واضحاً ومتميزاً يقول بلسان عبري: «شاول شاول لماذا تضطهدني؟» (أع ٩:٣،٤،٢٦:١٣،١٤).

قبل أن نتأمل في هذا الحدث الرائع نفسه، فقد يكون من المفيد أن نكتشف بعض العناصر في إعداد شاول لمثل هذا التغيير الدرامي في الحياة والشخصية، كان ظهور المسيح المجيد للمضطهد وتغييره الكامل، مفاجئاً وفورياً، وفي لمح البصر حدثت معجزة التغيير. ولكن كانت هناك طرقات سابقة على قلب شاول القاسي مما ساعد على سرعة تكيفه مع الضربة الأخيرة التي نجحت في ترويضه. وعندما تقابلا أخيراً وجهاً لوجه، قال يسوع لشاول: «صعب عليك أن ترفس مناخس» (أع ٩:٥).

لما كان شاول ملماً بالشعراء اليونان كنتيجة للتعليم الذي تلقاه في مدارس طرسوس فلابد أنه فهم مغزى الإيضاح الذي أورده ربنا. قال واحد من الشعراء: «مقاومة قوة أعظم من قوتك تجربة غير مجدية وخطرة» هناك مثل يوناني يقول: «لا تقاوم الله».

ما هي المناخس التي كان يرفسها شاول، التحذيرات، والانذارات والدلائل التي كان متهماً بمقاومتها وتحديها؟

خلاص برنابا، صديقه ورفيق شبابه

العلاقة وثيقة بين بولس وبرنابا يبدو أنها توحي بأنه كانت هناك صحبة سابقة (أع ٩:٢٧، ١١:٢٥). يقول إليكوت: من المرجح أن برنابا ترك قبرص ليتعلم في مدارس طرسوس الشهيرة، والتقى بشاول أو تدرب معه في مقتبل حياته على صناعة الخيام – وهي حرفة اشتغلا بها سوياً فيما بعد (١كو ٩:٦) ومن بين التقارير التي تلقاها شاول عن معتنقي العقيدة التي شرع في القضاء عليها، كان هناك تقرير عن تجديد برنابا، والطريقة التي تخلى بها عن جميع مقتنياته لأجل القديسين. ولابد أن مثل هذا التنازل قد نخس ضمير شاول الذي كان مصمماً على القضاء على هؤلاء الأتقياء.

حديث ونصيحة غمالائيل

(أع ٥:٣٣–٤٠)

بما أن شاول نشأ في مدرسة هذا العلاَّمة البارز في تاريخ معلمي اليهود، فلابد أنه قد تأثر، كعضو في السنهدريم، وهو يستمع إلى معلمه القديم مؤيداً تعليم العظة على الجبل في النصيحة التي قدمها للمجمع بشأن لا تفعلوا بالآخرين ما لا تريدون أن يفعلوه بكم. كان بطرس والرسل الآخرون (أع ٥:٢٩) أمام المجمع بسبب شهادتهم لموت وقيامة المسيح. وكان المجمع قد اتخذ قراراً بقتل هؤلاء الشهود الذين لا يخشون شيئاً. وكان يبدو من نغمة دفاع غمالائيل عن الرسل، أنه كان في صحبة عدد كبير من الرؤساء الذين آمنوا سراً بالمسيح، ولكنهم خافوا من الاعتراف به علانية (يو ١٢:٤٢،٤٣). ربما كان غمالائيل يفكر في تلميذه القديم وهو يخاطب المجمع، قاصداً أن

تكون كلماته التحذيرية قد اختيرت خصيصاً لكبح جماح غيرة شاول الملتهبة والمندفعة. هنا إذن منخس آخر «رفسه» شاول. وكان من نتيجة دفاع غمالائيل أن جلد الرسل وأطلق سراحهم، ولكنهم مضوا دون أن يكفوا عن التعليم والتبشير بيسوع المسيح.

دفاع وموت استفانوس

لابد أن استفانوس بوجهه الملائكي قد أزعج ضمير شاول عندما وقف أمام المجمع متهماً بالتجديف، لم يستطع شاول أن ينسى هذا الوجه، فالوجه الذي كساه المجد أقلق مضطهد القطيع الصغير. كان يكسو هذا الوجه بريق الغيرة المتقدة، وهدوء الحكمة النازلة من فوق، ولذا كان يشع بريقاً سماوياً وكان منخساً آخر حاول شاول جاهداً أن «يرفسه». ولم يغب عن شاول أيضاً روح البطولة لأولئك الذين تبعوا استفانوس حتى لحظة استشهاده، ومشاهدة الشهيد وهو يُرجم بوحشية حتى الموت، ورؤية كيف يموت القديس، أزعج شاول كثيراً، والعنف الذي أظهره ضد القديسين بعد ذلك المشهد الدموي لم يكن سوى رد الفعل تجاه هذا الإيمان المضحي المتسم بالأمانة، وهو دليل على أن ضمير شاول كان يزداد انزعاجاً.

كما أن الإنسان لا يضطهد الناس الذين لا يعرف شيئاً عنهم، فنحن متأكدون أن بولس قد عرف قدراً كبيراً عن الناصريين الذين أعجب سراً بنوعية حياتهم وسلوكهم، وشجاعتهم وتمتعهم بسلام داخلي في ساعة التجربة مما جعله يفكر تفكيراً أعمق في السيد الذي تألموا طواعية لأجله. رسم فنان أسباني بولس بجوار استفانوس في الطريق إلى الاستشهاد، وكانت هذه محاولة لإظهار العلاقة الوثيقة بين هذين الشخصين في تنمية حياة الكنيسة. لقد قرأنا عن العبرانيين القدامى الذين «كلما تعرضوا لمزيد من الاضطهاد تكاثروا وازدادوا عدداً». وبُعثت روح استفانوس من جديد في قلب عدوه الذي كان قد وافق على موته المريع. لقد دفن الله أحد فَعَلَته الشجعان ولكنه واصل عمله. ربما حاول بولس أن يهرب من التذكر المزعج لنهاية استفانوس المريعة، ولكن صلاة الشهيد قد استجيبت بتجديد المضطهد الشاب الذي أمر بمواصلة مهمة استفانوس، وصيرورته رسولاً إلى الأمم.

ازدياد خيبة الأمل في الديانة اليهودية

مع أن بولس كان شديد الحساسية لمطالب الناموس، التي كان يستوفيها هو نفسه بكل تدقيق، إلا أن شكوكه تصاعدت بشأن إذا ما كان الناموس قادراً على خلاص إنسان تحت اللعنة (غل ٣:١٠، في ٣:٦). وبالتدريج دب فيه اليأس فيما يتعلق بإتمام مطالب الناموس. ومحاولته المستميتة لمحو المسيحية من الوجود لم تعكس سوى الإحساس بعدم الأمان الناتج عن الظنون والشكوك. وقد توصل إلى إثبات أن الالتزام الظاهري بمطالب الناموس وإتمام هذه المطالب عملياً ليسا شيئاً واحداً وأن ذلك لم يؤد إلى الانتصار وتحرير النفس (رو ٧:٧) ولذلك، فإن حالته قبل تجديده، عندما أصر، كثور عنيد على أن يرفس مناخس، مما أدى إلى إيذائه لنفسه أكثر من أي شخص آخر، موصوفة بوضوح رائع في رسالته إلى أهل رومية (أع ٢٦:١٤، رو٧).

وبالإضافة إلى يأسه من فاعلية الناموس، كان هناك الوعي المتزايد بحقيقة أقوال رجل الجليل. هناك سؤال مثير للجدل حول رؤية بولس ليسوع التاريخي. لقد ذكر أنه عرف المسيح «حسب الجسد» أي، من وجهة نظر بشرية (٢كو ٥:١٦)، ويبدو أن الإشارات العديدة في رسائله إلى شخصية يسوع توحي أنه كان يحمل في ذهنه انطباعات مكتسبة من خلال الاحتكاك الشخصي بحياة يسوع على الأرض.

وهذا واضح تماماً، فقد تعلم الكثير عن يسوع أثناء إلقائه القبض على أتباعه، فقد استطاع أن يرى تطابق سلوكهم مع المطاليب الأخلاقية ليسوع الذي أعلنوا عنه أنه المسيا . يقول جون نوكس: « إن المسيح بدأ في الإعلان عن نفسه لبولس - ربما رغماً عن إرادة الأخير - بالروح القدس كالشخص المضطهد قبل أن يعلن عن نفسه في الاختيار الذي اجتاز فيه بولس عن طريق الرؤيا البصرية وما أعقبه من اختبار تجديده».

كتب س.أ ديسمان في كتابه «ديانة يسوع وإيمان بولس» يقول «إن نور دمشق الباهر لم يسلط على فراغ، بل وجد الكثير من المواد القابلة للاشتعال في نفس بولس» لذا نحن نؤكد بيقين يستند إلى المنطق أن التغيير الجذري الهائل الذي اختبره بولس والذي وصفه بأن الله قد سر بأن يعلن ابنه فيه، لم يكن دون إعداد ضخم من جانب السماء (غل ١:١٦)، ألم يعلن أن الله أفرزه للخدمة الرسولية من قبل أن يولد؟ (غل ١:١٥)؟ نتأمل الآن في التجديد المعجزي والمفاجيء. والذي كان إيذاناً بالمرحلة الأخيرة من عملية استغرق إعدادها وقتاً طويلاً. ما هي بعض جوانب الرؤيا التي نتج عنها دعوة بولس للخدمة الرسولية؟

تلقى بولس إعلاناً عن يسوع

لقد رأى بولس بالفعل يسوع الناصري المصلوب كالمسيح الحي. ومن مؤهلات الرسول أن يشهد بقيامة المسيح «شاهد معنا بقيامته» (أع ١:٢٢). وعندما ذكر إعلانه العظيم عن القيامة عدد كل من رأى بالفعل الشخص الذي هو حي إلى الأبد، وختم حديثه بالقول: «وآخر الكل... ظهر لي أنا» (١كو ٢:١، ١٥:٨). إن الصوت الداخلي الذي حاول بولس أن يسكته أصبح الآن مسموعاً ويتحدث، لا بتوبيخ بل برقة، وهو يردد اسم الشخص الأسير «شاول شاول لماذا تضطهدني؟». إن همسات ذلك الصوت المحتج الذي سمعه في الماضي يتردد الآن في عمق كيانه الداخلي ويطالب بسبب يبرر به إصراره على العداوة: يا له من حوار جرى بين الرب المقام وبين المضطهد، الذي فعل ما فعله بجهل في عدم إيمان!

يتضح من القصة أن بولس رأى هيئة يسوع كما سمع صوته، وأنه شهد فيما بعد لهيئته المنظورة (١كو ٩:١). لقد رآه بولس كما رآه استفانوس عندما قال: «ها أنا أنظر السموات مفتوحة وابن الإنسان قائماً عن يمين الله» (أع ٧:٥٦). عندما سمع بولس كلمات الشهيد هذه، اعتقد أنها كلمات تجديفية. وها هو الآن يرى يسوع في مجد الآب ماداً يده المنقذة، ليس كما فعل مع استفانوس ليقبل خادمه الذي كان أميناً معه، حتى الموت، بل استجابة لصلاة ذلك الضحية وهو يموت، ليغير شاول، الذي ارتضى بموته، ليكون على شاكلة ضحيته (أع ٧:٦٠). وهذه هي المعجزة التي حدثت في ذلك اليوم في الطريق إلى دمشق، كان ذلك التجديد المفاجيء أعظم حادثة تجديد عبر العصور من عدة جوانب. عندما تتأمل في حالة العصيان التي تنتاب العالم ومحبة الكنيسة اليوم نجد ذواتنا تصلي قائلة: «يارب، فلتفعل ذلك ثانيةً».

من اللافت للنظر أنه هنا فقط، أع ٩:٤،١٧ استخدم يسوع الصيغة العبرية للاسم البنياميني شاول ,Shaul Shaul، كما لو كان يقترح أنه نظراً لأنه يدرك أن شاول يفتخر أول ما يفتخر، بأنه عبراني من العبرانيين، والآن بعد أن سمع شاول النداء عليه من السماء بنفس هذا الاسم، كما نودي على صموئيل قديماً (١صم ٣:٤-١٨) كان عليه أن يقرر إن كان سيستمر في رفس المناخس أو يسلم، قائلاً مع صموئيل «تكلم يارب لأن عبدك سامع». ولأنه استجاب على الفور بإرادته لذلك الصوت السماوي، ولم يكن معانداً للرؤيا السماوية، فإن بولس أثرى العقيدة

المسيحية، كما لم يفعل إنسان آخر، بإثراء إرساليتها الإنجيلية المجيدة.

اعترف بولس بربوبية يسوع

أجاب بولس بهدوء على السؤال الموجه إليه من السماء «لماذا تضطهدني؟» بسؤال من عنده: «من أنت ياسيد؟» وقد أجيب على سؤاله على الفور: «أنا يسوع (الناصري) الذي أنت تضطهده» ثم بعد توقف قصير، وهدوء نفسي، ولمسة من الروح القدس بداخله (لأنه ليس أحد يقدر أن يقول يسوع رب إلا بالروح القدس ١كو ١٢:٣) أجاب بولس يارب ماذا تريد أن أفعل؟ السؤال الأول كان من؟ والثاني كان ماذا؟ وفي كل تجديد حقيقي تتبع الواحد الآخر، بعد أن قبل الناصري المحتقر كمخلصه وسيده كان عليه أن يذهب إلى دمشق لينتظر الأوامر الصادرة. لا شك أن ترديده للقب الرب كان رد الفعل الطبيعي للاحترام والرهبة بسبب كل ما رآه وما سمعه. ومع إعلان أكمل من الروح القدس، فهم بولس وأعلن ربوبية المسيح كما لم يفعل أي رسول آخر. ومنذ تلك اللحظة فصاعداً عندما أعلن المسيح فيه (غل ١:١٦)، ولم يتردد أبداً في ولائه لربه.

فيما يتعلق بالحقيقة الرهيبة الخاصة بربوبية المسيح، يمكننا أن نلاحظ فرقاً بين إدراك بولس وإدراك الرسل الذين كانوا قبله في المسيح، فالاثنا عشر الذين رافقوا المسيح لما يقرب من ثلاث سنوات كان إدراكهم لربوبية المسيح متدرجاً. لم يكن من السهل عليهم أن يدركوا أن الشخص الذي كان نجاراً في الناصرة، هو رب المجد. وبسبب الألفة العميقة بين المسيح وخاصته، كان هناك بطء في الإيمان بربوبيته. كانت أعينهم ممسكة إلى حد ما، ولكنها انفتحت بالتدريج لتدرك إدراكاً كاملاً حقيقة معلمهم، ومهمته كالبديل النيابي عن عالم الخطاة الهالكين الساقطين.

أما بالنسبة لبولس فقد كان الأمر مختلفاً تماماً لأنه لم «يتحسس طريقه في الظلام من خلال تصورات مسبقة وفكر متحيز حتى يصل إلى إعلان كامل بالتدريج لقد تعلم فجأة عن طريق رؤيا مدهشة ببريق هائل أعمى عينيه ما تعلمه زملاؤه الرسل بعد كثير من التردد والحيرة وعدم الفهم. لقد أشرق لاهوت الرب عليه كما يشرق الصباح المجيد بعد ليلة ظلام دامس، واستطاع أن يفهم المعنى الأشمل والأعمق لموت المخلص وقيامته بسرعة وسعة إدراك لم تتح للباقين. وفي الحال عرف بولس يسوع كالرب، ونحن ندين له، أكثر من أي كاتب آخر من كُتَّاب العهد الجديد، بأكمل شرح لحقائق وأسرار ذاك الذي هو رب الكل (كو ١:١٥-١٩).

عرف بولس الوحدة القائمة بين المسيح وشعبه

يبدو ظاهرياً أن هناك تناقضاً بين القول «أما شاول فكان لم يزل ينفث تهدداً وقتلاً على تلاميذ الرب» وسؤال الرب لشاول «لماذا تضطهدني؟» (أع ٩:١، ٤). لم يكن يسوع بين التلاميذ المضطهدين، ولم يواجه شاول يسوع شخصياً بأي نوع من التهديد والقتل. لذا فلابد أنه كان منزعجاً أن يسمع الصوت الهادىء من خلال النور الذي يعمي البصر يقول: «لماذا تضطهدني؟»

لقد أظهر يسوع لشاول بطريقة ليس فيها غموض توحده مع شعبه، وأن الجروح التي ألحقها بقديسيه كانت جروحاً تحملها هو. فلم يكن شاول يضطهد التلاميذ والأخوة فقط بل كان يضطهد ربهم أيضاً، لأن ما حدث لهم قد اعتبره شيئاً قد مسه أيضاً.

ألم يقل في أيام تجسده، بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم؟ وكون الكنيسة الحقيقية هي جسد المسيح، وأي خدمة تقدم لها، أو أي معاناة تتعرض لها، تعتبر كأنها موجهة لرأسها، كانت أول حقيقة

سامية تستحوذ على فكر شاول، وقد أضحت أحد الموضوعات العظيمة في كتاباته «كما أن الجسد هو واحد وله أعضاء كثيرة... كذلك المسيح أيضاً» (١كو ١٢:٦، ١٢- ١٣، أف ٢٥:٤، ٣٠:٥).

تجديد بولس الرائع كان مثالاً

في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس يستخدم بولس عبارة غريبة، فقد كتب يشبِّه نفسه بشخص وُلد في غير وقته (١كو ٩،٨:١٥) ويترجمها فيلبس «شخص ولد متأخراً عن وقته بشكل غير طبيعي» ويقول هامش الـ A.V سَقَط أي ميلاد في غير أوانه. يقرر الرسول بوضوح أنه يشير لما حدث عندما التقى به المسيح وخلصه، وربما قصد أنه لم يحصل على امتياز أن يكون بين مختاريه الأوائل من الرسل، فقد وُلد في غير أوانه. ولذلك كان أقل من الرسل الأوائل بهذا الصدد، وأنه لا يستحق أن يدعى رسولاً لأنه اضطهد الباقين.

هناك فكرة مشابهة موجودة في رسالته الأولى إلى تيموثاوس «ليظهر يسوع المسيح فيّ أنا أولاً كل أناة مثالاً للعتيدين أن يؤمنوا به للحياة الأبدية» (١تي ١٦:١) فإذا كان بولس «كأول الخطاة» قد خلص خلاصاً مجيداً عن طريق الفادي، إذن هناك رجاء لأي خاطيء آخر على استعداد أن يتوب ويؤمن. فلكل الخطاة، كان بولس مثالاً على طول أناة الرب وتحريره لأي خاطيء من قيود الخطية. في عصر النعمة هذا، لا يصح لأحد أن ييأس من البحث عن الرحمة إذا كان الله يستطيع أن يخلص إنساناً كشاول الطرسوسي، المضطهد والمجدف.

هناك دراسة مضنية لهذا الحدث الفاصل الخاص بتجديد بولس قام بها البرلماني لورد لتلتون، وصديقه المحامي جلبرت وست، وقد كانا كلاهما ملحدين لا يؤمنان بصحة الكتاب المقدس. ركز لتلتون على حادثة دمشق وركز وست على القيامة وكنتيجة لدراسة كل منهما المنفصلة عن دراسة الآخر تجدد كلاهما. كتب لتلتون في بحثه المنشور أن: «التأمل الجاد في تجديد بولس وإرساليته يعد دليلاً كافياً على أن المسيحية إعلان إلهي» ومنذ تجديد بولس الرائع فإن آلافاً لا حصر لهم من البشر قد اختبروا نفس القوة التي غيرت حياتهم في الحال، وكان ذلك الكاتب واحداً منهم.

كان الأمر يتطلب تغييراً هائلاً مفاجئاً للتأثير في رجل مثل شاول الطرسوسي الذي كان يمتلك «ذهناً صافياً، وإرادة لا تلين، وهدفاً محدداً ودوراً ناجحاً، وضميراً لم يكن مثقلاً بوزر ذنب كبير ارتكبه، بل بالاحساس بواجب يؤديه، وواجب يتعايش معه، وواجب مستقبلي. كان شاول في حاجة إلى شيئين: تغيير كامل في الرأي فيما يتعلق بيسوع الناصري وإعلان جديد خاص به من الله، ليس كعبد مطيع، بل كخاطيء مغفورة له خطاياه.

وكان لابد للشيئين أن يسيرا جنباً إلى جنب، وكان الناصري المكروه هو طريق الاقتراب من الله القدوس.

٤- رسول من الله

بما أن الملابسات التالية لتسليم بولس حياته للمسيح معروفة جيداً، ليس هناك ما يدعو للإطالة فيها، ونحن لا نعرف ما حدث لرفاقه الذين أخرسهم النور السماوي والصوت الآتي من فوق. نهض بولس الراكع على ركبتيه مضروباً بالعمى واقتيد باليد إلى دمشق. ولكن على الرغم أنه قام من فوق التراب، أعمى وعاجزاً ومحطماً، إلا أنه كان إنساناً جديداً في المسيح يسوع. ولكن كان دخوله إلى أورشليم، مختلفاً تماماً عما كان يتوقعه، لقد كانت خطته أن يدخل إلى المدينة كالمضطهد الغيور لتابعي يسوع الناصري، ولكنه التقى بالرجل نفسه، وبعد أن اتضع وأخضع له، قضى الأيام الثلاثة الأوائل في دمشق، بلا رؤية

وبلا طعام (أع ٩:٩). ياله من تغيير للفريسي المتكبر الذي اعتاد أن يسجن القديسين! كان معتاداً أن يجعل الناصريين يرتعبون، ولكنه أصبح الآن هو نفسه ناصرياً!

علم حنانيا بقصة بولس وكان خائفاً منه، ولكن جاءه تأكيد سماوي بأن شاول القديم قد تغير تغييراً جذرياً، وأصبح صديقه ومستشاره. وفيما يتعلق بالقديسين الخائفين، فقد امتلأوا بالشجاعة، ومجدوا الله وهم يرون انقلاباً روحياً هائلاً يربح مثل هذا الكارز القوي للمخلص. ومع استعادة بصره ومعمودية الروح القدس، فقد شهد في المجمع في دمشق لإيمانه الجديد (أع ٩:٢٠). كان على بولس أن يتعلم الكثير قبل أن يعمل كرسول، ويتضح ذلك من حقيقة أنه ذهب إلى العربية ثم عاد إلى دمشق مرة أخرى ليكمل شهادته. وحيث أن العديد من الكتاب قد ركزوا على زيارة بولس إلى العربية، فقد أكدوا أنه كما كانت هناك «سنوات صامتة» في حياة يسوع، هكذا كانت هناك «سنوات صامتة» في حياة بولس، لذا دعنا نفحص ما قاله بولس بنفسه بالضبط عن هذه الزيارة.

من المدهش، أنه لم يقل أنه كان في العربية لمدة ثلاث سنوات، ولم يسجل سبب زيارته إليها، ولا طول المدة التي مكثها هناك. يمكننا أن نعترض أن رحلته إلى هناك كانت للتأمل في المهمة الكبرى الموكلة إليه، ولتشكيل الرسالة التي دعاه الله للقيام بها. عاد بولس إلى دمشق من العربية، وبعد مدة من الزمن ذهب إلى أورشليم، «ثم بعد ثلاث سنين صعدت إلى أورشليم لأتعرف ببطرس» (غل ١:١٧،١٨). هذه العبارة تعني ببساطة أنه بعد غياب ثلاث سنوات عن أورشليم، عاد إليها كان قد ترك المدينة محملاً بثلاث رسائل من رئيس الكهنة ليقبض على المسيحيين في دمشق، والآن، بعد ثلاث سنوات، يعود إليها ثانية. فالمدة المذكورة إذن، يجب أن تحتسب من وقت نقطة التحول الكبرى في حياة بولس - تجديده - ولا يجب أن تعتبر أنها تعادل المدة التي قضاها في العربية.

وعند عودة بولس إلى أورشليم، قضى ١٥ يوماً في صحبة بطرس ويعقوب (غل ١:١٨،١٩)، ثم حاول - دون جدوى - أن يجتذب معلمي اليهود إلى معتقده الجديد، وما حدث في السنوات القليلة التالية ليس واضحاً تماماً. من الواضح أنه تمت الكرازة لسوريا وكيليكيا (غل ١:٢١)، ثم حدثت الكرازة الرائعة لأنطاكية، حيث دعي التلاميذ مسيحيين أولاً، وانطلاقاً من هناك بدأ بولس القيام بمهمته المجيدة كالرسول إلى عالم الأمم (أع ١١:٢٥،٢٦، ١٣:١- ٤)، بعد أن أصبح، كما يصفه الدكتور وايت، الرسول الفائق.

عندما نتذكر الخدمة المدهشة لبولس والذي كان مؤهلاً بتفوق، بالمولد، والتعليم والخبرة السابقة، لأن يتبوأ هذه المكانة المتميزة لتأسيس وامتداد وتنوير الكنيسة، لا يسعنا سوى أن نخصص له المقعد الأول في «جماعة الرسل المجيدة». أما فيما يتعلق بكونه رسولاً، فلم يكن لدي بولس أي شك بشأن ذلك، فقد كان جازماً في دعواه، ولم يسمح أبداً بأي تحد دون إعادة تأكيد ذلك بكل قوة وحماس. تعرض هذا اللقب الرسولي لهجوم عنيف، وقد دافع عنه بنجاح على أساس مزدوج، فعلى الرغم أنه لم يرافق يسوع في أيام تجسده، إلا أنه قد رآه بعد تمجيده (١كو ٩:١) ومع أنه لم يكن في الأصل من الاثني عشر، إلا أن الرب صادق على رسوليته (٢كو ١٢:١٢). يدعو بولس نفسه رسولاً ١٩ مرة، ويدافع عن دعواه بهذا الصدد (١كو ٩:١- ٦، ٢كو ١٢).

كان تذكر بولس لعداوته السابقة للمسيح وتلاميذه يشعره بضآلته، فكان يقر بكل تواضع أنه أصغر الرسل وليس مستحقاً أن يدعى رسولاً، ولكن عندما كان الشك

يلقي بظلال على دعوته ليكون رسولاً كان هناك دائماً، «الرد بنيل المكانة والثقة الوطيدة» حيث كان يؤكد أنه لا يقل مثقال ذرة عن أفضل الرسل. وعلى الرغم أنه اختير بعد كل الباقين، إلا أنه «في الأتعاب أكثر» كان بولس ذلك الشخص الذي ولد في وقت غير ملائم ليمارس مقدرة روحية أعظم من الآخرين من الرسل. كان الرسل الأصليون يتشاجرون «في من يكون الأعظم»... ولكن مثل هذا الشرف كان محجوزاً لبولس «المدعو رسولاً المفرز لإنجيل الله» (رو ١:١، ٥).

٥- رسول الأمم

الشخصيتان المحوريتان في سفر الأعمال هما بطرس، وبولس، في الأصحاحات من ١-١٢ نرى بطرس في مكان الصدارة «كمرسل إلى اليهود» ومن أصحاح ١٣ حتى آخر السفر، نرى بولس بارزاً «كرسول إلى الأمم». إن بولس كعبراني من العبرانيين، كانت له رغبة قوية ليربح أنسباءه حسب الجسد للمسيح، ولكنهم رفضوا شهادته، ولذا حدثت القطيعة عندما قال لبرنابا رفيقه: «هوذا نتوجه إلى الأمم» وخرج ليأتي بجماهير غفيرة من غير اليهود إلى المخلص الذي مات لأجل اليهود والأمم على السواء (أع ١٣:٤٦- ٥٢، ٢:٢١، غل ٢:٨، ٩).

كم كانت الدائرة التي كرز لها بولس واسعة وممتدة، وكم كان بولس مثالاً عظيماً لكل رابحي النفوس في إنكار الذات والتقوى المسيحية! نحن نجد بولس يعمل في سلوقية وقبرص وبمفيلية وبيسيدية وليكأونية (أع ١٣ . ١٤). ثم جاءت الدعوة من مكدونية، وهكذا ذهب إلى أوروبا (أع ١٦). تم توصيل الرسالة إلى تسالونيكي، وبيرية وأثينا، وكورنثوس، وأفسس، وغلاطية، وروما، وكان بولس يعلم أن وثقاً وشدائد تنتظره في كل خطوة يخطوها. ما الذي يسعنا أن نفعله سوى أن نقدر حماس تلك المحبة للمسيح التي كانت تحصره ليخدم سيده بكل هذه التضحية!

لا يمكن إعطاء بولس حقه من الإشادة بتأثير رحلاته العظيمة الثلاث على تاريخ البشرية كان الوقت الذي استغرقته هذه الرحلات ما يقرب من عشر سنوات، والمسافة التي قطعت كانت تبلغ ٨,١٠٠ ميل - وهي ليست مسافة كبيرة في هذه الأيام حيث توجد الطائرات النفاثة، ولكنها كانت هائلة في تلك الأيام حيث لم يكن لديهم طائرات، أو سيارات أو قطارات، أو سفن سريعة تبحر عباب البحر. ظل الرسول يعمل هكذا لما يقرب من ٣٠ سنة، حتى، كما يعتقد عموماً، قطعت رأسه بأمر من نيرون إمبراطور روما، في حوالي ٦٦م. جاب أعظم رسول عالمي كل العالم الروماني القديم وقتئذ وقيل إنه «حتى قبل تجديده كان يرغب بولس لا أن يكون معلماً فقط بل مرسلاً، ليكرس حياته لانتشار البر الحقيقي، وللإطاحة بكل ما يعوق تقدمه، وبكل ما يعوق الناس عن تسليم أنفسهم كأفراد لممارسة شعائر الناموس».

وكنتيجة للمعجزة التي حدثت في تلك الظهيرة في الطريق إلى دمشق، فإن هذه الرغبة ليكون مرسلاً لم تنطفيء جذوتها بل حدث تحول في اتجاهها، وتقدست وازدادت حدة.

وهكذا أرسى بولس لكل العصور مباديء الخدمة الرسولية المثمرة، بحياته وعمله وتعليمه وقدوته. وكما يعبر ج. أزوولد ساندرز عن ذلك فيقول: «لقد اقترب بولس من النمط الإلهي أكثر من أي رسول آخر شهده العالم. فقد استخدمه المسيح كأداة لامتداد ملكوته، فتح المرسلون الآخرون قارة للإنجيل، ولكن بولس فتح عالماً بأسره». كان بولس يعتقد اعتقاداً جازماً أن لديه إنجيلاً لكل العالم، وقد كان هدفه الأسمى ورغبة قلبه أن يجعله معروفاً، سواء لليهود أو للأمم. لقد كان بحق إناء مختاراً للرب (أع ٩:١٥، ٢٢:٢١).

كان بولس، مثل الله الذي كان يخدمه، لا يحابي بالوجوه، كان لكل أنواع البشر نصيبٌ في وقته ومواهبه، وكمدين للجميع، قد وفى بالتزاماته بأمانة (رو١:١٤-١٦).

كان ممتلئاً حماساً لتقديم رسالة الفداء للجميع، وكان فخوراً أن يكرز بها على الدوام. كان يسعى بكل وسيلة لخلاص كل البشر، فقد عاش ومات لهذا الغرض. وكما مات المسيح لأجل بولس، هكذا كان بولس يتألم ويموت كل يوم حتى يأتي بالخطاة إلى الصليب ولكل من لديه رغبة ليخدم المخلص. يشير بولس لمحبته القوية للنفوس ويقول: «كونوا متمثلين بي كما أنا أيضاً بالمسيح» (١كو ١١:١).

عندما تتبع بولس من بلد إلى بلد (رو ١٥:١٩) لاحظ كيف تألم لأجل المسيح في مهامه الرسولية. هاك قائمة للتأمل فيها مع كتابك المقدس المفتوح.

تحمل كل المصاعب، ومواجهة أقصى درجات الخطر (٢كو ١١:٢٣-٢٧). الاعتداء عليه من قبل الجمهور، والعقاب من قبل الولاة (أع ١٦:١٩-٢٤، ٢١:٢٧). الجلد، والضرب، والرجم، ثم تركه لاعتقادهم أنه مات (أع ١٤:١٩-٢٠). كان يتوقع حيثما ذهب، تكرار نفس المعاملة ونفس الأخطار (أع ٢٠:٢٣). ولما كان يطرد من مدينة، كان يكرز في الأخرى (أع ١٣:٥٠،٥١، ١٤:٥-٧، ١٩-٢١). وإذا كان يقضي كل وقته في العمل المرسلي كان يضحي بكل متعة، وراحة وأمن (أع ٢٠:٢٤، رو ١:١٤،١٥، في ١:٢٠، ٣:٨). استمر مثابراً في السعي حتى كبر السن، دون أن يعوقه أي فساد أو عناد (أع ٢٨:١٧)، أو عدم امتنان (غل ١:٦، ٤:١٤-٢٠) أو حقد (٢كو ١٢:١٥) أو هجر (٢تي ٤:١، ١٦). لم يستسلم للقلق، والحاجة، والإجهاد أو الاضطهاد. ولم ينهكه الحبس لمدة طويلة، ولم يرعبه الموت (أع ٢١:١٣، ٢ كو ١٢:١٠، في ٢:١٧، ٤:١٨، ٢تي ٤:١٧).

عند تجديده، حذر بولس من الأشياء الكثيرة التي كان عليه أن يعاني منها لأجل المسيح (أع ٩:١٦). وعندما بدأ يتألم لم يتنهد أو يشكو بل كان يفخر بتجاربه وكان أكثر افتخاراً بالجروح والندوب بسبب المعارك التي يخوضها من افتخار الجندي بأوسمته ونياشينه (غل ٦:١٧). ياله من مرسل مقاتل! فلم ير العالم مثيلاً له.

٦- أسير الرب

هناك جانب معين خاص بآلام بولس لأجل السيد يتعلق بتجارب سجنه. قبل تجديده، كان بولس يحاول أن يقضي على الكنيسة، وكان يسطو على بيوت القديسين، ويأخذ الرجال والنساء ويودعهم في السجن (أع ٨:٣، ٢٦:١٠). ولكنه أخذ يحصد مازرع - ومع ذلك لم يعتقد في نفسه أنه أسير لأي سلطة، بل كان يعتقد دائماً أنه «أسير يسوع المسيح». قرب ختام خدمة المعلم، سأل اثنين من تلاميذه: «أتستطيعان أن تشربا الكأس التي سوف أشربها وأن تصطبغا بالصبغة التي أصطبغ بها أنا؟» (مت ٢٠:٢٢). لم يكن بولس مع التلميذين اللذين سمعا هذا السؤال، ومع ذلك فقد أصبح التجسيد الحقيقي لتلمذة التضحية بالذات والتي يرمز إليها بالكأس والصبغة باللون القاني (لون الدم) ولذا فقد تمثل بالمسيح تماماً واختبر «شركة آلامه» (في ٣:١٠)، حتى أنه منذ لحظة تجديده إلى لحظة موته، بعد ٣٠ سنة، كان يجد الحياة والحرية فقط في كونه «عبداً للمسيح» أو «أسير الرب» الذي سيطر حبه على كل نشاط يقوم به وجعله يصمم على ألا يعيش فيما بعد لنفسه بل فقط لأجل ذاك الذي لأجله «مات وقام» (٢كو ٥:١٤-١٥، غل ٩).

يخبرنا بولس أنه كان «في سجون كثيرة» (٢كو ٦:٤،٥،١١:٢٣-٢٧). وسجوننا الحديثة تعد قصوراً بالنسبة للسجون التي تألم فيها. ومع ذلك فقد تحمل كل

شيء بلا تذمر. كانت تجربته عن السجون تجربة شاملة، حيث كانت تتراوح فيما بين النوع المعتدل من الاحتجاز الذي اختبره في روما (أع ٢٨:٣٠)، وقسوة «السجن الداخلي» في فيلبي (أع ١٦:٢٤)، والأهوال الأخيرة للزنازين في روما. ومع ذلك، فلم يكن الرسول ينظر إلى أهوال سجنه كمصائب، بل كفرص سمح بها الرب لامتداد ملكوته. ولهذا السبب فهو يشير إلى نفسه لا كسجين نيرون في سلاسل، بل كسفير (السماء) في سلاسل (أف ٦:٢٠).

كانت قيوده هي «قيود الإنجيل» (فليمون ١٣). وكلما تحدث عن سجنه، لم يكن يتحدث بلغة الانكسار، بل كانت تجربة يفخر بها.

عندما يتحدث بولس عن القيود، فهو بالطبع يعني «السلاسل» وهي توضح الطريقة الرومانية في تقييد المساجين (أع ١٢:٧). كان طرف السلسلة ذات الطول المريح، تثبت حول الذراع الأيمن للسجين، ويثبت الطرف الآخر حول الذراع الأيسر للجندي، وهكذا كان الجندي مرتبطاً بالسجين، وكان يذهب معه أينما ذهب هكذا كان يحرس بولس.

قدم بولس دفاعه أمام فستوس وأغريباس وبرنيكي وهو مقيد بهذه الطريقة وكان هذا الظرف هو السبب في إلقاء بولس لأكثر الكلمات البليغة تأثيراً وإثارة للعواطف، «كنت أصلي إلى الله أنه بقليل وبكثير ليس أنت فقط بل أيضاً جميع الذين يسمعونني اليوم يصيرون هكذا كما أنا ما خلا هذه القيود» (أع ٢٦:٢٩). وعندما حدثت الزلزلة العظيمة التي هزت أساسات السجن الذي ألقى فيه بولس وسيلا، فإن ما أزعج الحارس واقتاده للتفكير في الانتحار، كان رؤيته لقيود المساجين وهي تنفك، وقد ظن أن الجميع قد هربوا (أع ١٦:٢٦،٢٧).

كم أعطت هذه السلاسل لبولس العديد من الفرص الرائعة فاستطاع برغبته الجارفة في ربح الضالين أن يستغلها استغلالاً تاماً! ونظراً للتغيير الدوري للحراس الذي كان مقيداً بهم، تأمل كم من الجنود استمعوا لشهادته، وكم عدد الذين اقتادهم إلى المخلص. لقد أتاحت له تلك القيود فرصاً دائمة للشهادة وما الذي كان الجنود باستطاعتهم أن يفعلوه سوى أن ينصتوا؟

أليس هناك شيء مؤثر في الطريقة التي يبدأ بها بولس رسالته إلى فليمون؟ إنه لم يستخدم لقب الرسول الدال على السلطان في دفاعه لعودة أنسيمس، العبد الهارب، بل استخدم لفظ السجين. إنه لم يأمر ولكن لأجل المحبة توسل لفليمون أن يقبل عبده غير النافع. وعلى الرغم أن بولس كان يركز عادة على فترات حبسه كأساس لتقديم الشكر والامتنان، فها هو يستخدم سجنه كسبب لاستدرار العطف. ومع أنه لم يكن سوى في الستين من عمره في ذلك الوقت، إلا أنه يكتب «كبولس الشيخ» بمعنى أنه قد أصبح مسناً قبل الأوان بعد حياة من العمل الشاق والألم لأجل المسيح. كان ضعفه راجعاً لكبر السن الناتج عن الألم بسبب القيود (أف ٣:١-١٣، ٤:١، ٦:٢٠، في ١:١٢-٢٠، كو ٤:١٨).

بالإضافة إلى ذلك، ظل بولس شاهداً أو سفيراً، على الرغم أنه كان مقيداً، كما يثبت تجديد أنسيمس. ويتحدث الرسول عنه بالقول «ابني انسيمس الذي ولدته في قيودي» (فليمون ١٠) وهكذا فإن عوائق وصعاب السجن لم تمنع بولس من مواصلة خدمة ربح النفوس الرائعة.

على الرغم من قيود بولس وسوء معاملته، إلا أن نفسه كانت حرة، واستطاع أن يصلي وينشد تسابيح الحمد لله، حتى وإن تعرض للضرب وقد قيدت رجلاه في المقطرة في منتصف الليل (أع ١٦:٢٣). فلا عجب أن اندهش المسجونون الآخرون لمثل هذه اللامبالاة تجاه الألم!

وإذا كان يدرك أن ربه العزيز كان معه وهو في الأسر، فقد اعتبر بولس سجنه مكاناً مقدساً، عالماً أن القسوة التي تحملها كانت بمثابة طلبة ترفع إلى الله لتزكية «أسيره» والدفاع عنه. نحن نلقي النظرة الأخيرة على الرسول وهو في السجن «ينتظر الاستشهاد بسبب إحدى النوبات الجنونية لنيرون». ولكن بولس كانت له مرساة ثابتة ومؤتمنة داخل إيمانه بفاديه ومخلصه.

حيث أنه يبدو أن إشارة بولس لدنو وقت رحيله من هذه الحياة قد كتبت بينما كان مسجوناً في روما، منتظراً الاستشهاد (٢تي ٤:٦-٨)، هناك شيء مؤثر في طلبه من الشاب تيموثاوس أن يسرع إليه بالرداء الذي كان قد تركه في ترواس، ليمنحه الدفء في برودة السجن الرطب وهو ينتظر هناك في صحة ضعيفة وجسد محطم. ثم رجا تيموثاوس أن يحضر له كتبه، وعلى الأرجح فهي عدد قليل من الكتب المفضلة لديه عن التاريخ اليهودي، والشعر، «ولا سيما الرقوق». ومن المحتمل أن هذه كانت أوراقه الثمينة التي تحتوي على ملاحظات دوَّنها على الأسفار المقدسة. وحيث أن هذه الملاحظات كانت نتاج سنوات طويلة من القراءة والدراسة، فقد أراد أن يطلع عليها مرة أخرى طالما كان في العمر بقية. يقول تراب Trapp إن هذه الرقوق المصنوعة من «جلود الحيوانات كانت كراسات من صنعه وتجميعه. يقول إرازمس معلقاً على الطلبات التي طلبها بولس في السجن: «لاحظ أن متعلقات الرسول أشياء منقولة: عباءة رخيصة الثمن لتحميه من برد الشتاء وعدد قليل من الكتب».

مع أن الرسول يواجه الموت، إلا أنه يحب العناية بالجسم والروح. فلم تستطع السجون أن تحول بينه وبين التثقيف الروحي والعقلي. هناك حالة شبيهة لحالة بولس نجدها في طلب الشهيد تندل الذي بينما كان في سجنه في «فيلرود» طلب ملابس ثقيلة وكتابه المقدس العبري، وكتاب قواعد اللغة والقاموس «حتى أقضي وقتي في الدراسة». ولذا، فقد كان تندل مثل بولس تلميذاً حتى النهاية. دؤوباً على الحصول على المعرفة حتى وهو على حافة الموت. وأي واعظ أو طالب يكون غبياً إذا اعتقد أنه قد أحرز تقدماً بما فيه الكفاية لدرجة أنه ليس مضطراً للمثابرة حتى النهاية.

هناك جانب آخر يتعلق بمقدرة بولس على تحويل السجن إلى مكان مقدس من حيث طريقة إرساله ما عرف «برسائل السجن» إلى أهل أفسس، وكولوسي، وفيلبي وإلى تيموثاوس، وتيطس وفليمون. كم تعد الكنيسة مدينة للرسول لأجل هذه الرسائل المذهلة، والمكتوبة تحت ضغط الكثير من المعاناة. ولكنها ساعدت الكنيسة كثيراً في تشكيل المسيحية، ومازالت تشكل حياة القديسين! استطاع جون بنيان أن يدعو سجن بدفورد المختلي الخاص به حيث كان يتأمل ويكتب كتابه الخالد «سياحة المسيحي» وفي سجنه في جزيرة بطمس تلقى الرسول يوحنا «إعلان يسوع المسيح» وقدمه إلى العالم.

٧- أمير الوعاظ

أي واعظ يرغب في إثارة مستمعيه بسلسلة من رسائل بولس، الرسول القوي: وباني الكنيسة، يجب أن يملأ عقله بالـ ١٦ فصلاً التي يقدمها لنا الكسندر وايت في كتابه «شخصيات كتابية» كخلفية لدراسته الخاصة، سوف يجد نفسه يطيل التأمل في الفصول التي تتحدث عن:

بولس كواعظ

بولس كراع

بولس كخادم بلا لوم

هناك عبارات في الفصل الذي كتبه وايت عن: «بولس كواعظ» تجذب انتباه القاريء وتشده.

«يكشف بولس عن كل الأسرار الدفينة في ضمائرنا، وكل الفساد المخفي في قلوبنا، حتى يصبح واعظ الوعاظ لنا...

يقول مارتن لوثر: «هو وحده الخادم المصيب» الذي يستطيع أن يكرز بإيمان ابن الله بطريقة صحيحة. يقول المصلح: «هو وحده» الواعظ المناسب الذي يستطيع أن يتعرف أولاً لنفسه ثم لشعبه، على الإيمان من الناموس، والنعمة من الأعمال كان بولس خادماً مناسباً وكان أول أب والرائد لجميع الخدام...

ليت هذه العبارة تكتب على قبري «تعالوا وانظروا، يا كل العابرين، لأنه يرقد هنا خادم مناسب».

لماذا لا نقرأ كلمة المناسب هذه سوى في الأحوال النادرة على مقابر خدامنا؟ لماذا لا يوجد من الخدام سوى العدد القليل الذي يشبع قلب بولس ولوثر؟»

نرى بولس لأول مرة بعد تجديده الرائع ككارز – «وللوقت جعل يكرز في المجامع بالمسيح أن هذا هو ابن الله» (أع ٩:٢٠). ويعطينا لوقا المشهد الأخير عنه ككارز أيضاً، لأن العدد الأخير من سفر أعمال الرسل يقول: «كارزاً بملكوت الله ومعلماً بأمر الرب يسوع المسيح بكل مجاهرة بلا مانع» (٢٨:٣١). ليس هناك ختام لسفر أعمال الرسل لأنه بحياته وعمله ورسائله فإن بولس مازال يكرز.

وكما نعلم فإن رسائل بولس مشبعة بلفظ «يكرز» ومرادفاته «اكرز بالكلمة» «اكرز بالمسيح وإياه مصلوباً» اكرز بالإنجيل «بشر بالإيمان» هذه هي العبارات الأساسية للرسول لواعظينا اليوم. فالمحبة للمسيح ولنفوس البشر كانت الشغل الشاغل لبولس والهدف الذي كان يوجه كيانه كله (٢كو ٥:١٤). حتى أصبح مبشراً يسيطر عليه المسيح، له رغبة قوية سامية أن يكرز به إلى الأمم (١كو ٩:١٦) هكذا كانت قوة تبشيره حتى إن الذين كانوا يخرجون الأرواح النجسة في أفسس استخدموا هذه التعويذة «نقسم عليك بيسوع الذي يكرز به بولس».

والعناصر التي جعلت كرازة بولس قوية هي التأنيب والتوبيخ والنصيحة بكل طول أناة مع التعليم (٢تي ٤:٢). كان يعلم أنه ليس في بلاغة أبلوس، ولذا فلم يزعم أنه فصيح اللسان: «إليكم أيها الأخوة أتيت ليس بسمو الكلام» (١كو ٢:١). وكان يمقت الكبرياء والثقة الزائدة بالنفس في الكرازة: «وأنا كنت عندكم (كارزا) في ضعف وخوف ورعدة كثيرة» (١كو ٢:٣). ولم تكن كرازته بكلام الحكمة الإنسانية المقنع (١كو ٢:٤)، بل ببرهان الروح والقوة.

وكدارس جيد لعلم الوعظ، عرف بولس كيف ينوع في طريقة كرازته. هناك كلمة تستخدم كثيراً في أقوال بولس العامة وهي الكلمة «يحاج» (أي يقنع بالحجة والمنطق) (أع ١٧:١٢، ١٨:٤، ١٩). لم يكن مفكراً جباناً. كانت لديه اقتناعات واضحة وكان مستعداً بهذه الفطنة العقلية الملحوظة لديه أن يواجه أي جدل. ومع ذلك فكم كان وعظه مقنعاً، مليئاً بالمحبة والغيرة. عرف كيف يحذر سامعيه «بدموع». لم يكن بولس كارزاً يعاني من الجمود والرتابة. وكون بولس كان يراعي ضرورة التنويع في وعظه نراه في كيفية تكييف رسالته لتلائم سامعيه، دون التخلي عن مبادئه بأي حال من الأحوال.

كما يقول ج. أوزوالد ساندرز:

«وكان بولس بالمثل يستطيع التناغم مع الحكام الرومان، والأساتذة اليونان، والموظفين الآسيويين أو اللاهوتيين العبرانيين. كان بإمكانه أن يكيف نفسه مع المحافل اليهودية في المجامع، والأساتذة اليونان في الأكروبول، والجماهير الوثنية في لسترة أو مع رجال البلاط الملكي كما حدث عند ما ظهر أمام فستوس».

لقد قيل إن «الكارز الحقيقي يمكن معرفته بهذه

الوسيلة، إنه يقدم للناس حياته وهي حياة قد أثبتت نجاحاً لأنها اجتازت في نيران الفكر». كان بولس مثالاً لهذا الكارز لأن بولس عاش ليكرز، وعاش بما كان يكرز به. كم كان يمكن للمسيحية أن تنهض نهضة حقيقية في عالمنا المجنون لو أن كل المنابر اعتلاها مجموعة من الوعاظ مثل بولس الواعظ الذي لم يكن يحول نظره أبداً عن الهدف الذي كان أمامه.

٨- كاتب ذو شهرة

من الملامح المميزة للعهد الجديد أنه من بين الـ٢٧ سفراً التي يحتويها، هناك ١٤ سفراً - إذا أضفنا إليها الرسالة إلى العبرانيين - كان مصدرها الذهن اللماح، والقلم المُلَهَم بالروح للقديس بولس، كم تحوي تلك الرسائل التي لا مثيل لها عديداً من الأفكار اللاهوتية والبحوث المتعلقة بالحياة المسيحية. وهي لا تباري في مجال الأدب.

ومنذ أن كتب الرسول بولس هذه الرسائل - وأرسلها إلى الكنائس والأشخاص - كتبت أعداد لا حصر لها من التعليقات وكتب الدراسة والتفاسير عنها. ولو استطاع أحد أن يعد كل الكتب التي نشرت عبر القرون عن الأعمال الأدبية لبولس، لكان الرقم مهولاً.

لاشك أن رسائل بولس مصدر أساسي ذو أهمية قصوى، لأنها كتبت بتلقائية، وشجاعة، وصراحة لا تكشف فقط عن شخصيته بكل ما فيها من عمق وثراء وتنوع ولكنها أيضاً أول مصدر واضح المعالم، وعميق وبسيط في نفس الوقت، للاهوت الحياة المسيحية. يقول ج.أديسمان في مؤلفه الخالد عن بولس «دراسة في التاريخ الاجتماعي والديني» إن «كل رسالة صورة لبولس، وهنا تكمن القيمة الفريدة للرسائل كمصادر لقصة تاريخية عن هذا الكاتب، ونحن لا يتوفر لدينا مثل هذه المصادر المعلوماتية غير المتعمدة تماماً عن تفاصيل الحياة سوى لعدد قليل من مسيحيي الأيام اللاحقة لعصر بولس».

من السمات البالغة الأهمية لهذه الرسائل تأثير بولس كمعلم روحي وأخلاقي، لأنه وفقاً لفكره، فالدين والأخلاق، أو الإيمان والأعمال وجهان لعملة واحدة، ولذلك فهو لم يفصل أبداً القيم الأخلاقية عن مصادرها اللاهوتية. والهدف من المثل الأخلاقية لديه كان دائماً شيء واحد، أن يتصور المسيح فينا (رو ٨:٢٩، غل ٤:١٩).

والنمط الأخلاقي لديه موجود في إرادة الله والذي تحدث عنه «كناموس الله» وناموس المسيح (رو ٧:٢٢، ١كو ٩:٢١). بالنسبة لبولس، تعد «العيشة المسيحية دائماً نتاجاً للتعاليم المسيحية الحقيقية، والثمار الأخلاقية لها أصول لاهوتية».

ما تدين به المسيحية والعالم لرسائل بولس لا يمكن أبدا الإحاطة به، ليس فقط بسبب تصويرها لشخصيته الفريدة، وسردها لأحوال الكنيسة الأولى وتأثيرها عليها، ولكن أيضاً لحقائقها الثابتة والتي مازالت تغير حياة البشر. إن الإيمان المسيحي والممارسة المسيحية المعلنان فيها، قد اسهما في بناء الكنائس وإضافة أعداد لا حصر لها إلى سجل القديسين. فبإرشاد الله، استطاع بولس في كتاباته أن يترجم المسيحية إلى العالم، وما لا يجب أن ننساه عندما نفكر في القيمة التي لا تقدر للرسائل التي أوحى إلى الرسول بكتابتها، حقيقة أن بولس هو الذي بدأ في كتابة العهد الجديد، قبل أن توجد الأناجيل الأربعة، أو أي كتاب آخر فيه بعدة سنوات. كان بولس قد أرسل رسائله إلى أهل تسالونيكي وأهل كورنثوس، وأهل غلاطية، وأهل رومية. كانت هذه الرسائل الست أول رسائله وكونت بدايات العهد الجديد الرائع. لقد كُتبت بيد بولس ليس عندما كان قوياً موفور الصحة، بل عندما كان كسيراً، ضعيفاً، متألماً، ومن المرجح معوقاً بسبب مشكلة في عينيه، وكان طبيبه لوقا يشرف على علاجه.

وكالمفسر لحقيقة المسيح والتعليم المسيحي كما هو موجود في أعماله الأدبية، يقف بولس، كما وقف دائماً، بلا منافس كأعظم مفسر لسر التجسد وحقائق الفداء. إن كلماته في المرتبة التالية لكلمات مخلصنا كانت ومازالت أثمن كنوز القلب المسيحي. يوضح ماكنايت Macknight في مؤلفه «مقالات تمهيدية» أنه: «على الرغم من أن الرسائل الملهمة للرسل الآخرين تستحق أن تُقرأ بكل اهتمام، بقصد تفسير التعاليم المعينة والحقائق التي تحتويها، والأفكار الممتازة عن التقوى والأخلاق التي تزخر بها، إلا أن رسائل بولس يجب أن ينظر إليها كمستودع ضخم محفوظ فيه كل تعاليم الإنجيل، وتستمد منه المعرفة بأقصى قدر من الفائدة».

وحيث أن بولس مدعو من الله للخدمة الرسولية، وقد أعلن أن له السلطان الرسولي، وأيد إعلانه بالمعجزات، وقد منح مواهب فائقة، وأظهر أكبر قدر من النزاهة، وخضع لأشد الآلام، ونال اعترافاً من الرسل الآخرين، لذلك فعندما تحدث وكتب باسم المسيح، فإن كتاباته الرسولية كانت صادرة بالأمر الإلهي، هناك ١٣ رسالة من هذه الرسائل تحمل اسمه، وقد شهد تلاميذ آخرون أن بولس هو الذي كتبها (اتس ١:١و ٢تس ١:١).

كان بولس عادة يستعين بناسخ في كتابته للرسائل، وهذا الناسخ كان يشهد لصحة ما أمره بولس بكتابته، وفي هذه الحالة كان يضيف توقيعه وتحيته (كو ٤:١٨، ١كو ١٦:٢١) كان بولس يرسل رسائله على يد رسل مخصوصين (رو ١٦:١، كو ٤:٧، ٨، أف ٦:٢١، في ٢:٢٥). وقد أطلق عليها كلمة «الكتاب المقدس» لأنها لم تكن تحتوي كلماته، بل الكلمات التي أعطاها له الروح القدس، وما تلقاه من الرب أعطاه للكنيسة.

في رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس يقول بولس: «لئلا أظهر كأني أخيفكم بالرسائل لأنه يقول الرسائل ثقيلة وقوية وأما حضور الجسد فضعيف والكلام حقير» (٢كو ١٠:١٠،٩). ما كان ينقص بولس في القوة الجسدية والبلاغة، كان يستعيضه بلا شك في كتاباته التي لا تباري والمليئة بالحق، والتعليم الروحي الذي لا ينضب. كنا نود أن نفحص الرسائل واحدة واحدة، مبتدئين بالرسالة إلى رومية، ونلخص محتوياتها الرئيسية، ولكن ذلك عمل يتطلب كتاباً في حد ذاته.

على الرغم أن بولس كتب أساساً للكنيسة والمؤمنين في عصره، إلا أنه لابد أنه كان يعرف أن رسائله كانت تحوي قيمة ثابتة، وأنها وسيلة لخلاص أعداد لا حصر لها ومصدر فرح وبركة لملايين القديسين في الأجيال التالية. نحن مدينون لبولس وكتاباته بالكثير وبالنعمة الإلهية التي امتدحها كثيراً، نتمثل به كما تمثل هو بالسيد الذي أحبه كثيراً وخدمه بكل تضحية ونحن نعترف باحتلاله لمركز ثابت في جماعة الرسل، وأن المسيح مجد نعمته وأثبت حكمته الكاملة وبعد نظره الإلهي بجعل بولس إضافة أخيرة ومجيدة لجماعة الرسل المجيدة.

ما أكثر الدروس التي يمكن أن نتعلمها من شهادة وكتابات هذا المقاتل الجسور السعيد الذي جاهد مثل هذا الجهاد الحسن لأجل رئيس خلاصه!

أول سمة تستحق أن نتمثل بها في هذا الرسول روح المحبة التي أظهرها حتى عندما اضطهد بشدة على يد مواطنيه. وحيثما ذهب، فإن سلوكه يشهد لإخلاص مناداته بأنه لا يحمل أي عداوة لليهود بسبب سوء معاملتهم له. كان ضميره يشهد له بالروح القدس أن قلبه كان مثقلاً بالحزن بسبب عداوتهم له، وأنه كان يود أن يكون هو نفسه محروماً من المسيح لأجلهم (رو ٩:١-٣). وفي كل مناسبة يرفضون فيها شهادته، كان ينتهز الفرصة لمقابلة الشر

بالخير، بدخول مجامعهم وكرازتهم (أع ١٣:٤،٥، ١٤:١، ١٩، ١٧:١، ٢،١٠).

في سالف الأيام عندما كان غيوراً ملتهباً دفاعاً عن المذهب الفريسي، كان تصرفه مختلفاً فقد كانت روح المحبة وقتئذ غائبة، فماذا أو من الذي أجرى مثل هذا التغيير في روح هذا الإنسان؟ (أع ٩:١، ٢٦:١١، ١تي ١:١٣).

ونفس روح المحبة تسود رسالتيه إلى أهل تسالونيكي والتي يؤكد فيها على حقيقة مجيء المسيح الثاني كأساس للعزاء في وقت الحزن، كما أنها حافز للقداسة. لاحظ:

فرح الرسول لثباتهم، وترفقه بهم بسبب المحبة (١تس ٢:٧،١٣)

صلاته الحارة لأجلهم (١تس ١:٢، ٣:١٠،١٣)

رغبته القوية في صلاتهم (١تس ٥:٢٥)

وتعبر الرسالة الثانية عن نفس روح المحبة الحارة والصلاة التي تتسم بها الرسالة الأولى، بالإضافة إلى النصائح المختلفة بشأن الطريقة التي ينبغي أن يسلك بها القديسون ويشهدوا للمسيح. وتقدم لنا رسالة بولس الموجزة والثمينة إلى فليمون أيضاً درساً في كيفية التعامل بحكمة مع موضوع في غاية الحساسية. كما يعبر بالي Paly عن ذلك فيقول: «نجد في الرسالة إلى فليمون المعلم المحب العطوف، الجدير بالثقة، وهو يتوسط لدى صديق غائب لأجل متجدد محبوبٍ، وهذا المعلم رجل مسن في السجن، وهو قانع باستخدام لغة الضراعة والتوسل، دون أن يتنازل عن حقه في الاحترام اللائق بشخصه ومنصبه».

تظهر أيضاً هذه المشاعر الدالة على المحبة في رسائله. فعلى سبيل المثال، في الرسالة إلى أهل غلاطية يفند بولس بجدة – ولكن مع إظهار أرق المشاعر– مزاعم التعريض بشخصه من قبل المعلمين الكذبة (غل ٣:١، ٤:١٥،١٦). أما عن الرسالة إلى أهل فيلبي التي كتبها باكياً، فإننا نجد الرقة، والكرامة، والتواضع، والنزاهة واضحة كل الوضوح بالنسبة للرسول (٣:١٢،١٨، ٤:١١،١٨).

والتأثيرات العملية لتعاليم النعمة التي علم بها تصلح كنموذج، ليس للوعاظ فقط، بل للمؤمنين في كل عصر.

فكر في هذه الأمثلة الإيضاحية في شخصية بولس:

إحساسه الجارف بالمسئولية كخادم، ويقظته الشديدة تجاه نفسه (١كو ٢:٣ . ٩:١٦،١٧).

اعتماده الكامل على البركة الإلهية لتحقيق النجاح، ولكن مع المواظبة على استخدام الوسائل المشروعة (١كو ٣:٦–٩، ١٥:١٠).

حكمته، وأمانته، ورقته (١كو ٣:٢، ٤:١٤، ٢كو ٢:٤).

تواضعه، بالرغم من تأكيد سلطانه الرسولي، وعدم الاعتداد بالمواهب التي تفوق فيها، مقارنة بالمحبة المسيحية (١كو ١٣).

سمة أخرى تتسم بها شخصيته وهي حرصه البالغ على عدم مدح نفسه، حتى وهو يعدد أعماله وآلامه، ومعجزاته الرسولية ونجاحاته،؛ كان يفتخر فقط بالرب. وتلقي رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس كثيراً من الضوء على التكريس الرائع والتواضع الذين يتحلى بها هذا الرجل العظيم! هاك القليل من الفضائل التي أظهرها:

محبته العميقة لأهل كورنثوس الجسديين، كأولاده الروحيين في المسيح (١كو ٤:١٤،١٥، ٢كو ١٢:١٥).

فرحه لرجوعهم للتوبة، ومع ذلك ينتابه القلق خشية أن تتم هذه التوبة بين أولئك الذين مازالوا متعلقين بالمعلم الكاذب، والرقة في أسلوب مخاطبتهم حين يحثهم على تقديم العطاء بسخاء أكبر (٢كو ٧ . ٩).

يقرن دائماً أعماله المدهشة بالإحساس العميق بعدم كفاءته والذي يعبر عنه في كل مكان، وبأنه لا يستطيع أن يفكر أو يعلم شيئاً من تلقاء نفسه (٢كو ٣:٥).

تواضعه عند ذكر شوكته في الجسد، وأنه سمح بمرور ١٤ سنة قبل أن يذكر اختباره الفائق (٢كو ١٢).

شجاعته التي لا يعتريها خوف. فبالنعمة تعلم كيف يرتفع إلى فوق وينتصر على تجاربه (١كو ٢:٣، ٢كو ٧:٥).

هل نحن على استعداد لأن نتبع مثال بولس، وأن نجعل حياتنا مصداقاً للإيمان الذي نجاهر به؟ «أسعى نحو الغرض لأجل جعالة دعوة الله العليا في المسيح يسوع». وهو يريدنا أن نفتكر ذلك عينه (في ٣:١٤-١٦). فهل نحن على استعداد لذلك؟ ألا يحضنا كي نتمثل به كما أنه أيضاً بالمسيح (١كو ١١:١)؟ ومع أننا لن نصل إلى الدرجة الرفيعة التي وصل إليها هذا الرسول الفائق، إلا أننا نستطيع بنعمة الله، أن نخدم الله بأمانة كما فعل بولس.

تيموثاوس
البديل الجاهز

لو كان لبولس رفيق مفضل من بين كل كوكبة القديسين الذين يذكرهم بالاسم في كتاباته، فلا شك أنه كان تيموثاوس، الذي كتب إليه رسالتين من رسائله التي لا تضاهي. يذكر بولس تيموثاوس في ١٦ فقرة، وهو يصر في ست منها على وحدة الفكر والهدف بينهما، وفي ست أخرى، يشير إلى اشتراك تيموثاوس معه في كتابة الرسالة، وفي الفقرات الأربع الأخرى يدعو رفيقه الشاب ابنه أو خليفته. هذه المكانة الفريدة التي يحتلها تيموثاوس في قلب بولس تثبت أنه كان أعز صديق وأوفى رفيق له ونستنتج من الاهتمام الذي أظهره بولس من نحو تهذيب تيموثاوس أنه يبدو كما لو كان بديله الجاهز، المختار والمدرب ليلعب دوراً عندما يكون رئيسه لأي سبب من الأسباب غير قادر على القيام به. أتيحت الفرصة لهذا البديل الجاهز الذي يبلغ من العمر عشرين عاماً في بعض الأوقات بأن يلعب دوراً متميزاً على المستوى الفردي. قال ملك انجليزي عن ابنه الواقع تحت ضغط هجوم مكثف في معركة حربية شرسة «دع الصبي يحرز أول انتصاراته». أرسل بولس تيموثاوس من أثينا إلى المعمعة في تسالونيكي، ليكمل تأسيس الكنيسة هناك، والذي لم يستطع بولس أن يحققه بسبب طرده المفاجيء من المدينة (١تس ٢:٣). وفي الوقت المناسب، انضم تيموثاوس إلى بولس في كورنثوس وكتب عن إيمان وآلام القديسين، وحمل معه هدية مالية مقبولة للوفاء بالاحتياجات الملحة (أع ١٨:١،٥، ٢كو ١١:٩). ولذا فإن تيموثاوس هو بديل بولس الجاهز «لأنه يعمل عمل الرب كما أنا أيضاً» (١كو ١٦:١٠).

يقول الدكتور هورث «لم يكن مقرراً أن يكون تيموثاوس كارزاً فقط، بل الرفيق الخاص لبولس في عمله الكرازي الفريد». وبضم كل الشواهد التي ذكرها بولس عن تيموثاوس معاً يظهر كما لو كان الرسول يحلم بأن يكون تيموثاوس أسطورة من الأساطير، ومع ذلك فلابد أن بولس كان يتميز بقوة الشخصية التي جعلته يبذل مجهوداً كبيراً لتهذيب تيموثاوس، إلا أن شخصية تيموثاوس كانت محيرة. إن سجل تحركاته ليس لافتاً للأنظار «من الممكن

تلخيص الـ ٢٠ سنة في قصة العهد الجديد عن تيموثاوس على اعتبارها سلسلة من الرحلات والمهام، دون وجود ما يدل على شيء لافت للنظر في أي منها».

ما لا يمكن لأي شخص أن ينكره، تصوير الصداقة الجميلة بين بولس وتيموثاوس، أي بين رجل مسن ورجل أصغر منه كشيء مفيد لكلا الطرفين، والتي يمكن بموجبها أن الواحد يكمل الآخر. فالوفرة عند طرف يمكن أن تشبع احتياجات الطرف الآخر، بينما الرجال ذوو الأعمار المتساوية تكون لهم احتياجات مشتركة واشباعاتهم مشتركة أيضاً. ألا يتضح ذلك من الصداقة بين هذين الاثنين؟ كان لدى بولس الدافع والحماس – وكان لدى تيموثاوس التأمل والتحفظ. استجاب تيموثاوس لذلك الميل القوي للتعاطف الذي نشعر به في كتابات بولس، ولابد أنه دعا نفسه «التلميذ الذي أحبه بولس». كانت محبة بولس بالطبع هي التي أدت فيما بعد إلى تقدم تيموثاوس، وليس نجاح البديل الشاب هو الذي اشعل محبة بولس!.

يقول الدكتور أ. جرني Gurney في كتابه الثمين عن «الرسالة الأولى إلى تيموثاوس» في تعليقه على حقيقة أن حياة تيموثاوس كانت مكملة لحياة بولس:

«تجمع بينهما أعمق روابط الوحدة في تنوع. إنها لا تجمع بين مثلين بل بين نقيضين. فقد أراد الله لتيموثاوس أن يقف جنباً إلى جنب مع بولس. كم كان يبدو تيموثاوس ضعيفاً في بعض الأحيان في مواجهة القوة الجبارة «لبولس المسن». ومع ذلك كان تيموثاوس حقاً مصدر قوة لبولس، وكم كان تيموثاوس ضرورياً ومشجعاً لبولس. أحدهما كان «الأب الروحي» والآخر «الابن المحبوب».

كانت الاختلافات بين الاثنين ملحوظة، كما يمضي الدكتور جرني في الإدلاء بها بالطرق الآتية:

أحدهما، وُلد ليكون قائداً، الرائد المختار لعقيدة جديدة وغير مختبرة، يشتعل حماسة وغيرة لأجل المسيح، كما كان ذات مرة ينفث تهدداً وقتلاً ضد الرب.

والآخر، يرغب أن يشغل المقعد الثاني بطبعه، وهو ليس واثقاً تماماً من نفسه وهو يعتمد على الآخرين بالسليقة، شريك في العمل، وليس رئيساً.

أحدهما، قوي، لديه قدرة على الإقناع، أعظم من منتصر بإيمانه القوي، وهو واثق، على الرغم من ترك الناس له، بأن الله معينه، وهو مقتنع أنه «لا يقل ذرة واحدة عن أعظم الرسل» من حيث السلطان الإلهي. أما الآخر فهو شديد التواضع في استعماله للسلطة الروحية، لدرجة أنه يتراجع عن تأكيد الذات، قانعاً بواجبات مركزه، حتى يصبح في خطر أن يواجه بالاحتقار (١كو ١٦: ١٠،١١)، وهو بحاجة لشيء من الصلابة وعدم الإذعان بسهولة».

يبرز تيموثاوس «كرجل محب للسلام ذي قلب متواضع» وهو مثل سيلا، خير من يمثل الرجل الثاني، والصديق الحميم الدائم، الرجل الذي يصلح كمرآة لك، أقرب إلى الراعي والأسقف منه إلى الرسول. وعلى الرغم من عدم تساوي بولس وتيموثاوس في المواهب والسمات الشخصية إلا أنهما كانا مرتبطين معاً بإيمان مشترك وتكريس مشترك للمسيح. يبدو أن بولس وتيموثاوس كانا كالوترين في قيثارة تقدم نشيد الحمد لله مخلصهما، وكانا يشتركان سوياً في إظهار محبة دائمة للسيد، وقد جاهدا ليجعلاه معروفاً في كل مكان نودى فيه بالإنجيل، كان قلباهما واحداً في إتمام قصد الله من الفداء.

وإذ يرسم بولس صورة كاملة لابنه الشاب في الإيمان، فدعنا نحاول الآن أن نعدد الحقائق والملامح التي لدينا عن تيموثاوس في كتابات الرسول.

١– كان رسولاً

نشعر أنه من الضروري أن نبدأ من هنا، لأن هناك

شكوكاً فيما إذا كان تيموثاوس رسولاً أم لا. هل كان رسولاً من الدائرة الأوسع، أم كانت خدمته قاصرة على أن يكون رسولاً نائباً عن بولس؟ وإذا كانت الرسولية منحت لأناس يتسمون بالصفات الرسولية مثل أندرونكوس ويونياس (رو ١٦:٧) فلماذا يبدو بولس وكأنه حجب الرسولية عن تيموثاوس في الشواهد التي أشار فيها إليه؟ (٢كو ١:١، كو ١:١) وما يقال عن إدراج اسم سيلا في قائمة الرسل ينطبق على تيموثاوس لأنه في رسالته الأولى إلى أهل تسالونيكي، يرد سيلا أو سلوانس وتيموثاوس مرتبطين معاً، وعندما يتحدث بولس عن «رسل المسيح» فهو يشير إلى نفسه إلى رفيقيه في السفر (١تس ١:١، ٦:٢). «بولس وسلوانس وتيموثاوس... رسل المسيح» ومع أن تيموثاوس رسول صغير بجانب بولس الرسول الكبير، إلا أنه بالرغم من ذلك مارس الخدمة الرسولية.

٢- كان لديه تراث من التقوى

شهد بولس إلى نشأة تيموثاوس المسيحية عندما قال عنه «وأنك منذ الطفولية تعرف الكتب المقدسة» (٢تي ١٥:٣). ويفهم من التحية الرسولية التي يستهل بها بولس رسالته الثانية إلى مساعده الشاب أن الرسول كان يفكر في عبير البيت الذي نشأ فيه تيموثاوس «إذ أتذكر الإيمان العديم الرياء الذي فيك الذي سكن أولاً في جدتك لوئيس وأمك أفنيكي ولكني موقن أنه فيك أيضاً » (٢تي ٥:١). إذن فالسيدتان اللتان كان لهما تأثير كبير عليه منذ طفوليته، هما جدته وأمه. نحن لا نعرف شيئاً عن والد تيموثاوس الذي لم يرد اسمه سوى أنه يوناني، أو أممي (أع ١:١٦) من الواضح أنه غير مسيحي. لأن اسمه لم يذكر مع اللتين اشتركتا في تلقينه المباديء المسيحية. وبما أن تيموثاوس، كطفل، كان ملماً بالعهد القديم، إذن فوالده لم يكن لديه اعتراض على تعلم ابنه لأسفار الكتاب المقدس العبرية القديمة، ولكنه اعترض على الختان، والذي كانت أمه كيهودية، تؤمن به. لذلك فاليهود في لسترة، موطن تيموثاوس، لم يعجبهم هذا الابن غير المختون من أم يهودية.

وعندما عمل تيموثاوس مع بولس في حقله المرسلي الواسع، اكتشف أنه بينما كان الأمميون يستمعون إليه، كان اليهود يتحولون عنه لكونه غير مختون. ومن المرجح أنه في ذلك الوقت، كان أبوه قد مات، فاتبع نصيحة بولس، أبيه الروحي، وخضع لطقس الختان المؤلم لأجل الصالح العام. لقد تجاوب بولس طواعية لأجل منفعة تيموثاوس، لأنه فيما بعد سوف يصبح مقبولاً لدى كل من اليهود والأمم. نحن لا نعرف ما الذي كان تيموثاوس مديناً به لوالده، ولكن حيث أن أمه وجدته اشتركتا معاً في تنشئته تنشئة مقدسة، فدعنا نلقي نظرة سريعة إليهما.

لوئيس: اسم يوناني شائع إلى حد ما، كانت الجدة التي أثر إيمانها وتقواها تأثيراً كبيراً على بولس كلما زار منزل تيموثاوس. قال هندي مشهور كان يشعر بالحاجة الماسة لتأثير الأبوين: «إن الهند بحاجة ماسة إلى جدة جديدة». لم يعان تيموثاوس أبداً من ذلك. هناك مثل ألماني يقول: «إن تقويم الجدة لا يحدث أي أثر». ولكننا واثقون من أن تقويم جدة تيموثاوس التقية أحدث تأثيراً كبيراً على شخصيته. فإذ كانت يهودية متحمسة مؤمنة، فقد علمت عائلتها الكتب المقدسة، ولابد أنها كانت مصدراً للقوة الروحية في البيت. وبالمناسبة فهذه هي المرة الوحيدة التي يظهر فيها اللفظ «جدة» في الكتاب المقدس، أما اللفظ «جد» فهو لايظهر أبداً.

أفنيكي: ابنتها، وصفها بولس بأنها «امرأة يهودية مؤمنة» أي، آمنت بالمسيح وقبلته كمخلص لها (أع ١:١٦). ويفهم من ذلك أن زوجها لم يشاركها إيمانها، فقد كان غير

مؤمن. ويبدو أيضاً أنها لم تكن مؤمنة منذ البداية، مما يفسر سبب زواجها من زوج أممي. ومع أنها كانت يهودية في الوقت الذي التقت فيه بزوجها، وربما لم تكن يهودية محافظة متمسكة بإيمانها، فارتكبت خطأ الزواج من شخص وثني. ولكنها عندما آمنت، بدأت تصلح الخطأ الذي ارتكبته ضد قانون الزواج اليهودي بأن أحاطت ابنها من هذا الزواج بتأثيرات مقدسة. يعتقد بعض الشراح أنه من الجائز أن أفنيكي آمنت بالمسيح أثناء رحلة بولس التبشيرية الأولى إلى لسترة، لأنه عندما جاء إلى المدينة مرة ثانية، قال عنها «امرأة يهودية مؤمنة» (آمنت). لا أحد يعرف بكم يدين العالم للأمهات التقيات! كم هو سعيد الطفل الذي له أم تقية ترغب كثيراً أن تربي نسلها في خوف الرب وإنذاره!.

من الأدلة على إيمان وتقوى أفنيكي الاسم الذي أعطته لابنها «تيموثاوس» الذي يعني «أكرم الله»، وقد كان اسماً على مسمى فأكرم الله في حياته «١صم ٢:٣٠).

فمنذ الطفولية كما تقول الرسالة الثانية إلى تيموثاوس ١٥:٣، كان تيموثاوس يعرف الكتب المقدسة، وكان تهذبيه بهذه الكتب من قبل أفنيكي أمه، والتعليقات الذكية لجدته لوئيس، هي التي قدمت لتيموثاوس أساساً جعله «متأهباً لكل عمل صالح» (٢تي ١٧:٣).

كم أعطى هذا الإيمان العديم الرياء للأم الشيء الكثير لتيموثاوس، وداڤيد لڤنجستون، وماري سليسور، ول د.ل مودي وللكنيسة! وكم مرة يعيد الله ملء مخازن كنيسته الفارغة بأناس من أبعد الأماكن، ومن أحقر البيوت، ومن أكثر الآباء تواضعاً.

إن مسئوليات أولئك الذين عرفوا الكتب المقدسة منذ نعومة أظفارهم أعظم من المحرومين من هذا الامتياز. وإنها لبركة كبرى أن تعرف الكلمة في الطفولة من والدين تقيين. إن الحقائق الإلهية المغروسة في عقول الصغار نادراً ماتنسى. وأن تعرف المسيح وحقه في وقت متأخر من حياتك دون أي معرفة مسبقة عنه، أو بدون تأثير التنشئة المسيحية، يعني أن تبدأ السباق المسيحي وأنت معوق إلى حد ما. ولكن بالنعمة الإلهية يمكن للمعوق أن يكسب السباق.

٣- تجدد على يد بولس

بالرغم من معرفته بالكتب المقدسة والتنشئة المسيحية، لم يكن تيموثاوس نفسه مسيحياً ملتزماً حتى خضع للتأثير الروحي للرسول بولس. وكون تيموثاوس واحداً من الذين تجددوا على يد بولس ثابت من الطريقة التي يتحدث بها عنه كابنه الحبيب والأمين في الرب (١كو ٧:٤)، وكالابن الصريح في الإيمان (١تي ٢:١)، وكتيموثاوس «الابن الحبيب» (٢تي ٢:١). كان تيموثاوس يحمل ودا خالصاً لأمه التي كان تأثيرها عليه موجهاً نحو السماء، ولكن أتى اليوم الذي فيه، وفقاً لعبارة بولس، «رسم يسوع المسيح مصلوباً» أمام عيني تيموثاوس، واكتمل عمل النعمة في نفسه (غل ١:٣).

من خلال خدمة بولس، دبت الحياة في معرفة تيموثاوس القديمة بالكتب المقدسة وقادته إلى جدة الحياة، وأصبح مخلصاً بالنعمة، عندما أتى كثيرون ليروا حياته المتغيرة.

من المرجح أن تيموثاوس قد تجدد أثناء زيارة بولس الأولى إلى أيقونية ولسترة، حيث أنه يشير إلى الاضطهادات التي تعرض لها هناك، والتي من حيث أن تيموثاوس كان من لسترة، فإنه كان على علم بها (٢تي ١٠:٣، ١١). وفي زيارة بولس الثانية إلى لسترة ودربة، كان تيموثاوس بالفعل واحداً من المؤمنين هناك (أع ١:١٦). في تعليقه المفيد على سفر الأعمال، يضع الدكتور

ج. كامبل مورجان هذا الوصف المعبر عن تجديد تيموثاوس:

أخيراً جاء بولس إلى لسترة، مكان الأحجار، والندوب كانت لا تزال في جسده، وكانت ذكريات اليوم الذي ضربوه فيه بشدة مازالت ماثلة أمام عينيه. وفي لسترة وجد تيموثاوس. يحدث كثيراً أن يعود خدام الله، بعد سنوات من الغياب إلى مكان معركة شرسة وعصيبة إلى مكان الدم والعذاب ليجدوا الثمر. متى أصبح تيموثاوس تلميذاً! لا يمكن الإجابة على هذا السؤال إجابة قاطعة، ولكن الاحتمال الأرجح أنه أصبح تلميذاً في تلك الأيام من زيارة بولس السابقة كان بولس ذات مرة شاباً، وراقب رجم قديس يدعى استفانوس. وكان يحرس ملابس الذين رجموه. كان قد سمع صلاة الشهيد المائت وكانت رؤية وجه استفانوس بمثابة المناخس في قلبه وحياته. وفي لسترة اجتاز في اختبار استفانوس. وبالمصادفة رأى إنسان آخر الأحجار وهي تلقى. والآن عاد بولس ليجد تيموثاوس في مكان الأحجار، ومنذ تلك اللحظة فصاعداً بدأت تلك الصداقة الجميلة النادرة، صداقة رجل مسن لشاب»

لقد قيل إنه عندما استعاد بولس وعيه بعد أن حاصره الرعاع ورجموه، فإنه أخذ إلى بيت تيموثاوس حيث وجد المأوى. فإذا كان ذلك صحيحاً، عندئذ يمكننا أن نتخيل كيف تأثر تيموثاوس الصغير بحقيقة المسيح عندما رأى كيف أن خادمه بولس كان على استعداد لتحمل كل هذه الآلام لأجله. في ذلك الوقت كان تيموثاوس صبياً متحمساً يبلغ من العمر ١٥ سنة، ولابد أنه استمع إلى بولس وبرنابا وهما يكرزان بالمسيح بما كان يتفق تماماً مع دروس الكتاب المقدس التي علمته إياها أمه التقية.

فإذا كان بولس المتروك بين حي وميت والذي ألقى به خارج الأبواب، قد أخذ إلى بيت تيموثاوس، فلنا أن نتخيل كيف كانت أمه وجدته تقدمان الرعاية الحانية لهذا الرسول المصاب، وكيف اكتسب هذا الفتى الصغير، والذي ربما كان بلا أب وقتئذ، حباً بنوياً لبولس، وإجلالاً واحتراماً لإله بولس. لقد تاق قلب بولس، الذي كان لايزال متألماً لغياب يوحنا مرقس، إلى رفقة الشاب، ووجد العزاء في تيموثاوس الصغير الذي أصبح ابنه في الإيمان.

وفيما بعد، حمل بولس ذكرى تيموثاوس معه في غيابه، وقد استدعى ذكريات سنوات طوال وكيف كان يوم إصابته الخطيرة هو الوقت الذي التقيا فيه سوياً (٢تي ٣:١٠ . ١١). كانت أحجار أهل لسترة بمثابة المكوك الذي نسج قلبين معاً ليجعلهما واحداً». وقد علم بولس بالطبع، في زيارته الثانية، بعد ٥ سنوات من زيارته السابقة، أن تيموثاوس كان تلميذاً ذا سمعة حسنة، وقد زكاه الأخوة في لسترة وأيقونية، وتبناه كرسول مساعد له بدلاً من الشاب يوحنا مرقس. ويسجل لوقا الحدث بأسلوبه المميز «وإذا تلميذ كان هناك اسمه تيموثاوس» (أع ١٦:١). كما سبق أن نوهنا من قبل فإن بولس ختن تيموثاوس مراعاة لليهود حتى لا يكون هناك تحيز ضده على أساس انتمائه اليوناني، وبخضوع تيموثاوس لهذا الطقس، تمكن من دخول المجتمع.

٤- أصبح خادم الإنجيل

كان من الطبيعي أن يتبني بولس تيموثاوس ليكون شريكه في الخدمة وأباه الروحي نظراً لإلمامه الفريد بالكتب المقدسة. ويبرز دخول تيموثاوس معترك الخدمة بسبب الملامح الهامة التي تتميز بها. استدعى تيموثاوس كشاب في العشرين من عمره من قبل الشيوخ، ووجهت إليه الأسئلة، فقدم تيموثاوس بشجاعة ووضوح «مجاهرة رائعة بالإيمان أمام شهود كثيرين» . عقد اجتماع صلاة وتكريس، قام فيه بولس والشيوخ الحاضرون بوضع الأيدي

على رأس تيموثاوس، فملأه الروح القدس بالقوة للقيام بالمهام المنوطة به. يشير بولس إلى قبول هبة الله وختم الروح القدس (٢تي ١:٦، ٧)، ووضع الأيدي (١تي ٤:١٤، ٢ تي ١:٦).

ونظرا لتكليف تيموثاوس بهذه المهمة المقدسة ووضع الثقة فيه لادائها، ما كان يمكنه التخلي عنها فيما بعد، مالم يثبت أنه شخص غير أمين. حمل تيموثاوس المهمة، وقبل القيام بها مدى الحياة دون تحفظ وقد ثبت أنها مهمة شاقة وخطيرة. ولما كان تيموثاوس معيناً لخدمة الرب، فقد أصبح الصديق الحميم للرسول القوي وعن طواعية ترك أماً وجدة محبتين له، وبيتاً جميلاً، للاشتراك في أعمال الرسول وآلامه. وفي الحال، بدأ حياة الشركة الإنسانية الصادقة. لأنه منذ لحظة رسامته، «كولد مع أب» خدم تيموثاوس بولس لأجل الإنجيل (في ٢:٢٢)، وأصبحا واحداً في رحلاتهما، وأخطارهما، وآلامهما لأجل المسيح. وفي أوقات الانفصال الجسدي، كان بولس يتوق لحضور ابنه في الإيمان.

تظهر السجلات أن تيموثاوس، كالصديق، كان يدخل السرور مراراً وتكراراً على قلب بولس في أوقات الحزن، والوحدة والصراع. كان أقرب الكل لبولس القوي، رقيق القلب، والذي لا يمكن الاستغناء عنه كرفيق السفر (أع ١٧:١٤-١٥، ١٨:٥، ١٩:٢٢، ٢٠:٤ إلخ).

وإذا لم يكن لبولس ابن من صلبه، ولأنه كان يمتلك بين ضلوعه قلباً من أحن القلوب الأبوية، فلابد أنه كان يرقب النمو الروحي لابنه في الرب بامتنان، وربما واتته فكرة تبنيه كوريث له. ويبدو أن بولس قام بدور الأب عند إدخال تيموثاوس إلى المجتمع اليهودي (أع ١٦:٣). وطوال السنوات التي كانا فيها سوياً، كان تيموثاوس الرفيق الدائم لبولس في عمل الإنجيل.

وبالقراءة بين سطور نصائح بولس المتنوعة للخادم الشاب، يبدو كما لو كان بولس يحلم بأن يوجد في هذا الشاب المتفتح الثمار التي أوجدها المسيح في حياته الروحية، وهكذا، فقد حاول أن يدربه، ليس فقط ليجاريه في التعليم والسلوك، والهدف، والإيمان، وأن يتعلم أن يقدم للآخرين كل طرق بولس في الحياة المسيحية والعمل، ولكن لكي يصبح أيضاً كبديل جاهز لبولس في تعزيز ودعم رسالة المسيح (١كو ٤:١٧، ٢تي ٣:١٠). ولذا كان كل اهتمامه منصباً على قيمة الأشياء المتعلقة بالتراث الإيماني التي كانت سوف تؤول إلى تيموثاوس عندما يصمت صوته الرسولي القوي إلى الأبد.

لابد أنه كان لبولس بنيان قوي حتى يتحمل كل ما تحمله، ليس فقط في رحلاته التبشيرية، ولكن لمواجهة الضربات المستمرة، والرجم والسجن. كم كانت هناك العديد من الشوكات في الجسد من نصيبه، ولكن صديقه الشاب لم يحصل على امتياز تحمل نفس الآلام التي اجتاز فيها الرسول العظيم. كان يبدو أنه معتل الصحة بسبب مشكلة مزمنة في معدته، ومن هنا كانت إشارة بولس لصحة تيموثاوس ووصفته العلاجية لضعفه الجسدي «لا تكن في مابعد شرَّاب ماء بل استعمل خمراً قليلاً من أجل معدتك واسقامك الكثيرة» (١تي ٥:٢٣).

هناك حقيقة مثيرة علينا أن نلاحظها وهي أنه مع أن بولس كان لديه القدرة على شفاء المرضى، إلا أنه لم يلجأ أبداً لشفاء نفسه من مشاكله الصحية بأي وسيلة معجزية، ولم يلمس جسد تيموثاوس ليشفيه من مرض سوء الهضم، بل وصف له دواء كوسيلة لشفائه.

وبالرغم من عدم قوته الجسدية كان تيموثاوس ابناً حقيقياً لأب لا يقهر في الإنجيل، والذي لم يكن لديه شخص آخر له نفس الرأي والفكر غيره.. ألا يعد شيئاً فريداً أن

يضيف بولس كلمة «رحمة» إلى كلمتي «نعمة وسلام» المألوفتين عند دعوة تيموثاوس إلى الخدمة؟

قال كريسوستوم: «المعلمون في حاجة أكثر من غيرهم إلى الرحمة» ولأن تيموثاوس قد دعي لمنصب يتطلب إمكانية روحية رفيعة المستوى مع المسئولية فقد كان لهذا السبب أكثر عرضة لعدم الوفاء بمتطلباته. ومن هنا كان في حاجة إلى الرحمة.

٥- كان كارزاً

بناء على تعليمات بولس الواضحة سوف يثبت تيموثاوس نجاحه في الخدمة بقيامه بعمل المبشر (٢تي ٤:٥). وباكتسابه أرضاً جديدة كرائد للإنجيل فإنه بذلك يتبع مثال الأب الروحي (أع ١٧:١٤). وباستمتاعه بأكبر قدر من ثقة الرسول ومحبته. كان لرابح النفوس الشاب امتياز الحصول على توجيهات بولس الدائمة للقيام بهذا العمل الكلي الأهمية (٢تي ٢:٢، ٣:١٤). ليس هناك دليل على أن تيموثاوس كان يتمتع بمهارة فائقة أو بلاغة لافتة للأنظار. فعلى خلاف بولس، ربما لم يكن مؤهلاً لمركز الخليفة الأول في الكنيسة كما توحي بذلك النصائح المتكررة والملحة لكي يكون شجاعاً ويقظاً.

يبدو تيموثاوس بطابع يغلب عليه الهدوء وعدم القدرة على اتخاذ القرارات الحاسمة. ومع ذلك فقد كانت له سمات التقوى والمحبة الصادقة وطيلة ١٦ عاماً كاملة. كان يتمتع بمحبة الرسول العظيم، وكان موضع ثقته، وكان يشارك في العمل التبشيري، وقد ساعد على التخفيف من أحزانه وأوجاعه. يقول عنه الأسقف هاندلي مول:

«كان وجهه الدال على التفكير وعمق المشاعر والتقوى جاداً بأكثر منه قوياً، ولكنه كان يتميز بقوة الصبر، والإخلاص التام، والشعور بالارتياح في المسيح. ويكافيء تيموثاوس محبة بولس له بإخلاص ثابت غير متغير. وقد كان أميناً حتى النهاية، لربه ولفاديه مهما اجتاز في الدموع والآلام الناتجة عن رقة المشاعر».

بالإضافة إلى عمله الكرازي، كلف تيموثاوس أيضاً بالقيام بدور السفير المكلف بمسئولية صعبة وحساسة لتقويم كنيسة مرتدة (١كو ٤:١٧). وللقيام بمثل هذا العمل، كان لابد من توافر الموهبة والنعمة في آن واحد. وكون تيموثاوس قادراً أيضاً على تهدئه القديسين، والعمل على إنقاذ الخطاة، يتضح في المهمة التي كُلِّف بها لتعزية وتثبيت المؤمنين في وسط الضيقة (١تس ٣:٢). كان لهذا التكليف جانب سلبي وجانب إيجابي، أي، استنكار الخطأ وإعلان الحقيقة الواضحة. إن خجل تيموثاوس الفطري جعل من عمل الكرازة مهمة أكثر صعوبة، ولكن لأن بولس كان يدرك قلة حيلته، فقد حضه على الاعتماد بالكامل على المدد الإلهي أي على «قوة الاستماع إلى الصوت الإلهي والتقاط الوحي الإلهي».

٦- كان نموذجاً للكنيسة

حيث أن تيموثاوس كان يجمع بين الأصل اليهودي والأممي، فقد كان حلقة وصل جيدة فيما بين الاثنين. بما أن أبيه كان أممياً وأمه كانت يهودية، فقد كان دم كليهما يجري في عروقه. ذكر الدكتور كامبل مورجان هذه الملاحظة: «إن المثل العليا للعبرانيين والهلينيين اتحدت معاً وتحققت في تعاليم المسيح. فها هو رجل تجري في دمائه كلا الحضارتين، وتندمج في ملكته الذهنية كلا الفكرتين والرجل بالطبيعة عبراني ويوناني في آن واحد: وبالنعمة مشهود له من الإخوة».

جاء بولس، الرسول إلى الأمم، معلناً أن الكنيسة تضم المتجددين من اليهود والأمم على السواء، وها هو يتمثل في رفيقه المخلص مثل هذا التلاحم في كيان احد. والحقيقة العظمى لليهود والأمم كجسد واحد في المسيح قد تعامل

معها بولس في الرسالة إلى أفسس بالتفصيل (انظر أصحاح ٢).

إن تكوين الكنيسة هو ما دعاه بولس «إعلان السر الذي كان مكتوماً في الأزمة الأزلية» (رو ١٦:٢٥)- وهو سر، فهمه بولس وبشر به، أكثر من أي رسول آخر (أف ٣:١١-١٢). لم يكن سراً بالنسبة لأنبياء العهد القديم أن يخلص اليهود أو الأمم. فالسر المكتوم منذ القدم، والمعلن بمجيء المسيح، والذي أعلنه بولس بوضوح، يتمثل في تلك الجماعة الجديدة - الكنيسة - التي يتحد فيها اليهود والأمم المتجددون في نسيج سري واحد «ككنيسة الله الحي».

٧- كان المتلقي لرسالتين

من بين الـ ١٤ رسالة التي كتبها بولس، هناك رسالتان موجهتان إلى تيموثاوس، ابنه في النعمة. وهاتان الرسالتان جنباً إلى جنب مع الرسالة الموجهة إلى تيطس تعرفان باسم الرسائل الرعوية لأنها تتكون أساساً من تحذيرات عملية ونصائح تتعلق بحياة وعمل أولئك المسئولين عن تهذيب وامتداد الكنيسة. نحن لا ننوي أن نلخص ونفسر ما علمه بولس في رسالتيه إلى تيموثاوس، بل أن نركز ببساطة على بعض إشاراته الشخصية لرفيقه. إن تيموثاوس الذي كتب إليه بولس قائلاً «لا يستهن أحد بحداثتك» أدرك أنه كان بحاجة لكل التقويم الروحي، والقوة الروحية اللتين يمكنه الحصول عليهما. وفي هاتين الرسالتين المصاغتين بكلمات تدل على القلق واللهفة، أشار عليه بولس بالرجوع إلى وعد الروح المعزي بكل رقة. وعندما نقرأ بين سطور هاتين الرسالتين، يمكننا أن نتحسس بعض نقاط الضعف المحتملة في شخصية تيموثاوس، وشيئاً من خوف بولس على زميله من الانهيار، خاصة أنه كان يعلق عليه كثيراً من الآمال. يقول الدكتور هارنجتون ليز أنه «في وسط كل الكآبة التي نستشفها من بين سطور الرسالتين نظل نلتقط أصداء اليأس، يبدو أن الصلابة لم تعرف طريقها أبداً إلى شخصية تيموثاوس».

لا يمكن أن يكون قلق بولس بلا سبب على الإطلاق. «فأنت لا تطلب من إنسان أن يكون شجاعاً ست مرات في مساحة لا تزيد على رسالتين ما لم يكن لديك شكوك فيما يتعلق بشجاعته. والشخص الذي يؤمر بأن يقف إلى جانب صديقه يجب أن يكون في خطر هجره. لم يكن بولس واثقاً من تيموثاوس، وهذا هو العنصر المثير للشفقة في حياته». كتبت الرسالة الأولى بعد تجديد بولس بحوالي ٣٠ سنة مما يضيف قيمة كبرى إلى إعلانه بأنه كان أول الخطاة (١تي ١:١٥). لقد كان يرغب حتى نهاية حياته أن يشعر بإحساس عميق بخطيته. وبمثل هذا الاعتراف، حاول أن يحفز تيموثاوس ليكون أو القديسين. ولكن هذا المثال الرفيع كان فوق مستوى المبشر الصغير، وخلفية رسالتي بولس إليه توحيان بالانطباع بعدم كفاية بديله وتلميذه «ليس هناك أثر لأمجاد بولس في التاريخ اللاحق لتيموثاوس».

هناك سمة بارزة في الطريقة التي يذكر بها بولس دائماً تيموثاوس بكثير من الحب، ويضع اسمه جنباً إلى جنب مع اسمه في ست رسائل من رسائله. ومن قلب مليء بالمحبة، يظهر في رسالته الأولى إلى ابنه الحبيب في المسيح، كيف يضبط سلوكه وينظم خدمته سواء في تفنيد الباطل أو في تثبيت الحق. وكلتا الرسالتين لهما صلة مباشرة بالموضوع قيد البحث.

في الرسالة الأولى، يأمر تيموثاوس أن يبشر بإنجيل صريح ويحمي التعليم الذي هو رسالتنا من الله: البوق الفضي.

وفي الرسالة الثانية ينصح تيموثاوس بأن يحيا حياة

مستقيمة وأن يحمي شهادته التي هي حياته من الله: العازف خلف البوق الفضي.

العنصر الشخصي في هاتين الرسالتين واضح المعالم، ويحتوي على النصيحة الختامية من مقاتل محنك إلى زميله العامل المستجد. لا يتحدث قلب الرسول الصادق المحب الجريء والواثق في أي رسالة أخرى من رسائله بمثل ما يتحدث هنا في الرسالة الأولى والثانية إلى تيموثاوس بلهجة معزية ومؤثرة. وحيث أن الرسالة الثانية هي الأخيرة التي تركها قلم بولس الموهوب، ولذلك فهي تعرف باسم أنشودة الموت، فهي أثمن وثيقة لأنها آخر وصية أو عهد للكاتب موجهة إلى تلميذه المحبوب، وهي تحتوي آخر أمنياته، مكتوبة تحت ظل الموت القريب وهي تحمل قطرات من دمه.

كتبت هذه الرسالة الأخيرة في زنزانة باردة رطبة حوالي سنة ٦٧ م قرب نهاية حكم نيرون، كان على بولس أن يظهر بعد وقت قصير من كتابة الرسالة أمام الإمبراطور وكانت رغبة الرسول القوية في رؤية صديقه العزيز تتمثل الدافع القوى لكتابة الرسالة إلى تيموثاوس – وقد كانت هذه رغبة ملحة عبر عنها عدة مرات في الرسالة (٢تي ١:٤، ٩:٤، ١١ ،٢١). إن طلب مجيء ابنه الروحي ليكون معه في ساعاته الأخيرة يظهر كم كانت المحبة التي تربط بين هذين القديسين سوياً صادقة ورقيقة، ولكننا لا نعرف إن كان تيموثاوس وصل إلى روما في الوقت المناسب ليواسي شريكه المخلص قبل النهاية المريرة أم لا. ولعدم علم بولس إن كان الله سوف يبقى على حياته ليقدم نصائحه الأخيرة بشفتيه أم لا، فإنه يملأ رسالته بالنصائح الأبوية التي تنطبق على ظروف تيموثاوس.

ظهر بولس من قبل أمام نيرون ولكن قضيته قد أُرجئت (٢تي ١٦:٤، ١٧)، وتوقع أن يظهر أمام الإمبراطور مرة أخرى في الشتاء وكتب يحث تيموثاوس، والذي كان قد اطلق سراحه من السجن (عب ٢٣:١٣)، أن يأتي في الحال، ويسرع إليه في سجنه بمتعلقاته التي كان قد تركها في مكان ما (٢تي ٩:٤، ١١ ،١٣ ،٢١). يعبر بولس عن أشواقه لرؤية تيموثاوس مرة أخرى، ويؤكد على اهتمامه البالغ به، ويشير عليه ألا يخشى من الاشتراك في تحمل الآلام والعار لأجل المسيح وحقه. وبنعمة الله عليه أن يعمل:

خادماً أميناً للكلمة

ومقاوماً للمعلمين الكذبة

ونبياً في أوقات الخطر

ومتألماً لأجل رسالة المسيح

تحتل شخصية وسلوك تيموثاوس ثلث هذه الرسالة الأخيرة التي كتبها بولس. من الواضح أن تيموثاوس كان خجولاً، فبولس يحثه مراراً وتكراراً أن يكون جسوراً (١تي ١٢:٤، ١٦، ٢تي ٣:١-٨).

الأيام الحالكة السواد قادمة، وكثيرون سوف تبرد محبتهم ويرتدون، ولذلك كان النداء المثير يتردد في كل سطور الرسالة لتيموثاوس ليكون ثابتاً وشجاعاً (٢تي ٦:١-١٤، ١:٢-١٢، ١٤:٣، ١:٤-٥). سوف يقف الرب معه كما وقف مع بولس في الساعات السوداء العصيبة. ولكن الرسالة تحمل نبرة حزن. فالموت سوف يحرر الرسول من قيوده، ومن التعب والقلق، ويجعله ينطلق ليكون مع المسيح، واستشهاده القريب سوف يأخذه من الكنائس التي أسسها والتي كانت بحاجة ماسة إليه، ومن حشد من الأصدقاء الذين أحبوه واعتمدوا عليه. لا نجد في كتابات بولس الأخرى تشديداً على الشجاعة المسيحية أرفع مستوى مما نجده في هذه الكلمات الصادرة من شخص مقبل على الموت، ولا نجد في أي مكان آخر فرحاً أقدس من التأمل في المكافأة والتاج اللذين صارا قاب قوسين أو أدنى منه

بسبب جهوده الأمينة والمخلصة. ألا تستطيع أن تتخيل كيف تأثر قلب تيموثاوس عندما قرأ هذه الرسالة، وكيف سالت دموعه فوق الرقوق؟ لاشك أن مثل هذه الرسالة المهيجة للمشاعر قد قادته لتسليم حياته بلا تحفظ للمخلص الذي خدمه أبوه الحبيب في المسيح خدمة مضحية.

قال القديس الأسقف مول عن وصية بولس الأخيرة وعهده: «لقد وجدت صعوبة كبرى مراراً أن أتعمد قراءة هذه الأصحاحات القصيرة دون أن أجد شيئاً مثل الضباب يتجمع في عيني. إن قلب الكاتب يدق في الكتابة». ليتنا نعزم نحن أيضاً أن ندرك مغزى هذه الدقات من جديد، حتى يمكننا أن نقول في نهاية الطريق:

جاهدت الجهاد الحسن
أكملت السعي
حفظت الإيمان (٢تي ٤:٧)

لم يكن بولس يخاف من الموت لأنه استطاع أن يقول «الموت لي ربح».

سيـــــلا
الرسول الذي ارتضى بالمركز الثاني

المصدر الذي استندنا عليه في إدراج سيلا «كالمرنم المرح» كما دعي بين الدائرة الأوسع للرسل، هو بولس نفسه. وعندما كتب عن أنه كان مثقلاً «كرسل المسيح» كان يشير إلى تيموثاوس، وسيلا، ونفسه (١تس ١:١، ٢:٦، ٢تس ١:١). ويالهم من ثلاثي رائع كما أثبتوا! إن إدراج بولس لسيلا بين رفاقه دليل آخر على عبقريته في ميدان الصداقة. كان عدد كبير من القديسين في تاريخ الكنيسة يفضلون الانعزال، ولكن بالنسبة للرسول كان الامر مختلفاً. فقد اتكل بقوة على أصدقائه وإذا تركه أحد، كما فعل ديماس، كانِ قلبه ينكسر. إن سجله يظهر أنه كان يشعر بوحدة قاسية، عندما ينعزل عن أصدقائه، ولم يكن حبه لهم مهتزاً بل عميقاً ومفيداً لأولئك المحيطين به والذين أظهروا له ولاءً شديداً، لأنه كان يجعلهم على شاكلته في القيادة المسيحية.

كما أن «صداقة بولس لتيموثاوس نموذج للصداقة بين رجل مسن وشاب صغير، وصداقته مع لوقا، الطبيب الحبيب، كانت مثالاً جميلاً على الحميمية بين الرجال ذوي الأعمار والأذواق المتشابهة». هكذا فالرابطة التي كانت تجمع ما بين بولس وسيلا معاً أوضحت كيف أن رجلاً ناكراً لذاته أصبح رفيقاً لا يستغني عنه لواحد من أبرز الرسل.

وكيوسف في القديم، قنع سيلا بالمركز الثاني. في العصور القديمة عندما كان الصف الأول في المعركة يتكون من رماة السهام، كان الوتر المقطوع في القوس يأتي على رأس قائمة الاهتمامات. وهكذا، في عبارة أصبحت مضرب الأمثال، قيل إن الجندي العاقل يتأكد أن لديه وترين في قوسه، وأطلق على الرجل البديل لفظ «الوتر الثاني» ... يقول الدكتور س.هارنجتون ليز في كتابه الجميل «أصدقاء بولس» أنه «عندما انفصم حبل الصداقة مع برنابا، أصبح سيلا هو الوتر الثاني... من أمجاد تعاليم المسيح أنه يهيء الرجال لخدمة تؤدي إلى إنكار الذات، وتجعلهم يقنعون بالمراكز ذات الأهمية الثانوية. فإذا كان المسيح، القائد، يضعهم هناك وهو مسرور بهم، فهذا غاية المراد».

ليس من السهل أن تكون تابعاً لشخص ذي قدرة بارزة وشخصية مسيطرة، وأن تحتفظ بصداقة ورفقة تلك الشخصية. والشمس تسطع دائماً بضوء أكثر لمعاناً من النجم. والأشخاص الأذكياء وذوو المواهب الفذة في الغالب يشعرون بالوحدة، لأن أولئك الأقل موهبة لا يمكنهم أن يجاروهم. ولكن بولس، برغم كل قدراته البارزة، كان لابد له من رفاق، وبفضل النعمة الإلهية، أصبح هو، ونور أصغر، كسيلا رفيقين مخلصين وظلا محتفظين بصداقتهما خلال العديد من التجارب والأخطار. إن رجلاً أصغر كسيلا كان يمكنه بسهولة أن يرفض مركز حامل العدة الحربية بسبب الطموح لتولي القيادة، ولكنه كان قانعاً بمركز التابع، لا القائد. يقول ديسمان في دراسته عن بولس إن رفيقه الأول برنابا، كان مساوياً له على الأقل في السلطة، ولكن الرفاق اللاحقين كانوا قطعاً تابعين له».

كانت المحبة المتبادلة في بعض الأحيان موضع اختبار، كما حدث في الشقاق بينه وبين برنابا الذي كان يذكره بولس دائماً بكل خير. وفي الخلاف مع بطرس بشأن موضوع حيوي (غل ٢:١١). ولكن بولس كان يحب بكل صدق أصدقاءه «في عائلة الله التي بلا لوم».

سلوانس وسيلا اللذان يذكرهما بولس (أع ١٦:١٩، ٢٥،٢٩، ٢كو ١:١٩). كانا شخصاً واحداً. هو سيلا «حيث إن الاسم سيلا هو مختصر الاسم سلوانس. ربما كان سيلا هو الاسم الحقيقي لهذا الصديق لبولس، وقد كان من أصل سامي، بينما كان سلوانس اسماً رومانياً مستعاراً. وقد اختير بسبب وقع الصوت. نجد أمثلة كثيرة لهذه الاختصارات في الأسماء في الكتاب المقدس. فالاسم بريسكلا في (أع ١٨:٢٦)، مذكور تحت اسم فريسكا في (٢تي ٤:١٩) وسوسيباترس في (رو ١٦:٢١) مذكور تحت اسم سوباترس في (أع ٢٠:٤).

نحن لا نعرف أين ولد سيلا وما هي خلفيته، أو كيف أصبح تلميذاً للمسيح، أو كيف أنهى أيامه، يخبرنا التقليد أنه كان واحداً من السبعين الذين أرسلهم يسوع للشهادة اثنين اثنين (لو ١٠:١). فإن كان الأمر كذلك، فحيث أنه عمل مع السيد ولأجله وشهد لموته وقيامته، فقد كان مؤهلاً ليكون رسولا. إن سجله مختصر عقب أول ظهور له على مسرح تاريخ الكنيسة في مجمع أورشليم. والله يعلم بكل الحقائق عن حياته، وأعماله مدونة في سفره، ولكن السجلات القليلة التي لدينا تكفينا للقراءة بين السطور وتوضح لنا شيئاً عن الشرف الذي ناله سيلا، الوتر الثاني لبولس، والرفيق الذي كان دائماً على استعداد أن يأخذ دور التابع.

١- أخ بارز

أول شيء نعرفه عن سيلا أن يهوذا، الملقب برسابا، وهو، كانا «متقدمين في الأخوة» وكان لهما سلطة كبيرة في مجلس المشايخ في الكنيسة الأولى (أع ١٥:٢٢-٢٧). ربما اعتقدنا أن سيلا كان شخصية باهتة إلى حد ما - وأن له قصة وليس تاريخ، حياة بلا عمل، ولكن لوقا المؤرخ يريدنا أن نعرف أن سيلا كان شخصاً مهما في المجتمع المسيحي والكلمة التي يستخدمها لوقا للدلالة على كلمة «متقدم» هي «قائد ذو أهمية» فحيث أنه كان مشهوراً كقائد في المقر الرئيسي للكنيسة فإن ذلك يوحي بأنه كان «تلميذاً قديماً» مثل مناسون. مضت سنوات عديدة منذ الجلجثة ويوم الخمسين، وقد أثبت سيلا أنه جدير بالثقة وقادر على تحمل المسئولية.

والظروف التي أدت إلى أول ظهور لسيلا يقدمها لوقا في (أع ١٥). وفي سنة ٥٠م دعى مجمع الكنيسة للانعقاد في أورشليم لتسوية أخيرة للموضوع الحساس بشأن ضرورة أو عدم ضرورة خضوع الذين اعتنقوا المسيحية من الأمم للناموس الطقسي حتى يصبحوا أعضاء في الكنيسة. أصر رجال الكنيسة المتقدمون والذين انحدروا من أصل يهودي وتلقوا تعليماً يهودياً على ضرورة الخضوع للناموس اللاوي للحصول على الخلاص ولكن بولس أصر على أن المتجددين من الأمم قد خلصوا بالفعل فقط على أساس الإيمان الشخصي بالمسيح. كان النقاش سجالاً وكان هناك تهديد بحدوث انقسام في الكنيسة، وكان جوهر الخلاف يتعلق بالتعليم الأساسي الخاص بالتبرير بالإيمان وحده.

نهض بطرس وخاطب المجمع مذكراً سامعيه بما حدث منذ عشرين سنة من قبل، في يوم الخمسين، عندما فتح باب الإنجيل لليهود والأمم على السواء بناء على الكلمات القائلة «الموعد لكم ولأولادكم ولكل الذين على بعد». ثم جاء الدور على بولس وبرنابا، فذكروا ما حدث في أول رحلة تبشيرية لهما، وأخذا يحدثان بجميع ما صنع الله من الآيات والعجائب في الأمم بواسطتهما «دون محاباة للوجوه». ثم تكلم يعقوب بعد هذين الرسولين، راعي الكنيسة الأم في أورشليم، مخاطباً الحاضرين، ومع أنه كان ميالاً بحكم النشأة للجانب اليهودي فيما يتعلق بالسؤال الحساس المطروح للجدل، إلا أنه اقترح تنازلات

متبادلة من كلا الجانبين، دون التضحية بأي مبدأ، وكان مرضياً لكلا الطرفين ومكنهما من العمل في سلام سوياً، وتمخض ذلك عن قرار يرسل لجميع الكنائس، حدث ذلك، والقرار موجود بحذافيره في أع ١٥:٢٣-٢٩ .

الآن يظهر سيلا، أو سلوانس في المشهد. اعتبر قرار المجمع ذا أهمية كافية لضمان توزيعه الفوري على الكنائس المتناثرة هنا وهناك. عينت لجنة مكونة من بولس، وبرنابا، ويهوذا وسيلا لتنفيذ قرار المجمع. لم يكن عملاً سهلاً أن يقوموا بزيارة الكنائس نظراً لبعد المسافات وصعوبة وسائل المواصلات، ولكنهم قاموا برحلات خطرة لمسافات طويلة، كان وجود سيلا في هذه اللجنة المكلفة بالقيام بمثل هذه الواجبات الحساسة والبعيدة الأثر يدل على أنه كان معترفاً به كرجل لبق ميال للهدوء والتوفيق بين الطرفين المتنازعين. لاشك أنه في ذلك الوقت تأثر بولس بشخصية سيلا وكفاءته كشريك في خدمة المسيح، وعندما كانت الحاجة تدعو لرفيق وشريك في الخدمة في الحقل المرسلي، كان الرسول يختار مثل هذا الرجل النافع لاصطحابه.

٢- نبي مسيحي

وصل الرسل إلى إنطاكية ومعهم رسالة من المجمع. ابتهجت الكنيسة هناك بمضمون الرسالة، وإذا كان يهوذا وسيلا «نبيين» وعظا أخوة الكنيسة بكلام كثير وشددا القديسين في الإيمان (أع ١٥:٣٠-٣٢). اللفظ «نبي» يعني شخصاً، بسبب صلته بالله، يستطيع أن يستلم رسالة إلهية ويعلنها على الملأ. «كان تنبؤ أنبياء العهد الجديد عبارة عن التبشير بمشورات النعمة الإلهية التي تمت من قبل والتنبؤ مسبقاً بالأغراض الإلهية في المستقبل».

لاشك أن سيلا كان معلماً كفؤاً له سلطة تعليم الكلمة. وعندما وصل إلى بيرية لابد أنه وجد نفسه وكأنه في بيته وسط مؤمنين يحبون الكتاب المقدس والذين «قبلوا الكلمة بكل نشاط فاحصين الكتب كل يوم هل هذه الأمور هكذا؟». ولكن هناك ملاحظة لافتة للنظر وهي أنه على الرغم من أن لدينا إشارة متكررة لوعظ سيلا، إلا أنه لم يحتفظ بجملة واحدة من أي رسالة بشر بها لتهذيبنا. ويمكننا أن نتخيل أنه كان واعظاً روحياً قوياً، لم يتفوق عليه سوى شريكه الرسول في الخدمة، وبالمثل كان له منصب كنسي مساو لبرنابا، ومع ذلك لم تسجل كلمة واحدة من الكلمات التي قالها بحكم هذا المنصب فلو أننا كنا نمتلك بعض العظات لسيلا لأصبح لدينا كنزاً ثميناً!

٣- مواطن روماني

هذا شرف اشترك فيه سيلا مع بولس، فعندما احتج الرسول على ضربهما على أيدي الجلادين، خاف الولاة عندما سمعوا أن بولس وسيلا رجلان رومانيان (أع ١٦:٣٥-٤٠). وفي هذا الصدد كان سيلا مشرفاً اجتماعياً عن برنابا. كانت الجنسية الرومانية مؤهلاً قيماً للعمل التجوالي الذي كان يقوم به بولس وسيلا، لأنه كان بإمكان كليهما المطالبة بالامتيازات للمواطنين الرومان، عملت المواطنة الرومانية والبصيرة الروحية على جعل سيلا متعاطفاً تجاه الحركة الأوسع للترحيب بالذين اعتنقوا المسيحية من الوثنية دون تذمر أو شكوى، فانطلق بحيوية صادقة في هذا الاتجاه الجديد ومضى ليربح اليهود والأمم على السواء للمسيح الحي.

يذكرنا السير وليم رمزي بأن المواطنة الرومانية كانت دليلاً على التميز والثروة، ولذلك لابد أن سيلا كان له مكان بين الارستقراطيين في أي مدينة محلية. وهكذا استطاع بولس وسيلا أن يلتقيا بأناس أثرياء من ذوي النفوذ يقودهم إلى المسيح من أمثال ليدية ونساء أخريات (ورجال) من نسب شريف (أع ١٦:١٤،١٧:١٢). والاسم الروماني

سلوانس أيضاً كان له دور في اقتياده نحو دوائر عليا. يقول هارنجتون ليز «نحن عادة ندعوه سيلا جرياً على الألفة الحميمة للوقا، ولكن بولس، الأكثر حرصاً على كرامته، وبطرس الذي يظهر نفس الحرص يلقبانه في الوثائق الرسمية للكنيسة باسمه الروماني سلوانس.

٤- رفيق الرحلات التبشيرية

يبرز سيلا في السجل المقدس كالرسول الذي حل محل برنابا في رحلة بولس التبشيرية الثانية، تماماً كما حدث فيما بعد، حين حل تيموثاوس محل يوحنا مرقس. في أنطاكية ظل المرسلون الأربعة الذين أرسلوا من قبل كنيسة أورشليم هناك لمدة سنتين، ويبشرون بالإنجيل بقوة ونتائج ملحوظة مما جعل أنطاكية تحل محل أورشليم كمركز العمليات ونقطة الانطلاق للكنيسة المسيحية. ولكن بولس كان قلقاً بسبب غيرته الرسولية القوية، وكان عليه أن ينطلق ليكرز بالإنجيل في كل مكان، ولذلك صمم على البدء في رحلته التبشيرية الثانية، وقال لرفيقه، برنابا «لنرجع ونفتقد إخواتنا في كل مدينة نادينا فيها بكلمة الرب كيف هم» (أع ١٥:٣٦).

وافق برنابا على الذهاب ولكنه أراد أن ابن اخته، يوحنا مرقس يصطحبهما، ولكن بولس اعترض لأن يوحنا مرقس خذلهما في جولتهما التبشرية الأولى، وتركها عند سفوح تلال بمفيلية (أع ١٥:٣٧،٣٨) وعلى الرغم أن بولس وبرنابا، كانا رجلين تقيين، إلا أنهما افترقا بعد مشاجرة حامية. شك بولس في مقدرة يوحنا مرقس على احتمال التجارب اليومية. لم يكن بولس خائفاً من مجرد أخذ مرقس، بل من اصطحابه معه باستمرار في مختلف الأماكن. لابد أن ذلك كان ضربة موجعة للصداقة التي كانت تجمع بينهما! ويبدو أن بولس كان على حق، لأن برنابا لا يظهر في سفر الأعمال مرة أخرى. وفيما بعد، يبدو أن يوحنا مرقس أبلى بلاءً حسنا فى عمل الرب وكان موجوداً مع بولس كما أن الرسول يشير بعطف إلى برنابا (١كو ٩:٦).

وحيث أن الرسول كان آخر من يسافر ويعمل لوحده، كان لابد له من شريك في حمل النير بدلاً من برنابا، وهكذا اختير سيلا كرفيق لبولس في رحلته التبشيرية الثانية. وحيث أن الرسول كان موجوع القلب وحزيناً بسبب القطيعة مع صديقه، فأنه رأى في سيلا شخصاً يمكن أن يعمل معه دون تحفظ. شخص يمكن الاعتماد عليه أكثر من مرقس. وهكذا كان سيلا الأخ المولود للشدة، وانطلق هو وبولس من أنطاكية مثبتين وجههما نحو الشمال الغربي. وتوقفا في دربة، ثم انطلقا نحو لسترة، حيث انضم إليهما تيموثاوس الشاب الذي حل محل يوحنا مرقس كساع ومساعد عام. ومضيا قدماً إلى أيقونية وترواس، حيث رأى بولس رؤيا بشأن الرجل المكدوني الذي دعاه: «اعبر إلينا وأعنا». وكانت هذه الرؤيا سبباً في ذهاب مبشري الصليب إلى أوروبا - غزو قارة جديدة لأجل المسيح.

ألا تستطيع أن ترى سيلا إلى جانب بولس كأخ، وصديق، وكرفيق خادم؟ لابد أن بولس كان يشعر بالرضا لمثل هذا الرفيق المخلص! ولابد أن الكنائس التي زاروها قد باركت اختيار بولس لسيلا! لابد أن صدر الرسول قد انشرح حين كان يرى كيف أن شريكه في الخدمة اشترك في تطبيق قرار المجمع على دستور الكنائس التي زاراها، وحين راقب سيلا وهو يعالج نقاط الضعف، ويناقش دارسي الكتاب المقدس بشأن ما التبس عليهم من أمور، وحين اشترك في الصلاة لأجل الكنائس (١تس ١:٢). انضم لوقا إلى الرسل الثلاثة، لأنه منذ ذلك الوقت فصاعداً فإن لوقا، الذي كتب سفر أعمال الرسل، يستخدم الضمير نحن بدلاً من هم، ولذا فإن فريق التبشير الرباعي المكون

من بولس، وسيلا وتيموثاوس، ولوقا، يبدأون الرحلة إلى فيلبي، وهم متأهبون للخدمة والمعاناة هناك.

ومن أكثر الملامح في خدمة سيلا الطريقة التي عمل بها كجامع وملتقط حبات الحصيد وراء بولس، والذي حين كان يترك مدينة ليذهب إلى غيرها، يقال عنه إنه ترك سيلا «ليجمع غلال الحصاد السائبة». كان سيلا يمتلك كل المؤهلات اللازمة لمثل هذه الأنشطة الخاصة بالمتابعة لتعضيد المؤمنين الجدد، وتثبيتهم في إيمانهم الأقدس، وضمهم إلى الكنيسة المحلية حيث لم يكن هناك من يقوم بهذا العمل من قبل. يحدث كثيراً في مجهودات الكرازة الحالية أن تضيع ثمار كثيرة بعد انتهاء الحملات التبشيرية، بسبب عدم رعاية المؤمنين الجدد لكي ينموا في النعمة ومعرفة الرب.

٥- سجين سعيد

هناك مثل بما معناه أنه حيثما يذهب بولس يمكنك أن تبحث عن «نهضة أو شغب». ما أن وصل الرسل إلى فيلبي وانطلقوا يكرزون بالإنجيل، حتى اختبروا الشيئين معاً: النهضة والشغب، كما تثبت الأحداث الواردة في أصحاح ١٦ من سفر الأعمال. ويبدو أن لوقا وتيموثاوس اللذين دخلا فيلبي أيضاً مع بولس وسيلا، قد أنقذا من المعاملة المشينة في الشغب والأحداث الخارجة على القانون هناك (١تس ٢:٢) ولكن سيلا، الذي كان قد انضم إلى بولس ليكون معه في اليسر والعسر، كان على استعداد لتحمل المشاق معه كرفيقه الشجاع والجسور. اعترفت السلطات في فيلبي بأهمية سيلا وعلو مكانته، وهو الذي أثبت جدارته أمام بولس كبطل، واشترك معه في تلقي المديح من مصدر شرير: «هؤلاء الناس هم عبيد الله العلي الذين ينادون لكم بطريق الخلاص» (أع ١٦:١٧).

بعد دخول بولس وسيلا إلى فيلبي بعدة أيام، اتجها إلى اجتماع صلاة عند نهر حيث كانت العديد من النسوة مجتمعات للصلاة، بلا شك لكي يبارك الله رسل الإنجيل في زيارتهم إلى المدينة. لقد أثبتت هؤلاء النساء أنهن بمثابة «رجل مكدونيا» الذي طلب العون. قام بولس بالكرازة لأن واحدة منهن فتح الرب قلبها «لتصغي إلى ما كان يقوله بولس» (أع ١٦:١٤)، من الواضح أن شهادة بولس وسيلا كانت بقوة الروح وذلك لحدوث الكثير من دلائل النعمة، أولها كان ليدية، المثقفة الثرية، بائعة الأرجوان الذكية، والتي ما أن فتح الرب قلبها، حتى استضافت الرسل في بيتها.

ثم حدث تغيير لجارية لم يذكر اسمها كانت تُستغل في العرافة، لأن بها روح عرافة، وقد اكسبت سيدها مبلغاً كبيراً من المال بعرافتها (أع ١٦:١٦-٢٤) استخدم بولس سلطانه كرسول وأمر الروح الشرير أن يخرج من الفتاة المسكينة، وفعل ذلك في الحال وأصبحت امرأة جديدة في المسيح يسوع. هاتان الحادثتان المدونتان تثبتان قوة الله على خلاص كل أنواع الخطاة. كانت ليدية مختلفة تماماً عن الجارية في المستوى الثقافي، والأخلاقي، والثروة والمركز. كانت إحداهما على قمة السلم الاجتماعي وكانت الأخرى في أسفله - الأفضل والأردأ - ومع ذلك فقد خلصتا كلتاهما بنفس النعمة الغنية التي بشر بها بولس.

ولما رأى سادة الوسيطة الروحانية التي تغيرت تماماً أنهم فقدوا رجاء مكسبهم من وراء عرافتها، أثاروا فتنة مما أدى بذهاب الرسولين الكارزين إلى ساحة القضاء حيث تمت محاكمتهما وتعرضا للضرب، ثم أُلقى بهما في السجن الداخلي للمدينة. ومع أن ظهري الرسولين كانا يدميان بسبب الضربات الموجعة، وكانت قدماهما في المقطرة، وكانت أياديهما مقيدة، فقد انتصرا على شدائدهما، لأنه عند منتصف الليل، كان بولس وسيلا

يصليان ويسبحان الله، الذي يستطيع وحده أن يعطي قديسيه المتألمين والمنهكين «الأغاني بالليل». فالصلاة والحمد في ظل هذه الظروف كانت تشهد للتحدي الفرح والشجاعة الباسلة لهذين الرسولين المتألمين. هل تعتقد أنهما كانا يقتفيان أثر المعلم الذي كانا على استعداد أن يموتا لأجله، والذي ذهب ليعاني الموت الأليم وعلى فمه تسبحة؟

يقدم لنا لوقا لمسة مفرحة في قصة السجن هذه فيقول إن بولس وسيلا كانا يصليان ويسبحان الله والمسجونون يسمعونهما، ولابد أنهم تأثروا كثيراً بشجاعتهما! عندما كنت مؤمناً حديثاً، كان لي امتياز سماع الجنرال ولين بوث، مؤسس جيش الخلاص، وهو يعظ عن «تجديد السجان». ومع أني نسيت جوهر الرسالة المؤثرة بالتدريج، إلا أن جملة واحدة خلبت لي وبقيت معي لأكثر من ٦٠ سنة. فعند قرب نهاية رسالته قال بوث: «كان الله مسروراً جداً بصلوات وتسابيح بولس وسيلا لدرجة أنه صاح قائلاً آمين، محدثاً زلزالاً قوياً». نعم، فإن الله يعرف كيف ينوع في طريقته. لم يكن هناك ما يدعو لحدوث زلزال ليفتح قلب ليدية. فقد فُتح بصمت ليسوع، كما تتفتح الزهرة في ضوء الصباح. ولكن الأمر تطلب زلزالاً لفتح باب السجن، وكسر السلاسل التي كانت في أيدي المساجين وفتح قلب السجان القاسي.

يالها من ليلة! ومع ذلك فقد كان بولس وسيلا هادئين وسط كل هذا الاضطراب وقد منعا السجان من قتل نفسه. «لا تفعل بنفسك شيئاً رديا لأن جميعنا ههنا». وعندما أنهار السجان تماماً بسبب عمل القوة الإلهية والموقف الرائع لكل من بولس وسيلا، جثا على ركبتيه أمامهما قائلاً «ياسيديّ ماذا ينبغي أن أفعل لكي أخلص» لقد تطلب الأمر زلزالاً لتغيير هذا الرجل القاسي، غير المبالي بالألم البشري، ولكن كم كان التغيير حقيقياً حتى أنه في نفس تلك الساعة من الليل أخذ بولس وسيلا «وغسلهما من الجراحات»، تلك الجراحات التي تسبب هو نفسه فيها (أع ١٦:٢٣، ٢٤، ٣٣). تم التبشير بالخلاص لكل من في بيت السجان، وآمن كل الحاضرين وعمدوا مع السجان. أقام السجان وليمة فرحة في ذلك اليوم الذي لا ينسى. وبعد قليل من الراحة في بيت ليدية، بعد أن أطلقت السلطات سراح بولس وسيلا، مضيا في طريقهما للحصول على المزيد من المكاسب لملكهما.

٦- صديق أمين

بعد التجربة التي اجتاز فيها بولس وسيلا في فيلبي، كتب بطرس رسالته الأولى، واختتمها بهذه التحية: «بيد سلوانس الأخ الأمين... كتبت إليكم بكلمات قليلة واعظاً وشاهداً أن هذه هي نعمة الله الحقيقية التي فيها تقومون» (١بط ٥:١٢). من هذه الإشارة إلى سيلا يتضح أنه كان مع بطرس في سنواته الختامية، مشتركاً معه في تجاربه واضطهاداته وكأخ أمين خدم كناسخ لرسالة بطرس، وبعدئذ كساعي بريد ليحمل رسالة الرسول العظيمة للقديسين في الشتات. ولكن الوصف «الأخ الأمين» ينطبق على كل حياة سيلا كتابع للرب. ومع أنه لم يطمع أبداً في بريق الشهرة، إلا أنه كان يسطع دائماً كخادم أمين لسيده، وكصديق أمين ورفيق لبولس، ثم لبطرس.

بعد ترك فيلبي، سافر بولس وسيلا إلى تسالونيكي، حيث كانت هناك أيضاً نهضة وشغب. فقد علَّما وكرزا لمدة ثلاثة أسابيع، وحدثت نهضة روحية كاسحة وتكونت كنيسة كبيرة هناك. ثم حدث الشغب بعد ذلك مما نتج عنه إرسال بولس وسيلا ليلاً إلى بيرية حيث استراحا قليلاً، وأتيحت لهما الفرصة لتعليم الكلمة التي ابتهج بها أهل بيرية. ولكن مجيء مندوب من اليهود المعادين من تسالونيكي، أعاق فترة الراحة والخدمة، وأبعد بولس بسرعة عن المشهد، ولكن

سيلا وتيموثاوس بقيا هناك.

ليتنا لا ننسى العمل المضني الذي قام به الرسل أثناء تواجدهم في تسالونيكي. لم يكن بولس، وسيلا، وتيموثاوس خائفين من العمل الشاق بأيديهم. ففي ذلك الوقت كان هناك كرب عظيم في كل أنحاء اليونان بسبب أحوال معيشية تكاد تصل إلى حد المجاعة، وقد رفض هؤلاء الرسل الشجعان أن يكونوا عبئاً على المسيحيين الذين افتقروا، ولذا فقد كانوا يكسبون قوتهم كأفقر إنسان في تسالونيكي. ولذلك كتب بولس يقول: «فأنكم تذكرون أيها الأخوة تعبنا وكدنا، إذ كنا نكرز لكم بإنجيل الله ونحن عاملون ليلاً ونهاراً كي لا نثقل على أحد منكم» (انظر ١تس ١:١، ٩:٢، ٢كو ١٠:٣). لم يتهرب الرسل من تلك الأوقات العصيبة. وكجنود صالحين ليسوع المسيح، تحمل بولس وسيلا وتيموثاوس المشقات. ولابد أن مثل هذا الانضباط والتحمل قد عملا على زيادة التقارب بين الرسل.

بعد خروجه السريع من تسالونيكي، وصل بولس إلى أثينا ولم ينتظر طويلاً حتى قام باستدعاء شريكيه الباسلين. فقد قام بولس بأفضل عمل له بعد أن انضم إليه سيلا وتيموثاوس. يسجل كل من لوقا وبولس تلك الفترة من الكرازة الواثقة المليئة بالبهجة، بما فيها من تركيز على موضوع المسيح كموعد الله الأبدي للنعمة المجانية (أع ٥:١٨ RV، ٢كو ١٩:١). بعد تلك الفترة المجيدة من البركة، لا يذكر سيلا مرة أخرى بالاسم في سفر الأعمال فقد اختفى فجأة من التاريخ، لأننا لا نقرأ عن بولس وسيلا يعملان معاً. ومع ذلك فنحن نعتقد بطريقة ما أنه استمر يقف بجوار بولس في تجاربه وانتصاراته لأيام كثيرة، وقد أثبت أنه، في جميع الأحوال «أخاً أميناً».

وبعد حوالي عشر سنوات يظهر سيلا مرة أخرى جنباً إلى جنب مع مرقس. وكالعادة نراه يشغل بتواضع المركز الثاني، فيكتب رسالة يمليها عليه بطرس، ثم يعمل كحامل للرسالة لليهود الذين في الشتات، والذين سبق فعرفهم عندما كان رفيقاً لبولس في السفر ومساعدا أميناً له. قال سليمان: «اثنان خير من واحد.. لأنه إن وقع أحدهما يقيمه رفيقه» هكذا كان الحال مع بولس وسيلا.

كان بولس وسيلا فريقاً سعيداً، فقد كانا يرتديان ثوب الحمد فوق روح الكآبة في سجنها لأنهما كانا في جميع الأوقات يعرفان كيف يبهج كل منهما الآخر «بمزامير وتسابيح وأغاني روحية».

وكما اجتاز المسيحي ورفيقه في رواية جون بنيان الخطر تلو الخطر، وهما يرتلان في سيرهما، حتى رحبت بهما الملائكة على أبواب المدينة السماوية، هكذا كان الحال مع السائحين، بولس وسيلا، رسولي الله اللذين سبَّحاه صدحت لهما الأبواق على الجانب الآخر. سعيد من يعمل في كرم الرب ومن يكون له رفيق في حمل النير، ويكون قريباً منه دائماً عندما تظهر ظلال «فيلبي» ومن يكون وجوده سواء في الحزن أو الفرح مصدر بركة.

وداعاً يا سيلا، فقد كان مكوثي معك لفترة وجيزة، كأخ أمين ورفيق صادق في إنجيل نعمة الله مصدر إلهام لي! ولو كان لدينا رسالة منك! أو سجل بأقوالك، لشعرنا بقدر كبير من الإثارة. ومع ذلك، فشهادتك بمثابة العديد من الكتب. ومع أنك مت منذ وقت طويل، فما زالت تقول الشيء الكثير عن طريق القدوة. ليتني استطيع أن أظهر نفس الصداقة القيمة نحو الآخرين، كما فعلت أنت عندما كنت مع بولس وبطرس!

سيلا وتيموثاوس بقيا هناك.

ليتنا لا ننسى العمل المضني الذي قام به الرسل أثناء تواجدهم في تسالونيكي. لم يكن بولس، وسيلا، وتيموثاوس خائفين من العمل الشاق بأيديهم. ففي ذلك الوقت كان هناك كرب عظيم في كل أنحاء اليونان بسبب أحوال معيشية تكاد تصل إلى حد المجاعة، وقد رفض هؤلاء الرسل الشجعان أن يكونوا عبئاً على المسيحيين الذين افتقروا، ولذا فقد كانوا يكسبون قوتهم كأفقر إنسان في تسالونيكي. ولذلك كتب بولس يقول: «فأنكم تذكرون أيها الأخوة تعبنا وكدنا، إذ كنا نكرز لكم بإنجيل الله ونحن عاملون ليلاً ونهاراً كي لا نثقل على أحد منكم» (انظر ١تس ١:١، ٩:٢، ٢كو ١٠:٣). لم يتهرب الرسل من تلك الأوقات العصيبة. وكجنود صالحين ليسوع المسيح، تحمل بولس وسيلا وتيموثاوس المشقات. ولابد أن مثل هذا الانضباط والتحمل قد عملا على زيادة التقارب بين الرسل.

بعد خروجه السريع من تسالونيكي، وصل بولس إلى أثينا ولم ينتظر طويلاً حتى قام باستدعاء شريكيه الباسلين. فقد قام بولس بأفضل عمل له بعد أن انضم إليه سيلا وتيموثاوس. يسجل كل من لوقا وبولس تلك الفترة من الكرازة الواثقة المليئة بالبهجة، بما فيها من تركيز على موضوع المسيح كموعد الله الأبدي للنعمة المجانية (أع ٥:١٨ RV، ٢كو ١٩:١). بعد تلك الفترة المجيدة من البركة، لا يذكر سيلا مرة أخرى بالاسم في سفر الأعمال فقد اختفى فجأة من التاريخ، لأننا لا نقرأ عن بولس وسيلا يعملان معاً. ومع ذلك فنحن نعتقد بطريقة ما أنه استمر يقف بجوار بولس في تجاربه وانتصاراته لأيام كثيرة، وقد أثبت أنه، في جميع الأحوال «أخاً أميناً».

وبعد حوالي عشر سنوات يظهر سيلا مرة أخرى جنباً إلى جنب مع مرقس. وكالعادة نراه يشغل بتواضع المركز الثاني، فيكتب رسالة يمليها عليه بطرس، ثم يعمل كحامل للرسالة لليهود الذين في الشتات، والذين سبق فعرفهم عندما كان رفيقاً لبولس في السفر ومساعدا أميناً له. قال سليمان: «اثنان خير من واحد.. لأنه إن وقع أحدهما يقيمه رفيقه» هكذا كان الحال مع بولس وسيلا.

كان بولس وسيلا فريقاً سعيداً، فقد كانا يرتديان ثوب الحمد فوق روح الكآبة في سجنها لأنهما كانا في جميع الأوقات يعرفان كيف يبهج كل منهما الآخر «بمزامير وتسابيح وأغاني روحية».

وكما اجتاز المسيحي ورفيقه في رواية جون بنيان الخطر تلو الخطر، وهما يرتلان في سيرهما، حتى رحبت بهما الملائكة على أبواب المدينة السماوية، هكذا كان الحال مع السائحين، بولس وسيلا، رسولى الله اللذين سبَّحاه صدحت لهما الأبواق على الجانب الآخر. سعيد من يعمل في كرم الرب ومن يكون له رفيق في حمل النير، ويكون قريباً منه دائماً عندما تظهر ظلال «فيلبي» ومن يكون وجوده سواء في الحزن أو الفرح مصدر بركة.

وداعاً يا سيلا، فقد كان مكوثي معك لفترة وجيزة، كأخ أمين ورفيق صادق في إنجيل نعمة الله مصدر إلهام لي! ولو كان لدينا رسالة منك! أو سجل بأقوالك، لشعرنا بقدر كبير من الإثارة. ومع ذلك، فشهادتك بمثابة العديد من الكتب. ومع أنك مت منذ وقت طويل، فما زالت تقول الشيء الكثير عن طريق القدوة. ليتني استطيع أن أظهر نفس الصداقة القيمة نحو الآخرين، كما فعلت أنت عندما كنت مع بولس وبطرس!

متـــيـــــاس
الرسول الذي اختير بالقرعة

من المؤكد أن زوار مدينة البندقية شاهدوا قصر الدوج (القاضي) بما فيه من السمات الغريبة المميزة له. في غرفة مشهورة توجد مجموعة من الصور الشهيرة في تاريخ الجمهورية التي قامت على البحر. في هذه السلسلة من الصور الرائعة حول الحائط هناك فجوة ملحوظة، كما لو كانت إحدى الصور قد سقطت، أو أزيلت. في هذا الفراغ الخالي مثال لوح أسود عليه كتابة بارزة تقول – هنا مكان ماريونو فاليري الذي قُطعت رأسه بسبب جرائمه. ذلك الفراغ في الإفريز الذي يضم قائمة الخالدين في تاريخ البلاد دليل على العار الذي سبَّبه الخائن، والكتابة في الفراغ الخالي تسجل النفور القومي من الخائن.

هذه الذكرى اللافتة للأنظار لدوج (قاضي أو حاكم) الخائن مَثَل على حذف اسم يهوذا الإسخريوطي من معرض صور الاثنى عشر، التي يقدمها لوقا في سفر الأعمال، حيث يقدم فقط أحد عشر شخصاً في قائمة الرسل (أع ١:١٣). المقعد الثاني عشر شاغر، والإعلان واضح – هنا مكان يهوذا الإسخريوطي الذي لعب دوراً رئيسياً في أعظم مأساة في التاريخ البشري. إن غياب اسمه من قائمة الرسل يدل على أن وصمة قايين كانت مطبوعة على جبينه وأن الجريمة المأساوية قد ألقت بظلالها الكئيبة لذاكره. ولكن بقية الرسل اجتمعوا في العلية في أورشليم لملء الفراغ بصورة أخرى لاكتمال الاثني عشر. «وليأخذ وظيفته آخر» (أع ١:١٣-٢٦، انظر مز ١٠٩:٨). بدراسة النبوة القديمة علم الرسل أن المكان الخالي يجب أن يتم ملئه.

من الأمور الواضحة بشأن اختيار خليفة ليهوذا أن الروح القدس هو الذي ألهم داود ليتنبأ بوجوب إيجاد من يخلف الخائن تكون له المؤهلات الضرورية لمنصب الرسول. والسؤال هو، هل كان متياس الخليفة الذي دعاه المسيح (لأنه هو الذي دعا الاثنى عشر عندما بدأ خدمته)؟ لم يكن الروح القدس قد أعطى بعد، والذي كان على الرسل أن يهتدوا بأوامره المباشرة وإلهامه من ذلك الوقت فصاعداً. كانوا لا يزالون في العلية يصلُّون منتظرين موعد الآب. وفي محاولة لملء الفراغ في جامعة الرسل، وقف بطرس وردد الفعلة الشنعاء التي ارتكبها يهوذا وكيف لقي حتفه، وأكد على ضرورة اختيار خليفة من قبل البقية – شخصاً كان رفيقاً دائماً وتلميذا ليسوع، يكون قادراً بالتالي على أن يحمل الشهادة لحياته، وموته، وقيامته.

ومن بين العديدين الذين كانوا معروفين للرسل جيداً بأنهم يستوفون هذه الشروط – لأن بطرس قال: «فينبغي أن الرجال الذين اجتمعوا معناً كل الزمان الذي فيه دخل إلينا الرب يسوع وخرج» (أع ١:٢١). أقاموا اثنين «يوسف الذي يدعى بارسابا الملقب يوستس ومتياس» أما عن برسابا، فليس لدينا معرفة بتاريخه الشخصي باستثناء حقيقة أنه بعد أن كان تابعاً ليوحنا المعمدان، كان واحداً من الذين اتبعوا المسيح – ومن المرجح أنه كان واحداً من السبعين الذين أرسلهم، وأنه كان مستوفياً لكل شروط الرسولية. ويهوذا برسابا الذي اختير مع سيلا من قبل قادة الكنيسة في أورشليم للذهاب إلى أنطاكية، يعتقد أنه أخ ليوسف برسابا. المعين مع متياس للاقتراع عليه لملء الفراغ في قائمة الرسل (أع ١:٢٢-٢٣). وبالمثل ليس لدينا ما نلجأ إليه لمعرفة هوية متياس، الشخص المختار

(فهو لا يذكر مرة أخرى في العهد الجديد).

والمشكلة هي، هل يمكن أن يكون متياس بموجب الحق الإلهي، هو الرسول الثاني عشر، على الرغم أنه مدرج في قائمة الاثنى عشر التي يتحدث عنها لوقا (أع ٢:٦)؟ هناك العديد من الأسئلة المثارة حول كل الإجراءات التي قام بها بطرس تشكك في صحة هذه الإجراءات. لقد وافقت جماعة المؤمنين قليلة العدد على اقتراح بطرس بوجوب اختيار خليفة ليهوذا بالقرعة، واختير متياس. ولكن مع أن الاختيار للمنصب كان نزيهاً، إلا أنه مع ذلك اختيار بشري، قد تم من قبل الأحد عشر رسولاً أنفسهم والذين تصرفوا بناء على مبادرة منهم لتعيين خليفة. ويبدو أنه ليس هناك سبب كاف للاعتقاد بأنهم كانوا يهتدون بتوجيه سماوي في عملهم، حيث أن يسوع كان يؤكد دائماً على حقيقة أن التلاميذ كانوا من اختياره وحده: «أليس أني أنا اخترتكم الاثنى عشر؟» «ليس أنتم اخترتموني بل أنا اخترتكم» (يو ٧:٦، ١٦:١٥ . أع ٢:١).

هل يمكن إذن، أن يكون الرسل قد أخذوا على عاتقهم القيام بما كان يعتبره يسوع من حقه لوحده؟ وباقتباس نبوة داود بشأن ملء الفراغ بشخص يحل محل يهوذا، استنتجوا أنهم يجب أن يتصرفوا حيال هذا الأمر، ولذا قرروا تعيين خليفة. لا شك أنهم اعتقدوا بوجوب تعيين شخص قبل الأوان ليشترك في البركة الموعودة ليوم الخمسين حين يحل، ولكن ليس هناك إشارة أنهم طلبوا الهداية من الله قبل اختيار المرشحين اللذين قدم اسماهما. من الواضح أنهم اعتبروا أنه من المسلم به أن الله سوف يوافق على ما عملوه، وصلوا فقط عندما كان قرار الاختيار ضرورياً «عين أنت من هذين الاثنين أيا اخترته» ألا يوحي ذلك بأنهم، بعد أن اختاروا برسابا ومتياس، طلبوا من الله أن يختار واحداً من الاثنين، دون أن يسألوه، عما إذا كانت هناك ضرورة لتعيين واحد في ذلك الوقت أم لا، أم أنه كان هناك شخص آخر كان يعتقد أنه الأفضل؟

ياللحسرة! ألا نرتكب نحن نفس الخطأ؟ فنحن نصمم على عمل أشياء معينة، ونطلب من الله أن يباركها ويجعلها صالحة. نحن نذهب إليه، ليس قبل الإقدام على العمل، بل بعد أن نكون قررنا القيام به. نحن لا نسأله عما ينبغي أن نفعل، بل أن يبارك ما نفعله. نحن لا نريده أن يتولى زمام الأمور منذ البداية، بل يوجه النتائج فقط. هل نحن مثل أولئك الأحد عشر تلميذاً في العلية الذين قدموا اختيارهم لاثنين من العديد من التلاميذ، ثم طلبوا من الله أن يريهم أيا من الاثنين قد اختاره، بينما الحقيقة انهم اختاروا الاثنين بأنفسهم؟ هل نعمل ثم نصلي بعد ذلك؟

الإجابة على صلاتهم فيما يتعلق بأي من الاثنين يجب أن يختاروه، كان ليتقرر بالقرعة. وعلى الرغم أن برسابا ومتياس كانا على نفس المستوى فيما يتعلق بالشروط الواجب استيفائها للرسولية، فنحن نتساءل عما إذا كان انقياد الأحد عشر يميل إلى كفة تفضيلهم الخاص، أم أن الكفة كانت تميل أكثر إلى الإرشاد الذي حصلوا عليه من فاحص القلوب؟

الطريقة المعتادة لإجراء القرعة في مثل هذه الحالات كان يسير وفق النمط الآتي: أن يكتب كل اسم في ورقة، ثم توضع الورقتان في وعاء، ثم يهز حتى تخرج احداهما – وهي ممارسة كان معترفاً بها في الناموس – (لا ٨:١٦) وسواء وقعت القرعة على متياس، أو أن اسمه وقع من الوعاء أولاً، فحسب مع الأحد عشر رسولاً، فإن السؤال هو هل كان من اختيار الله كآخر شخص في الاثنى عشر».

نحن نعترض بشدة على القول بأن الصمت الذي يلف التاريخ المستقبلي لمتياس دليل على أن اختياره للمنصب كان متسرعاً وقبل الأوان من جانب بطرس والآخرين.

وحيث أنه لا يوجد سجل لما عمله، وأنه لم يحتل مكاناً في قائمة الشرف، فإن هذا الصمت، في حد ذاته، ليس دليلاً على أن اختياره لم يصادق عليه الرب ولم يقدسه. إن عدداً قليلاً من التلاميذ الذين كانوا في العلية حيث ألقيت القرعة من أجل خليفة يهوذا، قد حصلوا على الشهرة. فالتاريخ صامت بشأن الأعمال التي قام بها سمعان الغيور على سبيل المثال. وبعد أن وقع الاختيار على الاثنى عشر قبل يوم الخمسين، لم تُكتب فقرة واحدة، عن أكثر من نصفهم فهل نستنتج لذلك أن حكمة يسوع في اختيارهم لم تكن في محلها؟ وأن علمه المسبق كان خاطئاً؟ وأنه اختار أناساً لا يصلحون ليكونوا شهوده؟ الاستنتاج بأن تعيين متياس قد تم تقريباً، من قبل الرسل، يجب أن يتم التوصل إليه بطريقة أخرى.

نحن لا نشك بالمرة في أن بطرس تصرف بكل إيمان صالح عندما أعلن أن الفراغ الذي حدث بوفاة يهوذا يجب أن يملأ، وأن خطة الاختيار التالية قد نفذت بكل إخلاص. وعلى الرغم من أنه ليس لدينا أي ذكر لأي من برسابا أو متياس، إلا ان كلا منهما كان مخلصاً لرسالة المسيح بعد يوم الخمسين. كما كانا قبله. فالمختارون وغير المختارين على السواء كانوا مختارين من الرب عندما نظروا إلى يسوع «كحمل الله» عندما كانوا تلاميذ ليوحنا المعمدان.

من كان خليفة يهوذا المختار من الله؟ يذكرنا سليمان أن «القرعة تلقي في الحضن ومن الرب كل حكمها» (أم ١٦:٣٣). كيف تعامل الرب مع الموضوع؟ هل كانت طرقه أعلى من طرق الرسل في اختيارهم لمتياس؟ نحن نعتقد أنها كانت كذلك لأن الرب تجاهل بهدوء ما قام به الرسل وملأ المكان الشاغر في الرسل بنفسه بطريقته الحكيمة الخاصة، دون تدخل بشري، بدعوة شاول الطرسوسي الذي اعترفت به الكنيسة كالاختيار الإلهي، وهكذا كان شاول آخر الرسل الذين اختارهم المسيح نفسه، تماماً كما اختار الاثنى عشر شخصياً. قد يكون هناك شيء من المنطق في الاعتقاد بأن بولس كان يشير إلى ما عمله الاثنا عشر في العلية، عندما أكد أكثر من مرة بأنه هو نفسه كان رسولاً معيناً من قبل الرب مباشرة.

كم من مرة كتب بولس عن نفسه بلا تردد إلى الكنيسة في غلاطية «بولس رسول (لا من الناس ولا بإنسان بل بيسوع المسيح...») (غل ١:١). فقد تلقى بولس إرساليته من ابن الله، وفي مواضع عديدة يردد هذا الامتياز (رو ١:١ . ٥). ومع أنه، في وقت إجراء القرعة على يد الأحد عشر، كان شاول مضطهداً قاسيا للكنيسة، إلا أنه أصبح مسيحياً بعد وقت قصير من يوم الخمسين. ولاشك أنه علم في الوقت المناسب باختيار متياس، ولذلك أكد أنه قد رأى المسيح المقام أيضاً، ولذا اعتبر نفسه «كالأصغر» (أو الأخير) بين الرسل (١كو ١٥:٨،٩). هذه الرسالة إلى أهل كورنثوس مليئة بأقوال بولس كرسول مختار من الله «بولس المدعو رسولاً ليسوع المسيح بمشيئة الله» (١كو ١:١ . ١:٩).

بمجرد حدوث المعجزة في ذلك الطريق إلى دمشق، فان الرب الذي خلصه، أعلن لحنانيا عن شاول الذي صار بولس، إنه إناء مختار ليحمل اسمى أمام أمم وملوك وبني إسرائيل (أع ٩:١٥). وهكذا صار أقوى شخصية، باستثناء المسيح، في تاريخ الكنيسة. ولذلك نحن نعتقد أن بولس سوف يشغل الكرسي الثاني عشر الذي فقده يهوذا، وأن اسمه اللامع سوف يزين الأساس الثاني عشر من أساسات المدينة المقدسة، وبذلك يحل محل يهوذا، كالرسول الثاني عشر من رسل الخروف (رؤ ٢١:١٤).

يعقـوب، أخـو الـرب
الرسول الذي بشر بالتقوى العملية

حيث أن الاسم يعقوب كان اسماً شائعاً في أيام العهد الجديد، وأن هناك أربعة أشخاص قد ذكروا يحملون نفس الاسم، فإن التساؤل أُثير حول الهوية الدقيقة ليعقوب الذي نحن بصـــدده. لا يصح أن نخلط بينه وبين الرســولين المذكورين في قائمة المختارين من قبل المعلم، وهما، يعقوب بن حلفي، ويعقوب بن زبدي (مت ١٠:٢،٣). وقد تأملنا في كليهما من قبل. فلا أحد منهما كان أخا الرب، لأن الكتاب يذكر بوضوح أن أخوة يسوع لم يؤمنوا به خلال خدمته على الأرض.

ومع ذلك فنحن مقتنعون بأن يعقوب الذي استشاره بولس (غل ١:٩، ٢:٩) لم يكن واحداً من الاثنى عشر. وقد دعي فقط رسولاً كما كان يطلق على برنابا والآخرين الذين كانوا في الدائرة الأوسع التي نتأمل فيها الآن، دعنا نستجمع معاً الشواهد عن يعقوب هذا والمشهور في أورشليم ونرى إذا كان من الممكن أن تخبرنا بالكثير عن شخصيته وشهادته.

١- أخو الرب

يالها من عبارة محددة ومعبرة يقدمها لنا بولس في خلال سرده لقصة الزيارة التي قام بها لأورشليم بعد حوالي ثلاث سنوات من تجديده الرائع! «ولكنني لم أر غيره من الرسل إلا يعقوب أخا الرب» (غل ١:١٩). يا لها من عبارة لافتة للنظر لنتوقف عندها ونتأمل فيها!

يقدم لنا كل من متى ومرقس دائرة العائلة في البيت الذي عاش فيه يسوع طيلة الثلاثين سنة الأولى من حياته: «أليس هذا ابن النجار؟ أليست أمه تدعى مريم؟ وأخوته يعقوب ويوسي وسمعان ويهوذا؟ أو ليست أخواته جميعهن عندنا؟» (مت ١٣:٥٥،٥٦، مر ٦:٣). ألا نستطيع أن نتخيل سعادة تلك العائلة في الناصرة - يوسف ومريم، وأربعة أبناء، وبنتان على الأقل، ويسوع! يعتقد بعض المعلقين أنهم كانوا أبناء يوسف من زواج سابق ولذلك كانوا كلهم أكبر من يسوع، وليس لهم صلة دم بيسوع. وهناك نظرية أخرى تنادي بأن «أخوة الرب» هم أبناء خالته، أبناء مريم، زوجة حلفى، وأن كلمة «أخ» هنا تعني مجرد صلة القرابة كما يدعو ابراهيم نفسه وابن اخيه لوط «أخوان» (تك ١٣:٨)، وكما يدعو لابان يعقوب، ابن اخته «أخي» (تك ٢٩:١٥). وتعلم الكنيسة الرومانية الكاثوليكية وكذلك الكنيسة الارثوذكسية الشرقية بدوام عذراوية مريم، وبأنها لم تتزوج أبداً، ولم يكن لها أولاد سوى يسوع، الذي حبل به بطريقة معجزية.

ولكن من الواضح أن مريم كان لها أطفال آخرون، لأن يسوع يشار إليه بأنه «ابنها البكر» أو أول من ولدته، وطبقاً لرأي كنيسة روما فإن القراءة الصحيحة لهذا العدد يجب أن تكون «ابنها الوحيد» (لو ٢:٧). ونحن نعتقد أن يسوع حبل به من الروح القدس من مريم وهي عذراء، وأنه فيما بعد، جاء الأربعة أبناء والبنات متتابعين في الوقت المناسب، بحسب التوالد الطبيعي كمكافأة لها على قبولها أن تصبح أماً لربنا الذي نذرته لله من الرحم (انظر اصم ١:٢٠-٢٨، ٢:١-١١، ١٨-٢١). وحيث أن الأولاد والبنات قد جاءوا واحداً وراء الآخر وكبروا مع يسوع، واجتازوا في مراحل الطفولة، والشباب، وكإناث أو كرجال، فيا لها من عائلة مجيدة كان يسوع في وسطها. ونحن نعرف أنه كان خاضعاً لأمه ولأبيه بالتنشئة، وكان قدوة في الحياة المقدسة

للأطفال الأصغر سناً ليحذوا حذوه. ذكر اسم اخوته، ولكن لم يذكر اسم أخواته، وجميعهم، سبعة على الأقل، كبروا معاً جنباً إلى جنب.

وإذ نفكر في يعقوب، أحد أخوته، نتساءل عن كيفية نشأته في كنف عائلة تقية وأخ كامل. هل تمت صياغة شخصيته وفقاً لهذا الجو المقدس، وهل تشكلت من قبل أخيه الأكبر الذي كان القداسة متجسدة والذي كانت له شخصية كاملة في كل مرحلة سنيه، طفل كامل، وشاب كامل، ابن كامل، وأخ كامل، ورجل كامل؟ يرسم إلدركمنج هذه الصورة الجميلة لذلك البيت الناصري المتميز:

«كان ذلك البيت مليئاً بملائكة غير مرئية، طلبوا من الله أن يسمح لهم بالمجيء إليه! وكانت أعذب ترانيمهم وتسابيحهم تنشد هناك لا يسمعها سوى الله! ويالنور الذي كان فيه، أحلى من نجم المساء، ومع ذلك فقد كان وحيداً كنجم الصباح! ويا للحب الذي كان فيه، أرق من حب الأم، ومع ذلك أقوى بكثير من حب المرأة! ويالحقيقة التي كانت هناك، فقد كانت دراسة الكلمة طابع هذا البيت، دراسة ما ندعوه نحن بالعهد القديم، الذي كان مكتوباً كدرج على الجانبين، والذي لم يبل من كثرة القراءة! وما أجمل أوقات الصلاة، عندما كان الصوت الخفيض يسمع من خلال باب المخدع، يتوسل، ويشكر، ويفرح، ويبكي على الخطاة متمسكاً بالله!».

٢- خصم الرب

كان يسوع في الثلاثين من العمر حين ترك البيت الذي آواه كثيراً، وإخوته وأخواته الذين كانوا في علاقة حميمة معه عندما «كان يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس» (لو ٢:٥٢) هل أحب أقرباؤه حسب الجسد قداسة الحياة بسبب وجود مثل هذا الأخ إلى جوارهم؟ الحقيقة المذهلة أنه على الرغم من حياته وشهادته طوال هذه السنين التي كانوا فيها معاً، إلا أن إخوته لم يؤمنوا بمسيانيته (يو ٧:٣-٥). كانوا يسخرون منه وفي ذات مرة قالوا إنه - أخوهم - مختل، وحاولوا أن يمسكوه ويحملوه بعيداً عن كفرناحوم لئلا يجلب العار على العائلة العريقة (مر ٣:٢١،٣١).

لقد كانت هذه المعاملة المعادية من جانب عائلته هي التي دعته لكي يقول علانية «أمي وأخوتي هم الذين (حوله ينتظرون بشغف ليسمعوا رسالته) يسمعون كلمة الله ويعملون بها» (لو ٨:٢١). ثم ألا نستطيع أن نتبين مغزى إعلانه الآخر الذي يقول فيه «ليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه». ثم لاحظ هذه العبارة المعبرة «وفي بيته» (مت ١٣:٥٧). وبما أن المسيح كان يطبق كل العدد على نفسه، فيستنتج من ذلك أنه كان يشير بأسى إلى موقف عدم الإيمان تجاهه من قبل الذين في البيت الذي تركه، ومما يؤسف له أيضاً أنه لا توجد أدنى إشارة حتى في التقليد، أن أخواته قد قبلن الإيمان الحقيقي الذي كان يجسده أخوهن اللامع ويعلنه.

لا يسعنا سوى أن نؤمن بأن يسوع كان صالحاً في عيني إخوته وأخواته، فلم يستطيعوا أن يجدوا فيه علة وهو يمضي ليتمم عمل أبيه السماوي. فما هو السبب إذن في رفضهم لشهادته؟ ربما كان هناك عاملان مسئولان عن عدم إيمانهم. أولاً، ربما لم يكونوا على استعداد لاتباعه بنفس التكريس الكامل لله الذي أظهره. فقد كان بلا خطية، وعاش وفق مقياس أكثر صرامة مما يستطيعون تحمله. فلا مساومة مع شر هذا العالم، ومعارضة لكل أشكال الخطية، وإنكار دائم للذات، وتكريس كامل لله يتمثل في مستوى رفيع من المعيشة لم يستطيعوا الوصول إليه. كان حضوره في البيت توبيخاً دائماً لأولئك الأخوة والأخوات الذين كانوا من بين «خاصته (التي) لم تقبله» (يو ١:١١).

السبب الثاني لموقف عدم إيمانهم ربما كان يتمثل في دعاواه الدائمة بأنه المسيا المتنبأ عنه في القديم، ومحط رجاء كل الأجيال الماضية في إسرائيل، لم يصدق إخوته وأخواته أنه يستطيع أن يجري المعجزات التي كان يصنعها في كل مرحلة من حياته. ويسرد التقليد العديد من المعجزات العجيبة التي أجراها عندما كان صبياً في البيت، ولأن أفراد عائلته لم يكونوا حاضرين عند إجراء معجزته الأولى في عرس قانا الجليل بعد تركه للبيت، فلا شك أنهم سمعوا عنها من مريم التي كانت هناك. ومع ذلك فلم يكونوا مقتنعين أنه هو المسيا الآتي: ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، أصبح إخوته وأخواته أكثر دراية بقواته التي صنعها بكلماته القوية، ولكن كان يبدو أنهم ظلوا في عدم إيمانهم حتى حدوث الصلب. ونحن جميعاً نعرف من تجاربنا الشخصية أن أشر الأبناء يأتون من أتقى البيوت، ويصبحون أعداء لأهالي بيوتهم القديسين.

٣- مؤمن بالرب

تذكر السجلات أن الجلجثة والقيامة قد أحدثتا تغييراً عجيباً في أخوة ربنا. ولكن بسبب عدم ذكر أخواته بين النساء المجتمعات في العلية بعد القيامة، يبدو أنهن ظللن في عدم إيمانهن (أع ١:١٤). بعد أن اقتنع إخوته بمثل هذا البرهان الرائع عن انتصار المسيح على القبر، انضموا إلى جماعة المؤمنين. ودخلوا كنيسته. وآمن يعقوب عن طريق تجل خاص من الرب المقام (١كو ١٥:٧) وياله من دليل على عمل النعمة الإلهية لقد صار يعقوب واحداً من أوائل الشهود على القيامة. وكم كانت لحظة رائعة تلك التي التقى فيها الرب المقام ويعقوب، ليس فقط كأخين، بل كمعلم وتلميذ. «ظهر ليعقوب» عندما كتب بولس هذه العبارة، كان يعقوب أخو الرب، في ذهنه.

لماذا ظهر له الرب خصيصاً؟ إنه دونا عن سائر البشر أفضل من يعرف إن كان يسوع هو نفس الشخص الذي كان يعرفه جيداً أم لا، وقد اقتنع تماماً، وتاب عن عدم إيمانه وأصبح مؤمناً. أما عن إخوته الآخرين، يوسي وسمعان ويهوذا، فنحن لا نعرف إن كان يعقوب له تأثير عليهم بالمثل ليتقبلوا المسيح كمخلص لهم وكالمسيا أم لا. ولكن من الواضح أنهم هم أيضاً تجددوا في نفس الوقت الذي تجدد فيه أخوهم الأكبر، لأن كل أخوة الرب وجدوا مجتمعين معاً مع الكنيسة يواظبون بنفس واحدة على الصلاة منتظرين وعد الآب. وفي يوم الخمسين كان جميع الأخوة الأربعة بين أولئك التلاميذ الذين أعطاهم الروح القدس أن يعظوا بكلمة المصالحة. ومن ذلك الوقت فصاعداً، برز يعقوب من بين إخوته، وأصبح رسولاً.

٤- رسول الرب

بعد موت يعقوب أخي يوحنا، ألقي ببطرس في السجن، وبعد خروجه من السجن بمعجزة، طلب أن ينتقل هذا الخبر إلى يعقوب، أخي الرب، وإلى الأخوة في أورشليم (أع ١٢:١٧). ويدل ذلك على أنه في ذلك الوقت كان يعقوب قد أصبح ذي مركز كبير في الكنيسة هناك وقد برز كأسقف أو قائد في ثلاث مناسبات.

أ. بعد تجديد بولس بثلاث سنوات صعد إلى أورشليم ليتعرف ببطرس، ومع أنه مكث هناك لمدة خمسة عشر يوماً مع بطرس، إلا أن بولس لم ير أحداً سوى يعقوب (غل ١:١٨،١٩). كان نفوذ وأهمية يعقوب في نفس مرتبة بطرس.

ب. بعد مدة تبلغ ١٤ سنة صعد بولس أيضاً إلى أورشليم. ولكن كانت هذه هي مناسبة المؤتمر التاريخي المتعلق بالشروط الخاصة بقبول الأمم إلى الكنيسة المسيحية. وقد كان حديث يعقوب بهذه المناسبة يعبر عن تعاطفه تجاه الاحتياجات الدينية لعالم الأمم، ورغبته ألا

يصبح التمسك بالطقسية حائلاً دون تقدمهم الأخلاقي والروحي، وقد دل ذلك على أنه كان يحب السلام أكثر من الشقاق، والروح أكثر من الناموس، والتناغم الذي يمكن أن يعيش في ظله الجميع ويعملون سوياً في ولاء مشترك للمسيح، بالرغم من اختلاف الشعائر الدينية والطقوس. كان حديثه الرئاسي مقبولاً بالاجماع (أع ١٥:١٤-٣٤، انظر غل ٢:١ . ٩).

جـ. عاد بولس من رحلته التبشيرية الثالثة إلى يعقوب المعترف به كرئيس للكنيسة في أورشليم لكي يحدثه في حضرة المشايخ بكل ما فعله الله بين الأمم بواسطة خدمته وتم معاتبة بولس في هذا الاجتماع على تجاوزه الأوامر التي كان قد تلقاها في المجمع الأول (أع ٢١:١٧-٢١). نستنتج من الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس ٩:٥ أن يعقوب كان متزوجاً. ولكن ذلك مجرد تخمين، لأن الفقرة تتحدث عن الذين «يجولون بأخت زوجة» وعلى قدر ما وصل إلينا من معلومات، فيعقوب لم يسافر أبداً، بل بقي في أورشليم طوال حياته، وكما سوف نكتشف في فصلنا التالي، فالتقليد يقول الكثير عن الرسول يعقوب، الملقب «يعقوب العادل».

٥- كاتب الرب

السمة الباقية التي نركز عليها هي الحقيقة المؤكدة أن «يعقوب، أخو الرب» هو كاتب الرسالة التي تحمل اسمه من المشوق أن نلاحظ كيف يبدأ رسالته «يعقوب عبد (أي العبد الذي هو أحقر أنواع الخدم) الله والرب يسوع المسيح» (يع ١:١).

لدينا هنا دليل على شخصيته بتلقيب نفسه ليس كأخ، بل عبد لسيده، كدليل على التواضع لأنه بالرغم من أنه كان أخا الرب، لم تكن لديه رغبة في الإصرار على علاقته بالجسد، لقد كان على النقيض من جذب الأنظار إليه بسبب هذا الامتياز.

مع أن يعقوب لم يؤمن بيسوع في أيام جسده، إلا أنه استمع بالتأكيد إلى تعليمه لأن الشواهد التي ذكرها عنه تظهر كيف كان عقله متشرباً ليس بجوهر التعليم فقط بل بالصياغة اللفظية أيضاً. يذكرنا أحد المفسرين قائلاً: «يتحدث يعقوب عن المعلم أقل من أي كاتب آخر في العهد الجديد، ولكن حديثه أكثر شبهاً بحديث المعلم من حديث أي واحد منهم. فهناك مالا يقل عن عشر عبارات شبيهة بعبارات العظة على الجبل في هذه الرسالة القصيرة، وفي كل ما قاله يعقوب يمكننا أن نتذكر عبارة قالها يسوع أوحت إليه بما قال. وعندما نرى شيئاً من الخلافات في العبارات المتشابهة، نميل للشك في أن يعقوب ربما كان يكرر قولاً غير مسجل من أقوال ربنا، ويبدو أنه كان مخلصاً تماماً لذكرياته عن تعليم أخيه. إنه خادم ليسوع في كل نصائحه وآرائه».

يذكر يعقوب اللقب الذي يعطيه لأخيه مرتين «الرب يسوع المسيح» (١:١ . ١:٢)، واستخدم لفظ الرب عدة مرات. كان الشك سائداً على فكره ذات مرة فيما يتعلق بمسيانية المسيح، ولكن يعقوب يمجده الآن كموضوع الإيمان الوحيد، و«كرب المجد» (١:٢). وهو لقب يطلق فقط على كل أقنوم من أقانيم اللاهوت، وفي كل مرة يستخدم لقب الرب، يمكننا أن نقول بثقة أن المقصود هو «الرب يسوع» وهكذا نجد لدينا هذه الجوانب المعبرة عن ما هية الرب ذاته:

معطي الحياة الأبدية وصاحب الوعد بها (١:١٢، ٢:٥)
إله العناية (٤:١٥)
سامع الصلاة، وشافي المرضى (١:٥، ٥:١٥)
الرب الآتي (٥:٧)
القاضي العادل (٥:٩)

ملهم الأنبياء (٥:١٠)

أليس من دلائل النعمة العجيبة بالنسبة ليعقوب أنه عاش بجوار يسوع نهاراً وليلاً لما يقرب من ثلاثين سنة، ومع ذلك فشل في رؤية مجده كابن الله الوحيد، ولكنه يأتي بعد ذلك ليفكر فيه ويكتب عنه بهذه الطريقة؟ يا لها من شهادة! «يعقوب أخو الرب» أصبح «عبد الله، والرب يسوع المسيح، رب المجد».

عندما نفحص الرسالة التي كتبها يعقوب، لا يسعنا سوى أن نلاحظ التشابه الملحوظ بين أسلوبها والحديث الذي قدمه من قبل في المجمع في أورشليم، وكيف أن نفس هذا التشابه يلقي الضوء على شخصية الكاتب. بالرجوع إلى الخطاب الذي ألقاه، وإلى الرسالة المكتوبة وما يريد أن يقوله، لاحظ هذه التشابهات اللفظية في لغة رسالته. قارن:

أع ١٥:٢٣ بـ يع ١:١

أع ١٥:١٧ بـ يع ٢:٧

أع ١٥:١٣ بـ يع ٢:٥

أع ١٥:٢٠ بـ يع ١:٢٧

أع ١٥:٢٩ بـ يع ١:٢٧

كل من خطابه ورسالته تظهران الصبغة اليهودية والمسيحية ليعقوب، والذي يجعل في رسالته الإيمان جوهر الديانة الحقيقية ويحث «الاثنى عشر سبطاً الذين في الشتات»، على التفسير الروحي للناموس القديم. ونظرا لأن الرسالة مكتوبة من يهودي إلى يهود مسيحيين، فهناك قدر كبير من الرسالة يتميز بيهوديته في أسلوب وروح الرسالة، والتي تحمل طابع سلطة الآباء، لأنها كتبت بقلم أبي الكنيسة في أورشليم، ولذا فهي عبرية تماماً في الأسلوب والمشاعر واللغة. التغطية القصيرة التالية لرسالة يعقوب قد تساعد على فتح شهية القاريء لمزيد من الدراسة الشاملة لهذه الرسالة والتي تتعامل أكثر من أي رسالة أخرى مع الحياة الظاهرية للمؤمن، سواء كان يهودياً أو أممياً.

تاريخها:

تتفق المصادر الكتابية على أن رسالة يعقوب أول رسائل العهد الجديد، البالغ عددها ٢١ رسالة. إذا كانت قد كتبت فيما بين سنة ٤٥م وسنة ٥٣م، فإن هذا التاريخ له أهمية كبرى. كان هناك اعتقاد أن يعقوب كتب رسالته لدحض وجهة نظر بولس عن التبرير بالإيمان، كما تم الإفاضة عنه في الرسالة إلى أهل رومية، ولكن بما أن رسالة يعقوب كُتبت قبل أن يكتب بولس رسالته إلى أهل رومية، فلا يمكن أن يكون ذلك غرض يعقوب من كتابة رسالته. شعر مارتن لوثر أن يعقوب يؤكد على الأعمال كنقيض للتعليم الهام عن التبرير بالإيمان في الرسالة إلى أهل رومية، لدرجة أنه شعر بأنه مدعو للدفاع عنها، ولذا دعا رسالة يعقوب «رسالة مليئة بالقش ليس لها الطابع الإنجيلي الحقيقي. وفي ما أعقب ذلك من سنوات، غيَّر المصلح رأيه واعتقد أن يعقوب هو المكمل لبولس فعلاً. وكما قال الدكتور أ.ت بيرسون: «ليس هناك صراع بين بولس ويعقوب فليس هناك مواجهة فيما بينهما، ولا يحاول أحدهما إلحاق الهزيمة بالآخر. ولكنهما يقفان سوياً لإلحاق الهزيمة بالأعداء».

غرضها:

كان اليهود الذين يمثلون الاثنى عشر سبطاً في الشتات بسبب الاضطهاد المرير، يواجهون تجارب قاسية، ولذا يكتب يعقوب ليعزيهم ويشجعهم، وكان هناك أيضاً عدد قليل من الاضطرابات الخطيرة في بعض التجمعات المسيحية اليهودية الأولى. وفي رسالته حاول يعقوب أن يصحح بعض المفاهيم، وكان هناك أيضاً ميل للفصل بين الإيمان والأعمال، ولذا بذل يعقوب جهداً ليبين أن السامع الحقيقي للكلمة هو العامل بها: إن كلمة الله مرآة تكشف

أي نوع من الناس نحن، وهي ذات تأثير فعال في الشخصية والسلوك (١:٢٢-٢٥). وكل نعمة داخلية حقيقية يجب أن تحمل الثمار الظاهرية.

هذا هو السبب في أنه لا يوجد قدر كبير من التعليم في رسالة يعقوب، بل يوجد الكثير عن الممارسة العملية والأخلاق. وهذا يبين كيف كان الرسول عملياً إلى حد بعيد - وأنه كان يعيش ما يعظ به! والكلمات الرئيسية في الرسالة هي «الأعمال» وقد وردت ١٣ مرة، و«الإيمان» ١٢ مرة، و«العامل بالكلمة» ٥مرات. والعدد الرئيسي هو: «لأنه كما أن الجسد بدون روح ميت هكذا الإيمان أيضاً بدون أعمال ميت» (٢:٢٦).

فهي إذن رسالة عن العيشة المقدسة، مع تأكيد كبير على أن الأعمال، ليست بمعزل عن الإيمان، بل كبرهان وثمر من ثمار الإيمان معاً. إنها تعطينا الجانب الأخلاقي من إنجيل النعمة. فنحن كمفديين بالدم، لا يمكن أن نعيش كما يحلو لنا، بل كما يأمرنا به الفادي. وحريتنا في المسيح ليست رخصة لارتكاب الخطية. ومع أن يعقوب من ذوي الفكر اللاهوتي، إلا أنه بالمثل عملي بلا تردد. ومع أنه لا يتعامل مع المباديء الأساسية الجوهرية للإيمان، إلا أنها في خلفية تفكيره وهو يؤكد أن كل مجاهرة بالإيمان وكل عقيدة لا تجعل المنادين بها صالحين وقديسين أتقياء فهي خدعة. كان يعقوب مقتنعاً تماماً بأن الإيمان الذي يأتي بالإنسان إلى الله هو إيمان يحيا ويعمل في عالم مليء بالاحتياجات.

الإطار العام للرسالة:

لا تظهر الرسالة تقسيماً واضح المعالم للمحتويات. فهي مثل سفر الأمثال، مؤلفة من فقرات متباعدة وغير مترابطة، مثل العديد من لآليء الحقيقة المتناثرة. ومع ذلك فكما يقترح روبرت لي، فعند الفحص الدقيق يمكن تمييز نظام بديع.

تحية مسيحية ١:١

أصحاح ١:٢-٢١ (امتحان الإيمان وإظهار معدنه عن طريق التجارب المتنوعة)

أصحاح ١:٢٢-٢ (إظهار الإيمان بأعمالنا)

أصحاح ٣ (إظهار الإيمان بأقوالنا).

أصحاح ٤ (إظهار الإيمان بعدم محبة العالم في حياتنا).

أصحاح ٥:١-١٢ (إظهار الإيمان واحتمالنا للظلم القاسي).

أصحاح ٥:١٣-٢٠ (إظهار الإيمان بصلواتنا المؤثرة وفاعلية ما نؤمن به).

يونياس
الرسول الذي امتدحه بولس

بما أن اسم يونياس يرد مقترناً بأندرونكوس، فكل ما كتبناه عنه ينطبق على يونياس، حيث أن تحية بولس، في ختام رسالته إلى أهل رومية كانت موجهة لكليهما (١٦:٧). كان يونياس مثل رفيقه بين أوائل المعتنقين للمسيحية بعد يوم الخمسين، أو «التلاميذ القدامى» مثل مناسون القبرصي (أع ٢١:١٦). كل من هذين الرجلين كانا معروفين جداً في دائرة الرسل، ومشهورين كرسولين – وقد استخدم اللفظ بأوسع معانيه في (١كو ١٥:٧). كانت الخدمة النبوية للكنيسة الأولى تعتمد على الرسل، والأنبياء، والمعلمين (١كو ١٢:٢٨، أف ٤:١١). عمل بعض الرسل كمرسلين يرسلون إلى مناطق مختلفة من قبل كنائس معينة (أع ١٣:٢، ٢كو ٨:٢٣، في ٢:٢٥). كان كل من أندرونكوس ويونياس مبعوثين مخلصين ومضحيين لأجل الإنجيل، كما يشهد بذلك وصف بولس لهما.

رسولان لم يُذكر اسماهما

هناك عدد كبير من الرسل الذين سبق وتأملنا سيرتهم، وليس لدينا عنهم شيء سوى أسمائهم ربما على الرغم من أهميتهم، ولكن بولس يشير إلى رسولين ولا يتوقف لذكر اسمهما حتى وإن كانا بارزين في مسلكهما لأجل المسيح. أحدهما كان أخاً «مدحه في الإنجيل في جميع الكنائس» وهي شهادة رائعة! (٢كو ٨:١٨) وكان الآخر أخا قال عنه بولس «الذي اختبرنا مراراً في أمور كثيرة أنه مجتهد» سجل يدل على المديح أيضاً (٢كو ٨:٢٢). ثم يتحدث الرسول عن الأخين معاً فيقول عنهما: «وأما أخوانا فهما رسولا الكنائس ومجد المسيح» (٢كو ٨:٢٣). يترجم روذرهام Rotherham العبارة هكذا «أخوانا، رسولا الاجتماعات ومجد المسيح». واللقب «مجد المسيح» لقب غير عادي، لاشك أن هذين الرسولين، أو المندوبين إلى الكنائس كانا يعملان فقط لأجل مجد المسيح، ولكن يمكن أن نجد فكرة أعمق إذا ربطنا ذلك بما يقوله بولس سابقاً، «ونحن جميعاً ناظرين مجد الرب... كما في مرآة» و«نتغير إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح» (٢كو ٣:١٨). في الواقع، إن بولس يقول عن هذين القديسين اللذين لا نعرف اسميهما - ومع ذلك فهما معروفان جيداً لدى الكنائس «هذان الرسولان، اللذان يقومان بخدمة رسولية ناجحة يشبهان المسيح في شخصه: إنهما يعكسان مجده، يمكنك أن ترى ذلك المجد فيها» هل يمكننا أن نقول إننا «مجد المسيح؟» هل هو ممجد فينا. وبنا دائماً؟ هل نحن نتمم صلاة المسيح - «وأنا ممجد فيهم» (يو ١٧:١٠).

الرب يسوع المسيح
رسول الرسل

من أهم كتب العهد الجديد الرسالة إلى العبرانيين، التي إذا لم تكن قد كتبت بيد بولس، فمن المؤكد أنها تحتوي على فكره. وجد اللاهوتيون كثيراً من المصاعب فيما يتعلق بكاتب الرسالة. ولا مجال لنا للخوض في ذلك لأن المساحة المخصصة لتغطية الحديث عن الرسل لا تكفي لذلك. من ناحيتي شخصياً، لا يساورني الشك في أن جو الرسالة مشبع بأفكار بولس حتى وإن كتبت بيد كاتب مجهول. وما يلفت نظرنا بشدة في هذه الرسالة الطريقة التي تكرم بها الرب يسوع المسيح وتمجده! فهذه الرسالة من أعظم أسفار الكتاب المقدس في هذا الصدد. ومن بين الألقاب العديدة التي تطلق عليه، والتي يدعونا الكاتب للتأمل فيها هذا اللقب «رسول اعترافنا ورئيس كهنته» (١:٣)، ونحن نتخذ من هذا العدد حجة لإدراج يسوع بين الرسل المذكورين في العهد الجديد.

وهذه هي المناسبة الوحيدة التي يطلق عليه فيها لقب رسول، مع أن المعنى الأصلي للفظ يطلق عليه كثيراً. فكما ذكرنا سابقاً فالرسول هو الشخص الذي يذهب إلى مكان قد حدده الراسل، وقد جاء يسوع إلى الأرض كالشخص المرسل من قبل الآب (يو ٣:١٧، ١٨، ٢٠:٢١). و«كالمرسل» ففي ذلك إشارة لإرساليته من الله إلى البشر، كابن الله. في العديد من الفقرات، يصف يسوع نفسه كالمرسل من الله مستخدماً نفس الكلمة المشتقة منها كلمة رسول (يو ١٧:٣، ٣٦:٥، إلخ). هناك القليل من الاختلافات بين الرسول والنبي – فالأول يبرز الرسالة، ويبرز الثاني الدور والمركز. وكل منهما يقدم فكرة مكملة لتلك المتضمنة في اللقب الآخر، المذكور في العدد، رئيس كهنة. وكما عبر بنجل المفسر المشهور عن ذلك بالقول «إن يسوع كرسول يدافع عن المطاليب الإلهية ويعلنها لنا، وكرئيس كهنة يدافع عنا أمام الله». وربما يحتوي هذان اللفظان على إشارة للمهمة الخاصة لموسى وكهنوت هرون، وإيماننا المسيحي يتجه لوسيط واحد (عب ٢:٣، ٦:٨، ٢٤:١٢، ١تي ٥:٢).

كان يسوع إذن هو الرسول الذي اختار الاثني عشر رسولاً، والذي جاء بكثيرين آخرين أطلق عليهم هذا اللقب في العهد الجديد، ليكونوا في خدمته. وبسبب كل ما كان يمثله هو نفسه كالمرسل من السماء، وكل ما أنجزه، استطاع أن يطلب ولاء الكثيرين الذين أرسلهم للكرازة

بالإنجيل، والتي جعلها متاحة بفضل موته وقيامته. كتب الشاعر اليوناني عن بطله المحبوب أخيل فقال «هو وحده الإنسان الحي، وكل الباقين ليسوا سوى ظلال». وجميع الرسل الذين صورناهم ما هم إلا ظلال لذاك الذي جاء «كالرسول ورئيس الكهنة» ولأنه كان يسر بإتمام إرادة الآب الذي أرسله إلى العالم ليموت من أجل خطيته (يو ٣:١٦)، فقد اعتبر يسوع تلاميذه أنهم المرسلون من قبله. لقد كانوا عطية أبيه له كالرسول الكامل، وقد حفظهم كحدقة عينه.

لقد تأملنا من قبل كيف بذل جهداً دؤوباً ليشكلهم ويدربهم كرسل حقيقيين، وقد نتج عن حبه لهم تعامله معهم بصبر ورفق وهوادة مما جذبهم إلى تعليمه وحبهم في التعامل معه. كم من مرة كان يصلي لأجلهم بحرارة دموعه كانت تنزل كقطرات دم! وعندما ضل واحد من رسله، وهو يهوذا، شعر بتمزق في أوتار قلبه. كم من مرة بذل جهداً ليجمع رسله تحت جناحيه للحماية كالأم الحنون، وكم من مرة غفر خطاياهم وشجع كل محاولاتهم المخلصة. لقد أحزنوه كثيراً، ولكنه لم يخبرهم بما سببوه له من إساءة، ولكنه رد على إساءاتهم بنفس الأسلوب الطيب في المعاملة التي تظهر الشفقة اللامتناهية والثقة الكاملة. كان يكرر دروسه بلا كلل، حتى يأتي التعليم بالثمار المرجوة رويدا رويداً.

وأخيراً، فالمرسل من الله، سيطر بالمحبة على قلوب أولئك الذين اختارهم وأرسلهم، وقد أصبحوا كأوان نافعة لخدمة السيد. لم يجد الرسل الاثنا عشر في المسيح فقط هدفا مشتركاً يتجهون إليه كلهم، ولكنهم وجدوا فيه أيضاً ما يجمع شملهم سوياً. وكلما حاولت جماعة من البشر أن يصلوا إلى هدف في مركز دائرة، ازداد اقتراب كل منهم من الآخر. هكذا كان الحال مع تلاميذ المسيح الأوائل، الذين كان، معظمهم، غرباء عن بعضهم البعض حتى «خلبهم صوته الإلهي» فنهضوا وتبعوه. وعلى مر العصور فإن رسول السماء[١] قد حاز الإعجاب وكسب حب أعداء لا حصر لها من البشر وجذبهم إلى نفسه بروابط المحبة الأقوى من الفولاذ. وعلى الرغم أنه لا يوجد لدينا دليل على أن نابليون بونابرت، الإمبراطور الفرنسي وواحد من أعظم العباقرة العسكريين لجميع العصور، كان مؤمناً مولوداً ثانية، إلا أن الشهادة التالية الذائعة الصيت عنه، تعبر عن مكر ثاقب ورأي سديد في دراسة شخصيته ورسالة يسوع، المرسل من الله: «أرى في القادة الدينيين مجرد مشرعين، والذين لكونهم على رأس الدولة، كانوا يبحثون عن أفضل الحلول للمشكلات الاجتماعية، ولكني لا أرى شيئاً يظهر أنهم آلهة. على النقيض من ذلك هناك العديد من أوجه الشبه بينهم وبيني، والكثير من العثرات والأخطاء التي تشدهم إليَّ وإلى البشرية.

كل شيء في المسيح يدهشني، فروحه تشيع فيّ الرهبة، وإرادته تحيرني، ليس هناك بينه وبين القادة الدينيين الآخرين في العالم أي وجه للمقارنة، فهو فريد حقاً في ذاته... فالحقائق التي أعلنها، وطريقته في الإقناع، لا تفسير لها سواء عن طريق أي مؤسسة بشرية أو بطبيعة الأشياء.

إن ميلاده وتاريخ حياته، وعمق تعاليمه التي تتعامل مع أعقد المشكلات، والتي تعد أفضل الحلول الرائعة لتلك المشكلات، وإنجيله... امبراطوريته ومسيرته عبر العصور.. يعد بالنسبة لي معجزة، لغز لا يحل، يدفعني لتقديم احترام لا أستطيع أن أتهرب منه... سر لا أستطيع إنكاره أو تفسيره، لا أرى هنا شيئاً بشرياً.

ديانته إعلان من عقل ليس بشرياً بكل تأكيد. هناك أصالة عميقة، خلقت سلسلة من الكلمات والحكم التي لم تكن معروفة من قبل. لم يستعر يسوع شيئاً من علومنا، لا

يمكن للمرء أن يجد حياة كحياته في أي مكان، ولا توجد مثل هذه الحياة سوى فيه...

أعرف البشر، وأقول لكم إن يسوع ليس بشراً. العقول السطحية تجد تشابهاً بين المسيح ومؤسسي الإمبراطوريات وآلهة الديانات الأخرى، ولكن توجد فجوة شاسعة بين المسيحية وأي ديانات أخرى لا نهائية... أبحث في التاريخ عبثاً لكي أجد مثيلاً ليسوع المسيح.

منذ عدة سنوات مضت أعادت النيويورك تايمز طبع الملحوظة التالية بقلم الأسقف فيلبس بروكس، الواعظ الشهير في القرن الثامن عشر، وها نحن نوردها هنا كمرجع:

«ها هنا رجل ولد في قرية مغمورة، ابناً لامرأة فلاحة، ونشأ في قرية مغمورة، عمل في دكان نجار حتى بلغ الثلاثين من العمر، وظل يعمل معلماً متجولاً لمدة ثلاث سنوات. لم يكتب كتاباً، ولم يشغل منصباً، لم يمتلك بيتاً، ولم يذهب إلى كلية. لم يسافر أبداً أكثر من ٢٠٠ ميل عن المكان الذي ولد فيه. لم يفعل أبداً أي شيء من الأشياء المصاحبة للعظمة عادة، لم يكن لديه أي أوراق اعتماد سوى ذاته. لم تكن لديه أي علاقة بهذا العالم سوى قوة ناسوته الإلهي. وبينما كان لا يزال في شرخ الشباب، واجه تياراً من الرأي العام ضده، هرب أصدقاؤه بعيداً، واحد منهم انكره سلّم لأعدائه. تعرض لمحاكمة هزلية. سمر على صليب بين لصين. اقترع جلادوه على الشيء الوحيد الذي كان يملكه على الأرض أثناء موته – ثوبه – وعندما مات أخذ ووضع في قبر مستعار من خلال تدخل أحد الأصدقاء.

١٩ قرناً أتت ومضت واليوم فهو حجر الزاوية للجنس البشري وقائد لواء التقدم.

إني أصيب كبد الحقيقة حين أقول أن كل الجيوش التي زحفت، وكل الأساطيل التي بنيت، وكل البرلمانات التي انعقدت، وكل الملوك الذين حكموا، كل هؤلاء جميعاً، لم يؤثروا على حياة الإنسان على هذه الأرض بقوة كما فعلت حياة ذلك الشخص الفريد».

لأن «رسول اعترافنا ورئيس كهنته» هو هو أمساً واليوم (عب ١٣:٨)، فإنه مازال يدعو الكثيرين ليتبعوه. هناك كلمة تتكرر كثيراً، توحي بعمل ذي مغزى كبير، وهي الكلمة «ابتدأ» فيسوع «ابتدأ يرسلهم» (تلاميذه) (مر ٦:٧).

«جميع ما ابتدأ يسوع يفعله ويعلم به» (أع ١:١). ما بدأه لم يكمله بعد «ابتدأ يرسلهم. وهو ما زال يدعو ويرسل عمالاً إلى الكرم، وسوف لا ينهي هذا العمل إلا عندما تكتمل كنيسته، «ما ابتدأ يسوع يفعله ويعلم به». وشكراً له، مازال يكمل هذه الخدمة المباركة في شرح وتفسير الأشياء المتعلقة بنفسه للقلوب المخلصة والمحبة. ياليت المزيد من الجماهير يستجيبون لدعوته ويكونون على استعداد لأن يرسلهم إلى العالم أجمع ليكرزوا، ويعلموا، ويعيشوا وفقاً لإنجيله!.

رابعاً: التقليد والأساطير الخاصة بأعمال الرسل وموتهم

لا نملك سوى الشعور بحب استطلاع مشروع تجاه أعمال ونهايات العديد من الرسل الذين أحدثوا مثل هذا التأثير على العالم في أيامهم وجيلهم. وما حدث لأغلبيتهم خلاف ما ورد في قصتهم في السجل المقدس مفقود بالنسبة لنا، باستثناء ما يمكن أن نستجمعه عنهم من بعض التقليد الغامضة والكثيرة الظلال والأساطير. لا شيء يمكن أن يُبنى على الأساطير والقصص الخيالية، لأن الحقيقة تبقى أنه ليس لدينا دليل حقيقي فيما يتعلق بالمكان أو طول المدة التي حمل فيها أغلبية الرسل شهادتهم للمسيح وقاموا بأداء خدمتهم التي كلفوا بها وماتوا موتاً مأساوياً، أو طبيعياً. يمكننا أن نعرف من التاريخ الكنسي أن معظمهم ختموا شهادتهم بدمائهم، وهم يتحملون بشرف تجاربهم المريرة والأحداث الأليمة التي أدت إلى استشهادهم.

ومن الطبيعي تماماً بالنسبة للكنيسة المسيحية الأولى أن تعرف المزيد من المعلومات عن التاريخ والأعمال اللاحقة لجميع الرسل بأكثر مما يخبرنا عنه العهد الجديد. ونتيجة لذلك فقد استحدثت مكتبة تحتوي قدراً كبيراً من المادة الأبوكريفية التي شوهتها العديد من التناقضات الذاتية والسجلات التي تحمل معجزات عديمة الفائدة وغير قابلة للتصديق. واحد من أوائل هذه الكتب الأبوكريفية كتب بقلم ليوكيوس. وقد ظهر في القرن الثاني، وحاول أن يملأ الفراغ الذي تركته السجلات الموحي بها. بذل الكاتب جهداً كبيراً لرسم خريطة للأجزاء المختلفة من العالم والتي فيها، قام العديد من الرسل بأعمالهم وكيف ختموا مسار رحلتهم الأرضية. وبذل يوهان البرت فابريكيوس من هامبورج مجهوداً للبحث عن الحقيقة كالحبوب وسط أكوام المعلومات الأسطورية. وفي سنة ١٨٦٤ نقب الفريد ڤون جوتشميد Alfred Van Gutschmid ، وفيما بعد تشندورف Tis-chendrof، وليبسيوس Lipsius، نقبوا جميعاً في أقدم المصادر الأبوكريفية لأعمال أو رحلات أو عظات رسل معينين. ومن هؤلاء الكُتَّاب المتأخرين تم العثور على مجموعات من الأقوال العامة مستخلصة من عملين يتم تدوينهما في القرنين الخامس والسادس، حاول جوتشميد أن يبين أن هناك عناصر تاريخية يمكن التحقق من صحتها من قبل مصادر مستقلة، وبذلك نحصل على مفتاح لمجال العمل الذي قام به بعض الرسل الذين يعد تاريخهم اللاحق غامضاً. وقد تم التأكيد على أنه: مهما كان التقليد حافظاً غير أمين وغير مؤكد للشخصيات والأحداث، إلا أنه نادراً ما يكون من صنع الخيال. ولذا، فمع أن مجمل الوثائق التقليدية التي تدعي أنها أعمال أو أناجيل الرسل وكتبت كلها بعد القرن الأول بمدة طويلة، إلا أنه من الممكن بشيء من الصبر والبديهة أن نستخلص من هذه القصص القديمة بعض الإحساس المنعش والمبهج بالحق الأصيل. إن أساطير وأوصاف الأعمال الرسولية التي ترقد خامدة في التقليد المذهبي أو التي تخرج على شكل شظايا غريبة، تمتاز بالتشويق عندما تستخدم كمتابعة لمعرفة نقية وبسيطة عن الرسل كما وردت في العهد الجديد.

قال يوسابيوس، مؤرخ الكنيسة في حوالي القرن الثالث، إن «رسل وتلاميذ المخلص الذين كانوا يجولون في كل أنحاء العالم، بشروا بالإنجيل في كل مكان». وقائمة الدول الممثلة في يوم الخمسين يجب أن تكون ماثلة في

الأذهان في السجل التقليدي لتاريخ ما بعد العهد الجديد، فالدول المذكورة تغطي على نطاق واسع المنطقة التي يشغلها الشتات اليهودي، ولذلك فهي المنطقة التي ركز عليها الرسل جهودهم أولاً، والوصف الذي يذكره لوقا دقيق: «فريتون وماديون وعيلاميون والساكنون ما بين النهرين واليهودية وكبدوكية وبنتس وأسيا وفريجية وبمفيلية ومصر ونواحي ليبية التي نحو القيروان والرومانيون المستوطنون يهود ودخلاء» (أعمال ٢:٩،١٠).

عند الكتابة عن «ما الذي آل إليه الرسل؟» يبدي روبرت إليس تومسون هذه الملحوظة: «إن عدم ذكر كل أوروبا ما عدا روما، وكل إفريقيا ماعدا مصر والقيروان، أمر لافت للنظر. نحن نعرف، من سفر الأعمال، عن اليهود في مدن مكدونية، وصقلية وأخائية (اليونان). ولكن هؤلاء لم يذكروا، من المرجح لأنهم كانوا يحتلون مكاناً أقل أهمية كثيراً في الشتات عن المنطقة الآسيوية، والتي كانت مقسمة بين امبراطورية الفريسيين والإمبراطورية الرومانية. ويذكر بطرس أيضاً المناطق الآسيوية في الشتات: «بنتس وغلاطية وكبدوكية وأسيا وبيثينية» (١بط ١:١). لقد كان انتشار اليهود في الاتجاه الآسيوي، سبباً في توسيع إدراكهم التاريخي وجعلهم قوة دينية كبرى.

أندراوس

يحكي التقليد عن الأنشطة المضنية التي لا تهدأ لأندراوس كما يحوي سجلاً حافلاً بقصص شفاء الأمراض، والشفاء من مرض الخطية بل وقهر الموت، إلى حد إقامة ٢٩ بحاراً ميتاً تحطمت بهم السفينة ووصلوا إلى الشاطيء بفعل الأمواج. تصوره الأعمال المعجزية كساحر يجري أشياء عظيمة بأبسط الكلمات. ويقول التقليد المبكر إنه ذهب إلى بلاد تأكل لحوم البشر، وأقام على الساحل الجنوبي للبحر الأسود، الذي كان مأهولاً بالقراصنة. وهو يبرز أيضاً كمرسل إلى روسيا، وكالقديس الحامي لاسكتلندا! والكنيسة في بيزنطة، القسطنطينية، تقول إن أندراوس هو مؤسسها وهناك رواية من القرن الرابع تحكي عن موته بالصلب في سنة ٦٠ تحت حكم ايجيتس Ae-geates.

يمكن إيجاز قصة استشهاده هكذا: تجددت زوجة الحاكم بفضل كرازة أندراوس، ولما أعماه الغضب والحقد، بعد أن بذل كل ما في وسعه لإبعاد زوجته عن الدين الجديد دون جدوى، أمر الحاكم أن يصلب الرسول بقسوة على صليب على شكل حرف «X» حيث علق حياً لمدة يومين يعظ الناس وهو في أشد أنواع الألم لكي يثبتوا في الحق ويكونون أمناء له، يستدعي فلاميون هذه الفقرة من آخر حديث لأندراوس:

«أيها الرجال الحاضرون هنا والنساء والأطفال، الكبار والصغار، العبيد والأحرار، وكل من يسمعني، لا تلتفتوا إلى الخداع الباطل لهذه الحياة الحاضرة، بل تستمعوا لي أنا المعلق هنا لأجل الرب، وعلى وشك أن أترك هذا الجسد. أناشدكم أن تنبذوا كل شهوات هذا العالم، وتحتقروا عبادة الأصنام اللعينة، وأن تلجأوا إلى العبادة الحقيقية لإلهنا الذي لا يكذب، واجعلوا نفوسكم هيكلاً نقياً على استعداد لقبول الكلمة وأسرعوا لكي تلحقوا بروحي وهي تسرع نحو السماويات. وباختصار احتقروا كل الأشياء الوقتية ولتكن أفكاركم ثابتة غير متزعزعة في الإيمان بالمسيح».

ثم يمضي التقليد ليقول إن القنصل، شعر برهبة بالغة وخوف شديد من شغب الجماهير وعنف المشهد، فحاول أن يحل قيود أندراوس التي تقيده بالصليب، ولكن أندراوس لم يسمح له بإنزاله، وصاح قائلاً: «يايسوع المسيح، لا تدع عدوك يحل ذلك المعلق المستند على نعمتك، أيها الآب، لا

تدع هذا الشخص التافة أن يذل من أدرك عظمتك مرة أخرى. وأسلم الشهيد الروح وبكى جميع الحاضرين وحزنوا لأجل موته.

يقول جيروم إن بقايا أندراوس أخذت من باتراس إلى القسطنطينية بأمر الإمبراطور قسطنطين في سنة ٣٥٧م. ومن هناك أخذ الجسد إلى أمالفي، بإيطاليا في سنة ١٢٠٨، وفي القرن الخامس أخذت رأس أندراوس إلى روما، وأعيدت على يد البابا بولس السادس في سنة ١٩٦٤ إلى الكنيسة اليونانية الارثوذكسية في باتراس.

وهناك أيضاً صلة أندراوس بإسكتلندا. يقول التقليد إن بعض بقاياه أحضرت إلى ذلك البلد في القرن الثامن، وإن انتصار «البكتس» في المعركة واعتناقهم المسيحية قد نسب إلى بقايا القديس أندراوس. أصبح الرسول هو القديس الراعي لإسكتلندا بصليبه الذي يزين علمها القومي. جعل موريللو، الفنان الشهير، منظر استشهاد أندراوس موضوعاً لواحدة من أجمل لوحاته. وكممثلين لأقدم السكيثيين، يعترف الروس الأوائل بأندراوس كراعيهم. وقد استخدموا العلم ولكن بألوان معكوسة، أي الصليب الأزرق على أرضية بيضاء. وهناك اسطورة من القرن الخامس عشر أن الصليب الذي صلب عليه أندراوس أحضر إلى مارسيليا في القرن الأول بواسطة إيستين، ملك برغنديا، الذي جعله شعاره في المعركة. كان هذا الصليب البرغندي أحمر اللون. ولكن على الرغم من الألوان العديدة المستخدمة في وصف صليب أندراوس، فهو رمز دائم يدعو الناس لوضع ثقتهم في قوة تفوق قوتهم الأرضية.

أما عن أندراوس نفسه، فمع أنه لم يكن شخصية بارزة في تاريخ العهد الجديد، إلا أن التقليد والأسطورة جعلته شخصية مسيطرة حقاً لكونه أول رسول كارز بالإنجيل أعلن عنه المعلم. يمتدح أحد المسيحيين القدامى شخصية أندراوس بهذا النمط الفريد:

القديس أندراوس هو البكر في الجوقة الرسولية، العمود الرئيسي والأول للكنيسة، صخرة قبل الصخرة، أساس لذلك الأساس، الباكورة الأولى للبداية، الداعي للآخرين قبل أن يدعي هو نفسه: بشر بالإنجيل الذي لم يكن أحد قد آمن به بعد، وأظهر تلك الحياة لأخيه وأعلمه بها، والتي لم يكن قد عرفها تماماً هو نفسه... كيف أصبحت نبياً؟ من أين جاءتك تلك المهارة السماوية؟ كيف كان وقع كلماتك على أذن بطرس – لقد وجدنا المسيا؟

وجدناه، ذاك الذي فقده آدم، والذي أساءت إليه حواء، والذي حجبته عنا سحب الخطية، والذي جعلته معاصينا غريباً عنا.

برثولماوس

كما أشرنا من قبل في تغطيتنا لهذا الرسول، فهو أيضاً نثنائيل الذي قابله المسيح تحت شجرة التين. يذكر يوسابيوس في كتابه «تاريخ الكنيسة» أنه عندما زار بانتانيوس الأسكندري، الفيلسوف الشهير بحكمته، الهند في القرن الثاني وجد هناك نسخة عبرية لإنجيل متى، كان قد تركها برثولماوس الذي كان قد كرز بالإنجيل من خلال كوش الآسيوية. يقال أيضاً إن هذا الرسول قد خدم في فريتا، وليكأونية وأرمينيا الكبرى. ويقال عنه في التقليد إنه صلب ورأسه إلى أسفل، أو تم سلخ جلده حتى الموت في البانوبوليس أو أربانوبوليس في أرمينيا بناء على أمر الملك استياجيس بعد تجديد الملك بوليميوس. ويقال إن بقاياه قد نقلت في النهاية إلى الكنيسة الرومانية للقديس برثولماوس في جزيرة في نهر التيبر. ويحتفل بعيد في ذكراه في ٢٤ أغسطس من كل عام، وفي الكنيسة اليونانية في ١١ يونيو. تم تزوير إنجيل غير جدير بالاحترام يحمل اسمه من قبل

هراطقة دنسوا ذكراه بعد موته. وقد وصف جيلاسيوس، أسقف روما، هذا الكتاب بأنه أبو كريفي وغير جدير بهذا الاسم والحماية التي يسبغها قديس مثل الرسول برثولماوس.

برنابا

مع أن الشواهد الكتابية لبرنابا تتوقف عند الانفصال المحزن عن بولس بعد مشاجرتهما بسبب يوحنا مرقس، وعودته لموطنه الأصلي في جزيرة قبرص، إلا أن هناك تقاليداً مختلفة بشأن المزيد من أعماله وموته. هناك كتاب أبو كريفي يدعي «رحلات واستشهاد برنابا»، قد ثبت أنه مزور منذ القرن الخامس. وهناك راهب قبرصي اسمه الاسكندر كتب أيضاً قصة رائعة عن الأعمال العظيمة للرسول. ويذكر تقليد الكنيسة بعد ذلك أن برنابا ذهب إلى الإسكندرية وينسب إليه «رسالة برنابا» المكونة من ٢١ أصحاحاً. وقد دافع عن صحتها عدد كبير من الكتاب الأوائل، ولكن يعتقد الآن أنها كتبت في القرن الثاني. رسم بعض الآباء الرسوليين صورة لبرنابا في روما حيث زعموا أنه كتب «الرسالة إلى العبرانيين». ولتأكيد الكنيسة في قبرص على استقلاليتها، وفيما بعد فحتى كنيسة ميلانو، أدعت أن الرسول برنابا هو الذي أسسها وقد أصبح أول أسقف لها. تؤكد بعض الأساطير الأولى أنه رجم حتى الموت من قِبل اليهود في سالونيكا. ومع ذلك فهناك. مصادر أخرى تقول إن برنابا، الرجل القبرصي، عاد إلى جزيرته التي أحبها كثيراً وبقي فيها حتى دفن هناك وحيثما دفن فنحن نلقي بأكاليل الغار مع الرجاء بأن ذكراه في العالم المسيحي سوف تبقى مصدر إلهام للكثيرين.

بطرس

بعد سجنه على يد هيرودس وإطلاق سراحه بمعجزة نقرأ أن بطرس «فرح وذهب إلى موضع آخر» (أع ١٢:١٧). وفيما بعد كانت الإشارة الوحيدة الأخرى له في سفر الأعمال في مجمع أورشليم (أع ١٥:٧-١١). ربما زار الكنيسة في كورنثوس، حيث كان فريقاً من الأعضاء يدينون له بالولاء (١كو ١:١٢). وعلى الرغم أن السجل المقدس يذكر العديد من الأماكن التي زارها بطرس وبشر فيها (أع ٩:٣٢، ٣٦، ١بط ١:١)، إلا أن التقليد يذكر مناطق أخرى زارها، مختتماً زياراته بروما حيث أصبح أول أسقف للكنيسة، وطبقاً للكنيسة الرومانية الكاثوليكية كان أول بابا لها.

تقول الأساطير أنه بمجرد أن وصل بطرس إلى روما التقى بسيمون الساحر المذكور في سفر أعمال الرسل، وبعد أن كشف بطرس النقاب عن الاعيبه وفضح أمره، هرب هذا المخادع إلى روما، حيث استطاع عن طريق حيله أن يكسب رضا الجمهور حتى أصبح في الحال مكرماً كإله. يخبرنا جوستن مارتر أن تمثالاً أقيم له يحمل هذه الكلمات: «إلى سيمون، الإله القدوس» يصف هيجيسيبوس الذي كتب في القرن الرابع، الصراع بين بطرس وسيمون الساحر، بسبب أحد أقرباء الإمبراطور الذي كان قد أقامه بطرس من الأموات، وكيف أن المحتال مات ميتة مأساوية. وبسبب ذلك، فإن الإمبراطور، الذي كان يعامل سيمون كالشخص المفضل لديه، ثار ثورة عارمة لدرجة أنه ألقى ببطرس في غياهب السجون.

هناك تأييد قوي لاستشهاد بطرس يتضح من الكلمات التي وجهها المسيح له. «متى شخت فإنك تمد يديك وآخر يمنطقك ويحملك حيث لا تشاء» (يو ٢١:١٨). وقد يكون هناك أيضاً إشارة لاستشهاده في نصيحة بطرس نفسه للشيوخ: «أنا الشيخ (رفيقكم) والشاهد لآلام المسيح وشريك المجد العتيد أن يعلن» (١بطر ٥:١). وسواء كان

بطرس في روما ومات ميتة شهيد هناك أم لا، فهذا سؤال ثار حوله جدال كثير. أكد اغناطيوس، في رسالته إلى أهل رومية، أن بطرس كان له مركز السلطة في كنيسة روما. والقوائم الأسقفية الرومانية تضع بطرس كأول أسقف للمدينة، قال مكاريوس من مفنيزيا إن بطرس صلب في روما بعد رعايته للقطيع بعدة شهور قليلة. ومن المرجح كثيراً أن يكون بطرس ذهب إلى روما واستشهد هناك أثناء الاضطهاد النيروني.

من وثائق أبو كريفية عديدة ترجع للقرن الثاني، ذُكر فيها اسم بطرس، نعرف أن «الكرازة» أو «الإنجيل» أو «الرؤيا» كانت موجودة على شكل أجزاء فقط. ويوجد أيضاً «أعمال بطرس» المتوافر حالياً في أجزاء باستثناء قصة استشهاده، التي تحتوي على التفاصيل بأن مدة أسقفيته دامت ٢٥ سنة. وأيضاً الأسطورة التي يذكرها أوريجانوس أيضاً بأن بطرس صلب منكس الرأس، فعندما أُحضر بطرس إلى الصليب طلب هذه الطلبة «لا تجعلوا رأسي إلى فوق: سيدي صُلب بتلك الطريقة! اصلبوني منكس الرأس. أنا أموت لأجل ربي: ولكني لست مستأهلاً أن أموت مثله» بهذه الطريقة استعاض عن ذكرى سقوطه وإنكاره لسيده.

ومن نفس هذا المصدر، لدينا قصة «كواڤاديس» إلى أين أنت ذاهب؟، التي تروي كيف أنه في وقت الاضطهاد، تم تحريض بطرس لكي ينقذ حياته بالهروب. وعندما نجح بطرس في الهروب من السجن في الليلة السابقة على اليوم المحدد لموته، شق طريقه من خلال الحارات المظلمة، ووصل إلى أبواب المدينة. وكان خارجاً على الطريق الأغناطي – حراً! ولكن بينما كان واقفاً هناك قابله شخص غريب، وقد شعر بطرس بطريقة ما أنه قد سبق له رؤية ملامحه من قبل، ثم أدرك أنه المعلم نفسه، فخر على ركبتيه وصاح قائلاً: Domine, Quo Vadis, Domine «يارب، يارب، إلى أين أنت ذاهب؟ «Quo Vadis?» فجاء الرد: كان عندي تلميذ مسجون هناك، وقد حكم عليه بالموت، وقد هرب وهو حر طليق الآن، وأنا ذاهب لأموت، للمرة الثانية لأجله» صاح بطرس «يارب، لا تذهب: سوف أعود: سأعود وأموت!» ثم عاد بطرس ليموت في اليوم التالي، ليس كبولس بسيف الجلاد، بل على صليب، حاملا عقوبة عبد، حيث أنه ليس مواطناً من الإمبراطورية الرومانية. ويقال إن كاهناً اسمه ماركيلينوس حُفظ جسده ودُفن في مونت فاتيكانوس، وهي تقع على الضفاف الغربية لنهر التيبر بالقرب من طريق النصر. قالت كنيسة روما مؤخراً إنها تعرفت على عظام بطرس مدفوناً في أحد القباء في الڤاتيكان.

هناك أسطورة أخرى تتعلق بزوجة بطرس التي قيل أنها ابنة أرسطوبولوس، وأنها استشهدت أولاً، وعندما اقتيدت إلى الأمام، ناداها بطرس باسمها وواساها بالكلمات «تذكري الرب»، وابتهج بشدة لأن العزيزة على قلبه دعيت لمثل هذا الشرف العظيم وأنها كانت في طريقها لترى الملك في بهائه.. كان هناك اتفاق بين الزوج والزوجة في تلك الأشياء التي كانت أعز شيء على قلبيهما، والآن فإن إخلاصهما المتبادل للمسيح كان يُرى في موتهما لأجله. وهذا يكشف كم كان قيمة عمل المرأة ضئيل للغاية في تلك الأيام حتى أننا لا نعرف شيئاً عن زوجة بطرس الشجاعة.

هذه هي إذن القصة التقليدية لبطرس، الصياد الكبير، الذي أصبح رسولاً غير جدير بالثقة عندما ترك ربه، ولكن يوم الخمسين جعله شاهداً شجاعاً، وفي النهاية شعر أنه لا شيء أثمن من أن يقدم لربه! «ماذا أهدى للرب من أجل كل حسناته لي؟ سوف أخذ الكأس» كأس الاستشهاد وسوف أشربه لأجله! قال أوريجانوس قولة حق عندما ذكر أن

«الذي لديه إيمان بطرس فقط هو صخرة الكنيسة. والذي لديه فضائل بطرس هو الذي يمسك بمفاتيح الملكوت».

بـــولـــس

كان بولس يتوقع نهاية رحلته الأرضية عندما قال: «في الميتات مراراً كثيرة» وعبارات مثل: «أكملت السعي»، و«لي اشتهاء أن أنطلق» و«الموت لي ربح» و«نحن الذين في هذه الخيمة نئن» كلها تدل على أن الرسول لم يكن واهماً فيما يتعلق بقرب موته واحتمال استشهاده. والرحلات التبشيرية الثلاث لبولس والمدن التي زارها وخدمته فيها مبينة لنا بوضوح في أعمال الرسل وفي الرسائل البولسية، ولكن فيما يتعلق بالدائرة الأوسع في أجزاء مختلفة من العالم، يقدم لنا التقليد المزيد من الخيال والقليل من الحقائق. يقدم لنا الكُتَّاب القدامي إذ يذكرون أنه «رسول الأمم»، دائرة أوسع من تلك المذكورة في العهد الجديد. يخبرنا تيودوريت وآخرون أن الرسول لم يبشر في أسبانيا فقط، ولكنه ذهب إلى أمم أخرى وقدم الإنجيل للجزر في البحر، يعني بريطانيا.

في سنة ٤٣٥ م كتب تيودوريت:

بعد أن تحرر بولس من سجنه الأول في روما، كرز بالإنجيل إلى البريطانيين وآخرين في الغرب، لم يحث صيادي السمك والعشارين الرومان فقط والأجناس المتفرعة منهم على الاعتراف بالمصلوب، وبوصاياه، بل حثوا البريطانيين أيضاً والكمبريين».

ويتحدث ڤنانتوس فورتونانتوس في «ترانيمه المسيحية» سنة ٥٩٦م أيضاً عن بريطانيا وأن بولس كرز بالإنجيل فيها. وهناك أيضاً تأكيد مثير آخر من قبل بيد Bede المبجل، المؤرخ الشهير لتاريخ الأنجلو ساكسون، والذي أعلن أنه بناء على توسل الملك أوزوري Oswry إلى البابا فيتاليان، ثم نقل رفات بطرس، وبولس وأربعة شهداء من روما إلى انجلترا، حيث وضعت في كنيسة كانتربري سنة ٦٥٦م. سواء زار بولس بريطانيا فعلاً ودفنت رفاته هناك أم لا فهذا مجرد تخمين. ما هو مؤكد أن الطريقة التي بشر بها بولس بالإنجيل غيرت حياة أعداد لا حصر لها من الجنود الرومان الذين قاموا بدورهم بتوصيل رسالته إلى بريطانيا القديمة وقد حثوا الغاليين والبريطانيين على الإيمان بالحقائق المخلصة للنفس التي أعلنها بولس بطريقة مقنعة.

إن أعظم كاتدرائية في لندن تدعي بحق «كاتدرائية القديس بولس» والحب الذي يكنه اللندنيون لهذا الاسم يتضح من المبالغ الضخمة من المال التي خصصت لإصلاح تلك الكاتدرائية وإعادتها إلى ما كانت عليه من وقت إلى آخر.

وعلى الرغم أننا لا نعرف كل جولات بولس، إلا أننا متأكدون بأن الرسول مات في روما تقريباً في صيف سنة ٦٨م، والتقليد واضح أن رأسه قد قطعت في أثناء حكم نيرون، وأن نيرون نفسه مات في يونيو من نفس السنة، لاشك أنه لا يوجد في كل التاريخ تناقض صارخ أشد مما يوجد بين بولس، البريء المدان، ونيرون، الحاكم الذي كانت شخصيته موسومة بأقسى أنواع الجرائم التي لا يمكن التعبير عن فظاعتها. كان نيرون يكتسي بثوب امبراطوري أرجواني، وكملك على كل العالم المعروف وقتئذ وكصاحب سلطة غير محدودة، كان البخور يقدم له فوق ألف مذبح.

أما بولس المسن والذي أدانه نيرون فقد كان مقيداً، ومرتدياً الأسمال البالية، ومحتقراً وربما لا يعد من الأهمية بمكان حتى يأتون به إلى المحضر المهيب للإمبراطور. وأخيراً تم اقتياده إلى خارج المدينة إلى ساحة الاستشهاد دون تسجيل لما حدث، ومع ذلك فهذا المجرم المسكين كان هو

الرجل الذي كرمه الرب أكثر من الآخر. عند تجديده سأل: «يارب ماذا تريد أن أفعل؟». كلف بمهمة إعلان الإنجيل إلى كل العالم، وبإخلاص منقطع النظير وبقلب فرح حسب كل خسارة مكسباً، عندما «امتد إلى ما هو قدام» حيث سعي نحو الغرض لأجل جعالة دعوة الله العليا في المسيح يسوع».

أما عن أيام بولس الأخيرة، فالتقليد يقول إنه بعد الانتظار في الزنزانة الباردة في سجن ما مرتين لتقديمه إلى المحاكمة الثانية، حيث تعود محاكمته الأولى إلى ختام سنة ٦٠م، فقد أخرج من السجن في وقت كان نيرون فيه ينفث غضباً ضد المسيحيين. وحكم على بولس بالموت، ولم يكن له سوى امتياز الموت كمواطن روماني، ليس بالصلب بل بسيف الجلاد. كان هذا حوالي نهاية سنة ٦٦م عندما كان الرسول يبلغ من العمر حوالي ٦٣سنة.

في ضواحي روما، على بعد حوالي ٣ أميال إلى الجنوب الغربي من المدينة، توجد كنيسة، أعيد بناؤها بعد حريق، وهي كنيسة جميلة وفسيحة، تدعى كنيسة القديس بولس خارج الأسوار، ويوجد داخل سور الكنيسة ثلاث كنائس صغيرة، تحتوي إحداها في ساحتها على ثلاث نافورات من الماء الحي، النابع من باطن الأرض. وهناك تقليد قديم يقول إنه في تلك البقعة عينها تم تنفيذ حكم الإعدام في الرسول العظيم، وأن هذه النافورات الثلاث تمثل ثلاث نقاط لمس فيها رأس الرسول المهيب الأرض، كم كانت تلك لحظة مظلمة تزخر بالألم والصدمة عندما هوت الفأس على رأس الرسول، ولكن كم كانت اللحظة التالية مليئة بالضياء والفرح عندما رأى الوجه المشرق وسمع الصوت الرقيق ليسوع الناصري! فقط كانت الحياة بالنسبة له هي المسيح، والموت ربح، لأن الموت كان يعني أن يكون مع المسيح، وهذا أفضل بكثير.

تداوس

أشرنا من قبل أن هذا هو الرسول الذي له ثلاثة أسماء، لباوس، وتداوس، ويهوذا (ليس الإسخريوطي). تقول الأسطورة إنه وجد حقل خدمته في مملكة أوسروين السريانية وعاصمتها إديسة، حيث كان ملكها إدجار يعاني من مرض غير قابل للشفاء وكان يتلهف على الشفاء من مرضه. امتد حكمه من ١٥ ق.م – ٥٠م، وبذلك كان ملكاً على أديسة في وقت خدمة ربنا. بعد أن سمع الملك عن الرب كالمخلص والمدبر لأمور البشر، قرر إدجار أن يكتب له ويطلب منه أن يزوره، أرسل تداوس باسم المسيح، وشفى الملك من مرضه وشفى أيضاً متألمين آخرين كثيرين في المدينة من أمراضهم المختلفة. وكنتيجة لذلك اعتنق الملك المسيحية، وآمن أيضاً عدد كبير من رعاياه، وأصبحت إديسة أول دولة مسيحية.

بعد موت إدجار قسمت مملكة أرمينيا بين ابنه، أنانون، وابن أخيه، ساناتروك. تجدد الأخير الذي حكم في أرمينيا ولكنه ارتد، بسبب الخوف من الولاة الأرمينيين. أخذ تداوس ورفقاؤه المسيحيون أسرى واستشهدوا في منطقة سكافارسكار، وقد ارتبطت بهم العديد من الذكريات والخدمات.

توما

ترتبط بهذا الرسول قصص أسطورية أكمل من القصص المرتبطة بمعظم الرسل الآخرين. وبالرغم من أن هذه القصص ممتزجة بالخوارق إلى درجة مفرطة، إلا أن هناك عناصر تاريخية يسهل اكتشافها في القصص المرتبطة بتوما. فقد ذهب ليعمل في إمبراطورية الفرس، على الحدود بين فارس والهند، في وقت بدأ فيه البوذيون في الهند يواجهون بكفاءة مع الزرادشتيين في شرق

فارس. وكان الفارسيون يثأرون لأنفسهم بغزو الإقليم الهندي المدعو الهند البيضاء وأركوزيا. يقول التقليد إن المخلص ظهر لتوما في رؤيا الليل وقال له «لا تخف يا توما، اذهب إلى الهند وبشر بالكلمة هناك، لأن نعمتي معك» عمل توما أجيراً كعبد لتاجر هندي وأبحر معه ودخل في خدمة ملك الهنود، الذي يدعي جندوفارس، الذي توجد صورته على العملات القديمة، والذي يذكر كثيراً في الأساطير التي تحمل اسم توما.

ونعرف من التقليد أن توما كان الواسطة في تجديد «ملوك الشرق الثلاثة» الذين أتوا ليقدموا هداياهم وعبادتهم للطفل المخلص. أما عن موته، فإن حياة توما انتهت على الساحل الهندي بالقرب من بومباي، حيث استشهد عن طريق رمح أغمد في جسده، بينما كان راكعاً ليصلي، وقد أقيم نصب تذكاري لاستشهاده في هذه البقعة ظل لمدة طويلة. يزعم المسيحيون السوريون الذين استقروا على هذا الساحل قبل عدة قرون من وصول المستكشفين الأوروبين إلى الهند، أن توما هو المؤسس لكنيستهم. استطاع إيمانويل فريا، حاكم ساحل كوروماندل، بعد جهد مضن وحذر شديد أن يزيل رفات توما جنباً إلى جنب مع عظام الملك ساجامون الذي كان توما سبباً في تجديده، ويدخلها إلى الكنيسة المقامة تخليداً لذكراه. (انظر مقالات عن توما وانجيل توما في قاموس الكتاب المقدس المصور لدار نشر زوندرفان أو قاموس آخر للكتاب المقدس أو دائرة المعارف).

سمعان الغيور

هناك قصة أو قصتان شيقتان فيما يتعلق بهذا الرسول الذي يشتهر بغيرته وحماسته المشتعلة، والذي تعلم من الغيرة الأكثر نقاء والأعمق والأقوى للمعلم الذي تبعه. إحدى القصص تقول إن حقل نشاطه كان في امبراطورية فارس والتي كان يحكمها في ذلك الوقت أخان، فاردانا الذي كان يحكم في بابل ونيرسه في فارس. بدأ سمعان أعماله في الجنوب في بابل، ثم انتقل شمالاً عبر الإمبراطورية، ولقي موتاً أليماً في كولشس في أقصى الشمال.

ولكن يوسابيوس ذكر في «تاريخ الكنيسة» سمعان الغيور كواحد من الرسل الذين، «عبروا المحيط إلى الجزر البريطانية». فبعد أن كرز في مصر وإفريقيا، ذهب سمعان أخيراً إلى ما وراء البحر المتوسط، ونزل على الشاطيء الإنجليزي، وكانت روحه مليئة بالسلام تجاه المهمة التي كانت تنتظره وسط القبائل هناك. أما عن نهاية سمعان، طبقاً للمصادر الأبوكريفية «آلام سمعان ويهوذا» فبعد كرازته بالإنجيل في مصر، انضم سمعان إلى يهوذا، أو تداوس، في فارس حيث استشهد كلاهما. وقد نشر سمعان، كما حدث لبعض القديسين (عب ١١:٣٧)، ويعتبر ٢٨ أكتوبر عيداً للاحتفال بذكرى سمعان ويهوذا.

فيلبس

يمكننا أن نتخيل بسهولة أن الرسل كانوا بلاشك يرتحلون بعيداً لوحدهم إلى مسافات بعيدة ونادراً ما كانوا يذهبون أكثر من اثنين أو ثلاثة معاً، ولكن ما لا نستطيع أن نقبله هو الطريقة التي يتم بها محاولة تزيين خدماتهم الأسطورية بمعلومات وهمية وخيالات غريبة. إن فيلبس الرسول شأنه شأن كل الرسل الآخرين قد نال بركة خاصة في يوم الخمسين، ومضى قدماً للمشاركة في الشهادة للمسيح في مناطق مختلفة. يخبرنا التقليد أنه ذهب إلى فريجية مع رفيقه القديم برثولماوس أو نثنائيل وقد اصطحب أيضاً أخته المخلصة مارتمين، التي اشتهرت بتوزيع الطعام

على المحتاجين. ذهب هؤلاء الثلاثة إلى أسيا الصغرى، ثم إلى هيرابوليس، وهي مدينة وثنية تقدس أفعى ضخمة، ربما احتفالاً بجوبتر الذي كان يُعبد، على شكل تنين.

إن الأعمال الأسطورية لفيلبس ورفيقيه عديدة، هناك مغامرة تروى عن لقائهم بلبؤة وشبل يتحدثان بصوت بشري، وقد التقوا أيضاً بتنين مرعب، يزيد طوله عن مائة ذراع، وزواحف ضخمة أخرى. وقد قضى هؤلاء الثلاثة على هذه الحيوانات، بعد أن دخل هؤلاء الثلاثة كمرسلين إلى هيرا بوليس، كانوا سبباً في تجديد نكانورا، زوجة الوالي. تحكي السجلات الأبوكريفية عن الاضطهادات المريعة التي تعرضوا لها، والإنقاذ المعجزي، والاستشهاد النهائي لفيلبس والذي بسبب احتجاجه على وثنية المدينة مما جعل السكان في ثورة قاسية، فإنه قد صُلب في المدينة التي كانت أشر المدن الوثنية في الشرق الأدنى، وقد كانت المدينة مكرسة لعبادة الإلهة سيبيل والتي كانت طقوسها عبارة عن حفلات تتسم بالعربدة وتجمع ما بين القسوة والانغماس في الشهوات الحسية. يذكر أربعة من آباء الكنيسة الأوائل أن الرسول فيلبس عمل في فريجية، وقد كانت كولوسي مدينة فيها، وذكروا أنه مات مشنوقاً على عمود وأنه دفن في هيرابوليس.

أما عن الطريقة التي مات بها فعلاً، فهناك تقليد يقول إن فيلبس مات بأسباب طبيعية، وطبقاً لتقليد آخر فإنه مات مصلوباً، ومع ذلك فتقليد آخر يقول إن حكم الإعدام قد نفذ فيه. فعندما وبخ أهل فريجية لعبادتهم لذلك المخلوق القبيح ألا وهو الحية، تاب عدد كبير من عبادة الأوثان وأصبحوا مسيحيين. ولكن حكام المدينة قبضوا على الرسول وجلدوه بشدة وضربوه وألقوا به في السجن، وبعد ذلك أخرج من السجن، وتم شنقه من رقبته على عمود وفي أثناء تنفيذ حكم الإعدام في فيلبس تزلزت الأرض وعندما كان يبدو كما لو كان الحاضرون في خطر أن تبتلعهم الأرض أحياء، بكوا من أجل ما أنزل الله بهم من انتقام إلهي واضح بسبب وثنيتهم وتابوا، وفي الحال أغلقت الأرض. ويمضي التقليد فيقول إن برثولماوس أنزل جثتي فيلبس وماريمن، أخت فيلبس ودفنهما، وناشد الناس أن يظلوا أمناء للمسيح، ثم رحل عن المدينة.

كما سبق أن أشرنا في دراستنا لفيلبس الرسول، أنه لا يصح أن نخلط بينه وبين فيلبس الشماس الكارز، الذي، كان مع استفانوس، واحداً من الشمامسة الأصليين المختارين للعناية بشئون الاجتماعات. من المستحيل تماماً تتبع جولات التلاميذ الأقل شهرة بأي قدر من اليقين بعد ظهورهم في تاريخ العهد الجديد، ولكن الشيء المؤكد أن «المرسلين المسيحيين الأوائل في البلاد البعيدة كانوا وسط أعدائهم، وغموض موتهم أفضل تأكيد، لأمانتهم البطولية».

متياس

فيما يتعلق بمتياس الذي عين ليأخذ المكان الذي أخلاه يهوذا بين الرسل، لا تعرف شيئاً يصل إلى درجة اليقين، اللهم سوى ظهوره الوجيز والوحيد قبل يوم الخمسين. يشير أكليمندس الإسكندري إلى بعض «التقاليد» عن متياس، وأحداها تقول إنه هو زكا العشار. هناك قصة رومانسية تدعى «أعمال أندراوس ومتياس» مكتوبة باليونانية والسريانية وباللاتينية في بعض الأجزاء، ولكن أجزاء منها نادرة ومدونة في مصادر مشكوك في صحتها. وفي إحدى هذه المصادر نجد وصفاً لمغامرات متياس اللافتة للأنظار وسط آكلي لحوم البشر. ومن المفترض أنه عمل أولاً في اليهودية وأخيراً في كبدوكية، حيث رجم وقُطعت رأسه في حوالي ٦١ أو ٦٤م وسط مجتمع بربري وهمجي. ومن المصادر الأسطورية نستقي الانطباع العام

أن متياس ظل أميناً حتى الموت. ويقال إن جسده قد حُفظ لمدة طويلة في أورشليم، وقد نُقل من ذلك المكان كما يعتقد على يد هيلانة ، أم قسطنطين الكبير إلى روما، حيث عرضت بعض أجزائه في احتفالات مهيبة لمدة طويلة. ويقول آخرون إن بقاياه قد أحضرت إلى ترايرز في المانيا وحُفظت هناك مع إظهار قدر كبير من الولع بها. ومازالت الكنيسة اليونانية تحتفل بذكراه في التاسع من أغسطس ويحتفل في الكنيسة الغربية بعيد القديس متياس في ٢٤ فبراير من كل عام.

متى

عادة يفترض أن متى بشر بالإنجيل في اليهودية لمدة ٨ سنوات بعد صعود المسيح. وبخلاف ذلك ليس لدينا مستند موثوق به فيما يتعلق بالأماكن التي ذهب إليها أو كيفية موته. يتحدث سقراط المؤرخ الكنسي في القرن الرابع عن متى قائلاً إنه كرز في إثيوبيا وبلاد العرب. وتقول مصادر أخرى أنه عمل أولاً في المستعمرة السورية التي تأسست في بالميرا، أو تدمر، في البرية بين دمشق ونهر الفرات، وأنه ارتحل شرقاً إلى أهل مادي في كارنانيا. ومع ذلك فهناك تقليد آخر يقول إنه عمل مع أندراوس بين آكلي لحوم البشر على ساحل البحر الأسود. والحقيقة أن الخبر اليقين بشأن رحلاته لنشر العقيدة المسيحية لا يمكن التوصل إليه في زخم القصص التي تزخر بها الأساطير المختلفة.

قيل إن معجزات عديدة، قد أجريت على يد الرسول، كمعجزة العصا التي تلقاها من المسيح الذي ظهر له على شكل شاب جميل الطلعة، وأن متى وضع العصا في الأرض، وفي الحال نمت وأصبحت شجرة. أما عن موته، فإن كاتباً قديماً يؤكد أنه أُستشهد في إثيوبيا عن طريق قتله بالسيف. وقد سجل دوروثوسيوس قائلاً إن متى دُفن مُكرَّماً في هيرابوليس في فرتيا. من أوائل الأماكن التي بشر فيها بالإنجيل. أما عن مكان دفن جثته فذلك لا يعني شيئاً كثيراً بالنسبة لنا. والكنيسة سوف تذكر دائماً التغيير العظيم الذي أجراه المسيح في حياته، وكيف أصبح كاتباً لأول كتاب في العهد الجديد والذي قال عنه رينان الملحد الفرنسي الشهير «إنه أهم كتاب في المسيحية – أهم كتاب كتب على الإطلاق».

يعقوب أخو الرب

مع أن يعقوب هذا كان أخو – أو قريب – يسوع حسب الجسد، إلا أننا رأينا من قبل كيف أنه لم يضع تماماً كل ثقته فيه ولم يعلن كل ولائه له حتى اقتنع روحياً وحرفياً بقيامته. وفيما بعد، ظل يخدم دون كلل لما يقرب من ٣٠ سنة، حتى وقت استشهاده في سنة ٦٢م. عندما نتذكر السنوات الطويلة من الحماية والحفظ التي تمتع بها في قلب أورشليم خلال فترة مضطربة بسبب الفريسية، والتعصب، والقلاقل، نتساءل عن سبب عدم الحيلولة بينه وبين مثل هذا الموت القاسي والمريع الذي اختتم به حياته.

طبقاً لتقليد كنسي، لقِّب يعقوب بالعادل، وكان نذيراً لله من بطن أمه، فلم يشرب المسكر، ولم يأكل اللحوم، وكان يلبس الكتان. ويقال إنه كان دائماً يركع وهو ينصح الناس حتى أصاب (الكالو) ركبتيه مثل الجمل. وقد استشهد بقسوة على أيدي الكتبة والفريسيين. فبعد أن وجده أعداؤه في الجانب الجنوبي الشرقي من حائط الهيكل، حيث كان جناح الهيكل، ألقوا به أرضاً نحو الوادي (انظر مت ٤:٥، لو ٤:٩). وقد سقط بالقرب من ورشة عمل القصارين الذين كانوا يمارسون مهام حرفتهم، وعندما وجدوا أنه ما يزال على قيد الحياة، ضربوه حتى الموت بعصيهم. مقابل زاوية منطقة الهيكل. عبر وادي يهوشافاط يوجد ضريح يدعى

«قبر القديس يعقوب». ولا يستطيع أحد أن يؤكد إن كان ذلك هو آخر مستقر فعلي لبقايا أول راعي كنيسة في المسيحية أم لا. نترك التراب الأرضي ونتجه إلى رسالة يعقوب الرائعة الباقية والتي تظل دائماً دليلاً حياً على إيمان وشخصية وحكمة أخي ربنا.

يعقوب بن حلفي

تخبرنا المصادر الكنسية أو التقليدية عن القليل من الحقائق الموثقة عن يعقوب هذا، بعد صعود ربنا. ويلف قصته الكثير من الغموض بسبب الأساطير الإبيونية[1]، والتي ردد بعضها هيجيسيبوس ١٧٠م. تشير ميرتل سترود جاكسون إلى خريطة هولندية غريبة وقديمة جداً للبحر المتوسط تضعها في كتابها «حياة وأساطير الرسل». في الركن العلوي الأيمن نجد هذه الكلمات «تظهر هذه الخريطة كيف سمع صوت الرسل في كل أقليم». ومكتوب في الركن العلوي الأيسر: «هذه خريطة لمختلف أنواع الأقاليم المناخية طبقاً للاهوتيين، الذين وفقاً لطريقة طبيعية وملائمة، درسوا المنطقة التي يسكنها الإنسان»، بعد ذلك هناك معلومات حول هذه الخريطة القديمة تقول إن متى كان في إثيوبيا، وإن توما عمل في مكان ما من شرق آسيا حيث الناس صغار الجسم والحيوانات كبيرة الحجم».

وذكر أسفل الخريطة أن «كومبو ستيلا مدينة عظيمة، حيث يرقد جسد القديس يعقوب، وهي تبعد ١٤ ميلاً عن أقصى الأرض، و٧٠٠ ميل عن هامبورج، وتبعد نفس المسافة عن روما، في أقصى المناخ المعتدل طبقاً للخريطة» والمدينة هي سنتياجو دي كوموستيلا، في شمال غرب أسبانيا. وقد زعم ثيودوميس، أسقف إيريا في ٨٦٥ م، أن نجما قد أرشده إلى المكان الذي دفن فيه جسد يعقوب. ومنذ ذلك الحين تكرم سنتياجو حياة وأعمال يعقوب. تخلد الكنيسة الأرثوذكسية ذكرى ابن حلفي في التاسع من أكتوبر. ويؤكد بعض الكُتَّاب القدامى أنه قام بعمل عظيم في أسبانيا، وبأعمال أخرى في بريطانيا وأيرلندا حيث أسس المسيحية وعين نخبة قليلة من المسيحيين ليكملوا ما كان قد بدأه. ثم عاد إلى أورشليم، حيث احتل منصب البابوية على كل الكنيسة المسيحية، هناك أسطورة متأخرة عن استشهاده في إيران ليس لها سند يشهد بصحتها.

يعقوب بن زبدي

غيرة وحماس يعقوب، وتوبيخه الجسور لليهود، ودفاعه القوي عن الإيمان المسيحي، جعل يعقوب موضع غضب هيرودس أغريباس، الذي أمر بالقبض على الرسول والزج به في السجن. صدر عليه حكم بالموت وفي الطريق إلى موقع الاستشهاد، تأثر الضابط الذي كان يقوم بحراسته كثيراً بشجاعته الجسورة وثباته على المبدأ، حتى أنه تاب وسقط عند رجلي الرسول، وطلب منه العفو عن الدور الذي قام به في المعاملة القاسية التي تلقاها يعقوب. أقام الرسول الضابط، واحتضنه وقبله، قائلاً له: «السلام يا ابني، ليكن لك السلام، والعفو عن أخطائك» تغير الضابط في الحال، وأعلن خضوعه للمسيح علناً. وقطعت رأسه مع يعقوب.

اصطبغ يعقوب، أخو يوحنا، بسرعة بصبغة الموت التي أنبأه يسوع بها، وكان الرسول قد أعلن عن استعداده ليصطبغ بها، وبسبب يد هيرودس القاسية (أع ١٢:٢)، كان أول الاثنى عشر والذي حمل شهادته الدامية وعاد إلى محضر الرب الذي أحبه في السماء كان استفانوس

١. الإبيونية: طائفة مسيحية برزت في القرن الأول والثاني للميلاد وهي تتكون من اليهود الذين اعتنقوا المسيحية والذين اعتبروا ناموس موسى مازال ملزماً وقد حاولوا تهويد المسيحية (المترجم).

ويعقوب أول الشهداء الذين قدموا حياتهم للمسيح. ولكن على خلاف نهاية استفانوس، يسدل ستار الصمت على الساعات الأخيرة من حياة الرسول يعقوب، باستثناء التقليد القديم جداً عن الضابط، الذي حين نخسه ضميره تجدد في الحال، ومات مع الرسول.

يهوذا الإسخريوطي

ليس هناك ما يدعو لأن نطيل التأمل في النهاية المحزنة لهذا الرسول المخيب للآمال، حيث أن الكتاب المقدس يصف بالتفصيل فعلته الشنعاء وموته المأساوي. من المثير أن نلاحظ أن العبارة التي استخدمها بطرس فيما يتعلق بطبيعة موت الخائن تقول: «انسكبت إحشاؤه كلها» (أع ١:١٨) هي المرادف العبري للعبارة العصرية التي تقولها «كسر قلبه». كان هو الوحيد بين الرسل الذي مات منتحراً بهذه الطريقة، ومازال المسافرون ينظرون هذه الشجرة خارج أورشليم. إن وجود جثة معلقة هكذا هو منظر مثير للاشفاق والفكرة تقليدية لموت الخائن، والتي حتى وإن كانت مستحيلة في الواقع، إلا أنها معبرة حقاً عن اللعنة المرتبطة بالوادي». يشير جايدز إلى البقعة التقليدية «حقل دما» «حقل دم» الذي ظل لعدة قرون «مكاناً لدفن الغرباء».

ويتحدث الدكتور ج. إلدركمنج في وصفه لزيارة إلى الأرض المقدسة إلى الوقوف فوق البقعة التقليدية حيث شنق يهوذا نفسه على شجرة، في اليوم الذي حكم فيه بالموت على الشخص الذي خانه «هناك، تحت تلك الشمس المحرقة، كان الجسد معلقاً، وقد أصبح فاقداً للون ومتورماً، ولكونه ممتلىء الجسم في الغالب وبدينا، فبعد انقطاع الحبل، هوت الجثة وتدحرجت إلى أسفل التل، ككتلة بائسة في أقصى قاع الوادي». ثم يمضي الدكتور كمنج فيقول: «ياللحسرة! ياللحسرة على ضياع آمال شاب واعد، واليأس المرير لرجل كان متحمساً مندفعاً، وتحطم الرغبات الأنانية التي أصبحت أداة في يد عدو البشر، والكارثة المدمرة والمرئية لرجل قال للشر أنت إلهي! كم كان السقوط مدوياً، بالنسبة لشخص كان قريباً من الخلاص إلى هذه الدرجة، إى كان قريباً من المسيح».

ألا نتذكر تاريخ أخيتوفل عندما نفكر في يهوذا، الذي يُعامل في الأساطير الكنسية وفي الفن المقدس عادة كتجسيد للخيانة، وعدم الامتنان وعدم التقوى. إن شخصية وخيانة وانتحار يهوذا موصوفة في العديد من الأساطير خاصة في الكتب القبطية. أما بابياس فقد ذهب إلى حد القول إن يهوذا كان واحداً من أوائل المسيحيين الذين كتبوا العهد الجديد. أما دانتي، واحد من أعظم شعراء الماضي، لم يكن يخالجه الشك في ما يتعلق بالنهاية التي كان يستحقها يهوذا، لقد ساوى بين مصير الخائن ومصير كل من بروتوس وكاسيوس قاتلي يوليوس قيصر، في أعماق الجحيم.

يوحنا

نحن متأكدون من حقيقة أن يوحنا قد فاق كل الرسل الآخرين، وأنه نُفي إلى جزيرة بطمس بسبب شهادته للمسيح، وأنه قضي سنواته الأخيرة في أفسس، يعمل لتثبيت المحبة بين المسيحيين، وأنه مات خلال حكم تراجان، الذي بدأ سنة ٩٨م. ولكن قدراً كبيراً من السجل الأبوكريفي عن الرسول يوحنا يمكن رفضه باعتباره مشكوكاً في صحته. تخبرنا لائحة موراتوري عام ٧٥م أنه كتب الإنجيل الذي يحمل اسمه بناء على تحريض من إخوته في الخدمة. ويؤكد تاريخ الكنيسة أنه كان لديه ثلاثة تلاميذ عندما كبر في السن، أصبحوا مشهورين في الكنيسة الأولى، وهم بوليكاربوس، وبابياس، وأغناطيوس،

وجميعهم كتبوا عنه بحب، وشهدوا أنه كان محباً متواضعاً وصبوراً وطيباً حتى نهاية أيامه.

القصص المتداولة عن يوحنا كثيرة، لدرجة أنه يستحيل تقريباً أن نقرر إذا كان أي منها قد نبع من وحي الخيال أو مصدره الحقيقة. تقول إحدى الأساطير إن يوحنا اعتاد أن يرتدي فوق جبهته، مثل رئيس الكهنة في القديم، صدرة من ذهب، كان مكتوباً عليها «قدس للرب». من الواضح أن هذه القصة ما هي إلا تفسير حرفي لفضيلة القداسة المكتوبة على وجه الرسول. وهناك تقليد آخر يقول لنا إنه حُكم عليه أن يشرب كوباً من السم، إنه فعل ذلك، دون أن يعاني بالمرة. ومع ذلك هناك قصة أخرى تقول إنه حُكم عليه بالموت ودُفن، ولكن في نفس ذلك اليوم قام ثانية من القبر، وعاش كما كان من قبل.

وهناك أسطورة واسعة الانتشار تقول إنه بينما كان في روما، ألقي به في وعاء به زيت مغلي، وهذه من أشنع الميتات التي كان يتعرض لها المسيحيون في ذلك الوقت. تقول الأسطورة إن يوحنا ألقي به في الزيت المغلي بناء على أمر صادر من دومتيان، ولكن الله حفظ خادمه. لأنه لم يعان من أي عذاب بل أنه وجد أن الزيت المحرق تحول إلى حمام منعش كان يبدو أنه يجدد فيه شبابه، وبعد أن رأى دومتيان يوحنا يخرج مليئاً بالحيوية والقوة نسب إنقاذه إلى السحر، ولكن الخوف من إيمان يوحنا الذي حفظ ضحيته جعله لا يجرؤ على الحاق أي معاناة أخرى بالرسول، بل نفاه إلى بطمس، حيث بقي هناك حتى موت الإمبراطور، عندما عاد إلى أفسس. أقيمت كنيسة في المكان الذي أنقذ فيه يوحنا منذ أيام أوائل الأباطرة المسيحيين، سميت «القديس يوحنا في الزيت». ومنذ موته، اطلق اسم يوحنا على مئات الكنائس، تم تكريم القديس يوحنا في أماكن عديدة كالقديس الحامي لهم من قبل الطباعين، وصناع البراميل، وصناع الشموع والمصابيح.

أجمل وأمتع تقليد فيما يخص الأيام الأخيرة ليوحنا هو التقليد الذي يؤكد أنه كان يُحمل إلى ومن خدمات يوم الرب قبل وقت قصير من موته، فنظراً لأنه كان ضعيف الجسم بسبب بلوغه العام المائة من حياته، فكل ما كان يستطيع أن يفعله أن يقول هذه الكلمة الختامية لتلاميذه: «يا أولادي، أحبوا بعضكم بعضاً». وهكذا مات ميتة طبيعية على رجاء الغبطة الأبدية، ودُفن في أفسس. والشيء اللافت للنظر أنه على الرغم من أن التقاليد المحلية في أفسس مليئة بأخبار بولس ولوقا اللذين دُفنا هناك، إلا أنه لم يكن يذكر عن يوحنا سوى النذر اليسير كما لو كان ذلك يوحي بأن الروح الهادىء الخجول والذي كان يقوده دائماً إلى الانزواء والصمت كلما أتيح له ذلك، مازال موجوداً هناك.

قال معلم يوحنا: «تعلموا مني لأني وديع ومتواضع القلب».

وبسبب كبر سنه المفرط، فإن يوحنا الحبيب قد عاش بما فيه الكفاية ليشعر أن العالم قد أصبح موحشاً، مع رحيل جميع الذين أحبهم كثيراً، وقد عاش حتى كان يتوق كثيراً إلى التغيير الذي يأتي به وجهاً لوجه مع المعلم ثانية، وذلك الذي أحبه بشدة. وضع هيبوليتس أسقف بورتو، وتلميذ أكليمندس الاسكندري، يوحنا في نفس المنزلة مع أخنوخ وإيليا باعتباره لم يذق الموت، ولكنه انتقل فجأة من الأرض إلى السماء، هذه النظرية الخاطئة بأن يوحنا لم يمت قد بُنيت على فهم خاطيء لحديث ربنا مع بطرس بخصوص مصيره، ثم سؤاله ليسوع فيما يتعلق بنهاية يوحنا، باعتباره التلميذ الذي كان يسوع يحبه، ووبخ المعلم حب استطلاع بطرس بالقول: «إن كنت أشاء أنه يبقي حتى أجيء فماذا لك» فأساء الرسل فهم هذا الرد، ولذلك ذاع بينهم هذا القول «إن ذلك التلميذ لا يموت» ولكن يوحنا، الذي يسجل هذا الحوار (يو ٢١:٢١-٢٣). كان حريصاً

على تصحيح سوء الفهم هذا: «لم يقل يسوع إنه لا يموت، بل إن كنت أشاء أنه يبقى حتى أجيء فماذا لك؟».

نحن نقبل حقيقة أن يوحنا مات في ختام القرن الأول، وعند نهاية حياة هادئة انتقل من هذه الحياة بهدوء، ولكن قبره كقبر موسى، لا يعرف أحد مكانه سوى الله. قال دانيل ماكلين: «مات كما تغرب الشمس في أحد أيام الصيف، حيث تمدد قلبه كالشمس الغاربة». وتخلصت السحب من رعدها وهي تلحق بوهج الشفق ذي الضوء المتقد كما لو كانت المركبة النارية التي حملت إيليا إلى السماء قد عادت بعذوبة لترفع حبيب الرب إلى فوق. لقد توِّج العصر الرسولي، واختتم سفر الإعلان الملهم بعبارة قصيرة تردد صدى الوعد الذي سمعه التلاميذ عند الصعود «آمين تعال أيها الرب يسوع». وهكذا دخل يوحنا لكي يستمتع بما رآه مسبقاً في الفكر، وهو الآن يمشي مع المسيح وسط المنابر الذهبية».

كنا نود أن نذكر تابعين آخرين مشهورين للمسيح مثل مرقس، ولوقا، وتيطس، وآخرين ممن شربوا كأس الموت لأجل المسيح، ودخلوا بذلك في شركة آلامه، لو لم يكن الموضوع خارج دائرة الرسل، جميع الذين كانوا وثيقي الصلة بالمعلم أصبحوا شهداء، وظلوا بنعمته، أمناء حتى موتهم الأليم.

ملحـــــــق

قبل أن نختتم تأملنا الرائع في حياة وأعمال الرسل، هناك عدة ملامح شيقة يمكن أن نلفت الأنظار إليها، وقد صنفناها لفائدة القراء.

رموز رسولية

بسبب أحداث معنية في حياتهم أو سجلات تقليدية عن استشهادهم، أصبح التعرف على الرسل يتم عن طريق شارات أو رموز تضاف عادة إلى الصور والتماثيل الخاصة بالرسل.

الاثنا عشر

كانت هناك رموز كثيرة ترمز للرسل الأصليين كمجموعة وكأفراد. فعلى سبيل المثال، نقشت اثنتا عشر حمامة في إحدى اللوحات القديمة لتمثيل الاثنى عشر تلميذ في إشارة لكلمة ربنا عن إرسالهم كالحمام الوديع، وفي لوحة أخرى، تم نقش حمل بجوار كل رسول، أو تم نقش اثنى عشر حملاً – في إشارة أخرى لإحدى استعارات المسيح عن إرساله للتلاميذ كالحملان.

أندراوس

يقول التقليد أنه بينما كان أندراوس يكرز بالإنجيل في اليونان حكم عليه بالموت على صليب مستعرض، يمثل الحرف X، ولذا فهو معروف في كل مدارس الفن كرجل عجوز يستند على صليب بهذا الشكل، ممسكاً بالإنجيل في يده اليمني.

برنابا

ضمن الدائرة الأوسع للرسل، فإن برنابا، الناجح بشكل خاص ككارز بالإنجيل، يرمز إليه بكتاب مقدس مفتوح، عاش بموجبه وكان يجله. وقد صوَّره الفنانون حاملاً الإنجيل باليد، وعصا السياحة أو حجر في اليد الأخرى.

برثولماوس

عادة يُرمز إلى هذا الرسول، والمعروف أيضاً باسم نثنائيل بثلاث سكاكين لأنه سُلخ حتى الموت بسكين حاد.

يعقوب الكبير

بسبب أعماله في كومبوستيلا، يصور يعقوب هذا بثلاث محارات مروحية الشكل وعصا السائح، أو إناء من نبات القرع، لأنه كان يُعرف كالقديس الحامي للسياح. كانت المحارة المروحية الشكل يفترض أنها رمز السياحة وتمثل غيرة الرسول وروح الكرازة. سجل أرازمس أنه تم تبنِّي هذا الشعار لأن شاطيء البحر المجاور كان مليئاً بهذا النوع من المحار. كان السياح يستخدمون المحار كأكواب، وملاعق وصحون، وعند العودة إلى البيت، كان السائح يضع محارته المروحية في قبعته لينال الإعجاب وكان يتخذها كشعار للنبالة.

يعقوب الصغير

هناك رمزان يرتبطان بهذا الرسول، فهو يمثَّل أولاً بمنشار لأنه قيل إن جسده قد نُشر بعد استشهاد مروع. ويرمز له أيضاً بعصا القصَّار، لأنه قتل بضربة على رأسه بعصا، ضربه بها سمعان القصار.

يوحنا

يقول الكُتَّاب الأوائل إن يوحنا شرب مرة من كوب به

سم ولم يصب بسوء، ولذا فيرمز له بكوب مع حية مجنحة تطير منه، في إشارة للتقليد بشأن ارستوديموس، كاهن ديانا، الذي تحدى يوحنا بأن يشرب كوب السم. يقول التقليد الروماني الكاثوليكي إن يوحنا رسم علامة الصليب على الكوب فهرب الشيطان، على شكل التنين، منه، وبعدئذ شرب يوحنا الكوب دون أن يمسه ضرر.

يهوذا الإسخريوطي

يرمز للخائن بحقيبة لأنه كان أمين صندوق الرسل وكان يحمل الصندوق، «كان الصندوق عنده وكان يحمل ما يلقي فيه» (يو ١٢:٦). كم كان الصندوق خير شاهد على جشع يهوذا!.

متى

هناك رمزان يرتبطان بهذا الرسول الجذاب. يرمز إليه بثلاثة صناديق تشير إلى حرفته الأصلية كجابي للضرائب. ثم لأن الأسطورة تقول إنه قتل في نابادار بفأس. يُرمز لمتى ببلطة أو فأس.

متياس

يُرمز لمتياس الذي اُختير بواسطة الأحد عشر رسولاً ليحل محل يهوذا الذي شنق نفسه، بكتاب مقدس مفتوح فوقه فأس مزدوج النصل، في إشارة للتقليد بأنه رُجم أولاً ثم قُطعت رأسه بفأس بسبب ولائه للمسيح.

بولس

يُمثَّل الرسول المشهور إلى الأمم بطريقتين. أولاً، يُرمز إليه بسيف، لأن رأسه قُطعت بسيف. ويفخر مجمع ليزلا في أسبانيا بامتلاكه لهذه الأداة التي أرسلت بولس إلى السماء. ثم يُرمز إليه بكتاب مقدس مفتوح فوقه هذه الكلمات Spiritus Glodius «سيف الروح» وخلف الكتاب المقدس المفتوح يوجد رسم لسيف.

بطرس

هناك رمزان لهذا الرسول الذي أنكر ربه ولكنه مات لأجله. فهو يُرى ممسكاً بمجموعة من المفاتيح، لأن يسوع تحدث لبطرس عن «مفاتيح الملكوت» ثم يُصوَّر أحياناً بديك قريب، لأنه بكى بمرارة عندما سمع صياح الديك.

فيلبس

يُرمز للرسول فيلبس بسلة تحتوي على رغيفين، وعصا طويلة يعلوها صليب. يشير الرمز الأول لحديث فيلبس ليسوع عن إطعام الجمع الجائع (يو ٦:٧)، ويرتبط الرمز الثاني بالموت الذي اجتاز فيه بتعليقه من رقبته من عمود مرتفع.

سمعان الغيور

أولاً، يُرمز لهذا الشاهد الملتهب بكتاب فوقه سمكة، مما يدل على أنه عن طريق قوة الإنجيل أصبح سمعان صياداً للناس. ثم يمثل أحياناً بمنشار بسبب التقليد الذي يقول إنه نُشر حتى الموت في وقت الاضطهاد المريع.

تداوس

بسبب الأسطورة التي تقول إن هذا الرسول قد استُشهد بعكاز ثقيل، يرمز إليه بعكاز. نحن لا نستطيع أن نقرأ عن الآلام المريعة للرسل دون أن ندرك ما كلفهم ليكونوا أمناء للمعلم الذي أحبوه.

توما

عن طريق التمثال الذي أقامه ثوروالدش لتوما يمثله كرجل مفكر يمسك بمسطرة قياس في يده كالقديس الحامي للمهندسين المعمارين والبناة. عادة يرمز لتوما بزاوية النجار وحربة – تدل الزاوية على كنيسة بناها بيديه في الهند، وتذكرنا الحربة باضطهاده هناك، وكيف أن كاهناً وثنياً أغمد في جسده في ميليابور رمحاً أو حربة.

قداسة الرسل

طبعة الـA.V للعهد الجديد تضفي قداسة على كاتبيه، ولذا فالكتاب الأول هو الإنجيل طبقاً للقديس متى، وهلم جرا. ولكن طبعة الـR.V لا تستخدم لفظ «قديس» قبل اسم الكاتب. ولكن الرسل أنفسهم أول من يستنكر استعمال مثل هذا اللقب اللهم إلا إذا كان الاستعمال بمعنى أنهم، ونحن، جميعاً قديسون في المسيح يسوع. نحن لا نستطيع أن نتصور أن يوافق بولس على أن يدعي القديس بولس بالطريقة التي تستخدم بها بعض الكنائس هذا اللفظ. فقد فضل هو أن يطلق عليه لفظ «أول الخطاة» أو «أصغر جميع الرسل» فكل مؤمن حقيقي يدعي قديساً (١كو ١:٢). وكل المسيحيين المولودين ثانية قديسون، ولكن البعض أكثر قداسة من آخرين.

وبوصولنا إلى نهاية تغطيتنا لكل الرسل المذكورين في العهد الجديد، فإنه اختبار مجيد أن نمكث في صحبتهم لمزيد من الوقت. فنظراً لحميمة صلتهم بالمعلم، لابد أنهم كانوا على دراية جيدة بعنايته المهيمنة على أولئك الذين دعاهم لخدمته. إن أغلبيتهم جاءوا من أوساط متواضعة، وكانوا يتمتعون بقليل من الامتيازات فيما يتعلق بالثراء، والتعليم والهيبة، ولكن الذي قال «هلم ورائي فأجعلكما تصيران صيادي الناس» (مر ١:١٧)، جعل منهم ما انتهوا إليه في النهاية، أي رسلاً وشهداء الإيمان، وكوارثين لتواضعهم وشجاعتهم، ليتنا نثبت أننا صادقون وأمناء في عصرنا هذا، كما كانوا هم في عصرهم. وإذا لم نحصل على امتياز أن نلبس تاج الشهيد، كما لبس جميع الرسل على الأرجح، يمكننا – بل ويجب – أن نتزين بروح الشهيد. لقد اكتشف عدد كبير من الناس أنه من السهل نسبياً أن يموتوا لأجل المسيح. ولكن كان من الصعب أن يعيشوا كما أرادنا هو أن نعيش في وسط عالم شرير!

وكما أن المسيح هو هو أمس واليوم وإلى الأبد، فكل ما أنجزه في ومن خلال الذين اختارهم، هو قادر أن ينجزه في حياتك وحياتي إذا سلمنا له كل شيء. ولذا فعندما نودع تلاميذه الأوائل نحمده لأنه جعل:

أندراوس، محباً للنفوس.

وبرنابا، مثالاً للوكالة الأمينة.

وبرثولماوس، قاهر الوثنية في أقطار بعيدة.

ويعقوب، أول شاهد بالموت على يقينية الحياة الأبدية.

ويوحنا، المترجم الأمين لمحبة الله للإنسان، ومحبة الإنسان لله.

ومتى، الكاتب لإنجيل الملكوت.

ومتياس، الرسول الأمين في مناطق معزولة.

وبولس، الجندي الصالح ليسوع المسيح.

وبطرس، الكارز الشجاع بالمسيح لليهود.

وفيلبس، الشاهد الشجاع بين عابدي الحية.

وسمعان، زارع البذار في جزر بعيدة.

وتداوس، الرسول العملي في ممالك الشرق البدائية.

وتوما، الشاهد الواقعي، الذي عمل – وعاش – بزاوية النجار.

لقد استطاع يسوع أن يقول عن تابعيه المتواضعين، والأمناء والمضحين، «أنتم الذين تبعتموني في التجديد متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده تجلسون أنتم أيضاً على اثنى عشر كرسياً تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر» (مت ١٩:٢٨). ولأنهم تألموا لأجله، فلسوف يملكون لأجله، ومعه... ولكن مثل هذا المركز، مركز الملك والحكم ليس للرسل وحدهم. فقد أمر يسوع يوحنا أن يكتب قائلاً: «من يغلب فسأعطيه أن يجلس معي في عرشي كما غلبت أنا أيضاً وجلست مع أبي في عرشه» (رؤ ٣:٢١).

إن كلمة رسول، كما رأينا، تعني «شخصاً مرسلاً» وكل

من يخلصهم المخلص، يرسلهم إلى العالم ليكونوا واسطة لخلاص الآخرين. للأسف فإن عدداً كبيراً ممن خلصوا، يبدو أنهم نسوا العمل المرسلي، وبالتالي فهناك نفوس كثيرة في العالم بلا إله أكثر مما ينبغي.

الآباء الرسوليون

هذا لقب مجموعة من الكتاب المسيحيين في الحقبة اليونانية ولدوا قرب نهاية القرن الأول ومارسوا خدمتهم في القرن الثاني. يربط التقليد بين أكليمندوس وهرماس وبين بطرس، ويربط بين أغناطيوس وبوليكاربوس وبابياس وبين يوحنا. في البداية كان يطلق على هؤلاء الكُتَّاب لفظ «رجال رسوليون» وتم تداول لفظ «الآباء الرسوليين» في حوالي القرن السادس، بعد تطوير سلطة الآباء. وفيما بعد تم التوسع في اللقب ليشمل كُتَّاباً آخرين وسوف نكتفي بموجز سريع لأقدم هؤلاء الآباء. ولمعالجة شاملة لكل الرجال الرسوليين، نشير على القارىء باللجوء إلى كتب مثل «الآباء الرسوليون» بقلم أ.ج جودسبيد، وكتاب ر.م جرانت «الاحتكام إلى الآباء الأوائل». ويمكننا أن نجد تغطية كافية لذلك الموضوع في دائرة المعارف البريطانية.

أغناطيوس ٧٠-١١٥م، كان شاباً فيما بين الخامسة والعشرين والثلاثين من العمر عندما انتهت حياة الرسول يوحنا، كان هذا الأسقف الثاني على سوريا واحداً من أقدم الآباء الرسوليين، وكتب سبع رسائل ذات أهمية فريدة، اقتبس بوليكاربوس المعاصر له بعضاً منها، يقول التقليد إن أغناطيوس كتب هذه الرسائل وهو في طريقه للاستشهاد في روما. وأثناء سفره عبر سوريا في سلاسل صاح «أني سعيد بهذه الوحوش المفترسة» قاد تلهفه على الاستشهاد بعض العلماء إلى اعتباره مصاباً بمرض عصبي. وعندما وصل روما، وحاول بعض المسيحيين هناك أن يحولوا بينه وبين استشهاده، قال: «أنا قمح الله، دعوني أطحن حتى الموت بأسنان الوحوش المفترسة حتى أصبح خبز المسيح النقي».

بوليكاربوس، ٧٠-١٥٥م كأسقف على الكنيسة الواقعة تحت الاضطهاد الشديد في سميرنا، كان شخصية بارزة في الكنيسة الأولى. من المرجح أنه كان تلميذاً ليوحنا وصديقاً لمعاصرين آخرين لربنا، ولذلك كان له دور كبير في تطوير الكنيسة وأيضاً في وضع لائحة العهد الجديد. تعكس كتاباته أقوال المسيح، وتعليم بولس، بينما كان يعد لأن يُحرَق، كان المضطهدون يستحثونه لإنقاذ حياته بأن يسب المسيح، فكان رده الشهير: «لقد عشت خادماً لمدة ٨٦ سنة، دون أن يسيء إليّ إطلاقاً، فكيف يمكنني إذن أن أجدف على الملك الذي خلصني؟».

أكليمندس ٣٠-١٠٠م، أقدم الآباء الرسوليين، الذي قيل عنه أنه كان أسقفاً على روما. وهذا تقليد لا تقبله الكنيسة الرومانية. قرب أواخر القرن الأول، كتب أكليمندس مقالته الشهيرة إلى الكنيسة في كورنثوس مستحثاً أعضاءها المنقسمين على العودة إلى السلام والنظام الرسولي. اعتبر مسيحيو القرنين الثالث والرابع رسائله كتاباً مقدساً. إحدى رسائله تفتتح بهذه الكلمات: «إخوتي، يجب أن نفكر في يسوع المسيح كما نفكر في الله».

بابياس، ٦٠-١٥٠م، يقال إنه تلميذ آخر من تلاميذ الرسول يوحنا. في أوائل القرن الثاني خدم كأسقف على هيرابوليس في فريجية. كتب بابياس كتاباً عنوانه «تفسير الوحي الإلهي» استمد فيه بابياس قدراً كبيراً من المعلومات من رسائل بطرس، وشهد لإنجيل مرقس باعتباره أقدم الأناجيل الأربعة، كان بابياس أيضاً أول من يؤكد على أن متى كتب أحاديث ربنا بلغة عبرية.

ايرينايوس، ١٢٠-٢٠٠م، كان تلميذاً مخلصاً لبوليكاربوس، وأصبح أسقفاً على ليونز. كان مؤلفاً للكتابين

الهامين «ضد كل الهرطقات» الذي شهد فيه لكل العهد الجديد تقريباً، وتحديداً للأناجيل الأربعة، ثم كتاب «البرهان على التعليم الرسولي»، الذي أعطى فيه ايرينايوس للكنيسة «نوعاً من كتاب الجيب أو كتاب مرجع صغير» للمسيحي الذكي وفيه شرح إيمانه، أو كما دعاه «مذكراً بالأشياء الأكثر أهمية».

هرماس أحد الآباء الذين ولدوا في نهاية القرن الثاني، وأنتج كتاباً يعرف باسم «راعي الغنم» وهو عنوان مأخوذ من هيئة الملاك الذي ظهر له، وهو يحتوي على خمس رؤى، و١٢ «وصية» و١٠ «أمثال». كان يمثل نوعاً من المسيحية اليهودية التي يبدو أنها ازدهرت في روما خلال هذه الفترة.

وفي العقود التالية للقرن الثاني وأثناء القرن الثالث، ظهر كثيرون آخرون، وتكشف بعض كتاباتهم انحرافاً ملحوظاً عن مسيحية العصر الرسولي. حمل الآباء الرسوليون الأوائل شهادة واضحة للعهد الجديد، وخلال خدمتهم كان من الواضح أن الكنيسة كانت قوة روحية في العصر الجديد. وكان جوستن مارتر ١٠٠-١٦٥م الفيلسوف السامري الذي اعتنق الإيمان المسيحي على أساس المنطق، وبملاحظة ثبات المسيحيين في مواجهة الاستشهاد، كان كاتباً غزير الإنتاج، ووجه كتابين للإمبراطور الروماني دفاعاً عن المسيحيين وكتب أيضاً «حوار مع تريفو» برر فيه موقف المسيحية أمام الفكر اليهودي، ثم مات ميتة شهيد.

هناك آباء آخرون مثل تاتيان وترتليان، وأوريجانوس وكليمندس الاسكندري وسايبريان، وآباء عديدون من القرنين الثالث والرابع. الذين يمكن تتبع حياتهم في أي كتاب قيم مثل «الآباء الرسوليين» بقلم الأسقف لايتفوت أو الكتابين اللذين كتبهما سكاف Schaff عن «تاريخ الكنيسة». سوف يجد القاريء أن دراسة هذه الشخصيات البارزة من القرون الأولى عملاً جذاباً ومجزياً، خاصة في معالجتهم لكتابات أولئك الذين كتبوا العهد الجديد.

قانون الإيمان الرسولي

العقيدة التي كثيراً ما نرددها والمعروفة باسم قانون الإيمان الرسولي لم تظهر مع الرسل، ولكن أطلق عليها هذا الاسم لأنه يفترض عادة أنها خلاصة بعض التعاليم الأساسية التي علَّمها الرسل. وهذه الوثيقة بالذات هي أقدم قوانين الإيمان وهي أساس لكل قوانين الإيمان الأخرى. هناك أسطورة تقول إن قانون الإيمان تشكل بناء على أوامر من الاثنى عشر، الذين أضاف كل منهم عبارة، وهكذا فإن بطرس، بارشاد الروح القدس بدأ هكذا:

«أؤمن بالله الآب القدير» ثم أردف أندراوس أو يوحنا بالسطر التالي

«وبيسوع المسيح ابنه الوحيد، ربنا»

وعلى الرغم أن الرسل أشاروا بالتأكيد للكتاب المقدس كقانونهم للإيمان، إلا أن العقيدة التي تحمل هذا المسمى لم تتكون حتى القرن الخامس أو السادس. وتم قبولها في الكنيسة اللاتينية بشكلها الحالي حوالي القرن الثاني عشر.

في حوالي القرن الثاني كان هناك اعتراف ينطق به الذين يعتنقون المسيحية، لا يزيد عن هذه الجملة «أؤمن أن يسوع هو ابن الله». والكلمة عقيدة (أو قانون إيمان) Creed مستمدة من كلمة Credo بمعنى أؤمن. ومنذ وقت مبكر من تاريخ الكنيسة بدأت التعريفات الموجزة الثمينة القاطعة لتعاليم المسيح ورسله في الظهور. ومع أن لفظ عقيدة مستخدم على نطاق واسع الآن، ونحن نتحدث عن عقيدة سياسية أو عقيدة علمية... إلخ، إلا أن الكلمة ذات علاقة خاصة بالمسيحية، كموجز للحق المسيحي الذي نؤمن به، وشهادة لطبيعته غير المتغيرة.

وقد بُذلت الجهود لإبطال استعمال قوانين الإيمان، ولكن

الذين يتسمون بالأخلاق المسيحية الأصلية يبقون دائماً «الانعكاس الشفاف لفكر الكنيسة، والتعبير عن إيمانها الحيوي، ونبض حياتها الروحية. أما السبات الروحي الذي يشبه الموت في العصور الوسطى فقد كان مصحوباً بالكثير من الجدل، ولكنه لم ينتج أي عقائد إيمانية فالعقائد إذن هي ملامح هامة – علامات على الطريق في التاريخ، لكل من التعليم المسيحي والحياة المسيحية». والعقيدة الإيمانية للرسل كما تستخدم الآن تقول:

«أؤمن بالله الآب، القدير، صانع السماء والأرض
وبيسوع المسيح ابنه الوحيد ربنا
الذي حُبل به مَن الروح القدس
وُولد من مريم العذراء
وتألم على يد بيلاطس البنطي
وُصلب ومات وقُبر
ونزل إلى الهاوية (تعبير بمعنى القبر)
وفي اليوم الثالث قام من الأموات
وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الله
الآب القدير
وسوف يأتي ليدين الأحياء والأموات
أؤمن بالروح القدس
وبالكنيسة الجامعة المقدسة
وشركة القديسين
وغفران الخطايا
وقيامة الأموات
وحياة الدهر الآتي.
آمين

يا لهذه العقيدة الرسولية من خلاصة رائعة للإيمان المسيحي!

والتفكير في العقيدة على اعتبارها حاوية للحقائق التي علمها الرسل، يقودنا لذكر الديداخ، أو التعليم وهي كلمة مختصرة تعني «تعليم الرب من خلال كرازة الاثنى عشر إلى الأمم». وقد أشار إليه كليمندس الإسكندري بإعتباره كتاب موحى به من الله، ولكن أثناسيوس من آباء الكنيسة أيضاً، أنكر قانونيته، ولكنه اعترف بفائدته. إن هذا الكتاب لا يجاهر بأنه مكتوب بقلم الرسل، ووجهة نظره التعليمية تتبع يعقوب وليس بولس، ويبدو أن له أربعة أهداف:

١– تعليمي – التعليم المقصود به إعداد المرشحين للمعمودية

٢– تعبدي – تغطية العبادة والطقوس

٣– كنسي – يتضمن تعليمات لقادة الكنيسة – العادية والاستثنائية

٤– أخروي – يقدم نصائح وتحذيرات تحث على السهر انتظاراً للمجيء الثاني

الملاعق الرسولية

في القرن الخامس عشر تقريباً كان هناك طاقم من اثنى عشر ملعقة تعرف باسم ملاعق الرسل تحمل كل منها شكل واحد من الرسل في فمه يد الملعقة. وكانت هناك أطقم يتكون كل منها من ١٣ ملعقة عندما كان يستخدم شكل المسيح جنباً إلى جنب مع الاثنى عشر رسولاً. وكانت هناك أيضاً أطقم يتكون كل منها من أربع ملاعق، لتمثيل البشيرين الأربعة واحد على مقبض كل ملعقة. وكانت العادة أن تقدم إحدى هذه الملاعق كهدية للطفل الذي يعمد. وتباع الآن هذه الأطقم كهدايا.

بدع رسولية لرسل كذبة

من الطريف أن نلاحظ أن كلمة رسول Apostle وكلمة مرتد Apostate لهما نفس الأصل، فقد هاجم بولس أشخاصاً معينين شقوا طريقهم إلي الكنيسة، واصفاً إياهم بأنهم «رسل كذبة فعلة ماكرون مغيرون شكلهم إلى شبه رسل المسيح» (٢كو ١١:١٣). واللفظ اليوناني مقابل «رسل

كذبة» هو Pseudapastaloi واللفظ المقابل لكلمة رسل هو Apostoloi، بينما الكلمة الإنجليزية الفعلية لكلمة «مرتد» غير مستخدمة في العهد الجديد، وصيغتها اليونانية موجودة في عبارة «الرجوع إلى الوراء» التي كتب عنها بولس (٢تس ٢:٣). تنبأ يسوع عن الارتداد عن الحق (مت ٢٤:١٠-١٢) وكلمة «مرتد» تعني، الابتعاد عن - والرجوع إلى الوراء - والانسحاب، بينما تتضمن كلمة «رسول» شخص يتبع ويرسل. يعرف چوليان، الأمبراطور الروماني، ٣٣١-٣٦٣م، بأنه المرتد، فقد تربى كمسيحي، مع أنه على الأرجح لم يعتنق الإيمان المسيحي أبداً، وعند اعتلائه العرش سنة ٣٦١، أعلن اعتناقه الوثنية وتسامحه مع كل الديانات.

قد يكون ارتداد المرتد عن المسيحية فكرياً كما في تجربة ارنست هـ هايكيل Ernest.H.Haeckel عالم الأحياء الشهير والفيلسوف، ١٨٣٤-١٩١٩، والذي بسبب فلسفته المادية المتقدمة نبذ المسيحية والكنيسة علناً ورسمياً، أو ربما يكون الارتداد أخلاقياً وروحياً، كما هو الحال مع يهوذا الإسخريوطي، الذي من أجل الربح القذر سلم ربه بخسة.

وبالرغم من الاضطهاد الديني والاستعماري، والضغوط من كل الجوانب للانحراف عن حادة الصواب فيما يتعلق بمجال الخدمة المعطي للرسل من الله، فقد قاوموا بقولهم «سوف نهب أنفسنا للصلاة ولخدمة الكلمة». فبالصلاة، استطاعوا أن يلمسوا ربهم الجالس على العرش، والكرازة بالإنجيل من المؤكد أنهم لمسوا الجماهير الغفيرة من جهة كل تفاصيل الحياة الأبدية. ولذا فعندما نلقي نظرة أخيرة على الرسل ونحاول أن نقارنهم بالكثير من القادة العميان للعميان اليوم، فإننا نصلي بحرارة لأجل ظهور جيش كبير يسيرون في ركابهم.

إن الرجال الذين اختارهم المسيح لخدمته لم تكن هناك أي مظاهر خارجية تميزهم عن الرجال العاديين، فلم يكونوا يرتدون أي شارة رسمية، ولم يكونوا يحملون شعارات تدل على المنصب. وكان سر قوتهم في بساطتهم، وبقوة الروح القدس انطلقوا يقدمون خلاصاً جديداً لعالم هالك، وقوة جديدة، ومصيراً جديداً عن طريق الصليب وقيامة ربهم الذي كان لهم الكل في الكل. إن عصرنا أصبح يتميز بعصر الإطاحة «بالإيمان» مقارنة بالأيام السالفة، كما تنبأ المسيح بذلك (لو ١٨:٨).

قائمة بالمراجع

الوعاظ الطلبة الذين يرغبون في دراسة أوسع وأشمل للاثنى عشر رجلاً الذين اختارهم المسيح، سوف يجدون أنفسهم متخمين بالكتب عندما يبحثون عن مادة مناسبة عن كل واحد من الرسل، الذين يتم التعامل مع كل واحد منهم على انفراد في المعلومات الخاصة بسير حياتهم. فعلى سبيل المثال، المقالات المنفصلة عن أي واحد من هؤلاء الرجال في مؤلف عظيم مثل دائرة معارف الطبعة الدولية الموحدة للكتاب المقدس تقدم مساعدة نافعة في مجال الوعظ. ونفس الشيء يمكن أن يقال عن الكتب التي لا مثيل لها عن شخصيات الكتاب المقدس بقلم الدكتور الكسندر وايت، والمقالات المكتوبة عن أولئك الذين دعاهم المسيح في قاموس الكتاب المقدس للكاتب هاستنجر. وفي قاموس الكتاب المقدس المصور الصادر عن دار نشر زوندرڤان وانظر أيضاً كتاب المؤلف عن كل رجال الكتاب المقدس، ويقدم الأدب الخاص بتاريخ الكنيسة الأولى بالمثل للباحثين معلومات إضافية.

وهناك أيضاً كتب لاحصر لها تتعامل مع شخصيات الكتاب المقدس يمكن اللجوء إليها، مثل «متي لـ جلوڤر، وبطرس لـ ف.ب ماير، ويوحنا لـ جريفث توماس، وبولس لـ أ.و وايت – الرسول الفائق.